

جارميات

بحوث ومقالات الشاعر
والأديب اللغوى

علي الجارم

دار الشروق

جارِمِيّات

بحوث ومقالات الشاعر
والأديب اللغوى

علی الجارم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

آن يـــا شِعْــرُ أن تُغَنّى فـأرْسِلْ　　مِن قَـوافِيكَ مـا يَهُزُّ الـوُجُـودَا
أسْكِتِ الصَّـادِحـاتِ يَهْتِفْنَ فى الـدَّ　　وحِ وكُنْ فى عِشَـاشِهَـا تَغْـرِيـدَا
حَفِظتْ رَنَّـــةً وقَـــدْ رَدَّدَتْها　　فـابْعَثِ اللَّحْنَ جـارِمِيًّا جَـدِيـدَا

(على الجارم)

أيها القارئ الكريم

عندما كنت أجمع شعر الوالد المرحوم الشاعر الكبير على الجارم، لكى أعيد طبع ديوانه الذى قامت بطبعه «دار الشروق» فى طبعته الأولى عام ١٩٨٦، والثانية عام ١٩٩٠، وعندما كنت أعيد طبع قصصه النثرى الأدبى التاريخى وطبعته «دار الشروق» أيضًا فى كتاب «سلاسل الذهب» الذى صدر عام ١٩٨٩، وعندما قرأت كتاب «على الجارم باحثًا وأديبًا» للأستاذ المرحوم الشاعر الأديب اللغوى محمد الغزالى حرب، والذى قامت بطبعه ونشره دار الفكر العربى عام ١٩٨٨، أحسست بواجبى الملح فى أن أجمع تراثه البحثى اللغوى والأدبى والذى نشره فى المجلات الأدبية المختلفة فى ذلك العهد أو فى مجلة مجمع اللغة العربية، والذى كان عضوًا به منذ إنشائه عام ١٩٣٣، وحتى يكتمل نشر تراثه الأدبى كاملا من شعر ونثر وبحوث لغوية وأدبية فى المكتبة العربية، وحتى يطّلع الجيل الحالى على ما كتبه هذا العملاق الذى لا يتكرر، ونبين عظمة العهد الأدبى الذى عاشه ومدى ازدهاره، ولكى يسهل على دارسى الأدب إعداد دراساتهم وبحوثهم الأدبية أو التاريخية. وطالما تردَّدَتْ فى خاطرى وأنا أجمع هذه البحوث - أو هذه الكنوز - الأبيات التى رثى بها ثلاثة من أعضاء المجمع عام ١٩٣٩م، وهم المرحومون: أحمد الإسكندرى وحسين والى والمستشرق نلّينو الإيطالى، وأدركت مدى صدق ما قاله حينئذ على ما كنت أجمعه من تراثه:

أتُدفَنُ فى الأرضِ الكُنوزُ وفوقَها | خَلاءٌ إلى لألائِها جِدُّ مُمْلِقِ؟
ويَمضِى الحِجَا ما بينَ يومٍ وليلةٍ | كَلَمْحَةِ طَرْفٍ أو كَومْضَةِ مُبْرِقِ
يَضيقُ فضاءُ الأرضِ عن هِمَّةِ الفَتَى | ويُجْمَعُ فى لَحْدٍ من الأرْضِ ضَيِّقِ

وعندما أسترجع ما سَجّله بعض معاصريه فى كتاباتهم عن أدبه وعلمه ونبوغه، أشعر باللوم الذاتى الشديد لتقصيرى فى نشر هذا التراث حتى اليوم.

ففى كتاب «تيسير الكتابة العربية»(١) الذى نشره مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦م والذى يضم مُقترحىْ المرحومين عبد العزيز فهمى باشا وعلى الجارم بك عُضوىْ المجمع فى تيسير الكتابة العربية، جاء فى صفحة ٩٢ على لسان عبد العزيز باشا فهمى قوله: إنه (أى على الجارم بك) أستاذى وأستاذ غيرى فى النحو والصرف ورسم الكتابة غير منازع، والطاعة والتسليم واجبان له.

كما أشاد المرحوم الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه «على هامش السياسة»(٢) بكتاب النحو الواضح والبلاغة الواضحة، وحيّا المؤلفين الرائدين العظيمين لهذه الكتب (وهما المرحومان على الجارم بك ومصطفى أمين بك)، وهنأهما فى غبطة وارتياح بطريقتهما الفذّة المبتكرة فى التأليف والبحث لأنها طريقة تربوية مُشوّقة عمادها الأول: «إيراد الأمثلة الحديثة التى يجدر بالتلميذ أن يستعملها فى أحاديثه وشرح هذه الأمثلة ثم استخلاص القاعدة أو القواعد منها وهى طريقة بيداجوجية حديثة».

ويقول الأستاذ إبراهيم مصطفى مؤلف كتاب «إحياء النحو»(٣): أراحت كتب النحو الواضح مئات من المعلمين ويَسّرت على ألوف من المتعلمين، وأزاحت عن هذا العلم ـ علم النحو ـ سُحبًا من النفور والكراهية كانت تحيط به وتصد المتعلمين. ثم شاعت فى البلاد العربية وصارت كالمنهاج لتعليم النحو، وأحدث أسلوبها فى الشرح والتأليف مدرسة أخذ المتعلمون يتبعونها يؤلفون على مثالها محاكين أو مقلدين.

وجاء فى تقديم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد لديوان على الجارم(٤) قوله: فهو أديب وافر المحصول من زاد الأدب أو زاد الرواية الأدبية من قديمها إلى حديثها ومن مبتكرها إلى منقولها، وهو عالمٌ باللغة وعالمٌ مع اللغة بفنون التربية وفروعها، وهو الشاعر الذى زَوّده الأدب والعلم بأسباب الإجادة والصحة فكان شعره زادًا لطالب البيان فى عصره ومثالا صالحًا للثقافة التى أسهم فيها بأدبه وعلمه.

---

(١) يوجد هذا الكتاب فى مكتبة مجمع اللغة العربية.
(٢) كتاب على الجارم باحثًا وأديبًا للأستاذ محمد الغزالى حرب. نشر دار الفكر العربى عام ١٩٨٨ ص ١٩.
(٣) كتاب على الجارم باحثًا وأديبًا للأستاذ محمد الغزالى حرب. نشر دار الفكر العربى عام ١٩٨٨ ص ١٨.
(٤) ديوان على الجارم. الطبعة الثالثة. الدار المصرية اللبنانية.

وجاء فى كلمة الأستاذ المرحوم أحمد العوامرى بك عضو مجمع اللغة العربية فى رثائه للمرحوم الجارم قوله[1] : «كان عضـوًا ناشطًا فى مـؤتمر المجمع ومجلسه ولجانه، قـويّ الحجة ساطع البرهـان، تسعفه ذلاقة لسـان، وقوة بـديهه، وشِدّة عـارضة، وتـزينه تـؤدة فى القول، ورزانـة عند الجدل، وهـدوء فى النقاش، وكـان ـ رحمه الله ـــ من دعائم «لجنـة الأصول» وهى اللجنة التـى زوّدت المجمع ـ ولاسيما فى عهده الأول ـ بـالقواعد التى يقوم عليها التعـريب والاشتقاق، والتضمين والنحت والقياس، إلى غير ذلك. وأعضاء هذه اللجنة يتوفرون على دراسة كتب الأئمة وأقوال المجتهدين فى اللغة، ويستخلصون منها مـا ييسِّر عمل اللجان الأخرى، كلجنة الطـب ولجنة الطبيعة، ولجنة الكيميـاء، إلخ . . . وكان ذلك يقتضى عناءً، ويقتضى سهرًا ومـراجعة دقيقة. وكم كان للجارم فى هـذه اللجنة، وحول تلك المباحث والأصول، فى جلسات المجمع من أخذ ورد. وكم كان له فيها من محاورات ممتعة ومناقشات شائقة. فلم يكن من أصل إلا له فيه دراسة، ولا قاعدة إلا له فيها كلام. والمتتبع لمحاضر المجمع منذ إنشائه يعجب لما للجارم فيه مـن نشاط متصل وما له من جهد دائب فى كل ما تنـاوله من بحوث وما انتهى إليه من قرارات.

وجاء فى كلمـة الأستاذ أحمد أمين بـك عضو مجمع اللغـة العربية فى رثـاء الشاعـر على الجارم بك قوله[2] : «وكان ـــ رحمه الله ـ ذوّاقًـا طروبًا، يتـذوق المعنى الجميل والفكرة البديعـة والنكتة الـرائعة، فيطرب لها أشـد الطرب ويشيع طربـه فى كل من يجالسه. ولـه حكم صائب على ما يقـرأ وما يسمع، يُقوِّمه تقويمًا دقيقًا وينقده نقدًا صحيحًا. ثم هو لا يتعصَّب لرأيه، فإذا سمع ما يخالفه أصغى إليه فى أناة، وفكـر فيه فى سماحة، وإذا اقتنع بصـوابه أعلن عدوله عنـه فى صراحة. له أثـر كبير فى كل هيئة ينتسب إليها، وفى كل عمل يتجـه إليه. اتجه إلى تبسيط النحو والبلاغـة فبسطها فيما ألَّف من كتب. وكان حـركة دائمة فى المجمع اللُّغـوى؛ يشترك فى وضع المعجم الوسيط، ويشرف على إخـراج مجلَّته، ويساهم مساهمة فَعَّالـة فى أكثر لجانه. وآخر ما فعل فيه إلقـاؤه محاضرة قيِّمة عن الموازنة بين الجملة فى اللغة العربية وفى اللغة الأوروبية، والسبب فى أنها أكثر ما تكون فِعليَّة فى الأولى واسميَّة فى الثانية، ثم مناداته القوية فى إصلاح الإملاء. واشترك فى لجنة مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية، فكان من أكثر الأعضاء عملاً ونقدًا واقتراحًا وإصلاحًا.

وقد جمعت مـادة هذا الكتاب الذى يشتمل على المقـالات والبحوث التى نشرها الشـاعر والأديب والعالم اللغوى المرحوم على الجارم مُرتَّبة ترتيبًا تـاريخيًّا. ولا يفوتنى أن أشكر العالم الأديب الأستاذ محمد مهدى علام نائب رئيس مجمع اللغة العربية لتشريفه هذا الكتاب بكتابة مقدمته.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد السابع عام ١٩٥٣م.
(٢) مجلة الثقافة عدد فبراير ١٩٤٩م.

ولا يسعنى وأنا أختم هـذا التقديم سوى أن أستعير قـوله[1] فى دار العلـوم عـام ١٩٢٧م، وهى الكليـة التى ارتبط بها دارسًـا ثم أستـاذًا فعميدًا حتـى أن وصل إلى المعاش لبلـوغـه سن الستين عـام ١٩٤٢م:

فكأنّـى أرى الـزمـان وقـد دا ... ر وعـاد الصِّبـا نضيرَ الإهـابِ
وأرى الجارمَ الفتِيَّ يقـودُ الـ ... حشـدَ فى جَحْفَلٍ من الطُّـلابِ
واثِبًـا لاهِيًـا لعـوبًـا ضَحـوكًـا ... غيرَمـا واجِلٍ ولا هَيَّـابِ
واثِقًـا بـالإلـهِ، ليس يَـرَى الصَّعْـ ... ـبَ سوَى أن تهابَ خَوضَ الصِّعابِ
فهْـو كـالطـائرِ الطَّليقِ فحينًـا ... فى وِهـادٍ ومـرةً فى هِضـابِ
عـابِثٌ بـالغصُـون فى ظِلِّ رَوْضٍ ... حَـاكَ أفْـوافَـه مُلِثُّ الـرَّبـابِ
يحمِلُ الكُتْبَ فى الصَّبـاح ولـلآ ... مـالِ فى صَـدرِهِ تَئيجُ العُبـابِ
رَأْسُـهُ رأس مـالِـه، وامْتِلاءُ الـرَّ ... أسِ خَيرٌ من امتـلاءِ الـوِطـابِ

أستاذ دكتور أحمد على الجارم

القاهرة مارس ١٩٩٠

---

(١) ديوان على الجارم الطبعة الثانية. دار الشروق عام ١٩٩٠ ص ١١٨ .

مقدمة

للأستاذ الدكتور محمد مهدى علام
نائب رئيس مجمع اللغة العربية

على الجارم
صاحب هذا التراث

كنت فتى فى السادسة عشرة، يملؤنى الأمل، ويشجعنى على الإقدام، توفيق من الله تعالى فى سنوات دراستى الابتدائية والثانوية، حتى ذلك اليوم الذى تقدمت فيه لامتحان المسابقة فى القبول بدار العلوم (نوفمبر ١٩١٦). وكان نظام القبول فيها امتحانًا تحريريًا، فى فروع اللغة العربية، والمواد الاجتماعية، ثم شفويًا فى القرآن الكريم، وألفية ابن مالك حفظًا وشرحًا، والقراءة فى كتاب من كتب التراث، واختبار فى المعلومات العامة.

وعند ظهور نتيجة الامتحان التحريرى، وفق الله تعالى فكنت أول الناجحين، وتوجهت إلى لجان الامتحان الشفوى على الترتيب السابق. وسعد الفتى العاشق لدار العلوم بحصوله على أعلى الدرجات فى المادتين الأوليين، وانتقل متهللاً إلى اللجنة الثالثة، وكان عضواها الأستاذان عثمان بك لبيب، وعلى الجارم. وجلست أمامهما أرد على أسئلتهما (أو بالأحرى أسئلة الأستاذ الجارم). ثم ناولنى نسخة من كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردى، فقرأت منه قدرًا يزيد على صفحة لم أخطئ فى كلمة منها. فقال لى الأستاذ الجارم: هذا كاف، ثم اتجه إلى عثمان بك لبيب، قائلا له بالإنجليزية: (Thirty seven)، فقلت له، فى جرأة الشباب، والثقة بالنفس: ولماذا تنقصنى ثلاث درجات وأنا لم أخطئ فى أى شىء؟ (النهاية العظمى ٤٠) فقال: أنت تعرف الإنجليزية، يا ولد! قلت: نعم. فضحك قائلا: اذهب فهذه درجة لم يحصل عليها أحد منى قط.

كان هذا أول لقاء لى مع الأستاذ الذى كان يملأ المجتمع المصرى يومئذٍ بشهرته الأدبية والشعرية .

وبعد أن عرفت أنه الجارم العظيم عدت إلى بيتى ، وأعدت قراءة قصيدته التى كانت منشورة فى عدد قديم من أعداد مجلة (الهلال) وهو طالب بعد ، وكانت ضمن مجموعة من المجلات التى كانت فى بيتنا إبَّان صباى . وكانت عن (الكوليرا) التى انتشرت فى أوائل هذا القرن . كنت أحفظها قبل أن ألتقى بقائلها . ولو كنت أعلم من هو يوم أن جلست أمامه ليمتحننى ، لأبلغته إعجابى (إعجاب فتى شاعر) بقوله فى تلك القصيدة ، مشيرا إلى تشبيه الأطباء لمكروب (الكوليرا) بحرف الواو :

لستَ كالواو ، أنت كالمنجل الحصاد ، إن أحسنوا لك التمثيلا

كم فتاة طرقتها ليلة العُرسِ ، وقبلَ الحليل كنت الحليلا!

يا أخا الاحتلال ، آذيت بالنفس وبالمال ، فالرحيلَ الرحيلا!

وبقيت الفترة المتبقية على بدء الدراسة (كان نظام «دَنْلُوب» المستشار الإنجليزى يقضى أن يبدأ العام ، فى دار العلوم ، فى أول يناير ، وأن يكون الامتحان النهائى فى ديسمبر) ، وأنا أتطلع إلى أن أنعم بأستاذية الرجل الذى علمت عنه بعد يوم الامتحان أنه لا يمنح الدرجة العظمى إلا نفسه ؛ ولكن كان قد نُقل مفتشًا بوزارة المعارف قبل يناير ١٩١٧ .

وفى الفترات التى كانت بين المحاضرات كنت أسمع الطلاب القدامى يتناشدون قصيدته التى كانت بعنوان «الحب والحرب» ، والتى مطلعها :

مالى فتنتُ بلحظك الفتاك!   وسَلوتُ كل مَليحةٍ إلَّاكِ!

وكنا نتبادل النصوص والمذكرات التى ندرسها ، بطبعها على ما كان معروفًا ، فى ذلك الوقت ، باسم مطبعة الغِراء (البالوظة) . ونسختى التى كانت من نصيبى من «الحب والحرب» لا تزال عندى بين أوراقى التى تسجل هذه المرحلة من حياتى .

وقبل أن أترك «مالى فُتنتُ بلحظكِ الفتاك» أذكر أننى بعد تخرجى وعودتى من إنجلترا ، كنت أمتحن طلبة (البكالوريا) ـ شهادة إتمام الدراسة الثانوية ـ شفويًّا ، فى القراءة والنصوص الأدبية (كان النظام يقتضى أن الذين ينجحون فى الامتحان التحريرى يمتحنون شفويًّا قبل إعلان النتيجة النهائية) . وسألت أحد الطلاب عما يحفظ من الشعر ، فانطلق مبتهجًا : . . . وقالت الآنسة أم كلثوم :

مالى فتنتُ بلحظك الفتاك!   وسَلوتُ كل مَليحةٍ إلَّاكِ!

فقد كانت أم كلثوم قد غنت جزءًا كبيرًا من هذه القصيدة ، وكان صوتها يسمع من الأسطوانات التى سُجلت عليها ، من نوافذ البيوت فى ليالى الصيف .

وقد لقيت الأستـاذ الجارم، بعد امتحانه لى بنحو العام، فى حفل تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله، أول من عُيّن كبيرًا (عميدًا) للغة العربية فى وزارة المعارف. كنت يوم هذا اللقاء طالبا فى دار العلوم، وفى يوم التأبين اختاروا أوائل الفرق الدراسية، فذهبت لحضور الحفل الذى أقيم فى القاعة الكبرى (بدرب الجماميز)، وهى القاعة التى نشأت فيها (دار العلوم)، يوم أسسها على مبارك باشا، باختيار عدد من نوابغ طلاب الأزهر، ليتلقوا العلوم العربية والشرعية والفنون الحديثة فى تلك القاعة. (ويحل محل المكان الآن المدرسة الخديوية بمبانيها التى فيها يسمى الآن شارع بورسعيد).

وفى ذلك الحفل برياسة عدلى يكن باشا، وزير المعارف يومئذ، وعِلية القوم من علماء وأدباء، سمعت الجارم حين صعد إلى منصة الخطابة، وبدأ يقول:

رُبَّ وَرْقاء هَتوفٍ فى الضُّحَى   ذاتِ شجوٍ صَدَحتْ فى فَنَنِ

وبعد هذه القطعة القصيرة من الشعر المأثور، أفاض بخطبته الفريدة، البارعة النسج. وظل السؤال الطبيعى معلقًا فى ذهنى نحو عشر سنوات: لماذا لم يقل الجارم يومئذ شعرًا؟ حتى أتيح لى شرف الجلوس معه ومحادثته، فسألته عن سر اتجاهه إلى النثر، بدل الشعر، فى تلك الحفلة الخالدة، فقال لى: إنه كان يومئذ مفتشًا ناشئًا، لم يمض عليه فى وظيفته إلا بضعة أشهر. ويبدو أن القائمين على إعداد برنامج الحفل الذى كان فيه كبار الشعراء، وفى مقدمتهم حفنى بك ناصف ولم يذكروا (الأستاذ الجارم) إلا فى الليلة السابقة ليوم الحفل؛ ولذلك ـ كما قال لى: خشيت أن أتعجل بقصيدة لا تضارع قصائد الحفل، فلجأت إلى لغة الخطابة. وهى منشورة فى صفحات هذه المجموعة: رائعة من روائع الأدب العربى، تجمع بين جهارة اللفظ العباسى ورقة العصر الحديث.

وكان من حظى أن أدرس فى جامعة إنجليزية، كان قد سبقنى إليها بأربعة عشر عاما. وكنت مولعًا بالشعر الإنجليزى، ألقيه فى حفلات الاتحاد الجامعية، وندوات الأدب؛ ولا أنسى وسامًا شفويًا أهدته لى الأستاذة «وُوكَرْ» التى كانت فى الجامعة منذ أيام دراسة الجارم، لقد فاجأتنى، على إثر إلقائى لإحدى قصائد الشاعر «ووردزورث» بقولها: أنت تذكرنى بإلقاء الجارم.

ويشرف هذه المقدمة أن أذكر فيها علاقتى بدراسته لعلم النفس، وهى مادة تخصصه الأولى، كما كانت لى كذلك مادة تخصصى الأولى (قبل أن تحتوينى اللغة والأدب، دون عقوق «للحبيب الأول»):

لقد درست علم النفس، طالبًا فى دار العلوم، فى أحد كتبه التى اشترك فيها مع زميله، أستاذى العلامة مصطفى أمين. وهو أول تأليف بالعربية فى علم النفس ـ وما سبق ذلك كان فى علم التربية ـ وكانت فصول هذا الكتاب «علم النفس» بينهما، كل فصل بقلم أحدهما، بعد اشتراكهما فى تحديد

المعلومـات التى يعالجهـا الفصل. وكنت أنا وزميلى، الـذى كان يشاركنى فى معظـم نشاطى العلمى (المرحوم عبد الجواد معوض زيـدان)، نقارن أسلوبين فى فصول هذا الكتاب، فكـانت بعض فصوله تتدفق أدبًا رفيعًـا يعبر عن حقائق علم النفس كأنهاخطرات شاعر؛ على حين كـانت الفصول الأخرى تلتـزم بدقـة الأسلوب العلمى الـذى يكاد يـزن الحرف قبل الكلمات، ويعطى الحقائق العلميـة كأنها معادلات رياضية، وكان صـاحب الأسلوب الأول هو الشاعر الأديب، الضليع فى علم النفس، على الجارم؛ وكان صـاحب الأسلـوب الثانى هـو العالم الأستاذ فى مـادته، يعبر عنهـا فى أدق الصيغ، لا يستهويـه بيت شعر مثلاً يكـون معبرًا عن المعنى الذى يكتب عنـه، كما فعل زميله الجارم عندمـا كان يتكلـم عن أثر الوحدة فى الشخصية فإذا ذاكرته تملى عليه قول الشاعر:

يا لَيتَنـى وأنتِ، يـا لَـمِيسُ،

فى بلـدٍ ليـس بـه أنيـسُ،

إلا اليَعافيـرُ وإلا العِيـسُ

كان المرحوم مصطفى أمين يـرى أن لليعافير والعيس مادة أخرى، يتكلم عنها فى مـوضعها. وقد عاش نموذجًا للدقة البالغة.

وظهـرت إحـدى طبعـات كتـاب علم النفس، وقـد كتب على رأس كل فصل من فصـولـه، فى الفهرس، اسم كاتبه. وعند اطّلاعنا على ذلك وجدنا أن ما قدرناه كان صوابًا.

ولهما كتابان آخران، هما: النحو الواضح، والبلاغة الـواضحة. وعندما أنظر فى هذين الكتابين، أشعر بهذه الظـاهرة متمثلة فى الشواهـد والأمثلة التى توضح كل قاعـدة نحوية أو بلاغيـة: فإذا هذه الأمثلة مزيج من حقائق الكون العلمية، وروائع الأدب الباهرة. فيها تعانق العلم والأدب.

وكما أن أثر الأدب والشاعـرية قد جمّل العبارات العلميـة فى أسلوب الجارم، لاحظتُ أن تخصصه الأول، وهو علم النفس، لم ينعزل عن طبيعته الأدبية حين يكتب فى موضوع علمى أدبى، كما نرى فى أحد بحـوثه المنشورة فى هـذه المجموعة تحت عنـوان «المعارضـات الشعرية»؛ فإنـه يمهد لهذا البحث بدراسة سيكولوجية عن المنافسة التى هى منشأ الشعور بالرغبة فى المعارضات. يقول صاحب الفصل الذى كتب فى كتاب علم النفس عن «الغرائز»:

«غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيـوانية، وهى فى الإنسان أبين منها فى الحيوان وأظهر أثرًا، لأن الإدراك يزيدها قوة، ويستحثها إلى البروز والظهور. وإذا كـانت فى الحيوان غريزة عمياء، تصدر عن دافع آلى ولا تتجه إلى غـاية، ولا تعمل إلا عملاً تسوقهـا إليه الفطرة من غير قصـد، فإنها فى الإنسان غريزة مبصرة متعمدة، تعرف ما تأتى وما تذر، وترمى إلى هدف منصوب، وتركض لتناول القصب فى ميدان سباق الحياة».

«وتظهر المنافسة فى أنواع الحيون المنحط الإدراك فى التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به . . . هذا شيء مشاهد فى الحيوان لا مرية فيه ولا شك . . . أما غريزة المنافسة فى الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل . . . » .

ويستمر عالم النفس الأديب إلى أن يصل إلى ربط غريزة المنافسة بغريزة المحاكاة ، وبغريزة الإحساس بالنقص . . . حتى ينتقل إلى موضوعه الأدبى العلمى .

وليس هذا إلا مثالاً واحدًا مما نجده فى بحوثه التى يحتضنها علم النفس .

لقد سألنى أحد النقاد ، منذ سنوات عدة ، عن السبب فى أن خريجى دار العلوم الذين أتموا دراستهم فى إنجلترا لم يظهر لهم نقد فى أحضان الدراسات النفسية ، وذكر أن أول ما صادفه فى هذا الميدان بحوث وكتب لى . فأجبته بما هو فى الحقيقة نتيجة ملاحظة لى : وهو أن الذين يتجه نقدهم إلى التحليل السيكولوجى ـ من هذا الرعيل الذى أشار إليه ـ هم الذين كانوا شعراء إلى جانب أنهم كانوا من علماء النفس ، وذكرت له أننى أعرف منهم ثلاثة تحقق ذلك فيهم : أولهم على الجارم ، وثانيهم محمد خلف الله أحمد ، «ولا تزكوا أنفسكم» .

وبعد ، فذكرياتى عن الأستاذ الرائد كثيرة ، وهذه ليست إلا مقدمة قصيرة لهذه المجموعة من تراثه الذى جمعه ابنه البار ، الدكتور أحمد على الجارم ، الأستاذ بكلية الطب بجامعة القاهرة .

وأخيرًا ، فهناك عبارة كانت على لسانى دائمًا ، كلما اجتمع رعيل الدرعميين ، وهى تُلَّح علىّ فى الظهور الآن . وأنا أذكرها ــ على استحياء ـ لأننى كنت شديد الملاحظة لعشرات الأساتذة الأفاضل الذين أتموا دراساتهم العليا فى إنجلترا ، حين ينطقون أو يتكلمون الإنجليزية ؛ وكنت أقول (ومعذرة لهم جميعًا) : لم أجد أحدًا ما زالت لغته الإنجليزية أسلوبًا ، ونبرًا ، وتدفقًا ، كأنه عاد من إنجلترا أمس ، سوى اثنين : على الجارم ، وعبد الحميد حسن . رحمهما الله ، وأعز بذكراهما عشرات ، بل مئات من تلاميذهم(*) .

المعادى ١٦ من شعبان ١٨٠٤ هـ

٢ من مارس ١٩٨٨ م

مهدى علام

(*) من أراد سيرة وافية عن الأستاذ الجارم ، فله سيرة فى كتاب «المجتمعيون فى خمسين عامًا» لكاتب هذه المقدمة .

تقديم الطبعة الثانية
بقلم الدكتور أحمد على الجارم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وخاتم المرسلين. وبعد.

فقد خصنى الله بفضل عميم لا أستطيع له ردًا، وبخير كثير أعجز عن استيفائه حقه من الشكر والعرفان؛ إذ مكننى سبحانه وتعالى من إعادة طبع تراث الشاعر والأديب والعالم اللغوى المرحوم على الجارم من شعر فى «ديوان الجارم» ومن قصص أدبى فى كتاب «سلاسل الذهب» ومن مقالات وبحوث أدبية ولغوية فى كتاب «جارميات» مُفَوِّتًا على جبهة الحقد التى سيطرت على مقدرات الأدب فى مصر خلال الثلاثين عامًا التى تلت وفاة الجارم عام ١٩٤٩ تدبيرها و«مؤامرة الصمت» على شعره وأدبه، تلك المؤامرة التى يشرحها الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى فى كتابه «الجارم شاعر العروبة» ص ٩٦ قائلاً: أخشى أن تكون عروبة الجارم وإسلاميته وتصديه لأعداء العربية أهم أسباب هذا الهجوم الظلوم.

ولما آن لهذه الظلمة أن تنقشع، ولهذا الظلم أن يتولى ويرتحل وتتخلص مصر من هذه الوصمة السوداء بنهاية عصر البطش والطغيان، أخذت على عاتقى أن يأخذ تراث الجارم مكانه اللائق بأصالته ومكانته فى المكتبة العربية، وقد ساعدنى على ذلك أناس فضلاء أخشى أن أذكر أسماءهم فتخوننى الذاكرة وأنسى اسم أحد منهم، فلقد كانوا جميعًا شرفاء غاية الشرف وأمناء كل الأمانة

وصادقين كل الصدق، فقمت بإصدار الطبعة الثانية من بحوثه ومقالاته الأدبية بعد أن وصل عددها إلى ستين بحثًا فى الطبعة الثانية، بعد أن كانت خمسة وثلاثين فقط فى الطبعة الأولى - كلها منشورة ومدونة حسب تاريخ نشرها .

وعند قراءتك لهذا الكتاب فى طبعته الجديدة - أيها القارئ الكريم - سوف تجد بحوث الجارم اللغوية التى قدمها إلى مجمع اللغة العربية شاهدة له بمقدرته وتفرده وتمكنه من علوم العربية جمعاء، ثم تقرأ دراساته ومقالاته الأدبية التى تصور المناخ الأدبى المزدهر لمصر فى المرحلة التاريخية التى عاشها هو وأقرانه من الأدباء والشعراء والعلماء الذين وصفهم قائلا عام ١٩٤٥ :

فَشَدونَا عَنادِلاً هَزَّتِ الدَّهرَ ... وكَادتْ تُلهِيهِ عَنْ حَدَثانِهْ
وصَحَا الشَّرقُ ناشِطًا يَجْبَهُ الدُّنيَا ... وينْفِى النُّعاسَ عَنْ أجْفانِهْ
وكَتَبْنا فى رَوعَةٍ وبيانٍ ... يُقْسِمُ السِّحرُ: إنَّهُ من بَيانِهْ
مِنْ إمامٍ وشَاعِرٍ وأديبٍ ... مُعْجِزاتُ الفُنونِ طَوعُ بَنانِهْ

دكتور أحمد على الجارم
المعادى - فبراير ٢٠٠٠

مرسوم (*)

بتعيين الأعضاء العاملين لمجمع اللغة العربية الملكي

نحن فؤاد الأول ملك مصر

بعد الاطلاع على المرسوم الصادر بتاريخ ١٤ شعبان سنة ١٣٥١ (١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢) بإنشاء مجمع اللغة العربية الملكي؛

وبناء على ما عرضه علينا وزير المعارف العمومية، وموافقة رأى مجلس الوزراء؛

رسمنا بما هو آت:

مادة ١ ـ يُعيَّن أعضاءً عاملين بمجمع اللغة العربية الملكي كل من:

محمد توفيق رفعت باشا.

حايم نحوم أفندى.

الشيخ حسين والى.

الدكتور فارس نمر.

الدكتور منصور فهمى . . . عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية.

الشيخ إبراهيم حمروش . . . شيخ كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر.

الشيخ محمد الخضر حسين . . . الأستاذ بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر.

(*) نقل بنصه.

أحمد العوامرى بك . . . المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية .

على الجارم أفندى . . . مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف العمومية .

الشيخ أحمد على الإسكندرى . . . أستاذ اللغة العربية بمدرسة دار العلوم .

الأستاذ هـ. أ. ر. جِبّ . . . بمدرسة لندن للدراسات الشرقية .

الأستاذ الدكتور ا. فيشر . . . بجامعة ليبزج .

الأستاذ ا. نلّينو . . . بجامعة روما .

الأستاذ م. ماسينيون . . . بجامعة فرنسا .

الأستاذ ا. ج. فنسنك . . . بجامعة ليدن .

محمد كرد على بك .

الشيخ عبد القادر المغربى .

الأب أنستاس مارى الكرملّى .

عيسى إسكندر المعلوف أفندى .

السيد حسن عبد الوهاب أفندى .

مادة ٢ ـ على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم .

صدر بسراى المنتزه فى ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٥٢ (٦ أكتوبر سنة ١٩٣٣) .

فـؤاد

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

عبد الفتاح يحيى

وزير المعارف العمومية

محمد حلمى عيسى

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد حسني مبارك

من محمد حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية

إلى أسرة المرحوم الأستاذ علي الجارم، رائد الشعر

والقصة في الأدب العربي الحديث

تقديراً لما اتصف به المرحوم فقيدكم من حميد الصفات وما قدمه للدولة

من جليل الخدمات قد منحناكم وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى

وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذاناً بذلك .

تحريراً بقصر الجمهورية بالقاهرة في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر

لسنة ألف وأربعمائة واثني عشر من هجرة خاتم المرسلين

٣ نوفمبر ١٩٩١

رئيس ديوان رئيس الجمهورية

زكريا عزمي

التشطير العصرى (*)

قامت بيننا ناشئة الشعر الحديث لتشييد دعائم الشعر وتقويمه بعد الاعوجاج، وتطهيره مما لطخه به دعاة الزور وأئمة الباطل الذين ألهتهم الإبل الشذقمية عن الحديث فى البخار والكهربائية. أغلقوا باب الشعر عليه وصفّدوه بأصفاد الحجر واقتصروا على المعانى والمواضيع التى قالها الأول فيه، وليتهم أخلوها من وصمة تكلف البديع الذى أضاع جوهر البلاغة وكان حجابًا كثيفًا بينها وبين الرقة والانسجام.

الشعر جديد بتجدد العصور، متقلّب بتقلبها، وهو تاريخ الأمة ومظهر آدابها وعوائدها، فلما أضاعه هؤلاء بين الأعراب فى البوادى يمتطى القلاص ويقاسى حر الحجاز، قامت هذه النشأة يقول قائلها:

آن يا شعر أن نفك قيودًا   قيدتنا بها دعاة المحال

والحق يشهد أنهم فكوا قيوده وأطلقوا سراحه يمرح بين المتنزهات والأندية كيف شاء، وقد أسمعنى أحد رجال هذه النشأة قصيدة عصرية لرب البلاغة سعادة إسماعيل باشا صبرى، ورأى أن تشطيرها إذا جرى مجراها واتبع طريقها كان له الواقع الحسن بين شعراء العصر، ثم حملنى على ذلك ليكون أول تشطير عصرى لشعر عصرى جديد، ففعلت ورجائى أن تتفضلوا بنشره، وهو: (راجع القصيدة فى ديوان على الجارم، الطبعة الثانية بدار الشروق، الجزء الأول، ص ٢٢٩).

على الجارم

من طلبة الأزهر

(*) نشرت بالمجلة المصرية عدد ١٤ فى ١٥ فبراير ١٩٠٥ من ص ٥٨٩ إلى ص ٥٩٢.

العـــادة (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه.

﴿رب اشرح لى صدرى. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة من لسانى. يفقهوا قولى﴾. ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾.

أيها السـادة، إن المتصفح لكتب الأخلاق التى دونها العـرب لا يجد فيها بـابًا خـاصًا بـالبحث فى العادة وتأثيرها، ولكنه ربما عثر على شذرات تجىء هنا وهناك، قد لا تبل غليل الطالب الحريص على اجتناء كل طـارفة ترتبط بموضـوع العادة وتتصل بسببه. يعجب المرء منا ويتسـاءل: كيف ساغ لهذه العصور الخالية التى كانت تموج بالفلسفة والعلم أن تمر من غير أن تترك وراءها حديثًا عن العادة التى هى أس الأخلاق وعماد العمران؟ كيف صح أن يترك العرب موضوعًا مكانته فى الحياة هذه من غير أن تخط أقلامهم فيه شيئًا يكون نبراسًا للمهتدين وسبيلاً واضحة للسالكين؟

هكذا يتساءل السائلون، ولكنهم لو درسوا المسألة درس من يرجع بالشىء إلى مصدره الأول لظهر لهم سبب إغفـال هذا الموضـوع والسكوت عنـه. لم يخصص العرب بـابًا للعـادة لأنهم لم يربطـوا علم الأخلاق بعلم النفس، وإنما كان همهم أن يكتبوا أبوابًا حافلة فى تحبيذ الفضائل والدعوة إليها والتنفير من الـرذائل والنهى عنها، من غير أن يبينـوا الصلـة المتينة بين هـذه الصفـات وبين الخواطر العقليـة والغرائز النفسيـة وقوة الإرادة والعادة أو يمحصوا الـوسائل والطرائق التى تنمـو بها الفضيلة فى النفس والتى بها تخبو نار الرذيلة الموقدة، فكانوا فيما يكتبون أشبه شـىء برحالة يصف لسامعيه مدنًا عدة رآها من غير أن يشرح لهم الطرق إليها، والزاد والذخيرة التى تقوم بحاجة من يبتغى الضرب فى سبيلها.

فعل العرب كل ذلك لأن علم النفس لم يكن بالغًـا أشده حينئذ، ولم تكن نظرياته ميـدانًا لأقلام

(*) محاضرة ألقيت فى نادى موظفى الحكومة عام ١٩١٥ ونشرتها مطبعة البيان وتوجد بمكتبة جامعة القاهرة.

الباحثين، اللهم إلا بعض مباحث علم النفس ومظاهرها ترجمها العرب من فلسفة اليونان، وصدر بها بعضهم بعض كتب الأخلاق. لهذا أغفل العرب الكلام فى العادة لأنها أشد التصاقًا بعلم النفس منها بعلم الأخلاق، ولذلك ترى أن الفرنج قد بوّبوا لها مرتين: مرة فى كتب علم النفس، ومرة فى كتب علم الأخلاق. أقول كل ذلك وإنى أتوجس خيفة من أن يجيش فى نفس واحد منكم أنى أنقصت من فضل العرب أو نلت منهم، معاذ الله. إنى عربى وأحب العرب، غير أن الحقيقة يجب أن تقال، والمواربة فى العلم عقوق للعلم. على أنه لا تثريب على العربى إذا جهل حقيقة عرفناها نحن فى القرن العشرين بعد جهاد طويل. ونحن لا نزال عيالاً على العرب فى كثير من العلوم التى يهتز لها عطف ابن البادية عجبًا حينما يذكر أن آباءه أول من ولجوا سبيلها وطرقوا أبوابها.

غير خاف عليكم، أيها السادة، أن الإنسان ينشطر إلى شطرين: جسم وروح، ولكل من هذين علم يبحث فى تقويمه ورفاهه. فالعلم الذى يشفى الجسم من أدوائه وينقذه من آلامه هو علم الطب. والعلم الذى يغسل عن النفس أدرانها ويطهرها من الجراثيم القاتلة هو علم الأخلاق. ولكل من هذين العلمين علم يعتمد عليه ولا تقوم قائمته إلا به. فعلم الطب لا بد أن يُبنى على علم وظائف الأعضاء، وعلم الأخلاق يجب أن يؤسس على علم النفس ويجرى معه كتفًا لكتف، فدراسة أحدهما بدون الآخر ضرب من الهذيان ومحاولة للمحال.

إن الخلقى الذى يهمل علم النفس لا يصيب فى الحكم على كثير من الأمراض النفسية، وكثيرًا ما تخدعه الظواهر الباطلة. يرى ذلك الخلقى طفلاً رزينًا قليل الحركة والصياح، إذا جلس فى موضع لم يغادره إلا بعد زمان طويل، فيحكم بأن ذلك الطفل مهذب الطبع دمث الأخلاق طاهر النفس، ولكنه لو علم شيئًا من علم النفس لجزم بأن ذلك الطفل مريض من الوجهة النفسية، لأن غريزة الحركة التى هى عماد هذه الحياة وغريزة الاستقلال بالرأى التى هى أساس كثير من الفضائل، خامدتان فيه يجب العناية بهما، ولصاح: أنجدوا الطفل فإنه مريض، وإنكم إن تركتموه رميتم البلاد برجل إمَّعة تكِلة، قليل العمل، ضعيف النكاية والرأى. هذا وإنى أخشى أن أكون قد أطلت عليكم فى هذه المقدمة، وهائنذا مبتدئ الموضوع الذى وُعدتم بسماعه.

إن كل فرد منا عبارة عن مجموعة عادات عملية ووجدانية وعقلية، وهذه العادات منظمة بإحكام لسعادة الإنسان وشقائه، ودافعات لنا قسرًا إلى ما كتب علينا أن نناله فى الأزل.

والذى جعلنا خاضعين لقانون العادة هو مجرد أن لنا أجسامًا. فإن رخاوة المخ هى السبب فى أننا نفعل الشىء بجهاد وصعوبة أولاً، ثم يسهل فعله بالتدريج بعمله مرارًا، حتى تنتهى بنا الحال إلى أن نفعله بدون أن نوجه إليه شيئًا من العناية والتفكير. ومثل ذلك مثل الأمطار تسقط أولاً فوق الجبل فيتخذ له الماء مسيلاً، ثم تسقط ثانية فينحت الماء فى الأرض بعض الشىء، ويزيد عمق ذلك المسيل قليلاً، حتى إذا توالى تهطال الأمطار اتسع ذلك المجرى وصار نهرًا عظيمًا.

يقول الأستاذ كاربنتر (Carpenter) : إن مخ الطفل ينمو على الطريقة التى مرن عليها، كما الثوب إذا طوى على شكل خاص مرارًا بقيت أطواؤه على مر السنين.

من هـذا تبين لكم صـدق مـا تلوكـه الألسنـة «العـادة طبيعـة ثانيـة» أو هى كما قـال ولينجتـون (Wellington) فوق الطبع قوة وأثرًا. ولست تـاركًا هذه المقالة لولينجتـون من غير أن أناقشه الحساب فيها، فـإن أراد أن العادة فى الأطفال تقهـر الطبيعة، فـذلك ما لا سبيـل لنا إلى تصديقـه؛ لأن ذلك الحيوان الصغير لا يزال على نضارته الأولى، فلم تغير صبغـة الله فيه عوامل العادة ولم يجد التكلف إلى نفسه سبيلاً، فهو صورة طاهرة من صورة الطبيعة الجميلة.

وإن أراد العادة فى الـرجال، فذلـك حق لا مراء فيه، يشـاهد عيانًـا فى كل يوم. إن الـرجل وعاء لكثير من الطبائع والغرائز التى لـو أطلق لها العنان لشابه فى كثير من أطـواره الحيوان الأعجم، ولكنه بالعادات الاجتماعية والآداب العامة يقهر هـذه الطبائع ويكبح جماح هذه الغرائز، وما يفعله المجانين الذين تتغلب فيهم العادة على الطبيعة يدل على ما استطاعة إخوانهم العقلاء أن يفعلوه لو أنهم أطاعوا الطبيعة ولم يقفوا فى سبيلها.

ولا نكـون راكبين متن الشطط والإغراق إذا قلنـا إن أعمالنا العـادية لا تنقص عن تسعمائة وتسعـة وتسعين جـزءًا من كل مـا نقول ونفعل. إن معظـم مـا يصـدر عن الـرجل منكم من حين أن يهب من مرقده صبحًا إلى حين يدلف إليـه ليلاً، ليس إلا عادات محضة لا مجال للتفكير فيها. اللبس والخلع، الأكل والشرب، السلام والـوداع، تعرُّف الـوجوه، القيام والجلـوس. كل هـذه صـارت بالعـادة آلية محضة، ولقد أعدت لنا العادة لكل سؤال جوابًا حاضرًا لا نحتاج فيه إلى إعمال الرأى.

فنحن كما تـرون إبالات عـادات، وجعاب تقليـد. وليس كل فـرد منا إلا مقـالة يكتبهـا الماضى وينشرها تباعًا. فوجب إذًا على المعلمين والمربين منكم أن يطبعوا فى نفوس من عهد إليهم أمر تربيتهم ضروبًا من العادات التى تكون لهم حقًّا عضدًا ومعينًا فى مستقبل الأيام.

إن العادة فى الصغـر درع حصينة تـرد غوائل المستقبـل وتذلل صعـابه. قـرأت حديثًـا فى إحدى الجرائد الإنجليزية أن حلاقًـا كف بصره واستمر يزاول عمله، إلا أنه بعد البحث وجـد أنه يجيد حلق رءوس حرفائه الذين اعتاد شكل رءوسهم حين كان مبصرًا ويخطئ فى قص شعر كل حريف جديد.

روى منتن ـ أحد العلماء الفرنسيين ـ أن فتاة فرنسيـة كانت ولوعة بعجل صغير، وكانت تحمله كل يوم شغفًا به. وهكـذا كان العجل ينمو كل يوم فلا تشعر بـزيادة فى ثقله، إلى أن انتهت بها الحال إلى أنها كانت تحمله وهو ثور كبير. فانظروا فى معجزات العادة واتقوا الله فيمن تعولون.

ونحن الآن متكلمون فى العادة العملية وفوائدها أعظم من أن يشرحها لسان، فهى التى تمكننا من عمل الشىء بلا عناء مع السرعة والإتقان. نبتدئ الشىء فنعمله بعنـاية ونوجه فكرنا إلى كل جزء من أجزائه أثناء العمل، حتى إذا صار عادة لم نُضع فيه وقتًا طويلا ولم نعطه فكرًا وأخرجناه للناس متقنًا.

ولا تقتصر هذه السرعة وذلك الإتقان على عمل شيء خاص فى حرفة مثلاً بل إن العادة تجعل نوع العمل سهلاً فالنقاش يمكنه بالعادة أن ينقش شكلاً لم ينقشه من قبل لأن يديه وعينيه تعودت ومرنت على النقش وإن لم تمر على خاصة هذا الشكل .

وهذا صحيح أيضًا فى العادة العقلية فإنا إذا أعيتنا مسألة فى الرياضة ذهبنا بها إلى الخصيص بهذا الفن فحلها فى طرفة عين .

وتأثير العادة العملية فى الإنسان ظاهر لكم ترونه كل يوم فى أنفسكم وفى غيركم وقد يؤدى ذلك التأثير إلى نتائج مضحكة . فى أول إقامتى فى إنجلترا كانت الكلمة الوحيدة التى نالت حظوة عند مخى واتخذت منه مكانًا خاصًا كلمة (Thank you) (شكرًا) كنت أقولها إذا أعطانى أحد شيئًا أو سأل عن صحتى أو أدلى إلى بنصيحة فرسخت عادة الجواب بهذه الكلمة فى نفسى ، فبينما أنا فى غرفة نومى ذات ليلة وقد أردت إطفاء المصباح الكهربائى ، فأدرت الزر فانطفأ ، فسمعت صوتًا صدر منى بدون فكر يقول للمصباح (Thank you) .

كان أحد عساكر البوليس يخاطب رجلاً فى دار المديرية بواسطة التليفون فقال الرجل للعسكرى : هل العمدة هنا ؟ فقال العسكرى : من أنت ؟ فجاء الجواب أنا المدير فما كاد يصل الصوت حتى طرح العسكرى السماعة وأخذ السلام العسكرى لسعادة المدير .

وللعادة تأثير فى الحيوان الأعجم لا يخفى على حضراتكم . كان من عادة الحرس الملكى لبعض ملوك إنجلترا أن يخرج كل ليلة على ظهور الخيل حينما تدق الساعة الثانية عشرة للطواف حول القصر فأخذت الحرس غفوة ذات ليلة فلما دقت الساعة إثنى عشرة ، سارت الخيل بأنفسها وطافت حول القصر، ثم رجعت إلى أعطانها .

وقد تدهشون لهذه العادة إذا علمتم أنها تؤثر فى النبات والجماد أيضًا . إن النبات إذا عود السقى كل يوم ثم نقضت العادة وأهمل أيامًا ذوى وذبل . وإن ريشة الضراب (ضارب المزهر) قد يكمن فيها شيء من العادة الراسخة فتصدر أصواتًا خاصة لا يمكن لريشة أخرى أن تصدرها .

هذه هى آثار العادة فى العمل . ولو لم يكن لنا من حظ الحياة إلا هذه العادة العملية لما كنا بالمخلوق ذى الشأن فى هذه الحياة . يقول بعض فلاسفة الإنجليز إذا لم تكن العادة إلا وسيلة لغرس قدرة على الأعمال الجسمية فإن حياتنا تصبح عبارة عن أعمال خالية من التفكير والرأى ويكون آخر ما نصل إليه فى ذلك لا يزيد عن أول ما يعمله النحل والنمل أو بعبارة أخرى فإن حياتنا تكون خلوًا من الروح العقلية والخلقية .

فيجب إذًا أن يضاف إلى الحياة العملية ضروب من العادات العقلية والخلقية التى تحلق بالرجل فى جو كله طهارة وسلام وتبعث فى نفسه الحكمة وسداد الرأى وطهارة الأعراق وهذا ما يختص به الإنسان دون الحيوان الأعجم وهو الفارق بين الغريزة العمياء ؛ غريزة النحل والنمل وبين العادة المبصرة التى ترمى إلى تكوين خلق عظيم .

يولد المولود ـ أيها السادة ـ وليس لديه من عوامل الطبيعة معين ولا نصير . يولد وليس له من الغرائز ما يساعده على حفظ كيانه ثم يقضى بعد ذلك زمنًا طويلاً كله كد وعناء قبل أن يقف على رجليه أو يعتمد على حائط . لماذا لم يثب الطفل بعد ولادته ويجرى هنا وهناك فى أنحاء المنزل باحثًا عن القوت الذى هو قوام حياته ؟ إن فرخ الدجاج لا تكاد تنفلق عنه قشرة البيضة حتى تراه يجرى وينبش الأرض بمنقاره باحثًا عما يقتات به . أليس الفرخ أسعد حالاً وأرخى بالاً من ذلك الطفل المسكين ؟ نعم قد تكون الحال كذلك لولا وجود عادات تنمو فى نفس الطفل بالتدريج فتقوم أخلاقه وتهذب من آرائه . فمثل الفرخ مثل الرجل يقرأ قصيدة بسرعة مدهشة ولكنه لا يحيط قلامة ظفر بمعناها، ومثل الطفل كمثل الرجل يقرأ نفس القصيدة ببطء وترو كلمة كلمة فلا يتركها إلا وقد فهم غوامضها واستخرج كنوزها .

إن الغرض من التربية ـ أيها السادة ـ هو غرس العادات الفاضلة فى النفس ولا يكون ذلك إلا بعد أن تطبع فى المخ آثارًا لكثير من خير الأعمال التى يصيرها المران عادات ثابتة وملكات راسخة . أرأيتم أتعس وأشقى من ذلك الرجل الذى يحتاج إلى إعمال الفكرة فى كل شيء ؛ فى إيقاد سيجارته ، فى الشرب من كوبه . فى هبته من مرقده ، فى ذهابه إليه . وفى المشى وفى الكلام ؟ فإذا كان فى حضراتكم من ينقصه عادة من العادات الضرورية فى الحياة فليسرع إلى تكوينها من الآن .

ولقد ذكر الأستاذ بين (Bain) عند الكلام فى العادة الخلقية قاعدتين يجدر بى أن أطرف بهما سامعى الكرام .

﴿ القاعدة الأولى ﴾

يجب عند تكوين عادة صالحة والنزوع من عادة فاسدة أن ندرع أنفسنا بعزيمة ثابتة وإرادة لا تندك أمام وساوس الشهوات، فاجمعوا فى نفوسكم كل عمل ممكن أن يمد جيش أغراضكم العالية . ضعوا أنفسكم فى مواطن تكون واقعة إلى تشجيعكم وتعزيز ما عزمتم عليه . اجتنبوا مواطن الشبهات التى قد تنقض عقدة إرادتكم فإنكم إن ثبتّم مرة أمام داعى الشيطان فقد نجوتم من صولته مرة ثانية . أعلنوا بين إخوانكم وعشيرتكم كل ما عقدتم العزيمة عليه فإن ذلك أقوى للإرادة وأدعى للثبات .

ذكر الأستاذ جمس (James) أنه قرأ مرة إعلانًا فى جريدة تصدر فى أستراليا يقول فيه صاحبه: إنى أعطى كل من وجدنى فى حانة جائزة مقدارها كيت وكيت ، وإنى أفعل ذلك لأنى عاهدت زوجتى على الا أشرب الخمر فمثل ذلك الرجل حقيق بأن يتخلص من عادة الإدمان وينجو من براثنها، ولقد عرف زياد بن أبيه من قبل ضرورة إعلان العزم ووضع الغرم على نقضه، حين يقول فى خطبته البتراء «إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى » .

فقد أباح لهم معصيته إن هو أخلف ما أوعدهم به وهى مخاطرة من زياد لا يجد له منها محيصًا إلا التمسك بعزمه .

﴿ القـاعدة الثانيـة ﴾

لتكن عـزيمتكم مطردة ، وإيـاكم وأن تـدعـوا استثناء يتسرب إليهـا ؛ فإن استثنـاء واحدًا يشبـه الديناميت الذى ينقض فى لحظة واحدة الجبل الذى بنته الطبيعة فى قرون وأجيال .

إن العادة الخلقية فى مبدأ التكوين تستلزم وجود قوتين ؛ قوة الفضيلة وقوة الشهوات ، وكل قوة من هاتين تناوش الأخرى وتجالد ، لتكون ربة السلطان والقوة ، فكل انتصار لجيش الشهوات يوقع الرعب والفزع فى جيش الفضيلـة ويفت فى ساعـده . فيجب علينا أن نحفظ قـوة الموازنة بين هـاتين القوتين حتى يقوى جـانب الفضيلة بالتكـرار، وتكون كفـؤا لأن تنقضّ على جيش الغرائز الشهويـة وتنكل به تنكيلاً ، ويمكن أن نضيف قواعد أخرى منها :

﴿ القـاعدةالثالثة ﴾

يجب أن تغتنمـوا الفرصـة التى تمكنكم من عمل الشيء الذى عـزمتم عليه مـا استطعتم إلى ذلك سبيلا ؛ لأن العادة لا تأخـذ مكانها فى المخ بمجرد النية وعقد العزيمـة ، وإنما تثبت هناك بعد العمل والمران . إن الحكم والنصائح ووصـايا المحنكين من الـرجال لا تجديكم نفعًـا ولا تغنيكم فتيلاً ، إذا لم تقبضوا على ناصية كل فرصة تدعو إلى العمل ، والإنجليز يقولون فى أمثالهم « جهنم مرصوفة بكثير من الأمانى الحسان . تلك الأمانى التى لا يعززها عمل ولا تأخذ بيدها إرادة » .

يقـول الأستـاذ مل (Mill) : الأخـلاق ليست إلا إرادة مهـذبـة : ويـريـد بـالإرادة هنـا مجمـوع استعدادات نفسية تهب من مرقـدها للعمل عند سنوح الفرصة . أقـول هذا وإنى لم أر أقل مروءة ولا أضعف نكايـة من ذلك الصنف من الرجال الـذى ترونه وكله إحسـاس ؛ ينطق بالحكمة ويـدعو إلى الخير ويقضى يومه وليله فى أحلام ويعيش فى جـو من الخيال ، ثم يقضى حياته بين الشك والترديد ؛ لا يعمل عملاً ولا ينال أملاً فهو فى كل حين يقلب كفيه وينشد :

إلى الله أشكو أن فى النفس حـاجة ⠀⠀⠀ تمـــر بهـا الأيـام وهـى كمـا هيـا

﴿ القـاعدة الرابعة ﴾

وذلك يقودنـا إلى قاعدة رابعـة وهى إذا وكل إليكم أمر التربيـة فلا تخطبوا كثيرًا بين تـلاميذكم بل اربضوا منتظرين الفرصة العملية ، فإذا سنحت فانقضـوا عليها كما ينقض الأسد من عرينه ، وانسابوا نحـوها كما ينسـاب السهم ودعـوا تلاميـذكم يفقهون الشيء ويشعـرون بـه ثم يعملونـه . إن الخطب والنصائح كثيرًا ما تكون مدعاة للسآمة ومدرجة للمخالفة والعصيان .

ولنبين لكم ضرورة العمل فى تكوين العادة بما كتبه داروين (Darwin) عن نفسه قال :

« كنت إلى الثلاثين من عمرى أحب الشعر بضروبه المختلفة وأعده منبعًا لسعادتى ، وكنت أطرب ويهتز عطفى لشعر شكسبير؛ خصـوصًا ما يختص منه بالتاريخ . ولقـد كان للموسيقى تأثير كبير فى

نفسى، أما الآن فإننى لا أطيق الشعر، حتى لقد حاولت من أيام قراءة شكسبير فرأيته مملاً ضاق به احتمالى، أما الموسيقى والصور فقد ذهب ما كان لها من الروعة والتأثير فى روحى، وإنى أتهم فى ذلك طول مزاولتى للعقليات التى صيرت عقلى آلة تطحن قواعد منطقية ونظريات طبيعية، غير أنى لا أفهم لماذا كان ذلك العمل العقلى سببًا فى إماتة ذلك الجزء من المخ الذى هو موطن الذوق والشعور؟ ولئن عشت حياتى مرة ثانية لأفرضن على نفسى قراءة الشعر وسماع الموسيقى مرة فى الأسبوع على الأقل، لأنه من المحتمل القريب أن ذلك الجزء من مخى إنما فقد وظيفته لعدم الاستعمال » .

لنا جميعًا أيها السادة فى مقتبل العمر وأيام الشباب آمال كبار، كلنا يسعى فى تحصيلها ليبلغ منزلة الرجولية الكاملة . كلنا يريد حينذاك أن يغذى شعوره بالشعر والفنون الجميلة، ويخصب قوته العقلية بالفلسفة والرياضيات . ذلك ما نقصد إليه فى أيام الشباب، ولكن كم شيخ منا حصل على تلك الأمانى وهاتيك الآمال ؟ إنهم ـ ويم الحق ـ قليلون ، وإن قواعد العادة كفيلة ببيان السبب فى ذلك .

ينبثق فى المرء ولوع بشيء من الأشياء فى زمن خاص غير أن ذلك الشيء إذا لم يبلّ العمل غلته ذوى وذبل بدل أن يترعرع وينمو إلى عادة راسخة ؛ ولذلك ترانا نتحول إلى « دارون » فى زمن غير بعيد بسبب الإهمال وعدم اغتنام الفرص فى أوقاتها . نشترى دواوين الشعراء وننوى قراءة كل بيت فيها، ثم يقف بيننا وبينها ضعف العزيمة فتحول الأحوال ولا نقرأ منها سطرًا . ترانا ننسئ ونسوف فلا ننهض من غمرة التسويف إلا وقد ماتت منا المواهب الشعرية، ووئدت قوة الخيال بعد أن كانت عشر دقائق أو دون ذلك مع شاعر فى كل يوم كافية لحفظ تلك القوة غضة يانعة .

إذا أردتم فعل أى شيء ـ أيها السادة ـ فافعلوا من الآن، وإياكم وأن تدعوه إلى الأيام، فإنها تبلى الجديد وتقصى الغريب، وتذهب من كل شيء بشاشته ، وإنكم بالإهمال والتقاعد عن العمل إنما تخطون بأيديكم قبورًا لمواهبكم العالية، وقواكم الغالية .

﴿ القاعدة الخامسة ﴾

يجب التعجيل بغرس العادة؛ لأن المخ فى سن الطفولية يكون أكثر رخاوة وأقبل لصور الأفعال، ولأننا يجب أن نسرع قبل أن تتمكن العادات السيئة فتقطع علينا الطريق وتحول دون تكوين العادات الصالحة .

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

ولكنا يجب ألا نبالغ فى التبكير لأن العادات تبنى دائمًا على الغرائز . وإن لكل غريزة وقتًا خاصًا تقوى فيه ميعتها ويكمل عنفوانها . فإذا حاولنا غرس أية عادة فى نفس الطفل قبل ظهور الغريزة التى هى أس تلك العادة فقد حاولنا شططًا وآلمنا الطفل وأتعبناه من غير جدوى . ولنضرب لكم مثلاً يبين لكم مجمل هذا القول ويزيده وضوحًا .

إن غريزة الميل والانعطاف تظهر فى الطفل فى أكمل مظاهرها فى السنة الثالثة من عمره تقريبًا، وهى قصيرة العمر قد تزول فى السنة السادسة، وتخلفها غريزة القسوة والتفانى فى حب النفس .

الطفل فى تلك السن يعتقد أن كل ما حوله من الجمادات والنباتات له شعور وإحساس، وأنه حلقة من سلسلة هذه الطبيعة الجميلة التى تبكى إذا بكى وتضحك إذا ضحك . للطفلة عروس تحملها طول يومها وتقبلها وتطعمها وتلزم من فى الغرفة بالسكون والهدوء إذا أنامتها فى سريرها الصغير . وللولد عصا هى جواده الذى هو أرفق به من عنترة الذى يقول فى مهره .

مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكي ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

كان بإحدى المنازل التى نزلتها بإنجلترا وليدة لا تتجاوز الرابعة من عمرها، وكانت شغوفًا بقضاء شطر عظيم من النهار فى حديقة المنزل، تخاطب الأشجار وتناغى الأطيار، فبصرت بها ذات يوم فى الحديقة فسعيت نحوها، وبينما نحن واقفان إذ سقطت نحلة على زهرة الياسمين، فقالت لى الفتاة : أتدرى ما تسره هذه النحلة إلى الياسمين؟ قلت لا. قالت : إنها تقول لها إن الوردة أنضر منك وجهًا وأطيب ريحًا ولكنى رغم كل ذلك أفضل هذه الزهرة الجميلة؛ لأنها لا تنهشنى بأظفارها إذا حاولت اقتطافها كما تفعل الأخرى .

وكنت مرة فى مدينة فى وسط إنجلترا أثناء مسامحة عيد الميلاد، وكانت الأرض مغطاة بالثلج، فظهرت كصحيفة الأبرار، فرأيت أثناء تطوافى غلامًا أمام تمثال من الثلج على صورة إنسان ، وهو يحاول أن يطعمه شيئًا من الخبز وخلفه كلبه يجاهد فى التقام ما فى يده فصاح بى الغلام مستنجدًا قائلاً هل لك يا سيدى أن تمنع هذا الكلب؛ فإنه أخذ غذاءه اليوم، أما هذا الرجل المسكين - مشيرًا إلى التمثال - فلم يأكل منذ يومين!

فإذا رأيت طفلك يخاطب كرسيًا سقط بعبارات الرحمة والحنان؛ فاعلم أن غريزة الانعطاف فى ميعتها وثب للفرصة فوجه هذه العزيزة إلى الانعطاف مع الإنسان والرفق بالحيوان، وكون منها عادة راسخة؛ فإنك إن قصرت ركدت ريح هذه الغريزة ، وصعب عليك جدًا غرس العادة بعد ذلك . هذا ومن حاول غرس عادة الرحمة قبل ظهور غريزة الانعطاف فقد حاول محالاً وهذا معنى قولنا : يجب التعجيل فى تكوين العادة ولكنه يجب ألا يبالغ فى التبكير .

﴿ القاعدة السادسة ﴾

التكرار وفترة الراحة ضروريان فى تكوين العادات . التكرار واضح وقد سبق أن بينا ماله من التأثير أما فترة الراحة فتحتاج إلى شيء من البيان .

ثبت فى علم وظائف الأعضاء أن فى المخ استعدادًا لتسجيل الأعمال، وأن ذلك التسجيل يستلزم

وقتًا يفصل بين مرات التكرار يستريح فيه العقل، ويسجل فى أثنائه عمل العادة .

وكأن الفطرة أوحت إلى أطفال الكتاتيب بهذه النظرية فهم يقرؤون ألواحهم (ويكسرونها) قبل النوم حتى إذا استيقظوا وقرؤوها مرة أو مرتين استظهروها بسرعة غريبة .

حاولت فى سنة من السنين أن أتعلم ركوب الدراجة فلم أفلح بعد أن قضيت أسبوعًا كله جهاد مع معلم خاص . انتهت بى الحال إلى أن نفضت يدى من كل أمل فى نيل تلك البغية ، وبعد سنة كاملة عالجت دراجة صديق لى فركبتها وسرت بسهولة تامة كأننى اعتدت ركوبها من أعوام ولا يمكن تفسير ذلك إلا بأن مخى أثناء تلك السنة التى توسطت بين الحادثتين كان يشتغل بتسجيل العادة وتنقيحها .

ولننتقل الآن إلى الكلام فى قوة العادة وخطرها :

العادة سلطان قهار يعطل قوتنا الفكرية ويملك علينا إرادتنا . ولقد أدرك ذلك الأعراب فى باديتهم إذ يقول شاعرهم :

تعود بسط الكف حتى لو انه ... أراد انقباضًا لم تطعه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ولقد حمل « روسو » ما للعادة من جبروت على أن يقول « العادة الفذة التى يباح للطفل التمسك بها هى ألا يتعود عادة ما » ولا يمكننا أن نأخذ هذه القولة على ظاهرها لأنه من المحال أن يحول مخلوق بين الطفل وبين التمسك بكثير من العادات كالمضغ والمشى والكلام فماذا يقصد « روسو » بهذا الرأى الغريب؟ إنه يقصد أن ينصح إلى أولى الأمر ألا يجعلوا حياة الطفل عبارة عن مجموعة عادات وألا ينكسوا به فى الخلق فيحولوه إلى آلة صماء تنقل كل ما طبع فيها بلا روية بعد أن خلق مفكرًا ومتعقلاً بالفطرة . وإن روسو فى ذلك يتبع خطوات أفلاطون الذى كثيرًا ما صاح فى كتابه « الجمهورية » The Republic بوجوب حفظ شخصية الطفل خالصة من شوائب التقليد .

علمتم وتعلمون أيها السادة أن الفعل إذا تكرر أصبح عادة راسخة ، فإن كانت هذه العادة مولية وجهها شطر الفضيلة وكان لها قائد من العقل والحزم فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

إن اعتياد الفضيلة يجعل صدورها سهلا ، لا تكلف فيه فالذى يعتاد اللين تراه يجتنب قوارس الكلام بلا تعمل كما يجتنب أخطار الطريق بلباقة غريبة راكب الدراجة المدرب ، ومن اعتاد الكرم جاد بكل ما لديه وآثر غيره على نفسه وإن ضاقت ذات يده وكان جيبه أنقى من راحته .

ولكم فى أخبار كرام العرب ما يغنينى عن التمثيل والبيان ، ولقد أخبرنا الحُطيئة بما تفعله عادة الكرم ، فى النفوس إذا أخذت منها مكانها وقوى فيها سلطانها حين يقول :

وطـاوى ثــلاث عـاصب البطن مــرمل
ببيــــداء لم يعـــرف بها ســــاكن رسما
أخي جفـــوة فيـــه من الأنس وحشـــة
يـرى البـؤس فيهـا من شراستـــه نعمي
وأفـــرد فى جحـــر عجـــوزاً إزاءهـــا
ثـــلاثـــة أشبـــاح تخالهمـــو بهما
حفـــاة عــراة مـــا اغتـــذوا خبـز ملـــة
ولا عـــرفـــوا للبر مـــذ خلقـــوا طعما
رأى شبحًـــا وسط الظـــلام فـــراعـــه
فلما رأى ضيفًـــــا تقـــــــدم واهتما
فقـــال هيـــا ربـــاه ضيف ولا قـــري
بحقك لا تحرمـــه فى الليلـــة اللحمـــا
فقـــــــال ابنـــــــه لما رآه بحيرة
أيـــــــا أبتى اذبحنـى ويسر لهم طعما
ولا تعتـــذر بـــالعـــدم عـل الـذى طـــرا
يظن لنـــا مـــالا فيـــوسعنـــا ذمـــا
فـــروى قليـــلاً ثم أحجم بـــرهـــة
وإن هـــو لم يـــذبح فتـــاه فقـــدهما
وبينـــا هما عنت على البعـــد عـــانـــة
قـــد انتظمت من خلـف مسحلهـــا نظما
عطـاشـــا تـريـد الماء فـانسـاب نحوهـا
على أنـــه منهـــا إلى دمهـــا أظمـى
وأمهلهـــا حتى تـــروت عطـــاشهـــا
فـأرسل فيهـــا مـن كنـــانتـــه سهمًا
فخـــرت نحـــوص ذات جحش سمينـــة
قـــد امتـــلأت لحمًا وقـــد طبقت شحماً
فيـــا بشره إذ جـــرهـــا نحـــو قـــومـــه
ويـــابشرهم لما رأوا كلمهـــا يـــدمى
وبـــاتـــوا كـــرامـــا قـــد قضـــوا حق ضيفهم
ومـــا غـــرمـــوا غـــرمـــا وقـــد غنمـــوا غنما

وبـــات أبـــوهم من بشـــاشتـــه أبـــا
لضيفهـم والأم مـن بشرهــــا أمـــــا

أما من يتكلف الفضيلة فإن كل بادرة منه تنم عليه وتؤذن فى أذنه بقول التهامي :

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فإنك عاري

وهؤلاء الحلاقون كلكم يتفـزز غيظًا من آدابهم العالية وأخلاقهم السـامية . . . . وإذا لم يقد العقل زمام العادة سلكت مسـالك الشطط وأصبحت خطرًا شديدًا على الأخـلاق وإليكم مثلاً . قد تبتدئ العادة سيرهـا فى طريق الفضيلة ولا تزال ضاربـة فيه مادامت ضعيفة حتى إذا اشتد سـاعدها بالتكـرار والمران حارت يمنة ويسرة وضلت سواء الصراط . يأخـذ الرجل فى إقتصاد شيء من مـاله فى كل شهـر وهذا فضيلـة من غير شك حتى إذا تكرر هـذا العمل من غير حياطـة العقل قوى سلطـان العادة وتحول هذا الـرجل من مقتصد إلى شحيح لحز ولقد قال الأستـاذ ماكون (Maccwun) فى بيان خطر العـادة : العادة سـلاح ذو حدين لأنها وإن كانت أسـاس الفضيلة قـد تميل إلى جانب الـرذيلة فتصبح داء عضالاً ومرضًـا قتالاً . العادات المذمومة أقوى أنواع العـادات لأن لها ناصرًا من الشهوات الطبيعية التى تصيح دائمًا طالبة ما يطفئ غلّها فالرجل الـذى يسقط فريسة أى عادة سيئة تراه مغلوبًا على أمره لا يعرف خطر أى فعل من أفعاله إلا بعد قطع مرحلة طويلة فيه .

ومن أخطار العادة إنها تورث المتمسكين بها جمودًا وتفقدهم ملكة العمل بما يناسب الزمان والمكان . الحياة أيها السادة حُوَّلٌ قُـلَّب ترتدى فى كل يـوم ثوبًا وتتغير من حين إلى حين وقد يكون هذا التغير فجائيًا فإذا لم يكن الرجل لبقًا « يكون الصبا ويكون الدبورا » هزمته حوادث الأيام فليس بالشجاع من لا يقدر إلا على مكافحة نـوع واحد من الأخطار حتى إذا عرض خطر جديد لم تصـافح كفه سيفًا وفر يقول : «فرَّ لعنه الله خيرٌ مِنْ مات رحمه الله» .

وكثيرًا ما تفعل العـادة من غرب قـوة الشعور الـذى هو منبع كثير من مكـارم الأخلاق . ولكم فى هؤلاء الذيـن يجهزون الأموات وينظرون فى شئونهم (المغسلين والحانـوتية) ما يقنعكم بصـدق ما نقول فإن العـادة مسحت من نفـوس هـؤلاء كل ما يمكن أن يقـال لـه شعـور وإحساس . تنـوح حـولهم النائحات وتنفطر أمامهم قلوب الأطفال، وهم جامدون لا تتحرك فيهم عاطفة ولا تدمع لهم عين .

ولقد يكون موت الشعور بواسطة العادة مفيدًا، كما هى الحال فى الأطباء الجراحين، فإنهم ليس فى استطاعتهم أن يعملوا عملاً إلا إذا تغلب فيهم عمل الواجب على الشعور بالرحمة والحنان .

هذا ما أردنا بيانه فى هذا الموضوع والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

مرثيـة

في رثاء الشيخ حمزة فتح الله (*)

رب ورقـاء هتـوف فـي الضحى ... ذاتِ شـجـو صـدحـت في فنـن
ذكـرت إلفًـا ودهـرًا سـالفًا ... فبكت حـزنًا فهـاجت حَـزَني
ولقـد تشكـو فمـا أفهمهـا ... ولقـد أشكـو فمـا تفهمنـي
فبكائـي ربمـا أرّقـهـا ... وبكـاهـا ربمـا أرّقنـي
غيـر أنـي بالجـوى أعـرفهـا ... وهـي أيضًـا بالجـوى تعرفنـي

أيها السادة إن فى مـواقف التأبين سلـوةً للمحزونين، وعلالـة للمفئودين وذكرى للذاكـرين وإن النفوس الإنسانية إذا اخترمت مـن بينها نفس كبيرة أخذ الهلع بناصيتها وملك الوجـد زمامها وطارت شعاعًا حتى إذا سكنت إلى قضاء الله وعلمت أن كل حي صائر للزوال وأنه :

أحـسن بالواجـد مِن وجـده ... صـبر يعـيد النـار في زنـدِهِ
ومـن أبى في الـرزء إلا الأسـى ... كـان بكـاه منتهـى جهـده

إذا علمت كلّ ذلك أيها السادة رجعت إلى الحسنى وهمت بتـوديع الـراحل الكريـم بما هو أهلـه وأرادت أن تعيش مرة ثانية بين تلكم الآثار والمفاخر وأن تجتلى من جديد هذه المعالى والمآثر وحلا لها أن ترجع إلى الماضـى فتقف هنيهة أمام ذلـك المجد الراسخ والفضـل الواسع وأن تتنور بصيصًـا من تلك الروح العالية التى اختارت لها من الرفيق الأعلى منزلاً، ومن ظلال الجنة مقيلاً :

قفـا ودِّعـا نجـدًا ومن حلّ بـالحمى ... وقلّ لنجـد عنـدنـا أن تـودّعـا
فللـه هذى الأرض مـا أطيبَ الربـا ... ومـا أحسن المصطـاف والمتربَّعـا
وليست عشيـات الحمى بـرواجع ... عليك ولكن خـلِّ عينيك تـدمعـا
بكت عينـىَ اليسرى فلما زجـرتها ... على الجهل بعـد الحلم أسبلتـا معـا

(*) ألقيت فى حفل تأبين الشيخ حمزة فتح الله كبير مفتشى اللغة العربية عام ١٩١٧ .

مات الشيخ حمزة فتح الله ، فترك العيون عبرى ، وغادر فى مصر مكانًا لا تصل العين إلى أمده ولا تسافر الآمال إلى حدّه .

مات الأستاذ الكريم فلبست عليه العربية ثوبًا من الحداد لا ينصلُ ، وشعارًا من الحزن لا يبلى ، تبكى حامى ذمارها وجامع آثارها وراوية أشعارها وحقيبة أخبارها .

تندب سليلة إسماعيل (اللغة العربية) فتاها السَّميدع الذى تغنّى بآياتها فملك الأسماع ونشر مفاخرها فبهر العيون وأعاد إليها عصر فتائها وميعة شبابها أيام كانت تعيش بين الظل والماء وتخطر فى ثوبى الحسن والرواء .

أعادها الشيخ عليه الرضوان فتية مليحة بعد أن صارعتها العُجمة فصرعتها وغالبتها الرطانة فغلبتها وبعد أن عفَت ديارها وطمست آثارها وخبَت نارها وشالت نعامتها وغطِشت ليلتها وضل الحادى والهادى واستعجم الحاضر والبادى :

أيـن امـرؤ القيس والعـذارَى	إذ مـال مـن تحتـه الغبيـطُ
استعجـم العُـرب في المـوامي	بعـدك واستعرب النبيـط

وجد الشيخ ـ لا أعطش الله تربته ـ مجالاً فسيحًا للنهوض بالعربية الشريفة فى وزارة المعارف فشنّ فيها على العامية حربًا استعر لظاها ، واشتبكت ظباها فما فتَّ يأس فى عضده ولا زحزح قنوط بطلنا المغوار عن قصده ، حتى إذا ركد الغبار وسكت الإعصار ، ظهر الشيخ وهو يحمل راية النصر باليمين وقد قطع من عَدُوته الوتين .

نفذ من روحه الكبيرة إلى المدارس نور تطّلع إليه الشباب ، فملأ عيونهم شعاعه وبهر نفوسهم لمعانه واستبانت لهم الطريق ووضحت السبيل فأعملوا قِلاص عزائمهم إلى ذات الضاد ليجتلوا محاسنها ولينهلوا من آدابها والشيخ حمزة أمامهم فى هذا السفر الطويل يهدى الضالّ ويصل المنبتّ ويرعاهم بعنايته ويكلؤهم بحياطته فما فترت عزيمة إلا نفخ فيها من روحه فاشمعلّت ولا وبرت قدم إلا هزّ من نفس صاحبها فأرقلت ولا طَمست الصُّوَى إلا جعل من نوره لهم نارًا ومن هدايته منارًا يقودهم الشيخ والأمد بعيد والشقة نازحة والظلام دامس يضل فيه راعى الكواكب ويرتجف منه النابح والناعب :

في ليلـة من جمادي ذات أنـديـة	لا يبصر الكلب في ظلمائها الطنُبا
في ليـلة خـالكة الجلبـاب	أغطـشَ مـن خـافيـة الغـراب
كأنهـا صحيفـة المغتـاب	أو حـظ مجـدود مـن الكتـاب

أو غـمـرات الـزّاخـر الخِضَـمّ

فلما لمع سيف الفجر حتى هللوا السَّفْر وكبروا، وقد أوصلهم الشيخ إلى إربتهم، وأبلغهم غايتهم فحمدوا السُّرى واستقرت بهم النوى وتجلت لهم لغة القرآن الكريم ناصعة خلابة فقطفوا أثمارها وتذوقوا أسرارها والشيخ الجليل ينظر إلى تلك النفوس الفتيَّة المغتبطة فيتهلل وجهه بشرًا ويفيض سرورًا.

أيتها العربية، هلمَّ بشيء من سَيْبك الفياض وانثرى فوقى مطرًا من لألئك العصماء وابعثى فىّ روحًا من أرواح رجالك السابقين فإنى أرثى اليوم جُذَيلك المحكك وعُذَيقك المرجَّب.

أفى الحق أن يخوننى اللسان ويعقّنى البيان وأنا أرثى مقوّم الألسنة ومبدع الأساليب وحامل لواء العربية. حاشا لله، فإن اللغة التى بعثها من مرقدها سترثيه بناتها وتسبّح بحمده آياتها. لم يكن الشيخ لغويًا فحسب ولكنه كان كاتبًا قديرًا وشاعرًا مجيدًا، ولقد ألبس شعره ديباجة بدوية أعادت إليه عريق مجده وأيام سعده. ديباجة لو طرقت آذان النّيب فى البيداء لمالت هواديها واهتزّت لحاديها وسابقت ظلالها ونسيت كلالها.

تسرب الخطأ إلى الأساليب العربية وانبثَّ سم العامية فى أوصالها فما كادت تسلم عبارة لكاتب منا لخروج عن حدود اللغة وقوانينها حتى نهض الشيخ نهضته المباركة فعلم الكتاب كيف يتهمون أنفسهم وكيف يأخذون حذرهم من التراكيب التى أخذت صبغة العربية وليست منها فى قديم ولا حديث فانتقلت الكتابة إلى عهد جديد وأخذت النابتة المتعلمة تتسابق إلى استخراج مكنونات اللغة بعد أن كانت دفينة فى خبايا الكتب سجينة بين طيات الأسفار.

نهض الشيخ ـ رضى الله عنه ـ هذه النهضة المباركة واختار وزارة المعارف ميدانًا لعمله الجليل فلم يترك كتابًا فى المدارس يصل إلى يد تلميذ أو تقع عليه عين طالب إلا بعد أن نقّاه من أدران العامية وبعد أن نقده نقد الصيرفىّ الحذر وبعد أن قرأه لنفسه وقرأه لغيره وقرأه وقرأه. فعل كل ذلك ليجعل بين الطلاب والدخيل سداً ويحول بينهم وبين أفاعى العامية وسمومها.

لم يكتفِ الفقيد بهذا ـ وما كان شيء ليكفيَه فى الإصلاح ـ فوجه آماله إلى أشياخ العربية بالمدارس، لما علم أنهم مبلغو رسالته وحاملو أمانته وخلفاؤه على النشء المصرى الذى جعل تقويمه أول أمانيه وغاية مراميه. وجه الأستاذ الكريم آماله إلى هؤلاء الأشياخ وبعث فيهم حب العربية ودفعهم إلى الغوص على أسرارها وكان يذهب إليهم فى تفتيشه من شمال مصر إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها ناصحًا معلمًا ومشجعًا مصلحًا، فعل كل ذلك للنهوض بالعربية والوصول بها إلى ما قدر لها من الكمال.

كانت للشيخ حمزة عزيمة لا تعرف الخوَر ومثابرة على العمل لا يتسرب إليها الملل فقد كان كثيرًا ما يقضى ليله فى القراءة والدرس حتى يعقد ضوء الصباح بنور المصباح بين بحث وتنقيب وتأليف

وتهذيب وهذه آثاره فى وزارة المعـارف بين ظهرانيكـم تشهد بحسن بلائه وبُعـد سمائه وعلوّ كعبه وجميم أدبه وما له من أولية وسابقية وتبريز .

وما كـانت الشيخوخـة وقد هزت اليـدين وأناخت على المنكبين وأمـالت الرأس وجنت على العين لتثنيَ الشيخ عن مـواصلة عمله أو تقفَ بينـه وبين غايتـه فما زايله حتى آخر أيـامه جِـدّ الشباب ولا عزيمة الفتيان وأصـدقاؤه ينصحون له أن يُبقيَ على نفسه وأن يحتفظ بالبقية البـاقية من صحته وهو لا يلقى إليهم سمعًا ولا يطيع لهم أمرًا . أحيـا العلمُ روحَه فوقف على خدمتـه جسمه . كان العلم أغلى شيء لديـه فوهب له نور عينيـه ، وهب له نور عينيـه ـ أيها السادة ـ وبقى الشيخ الجليل فى أخـريات حيـاتـه يتمتع بنـور الحق ويـرى بعين القلب ، وإنها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلـوب التى فى الصدور .

كان الشيخ أجزل الله له عطاءه غيورًا على الدين شديد التمسك بآدابه يعيش عيشة الزاهدين بعيدًا عن زخارف الدنيا وأبـاطيلها فما بدرت من أحد أمامه بادرة تنم عن شيء من التهـاون بالدين إلا صال صيـال الليث وزأر زئير الأسـد الهصـور وأخـذته فى الـدين عـزة المجـاهـدين وغضب للحق غضبـة المخلصين .

ولقد كان لـورعه هذا أثر صـالح فى وزارة المعارف فما كان يختار إذ يختـار من شيوخ التعليم إلا من أُشرِبوا حب الفضيلة ونمت فيهم نازعة الخير وكان أفاض الله عليه ثوابه حربًا على من ضل منهم سواء الصراط أو ندّ عن سواء السبيل .

أيها السادة مـات شيخ المعـارف وكبير مفتشيها مات رجـل اللغة العـربية وعمـدة الشعر والأدب ومستودع أسرار القرآن الكريم والسنة المحمدية الطاهرة .

ففى ذمة الرحمن ذلك الراحل الكـريم الذى كان فى سواد عيوننا وسويـداوات قلوبنا . وفى وديعة الله تلك الروح الكبيرة التى خلقت من النور ورجعت إلى النور .

وفى جـوار الخلد تلـك الروح الفيـاضـة التى نفخت فى النفـوس حياة وانبعثـت فى القلوب آمـالاً وصعدت إلى ربها راضية مرضية بعد أن رأت قطوفها دانية وآثار إصلاحها بادية .

فيــــا قبر آه من تـــــرابك ليّنــــا ... عليـــه وواهٍ من جنـادلـك الخشن
لأطبقت إطبـاق المحـارة فـاحتفظ ... على درة المجــد الحقيقـــة بـــالحزن

* * *

مقدمة كتاب البلاغة الواضحة (*)

الفصاحة - البلاغة - الأسلوب

الفصاحة هى الظهور والبيان، تقول: أفْصحَ الصُّبحُ، إذا ظَهَر. والكلامُ الفصيحُ ما كان واضح المعنى، سهل اللفظِ، جيِّدَ السَّبكِ. ولهذا وجَبَ أن تكونَ كلُّ كلمة فيه جاريةً على القياس الصَّرفى[1]. بيِّنة فى معناها، مفهومةً عَذْبةً سلِسة.

وإنما تكونُ الكلمة كذلك إذا كانت مألُوفةَ الاستعمال بين النابهين من الكتاب والشعراء، لأنه لم تَتَداولها ألسنتُهم، ولم تُجرِبها أقلامُهم، إلا لمكانها من الحُسْن باستكمالها جميع ما تقدم من نُعوت الجودة وصِفات الجمال.

والذوقُ السليمُ هو العُمدةُ فى معرفةِ حُسن الكلمات بسَلاستِها، وتميز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الاستكراه؛ لأن الألفاظَ أصواتٌ، فالذى يطْربُ لصوت البُلبُل، وينفر من أصوات البُوم والغِربان ينبُو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبةً مُتَنافِرةَ الحروف[2]. ألا ترى أن كلمتَىْ «المُزْنة» و«الدِّيمة» للسحابة الممطرة، كلتيهما سهلَةٌ عذبةٌ يسكن إليها السمع، بخلاف كلمة «البُعَاق» التى فى معناهما؛ فإنهاقبيحة تَصُك الآذان. وأمثال ذلك كثير فى مفردات اللغة تستطيع أن تدركه بذَوْقك.

(*) نشرت فى مقدمة كتاب البلاغة الواضحة عام ١٩٣٢م.

(١) ففى قول المتنبى:

فلا يُبرِم الأمر الذى هو حالل ... ولا يُحلل الأمر الذى هو يبرم

غير فصيح؛ لأنه اشتمل على كلمتين غير جاريتين على القياس الصرفى، وهما حالل، ويحلل، فإن القياس حالّ ويحل، بالإدغام.

(٢) تنافر الحروف: وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم المكتسب بالنظر فى كلام البلغاء وممارسة أساليبهم.

ويُشترط فى فصاحة التركيب فوقَ جريان كلماته على القياس الصحيح وسهولتها، أن يسلم من ضَعفِ التأليف، وهو خروج الكلام عن قواعد اللغة المطردة، كرجوع الضمير على متأخر لفظًا ورتبةً فى قول سيدنا حَسان رضى الله عنه(١):

ولو أنَّ مجدا اخلَـد الدهْر واحِـدًا　　　مِنَ النَّاسِ أَبْقى مَجْدُهُ الـدَّهْر مُطْعِما(٢)

فإن الضمير فى « مجده» راجع إلى « مطعما» وهو متأخـر فى اللفظ كما ترى ، وفى الرتبة لأنـه مفعول به ، فالبيت غير فصيح .

ويشترط أن يسلم التركيب من تنافـر الكلمات ، فلا يكون اتصال بعضها ببعـض مما يسبب ثقلها على السمع ، وصعوبة أدائها باللسان ، كقول الشاعر:

وقبر حـــرب بمكـــان قفـــر　　　وليـس قـــرب قبر حـــرب قبر(٣)

قيل إن هذا البيت لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثـلاث مرات متواليات دون أن يتتعتع(٤)، لأن اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفهـا ، يحدثان ثقلاً ظاهرًا ، مع أن كل كلمة منه لو أخـذت وحدها كانت غير مستكرهة ولا ثقيلة .

ويجب أن يسلم التركيب من التعقيد اللفظى ، وهو أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد بسبب تأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية أو بالفصل بين الكلمات التى يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعـض ، فإذا قلت : « ما قرأ إلا واحـدا محمد مع كتـابا أخيـه» كان هـذا الكلام غير فصيح لضعف تأليفـه ، إذ أصلـه « ما قـرأ محمـد مع أخيه إلا كتـابـا واحـدا» ، فقدمت الصفـة على الموصوف ، وفصل بين المتلازمين ، وهما أداة الاستثناء والمستثنى ، والمضاف والمضاف إليه . ويشبه ذلك قول أبى الطيب المتنبى(٥) :

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد؟(٦) .

---

(١) هو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أجمعت العـرب على أنه أشعر أهل المدر. قيل إنه عاش ١٢٠ سنة ، ٦٠ فى الجاهلية و٦٠ فى الإسلام ، وتوفى سنة ٥٤ هـ.

(٢) هو مطعم بن عـدى ، أحد رؤسـاء المشركين ، وكان يذب على النبى ﷺ . ومعنى البيت أنـه لو كـان مجد الإنسان أو شرفه سببًا لطول حيـاته وخلوده فى هـذه الدنيـا ، لكان مطعم بن عـدى أولى الناس بالخلـود ، لأنه حـاز من المجد والسؤدد ما لم يحزه غيره .

(٣) البيت من الرجز ، ولا يعرف قائله ، ولعله مصنوع .

(٤) تعتع فى الكلام : تردد فيه من حصر أو عىّ .

(٥) أبو الطيب المتنبى هو أحمد بن الحسين الشـاعر الطائر الصيت ، كان من المطلعين على غريب اللغة ، وشعـره غاية فى الجودة ، يمتاز بالحكمة وضرب الأمثـال وشرح أسرار النفوس ، ولد بالكوفه فى محلة تسمى كنـدة سنة ٣٠٣هـ ، وتوفى سنة ٣٥٤هـ .

(٦) الثقلان : الإنس والجن ، والبيت من قصيدة طويلة فى مدح شجاع بن محمد الطائى .

والوضع الصحيح أن يقول : كيف يكون آدم أبا البرية ، وأبوك محمد، وأنت الثقلان؟ يعنى أنه قد جمع ما فى الخليقة من الفضل والكمال، فقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما « أبوك محمد»، وقدَّم الخبر على المبتدأ تقديماً قد يدعو إلى اللبس فى قوله «والثقلان أنت» على أنه بعد التعسف لم يسلم كلامه من سخف وهذر.

ويجب أن يسلم التركيب من التعقيد المعنوى، وهو أن يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيها كلمات فى غير معانيها الحقيقية، فيسىء اختيار الكلمات للمعنى الذى يريده، فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع مثال ذلك أن كلمة « اللسان» تُطلق أحيانًا ويُراد بها «اللغة»، قال تعالى: ﴿ومَا أرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أى ناطقًا بلغة قومه، وهذا استعمال صحيح فصيح، فإذا استعمل إنسانٌ هذه الكلمة فى الجاسوس، وقال: «بثَّ الحاكم ألسنته فى المدينة» كان مخطئًا، وكان فى كلامه تعقيدٌ معنوى، ومن ذلك قول امرئ القيس[1] فى وصفِ فرَس:

وأركبُ فى الـرَّوعِ خَيفَـانَـةً ... كسـا وجهَهَـا سَعفٌ منتشر[2]

الخيفانة فى الأصل الجرادة، ويريد بها هنا الفرس الخفيفة، وهذا لا بأس به وإن كان تشبيه الفرس بالجرادة لا يخلو من ضعف، أما وصف هذه الفرس بأن شعر ناصيتها طويل كسعف النخل يُغطِّى وجهها، فغير مقبول؛ لأن المعروف عند العرب أن شعر الناصية إذاغَطَّى العينين لم تكن الفرس كريمة ولم تكن خفيفة. ومن التعقيد المعنوى قول أبى تمَّام[3].

جَذَبتُ نَداه غدوة السَّبتِ جذبةً ... فخَرَّ صريعًا بين أيدى القصائد[4]

فإنه ما سكت حتى جعل كرم ممدوحه يخرُّ صريعًا. وهذا من أقبح الكلام.

* * *

أما البلاغة فهى تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة، لها فى النفس أثر خلاب، مع ملائمة كلِّ كلام للموطن الذى يقال فيه، والأشخاص الذين يُخاطَبون.

فليست البلاغة قبلَ كل شىء إلا فنًّا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفِطرى ودقة إدراك الجمال. وتبين الفروق الخفية بين صنوف الأساليب. وللمرانة يدٌ لا تُجحد فى تكوين الذوق الفنىّ، وتنشيط المواهب الفاترة، ولابد للطالب إلى جانب ذلك من قراءة طرائف الأدب، والتَّملُّؤ من نَميره

---

(١) هو رأس شعراء الجاهلية وقائدهم إلى الافتنان فى أبواب الشعر وضروبه، ولد سنة ١٣٠ ق. هـ، وآباؤه من أشراف كندة وملوكها، وتوفى سنة ٨٠ ق. هـ، وله المعلقة المشهورة.

(٢) الروع: الفزع، والسعفة: جمع سعفة وهى غصن النخل.

(٣) أبو تمام: هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر المشهور. كان واحدَ عصره فى الغوص وراء المعانى وفصاحة الشعر وكثرة المحفوظ، وتوفى بالموصل سنة ٢٣١ هـ.

(٤) الندى: الجود. وخرَّ صريعًا: سقط على الأرض.

الفياض، ونقد الآثار الأدبية والموازنة بينها، وأن يكون له من الثقة بنفسه ما يدفعه إلى الحكم بحسن ما يراه حسنًا وبقُبْح ما يَعُدُّه قبيحًا.

وليس هناك من فرق بين البليغ والرَّسام إلا أن هـذا يتناول المسموع من الكلام، وذلك يُشاكل بين المرئى من الألوان والأشكال، أما فى غير ذلك فهما سواء، فالرسام إذا هَمَّ برسم صورة فكَّر فى الألوان الملائمة لها، ثم فى تأليف هذه الألوان بحيث تختَلِب الأبصار وتثير الوجدان، والبليغ إذا أراد أن ينشئ قصيدة أو مقالـة أو خطبة فكر فى أجزائهـا، ثم دعا إليه من الألفاظ والأسـاليب أخفها على السمع، وأكثرها اتصالاً بموضوعه. ثم أقواها أثرًا فى نفوس سامعيه وأروعَها جمالاً.

فعناصر البـلاغة إذًا لفظٌ ومعنًى وتأليف لـلألفاظ يَمنَحُها قـوة وتأثيرًا وحُسنًا. ثم دقـةٌ فى اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومـواقعه وموضوعاته وحال السـامعين والنَّزعةِ النفسية التى تتملَّكهم وتُسيطِرُ على نفوسهم، فَرُبَّ كلمة حسُنتْ فى مـوطن ثم كانت نابية مُسْتكرَهةً فى غيره. وقديمًا كرِه الأدباء كلمة «أيضًا» وعَدُّوها من ألفاظ العلماء، فلم تَجرِ بها أقلامهم فى شعر أو نثر، حتى ظَهَرَ بينهم من قال:

رب ورقـاء هتـوف فـي الضحى ... ذاتِ شـجـو صـدحـت في فنـن(١)
ذكـرت إلفًـــا ودهــرًا ســـالفًا ... فبكت حزنًـا فهـاجت حَـزَنـى(٢)
فبكـــــائى ربَّما أرَّقهـــــا ... وبكـــاهـــا ربمـــا أرَّقنـــي(٣)
ولقـــد تشكـــو فما أفهمهـــا ... ولقـــد أشكـــو فمـــا تفهمنـــي
غيـــر أنـــى بالجـــوى أعــرفهـــا ... وهـي «أيضًا» بالجـوى تعرفني(٤)

فوضع «أيضًا» فى مكـان لا يتطلب سواها ولا يتقبَّل غيرها، وكـان لها من الرَّوعة والحُسن فى نفس الأديب ما يعجز عنها البيان.

ورُبَّ كلام كان فى نفسـه حسنًا خلابًا حتى إذا جاء فى غير مكانـه، وسقَطَ فى غير مسقَطِه، خرج عن حدِّ البلاغة، وكان غرضًا لسهام الناقدين.

ومن أمثلة ذلك قول المتنبى لكافور الإخشيدى(٥) فى أول قصيدة مدحه بها:

كفى بِكَ داءً أن تـرى الموتَ شافيـا ... وحَسْبُ المنـايـا أن يكُنَّ أمانيـا(٦)

---

(١) الورقاء: الحمامة فى لونها بياض إلى سواد. والهتوف: كثير الصياح. والشجـو: الهم والحزن. والصدح: رفع الصوت بالغناء، والفنن: الغصن.

(٢) الإلف: الأليف. (٣) الأرق: السهر، وأرقها: أسهرها.

(٤) الجوى: الحرقة وشدة الوجد.

(٥) كافور الإخشيـدى: هو الأمير المشهور صاحب المتنبى، وكان عبدًا اشتراه الإخشيـد ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه وأعتقـه، فترقى عنده، ومـا زالت همته تسمـو به حتى ملك مصر سنة ٣٥٥ هـ، وكان مع شجـاعته فطنًـا ذكيًا حسن السياسة، وتوفى بمصر سنة ٣٥٧ هـ.

(٦) كفى بك: أى كفاك، فالباء زائدة، والمنايا جمع منيـة، وهى الموت. والأمانى: جمع أمنية، وهى الشىء الذى تتمناه؛ يخاطب بها أبو الطيب نفسه ويقول: كفاك داءً رؤيتك الموت شـافيًا لك، وكفى المنية أن تكون شيئًا تتمناه.

وقوله فى مدحه :

وما طربى لـمَّا رأيتُك بـدْعةً لقـد كنتُ أرجـو أن أراك فأطـربُ

قال الواحدى[1] : هذا البيت يشبه الاستهزاء ، فإنه يقول : طربتُ عند رؤيتك كما يطرَبُ الإنسان لرؤية المضحكات . قال ابن جنّى[2]: لما قرأت على أبى الطيب هذا البيت قلت له : ما زِدتَ على أن جعلت الرجل قردًا . فضحك . ونرى أن المتنبى كـان يغلى صدرُه حِقـدًا على كافـور وعلى الأيام التى ألجأته إلى مـدحه ؛ فكانت تفِـر من لسانـه كلماتٌ لا يستطيع احتباسها ، وقـديمًا زَلّ الشعراء لمعنى أو كلمة نفَّـرت سامعيهم ، فأخرجت كلامهم عن حـد البلاغة ، فقد حكـوا أن أبا النجم[3] دخل على هشام ابن عبد الملك وأنشده :

صفـراء قـد كـادت ولــمَّــا تفعل كأنَّها فى الأفـقِ عين الأحـــول[4]

وكان هشام أحْول ، فأمر بحبسه .

ومدح جرير[5] عبد الملك بن مروان بقصيدة مطلعها :

«أتَصْحو أمْ فؤادُك غيرُ صاحِ» فاستنكر عبد الملك هذا الابتداء وقال له : بل فؤادك أنت .

ونعى علماء الأدب على البُحْتُرى[6] أن يبدأ قَصيدةً يُنشدها أمام ممدوحه بقوله :

«لكَ الوَيلُ مِنْ لَيلٍ تقاصَرَ آخِرُه» .

وعابوا على المتنبى قولَهُ فى رثاء أمّ سيف الدولة[7]:

---

(١) الواحدى : مفسر عالم بالأدب ، مولده ووفاته بنيسـابور ، وكتبه البسيط والوسيط والوجيز فى التفسير مخطوطة . وشرحه لديوان المتنبى مطبوع . توفى سنة ٤٦٨ هـ .

(٢) ابن جنى : هو مـن أئمة النحو بـالعربية ، ولـد فى الموصل وتوفى ببغـداد سنة ٣٩٢ هـ . ومن مـؤلفاتـه الخصائص فى اللغة ، وكان المتنبى يقول : ابن جنى أعرف بشعرى منى .

(٣) أبو النجم : هو الفضل بن قدامة ، وهو من رجال الإسلام ، والفحول المتقدمين فى الطبقة الأولى منهم ، وله مع هشام ابن عبد الملك أخبار طويلة ، وكانت وفاته آخر دولة بنى أمية .

(٤) قيل هذا البيت فى وصف الشمس . والأحول : من بعينـه حول ، وهو ظهور البياض فى مؤخـر العين ، ويكون السواد من قبل المَآق .

(٥) جرير : هو ابن عطية التميمى ، أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين فى دولة بنى أمية ، وهـم الأخطل وجرير والفرزدق ، وقد فاق صاحبيه فى بعض فنون الشعر ، وتوفى سنة ١١٠ هـ .

(٦) البحترى : شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسيـة ، سئل أبو العلاء المعرى : من أشعر الثلاثة ، أبو تمام أم البحترى أم المتنبى؟ فقال أبو تمام والمتنبى حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى . وكـانت ولادته بمنبج (وهى بلد قديمة بين حلب والفرات) ، وتوفى بها سنة ٢٨٤ هـ .

(٧) سيف الدولة : هو أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان ، كان ملكـًا على حلب ، وكان أديبًا شاعرًا مجيدًا الجيد الشعر شديد الاهتزاز له ؛ قيل لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعـد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء ، وقد انقطع المتنبى إليه وخصه بمدائحه . وكانت ولادته سنة ٣٠٣ هـ وهى سنة ولادة المتنبى ، ووفاته سنة ٣٥٦ هـ بعد مقتل المتنبى بسنتين .

صـلاة الله خـالِقِنـا حَنـوطٌ على الـوجْـهِ المُكفَّنِ بـالجمال[1]

قال ابن وَكِيع[2]: إن وصفَه أمَّ الملك بجمال الوجه غير مختار.

وفى الحق أن المتنبى كان جريئًا فى مخاطبة الملوك، ولعلَّ لعظم نفسه وعبقريَّته شأنًا فى هذا الشذوذ.

إذًا لا بد للبليغ أولا من التفكير فى المعانى التى تجيش فى نفسه، وهذه يجب أن تكون صادقة ذات قيمة وقوة يظهر فيهـا أثر الابتكار وسلامة النظر ودقة الـذوق فى تنسيق المعانى وحسن ترتيبها، فإذا تم له ذلك عَمدَ إلى الألفـاظ الواضحة المؤثرة الملائمة، فألَّـف بينها تأليفًا يكسبها جمالاً وقوة، فـالبلاغة ليست فى اللفظ وحـده، وليست فى المعنى وحـده، ولكنهـا أثرٌ لازمٌ لسـلامـة تأليف هـذين وحُسن انسجامهما.

* * *

بعد هذا يحسن بك أن تعرف شيئًا عن الأسلوب الذى هو المعنى المَصُوغُ فى ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنَيْل الغرض المقصود من الكلام وأفعل فى نفوس سامعيه. وأنواع الأساليب ثلاثة:

(١) الأسلـوب العلمي: وهـو أهـدأ الأسـاليب، وأكثرهـا احتيـاجًـا إلى المنطق السليم والفكـر المستقيم، وأبعـدُها عـن الخيال الشعـرىّ؛ لأنـه يخاطب العقل، ويناجى الفكر، ويشرح الحقـائق العلمية التى لا تخلو من غموض وخفـاء. وأظهرُ ميزات هذا الأسلوب الوضـوحُ، ولا بد أن يبدو فيه أثر القوة والجمال، وقوته فى سطـوع بيانه ورصانة حججه، وجماله فى سهولة عبـاراته وسلامة الذوق فى اختيار كلماته، وحُسن تقريره المعنى فى الأفهام من أقرب وجوه الكلام.

فيجبُ أن يُعنى فيه باختيار الألفاظ الواضحة الصريحة فى معناها الخالية من الاشتراك، وأن تؤلَّف هذه الألفاظ فى سهولة وجلاء، حتى تكون ثوبًا شَفًّا للمعنى المقصود، وحتى لا تصبح مثارًا للظنون، ومجالاً للتوجيه والتأويل.

ويحسن التنحِّى عن المجاز ومُحسِّنات البديع فى هذا الأسلوب؛ إلا ما يجيء من ذلك عفوًا من غير أن يمس أصلاً من أصولـه أو ميزة من ميزاته. أمـا التشبيه الذى يُقصد به تقـريب الحقائق إلى الأفهام وتوضيحُها بذكر مماثلها، فهو فى هذا الأسلوب حسن مقبول.

ولسنا فى حاجة إلى أن نلقى عليك أمثلة لهذا النـوع، فكتبُ الدراسة التى بين يديك تجرى جميعُها على هذا النحو من الأساليب.

---

(٨) الصلاة: الرحمة. والحنوط: طيب يخلط للميت. يدعو لها بأن تكون رحمة الله لها بمنزلة الحنوط للميت.

(٩) ابن وكيع: شاعر مجيد، أصله من بغداد، ولد فى تنيس بمصر وتوفى بها سنة ٣٩٣ هـ وله ديوان شعر.

(٢) الأسلوب الأدبى: والجمال أبرز صفاته، وأظهر مُميزاته، ومَنشأُ جماله ما فيه من خيال رائع، وتصوير دقيق، وتلمُّس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء، وإلباس المعنوىّ ثوب المحسوس، وإظهار المحسوس فى صورة المعنوىّ.

فالمتنبى لا يرى الحُمَّى الراجعة كما يراها الأطباء أثرًا لجراثيم تَدخل الجسم فترفع حرارته وتسبب له رِعْدة وقُشَعْريرَةً. حتى إذا فرغت نوبَتُها تَصبَّب الجسم عرَقًا، ولكنه يُصوِّرها كما تراها فى الأبيات الآتية:

وَزَائِرتى كأَنَّ بها حَيَاءً ... فلَيْس تَزُورُ إلا فى الظلاَّم[1]
بذَلتُ لَها المَطَارف والحَشَايَا ... فَعَافتها وباتتْ فى عظامى[2]
يضيقُ الجلدُ عَنْ نَفَسِى وعنها ... فَتُوسِعُهُ بِأنواعِ السَّقَام[3]
كأنَّ الصبحَ يطْرُدُها فتجرى ... مَدَامِعُها بأربعة سجام
أُراقِبُ وقْتَها مِنْ غَيْرِ شَوق ... مُرَاقَبَةَ المَشُوق المُسْتَهَام[4]
ويصْدُقُ وعْدُهَا والصِّدْقُ شرٌّ ... إذَا أَلْقَاكَ فى الكُرَبِ العِظَام[5]
أبِنتَ الدَّهْرِ عِنْدى كُلُّ بنْتٍ ... فكيف وصَلتِ أنتِ مِن الزِّحام؟[6]

والغُيُوم لا يراها ابن الخياط[7] كما يراها العالِمُ بخارًا مُتراكِمًا يَحُولُ إلى ماء إذا صادف فى الجو طبقة باردة، ولكنه يراها:

كأنَّ الغيومَ جُيُوشٌ تَسُومُ ... من العدْل فى كلِّ أرض صلاحا[8]
إذا قَاتَلَ المحْل فيها الغَمَامُ ... بصَوبِ الرِّهام أجَادَ الكِفاحَا[9]

---

(١) الواو: واو رب، أى رب زائرة لى، يريد بهذه الزائرة الحمى وكانت تأتيه ليلا، يقول: كأنها فتاة ذات حياء؛ فهى تزورنى تحت سواد الليل.

(٢) المطارف: جمع مطرف كمكرم وهو رداء من خز، الحشايا: جمع حشية وهى الفراش المحشو، وعافتها: أبتها. يقول: هذه الزائرة، أى الحمى، لا تبيت فى الفراش، وإنما تبيت فى العظام.

(٣) يقول: جلدى يضيق عن أن يسع أنفاسى ويسعها، فهى تذيب جسمى وتوسع جلدى بما تصيبه به من أنواع السقام.

(٤) يقول: إنه يراقب وقت زيارتها خوفًا لا شوقًا.

(٥) يريد بوعدها: وقت زيارتها، ويقول إنها صادقة الوعد لأنها لا تتخلف عن ميقاتها، وذلك الصدق شر، لأنها تصدق فيما يضر.

(٦) يريد ببنت الدهر الحمى، وبنات الدهر شدائده، يقول للحمى: عندى كل نوع من أنواع الشدائد، فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول إلىّ؟

(٧) ابن الخياط: شاعر من أهل دمشق، طاف بالبلاد يمتدح الناس، وعظمت شهرته. وله ديوان شعر مشهور، توفى بدمشق سنة ٥١٧هـ.

(٨) تسوم من العدل فى كل أرض صلاحًا، أى: تولى كل أرض صلاحًا بالخصب والنماء.

(٩) المحل: الجدب وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ، والصواب: نزول المطر، والرهام: جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم، والكفاح: القتال والمدافعة.

يُقَـرطِسُ بـالطَّـلِّ فيـه السِّهـامَ ... ويُشرِعُ بـالـوَبْلِ فيـهِ الرِّمـاحـا[1]
وسـلَّ عليــــهِ سُيُـــوفَ البرُوقِ ... فأثخَن بـالضرْب فيـه الجراحــا[2]
تُــرى ألسنُ النَّـــوْرِ تُثنى عَليـــهِ ... فتَعْجَبُ منهن خُـرْسًـا فصاحـا[3]

وقـد يتظاهـر الأديب بإنكار أسبـاب حقائق العلم، ويَتلمَّس لها من خيـاله أسبـابًا تُثبت دعـواه الأدبية وتُقوِّى الغرض الـذى ينشدُهُ، فكَلَفُ البدر الذى يظهر فى وجهه ليس نـاشئًا عما فيه من جبال وقيعان جافة كما يقول العلماء، لأن المعرِّى[4] يرى لذلك سببًا آخر، فيقول فى الرثاء:

ومـا كلفـةُ البـدْرِ المُنير قَـديمـة ... ولكنهـــا فى وجْهـِهِ أثــرُ اللَّطمِ[5]

ولا بد فى هذا الأسلوب من الوضوح والقوة؛ فقول المتنبى:

قِفى تغـرم الأولى من اللَّحْظِ مُهجتى ... بِثانيةٍ والمُتْلِــفُ الشىءَ غَارِمُه[6]

غير بليغ؛ لأنه يـريد أنـه نظر إليهـا نظرة أتلفت مهجتـه، فيقول لها قفى لأنظـر نظرة أخـرى ترد إلىَّ مهجتى وتُحييها، فإن فعلْتِ كانت النظرة غرمًا لما أتلفته النظرة الأولى.

فانظر كيف عانينـا طويلاً فى شرح هذا الكلام الموجز الذى سبَّب مـا فيه من حذف وسوء تأليف شِدَّة خفائه وبُعده عن الأذهان، مع أن معناه جميل بديع، وفكرته مُؤيَّدة بالدليل.

وإذا أردت أن تَعرف كيف تَظهر القوةُ فى هذا الأسلوب، فاقرأ قول المتنبى فى الرثاء:

مـا كنتُ آمُـلُ قبلَ نعْشكَ أن أرى ... رضوَى على أيـدِى الرجَـالِ يَسيرُ[7]

ثم اقرأ قول ابن المعتز[8]:

---

(١) القرطاس: الغرض أو الهدف، ويقال: قرطس الرامى إذا أصاب القرطاس أى: الغرض، فهو يقول: إن الغمام يسدد السهام إلى المحل فيقضى عليه، ومعنى يشرع الرماح: يسددها، والوبل: المطر الشديد الضخم القطر.

(٢) أثخن بالضرب فيه الجراح: بالغ الجراحة فيه.

(٣) النَّور: الزهر.

(٤) المعرى: هـو أبو العلاء المعـرى اللغوى الفيلسوف الشاعـر المشهور، ولد بـالمعرة وهى بلد صغير بـالشام، وعمى من الجدرى وهو فى الرابعة من عمره، وتوفى بالمعرة سنة ٤٤٩ هـ.

(٥) الكلفة: حمرة كدرة تعلو الوجه.

(٦) غرم مـا أتلفه: لـزمه أداؤه. وتغرم: جـواب قفى، وفاعلـه: الأولى، ومن اللحظ: بيان لـلأولى، ومهجتى: مفعول تغرم.

(٧) رضوى: اسم جبل بالمدينة، شبه المرثى به لعظمته وفخامة قدره.

(٨) ابن المعتز: هو عبد الله بن المعتز العباسى، أحد الأدباء العبـاسيين، منزلته فى الشعر والنثر رفيعة. ويشتهر بتشبيهاته الرائعة، وهو أول من كتب فى البديع، توفى سنة ٢٩٦ هـ.

قــدْ ذَهَب النـــاسُ ومـــات الكمالْ	وصَاحَ صَرفُ الـدَّهر أينَ الـرِّجالْ؟
هـــذا أبـــو العبَّـــاس فى نَعْشِـــه	قُــومُــوا انْظُــروا كيف تسيرُ الجبـالْ

تجد أن الأسلوب الأول هادئ مطمئن، وأن الثانى شديدُ المِرَّة عظيـم القوة، وربما كانت نهايةُ قوته فى قوله: «وصاح صرفُ الدهر أين الرجالْ» ثم فى قوله: «قوموا انظروا كيف تسير الجبال».

وجملة القول أن هـذا الأسلوب يجب أن يكون جميلاً رائعًـا بديع الخيال، ثم واضحًا قـويًّا. ويظن الناشئون فى صناعة الأدب أنه كلما كثر المجاز وكثرت التشبيهات والأخيلة فى هذا الأسلوب زاد حسنه، وهـذا خطأ بيِّن، فإنه لا يـذهب بجمال هذا الأسلـوب أكثـر من التكلف، ولا يفسده شرٌّ من تَعمُّـد الصناعة، ونعتقد أنه لا يعجبك قول الشاعر:

فأمْطَرتْ لـؤلؤًا من نَـرجِس وسقَتْ	وَرْدًا وعَضَّتْ على العُنَّـاب بـالبَرَدِ[1]

هذا ومن السهل عليك أن تعرف أن الشعر والنثر الفنى هما مَوطِنا هذا الأسلوب، ففيهما يبلغ قُنَّة الفنِّ والجمال.

(٣) الأسلوب الخطابى: وهنـا تبرُزُ قوة المعـانى والألفاظ، وقـوة الحجـة والبرهان، وقـوة العقل الخصيب، وهنا يتحدث الخطيـب إلى إرادة سامعيه لإثارة عزائمهم واستنهـاض هممهم. ولجمال هذا الأسلوب ووضوحه شأن كبير فى تأثيره ووصوله إلى قرارة النفوس، ومما يزيد فى تأثير هذا الأسلوب منزلة الخطيب فى نفوس سـامعيه وقـوةُ عارضتـه، وسطوع حجتـه، ونَبَرات صوته، وحُسـنُ إلقائه، ومُحكَم إشارته.

ومن أظهر مميزات هذا الأسلوب التكرارُ، واستعمال المترادفات، وضربُ الأمثال، واختيار الكلمات الجزلـة ذات الـرنين، ويحسن فيـه أن تتعـاقـب ضروب التعبير من إخبـار إلى استفهـام إلى تعجب إلى استنكار، وأن تكون مواطن الوقف فيه قوية شافية للنفس. ومن خير الأمثلة لهذا الأسلوب خطبة على ابن أبى طالب[2] ـ رضى الله عنـه ـ لمَّا أغار سُفيانُ بن عـوفٍ الأسدِى[3] على الأنبارِ[4] وقتل عامله عليها:

«هذا أخُو غامدٍ قد بَلغَتْ خيلُه الأنْبار وقَتَلَ حسَّانَ البَكرىَّ[5] وأزالَ خيلَكُم عن مَسَالحِها[6] وقتَلَ منكم رجالاً صالِحِين.

---

(١) العناب: ثمر أحمر تشبه به الأنامل، والبرد: حبّ الغمام، وتشبه به الأسنان.

(٢) على ابن أبى طالب: هـو رابع الخلفاء الراشدين، وأحـد السابقين فى الإسلام، وابن عم رسول الله ﷺ وصهـره. وقد اشتهر ببلاغته وشجاعته، توفى سنة ٤٠ هـ.

(٣) سفيان بن عوف الأسدى: هو أحد بنى غامد، وهى قبيلة باليمن، وقد بعثه معاوية لشن الغارة على أطراف العراق.

(٤) الأنبار: بلدة على الشاطئ الشرقى للفرات.

(٥) حسان البكرى: هو عامل على ـ رضى الله عنه ـ على الأنبار.

(٦) المسالح: جمع مسلحة، بالفتح، وهى الثغر حيث يخشى طروق العدو.

وقد بلَغَنى أن الرَّجُلَ منهم كان يَدْخُل على المرأةِ المُسلِمة والأخرى المعاهِدة(١)، فَيَنزِعُ حِجْلَهَا(٢)، وقُلُبَها(٣)، ورِعَاثَهَا(٤)، ثم انصَرَفوا وَافِرِين(٥) ما نالَ رجلا منهم كَلْمٌ(٦)، ولا أريقَ لهم دَمٌ، فلو أن رجُلا مُسْلمًا مات مِنْ هذا أسَفًا، ما كان به ملومًا، بل كان عِنْدِى جديرًا.

فَواعجَبًا مِنْ جِدِّ هؤلاء فى بَاطِلِهم، وفَشَلِكُمْ عنْ حقِّكُم. فَقُبْحًا لكُم حِينَ صِرْتُم غَرَضًا يُرْمَى(٧)، يُغار عليكم ولا تُغِيرُون، وتُغْزَوْن وَلا تغزونَ، ويُعْصى الله وتَرْضَوْن»(٨).

فانظر كيف تـدرج ابن أبى طالب فى إثارة شعور سامعيه حتى وصل إلى القمَّـةِ فإنه أخبرهـم بغَزْو الأنبـار أولاً، ثم بقتل عاملـه، وأنَّ ذلك لم يكْف سُفْيـان بن عوْف فأغْمـد سيـوفه فى نحـور كثير من رجالهم وأهليهم.

ثم تـوجه فى الفقرة الثـانية إلى مكـان الحمية فيهم، ومثـار العزيمـة والنخوة من نفس كل عـربى كريم، ألا وهو المرأة، فإن العرب تبذل أرواحها رخيصة فى الذود عنها، والدفاع عن خِدرها. فقال: إنهم استباحوا حماها، وانصرفوا آمنين.

وفى الفقرة الثالثة أظهر الدَّهَش والحَيْرة من تمسك أعدائه بالباطل ومناصرته، وفشل قومه عن الحق وخذلانه. ثم بلغ الغيظ منه مبلغه فعَيَّرهم بالجُبن والخَوَر.

هذا مثال من أمثلة الأسلوب الخطابى نكتفى به فى هذه العجالة، ونرجو أن نكون قد وُفقنا إلى بيان أسرار البلاغة فى الكـلام وأنواع أساليبه، حتى يكون الطالب خبيرًا بأفـانين القول، ومواطن استعمالها وشرائط تأديتها، والله الموفق.

---

(١) المعاهدة: الذمية.
(٢) الحجل: الخلخال.
(٣) القلب، بالضم: السوار.
(٤) الرعاث: جمع رعثة، القرط.
(٥) وافرين: تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم.
(٦) الكلم، بالفتح: الجرح.
(٧) الغرض: ما ينصب ليرمى بالسهام ونحوها.
(٨) يشير بالعصيـان إلى ما كـان يفعله جيش معـاوية من السلب والنهب والقتل فى المسلمين والمعـاهدين، أمـا رضا أهل العراق بهذا العصيان، فكناية عن قعودهم عن المدافعة، إذ لو غضبوا لهموا إلى القتال.

رأى الأستاذ على الجارم
فى الشعر والشعراء (*)
بمناسبة وفاة الشاعرين شوقى وحافظ

لو أردت أن أصور لك تلك الجوانب الضافية، التى تتميز بها شخصية العالم الأديب، والأديب العالم، والشاعر الفحل الأستاذ «الجارم» لطال بى القول؛ وحسبى أن أقول لك إنه عالم فذ فى فنون اللغة والبلاغة والأدب، وبَحَّاثة بعيد الغور فى تاريخ اللغة وما يتصل بها من: نحو وصرف، وبيان. وهو حين يزجى إليك رأيًا من آرائه، إنما يحرص على أن يدفع إليك الرأى الرصين، والفكرة السديدة، والعقل الراجح، والمنطق المتزن، والقول الفاره، والكلام السهل الممتنع. ثم يحرص - إلى ذلك - على أن يكون رأيه مشفوعًا بالحجة والبرهان، مقترنًا بالمنطق والدليل. وقد يكون كل ما يؤخذ عليه أنه - وهو الشاعر الفحل، الرائع اللفظ، السَرِى المعنى، البعيد الخيال - مُقِل فى قول الشعر، فلا يقوله إلا فى أدق ساعاته، لا عن عجز، وإنما سموًا به عن الابتذال، وترفعًا عن المهاترة.

فاجأته فى منزله بهذه الأسئلة، فأدهشنى منه أن يرتجل الإجابة عنها ارتجالاً، كأنما يقرأ من كتاب أمامه، أو يتلو قصيدة لما يتمها بعد، أو كأنما كنا على موعد سابق. وهأنذا أقدم إليك ما علق بذهنى من هذا الحديث، الذى بدأه بقوله:

هل أحدث موت الشاعرين فراغًا؟

إنه لمن العسف كل العسف أن ننكر أن ثمة فراغًا هائلاً قد حدث إثر موت هذين الشاعرين العظيمين، الذين أعادا من جديد سلطان الشعر إلى سابق عهده، وبسطا ظل زعامته فى الوادى بسطًا، على أن هذا الفراغ لا ينبغى أن يصرفنا بحال من الأحوال عن تلمس الشاعر المجهول الذى

(*) مجلة المعرفة الجزء التاسع - السنة الثانية - المجلد الرابع - العدد ٢١ أول يناير سنة ١٩٣٣ (رمضان ١٣٥١ هـ) ص ١٠٣٨ - ١٠٤٣. رئيس التحرير: عبد العزيز الإسلامبولى.

سيصبح أمير الشعر؛ وإذا كان هذا الشاعر المنتظر نسميه الآن بالمجهول ونعبر عنه بالحرف (س) كما يعبر الرياضيون، فإن المستقبل كفيل بالكشف عنه والإيماء إليه.

وهذا الذى رأيناه من تمجيد الأمة للشعر: حكومة وشعبًا، سيكون باعثًا قويًّا على خلق الروح الشعرية الحساسة، وبعث الشاعر الفنان الذى يؤدى رسالته فى عزم وقوة، وفى تجديد وتجويد، وفى روعة وافتنان؛ بل أستطيع أن أقول لك إن هذه الظاهرة ـ ظاهرة التقدير الأدبى للشعر والشعراء ـ ستحفز الشعراء إلى الإبداع فى القول، والافتنان فى الوصف، والتجويد فى البناء، والغوص وراء المعانى الرائعة، وتلمس المثل العالية، وكشف العواطف الإنسانية الدفينة، وتصوير الخوالج النفسية المصرية تصويرًا دقيقًا.

وقد يكون من حقى أن أعتقد اعتقادًا تام اليقين، أن الثغرة ـ التى منينا بها الآن بعد موت الشاعرين ـ أقل اتساعًا وأصغر مدى من تلك التى أحدثها موت «البارودى» فى عصره، وأنت تعلم ذلك الأثر الهائل الذى أحدثه موت «البارودى» فى دولة الأدب وبنيان الشعر، وقد تعلم أن الناس وقتذاك قد ذهبوا يتلمسون السبل فى تعرف الشاعر المنتظر، بل راحوا يظنون الظنون ويتنبئون ويقدرون، فتأبى الأقدار إلا أن تفاجئهم بـ «شوقى»، ليكون إعجازًا لإرهاص «البارودى» كما كان «البارودى» إعجازًا لإرهاص «الساعاتى».

أما كيف تسنم «شوقى» ذروة هذا المجد، فيعود إلى ما آتاه الله من المواهب الفطرية، والأخلاق الرضية، وبسطة العيش، والجاه، واتصال بالأمراء والعظماء، وسعة الثروة، والفراغ، وهدوء البال؛ فإن كل ذلك كان سببًا، وأى سبب، فى قبضه على صولجان الشعر حتى وفاته.

وقد كان «شوقى» مثقفًا بالغ الثقافة، متذوقًا كل التذوق لما يقرأ ويدرس من أدب العرب، ودواوين العرب، ولغة العرب، وأدب الفرنجة، ولغة الفرنجة ، . أضف إلى ذلك ما كان يحفظه من تواريخ الأمم، وحوادث العالم فى مختلف مراحله. مما يجعل شعره مملوءًا بالأسانيد التاريخية، والحكم، وضرب المثل، والتفنن فى الوصف، والبراعة فى التخلص، وحسن المدخل، وجميل الوقع.

وقد فاتنى أن أقول لك: إن أبرز ميزة كانت فى أخلاق «شوقى»، إنما هى الاستسلام إلى الخالق تعالى، والرضا بحكمه، والاطمئنان إلى قضائه وقدره، اطمئنانًا وفَّر له هدوء النفس وطمأنينة القلب، وراحة الضمير.

وقد لمست هذا كله فى محادثاتى معه، ومن صداقتى له؛ فعرفت منه السر فى هذا الينبوع الفائض، الذى أفاضه الله عليه؛ فإذا قدر لشاعر من شعرائنا المعاصرين هذا الذى ذكرت، فليس من شك فى أنه سيصبح أمير الشعر المنتظر.

مستقبل الشعر والشعراء

وتسألنى رأيى فى مستقبل الشعر، إذًا فاسمع :

لا شك فى أن الشعر سينهض نهوضًا بارزًا، وقد تأثر الآن بعوامل المدنية، وأصبح فى كثير من نواحيه صورة صادقة للعصر الذى نعيش فيه، وقد عاد أسلوبه إلى ما كان عليه من روعة فى العصر العباسى الزاهر، وأصبح ـ مرة أخرى ـ فنًّا له أصوله ومبادئه، وهو يقال الآن فى مختلف الموضوعات، ومتعدد الأفانين. والشعراء يتوجهون إليه فى غالب أحيانهم كما يتوجه رجل الفن إلى قطعة من الفن، يبرزها رغبة فى إظهار مواهبه، وتنفيسًا عما يجيش فى نفسه من صور، ويختلج فى ذهنه من خيال؛ فهو يقول الشعر لأنه يحبه، ولأنه جزء من نفسه، ولأن الفطرة تدفعه إلى أن يقوله. ولا شك فى أن ذلك كفيل بالإبداع والإحسان.

هل تأثر الشعر العربى بالثقافة الأجنبية؟

وتقول لى: إن الشعر العربى قد تأثر ـ إلى حد بعيد ـ بالثقافة الأجنبية، ولست أخالفك فيما تذهب إليه كل المخالفة، ولكنى أقول:

إن الشعر العربى كان قليل التأثر بالثقافة الأجنبية؛ لأن شعراء العربية أرادوا أن يحافظوا على أسلوب شعرهم القديم ومناهجه، ولم يريدوا أن يدخلوا عليه عاصفة من التجديد تذهب بآثاره؛ لأنهم رأوا ـ وما رأوه حق ـ أن كل فن يجب أن يكون مطبوعًا بطابع الأمة، ملائمًا ذوقها العام، ومثل الشعر فى ذلك الموسيقى. أرأيت لو أدخل على النغمات الشرقية عنصر من النغمات الغربية، أكانت تطرب لها أذنك، أم تهش لها نفسك؟ . . . فلكل أمة فنها، ولكل أمة ذوقها؛ لذلك حافظ الشعراء ـ ما استطاعوا ـ على أوزان الشعر وأساليبه وأخيلته، ولم يغفلوا التجديد فى المعانى والموضوعات، وقد اتسع صدر الشعر العربى لهذا التجديد، ولم تضق به أوزانه ولا قوافيه؛ لأن اتساع اللغة وكثرة مفرداتها ومترادفاتها، أفسح الطريق لكل قائل، كيفما طال نفسه، وأبعد فى مراميه.

أين الوحدة الموضوعية الفنية؟

وهنا قلت له: إن أغلب قصائد شعراء العرب والعصر الحاضر خال من الوحدة الموضوعية الفنية، فما رأيكم فى هذا؟

فقال: نشأ الشعر فى الجاهلية الأولى مظهرًا لخطرات النفس وأحاسيس الفؤاد، وبخاصة حينما كانوا يرتجلون الشعر، فكان الشاعر ينتقل من فكرة إلى أخرى، ومن مظهر من مظاهر الوجدان إلى آخر؛ لأن أصول الفن الشعرى لم تكن وضعت، فكان الشعر يقال عفو الخاطر ورسالة البديهة، وتستطيع أن تمثل لذلك بمعلقة «طرفة»، فقد تنقل فيها من وصف الأطلال إلى وصف الناقة إلى وصف محبوبته إلى الشكوى، إلى وصف ملاهيه ومجونه . . . إلى غير ذلك.

واستمر الشعر فى صدر الإسلام، وفى عهد بنى أمية على هذا السنن، إلا ما يبرز أحيانًا فى قصائد الشاعر من وصف الحياة الجديدة التى ابتعثتها الفتوح الإسلامية، وإلا ما كان من رشاقة الألفاظ ورقتها، مما تأثر فيه المسلمون بأسلوب القرآن الكريم، أى أن الأسلوب الشعرى الفنى تهذب كثيرًا واتسع مجال القول قليلاً بفنون جديدة؛ أما هيكل الشعر ومنهجه ومثله، فقد بقيت حافظة كيانها العربى الصميم، وربما كان من أسباب هذا قرب ذلك الجيل من عهود العرب الأولى، وشدة تعصب الأمويين للعرب والعربية؛ على أننا نرى فى ذلك العصر طائفة احتفظت بوحدة الموضوع فى قصائدها، وهم طائفة الشعراء الغزليين: كعمر بن أبى ربيعة، وجميل بثينة، وغيرهما ممن كان يبنى قصيدته على الغزل من أولها إلى آخرها، بحيث تكون مظهرًا لفكرة واحدة.

ولما جاءت الدولة العباسية ـ وقد قامت بمناصرة الفرس وجهادهم ـ كان للفرس والفارسية شأن يذكر، فانتقلت الحياة العربية الصميمة من البداوة إلى الحضارة، وامتزج العقل السامى بالعقل الآرى، ونهض الخلفاء فى صدر الدولة العباسية بمناصرة العلم والأدب، فترجموا كثيرًا من آثار اليونان والرومان؛ وكان لهذه الآثار مدى بعيد الأفق فى تثقيف العقول العربية، وإمدادها بألوان جديدة من الأفكار والأخيلة؛ وظهر هذا الأثر فى الشعر العباسى من غير شك، وكثرت معانيه، وجددت أخيلته، ورقت عبارته، وكان مظهرًا صحيحًا للحياة العباسية، يمثلها من حيث قوتها واتساع سلطانها، وعظم ثروتها، ومجالات الأنس والسرور فيها.

وقد اتسع نطاق متن اللغة بدخول كثير من الألفاظ الأعجمية بعد أن صقلها العرب بصقالهم، فامتزجت بلغتهم غير مستوحشة ولا نابية، وأصبحت ثروة جديدة للغة العربية؛ وقد كان يكون التجديد أعظم مما شهدناه، لولا ميل فطرى فى نفوس الشعراء للتمسك بآثار آبائهم، والمحافظة على مبانى الشعر وقواعده، ولولا أن كان هناك طائفة من النقاد على رأسهم الأصمعى، وحماد الراوية، وغيرهما ـ الذين كانوا يتعصبون للشعر العربى القديم، ويعدون كل خروج عليه خروجًا عن ذوق الشعر، وتقصيرًا عن بلوغ مداه ـ فكانوا لا يفضلون على الشعر الجاهلى شعرًا، وكان لهؤلاء من النفوذ بين كبار رجالات الأدب وزعماء الدولة الشىء الكثير، فكان الشعراء يتعمدون ترسم آثار السابقين لينالوا الزلفى عند هؤلاء النقاد.

وأول من أطلق فكره من هذه الأغلال ـــ على ما أعرف ـــ ابن قتيبة الذى وضع كتابه «الشعر والشعراء» لنقد زيف الشعر وصحيحه، دون التأثر بالقديم أو الجديد.

وقد حاول «أبو نُواس» الخروج على الشكل العربى فى بعض قصائده، فأخذ يهزأ بمن يبكون على الأطلال، ويندبون الرسوم فى طلائع قصائدهم، وهو الذى يقول:

صفة الطلول بلاغة الفدم فاجعل حديثك فى ابنة الكرم

وله ما يشبه هذا المطلع فى النعى على التمسك بالقديم، ولكننا نراه فى بقية شعره يحافظ على هذا السنن، ويأخذ نفسه به أخذًا. على أن الشعر قد ظهر فيه تجديد فى الأوزان فى هذا العصر؛ ولمسلم بن الوليد ـ وهو من وزن جديد ـ قوله:

يأيها المعمود	قد شفك الصدود
فأنت مستهام	حالفك السهود
تبيت ساهرًا قد	ودعك الهجود
وفى الفؤاد نار	ليس لها خمود

ولغيره من شعراء العباسيين أمثال لهذا، منثورة فى كتب الأدب.

وقد وجد شىء من التجديد فى القافية أيضًا، تراه واضحًا فى ديوان ابن المعتز.

فالتجديد فى هذا العصر حصل فى الوزن والقافية كل على حدة، ثم جاء ابتكار الموشح الأندلسى فجمع بينهما، فهو تجديد فى الوزن، وتجديد فى القافيه معًا، والموسيقى هى التى دفعت إلى ابتكار الموشح.

الشعر والموسيقى

ومن ثم سألنا الأستاذ أن يشرح لنا العلاقة بين الشعر والموسيقى، وعما إذا كان فى أشعار العرب ما يشبه ملاحم اليونان، فقال:

كان الشعر لا يسلس قياده لنغمات الموسيقى، فرأى الأندلسيون أن يضعوا النغمات أولاً، ثم يقولوا الشعر على هواها ثانيًا، وبذلك خضع الشعر للموسيقى، بعد أن خضعت الموسيقى للشعر طويلاً.

أجل، إن الشعراء فى هذا العصر لم يتجاوزوا الموضوعات المعروفة إلا قليلاً، فلم ينحوا نحو الشعر التمثيلى أو القصصى، الطويل القصائد، الكثير الملاحم، البعيد النفس؛ لأن الاهتمام ـ على ما يظهر لى ـ بترجمة العلوم كان فوق الاهتمام بترجمة الآداب، ولأن اتجاه الشعراء ـ فى أغلب مناحيه ـ كان للتكسب بالشعر؛ على أن الشعراء فى هذا العصر لم يتركوا حادثة ذات شأن من غير أن يسجلوها فى أشعارهم، وشعر المتنبى فياض بوصف وقائع سيف الدولة وملاحمه، ويكفى أن تقرأ قصيدته التى استهلها بقوله:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

لتعرف أن العرب لم يقصروا فى وصف الملاحم وتصوير الوقائع، ثم اقرأ بعد ذلك قصيدة أبى تمام فى وصف فتح «عمورية» التى استهلها بقوله:

السيف أصدق أنباءً من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب

تجد وصفًا ممتعًا وتصويرًا دقيقًا للملحمة. نعم، إن هذه القصائد ليست بالطوال، ولكنها على قصرها وافية بالغرض الذى سيقت له وقيلت فيه.

فنحن نستطيع الآن أن نقول: إن التجديد فى الشعر العباسى كان جليًّا، ولكنه حافظ على أسلوب الشعر العربى القديم وسننه ومناهجه.

تطور الشعر

ثم انتقل الشعر بعد الدولة العباسية انتقالاً آخر، وكان لذلك تمهيد؛ ابتدأ من «المعرى» أو بعد وفاته بقليل، وكان زعيم هذا الانتقال القاضى الفاضل، فهو مؤسس الطريقة الفاضلية فى النثر، وقد سلك الشعراء طريقها فى الشعر، فأصبحت العناية بالألفاظ وزخرفتها وتزيينها متجه الشاعر وغايته، ولم يكن البحث عن المعانى ونضارة الأساليب العربية فى هذا العصر بالذى يستثير اهتمامهم. وهو نوع من التجديد أرادوا أن يسلكوا به طريقة جديدة فى صياغة الشعر، وقد بلغت هذه الصياغة حد كمالها فى الصدر الأول من عهد المماليك، وكان زعيم الشعراء فيها ابن نباتة فى مصر، والصفدى فى الشام.

وتسألنى رأيى فى هذا الشعر فأقول لك: إننا لم نوفه حقه من الدرس والعناية، وإننا بهرنا بجمال الشعر العباسى فانصرفنا إليه جملة، ولم نأبه إلا قليلاً لقراءة الشعر فيما يليه من العصور.

إن شعر عصر المماليك شعر مصرى فى روحه ونزعته وموضوعاته، فمن العناية القومية أن نعنى بدرسه وتحليله والنفوذ منه إلى تاريخ هذا العصر، قبل أن نعنى بشعر بغداد وما وراء النهر.

ونستطيع أن نسمى هذا العصر عصر الزينة والجمال، فقد كان الجمال متملكًا فيه كل نفس، وقد ظهر أثر ذلك فى مساجد المماليك ومواكبهم، وما كانوا يتحلون به ويحلون به محافلهم من صنوف الجمال. وقد كان الشعر صورة لهذا الجمال أيضًا، فكله زخرف، وكله حلية لفظية، وكله جمال مبرقش، تتجلى فيه خفة الروح المصرية، وتظهر فيه النكتة البلدية بديعة رائعة أخاذة، تدفعك - على الرغم منك - إلى المرح والابتهاج والإيناس.

مثال ذلك قول «ابن دانيال» الذى كان طبيب عيون بالقرب من «باب الفتوح»:

يا سائلى عن حرفتى فى الورى	وا ضيعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه	يأخذه من أعين الناس؟

وقول الجزار، وقد كان قصابًا بالقاهرة:

كيف لا أمدح الجزارة ما عشـ	ـت طويلاً وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجينى	وبالشعر كنت أرجو الكلابا؟

ثم تقهقر الشعر بعد طائفة ابن نباتة ، فأصبح خـاليًا من جمال الزينة ، خاليًا من المعانى ، واستمر به الضعف حتى نهض نهضته الحديثـة ، وكانت أول صحوة له فى شعر «الساعاتـى» الذى ظهرت فيه لمحات من الشعر القـديم والأسلوب القديم ، وظهرت فيه مجانفة عن زخـرف اللفظ الذى لم يشفع له شفيع من حسن الذوق أو خفـة الروح ، ثم جـاء «البارودى» وغبَّر، فلم يشق له غبـار، وكان فى الحق نادرة الفلك . والسبب فى نهوضه أنه عنى بدراسة شعر السابقين من الجاهليين والأمويين والعباسيين ، ولم يـرض أن يقتصر على دراسة عصره ومن سبقهم من الشعـراء بأمـد قريب ، كما كـان شأن غيره من الشعراء .

ظل ذلك شأن الشعـر حتى أتاح الله للعـربية «شـوقى» شـاعرهـا الفرد ، وبلبلهـا الغرد ، الـذى أضحى علم زمانه ، فأبدع فى فنون الشعر ومذاهبه ما شاء له الإبداع ، وجدد كثيرًا فى معانيه ومبانيه .

* * *

ومجمل القول أن الشعـر العربى كان فيـه باحة للتجـديد قليلاً أو كثيرًا فى عصـوره المختلفة ، وأن الشعراء حافظوا ـ جهد طاقتهم ـ على بقاء هذا كله مصونًا من أن يعبث بأركانه عابث ، أو يمس بسوء بنيانه ، فظل طودًا شامخًا ، وبقى أثرًا خالدًا نتنسـم منه أريج آبائنا السابقين وأجدادنا الأولين ، ونراهم مفخرة لمجدنا العربى ، وبنائنا الإسلامى ، وروحنا الشرقى ، ومزاجنا القومى .

وسيبقى الشعر ــ كما كان ـ تـزخر بحوره بما كان للعـرب من : أدب رائع ، وخيال ساحـر ، وبيان آسر ، وتصوير ماهر .

البوصيري (*)

هل لنا شعر مصرى نعتز به؟ وهل كان لنا شعراء مصريون جديرون بالتقدير؟ هذان سؤالان يدور حولهما فى هذه الأيام نقاش وحوار محتدمان، فما هو وجه الصواب فى الأمر؟

ذلك ما نـدع الجواب عنه لـلأستاذ الجارم، الذى سيتـولى نشر خلاصة دراسـاته الخاصـة فى هذا الموضوع الجليل، مبتدئًا بدراسة «البوصيرى» الشاعر المصرى المعروف.

المحرر: عبد العزيز الإسلامبولى

مولـــده:

ولد سنـة سنة ٦٠٨ هـــ فى دلاص، وهى قريبة من بنـى سويف، وكان أحـد أبويـه من بوصير، والآخر من دلاص، فركبت لـه نسبة من البلدتين، فقيل الدلاصيرى، ثم اشتهـر بالبوصيرى. ونحن نجهل كثيرًا جدًّا من حيـاة البوصيرى، وكلما لجأنا إلى كتـاب نراه يشكـو من غموض سيرته، وقلـة ما يمكن أن يقال حول حياتـه؛ فلسنا نعرف عن أبيه شيئًا، ولسنا نعـرف عن نشأته الأولى شيئًا، ولكننا نستطيع أن ندعى أنه انتقل إلى القاهرة فى أول شبابـه لتلقى العلم، لأنها أقرب مراكز العلـم إلى بلدته، فتلقى علوم العـربية والأدب، ووصل فيهما إلى غـاية محمـودة، حتى ليخبرنا ابن حجـر الهيتمى الذى شرح الهمزية، أن من تلاميذه الإمام أبا حيان الذى ولد سنة ٦٥٤، ومات سنة ٧٤٥، وكان إمامًا فى النحـو والتصريف والحديث. ومنهم الإمـام اليعمـرى فتح الـدين بن سيـد الناس، وكـان من كبـار المحدثين، ولد سنة ٦٦١ ومات سنة ٧٣٤.

وكان مولد البوصيرى فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر، وهو الرابع من ملوك بنى أيوب.

(*) مجلة المعرفة: الجزء الأول، السنة الثالثة ـ المجلد الخامس مايو سنة ١٩٣٣. محرم سنة ١٣٥٢. ص ١١ - ١٥.

وكانت القاهرة ـ فى الوقت الذى يظن أن البوصيرى وفد عليها فيه ـ كثيرة المعاهد والمدارس، تموج بعلماء العربية والفقه والحديث والتفسير ورجال الشعر والأدب.

ولسنا نعرف متى بدأ البوصيرى قول الشعر، فإننا لا نجد فى الديوان الذى بأيدينا شيئًا قاله فى أيام الدولة الأيوبية، وقد زالت وهو فى سن الأربعين، وعاصر من شعرائها عددًا غير قليل، منهم ابن النبيه المتوفى سنة ٦٢١، وراجح بن اسماعيل الحلى المتوفى سنة ٦٢٧، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٥٤، والبهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦. ولعله قال شعرًا قليلاً أو كثيرًا فى الدولة الأيوبية لم يحفل الناس بجمعه.

شعره:

ونستطيع أن نقسم شعر البوصيرى أقسامًا ثلاثة:

القسم الأول: ما قاله فى مدح الوزراء والكبراء، **والثانى**: ما قاله فى شئونه الخاصة، وفيه كثير من الشكاية المرة أحيانًا، والفكاهة العذبة أحيانًا أخرى. **والثالث**: ما قاله فى المدائح النبوية. وهذا القسم خير شعره وأجوده حقًا، فإن البون شاسع والمدى بعيد والفارق كما بين القطبين، بين شعره فى مدح الرسول ﷺ وشعره فى شئونه الأخرى، فهناك اللفظ الجزل والمعنى الشريف والأسلوب البديع والرنين الأخاذ والافتنان والسمو والإجادة. ولا نظفر بشىء من ذلك فى شعره الدنيوى إلا كما يظفر الضارب فى الصحراء القفر بموارد الماء ومنابت العشب بين حين وحين. والذى يقرأ مدائح البوصيرى فى الذات النبوية يشعر بقوة الإمام البوصيرى وروحانيته وتأثره الشديد بجلال ممدوحه ومقامه المحمود، ويحس أن الكلام ينبع من قلب الرجل، ويخرج من نفس فنيت فى ممدوحها العظيم، وحلقت فى جو كله صفاء ونور. وسنفرد للكلام فى مدائحه هذه فصلاً مسهبًا.

القسم الأول:

يبدأ الإمام البوصيرى القصيدة بأبيات سهلة، يقدمها بين يدى غرضه، قد يكون بها شىء من الغزل الصوفى أحيانًا، كقوله:

عرج برامة إنها لمرامى ... وبجيرة فيها على كرام
نزلوا العقيق فأدمعى شوقًا إلى ... تلك الربى مثل العقيق دوام
ما للديار وللمحب كأنما ... هزجت حمائمه له بحمام
عهدى بها وكأن مُنهلّ الحيا ... دمعى ومصفر البهار سقامى

ثم يسير على هذا الطراز حتى يتخلص إلى المديح تخلصًا سهلاً خاليًا من المهارة الفنية. ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها القاضى فخر الدين لقمان، وكان من المتصلين به:

أريح الصبا هبت على زهر الربى　　فأصبح منها كلّ قطر مطيّبا؟
أم الراح أهدت للرياح خمورها　　فأسكر مسراها الوجوه وطيّبا
ألم ترنى هز التصابى معاطفى　　وراجعنى ما راق من رونق الصبا
فمن مخبرى ماذا السرور الذى سرى　　فلا بد حتما أن يكون له نبا
فقالوا أعاد الله للناس فخرهم　　ولِيًّا إلى كل القلوب محببا
فقلت أفخر الدين لقمان؟ قال لى :　　بلى قل له أهلاً وسهلاً ومرحبا

والمحاورة هنا جميلة فى قوله : «فمن مخبرى ماذا السرور الذى سرى . . . إلخ» . وهى إن دلت على شىء ، فإنما تدل على سهولة فى التخيل . وقوة فى تصوير عاطفة طبيعية بعيدة عن التكلف . وكثيرًا ما يستطرد البوصيرى وينتقل من المديح إلى ذم كتاب الدواوين فى أيامه وتنقصهم ورميهم بالظلم والعسف ، ثم يعطف إلى إغراء الممدوح بهم ، ودعوته إلى القضاء عليهم وكف شرهم عن الرعية البائسة . وهذه ظاهرة بارزة فى شعره ، فلا تخلو له قصيدة من النيل من هؤلاء الكتاب فى لغة جارحة ، وطعن مؤلم ، تمتزج فيها مرارة الغيظ بشىء من الفكاهة القارصة .

استمع إلى قوله فى قصيدة يمدح بها أحد كبار المماليك :

برئت من المستخدمين فخيرهم　　لصاحبه أعدى وأنكى وأنكر
فلا تدن منهم واحدًا منك ساعة　　ولو فاح من برديه مسك وعنبر
وبرِّد فؤادى بانتقامك منهمو　　فقد كاد قلبى منهمو يتفطر
منعت بهم حظى شهورًا ولم أصل　　إلى حظهم حتى مضت لى أشهر

ثم يقول :

أما فيهمو لا بارك الله فيهمو　　أخو قلم إلا يخون ويغدر؟

ويظهر أن هؤلاء المستخدمين كانوا يماطلون ويسوفون فى إعطائه راتبه ، ولعل ذلك من أسباب ضغنه عليهم ، ألسنا نراه يقول فى قصيدة أخرى :

من لم يقم لى منهمو بوظيفتى　　جرسته بملامتى تجريسا

وله قصيدة نونية طويلة فى هذا الموضوع كلها هجاء مؤلم ونقد لاذع .

وقد يستطرد فى قصائده إلى ذم الشعراء فى عصره ذمًّا قبيحًا فى جرأة وتحدٍ ، كقوله :

ومهما رآنى شاعر متأسد　　تذاءب منى خيفة وتثعلبا
أراقب من عاشرت منهم كأننى　　أراقب كلبًا أو أقارب عقربا
كأنى إذا أهديهمو من ضلالهم　　أُبَصِّر أعمى أو أقوِّم أحدبا

وكثيرًا ما يكون البوصيرى ظريفًا جدًّا حينما يخرج من المدح إلى قص قصة أو سرد حكاية فى صورة تدل على التبسط مع ممدوحه، وذلك كقوله فى غضون قصيدة:

عجيب لأمر آل بالشيخ مخلص ... إلى أن يعرى كاللصوص ويضربا
بكيت له لما كشفت ثيابه ... وأبصرت جسمًا بالدماء مخضبا
وحلفته بالله ما كان ذنبه؟ ... فأقسم لى بالله ما كان مذنبا
ولكن حبيب راح فى مصدقًا ... كلام عدو ما يزال مكذبا
فقلت: ومن كان الأمير حبيبه ... فلا بد أن يرضى عليه ويغضبا
فصبرًا جميلاً فالمقدر كائن ... فقد كان أمرًا لم تجد منه مهربا
فإبليس لما كان ضدًّا لآدم ... تحيل فى عصيانه وتسببا
وقد كانت العقبى لآدم دونه ... فتاب عليه الله من بعد واجتبى
ومن قبل ذا قد كنت إن كنت ذاكرًا ... نهيتك أن تلقى الأمير مقطبا
دعاك إلى أمر مهم فجئته ... كأنك فى عرس أتيت مشببا
فلا تنس فينا للأمير قضية ... فتفتح بابا للعتاب مجربا
وإياك أن تبطى علىّ براتبى ... فيبقى عليك اللوم منه مرتبا

فانظر إلى سهولة البوصيرى فى قص القصة وكيف حكى لنا ما أصاب خادم الممدوح الخاص من الضرب الشديد، وأن الذى ضربه هو الممدوح نفسه بوشاية واشٍ كذوب، ثم انظر إليه وهو يؤنب الخادم لأنه استغل حظوته عند الأمير، فهو مرة يدخل عليه عابسًا مقطبًا، ومرة فى حالٍ تدل على زوال الكلفة وقلة الاهتمام، كأنه يقابل عروسًا هو بها مغرم هائم، ثم انظر إليه كيف يجعل هذه الحادثة سلمًا لمطالبه عند الأمير، حتى إنه ليدخل فى روع الخادم أنه إذا أهمل تذكيره براتبه جَرَّ عليه ذلك سخط الأمير نفسه. والبوصيرى كثيرًا ما يخوض فى الشئون العامة، وكثيرًا ما يدعو إلى الإصلاح، وكثيرًا ما ينصب نفسه لنصرة المستضعفين. وقد سقنا إليك طرفًا من ذلك فى مهاجمته المستخدمين وغيرهم، فاستمع إليه الآن وهو يهجو الأعراب و يهزأ بهم، وقد كانوا يغيرون على البلاد ويعيثون فيها فسادًا:

عصت إليه أناس لا خلاق لهم ... الشؤم شيمتهم واللؤم والدبر
تلثموا ثم قالوا إننا عرب ... فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهود لكم ترعى ولا ذمم ... ولا بيوتكمو شعر ولا وبر
وأى برية فيها بيوتكمو ... وهل هى الشعر قولوا لى أو المدر
وليس ينجى امرءًا راموا أذيته ... منهم فرار فقل كلا ولا وزر

ثم يقول للممدوح:

لما علمت بأن الرفق أبطرهم ... والمفسدون إذا أكرمتهم بطروا

زجـرتهم بعقـــوبـــات منـــوعـــة | وفى العقـوبـات للطـاغين مـزدجـر
كأنهم أقسمـــوا بـــالله أنهمـــو | لا يتركـــون الأذى إلا إذا قهـــروا

ثم يعدد لنا أنواع العقوبات فى زمنه فيقول :

فمعشر ركبــوا الأوتـار فـانقطعت | أمعـــاؤهم فتمنـــوا أنهم نحـــروا
ومعشر قطعت أوصـــالهم قطعًـــا | فما يلفقهـــــا خيـط ولا إبـــــر
ومعشر بـالظبى طـالت رءوسهمـو | عن الجســـوم فقلنـــا إنها أكـــر
ومعشر وسـط مثل الـــــدلاء ولم | تـربط حبـال بها يـومًا ولا بكـر
ومعشر سمـروا خلف الجيـاد وقـد | شـدت جسومهـم الألواح والـدسر
وآخـــرون فـدوا بـــالمال أنفسهم | وقالت النـاس : خير من عمى عور
مـوتـات سـوء تلقـوهـا بما صنعـوا | ومـــن وراء تلقيهــــم لها ستر

وترى البـوصيرى بعد ذلك لا يترك الكـلام فى السياسة الخارجيـة للمملكة ، ولا يهمل التنـويه بما يرفع شـأن مصر، ولا يغفل الإشادة بانتصـارها فى ميـادين القتال . فهـو يذكـر - فى إعجـاب وزهو - انتصار الجيوش المصرية بالشام وأخذهـم المرقب ، فى قصيدة يمدح بها أحد كبراء الدولة فى عهد الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون الذى تولى حكم مصر سنة ٦٧٨ هـ.

يظنـــون خيل المسلمين يصـــدهـــا | عن العـدو فى أرض العـدو جسـور
أمـا زلـزلت بـالعاديـات وجـاءهـا | مـن الترك جـم لا يعـــــد غفير
أتـــوا عطـــرات من الجرد إن سرت | ورجـــــل لهم مثـــل الجراد تمور
فلم يـرقبوا من صرح هـامـان مرقبًا | بهامتـــه بـرد السحـــاب يكـــور
وصبـوا عليـه عـارضًـا من حجـارة | ونبـــلا وكـل بـــالعـــذاب مطير
وسـامـــوه خسفًـا من ثقـوب كأنها | أثـــاف لها تلـك البروج قـــدور
فبـاتـوا بـه مرّ الحصـار فأصبحـوا | لهم ذلـك الحصـن الحصين حصير
ومـــاذا يـرد الســـور عنهم وخلفـه | من الخيل ســور والصـوارم ســور
وليـــس لهم إلا إلى الأسر ملجـــأ | وإلا إلى ضرب الـــرقـــاب مصير
فلما أحســـــوا بـأس أغلـب همه | غـــدو إليهـم بـالـــردى وبكـــور
دعـــوه وشمل النصر منهم ممـــزق | أمـــانًـــا وجلبـــاب الحيـــاة قصير
فلا تـذكروا مـا كان بـالأمس منهمو | فـــذاك لأحقـــاد السيـــوف مثير
ولـو شـاء مـد النيـل سيل دمـائهم | وزادت نحـــور مـــاءه وصـــدور
ولكنـــه من حلمـــه واقتـــداره | عفـــو عن الـــذنب العظيم غفـــور
ولم يبقهـم إلا خميرًا لمثلهـــــــــا | مليك يحب الـــرأى وهـــو خمير
يـرى الرأى مثل الـراح يروى عتيقـه | ويكـرم منـه الحلـو وهـو عصير

فـولوا وسـوء الظن يلوى وجـوههم ... فتحسبهـا سـورًا ومـا هى سـور
فللــه سلطــان البسيطـة إنـه ... مليـك يصير النصر حيـث يسير

وهذه القطعة رائعة حقًّا، وهى وصف واف يصور لك الموقعـة تصويرًا صادقًا، ولا بد من استيفاء الحديث فى هذه القصيدة فى عدد آخر، فإنها من قصائده الجامعة .

الترادف (*)

عُنى علماء اللغـة بـالبحث فى الترادف، وجـالـوا فيـه جَـولات، تـدل على كثير من التقصى والاستيعاب، وأدلَوا فيه بآراء، هداهم إليها النظر والاستقراء، وتناولوه بالتأليف، فألف فيه مجد الدين الفَيروزآبادى صاحبُ القاموس كتابًا، سماه «الـروض المسلوف، فيما له اسمان إلى ألوف» وأفرد له جماعة من الأئمة كتبًا، فى أشياء مخصوصة، فألف ابن خالويه كتابًا فى أسماء الأسد، وكتابًا فى أسماء الحية.

وكان اهتمام علماء الأصول والمناطقة به عظيمًا، فأفاضوا فيه وأسهبوا، وأكثروا من التحقيق، الذى أثـر عن علماء الأعـاجـم، ووسمت بـه مبـاحثهم ؛ لأن الأصـوليين، وغـايتهم استنبـاط الأحكـام واستخـلاصها من النصـوص، يـرون من الحتم أن يبحثوا فى الألفـاظ ومـدلولاتها، ومنهـا المترادف، ويعنيهم أن يبتوا رأيًا فى المترادفين : أيدلان على معنى واحد، أم يدلان على معنيين متحدين فى الجملة، مع فرق يحول دون استعمال أحدهما فى مكان الآخر.

والمنـاطقة، وصنـاعتهم تحديد المعـانى، وكشف الحقـائق، يرون البحث فى الترادف من المسـائل الحقيقة بالعناية والنظر، حتى تظهر معانى الحدود والقضايا، محدودة خالية من الشوائب، التى تحول دون دقة الفكر، وسلامته من الزلل.

جاء فى الصفحة ٢٣٨ من الجزء الأول من المزهر للسيوطى فى تعريف المترادف : « قال الإمام فخر الدين : هـو الألفاظ المفردة، الـدالة على شىء واحـد، باعتبار واحـد. قال : واحترزنا بـالإفراد عن الاسم والحد، فليسا مترادفين، وبـوحدة الاعتبـار عن المتباينين، كـالسيف والصارم ؛ فإنهما دلا على شىء واحد لكن باعتبـارين : أحدهما على الذات، والآخر على الصفة. والفرق بينـه وبين التوكيد أن أحد المترادفين يفيد مـا أفاده الآخر، كالإنسان والبشر، وفى التـوكيد يفيد الثانى تقـوية الأول ؛ والفرق بينه وبين التابع أن التابع وحده لا يفيد شيئًا، كقولنا عطشان نَطْشان ».

(*) ألقى هذا البحث فى جلسة المجمع بتاريخ ٣٠ يناير ١٩٣٤ ونشر بمجلة المجمع فى الجزء الأول ص ٣٠٣.

وقال ابن فارس: «ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة، نحو: السيف، والمهند، والحسام». ثم عقب على ذلك بكلام سنسوقه بعد.

وجاء فى كشاف مُصطلحات العلوم للتهانوى:

«الترادف لغة: ركوب أحد خَلْف آخر، وعند أهل العربية والأصول والميزان هو: توارد لفظين مفردين، أو ألفاظ كذلك فى الدلالة على الانفراد، بحسب أصل الوضع، على معنى واحد، من جهة واحدة. وتلك الألفاظ تسمى مترادفة. فبقيد اللفظين خرج التأكيد اللفظى، لعدم كون المؤكَّد فيه والمؤكِّد لفظين مختلفين، وبقيد الانفراد التابع والمتبوع، نحو عطشان نطشان، وإن قال البعض بترادفهما، وبقيد أصل الوضع خرج الألفاظ الدالة على معنى واحد مجازًا، والتى يدل بعضها مجازًا وبعضها حقيقة، وبوحدة المعنى خرج التأكيد المعنوى والمؤكد، وبوحدة الجهة الحدّ والمحدود. قيل فلا حاجة إلى تقييد الألفاظ بالمفردة، احترازًا عن الحدّ والمحدود: (إذ الحد يدل على المفردات مفصلة بأوضاع متعدّدة، بخلاف المحدود، فإنه يدل عليها بجملة بوضع واحد).

وقد يقال إن مثل قولنا: (الإنسان قاعد، والبشر جالس) قد تواردا فى الدلالة على معنى واحد، من جهة واحدة، فإن سميا مترادفين فذلك، وإلا احتيج إلى قيد الإفراد، وهو ظاهر.

والذى يؤخذ على التهانوى أنه أخرج التوكيد المعنوى والمؤكد بقيد وحدة المعنى، وكان الأولى أن يخرج بهذا القيد الألفاظ المتباينة، نحو رجل وكتاب، والأسماء وصفاتها، نحو السيف والحُسام، أما التوكيد المعنوى والمؤكد فخارج بقيد الانفراد، لأن التوكيد المعنوى لا يقع منفردًا، ويؤخذ عليه أيضًا عدّه: (الإنسان قاعد، والبشر جالس) تركيبين مترادفين، مع أن هناك فرقًا مشهورًا بين القعود والجلوس، كما سيأتى بيانه.

وقد فهمنا من هذا التعريف أن الترادف بمعناه الدقيق، يوجب أن تكون الألفاظ الدالة على معنى واحد، قد وضع كل منها وضعًا مستقلاً لهذا المعنى، فالشيء ووصفه ليسا مترادفين، والحقيقة والمجاز أو الكناية ليسا مترادفين. ولكن المطلع على كتب اللغة، وعلى ما عدّه علماؤها من المترادف، يرى كثيرًا من التساهل فى هذه الناحية، فالتشابه فى المعنى كاف عندهم للحكم بالترادف، من غير نظر إلى حقيقة أو مجاز أو وصف.

وقد افترق علماء اللغة فى الترادف، فأجاز فريق وقوعه فى اللغة، وأنكره فريق، قال السُّيوطى فى المُزهِر فى الصفحة ٢٣٨ من الجزء الأول: «ومن الناس من أنكره، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات، فهو من المتباينات: إما لأن أحدهما اسم الذات والآخر اسم الصفة، أو صفة الصفة».

وقال ابن فارس بعد التمثيل بالسيف والمهند والحسام: «والذى نقوله فى هذا إن الاسم واحد، وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها معناها غير معنى الأخرى، وقد خالف فى ذلك قوم، فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها، فإنها ترجع إلى معنى واحد».

وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر، قالوا: وكذلك الأفعال، نحو مضى وذهب وانطلق؛ وقعـد وجلس؛ ورقد ونـام وهجع؛ قـالوا: ففى قعـد معنى ليس فى جلس، وكذلك القول فيما سواه.

وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

واحتج أصحاب المقالة الأولى بأنه لـو كان بكل لفظة معنى غير معنى الأخرى، لما أمكن أن يُعبَّر عن الشىء بغير عبارته، وذلك أنا نقول فى (لا ريب فيه: لا شك فيه)، فلو كان الريب غير الشك، لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ، فلما عُبِّر عن هذا بهذا، عُلِم أن المعنى واحد.

قالوا: وإنما يأتى الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد فى مكان واحد توكيدًا ومبالغة كقوله: «وهند أتى من دونها النأى والبعد».

قالوا: فالنأى: هو البعد.

ونحن نقول: إن فى« قعد» معنـى ليس فى« جلس»، ألا ترى أنا نقول: قام ثـم قعد، وأخذ المقيم المقعد، ونقول لنـاس من الخوارج قَعَد، ثم نقول كان مضطجعًا، فجلس، فيكـون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس ؛ لأن الجَلس: المرتفع، فالجلوس ارتفاع عما هو دونه، وعلى هذا يجرى الباب كله.

وأما قولهم إن المعنيين لـو اختلفا لما جاز أن يُعَبَّر عن الشىء بالشىء، فإنـا نقول: إنما عبر عنه من طريق المشـاكلة، ولسنـا نقول إن اللفظين مختلفان، فيلـزمنا ما قـالوه، وإنما نقـول: إن فى كل واحدة معنى ليس فى الأخرى.

وجـاء فى الصفحـة ٢٣٦ من الجزء الأول من المُزْهِـر « قال أبـو العبـاس عن ابن الأعـرابىّ: «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم يلزم العرب جهله، وقال: الأسماء كلها لعلة؛ من العلل ما نعلمه، ومنها ما نجهله».

وجاء فى الصفحة ٢٤٠ من الجزء الأول من المزهر:

«وقال العلامة عِز الدين بن جماعة فى شرح جمع الجوامع: حكى الشيخ القاضى أبو بكر العربى، بسنده عن أبى على الفـارسىّ، قال: كنت بمجلس سيف الدولة بحلب، وبـالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خـالويه: احفظ للسيف خمسين اسمًا، فتبسم أبو على وقال: ما أحفظ له إلا اسمًا واحدًا، وهو السيف؛ قال ابن خالويه: فأين المهند، والصارم، وكذا، وكذا؟ قال أبو على: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة».

وجاء فى كشّاف مُصطلحات العلوم للتّهانوى :

« زعم البعض أن المرادف ليس بواقع فى اللغة ، وما يظنّ منه فهو من باب اختلاف الذات والصفة ، كالإنسان والناطق ، أو اختلاف الصفات ، كالماشى والكاتب ، أو الصفة وصفة الصفة ، كالمتكلم والفصيح ، أو الذات وصفة الصفة كالإنسان والفصيح ، وقال : لو وقع الترادف لَعرى الوضع عن الفائدة ، لأن الغرض من وضع الألفاظ ليس إفادة التفهيم فى حق المتكلم ، وَاستفادة التفهم فى حق السامع ، فأحد اللفظين يكون غير مفيد ؛ لأن الواحد كاف للإفهام ، والمقصود حاصل من أحدهما ، فلا فائدة فى الآخر ، فصار وضعه عبثًا ، فلا يقع عن الواضع الحكيم » . هكذا فى حواشى السلم .

ولم يُغْفِلِ البحثَ فى الترادف علماء اللغات الأخرى ، ومما هو جدير بالنظر أن آراء بعضهم فى هذا الموضوع توافق كثيرًا من آراء علمائنا ، وأن الدافع لهم إلى البحث هو الدافع نفسه ، الذى حفز رجال لغتنا إلى الكلام فى الترادف ، والإضافة فيه .

قال الأستاذ ترِنْش فى كتابه « دراسة الكلمات » :

(Study of Words - Lectures, by Richard Chenevix Trench. D.D.Archbishop of Dublin.) ما محصله :

« قد يسأل سائل عن معنى الترادف حينما نوازن بين بعض الكلمات ، ونجزم بأن بينها ترادفًا . إننا نقصد أنها مع شدة تشابه معانيها تتضمن فروقًا صغيرة جزئية ، وهذه الفروق إما مصاحبة لها فى أصل الوضع ، وإما طارئة عليها بالاستعمال ، وإما أنها جاءت إليها من تصرف البلغاء ، وأساطين البيان . فالمترادفات كلمات متشابهة فى المعنى الأساسىّ ، مع قليل من التباين فى نواح أخرى ، أو أنها تشترك فى المعنى العام ، ولكن كل واحدة منها تختص بنصيب ، تنفرد به دون الأخرى . وفى هذا التعريف شىء من التساهل فى شرح معنى الترادف ، فمن الهين أن يرى كل من له إلمام بعلم اللغة أن إطلاق الترادف على الكلمات المتشابهة فى معانيها الأساسية ليس غير ، تسمية غير صحيحة ، وإطلاق خال من الدقة والصواب ، لأن المعنى الدقيق للترادف ، يقتضى أن تتضمن الكلمات المترادفة معنى واحدًا على التحديد ، لا على التقريب ، وأن يكون تشابه المعنى فيها كاملاً ، وأنها ، إن صح التشبيه ، دوائر متحدة فى المركز والمحيط .

ولكن المترادفات لا تستعمل فى العادة مع النظر إلى ما بينها من فروق دقيقة ، لأننا دون أن نجرؤ على إنكار أنه قد يجوز أن يكون هناك كلمات حقيقية الترادف ، نرى أن مثل هذه الكلمات لا يستطاع البحث عما بينها من فروق ، لعدم وجود هذه الفروق » .

فهو لا يستطيع إنكار الترادف بأدق معانيه ، وإن أخِذ من كلامه ما يدل على نُدْرته ، وهو لا يدعو إلى التمحُّل فى تلمس الفروق بين كل مترادفين ، ثم هو يؤثر استعمال الترادف بمعناه الشائع عندهم ،

الذى يسوّغ وجود فروق دقيقة بين الكلمات، خلافًا لمن أنكره من علماء العربية فإنهم لايعبرون عن ذلك بالترادف بتاتًا . ثم نراه ينتقل إلى بحث جديد فى الترادف بين لغتين، فيقول :

« وهناك طائفة تجزم بأن كلمات اللغة الواحدة، لا يمكن أن تكون مرادفة تمام الترادف لكلمات أخرى، وأنه عند مقابلة إحداها بقرينتها، لابد أن يكون فى أحد المعنيين زيادة أو نقص، يحول دون الاتفاق التام، وإنى أرى أن وجود كلمات من لغتين تتفق معانيها تمام الاتفاق نادر جدًا، فإن الكلمة ليست إلا سُورًا حول رقعة صغيرة أو كبيرة من فضاء الفكر أو الحقيقة، وبهذا استطاع الإنسان أن يستعين بها فى حياته، ويختارها لمعونته، فمن غير المحتمل أن كل أمة ترسم مستقلة منفصلة عن الأخرى خطوط هذه الأسوار، فى كل الأحوال أو أغلبها، مطابقة تمام التطابق لخطوط الأخرى . إن المعقول ألا تتطابق الخطوط . وهذه الحقيقة تهيئ لنا موازنة جليلة الشأن بين اللغات، وتكفى فى أن تسوق المترجم البارع الدقيق، إلى ما يقرب من اليأس والقنوط » .

ولاشك أن فى هذا الرأى شيئًا من الغُلُوّ، وربما كان قريبًا من الحق فى المعنويات والوِجدانيات، أما فى المحسوسات المشتركة بين الناس، فالترادف فيها جلىّ بيّن، فكلمات، الشمس، والقمر، والكتاب، والماء، ذوات معان متطابقة، فى جميع اللغات . ثم يعود إلى موضوع الترادف فى اللغة الواحدة، ويحدّد معناه فى شىء من الوضوح والتكرار، فيقول :

« فالمترادفات إذًا، كما يفهم من الاستعمال العام، وعلى النحو الذى اختاره لاستعمالها هنا، كلمات من لغة واحدة، مع فروق ضئيلة صاحبتها منذ وضعها، أو طرأت عليها، فهى ليست متشابهة المعنى تمامًا، وليست بعيدة التشابه، لأن الفروق فى الكلمات البعيدة التشابه فى المعنى جلية ظاهرة، تبدو على السطح، ويراها المرء أول وَهلة، وإذا حاول أن يوضح الفرق بينها، كان فى عبثه كمن يحاول أن يُوقد شمعة، ليجعل الشمس أكثر إضاءة وظهورًا ؛ فقد يتطلعُ المرء إلى تحديد الفرق بين الأُرجوانى والقُرمزى : لأن هاتين الكلمتين قد تختلطان، ولكن مَنْ ذلك الذى يفكر فى البحث عن الفرق بين الأُرجوانى والأخضر ؟ فالمترادفات إذًا : كلمات معرضة للاشتباه قليلاً أو كثيرًا ؛ والواجب يدعو إلى إزالة هذا الاشتباه والاختلاط . وهى كلمات ورِثت فى أصل وضعها فروقًا، أو أنها مع تطابقها فى أصل الوضع تمام التطابق، نمت بينها فروق، واستقرت باستعمال فطاحل الكتّاب، ومصاقع الخطباء» .

ومجمل حُجة القائلين بمنع الترادف أنه إذا كان واضع اللغة واحدًا، كان وضع كلمتين أو أكثر لمعنى واحد لغوًا وإضاعة وإسرافًا، وأن الغرض الأول من اللغة التفاهم، وأن يكون الوضع تابعًا للحاجة الملحة، وأنه إذا وضع لفظ لمعنى كان عَلَمًا عليه، وسِمَة له، فإذا تكرر وضع اسم آخر، ثم آخر لهذا المعنى، من غير نقص فيه أو زيادة، كان ذلك عملاً خاليًا من الموجب، عَرِيًّا من الدافع . وقد دفعهم هذا الرأى إلى البحث عن الفروق بين كل كلمتين يظهر ترادفهما، فأوغلوا فى ذلك إيغالاً، ثم تعسفوا تعسفًا شديدًا .

جاء فى الصفحة ٢٣٩ من الجزء الأول من المزهر :

« وقال التاج السبكى فى شرح المنهاج : ذَهب بعض الناس إلى إنكار المترادف فى اللغة العربية، وزعم أن كل ما يُظن من المترادفات، فهو من المتباينات، التى تتباين بالصفات، كما فى الإنسان والبشر، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان، أو باعتبار أنه يؤنس، والثانى باعتبار أنه بادى البشرة، وكذا الخنَدريس والعُقار، فإن الأول باعتبار العِتق، والثانى باعتبار عَقْر الدن لشدتها، وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب » . ويرى من أجازوا الترادف أنه واقع فى اللغة الواحدة ؛ ما من الاعتراف بذلك بُدّ، فإن الحنطة والبر والقمح لا فرق بينها فى المعنى، وفى تصيد الفروق بينها تجشم الصعاب، وركوب الطريق الوعرة، فى غير حاجة إلى تلمس أوهام، لا توشك أن تتراءى حتى تزول .

جاء فى كشاف مصطلحات العلوم للتَّهانَوِىّ : « والحق وقوعه، بدليل الاستقراء، نحو: قعود وجلوس، وأسد وليث، ولا نسلم التعرى عن الفائدة، بل فوائده كثيرة، كالتوسع فى التعبير، وتيسير النظم والنثر، إذ يصلح أحدهما للقافية والروى دون الآخر، ومنها تيسر أنواع البديع، كالتجنيس والتقابل وغيرها . مثال السجع قولك : ما أبعد ما فات ؛ وما أقرب ما هو آت ؛ فإنه لو قيل بمرادف ما فات، وهو « ماضى » أو بمرادف «ما هو آت» وهو « ما هو جاءٍ » أو غيرهـا، لفات السجع . ومثال المجانسة قولك : اشتر البُرّ، وأنفقه فى البر، فإنه لو أتى بمرادف الأول، وهو «الحنطة»، أو بمرادف الثانى، وهو « الخَيْر »، لفاتت المجانسة » .

وجاء فى ص ٢٤١ من الجزء الأول من المزهر : « وله فوائد، منها أن تكثر الوسائل أى الطرق إلى الإخبار عما فى النفس، فإنه ربما نَسِى أحد اللفظين، أو عَسُر عليه النطق به، وقد كان بعض الأذكياء فى الزمن السالف ألثغ، فلم يحفظ عنه أنه نطق بحرف الراء، ولولا المترادفات تعينه على قصده لما قدر على ذلك، ومنها التوسع فى سلوك طرق الفصاحة، وأساليب البلاغة، فى النظم والنثر، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع، والقافية، والتجنيس، والترصيع، وغير ذلك من أصناف البديع، ولا يتأتى ذلك باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ » .

ثم جاء فيه بالصفحة ٢٣٨ :

« وقال قُطرب : إنما أوقعت العرب اللفظين على المعنى الواحد، ليدلوا على اتساعهم فى كلامهم، كما زاحفوا فى أجزاء الشعر، ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم » . وأبعد من هذا مدى فى فائدة الترادف، أن فحول الشعراء والكتاب يُلْبسون كل معنى من المعانى، ثوبًا من الألفاظ يناسبه ويلائمه، ويبرز جماله الفنى، ولكل غرض من أغراض الكلام ألفاظ خاصة، يختارونها دون غيرها، لتظهر هذا الغرض فى أجمل صُوره، وأروع ألوانه : ففى الحماسة والفخر يعمدون إلى اللفظ الجزل، والكلم الفحل، فهنا يقال : الكَلْكل والحيزوم، ولا يقال : الصدر، ويقال : الغضنفر ولا يقال : الأسد، ويقال : الشَّذْقَميات، ولا يقال : النوق، ويقال : الصَّمصام، ولا يقال : السيف، أما فى الغزل والعتاب مثلاً . فيعمدون إلى الرقة والسهولة، فترى الألفاظ الدَّمِثَة الشافَّة الهَيِّنة اللطيفة، التى

تكاد تمتزج بالهواء، وتسيل مع الماء ؛ ومن أبين ما يشرح ذلك ويوضحه أشعار بشار وأبى نُوَاس، كلاهما ينسج على حسب فخامة غرضه عنده، أو هَوانه عليه، وعلى حسب منزلة سامعيه، فنراه مرة فى مراتب الجاهليين : ضخامة وجزالة، وتراه أخرى وقد بلغ الغاية فى السهولة والرقة .

وقد يُبْنَى البيت الواحد أو الأبيات على اللفظ الفحل، والكَلِم الشديد الأَسْر، حتى لو أنك وضعت مرادفًا رقيقًا لكلمة، لأفسدت الشعر، وأبطلْت السِّحر، كما أن البيت قد يتألف كله من الألفاظ الناعمة اللينة، فإذا بدل بإحدى كلماته كلمة مرادفة ضخمة، فقد انسجامه، وحسن جَرْسه، وروعة تأثيره .

استمع لقول الشريف الرَّضِىّ فى وصف الشجاع :

ليس الشجاع الذى من دون رؤيته ... باب يُلاحيك مِصراعًا بمصراع
ولا الذى إن مضى أبقى لوارثه ... سوائم بين أصْواح وأجزاع
لكِنَّه من إذا أودَى فليس له ... إلا عقائلُ أرماح وأدراع
يَعتسُّ الذئب فى الظلماء مرتفعًا ... على رحائلَ ملقاةٍ وأقطاع
يذوّق العينَ طعم النوم مُغمَضة ... إذا الجبانُ ملا عينا بتَهجاع
أشْعَثُ الرأس، لا يجرى الدِّهان به ... وإن فَلاً فبماضى الغرب قَطّاع

هل تحس أنك إذا أبدلت بكلمة من كلمات الشريف كلمة أخرى نلت من جمال الشعر وجلاله؟

ثم أنظر إلى قول البهاء زهير :

إن شكا القلب هجركم ... مَهَّد الحُبُّ عُذركم
لو رأيتم تحَلّكم ... من فؤادى لسركم
قَصَّروا مدة الجفا ... طوّل الله عمركم

فهل ترى إنك لو وضعت كلمة خشنة مكان إحدى كلمات هذا الشعر لأفسدته وقضيت عليه؟

من كل ما قدمناه تظهر فائدة الترادف فى صناعة الكلام، فهو الذى فَسَح المجال أمام البلغاء ليختاروا من كل طائفة من المترادفات كلمة تلائم غرضهم، وتتفق مع النسج الذى أرادوه، فالكلمة المنبوذة اليوم محبوبة غدًا، والتى لا تصلح لهذا الضرب من الكلام تصلح لغيره .

بعد أن بسطنا آراء العلماء فى الترادف، واختلافهم فى وقوعه وعدم وقوعه، نرى أن نبين هنا أن كلا الفريقين تجاوز الحد، وركب مَتْن الشَّطَط : هؤلاء فى البحث عن الفروق جاهدين مثابرين، وهؤلاء فى تسمية كل متشابهين فى المعنى مترادفين، غير ناظرين إلى ما بينهما من فروق فى المعنى، أو اختلاف فى الوضع، حتى كأنهم كانوا يريدون أن يُزوِّدوا مخالفيهم الحجةَ عليهم، فقد ذكر السيُّوطى فى الصفحة ٢٤٢ من الجزء الأول من المزهر، سبعة وثمانين اسمًا للعسل، نقل خمسة وثمانين منها عن صاحب القاموس، من كتابه الذى سماه : « ترقيق الأسل ؛ لتصفيق العسل »، وعَقَّب عليه بزيادة اسمين، هما الضَّرْبَخِىّ والسَّعابيب . ونقل عن ابن خالويه فى شرح الدريدية واحدًا وأربعين اسمًا للسيف .

ثم نقل أسماء كثيرة للصدر، والعمامة، والثوب الخلق، والأصل، وغير ذلك مما يمكن الرجوع إليه فى المزهر . وفى فقه اللغة للثعالبى : «قد جمع حمزة بن الحسن الأصبهَانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى». ونقل السيوطى عن ابن فارس قال : أخبرنى على بن أحمد بن الصباح ـ قال حدثنا أبو بكر ابن دريد قال حدثنا ابن أخى الأصمعى، عن عمه : أن الرشيد سأله عن شعر غريب لابن حزام العُكْلى، ففسره، فقال : يا أصمعى، إن الغريب عندك لغير غريب ! قال : يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسمًا . وجاء فى الصفحة ٢٤٤ من كتاب المزهر : «وفى الجمهرة قال أبو زيد : قلت لأعرابى : ما المحبنطئ ؟ قال : المتكأكئ . قلت : ما المتكأكئ؟ قال: المتآزِف. قلت : ما المتآزِف؟ قال: أنت أحمق !

من هذا يُرَى إغراق بعض اللغويين فى تصيدُّ الترادف، وسعيهم الحثيث فى تكثير الأسماء لمسمى واحد، والتحلُّل من أكثر القيود للوصول إليه ؛ وربما كان الدافع لهم ميلهم الشديد إلى التباهى بالعربية، والزهو بسعة مداها، والإشادة بثروتها وغناها، حتى لقد ساقهم ذلك إلى حشر كثير من الكلمات لمسمى واحد، مع وجود الفروق المميزة، أو مع اتحادها فى المادة اللغوية، أو مع اختلافها فى الحقيقة والمجاز والكناية، والمثل الذى نختاره لذلك هو ما أورده السيوطى فى المزهر للعسل من الأسماء، وسنعمد إلى شرح كل كلمة، ونعقِّب عليه بما نراه. وهاك الكلمات :

الضَّرَب : العسل الأبيض، واستضرب العسل : أبيض وغلُظ، فالضَّرَب : العسل مقيدًا بصفة خاصة .

الضَّربة : واحدة الضرب وهى الشديد البياض منه .

الضَّريب : من معانيه : المِثل، والرأس، والمُوَكَّل بالقِداح، أو الذى يضرب بها، والقدح الثالث، واللبن يُحلب من عدة لِقاح فى إناء . فليس من معانيه العسل، وأشبه الأشياء أن يكون بمعنى اللبن يحلب من عدة لِقاح، وقد أطلق على العسل مجازًا، لعلاقة المشابهة، لأن العسل يجمع من عدة خلايا .

الشَّوْب : ما شُبته من ماء، والعسل، واشتاب وانشاب : اختلط . والظاهر أن الشوب يطلق على العسل ممزوجًا .

الذوب : العسل أو ما فى أبيات النحل، أو ما خلص من شمعه . والظاهر أن صفة الذَّوَبان والسيل ملحوظة فى التسمية .

الحَمِيت : الحميت من كل شىء، المتين : حتى إنهم ليقولون : تمر حميت، وعسل حميت .

التحموت : كالحميت، عن السيرافى . فصفة المتانة أو الغلظ مفهومة منه .

الجَلْس[1] : الغليظ من الأرض، ومن العسل ؛ وبقية العسل فى الإناء، فهو مقيد غير مطلق .

---

(١) والجليس أيضًا، كما فى المخصص .

الوَرْس : نبات كالسِّمْسِم ليس إلا باليمن ، فإطلاقه على العسل مجاز، علاقته المشابهة فى اللون .

الأَرْى : فى المخصص الأَرْى العسل . أبـو حنيفـة : أصـل الأرى العمل أرَت النحلـة أريًـا وتأرت وائترت : عَمِلت العسل ، فهى تسمية بالمصدر .

الذواب : العسل ؛ وصفة الذوبان ملحوظة .

الَّلوْمة : الشّهدة . تلوم فى الأمر تمكّث وانتظر .

اللِئم : الصلح والاتفاق ، والعسل ، من لأم فلانا : أصلحه . والصفة هنا ظاهرة .

النسيل : ما يسقط من الصوف والريش عند النسل ، والعسل إذا ذاب وفارق الشمع .

النسيلة : واحـدة النسيل ، والولـد ، والفتيلة ، والعسل إذا ذاب وفـارق الشمع ، فصفة الـذَّوَبان والسيل ملحوظة فى هاتين الكلمتين .

الطَّرْم ، الطِّرْم : الشَّهد ، والزُّبد ، والعسل إذا امتلأت منه البيوت ، وقد طَرِمَت بيوت النحل تطرَم طرمـا : امتلأت من الطـرم ؛ والعسلُ طَرَمـا : سال من الخليـة ، فصفات التراكم والغـزارة والطراوة ملحوظة .

الطُّرام ، الطِّريم [1] : العسل والسحـاب الكثيف ، ويقال تَطَـرْيَم فى الطين تَطَرْيُما : تلـوَّث ، فالتلويث منظور إليه هنا .

الدَّسْتَفْشار ـ المُسْتَفْشار ـ العسل الذى لم تمســه النار، وليست واحدة منها عربية ، لأن هذا البناء ليس فى كلامهم .

الشهدُ ، الشُّهد : العسل ومُومه ، والشُّهدة أخص . فهو العسل فى شمعه .

المِحران : العسل ، من حرنت الـدابة كنصر، وهى التى إذا اشتد جريها وقفت ، ولعله يـراد به هنا العسل الذى صعب اشتياره [2] .

العُفافة : من العسل مثل السلافة ، وهو أول ما يتسلل من الشهد إذا وضع فى المِعْصرة ليجرى .

العُنفوان : رُبُّ العنب ، كالعفافة ، وصفة النقاء فيهما ظاهرة .

الماذِىّ : العسل أو الأبيض منه ، أو الصافى ، فهو مقيد بوصف .

الماذية : الخمرة السهلة فى الحلق ، وإطلاقها على العسل من قبيل المجاز .

---

(١) زاد فى المخصص الطارم وهو العسل الطرى ، وعن ابن دريد أنه الطريم .

(٢) فى المخصص المحران : الشهدة تبعد فلا يسهل إخراجها ، كأنها لزمت مكانها .

الظان، الظن [1] .

البَلة، البِلة : السَّمُر، أو عسله .

السَّنَوْت، السَّنُّوت : العسل .

السنوة [2] :

الشراب : اسم لكل ما يُشرب، فاستعماله فى العسل من استعمال العام فى الخاص .

الغربة [3] :

الآس : العسل أو بقيته فى الخلية .

الصَّبيب : من معانيه العسل الجيد، فهو مقيد بصفة .

المَزج، المزج : اللوز المرّ، والعسل، تسمية بالمصدر أو باسمه، قال أبو ذؤيب :

فجاء بِمزجٍ لم ير الناس مثله هو الضَّحْك إلا أنه عمل النحل

والظاهر أن المراد بالمصدر والاسم هنا اسم المفعول أى الممزوج، فالصفة فيه ظاهرة .

لُعاب النحل : تعبير يقرب من الكناية .

الرُّضاب : الريق فى الفم، ومن معانيه لُعاب العسل وُرِغوته، وهو من إطلاق العام على الخاص فيما يظهر .

رُضاب النحل : جَنَى النحل، رِيق النحل، قىء الزنابير - هذه أشبه شىء بالكنايات .

الشَّوْر : شار العسل يشوره شَوْرًا آستخرجه من الوَقْبة، والشور : العسل المشور، فهو مصدر أريد به اسم المفعول .

السَّلْوَى : العسل [4] .

مُجاج النحل : أشبه بالكناية .

الثَّواب : العسل، والنحل لأنها تثوب، فهو مصدر استعمل فى اسم الفاعل أولاً، وهو النحل، ثم استعمل فى العسل مجازًا .

الحافظ، الأمين : لا يدلان على العسل .

---

(١) أظنهما محرفين عن الظيان والظى، جاء فى المخصص : الظيان شىء من العسل، وجاء فى الأشعار .

(٢) الظاهر أن هذه الكلمة محرفة فى الأصل .

(٣) يظهر أنها محرفة عن العرابة، ففى المخصص - العرابة : عسل الخَزَم، لأنه يقال لثمره العرابة .

(٤) لأنه يسلى عن كل حلو : إذ هو فوقه .

الضَّحْل : الماء القليل، والظاهر أنه محرف عن الضحك، والضحك : الثغر، ويطلق على العسل لبياضه، على التشبيه .

الشِفاء : ليس من معناه العسل، ولعله أخذ من قوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس﴾ .

ويقال : أشفاه الله عسلاً أى جعله شفاء له .

اليمانية : نسبة إلى اليمن .

اللُّواص : الفالوذ، والعسل الصافى، فهو مقيد .

السَّليق : ما تبنيه النحل من العسل فى طول الخلية .

الكُرسُفىّ : الكُرسُف : القطن . الكرسفى : نوع من العسل، كأنه سمى به لبياضه كالقطن .

العقيد : عسل يعقد بالنار، وطعام يعقد بالعسل [1] .

السَّلوانه : خرزة للتأخيذ، وليس من معانيها العسل .

السُّلوانه : السَّلوانة، والعسل .

الزُّخيف : لعلها تصغير الـزُّخْف وهو الزبد الرقيق أو المسترخى، والعجين الكثير الماء، فإطلاقه على العسل إطلاق مجازى .

الجَنَى : كل ما يجنى، والذهب، والودع، والرطب، والعسل . فهو من إطلاق العام على الخاص .

السُّلاف، السَّلافة : أول ما يعصر من الخمر، وقيل هما من كل شىء خالصه ؛ فإطلاقهما على العسل مجاز، أو خاص بالخالص الصافى منه .

الشَّرْو، الشُّرو : العسل، وهما مقلوبًا الشور .

الصميم : من معانيها خالص الشىء، وهو وصف .

الجَثُّ : الشمع، وقيل خِرْشاء العسل، وهى الجلدة الرقيقة، توكب اللبن ونحوه، أو كل قَذى خالط العسل .

الصَّهباء : الخمر، وقيل ما عصرت من عنب أبيض، فاستعمالها فى العسل مجازى .

الخَتْم : العسل، وأفواه خلايا النحل، وختم النحل : جمع شيئًا من الشمع رقيقًا أرق من شمع القرص، فطلاه به، فهى تسمية بالمجاورة .

---

(١) وقد يكون إطلاقها على العسل ؛ لأنه يسلّى عن غيره.

الخَقّ : الجوع ، والوادى الواسع ، والعسل .

الضَّيْح : العسل ، واللبن ، الرقيق الممزوج ؛ وضوحته : سقيته إياه ، واللبن مزجته بالماء ؛ فصفة المزج فى الضيح ملموحة .

السَّدَى : الندى ، أو ندى الليل ، والبلح الأخضر ، والشهد .

الرحيق ، الـرُّحاق : الخمر أو أطيبها أو أفضلهـا أو الصافى منها ؛ فإطـلاقها على العسل إطلاق مجازى .

الصَّمُوت : الشُّهدة الممتلئة ، حتى ليس فيها ثقبة فـارغة ، ففى إطلاقه على العسل مجاز مرسل ، علاقته المحلية .

المُجاج : الريق ترميه من فيك ، والعسل ؛ ففيه صفة ملحوظة .

المجلب : الذى فى كتب اللغة الجُلاَب ، والجُلاَّب العسل ، أو السكر عقـد بوزنه أو أكثر من ماء الورد ، فارسى . فهو عسل مصنوع .

الكُعير : تصغير الكُعر : شوك له ورق كثير الشوك ، تخرج له شعب تظهر فى رءوسها هناة ، وفيها وردة حمراء مشرقة ، تجرِسها (تلحسها) النحل ، فهو مجاز باعتبار ما كان .

النحل : ليست بمعنى العسل لغة ، واستعمالها فيه مجاز .

الأصبهانية : نسبة إلى أصبهَان .

الصَّرخدِىّ : نسبة إلى صرخد : بلدة بالشام .

السعابِيب : ما يمتد شبه الخيوط من العسل والخِطمِى ، فتسمية العسل بها تسمية باللازم .

وجلىٌّ مما قدمنـاه من الشرح أن قليلاً جدًا من الأسماء السابقة للعسل ، أطلقت عليـه إطلاقًا غير مقيد ، أو منظور فيه إلى ناحية خاصة ، أما جمهرة الأسماء فهى إما مقيدة بوصف أو نسبة ، وإما مجاز أو كناية .

ونستطيع مما سقنـاه من مرادفـات العسل أن نقيس عليه غيره ، وأن نحكم بأن أكثـر ما نسمع من المترادفات الكثيرة إنما جمعت على ضرب من التسامح . على أننا لا ننكر الترادف ، ونرى أنه واقع فعلاً ، وأن وجـوده فى اللغات من الخير لها ؛ ولكننـا ندعـو إلى التأمل والتدقيق ، وعـدم الإغراق فى التـوسيع والتضييق .

وللترادف فى اللغة أسباب ، ذكر منهـا السُّيوطى فى المزهر فى الصفحة ٢٤١ من الجزء الأول سببين : « أحدهما أن يكـون من واضعين وهو الأكثـر ، بأن تضع إحدى القبيلتين أحـد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر ، للمسمى الـواحد ، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ، ثم يشتهر الـوضعان ، ويخفى

الـواضعان، أو يلتبس وضع أحـدهما بـوضع الأخـرى، وهذا مبنى على كـون اللغـات اصطلاحيـة .
الثانى: أن يكون من واضع واحد، وهو الأقل » .

وفى الحقيقة أن ما ذكره ثانيًا ليس سببًا، لأن الواضع إذا كان واحدًا، وجب أن يبين الداعى الذى حفـزه إلى وضع كلمتين أو أكثر لمعنى واحـد، أما السبب الأول فجلى واضح، وهـو من أسباب كثـرة الترادف فى العربيـة، لأن لغة قريش جمعت كثيرًا من مفـردات القبائل الأخرى، ولأن من جمعـوا اللغة ودونوها كانوا يتلقفونها من الأعراب والـرواة، ومن الآثار الشعرية، والمأثور من كلام العرب، من غير أن يضعوا كلمات كل قبيلة على حـدة، والمعجمات التى بأيدينا امتزجت فيهـا كلمات القبائل ولهجاتها من غير تمييـز، فالإصبع مثـلاً فيها تسع لغـات، وفيهـا الأصبوع أيضًـا، ولا يصح فى الرأى أن قبيلـة واحدة تنطق بكلمة الإصبـع إلا على صورة واحدة، غير أن الناس شغلوا عن تحقيـق هذه اللهجات، أو اللغات، وعن نسبة كل لغة إلى قبيلتها، وهذا مبحث شريف حقيق بعناية اللغويين .

ومن أمثلة اختلاف لغات القبائل، وأنه مـن أسباب الترادف أن الوثب فى الحميرية معناه القعود، وقد دخلت هذه الكلمة فى العـربية المدونة . فأصبحت مرادفة له . جـاء فى القاموس : وثب : طفر وقفز . وفلان : قعد ؛ وهنا حكاية طريفة، جاء فى الصفحة ٢٣٤ من الجزء الأول من المزهر : « وقال الأزدى فى كتاب الترقيص : أخبرنا أبو بكر بن دريد، حدثنا عبد الرحمن عن عمه، قال : خرج رجل من بنى كلاب، أو من سائر بنى عامر بـن صعصعة ؛ إلى ذى جَدَن، فاطَّلع إلى سطح والملك عليه، فلما رآه الملك اختبره، فقال له : ثب : أى اقعد، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع، ثم وثب من السطح . فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب فى كلام نزار الطَّمْر (١) . فقال الملك : ليست عربيتنـا كعربيتهم . من ظَفَّر حَمَّر : أى من أراد أن يقيم بظفارٍ فليتكلم بـالحميرية .
ومن ذلك القَـزُّ، وهو الإبـاء، لغة يمانيـة، تقول : قـزت نفسى عن الشىء قزا : أبت، فـالإباء والقـز أصبحا مترادفين، والبِل بالكسر فى لغة حِمير: المباح، فهما مترادفان .

ويحسن بنا هنا أن ننقل ماذ كـره ابن جنى فى الصفحة ٣٧٦ من الخصائص، متصلاً بهذا البحث . قـال فى باب [فى الفصيح يجتمع فى كـلامه لغتـان فصاعـدا] : « وأما مـا اجتمعت فيه لغتـان أو ثلاث، فأكثر من أنْ يحاط به، فإذا ورد شىء من ذلك كأن يجتمع فى لغة رجل واحد لغتان فصاعدا، فينبغى أن تتأمل حـال كـلامـه : فإن كـانت اللفظتـان فى كلامـه متسـاويتين فى الاستعمال، كثـرتهما واحدة، فإن أخلق الأمر به أن تكـون قبيلته تواضعت فى ذلك المعنى على تينك اللفظتين، لأن العرب قـد تفعل ذلك للحاجـة إليه فى أوزان أشعـارها، وسعـة تصرف أقوالها، وقـد يجوز أن تكون لغتـه فى الأصل إحداهما، ثم استعار الأخرى من قبيلة أخـرى، وطال بها عهده، وكثر لها استعماله، فلحقت لطول المدة واتصال استعمالها بلغته الأولى . وإن كانت إحدى اللفظتين أكثر فى كلامه من صاحبتها،

---

(١) الطمر : الوثوب إلى أسفل . أو فى السماء، والطفرة: الوثب فى ارتفاع .

فأخلق الحالين بـه فى ذلك أن تكون القليلـة فى الاستعمال هى المفادة، والكثيرة هى الأولى الأصليـة . نعم، وقد يمكن فى هذا أيضًا أن تكون القُلَّى منهما إنما قلّت فى استعماله، لضعفها فى نفسه، وشذوذها عن قياسه، وإن كـانتا جميعًا لغتين له ولقبيلته، وذلك أن من مذهبهم أن يستعملـوا من اللغة ما غيره أقوى منه فى القيـاس . . . وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة، فسمعت فى لغـة إنسان واحد، فإن أحرى ذلك أن يكون قد استفاد أكثرها أو طرفًا منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ فى المعنى الواحد على ذلك كلـه ـ هذا غالب الأمر ـ وإن كان الآخر فى وجـه من القياس جائزًا، وذلك كما جاء عنهم فى أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك » .

فابن جنى لا ينكر الترادف فى لغة قبيلة واحدة، ولكنه يضع ميزانًا للحكم على المترادفات، والنظر فى كونها من وضع قبيلة واحدة أو عدة قبائل، هذا الميزان هو مقدار شيوعها واستعمالها، ولكنه لم يترك لنا مدخـلاً للانتفاع بهذا الميزان، فقـد حَفَّه بالشك والتردد، ولم يجهر بـرأى حاسم : فالمرادف القليل الاستعمال يكون مـرة من وضع قبيلـة أخرى، ومرة يجوز أن يكـون من وضع القبيلـة نفسها، والمرادف الكثير الاستعمال خليق أن يكون من وضع القبيلة، ولكن هذا غير لازم، وغير حتم، فقد يكون، على شهرته وكثرة دورانه على ألسنة القبيلة، من وضـع قبيلة أخرى، مما يدل على الحَيْرة، وعدم القدرة على الجزم . والحقيقة أن أحـوال اللغة، وطـرائق العرب فى الاستعمال، لا تضبط بـالقوانين المنطقيـة، فإن العربىّ، وهو أعلم بأسرار لغته، قـد يؤثر أحيانًا كلمة لغير قبيلتـه، لأغراض مبهمة تجيش فى نفسه، ولذوق دقيق اقتضته صناعة الكلام .

ويكاد يتفق الأستاذ ترنش (Trench) مع علماء العربية فى هذه الناحية، إذ يقول ما جملته :

« إن مما لا شك فيه أن اللغات لـو كان وضعها باتفاق منظم بين الواضعين، مـا وجد فيها ترادف البتة، لأنـه عند وضع كلمة كفيلة بتأديـة المعنى المراد منها : من فكر أو وجدان أو غيرهما، لا يـدعو داع لوضع سـواها، ولكن اللغات لا توضع بمثل هـذه الطريقة المنظمة، فهناك قبـائل مختلفة، لكل قبيلة لهجتها، وهذه اللهجات على تقارب ما بينها متميزة مختلفة، فإذا اندمجت هذه القبائل فى شعب من الشعوب، نفحت لغتـه بنصيب من لهجاتها، ومن أمثلة ذلك اللغة الفـرنسية، فإنها تشتمل على مترادفـات كثيرة، أتت إليها من لهجـة الجنوب Langue d'oc، ولهجة الشمال Langue d'oi فإن كلا اللسانين منح الفـرنسية كلمات كثيرة، لمعنى واحد، وقد تشترك القبـائل المختلفة لشعب واحد فى كلمة، مع اختلاف فى صيغتها، يسوّغ بقاء كل صيغة متميزة عن الأخرى .

وقـد ينشأ الترادف من الغـزو والفتح، فيتغلغل الغـالبـون فى غمار المغلوبين، ويفـرضـون عليهم حكمهم، والسيطرة عليهم، ولكنهم قد يعجزون أن يفرضوا عليهم لغتهم، لقلة عددهم، فيضطرون إلى اتخاذ لغة المغلوبين، وقد يحصل بعد حين مـا يسمى بالاندماج بين اللغتين، فتتغلب إحداهما على الأخرى، وتكثر فيها الكلمات الدخيلة، الملتجئة إليها من اللغة المغلوبة .

هذه أسباب وجود الترادف، التى تذهب بعيدًا فى ماضى تاريخ الأمم ولغاتها . وهناك أسباب أخرى، أقرب عهدًا وأكثر حداثة، وذلك حينما تظهر فنون أو علوم جديدة، ويكون المؤلفون متأثرين بألسنة أجنبية شتى، فتراهم يرسلون أحيانًا فى عباراتهم كلمات أجنبية، من غير حاجة إليها، وهذا ضرب من الرفاهية العلمية، أكثر من أن يكون ضرورة حافزة، تدخل هذه الكلمات فى اللغة فلا يستطيع بعضها أن ينال حق البقاء فيها، فتذهب به عوادى النسيان، بعد زمن قصير أو طويل، وبعضها يأخذ طابع اللغة، ويندمج فى كلماتها » .

ومن أسباب الترادف تداخل اللغات، كأن يكون للكلمة الواحدة صيغة خاصة فى كل قبيلة من القبائل، مع بقاء مادتها، وتناولها بالنقص أو الزيادة، أو تغيير الحركات أوالحروف، بحيث تصبح على صور مختلفة، وإن كان أصلها واحدًا . ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن جنى فى الصفحة ٣٧٨ من الخصائص قال : « وكقولهم الذُّروح والذُّروح والذُّرِّيح والذُّراح والذُّرَّح والذُّرْنُوح والذُّرَحْرَح والذُّرَّحْرَح، رَوَينا ذلك كله » . وزاد عليه أصحاب المعجمات الذُّرُّحْرُح والذَّريحة : الذرحرح، وهى دويبة حمراء منقطة بسواد تطير، والجمع ذراريح (١)، والأمثلة من هذا النوع كثيرة جدًا، تفيض بها صفحات كتب اللغة، ولو أرسلنا القول فيها لطال حبل الكلام .

ومن طرائف هذا الباب ما جاء فى الصفحة ٣٧٨ من الخصائص : « ورويت عن الأصمعى قال : اختلف رجلان فى الصقر، فقال أحدهما : الصقر بالصاد، وقال الآخر : السقر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه، فقال : لا أقول كما قلتما، إنما هوالزقر . أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد فى هذه الحال إلى لغته لغتين أخريين معها، وهكذا تتداخل اللغات» .

ومن أسباب الترادف الإبدال والقلب، جاء فى الصفحة ٢٧٣ من المزهر : « قال أبو الطيب (اللغوى) فى كتابه : ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة، تتقارب اللفظتان فى اللغتين لمعنى واحد، حتى لا تختلفا إلا فى حرف واحد، ومن أمثلة الإبدال الأيم والأين : للحية، وطانه الله على الخير وطامه : يعنى جبله، وفناء الدار وثناء الدار، وجدث وجدف : للقبر، ومرث فلان الخبز فى الماء ومرده، ونبض العرق ونبذ .

ومن أمثلة القلب : ربَض ورضب، وصاعقة وصاقعة، وعميق ومعيق، ولبكت الشىء وبلكته : إذا خلطته، وسحاب مكفهر ومكرهف . (٢)

وربما كان من أسباب كثرة الترادف ميل العرب إلى الكُنى، وهى كثيرة فى كلامهم، خصها عدد من اللغويين بالتأليف، والشىء الواحد عندهم قد يناله كثير من الكُنَى يكثر إطلاقها عليه، ويشيع

---

(١) هذه الصفات تنطبق على الحشرة المعروفة عند العامة بأم العيد .

(٢) قد يقال : إن هذا وماقبله ليس من باب الترادف، وإنما هو ضرب من اختلاف اللهجات، على أنا نرى أن هذا الاختلاف قد يكون فى بعض الأحيان عظيما كما رأيت .

استعمالها فيه، وتـزاحم اسمه فى الشهـرة، حتى تصبح مرادفـة له . والأمثلـة كثيرة جدًا، نقتصر على القليل منها :

من ذلك كنى النمر، وهى : أبـو الأبْرَد، وأبو الأسـود، وأبو جهل، وأبو خَطّاب، وأبـو رقاش. ومن كنى الأسد : أبو الأبطـال، وأبو . زو، وأبو الأخياس، وأبو التأمـور، وأبو حفص، وأبو الحذر، وأبو الزعفران، وأبو شبل، وأبو ليث، وأبو لبد، وأبو محراب، وأبو مِخْطَم، وأبو النحس، وأبو الوليد، وأبو الهيصم، وأبو العباس، وأبو الحارث .

وقد يكـون النسب من أسباب الترادف، لأن الشيء قد ينسب إلى شخص أو مكـان أو نحوهما فى أول الأمر، ثم ينسى كل ذلك، ويستعمل المنسوب استعمالاً عامًا، فيدخل بين مترادفاته، فالمشرفى : السيف، نسبة إلى مشارف الشام، وهى قرى من أرض العرب تـدنو من الريف، والسمهرى والردينى : الرمح، ينسبـان إلى سمهرورُدينـة : زوجان كانـا مثقفين للرمـاح، ولكن الأدباء والشعـراء يطلقون المشرفىّ على السيفين من غير نظـر إلى قيد، والسمهـرىّ والـردينىّ على الـرمح كذلـك . والسابـرى : الثوب الـرقيق الجيد : نسبـة إلى سابـور، وهى كورة فى بـلاد فارس، على غير القيـاس، والعبقرىّ فى الأصل نسبة إلى عبقـر، وهو موضع كثير الجن، ثم أطلق على الكامل من كل شىء . وقـد عدّ علماء اللغة، كما سبق لك، الأصبَهانية والصَّلاخدىّ من مرادفات العسل .

وقد ينشأ الترادف بعد عصر الاحتجـاج بالعربية، بما يـدخل على اللغة من الكلمات المولدة، ومن أمثلة ذلك : البُرجاس : للغرض والهدف، والطنْز : للسخـرية وقيل هو معرب، والطُفَيلى : للواغِل والوَغْل، والزَّبون : للغبىّ والحرِيف، والمخرقة : للكذب .

وهناك أسباب دعت إلى تـوهم الترادف، منها دخول كلمات فى العربيـة من لغات أخرى، بسبب امتزاج العرب بالفرس والروم وغيرهما من الأمم . نعم إن المتشدد لا يعدّ هذه الكلمات من المترادفات، لاختلاف اللغة، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها، وأصبحت ذات حق بمضى مدة طويلة عليها، تجرى على أسلات الأقلام، وتجىء فى أفصح الكـلام، وقد عربها العرب، فجرت مع الألفـاظ العربية فى عِنان ؟ وقد عاش بعض هذه الكلمات، ورسخت قدمه، حتى تغلب على مرادفاته العربية، وفَلَج عليها . من ذلك الألفاظ الآتية :

الأعجمي	العربي	الأعجمي	العربي
النَّرجس	العَبْهَرُ	الأُتْرج	المنك
الرَّصَاص	الصَّرفان	التُّوث	الفِرصاد
الخيار	القَثَد	الياسَمِين	السمسق
الهَاوُن	المنحاز	اللوبياء	الدَّجْر
المِيزاب	المَثْعَب	السكر	المُبْرَت
المِسك	المشموم	الفــالــوذج	السِّرطراط
		...	

ومن الألفاظ الأعجمية ما ضَعُف عن منافسة العربى ، فقل استعماله ، وذلك كالألفاظ الآتية :

العربى	الأعجمى	العربى	الأعجمى
الإبريق	التامورة	المرآة	السَّجَنْجَل
السفينة	البُوصِىّ	الخُفّ	المَوْزَج
الرغيف	الجَرْدَقَة	الأمير	القَوْمَس
الجماعة من الخيل	القَيْرَوَان		

ويعد الوصف من أسباب توهم الترادف ؛ لأن العرب جرت فى كثير من أحوال الكلام على حذف الموصـوف، والاكتفاء بـالوصف، سيرًا على نهجهـا فى الإيجاز، واعتمادًا على وضوح المراد، فإذا تكـرر استعمال الوصف مستقلاً، تنـاسى الناس الموصوف تدريجًا، وأخذ الوصف يقـرب من الاسمية قليلاً قليلاً، حتى يندمج فى الأسماء المترادفة . وقد عرفنـا من أقوال ابن فارس، وهو ممن ينكر الترادف، أن الشىء الذى يسمى بـالأسماء المختلفة إنما له اسم واحـد، وما بعده من الألقاب صفـات، ويرى من عدُّوا الصفات المشهـورة من المترادفات أن الصفة تُنوسيت، حتى لـو قلت : السيف الصَّمصام، أو السيف الحُسام، أو الأسد الأغلب، لكان ذلك غريبًا عند قوم، بعيدًا عن السَّنَن العام، الذى استنته العـرب لأسـاليبها ، فلما نَصَلَت الصفـة أو كـادت، لم يـروا فى أنفسهم حـرجًا أن يلحقـوا الصفـات بأسمائها، ويجعلوها مـرادفة لها، فقد عدوا من مرادفات السيف كثيرًا من صفـاته، كما يُعلم بالاطلاع على كتب اللغة .

ومن أسباب تـوهم الترادف المجاز يشتهر بين الأدباء ، فيصبح حقيقـة عرفيَة ، أو ما يقـرب منها ، ويندس بين المترادفات كأنه واحد منها بالـوضع ، من ذلك ما سبق من تسمية العسل بالماذية والثواب والصهبـاء والسلاف والنحل، إلى غير ذلك، فإن هـذه كلهـا مجازات، أطلقها البلغـاء على العسل، ودارت على ألسنتهم فزاحمت كلماتـه الموضوعـة له ، ومن ذلك تسميتهم اللغة لسـانًا، والـزواج بناء ، والجاسوس عينا .

والمجاز المشهـور كثير جدًا فى اللغـة ، وقد امتـلأت به المعجمات ، حتى إن كثيرًا مـن اللغويين لا

يفرقون بين الحقيقة والمجاز، ومن هنا جلّت منزلـة كتاب أساس البلاغة لجار الله الزمخشريّ، لأنه عُنى بالتمييز بينهما .

وقد يُتوهم الترادف، بسبب عـدم التمييز بين المطلق والمقيد، فيوضع أحـد اللفظين مكان الآخر، من غير تدقيق، على توهم الترادف . وقد عقد ابن فارس لذلك بابًا جاء فيه : « ومن ذلك المائدة، لا يقال لها مـائدة حتى يكون عليها طعام، لأن المائدة من مـادنى يميدنى : إذا أعطانى، وإلا فـاسمها خِوان، وكذلك الكأس : لا تكون كأسًا حتى يكـون فيها شراب، وإلا فهى قَدَح أو كوب، وكذلك الحُلة، لا تكون إلا ثوبين : إزارًا ورداء من جنس واحد، فإن اختلفا لم تدع حُلّة، ومن ذلك السَّجْل، لا يكون سَجْلاً إلا أن يكون دلوا فيه ماء . . .

ومن ذلك القلم لا يكون قلمًا إلا وقـد بُرِى وأصلح، وإلا فهو أنبوبـة، وسمعت أبى يقول : قيل لأعرابى : ما القلم؟ « فقال : لا أدرى، فقيل له : توهمه، فقـال : هو عود قُلِم من جانبيه، كتقليم الأظفور، فسمى قلما » .

وقد رأينا الفصحـاء أحيانًا لا يفرقـون فى المعنى بين الكأس والقدح، وهذا بديع الـزمان الهمذانى يقول فى مطلع قصيدته المشهورة :

أذهـبِ الكأس فعـُرف الفجـــــــر قــد كاد يلـــوح

وإذهاب الكأس : معنـاه لغة تمويهها بالـذهب، ولكنه هنا يريـد ملأها بالخمـر، التى تصير لون زجاجهـا كلون الذهب، حتى كأنها قد مـوهت به، ولو أن البديع نظـر إلى أن الكأس لا تسمى كأسًا حتى يكون فيها شراب، ما قال هذا، ولكنه أطلق المقيد، وأراد المطلق، وهذا ما نبهنا عليه آنفًا : من أن الترادف ينشأ من عدم التمييـز بين المطلق والمقيد . ومثال آخر : قال السيُّـوطى فى الصفحة ٢٦٧ من المزهر : « ولا يقال ثرى إلا إذا كان نديًا، وإلا فهو تراب »، فماذا نرى فى قول أبـى تمـام :

دِيمــة سمحــة القِيـاد سَكـوب   مستغيث بها الثَّـرى المكـروب

وهل يستغيث الثرى بالديمة، ويتلهف إلى مائها وقد اشتدّ به الكرب، ونال منه الهمّ، إلا إذا كان جافا يابسًا، قد حرَّقه الصَّدَى، وألهبه القيظ ؟، فأبو تمام يستعمل الثرى استعمالا مطلقًا، لم ينظر فيه إلى قيد، وهو على هذا النحو مرادف للتراب، ولا نريد أن نطيل هنا ؛ فإن هذا الموضوع حقيق بأن يفرد بمبحث خاص به .

ومن أسباب توهم الترادف الكناية الدالة على ذات، فإنها إذا اشتهرت، وجرت بها أقلام الكتاب، توهمها النـاس حقيقة، وأدخلوها فى عداد المترادفـات، فزاحمتها بالمنـاكب، فسليل النار الذى ورد فى شعر المعرى :

سليل النـــــار دق ورق حتـى   كأن أبـــــاه أورثـــه السُّــــلالا

مرادف للسيف فى الاستعمال ، وبنت عدنان ، وهى كناية عن لغة العرب ، أصبحت كأنها مرادفة لها ، وموطن الأسرار فى شعر أبى نُوَاس :

ولما شربناها ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

كالمرادف للعقل ، وكثير الرماد يرادف فى استعمال الأدباء الكريم . وقد عدّ بعض علماء اللغة ، كما سبق لك ، قىء الزنابير، ورُضاب النحل ، من مرادفات العسل ، وهما كنايتان عنه . والذى يرجع إلى أساس البلاغة يرى من هذا جملة صالحة .

ومجمل القول أن الترادف واقع فى العربية ، وأن كثيرًا من علماء اللغة والأدباء توسعوا فيه ، وتناسوا ما بين الكلمات من فروق ، أو اختلاف فى الوضع ، أو اختلاف بين حقيقة ومجاز، وأن الواجب يدعو إلى تمحيص هذه المفردات وتحديد ما بينها من فروق ، ويُهيب بعلماء اللغة أن يتجردوا إلى البحث حتى لا تكون اللغة خِصبة نامية فى ناحية ، قفرًا فى ناحية أخرى ، وحتى تكون أدق تعبيرًا وأوضح بيانًا .

وإذا استمعنا للأستاذ ترِنْش (Trench) فى هذه المسألة وجدناه يقول ما محصله :

إن الأمم كلما اتجهت إلى لغتها بالعناية والدرس ، وتدرجت من طور السذاجة إلى طور المدنية ـ وهى أكثر اشتباكًا وتعقيدًا ـ وجدت أمامها كثيرًا من الأشياء يتطلب التسمية ، وكثيرًا من الأفكار يعوزه التعبير، وكثيرًا من الأسباب التى تدعو إلى تحديد الفروق بين الكلمات . حينئذ تدرك أن من التبذير فى ثروتها أن تستعمل كلمتين أو أكثر فى معنى واحد ، على حين قد تطلعت إليها الدنيا ، وهى واسعة المدى ، كثيرة المطالب ، وقد أخذ كل شىء فيها يُلِحّ فى طلب لفظ يحدد معناه ، وقد جاشت الأفكار وضروب الوِجدان على اختلاف أنواعها ، متلهفة إلى تعبير يبرزها إلى الوجود . لاشك أن قصاص الإسراف فى ناحية من نواحى اللغة ضيق وتقتير فى نواح أخرى ، فكثيرًا ما نرى فكرًا أو وجدانًا تعوزه التسمية لأن فكرًا آخر أو وجدانًا سواه ظفر بتسميتين . . . . » .

إن تحديد المعانى من أعظم أسباب الإجادة فى صناعة الكلام ، فما أجل خطره حينما نستطيع أن نعرف فى لمحةٍ الكلمَة التى يتطلبها التعبير دون غيرها ، والتى تصور ما فى النفس تصويرًا صحيحًا ، لا أن نختار من طائفة الكلمات أية كلمة كيفما جاءت ، ظانين أن كل واحدة منها كفيلة بأداء المراد . إن أول مِيزات الرجل الأنيق أن تكون ملابسه مناسبة لجسمه ، لا بالقصيرة الضيقة فى ناحية ، ولا بالطويلة المُرَهَّلة فى أخرى ، كذلك من أول مِيزات الأسلوب الصحيح أن تطابق أثواب كلماته معناه على خير الوجوه ، فلا تطول هنا ، وترسل على الأرض ، كأنها أثواب طِرِمّاح على جسم قزم ؛ ولا تقصر هناك حتى كأنها أثواب طفل اندس فيها رجل بصعوية وجَهْد . والأسلوب الصحيح هو الذى لاتشعر حينما تقرؤه أن الكاتب يغْنِى فيه أكثر مما كتب ، ولا أنه كتب أكثر مما يَعْنِى . وضعف الأسلوب عن الوصول إلى هذه المرتبة آت من الحاجة إلى المهارة فى استعمال وسائل التعبير، ومن عدم التدقيق فى اختيار الكلمات المحددة للفكر تمام التحديد، فكم من ثروة عظيمة من الكلمات فى كل

لغة تـراكمت مهملة لا تستعمل ، وكم من كنـوز دفنت فى بطون الكتب اللغـوية النـافعة ، فـلا يكاد الطرف يلمح منها إلا أثـرًا فى صفحات المعجمات ، ونحن فى وسط كل هذه الثروة الـواسعة ملتصقون بفاقة عن إرادة واختيار، مع ما يُطلب منا من الأعمال اللغوية الدقيقة الكثيرة المصاعب . وتشبه حالنا فى إهمال التدقيق فى الكلمات ، وعدم إلباس الأفكار ما يلائمها تمام الملاءمة من الكلمات ، حالَ عامل كلف عملاً يتطلب مهارة فنية ، وأعطى لذلك عددًا من الآلات المتنوعة ، على أن يستعمل كل واحدة فى العمل الخاص بها ، فصمم فى إهمالٍ أن يكتفى بآلـة واحدة ، فخرج عملـه غير متقن ، وقد أهملت فيه أعمال كانت وسائلها فى متناول يديـه . ألسنا نجد فى كثير من الأحاديث الشائعة بين الناس ، وفى كثير من الكتب ، عددًا محدودًا من الكلمات استعمل فى أوانـه ، وفى غير أوانه ، حتى نال منـه الجَهْد ، على حين أن عددًا عظيمًا مـن الكلمات يندر أن يستعان بـه فى أغراض ، وهـو فى أدائها أحسن تـأتيا ، وأدق إحكـامًـا . وقـد استمـر إهمال هـذه الكلمات ، وطـال عليـه العهـد ، حتى ذهبت بها عـوادى النسيان .

ومن المحتمل بعد أن تحس الأمة حاجتها إلى كلمات جديدة تسد مطالب الحياة ، أن تبعث برجالها للبحث عن كلمات جديدة ، فى حين أن لغتها المهجورة تَعِجّ بكثير من الكلمات التى يبحثون عنها .

هـذه مسألة جـديرة بنظـر العلماء . وإنى أرى فى خاتمة مقـالى هذا أن خـدمة العـربية إنما تكـون باستخراج كنوزها ، وتحديد معانى مفرداتها ، وإلباس كل جديد صورة من صورها الصحيحة .

والله سبحانه الموفق ، وبه نستعين .

تاريخ الأدب العربى

العصر التركى إلى بدء النهضة الحديثة (*)

عصر المماليك

سقوط بغداد: كان سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ كارثة أصابت اللغة والأدب والمدنية العربية الزاهية، وقضت على عهد مجيد كان فخر المسلمين ومرجع زهوهم.

وقصة سقوط بغداد مؤلمة جدًّا، وهى مفصلة فى الجزء الأول من كتاب المنتخب فارجع إليه.

سقطت حاضرة الإسلام فى سنة ٦٥٦، حتى إذا كانت سنة ٦٥٩ هـ قدم مصر أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسىّ، وخرج السلطان بيبرس للقائه، ومعه القاضى والوزير والعلماء والأعيان والشهود، ودخل من باب النصر، وبعد أيام جلس السلطان والخليفة فى حفل من القضاة والأمراء، وأثبت القاضى نسب الخليفة فبايعه شيخ الإسلام ثم الخليفة ثم غيرهما من كبار الدولة، ولقب بالمستنصر، وكتبت بيعته إلى الآفاق.

وبعد أشهر طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد، وبينما هو فى الطريق خرج عليه عسكر التتار فلا يدْرَى أقتل أم هرب، وكان ممن حضر هذه الموقعة أبو العباس ابن الخليفة المسترشد بالله، فقدم القاهرة فتلقاه السلطان وأظهر السرور به، ثم أثبت نسبه وبايعه وبايعه الناس، ولقب بالحاكم بأمر الله، ثم أسكنه السلطان عنده فى القلعة، وما زال بنو العباس يتوارثون الخلافة بمصر حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٢٣ هـ.

التجاء الآداب العربية إلى مصر: تطلع العلماء فى جميع أقطار العالم الإسلامى إلى مهرب

(*) الفصل الذى كتبه على الجارم من كتاب المفصّل فى تاريخ الأدب العربى المنشور عام ١٩٣٤.

يلتجئون إليه، بعد أن تحكّم التتـار فى حاضرة الإسلام ودار السلام، وهدموا مـدنيتها، وعفّوا على آثار مجدها، وقضوا على مظاهـر حضارتها، وأعملوا السيف فى أهلها أيامًا، وقـذفوا فى نهر دجلة بالكتب وهى خير ما أنتجته قرائح المسلمين. رأى العلماء ورجـال الدين كل ذلك، ورأوا أن الديار نبت بهم، فالتمسوا مكانًا يطيب لهم فيه المقام، وتزدهى فيه العربية وتخفق راية الإسلام. فإلى أين يذهبون بعد أن ملك التتار مـا بين صحراء المغـول إلى ما وراء البحر الأسـود وسواحل بحر الـروم ؟ أيذهبـون إلى بلاد العرب وهى وإن كـانت مهد العـربية تقلص ظلها عنهـا منذ حين ودالت فيهـا دولة العلم والأدب ؟ أيـذهبون إلى إفـريقية على بعـد شقتها وقـرب مصر إليهم ؟ أيـذهبون إلى الأنـدلس وقد تغلب عليهـا الإسبانيـون ولم يبق فيها إلا رُقعـة صغيرة حول غَرنـاطة توشـك أن تسقط فى أيدى المسيحيين؟ إلى أين يذهبون ؟

تطلّع العلماء شرقـا وغربـا فلم يجدوا غير مصر خصوصًـا بعد أن أصبحت مـوطن الخلافة ومقـرّ الإسلام، فرحلـوا إليها من جميع الأقطار. فكنت ترى القاهـرة ومراكز العلم الأخرى بالـديار المصرية تموج بهم موجا، وكنت ترى بينهم العراقىّ والشامىّ والفارسىّ والأندلسىّ والإفريقىّ والحجازىّ، وقد وطّأ لهم السلاطين أكنافهم، وأنزلوهم مُنْزَلا مباركـا، وأغدقوا عليهم الصلات والإحسان، وحاطوهم برعايتهم وعطفهم، فوجدوا حرماً آمنًا، ومكانًا يُنبت العز، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون.

القاهرة مركز الثقـافة العربية: أصبحت القـاهرة مـركز العلم والثقـافة لبـلاد الإسلام جميعاً، وكانت فى ذلك الحين كما وصفها القلقشندى فى شىء من الزهو فقال: «ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايـد عمارتها، وتتجدد معـالمها، خصـوصاً بعـد خراب الفسطـاط وانتقال أهله إليهـا، حتى صارت على ما هى عليه فى زمـاننا من القصور العلية، والدور الضخمة، والأسـواق الممتدة، والمناظر النـزهـة، والجوامع البهجة، والمدارس الـرائقـة، والخوانق الفـاخـرة، مما لم يسمع بمثلـه فى قطـر من الأقطار، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار».

ولـو سلمت مصر فى هذا العصر من نـوبات الظلـم وفداحـة المكوس، والمجـاعات والطـواعين والاضطرابـات، التى كانت تقع بين طوائف المماليك وبينهم وبين العرب لكتب القلم لـلأدب تاريخًا غير هذا، ولبلغت العلوم والآداب منزلة أعلى وأرفع.

على الـرغم من هذا فـإن مصر نهضت نهضة علميـة مبـاركة فى هـذه الأيـام، وأهم أسباب هـذه النهضة غَيْرة العلماء وحرصهم على إعـادة مجد الإسلام، الذى بعثرته أيدى التتار، ثـم معاضدة الملوك والأمراء ورجال الدولة العلمَ وأهله.

عطف السلاطين على رجال العلم والدين: والحق أن سـلاطين مصر كـان لهم ميل إلى العلم والعلماء، وكـان فى أغلبهم تمسك بـالـدين وتعظيم لأهلـه، ألم يروا أنهم أصبحـوا حُماة الخلافـة الإسـلامية وأنّ دولتهم صـارت ملجأ الإسلام ومَبـاءة أهلـه ؟ ألم يروا مـا أصاب الـدول قبلهم بسبب

الانغماس فى اللهو والصدوف عن أوامر الدين ؟ ثم إنهم من ناحية أخرى رأوا أن الدين والعملَ به وتعظيمَ أهله مما يقربهم إلى قلوب الرعية، ويغفر لهم ما تصادفه منهم أحيانًا من أمواج الطغيان. فقد ذكر المؤرخون لكثير منهم أخبارًا تدل على إجلالهم علماء الدين وخضوعهم لأحكامهم. قال فى حسن المحاضرة: « وكان الظاهر بيبرس منقمعًا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى إنه قال لما مات الشيخ: «ما استقر ملكى إلا الآن».

وحضر الظاهر فى محاكمة في بئر بين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فقام الناس سوى القاضى، فإنه أشار إليه ألا يقوم، وقام هو وغريمه بين يدى القاضى وتداعيا.

وترجم الحافظ ابن حجر فى معجمه للملك المؤيد شيخ وأثنى عليه وقال: «أين مثله؟ بل أين أين مثله ؟ وكان معهُ إجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، فكانت لا تفارقه سفرًا ولا حضرًا».

وكان السلاطين يشجعون العلماء على التأليف بما كانوا يبذلون من المال والمناصب، فامتلأت خزائن الكتب في عهدهم بثمرات العقول ونتائج الأفهام، كما سنقصه عليك بعد حين. وكان من بِرّ السلاطين بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء، وحافظوا على العربية بجعلها اللغة الرسمية فعاشت فى كنفهم آمنة هانئة.

وأيادى السلاطين على العلم والفقراء لا تزال ماثلة فيما بنوا من مدارس ومساجد وخوانق وبيمارستانات. وقد حبسوا على ذلك وغيره من وجوه البر الشىء الكثير.

وقد أنشأ الأيوبيون بالقاهرة قبل هذا العصر نحو خمس وعشرين مدرسة، وبنى المماليك نحو خمس وأربعين، ومن هذه المدارس ما كان مختصًا بالصوفية، وكانت المدارس في هذا العهد تموج بالطلاب يفدون إليها من جميع أقطار الإسلام للارتشاف من مناهل العلم، وكانت تفاض عليهم الهبات وضروب الإحسان من الأوقاف المحبوسة على العلم وأهله، ومما كان يجريه عليهم أمراء المصريين وأميراتهم من أنواع البر، فكان يصرف لهم الطعام والكُسا وتهيأ لهم المساكن ليعيشوا هانئين لا يشغَلهم شاغل عن طلب العلم والتجرد له.

موازنة بين هجرتين: لذلك هاجر العلماء والطلاب إلى القاهرة من كل حدب وصوب، كما تفر الطيور أزعجها الصيادون إلى حيث الأمن والسلامة، وإلى حيث لا تسمع إلا خرير الأنهار وحفيف الأشجار. وكانت هجرة العلماء والطلاب من أقطار الإسلام المغلوبة إلى القاهرة تشبه من بعض الوجوه هجرة علماء اليونان من القسطنطينية إلى إيطاليا. فإن السلطان محمدًا الفاتح حينما فتح القسطنطينية فى سنة ٨٥٧ هـ فرّ منها فلول من علماء اليونان إلى إيطاليا، وهناك أحيوا دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية، ونشروا ثقافة جديدة. ويعد المؤرخون هذه الهجرة مبدأً لنهضة إحياء العلوم بأوربا، ويجعلونها الحد الفاصل بين القرون الوسطى والعصر الحديث، وقد كانت هذه الهجرة عظيمة

الأثر بلا ريب، فإنها دفعت العقول إلى التفكير بعد جمودها، والنفوس إلى الشعور بالعزة والكرامة بعد خمولها، وفتحت الأعين المغلقة إلى ما فى الكون من عجائب مكنونة، كان يغطيها ظلام الجهل الدامس، وجعلت كل إنسان يحسّ أن له إرادة وفيه قدرة، وأن له الحق فى الاستقلال بفكره، والاعتزاز برأيه، فنشأ انقلاب عظيم فى العادات والأخلاق والأديان ونظام الدول والجماعات، وقد كان هذا الانقلاب أساسًا للمدنية الحديثة التى تعيش أوربا اليوم فى ظلها.

أما هجرة العلماء والطلاب إلى مصر فلم تحدث أثرًا فى النظم الاجتماعية والسياسية، لأنها أخذت اتجاها علميًا محضًا، ولأن فكرة الإصلاح والتجديد لم تكن نبتت فى الأذهان بعد، وربما كان حكم المماليك فى ذلك الوقت يفضل حكم كثير من الممالك حولهم، وربما كانت مصر من الرخاء والعزة بحيث تدفع النفوس إلى الرضا بالواقع والقناعة بالموجود، ولو كانت هناك نزعة إلى الإصلاح الاجتماعى لوجدت فى آراء ابن خلدون فى مقدمته مجالاً للعمل وحافزًا إلى النهوض، فإن فيها من وصف أدواء الأمم ووسائل علاجها وبيان أحوال الاجتماع وطرق النهوض بها ما فيه بلاغ وغَناء، ولكنا لا نجد فى هذا العصر أثرًا لتعاليم ابن خلدون، التى بقيت دفينة فى صفحاتها حتى أُنْشِرت فى أوائل عصر نهضتنا، فكانت ركنا شديدا من أركان الثقافة العصرية.

ولما هجر العلماء والطلاب أوطانهم وجدوا أبواب المعاهد والمدارس مفتّحة للقائهم.

المدارس: وأشهر المدارس التى أسست فى هذا العهد:

١ ـ **المدرسة الظاهرية:** شرع فى بنائها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ وتمت سنة ٦٦٢ هـ وكان بها دروس للفقه الشافعى والحنفى وللقراءات.

٢ ـ **المدرسة المنصورية:** أنشأها هى والبيمارستان الملك المنصور قلاوون فلما تمّ دخل عليه الشرف البوصيرى ومدحه بقصيدة أولها:

أنشأت مدرسة ومارستانا ... لتصحح الأديان والأبدانا

ورتبت فى هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة، ودروس تفسير، ودرس حديث، ودرس طب.

٣ ـ **المدرسة الناصرية:** ابتدأها العادل كتْبُغا، وأتمها الناصر سنة ٧٠٣ هـ ورتب بها دروسا للمذاهب الأربعة.

٤ ـ **مدرسة السلطان حسن:** شرع فى بنائها سنة ٧٥٨ هـ قال المقريزى: «لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها: أقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين لا تبطل يومًا واحدًا. وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة».

٥ ـ **المدرسة الظاهرية:** تم بناؤها سنة ٧٨٨ هـ، وكانت تحمل أعمدتها الضخمة على عجلات. فقال أحد الشعراء:

الظـاهـر الملك السلطـان همتـه كـادت لـرفعتهـا تسمـو على زحل
وبعض خـدّامـه طـوعـا لخدمتـه يـدعـو الجبـال فتأتيـه على عجل

عيّن السلطان بها علاء الدين السيرامى مدرسا لفقه الحنفية وشيخا للصوفية، وقد بالغ فى تعظيمه حتى فرش سجادته بيده، وكان بها أيضا دروس فى الفقه الشافعى والحنبلى والحديث والتفسير والقراءات.

٦ ـ المدرسة المؤيدية: تمت عمارتها سنة ٨١٩ هـ وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار. وكان الناظر على عمارتها بهاء الدين بن البرجى. واتفق بعد بنائها بسنة أن مالت المئذنة التى كانت على البرج الشمالىّ لباب زويلة، فقال تقى الدين بن حجة:

على البرج من بابى زويلة أنشئت منـارة بيت الله للعمل المنجى
فأخنى بها البرج اللعين أمـالها ألا صرِّحوا ياقوم باللعن للبرج

وقال الحافظ ابن حجر ـ وفيه تورية بهجاء قاضى القضاة بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ:

لجامـع مـولانـا المؤيـد رونـق منـارته بالحسـن تـزهو وبالـزين
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا فليس على جسمى أضر من العين

فقال العينى:

منارة كعـروس الحسـن إذ جليت وهـدمهـا بقضـاء الله والقـدر
قالوا: أصيبت بعين. قلت: ذا غلط مـا أوجب الهدم إلا خسـةُ الحجـر

وقد أنشأ المماليك بجانب هذه المدارس الكثيرة بيمارستانات عدة، لعلاج المرضى ودراسة الطب.

خزائن الكتب: وكان بكثير من المدارس خزائن كتب حافلة بالكتب الثمينة النادرة النافعة فى شتى العلوم والفنون. فكان بالمدرسة الفاضلية فى صدر هذه الدولة خزانة بها نحو مائة ألف مجلد، وكان بالمدرسة الصاحبية البهائية خزانة كتب جليلة، وحوت المدرسة الظاهرية التى أسسها بيبرس خزانة كتب كانت تشتمل على كثير من أمهات الكتب فى سائر العلوم، وعمل بالمدرسة المحمودية التى أنشئت سنة ٧٩٧ هـ خزانة كتب، قال المقريزى فى شأنها: «ولا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهى باقية إلى اليوم، لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن».

وكان بمدرسة الأمير جمال الدين التى أنشئت سنة ٨١٠ هـ، خزانة حافلة بالمصاحف الثمينة، والكتب النفيسة.

لمحة في تاريخ الأزهر منذ نشأته
وأثره في اللغة والأدب

إنشـــاؤه: لمّا تمّ للفـاطميين فتح مصر أسسوا القـاهرة المعـزّية سنة ٣٥٨ هـ لتكون حـاضرة ملكهم، وأنشئوا بها الجامع الأزهـر ليكون مدرسـة يدرس فيهـا مذهبهم الشيعي. وقد ابتدأ قائدهم جوهر فى بناء هذا الجامع فى يـوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٠ هـ، وأتم بناءه فى سنتين تقريبًا، وكان أول جمعة أقيمت به فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ.

تسميتـــه: والسبب فى تسميته بالأزهر على أرجح الأقوال أن الفاطمين سَمَّوْه بهذا الاسم إشارة إلى لقب السيدة فـاطمة الـزهراء بنت الرسـول صلى الله عليه وسلم التى بنيت دعـوتهم على الانتساب إليها.

عمارته وإصلاحه: ثم إن الحاكم بأمر الله جـدّده ووقف عليه وعلى سواه من معاهـد الدين رباعا فى سنـة ٤٠٠ هـ، وتناوله بالتعمير والتجـديد فى أيام الدولة الفـاطمية أيضًا المستنصر والحافظ لدين الله.

وفى أيام الظاهر بيبرس جدده عز الدين أيدمر الحِلّى فتمت عمارته فى سنة ٦٦٥ هـ.

وفى سنة ٧٠٢ هـ انهدم هذا الجامع بزلزال شديد حصل بمصر فى تلك السنة، فتولى عمارته الأمير سلار أحد أمراء دولة المماليك، وفى سنة ٧٦١ هـ كان للأمير سعد الدين الجامدار أثر صالح فى تجديد بنائه وإصلاحه والإغداق على طلاب العلم فيه.

وفى سنة ١١٦٧ هـ زاد فى سعـة هذا الجامع بمقـدار النصف تقـريباً الأمير عبد الرحمـن كتخدا، ومازال الملوك يتولونه بالعمارة والإصلاح والتجديد إلى يومنا هذا .

وصفـه: ويشتمل هذا الجامع على محل مسقـوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا، ومقصورته تنقسم قسمين: المقصورة الأصلية الكبيرة التى هى من إنشـاء القائد جوهر

وبها القبلة القديمة، والمقصورة الجديدة التى أنشأها الأمير عبد الرحمن كتخدا وأرضها مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين.

وهذا الجامع لا يشتمل على شىء من الزخرف، وإنما عظمته فى كبره واتساعه وما اتصل به من تاريخ مجيد.

عهود الدراسة به وأثره فى اللغة والأدب: وأول ما درس بالأزهر الفقه على مذهب الشيعة، ويظهر من عناية الخلفاء الفاطميين بالعلوم الرياضية والفلكية والطبية والجغرافية أن تلك العلوم كانت تدرس فى الأزهر فى زمانهم، وبقى مذهب الشيعة يدرس فى الأزهر ويقضى به فى مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وقامت بعدها الدولة الأيوبية فأبطلت مذهب الشيعة من ديار مصر ومنعت الدراسة وخطبة الجمعة من الجامع الأزهر، وقصرت الخطبة على الجامع الحاكمى لأنه كان أوسع من الأزهر وقتئذ، وعُطلّت الدراسة فى الأزهر نحو مائة سنة ولم تعد إليه إلا فى أيام السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ.

وازدهر الأزهر فى عصر المماليك ازدهارًا وحج إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها للانقطاع لطلب العلم والتمكن من اللغة والأدب والدين، ولما كان يفاض عليهم من الخير الوفير والرعاية وصنوف الإحسان. فقد كان لكل طائفة رواق خاص ينزل به الطلبة طاعمين كاسين. فأمه التركىّ والمغربى واليمانى والزنجى والهندى والأفغانى وتجردوا إلى الدرس وطاب لهم المقام، حتى إذا أقاموا ما أقاموا، انقلبوا إلى أهلهم متمكنين فى دينهم، راسخين فى علوم العربية وآدابها، فنشروا العلم بين أبناء بلادهم، ورفعوا راية الدين فى أوطانهم، ومجّدُوا مصر واسم مصر التى كانت تعدّ بحق مصدر النور والعرفان فى هذه العصور.

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ خبت نار العلم وطوى بساطه وذوَى نبته لما أصاب مصر حينئذ من ضروب الإرهاق والخسف، ولم يبق فى هذا العصر المظلم إلا بصيص يشع من الأزهر، ولولاه لانقطعت صلتنا بالعلم وأهله، واللغة وآدابها، ولذهبت البقية الباقية من هذا المجد المؤثل والتراث الكريم.

وقد كان الأزهر فى هذه العصور القاتمة فوق رسالته التى يؤديها للدين واللغة والأدب، ملجأ المظلومين ومثابة المنكوبين، فطالما التجأ البائسون إلى علمائه يستجيرون بهم من ظلم الحكام، وفداحة الأحكام، فأخذوا بناصرهم، وكشفوا الضر عنهم.

ذكر المؤرخون أن أتباع محمد بك الألفى من أمراء المماليك ظلموا أهل قرية بالشرقية فجاء أهلها صارخين مستغيثين بعلماء الأزهر، فقام هؤلاء وعلى رأسهم شيخ الأزهر وذهبوا إلى إبراهيم بك حاكم مصر وقتئذ، وطلبوا منه رفع الظلم عن أهل هذه القرية، فأسرع إلى إجابة طلبهم، وكف أيدى الأمراء وأتباعهم عن أموال الناس، وكتب القاضى حجة بذلك.

وحينما اعتزم المصلح الكبير محمد على باشا إنهاض مصر ورفع منزلتها بين الممالك، لم ير خيرًا من أن يتخير من بين طلاب الأزهر من يدرسون العلوم الحديثة فى مصر ثم فى أوربا، فعادوا وكانوا طلائع النهضة الحديثة فى العلوم والآداب.

ومن هنا ترى أن الأزهر كان حلقة الاتصال بين القديم والحديث، وأن له الأثر الواضح فى نهضتنا المباركة.

ولما أنشأ الخديو إسماعيل باشا مدرسة دار العلوم التى نهضت باللغة العربية نهضتها الحاضرة أمدّها الأزهر بطلابه.

والحق أن عناية الأسرة العلوية بالأزهر بلغت الغاية فقد تنافس أمراء هذا البيت الكريم وأميراته فى إسداء البر للعلم وأهله، فحبسوا عليه الأوقاف الواسعة، وكان موضع عنايتهم وإحسانهم. ولحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول الفضل العميم فى إنهاض الأزهر فى العهد الحديث، بما أفاض عليه من جميل رعايته، وواسع بره، حتى أعاد إليه مجده القديم، وحتى أصبح قبلة لجميع طلاب الدين واللغة والآداب والعلوم فى جميع بلاد الإسلام.

الشـــعر

سلك الشعر السبيل التى اختطها الشعراء لأنفسهم فى أخريات العصر العباسى الثانى من الميل إلى الصناعة اللفظية، وربما أفرط شعراء هذا العصر إفراطًا فى تحلية الشعر بأنواع البديع، والتلاعب بالألفاظ فى مهارة ولباقة، حتى لقد نستطيع أن نسمى الشعر فى هذا العصر شعر الألفاظ والزينة. ويظهر أن لنضوب القرائح فى هذا العصر من الأفكار والمعانى والقدرة على التوليد وانصراف الأذهان عن تعلم الفلسفة وعلوم الكون شأنا كبيرًا فى ضيق مدى الشعر وجدبه وخلوه من الابتكار.

وإن بقاء الشعر فى هذا العصر حافظا روعته وجماله بعد أن ذهبت أسباب نهوضه أو كادت، مما يستوقف نظر طالب الأدب، فقد زال عنه تشجيع الملوك ولم يكن من السلاطين إلا القليل ممن يفهم الشعر، وهم آل قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ، الذى كان ينظم الشعر ويلحنه، ثم السلطان الغورى، وقليل منهم جدًا من اختص بشاعر أو شعراء كما كانت الحال فى العصر العباسىّ. ولم يكن هذا العهد عهد الصلات ولا عهد الإغداق ولا عهد ملء الأفواه بالدّر والجوهر. فلم يجد الشعراء فى الشعر مرتزقا، فانصرفوا إلى وسائل الكسب الأخرى كالكتابة فى الدواوين والصناعات، فكان منهم الجزار والحمّامى والكحّال والدّهان. ألم يَهِمْ ابن نباته وهو إمام الشعراء فى عصره بين بلاد مصر والشام طالبا القوت ملتمسًا الكفاف، فلم يجده إلا مجهدًا مكدوداً.

ثم إن أسباب اللهـو وفراغ البـال التى تدفع أحيـانا بـلابل الشعر إلى التغـريد قـد سكتت فى هذا العصر، الذى كان فى جملته عصر جدّ وصرامة واضطراب.

فإذا أجاد الشعراء فإنهم يجيدون لأنهم أحبوا الشعر ورأوا فيه فنًا رفيعًا حنّت إليه نفوسهم، ومالت قلوبهم، فقال كثير منهم لا للمال ولا للكسب، ولكن لأن الفنّ تملكهم وأخذ بزمام نفوسهم، فلا بدّ لهم من القول، ولا بدّ لهم من الإجادة. وإنما تزدهى الفنون إذا صـدرت عن نازعة صادقـة مصدرها حب الفن، لا حب الشهرة ولا حب المال.

التنافس فى الشعر بين مصر والشام: وقد يكون من الأسباب الدافعة إلى الإجادة فى هذا العصر ما كان من التنافس الشـديد بين شعراء مصر والشام. فما كان يبتدع شـاعر هنا شاردة أو يجيـد قصيدة حتى يتناولها الشعـراء هناك بالنقد أو المعـارضة أو السرقة، حكوا أن ابـن نباتة كـان كلما اخترع معنى أخذه الصلاح الصفدى بلفظه أو بتغيير فيه قليل، وأن ابن نباته لـذلك ألّف رسالة جمع فيها مـا قاله فأخذه منه الصلاح، وسماها خبز الشعير لأنه مـأكول مذموم، واستهل خطبة الرسـالة بقوله ﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ﴾.

وكانت هناك مداعبات ومراسلات لا تكاد تنقطع بين شعراء مصر والشام.

تغلب الصناعة اللفظية: أشرنا آنفًا إلى ولوع الشعراء فى هـذا العصر بأنواع البديع وافتنانهم فى الصناعة اللفظية، فإنهم لم يتركوا نـوعًا إلا أبـرزوه فى أشعارهم، غير أن هذه النزعـة لم تفسد الشعر إفسادها النثر، لأن تقييد الشعر بالوزن والقافية حال دون تجاوز الحد فى البديع وتفاقم خطره.

البديعيـات: وقد نبتـت البديعيـات فى هذا العصر، وهى قصـائد من بحر البسيط فى مـدح النبى صلى الله عليه وسلم، يشتمل كل بيت منها على نوع بديعى، وقد يشير الشاعر فى البيت إلى اسم النوع. وأول بديعية كـانت لصفى الدين الحلّى، وجاءت بعدها بـديعيات لعز الدين الموصلى، وابن حجة الحموى، وعائشة الباعونية.

ومنشأ هذه البديعيات بردة البوصيرى، فإن الشعراء بعده أرادوا معارضته وفَوْقَه بإظهار قدرتهم فى البديع، ولكنهم فى الحق لم يـوفقوا إلى الإجـادة فجاءت هـذه البـديعيات صـورًا مشوهـة من التكلف الممقوت والنسج السخيف.

التوريـة: وقد شغف شعراء هذا العصر بالتورية وأبدعـوا فيها إبداعا حتى لقد كانت وحدها دليل نبوغ الشاعر وعبقريته، فتفاخروا بالإجادة فيها، وباهَوْا باختصاص عصرهم بإحكامها، قال ابن حجة الحموى:

«لأن هذا النوع وهو التـورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حـذاق الشعراء وأعيان الكتاب» ثم

قال فى موطن آخر: «ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شموسها، ومزجوا بها الذوق السليم لما أداروا كئوسها».

ومن أشهر شعراء التورية بمصر فى هذا العهد سراج الدين الورّاق المتوفى سنة ٦٩٥ هـ وله فيمن اسمه عرفات:

أطنبوا فى عرفات وغدوا ... يتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لى: هل وافقتنا؟ ... قلت: عندى وقفة فى عرفات

ونصير الدين الحمامى المتوفى سنة ٧١٢ هـ قال:

جودوا لنسجع بالمديـ ... ـح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما تُغَـ ... ـرِّد عند ما يقع الندى

وناصر الدين بن النقيب ومن قوله:

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة ... دعونى فإنى آكل العيش بالجبن

وجمال الدين بن نباتة وقد كتب إليه المؤيد صاحب حماه فردّ عليه ابن نباتة:

فديتك من مَلْك يكاتب عبده ... بأحرفه اللاتى حكتها الكواكب
ملكت بها رِقى وأنحلنى الأسى ... فهأنذا عبد رقيق مكاتَب

والقيراطى، وكتب إلى صلاح الدين خليل الصفدى:

يا صلاح العلا صفاء ودادى ... لا يرى عن أبى الصلاح بديلا
فدع العتب إننى لست ممن ... لا يراعون فى الأنام خليلا

ومن أشهر شعراء التورية فى الشام مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨١ هـ. قال:

ونهر بحب الروض أصبح مغرمًا ... يروح ويغدو هائمًا بوصالها
إذا بعدت عنه شكا بخريره ... جفاها وأمسى قانعًا بخيالها

وبدر الدين الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ هـ قال:

وتنبهت ذات الجناح بسُحرة ... بالواديين فنبهت أشواقى
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن ... يعقوب والألحان عن إسحاق
قامت تطارحنى الغرام جهالة ... من دون صحبى بالحمى ورفاقى
أنّى تبارينى جوًى وصبابةً ... وكآبة وأسًى وفيض مآقِ
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى ... وهى التى تملى من الأوراق

وصلاح الدين الصفدى قال:

لما زها زهر الربيع بروضه ... وغدا له فضل ينير لديه
قام الحمام له خطيبًا بالهنا ... وجرى الغدير فخرّ بين يديه

وابن الوردى قال :

ناعورة مذعورة ولهانة وحائرةْ
الماء فوق كِتفها وهى عليه دائرةْ

التضمين: ومما أغرم به شعراء هذا العصر التضمين، وهو أن يمزج الشاعر بشعره شيئًا من شعر غيره، وكانت لهم براعة فائقة فى تغيير المراد من الشعر المأخوذ، مع حسن السبك، ودقة الصناعة، وقد صارحنا مجير الدين بن تميم، وهو من كبار الشعراء الممثلين لهذا العصر، بشدة نزوعه إلى التضمين فقال :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

وقد تجاوزوا الحد فى ذلك حتى وصلوا إلى شىء من السخف ؛ فضمّن جمال الدين ابن نباتة أعجاز ملحة الإعراب، وهى متن فى النحو، ومن ذلك قوله فيها فى المديح :

إن قال قولا بيّن الغرائبا «وقام قس فى عكاظ خاطبا»
وإن سخا أتى على ذى العدد «والكيل والوزن ومذروع اليد»

وتبارى صلاح الدين الصفدى وجمال الدين بن نباتة فى تضمين أعجاز معلقة امرئ القيس، فكتب الصلاح إلى جمال الدين معاتبًا :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى «كجلمود صخر حطه السيل من عل»

وهكذا جرى فيها إلى شوط بعيد، فأجابه جمال الدين متهكما بطويلة أولها :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبًا «أفاطم مهلا بعض هذا التدلل»

كثرة المقطوعات: وقد كثر الميل إلى المقطوعات القصيرة فى هذا العصر، لأن أكثر ما كان يدعو الشعراء إلى القول إنما هو إبراز لطيفة بديعية، أو نكتة مخترعة، أو تورية رائعة، ومثل هذا يكتفى فيه بقليل من الأبيات . وكان فى الشعراء عادة التراسل بالشعر فكانوا يكتفون بإرسال قطع قصيرة تتناول أغراضهم، والمطلع على ديوان ابن نباته المصرى، وهو خير من يمثل هذا العصر يرى فيه كثيراً من الثنائيات والثلاثيات والرباعيات وهلم جرا .

الفكاهة فى الشعر المصرىّ : وأكبر مظهر فى الشعر المصرى ظهور الروح المصرية الخفيفة، وجمال النكتة، وحسن التأتى لها، كقول أبى الحسين الجزار يصف داره المهدمة :

ودار خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولهم كثير من هذا النوع الذى تظهر فيه حلاوة الفكاهة وخفة الروح .

الوصف فى الشعر الشامى: أما الشعر الشامى فقد استمر فى هذا العصر محافظا على ما اختص به من جمال الوصف، وبخاصة وصف الطبيعة ، لما لبلاد الشام من جمال المنظر ، وكثرة الجبال، والحدائق والمنازه، والثلوج والأمطار، وقد سقنا إليك طرفًا منه .

ومن أجلى صفات الشعر فى هذا العصر الرقة تراها ماثلة فى شعر الشاب الظريف، ثم فى شعر ابن نباتة، ثم فى كثير من قصائد صفى الدين الحلى وغير هؤلاء، وفى كتاب المنتخب أمثلة كثيرة لذلك .

أغراض الشعر: وقد قيل الشعر فى هذا العصر كثيرًا فى الغزل والوصف والمجون، ثم فى المديح والرثاء والشكوى، وقال الشعراء فى الطرَد محاكاةً للعصر العباسى، وكثر نظم الألغاز والأسئلة الفقهية واللغوية، كما كثر الشعر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم، ونظم العلوم والفنون .

كثرة المتعرضين لقرضه: ومن كوارث الشعر فى هذا العصر أن تصدّى له كثير من غير أهله فقال الشعر وتبجَّح به كل من يستطيع إقامة وزنه من غير أن يرزق الفطرة الشعرية، ومما يؤسف له أن التاريخ حفظ لنا كثيراً من هذا الشعر الغث فيما أُلِّف من الكتب فى هذا العصر كتاريخ ابن إياس وغيره .

وربما كان هذا الشعر السقيم من الأسباب التى دفعت بعض الأدباء إلى الحكم بسقوط الشعر فى هذا العصر وتقهقره وإسفافه .

الأوزان المولدة: وقد شاعت الأوزان المولَّدة فى هذا العصر، كالموشّح والدوبيت والزجل، الذى مالت إليه آذان آل قلاوون وآل برقوق، وأجازوا عليه الزجالين وأحسنوا صلتهم . وأشهر الزجالين الشيخ خلف الغبارى، وكان قيّم الزجل بمصر، وأحمد بن عثمان الأمشاطى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ . وكان قيم الزجل بالشام . وتجد أمثلة كثيرة للأوزان المولدة بكتاب فوات الوفيات للكتبى وتاريخ ابن إياس .

ترجمة ابن نباتة المصرى

طلب صلاحُ الدين الصفـديُّ فى مستهَل شعبانَ سنة ٧٢٩ هـ من جمال الدين ابن نبـاتة أن يُجيزه برواية مصنَّفاته وآثاره الأدبية، وهى عادة جرَى عليها العلماء قـديماً واشتدّ بها تمسكهم فى هذا العصر، وقد نشأت فى أول أمـرها من العناية بـرواية الحديث الشريف، والاهتمام باتصال سنده، ثم جاوزت ذلك إلى ما سواه من صنوف العلوم والفنون.

وقد كتب ابنُ نباتـة إلى الصـلاح كتابا مسجـوعا مطوّلا علـى نمط مـا كان يُكْتَب فى ذلك العهد جاء فيه:

مولده ونسبه: «فأمـا مـولِـدى فبمصر المحـروسـة فى ربيع الأول سنـة ستٍ وثمانين وستمائة بمنزلنا بزُقاق القناديل».

ثم جاء فيما يختص بنسبه فى نهاية الكتاب:

« قال ذلك وكتبه محمد بن محمـد بن محمد بن محمد بن أبى الحسن بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب بن يحيى بن عبد الرحيم بن نباتة».

وقد كان زقاق القناديل الذى ولد فى أحد بيـوته ابن نباتة مُقام أشراف الناس وأعيانهم، كما يؤخذ من المقريزى، فهو إذًا نشأ فى بيت نعمة وشبّ فى أسرة هانئة تتمتع بشىء من نعيم الحياة، ولقد عاش ابن نباتة ما عاش وهو لا ينسى الأيـام الأولى من حيـاته التى قضاها فى شـباب ولهـو وفراغ، استمع لما يقول:

واهـــا لأيـــامىَ التى سلفـتْ — مـــا بين ذاك النعيـم والمَـــرَحِ
لا يُنْـزِل الـدهـرُ من يـدى قَـدَحًـا — كـأننى صـــورة على قـــدح

وكان أبوه من أشياخ الحديث بدمشق، ترجم حياته صلاح الدين الصَّفَدِىّ فى كتابه الوافى بالوَفَيَات قال ما ملخصه:

«شمس الدين بن نباتة والد الشاعر ابن نباتة، ساكنٌ خَيِّرٌ قليل الكلام، يُنفق كل ما يحصل له على أحفاده أولاد ولده جمال الدين، ولد بمصر سنة ٦٦٦ هـ، وله سكن بالظاهرية بِدِمَشْق، أجازنى بخطه فى سنة ٧٣٠ هـ، وتولّى دارَ الحديث النبوية، وتُوُفى سنة ٧٥٠ هـ».

ويتصل نسب شاعرنا بابن نباتة عبد الرحيم الخطيب المتوفى سنة ٣٧٤ هـ، وقد كان مُقَدَّمًا فى علوم الأدب، يقال إن خطبه لم يُعمل مثلها فى موضوعها، وكان خطيب حَلب، واجتمع بالمتنبى فى خدمة سيف الدولة بن حَمْدان، وكان سيف الدولة كثير الغزوات فأكثر ابن نباتة من خطب الجهاد والحث عليه.

البيئة التى نشأ فيها: فأنت ترى أنه نشأ فى بيت علم وأدب، وأنّ أسرته تتحلّى بالطارف والتليد منها، وأنه كان صادقا حين قال:

ورِثتُ اللفظَ عن سَلَفى وأكْرِمِ ... بآل نُباتَةَ الغُرُّ السَّرَاة
فلا عجب للفظى حين يحلو ... فهذا القَطْرُ من ذاك النباتِ

وحين قال:

لى حينَ أنْسَبُ أسرةٌ عربيةٌ ... كادتْ تَعُدُّ الشُّهْبَ من أحلافى

وحين قال فى ختام قصيدة يمدح بها عَلاء الدين بنَ فضل الله:

خذها مُنظَّمَةَ الأسلاكِ مُعْجِزَةً ... بالجوهر الفردِ فيها كل نَظَّامِ
مصريةً من بيوتِ الفضلِ ما عُرِفَتْ ... فيها بنسبةِ جزارٍ وحَمَّامِى

يريد أنه من بيت عريق، وأنه لم يكن مُحْدَثًا فى الأدب كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحَمَّامى.

وللبيئة العلمية أثرها فى النشأة الأولى، ولاسيما إذا صَحِبتها الفطرةُ السليمة، وصادفتْ نفسًا قوية الاستعداد.

شبّ ابن نباتة ونما فى هذا الجو العلميّ الأدبيّ، ونشأ بين أترابه ولِداته غلامًا مُنَعَّمًا، حتى إذا أتمّ دراستَه الأولى، سما إلى الدراسة العالية، فدرس الحديث وعلومَ الدين واللغة والأدب، وقد ذكر لنا فى الإجازة التى كتبها للصلاح الصَّفَدِى أسماء شيوخه فى مصر وغيرها.

حال مصر فى أيامه الأولى: ولد ابن نباتة فى عهد الملك المنصور قلاوون، وكان فى السابعة من عمره عند تولية السلطان الناصر محمد أولَ مرة، لأنه تولّى الحكم ثلاثَ مرات، ومات فى عهد

السلطان الأشرف شعبان. والذى يَعْنينا الآنَ أن نبين أن طفولة ابن نباتة وشبابَه كانا فى عصر كثيرِ الفتن والزّعازع، انقسم فيه الأمراء بعضُهم على بعض، وكان لكل أمير فريقٌ يناصره وينافح دونه، وتَفشّت الدسائس بين كبار المماليك، وكثُرتْ مصادرةُ أموال رجال الحكم بعد اعتقالهم وقتلهم، وقد كانت أخبار هذه الحوادث تنتشر بين الناس مُحَرَّفةً مبالغًا فيها، وكانت العامة تثب على الفريق المغلوب للنهب والسلب، وربما اغتنمت الفرصةَ وجرّتها الفوضى إلى الاندفاع فى سبيلها فدهمت الآمنين فى بيوتهم.

ولعل الفتى محمد بنَ نباتة فى ذلك الحين كان يسمع أخبارَ هذه الأهوال فيرتعدُ فَرَقًا، ولعله كان يُنْصِتُ إلى خادمه العجوز، وهى تصف له أحوال المسجونين بخزانة شمايل، وما يصيبهم من ألوان العذاب.

كان العصر كثيرَ الحوادث حقًا، فاضطراب فى داخل البلاد، وخوف من هجوم التتار، فمجاعة فى مصر اضْطُرّ فيها الناس إلى أكل ما يؤنَف من أكله من صنوف الحيوان، ونحن نعلم أن ابن نباتة كان عصبيَّ المزاج قويَّ الخيال.

أثر البيئة فى نفسه: فليس بعجيب أن تُؤثّر هذه الأحوالُ فى نفسه تأثيرًا شديدًا، وأن تقوِّيَ فيه غريزةَ الخوف وحب السلامة، ويظهرُ أن هذه الأخلاق لازمت شاعرنا طولَ حياته، فإننا لا نرى فى شعره ما يدلُّ على قُوَّة نفس، أو اعتزازٍ برأى، أو نقدًا لعمل من الأعمال، أو هجاءً لعظيم أو حقير. لا يظهر فى شعر ابن نباتة شىء من هذا، لأن فى هذا مخاطرةً، وفيه ما تصوِّره له نفسهُ العصبيةُ من أوخم العواقب، حتى إنه إذا عاتب كان عتابه هينًا يسيرًا ليِّنَ الملمس، إلى المديح الصرف أقرب منه إلى العتاب كقوله:

لئن ضاع مثلى عند مثلك إننى ... لعَمْرُ المعالى عند غيرك أضيعُ
متى تنجَعُ الشكوى إذا أنا لم أجد ... لديك اعتناء غير أنك تسمع
وما كان صعبًا لو مَنَنْتَ بلفظةٍ ... تردُّ بها عنى الخطوبَ وتردَع
وقلتَ امرؤ للشكر والأجر قابلٌ ... وللبرِّ فيه والصنيعةِ موضع
ومغتربٌ عن قومه وديارهِ ... أساعده واللهُ يعطى ويمنَع

وإذا جرؤ قَوّى عزيمته وقال:

ولى خصومٌ ولستُ الآنَ شاكيهم ... لكنّهم فى غدٍ يدْرُون أين شُكوا

يريد أنه سيشكوهم إلى الله تعالى يوم الحساب.

وقد وصف نفسه فى هذه الناحية فقال:

ما كـان فى العشرينَ يهفو مَـنْطِقِى | أيكـــونُ فى الخمسيْن فعلٌ هـــافِ
شِيَمٌ من السّـــلَفِ الـزكىّ ورثتُهـــا | لا فى الصِّبـــا عيـــبٌ علـىَّ ولا فِ

أى ولا فى الشيخوخة .

شعره لا يمثـل الحياة فى عصره: فالاستكـانة والاستسلام ظـاهران فى شعر ابن نبـاتة ، وربما غلب هـذان الخلقـان على شعـراء عصره قليـلا أو كثيرًا ، وربما رأينـا لابن الـوردى والصفــدى وإبراهيم المعمار أبياتًا غير قليلة تصوِّر الحياةَ وتدوِّن الحوادثَ ، ولكنّا لا نجد شيئًا من ذلك لابن نباتة ، فهو لا يعطينا صورة للحيـاة فى أيامه ، لأنه شاعر مقلِّـد جرى على سَنن الأقدمين فى الغَـزَل والمديح ، وترك الدنيـا حوله تصيح وتصخَب ، وعواصفَ الحوادث تثور وتـزأر ، من غير أن يجود عليها بكلمة ، وكلُّ ما كان يهتم بـه إنما هو نفسُه وأسرته ، فهو فى هذه الحالـة يمثِّل العطفَ والحنان فى أرفع منازلهما ، والدنيا فى نظره هى تلك الأسرةُ الصغيرة التى يعولها ، فإذا مسَّها الضرّ بكى واشتكى . وسنطيل البحث فى هذا الموضوع عند الكلام على أخلاقه .

معاصروه : نشأ ابن نبـاتة فى أزهَى أيـام الأدب فى عهد المماليك ، فقـد عاصر كثيرًا من رجـال اللغة والأدب ، مثـل جمال الدين بن هشـام المصرى المتوفى سنـة ٧٦١ هـ ، وابن منظـور (٧١١ هـ) ، وابن سيِّد الناس (٧٣٤ هـ) . وغيرهم ؛ وعاصر من الشعراء كثيرًا ، منهم نصيرُ الدين الحمامىّ (٧١٢ هـ) ، وشمسُ الدين محمـد بن العفيف (٧١٥ هـ) ، وعـلاء الدين الـوَداعى (٧١٦ هـ) ، وشهـابُ الدين ابن أبـى حَجَلَة المغـربىّ (٧٧٦ هـ) . وزينُ الديـن بن الـوردىّ (٧٥٣ هـ) . وصـــلاحُ الدين الصفـــدىّ (٧٦٤ هـ) . وابن اللُّـــبَانة (٧٥٢ هـ) . والقيراطِــىُّ (٧٨١ هـ) . وابنُ دَانِيَـال المَـوْصِـلِىّ (٧١٠ هـ) . وصفىُّ الدين الحِلِّىّ (٧٥٠ هـ) .

وخالط كثيرًا من كبـار الكتاب مثل محيى الدين بن فضل الله العمرى (٧٤١ هـ) ، وولده شهاب الدين (٧٥٥ هـ) ، وأخيه عَلاء الدين ، وشهابِ الدين محمود الحلبىّ (٧٥٥ هـ) .

بيئته العلمية والأدبية : أما الفقهـاء والمحدّثـون فى أول عهد ابن نبـاتة بـالعلم والتعلم فكـانوا كثيرين .

من كل ذلك نرى أن استعـداده السليم فى أول نشأته وجد غـذاءً علميا يسد حاجتـه ، وأن الحياة الأدبية التى كـانت تحيط به تـركت فى نفسه آثارًا ظهـرت ثمارها فيما بعـد ، وأنه استطاع فى حـداثته أن ينتهب قسطا وافرًا من الأدب والعلم ، وأن يَتَـمَـلأ من كل ما تقع عليه عينه أو تسمعه أذنه ، وكأنى به وهو لا يزال طفلاً يتنقل بين حَـلَقات الأدب ، ويُـنْصِت إلى مُطارحة الشعراء ، فقد أخبرنا فيما كتب به إلى الصلاح الصفدىّ أنه سمع سراجَ الدين الوراق وهو ينشد لنفسه :

واخَــجْـلَتِى وصحــائفى مُسْوَدَّةٌ | وصحـــائفُ الأبـــرارِ فى إشراقِ
وتَوَقُّــفِى لمــــوبِّخٍ لـــىَ قـــائلٍ | أكـذا تكـونُ صحـائفُ الـوَرَّاقِ ؟

وهذا غريب جدًا ؛ لأننا نعلم أن الوراق مات سنة ٦٩٥ هـ وأن ابن نباتة ولد سنة ٦٨٦ هـ، وإذًا مات الوراق وابنُ نباتة فى التاسعة ، فمتى سمعه ياتُرَى ينشد هـذين البيتين ؟ إذا انتهينا إلى آخر فرض ممكن، نقول إنـه سمعه وهو ابنُ تسع سنين وإنـه فهم البيتين ووعاهما وحفِظهما ، وأدرك ما فيهما من تورية . وهذا يـدل على شغفه بالأدب فى عهد طفـولته ، وعلى ميله الفطرىّ المطبوع على حب الشعر والتَلَـذُّذ به ، وعلى مقدار مـا أودعه الله من ذكـاء ومواهب فنيّة قـوية منذ نعـومةِ أظفـاره ، ومن هذا نستطيع أن نقول إن ابن نباتة أخذ يخالط الأدباء ويساجلهم ، وهو فى نشأة العمر وغضارة الصبا ، وإنه أفاد من ذلك كثيرًا ، ولعل شغفَه باللغة والأدب والشعر لفته عن التوسع فى العلوم الدينية وغيرها .

فأسرة ابن نباتة وشيوع العلم والتعليم فى طور شبابه سـاعدا على أن يُنَـمِّيا ما كان فيه من نبوغ وأن يُظْهرا ما منحه الله من عبقرية .

صفـاتـه وحيـاتـه

تطامن نفسه : عرفنا أن من أظهر صفاته الاستكانَةَ والاستسلام ، وأنه لم يخلَق جريئا ، وهذه النفس الضعيفة هى التى حرمته أن ينال نصيبَه الذى يستحق فى الدنيا ، فلم نعرف أنه زاحم سواه بالمناكب ، مع ما فيه من مواهب كانت تُسَـوِّغ له البروز والرياسة ، فقد كان ابنُ نباتة كما وصف نفسه :

قَلَّ عَـوْنى على الزمـان فـأصبحـ ـــتُ صبـورًا على مُـراد الـزمـان

حـــابسَ اللفظ واليَراع عن النـــا سِ فـلا مِن يـدى ولا من لســانى

بؤسه وهجرته إلى الشام : ويظهر أنـه فى أول حياته كـان فى شىء من اليسر فأسرف وبذّر ، وأسام سرحَ اللهو ، ومشى مع المُـجَّـان فضيَّع ما فى يديه ، وأصبح فى حاجة إلى الاستجداء بشعره .

ومن الغريب أن ابن نبـاتة النـابغة العبقرى تنبـو به مصر ، ويضيق به العيـش فيها ، وهى تُنبت الذهب ، وتفيض بالخير ، فنراه يهجرها فى طلب الرزق سنة ٧١٥ هـ كثيرَ العيال مضطربَ الأحوال كما يقول :

مُـقَـلْـقَــلاً بيـد الأيام مضطـربًـا كـأنما استقسمـتْ منـى بـأزلام

التحاقه بديوان الرسائل : فيلتحق مرة بـالملك المؤيد صـاحب حماة إسماعيل بن على (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) فينال عنده شيئًـا من الحُظْوَة ، ويُصبح شاعره الأثير عنده ، وقد رتـب لابن نباته كـلَّ سنة ستمائة درهم ، يرسلها إليه بدمشق . ثم يتصل بـابنه الأفضل ، ثم بالمنصـور بن الأفضل ، ثم يُعَيِّنه شهاب الدين بن فضل الله بـديوان الإنشاء بدمشق ، كما يخبرنا بـذلك ابن نباتة فى قصيـدة يمدح بها عَلاء الدين أخاه :

بلَّغتنى يـــا ابن فضـل الله مُطَّلَبَــا لم أَرْجُـهُ من بنى الـدنيـا ولم أَخَلِ
نلتُ العـلا وكَبَتُّ الحاسـدين على يَـدِ اعتنـــائك لا حيْلى ولا حِيلَى
وقـد سَمَـوْتُ لديـوان الـرسـائل فى طىّ ادكـارك لا كُتْبـى ولا رُسُلِى
مـدّى أخـوك إلى مَـرْقـاهُ أوصَلنى ولـو تَـرقَّى إليـه النَّسر لم يصلِ

زهـوه بشعـره: وكان ابن نباتة على تواضعه واستلامه مُحسًّا جمال شعره به تيَّاها، فلا تكاد تخلو له قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية والإدلال بها، خذ ما يقوله فى آخر قصيدة:

مَن مُبْلغُ العُربِ عن شعـرى ودولتِه أنّ ابنَ عَبَّـاد بـاقٍ وابـنَ زيـدونـا
حَبَّرْتها فيـهِ زَهـراءَ المعـاطف مِن أعلى وأنفس مـا يُهدى المُجيـدونـا
إذا رأيتَ قوافيهـــا وطلعتَـــهُ فقـد رأتْ مُقْلتَـاكَ البحـرَ والنـونـا
كأن ألفاظهــا فى سمع حُسَّـدهـا كـواكبُ الـرجم يَحْرِقْنَ الشيـاطينـا

وفى قوله « فقد رأتْ مقلتاك البحر والنون » توريةٌ تمتزج بمراعاة النظير امتزاجًا رائعًا بديعًا.

فزعه من الشيب والهرم: ومن صفاتـه أنه كان كثير الشكوى من الكِبَر، شـديد التألُّم من الشيب، فهو فى أكثر شعره يندُب شبابَه، ويبكى مـاضىَ قوّته، ويَفْزعُ مَهُولاً من الشيب والهَرَم. وهذا من آثار المزاج العصبىّ، الـذى تحكّم فيه، وملك عليـه نفسَه. وهـو مـرةً يعلل لاشتعال شيبـه بكثرة الهمـوم فيقول:

مَن يحاربْ حـوادثَ الـدهـر يَخْفَى لَـوْنُ فَـوْدَيْـهِ فى غُبـارِ الحُروبِ
مَن يَعُـمْ فى بحـارِ هَمِّىَ يظهــرْ زَبَـدٌ فـوقَ فَـرْعِـهِ الغِـرْبِيبِ
أىُّ فـرعِ جَـوْنٍ على عَنَتِ الأيـ ـــامِ يَبْقَى وأىُّ غصنٍ رطيب!
لَـوْ هَمِّىَ مـاء مِعْطِفَـىَّ من الَّليـ ــنِ لأفْنَتْـــهُ مُهْجَتى بلهيبِ

وهو مرةً يذكر أنّ الشيب كان سببا فى ارعوائه وتجافيه عن اللهو فيقول:

فقـــدتُ الهوَى لما فقـــدتُ شبيبتى وأوجعُ مفقـــودٍ هَـوًى وشبـــابُ
وكـان يَصيدُ الظبىَ فـاحِمُ لِـمَّـتِى وأغـربُ مـا صـاد الظبـاءَ غـرابُ
ولو كنتُ من أهل المداجاة فى الهَوَى لكـان بـدَمْعِـى للمشيب خِضـابُ

ثم هو مرةً ثالثة يؤاخِى بين الشيب وفقره فيقول:

مَشيبٌ وإقتـارٌ هـو الشيبُ ثـانيًـا ألاَ هكـذا يأتـى الشقـاء المُكَـرَّرُ

ونراه فى هَرَمه ويـؤسه وتكاثر الهموم عليه يفزع إلى الزهـد يَتَلَمَّس فيه راحةً لنفسه يُطْفِىء بها غليلَ صدره ويَرْجِع إلى الله فِرارًا من ويلات الدنيا وأَوْجالها. وقد يكون صريحًا أحيانا فيقول:

مَنَعَتْنِى الـــدنيـا جَنَّى فَتَـزهَّــدْ تُ ولكنْ تَـــزَهُّـــدَ المغلــوبِ
وَوَهَتْ قـــوّتى فأعــرضتُ كُرْهًـا عن لقـــاءِ المكـــروهِ والمحبـــوبِ

وهو يتذكر في شيخوخته أيامَ لهوه السابقة فيشعر بالندم والتفريط فيصيح :

وإنـي لمن زاد فى الغَـىِّ سعيُـــه ... وطَـــوَّلَ حتى آن منــه متـــابُ
إلهىَ فى حسن الــرجـا لى مــذهبٌ ... وقــد آن للـــراجى إليك ذهـــابُ

شعره فى الزهد: وله قصيدة يصفُ فيها ألمه من الحياة ومـا لاقاه من بؤس وهموم وتجاهل لقَدْره نحا فيها مَنْحَى المَعَرِّى منها :

عِفْتُ الإقامةَ فى الـدنيا لو انشرحتْ ... حالى فكيف وما حظـى سوى النكَدِ

ومنها :

لا عــــارَ فى أدبى إن لم ينلْ رُتَبَـــا ... وإنمـا العــارُ فى دَهْرِى وفى بلـدى
هـذا كـلامى وذا حظـى فيـا عَجَبـا ... منى لثــروة لفـظ وافتقـــارِ يـــدِ

ومنها :

أمّـا الهمـومُ فبحـــرٌ خُضْتُ زاخـرهُ ... أمـا تَرَى فـوقَ رأسى فـائضَ الزَّبَـدِ
وعشتُ بين بنـى الأيـــامِ منفـــردا ... ورُبَّ منفعـــةٍ فى عيشٍ منفـــردِ

ومنها :

أصبحتُ لا أجْتَوِى عيش الخمول ولا ... إلى المراتب أرمـى طَـــرْفَ مجتهـــدِ
جسمى إلى جـدثى مهـواه من كثب ... فكيف يُعجبنى مهـــوايَ من صَعَــدِ

والقصيدة مؤثرة جدًّا، فهى شكاية رجل خـابت آماله، ورأى نبوغَـه لا ينال قسطـه من الإكبار، ومواهبَه لا تُـدِرُّ عليه غيرَ الاستجداء وإراقة مـاء المُحَيَّا. وهو فى هـذا الباب كثير الشكوى مـوصول الأنين.

بؤسه وكثرة عياله : ويظهـر أن ابن نباتـة كان شـديـدَ البؤس كثيرَ العِيـال ويظهر أن مـرتبه كـان ضئيلا، وأنه كثيرًا ما كان يتأخر صرفه أشهرًا. فهو يقول :

لقـــد أصبحتُ ذا عمـــرٍ عجيبٍ ... أقَضِّى فيـــه بـــالأنكـــادِ وقتى
مـن الأولاد خمسٌ حـــــول أمٍ ... فَــوَاحــربــاه مـن خمس وستِ !

ويقول لعلاء الدين بن فضل الله :

على أنّ عندى كأس شَكْـوَى أُدِيرُها ... على السمع ممزوجا بِمَـدْمَعِىَ الغَمْر
يُكَـسِّرُ حـــالى بالجفــاءِ وطالمـا ... تعَـــوَّدتُ من نعماك عـاطفــةَ الجَبْرِ
ويدفعنى عن قـوتِ يـومىَ معشـرٌ ... وأنتَ عليهم نـافـذُ النهيِ والأمـــر

ثم نراه يستجدى من علاء الدين دارًا يسكنها :

لى قصـــــةٌ والســـــؤال سُكْنَى بيـــتٍ ويحتـــاجُ للعِبَـــــارة
سكنـتُ دارًا لصـــــــاحب لى وقصــــــدُه يســــــتعيدُ دارَه

ونراه يقول أحيانا :

تـــركتُ المـــالَ والجـــاهَ لأهل القَـــدرِ والقُـــدْره
فَحسبـــى مـــن جِمَى كِسْرٌ وحَسْبِي مـــن غِنًى كِسْرَه

ويقول :

لقـد أصبحـتُ فى حـالٍ يـــرقُّ لمثلـــهـــا الحجر
مشـــيبٌ وافتقـــارُ يـدٍ فـلا عيـــنٌ ولا أثـــرُ

وقد انتهت به الحال إلى أن يطلب خبزًا من أحد الأمراء :

لجـــأتُ إلى بـــابِ الأميـرِ وظلِّـه وفـــارقتُ ذُلِّى إذ وصلتُ إلى العِـــز
وأصبحتُ من جُنْدِ المحـامدِ والغِنَى ولابُـدّ للجنـديّ من طَلَبِ الخبـزِ

ويقول وقد صرف له ممدوحُه معلومًا بعد أن تأخر:

وعَجّلَ معلـومى ومـا كنتُ واصـلاً إلى رُبْعِـــهِ والشهـرُ للشهــــر رابعُ
وأصــــلح منـــى ظـاهرًا ثم باطنـًا فـــلا أنـا عُـــرْيانٌ ولا أنـا جـائع

ومن أظرف ما نختاره له هنا ما كتب به إلى أحد الأمراء :

يــاســائلى بِـدِمَشْقَ عن أحـوالى قف واستمـع عن سيرة البَطَّــــالِ
ودع استماعَ تَغَـــــزُّلى وتعشقـى مـــاذا زمـــانُ العشـق والأغـــزالِ
طـولَ النهـار لبـــاب ذا من بـاب ذا أسعى لعمـــر أبيـك سعىَ ظِـــلالِ
وإذا تغيّر مـــورد وقصــــــدتُ لى صحبًا وجدتُ الصحبَ مثل الآلِ(١)
أتــرَى الـــزمــانَ يُعيننـى بـولايــةٍ أحمـى بهـــا وجـهـى من التســـآل
زحـــلٌ يقارن حـاجتى وقـد انحنى ظـــهرى من الهــم انحنـاء الــدّال

ندبه حظ الأديب : وكثيرًا مـا ندب ابن نبـاتة حظَّ الأديب فى أيـامه، وأنـه لا يُؤبـه له، ولا يُقـدَّر نبوغُـه، ولا يُثاب على فنـه، وقد كـان الأمر كذلـك فى عهد المماليك، فإنهم وجّهوا جـلّ عنايتهم إلى تشجيع العلم والتأليف، ولم يتجهـوا إلى الشعـر إلا قليلاً، لـذلك كان الشعـر وحـده لا يقوم بحيـاة صاحبه. استمع لما يقوله ابن نباتة فى وصف تلك الحال :

فكفَى مـن وضــــوح حــــالىَ أنى فى زمـــانـى هــــذا مـن الأدبـــاء
ضــــاع فيــــه لفظى الجهيرُ وفضلى ضَيْعَـــةَ السيفِ فى يــدِ شــــلاّء

---

(١) الآل : السراب. وهنا تورية.

ولما يقوله فى مكان آخر:

أسفى على الشعراءِ إنهم على ... حالٍ تُثير شماتةَ الأعداء
خاضوا بحورَ الشعر إلاّ أنها ... مما تُرِيق وجوهُهم من ماء

ولما يقوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصرَ محمدا:

وقالوا فلانٌ رَمَّ بالشعر عيشَه ... فيا ليتَ أنى ميتٌ لستُ أشعر
تَصَرَّمَ أقصى العمر أدعوكَ للمُنَى ... وأرقبُ آفاقَ الرجاء وأنظُر
وأصبِر والأيامُ تقتلنى أسًى ... فها أنا فى الدنيا قتيلٌ مُصَبَّر
أرىَ دون حظِّى مَسْلَكاً متوعِّرًا ... إذا ما جرتْ فيه المُنَى تتعثَّر
ويحمرُّ دمعى حين تصفرُّ وَجنتى ... فألبَسُ ثوبَ الهمِّ وهو مُشَهَّر
ولا ذنب لى عند الزمان كما ترَى ... سوى كَلِمٍ كالروضِ تَبْهَى وتبهَر

حنينه إلى مصر: وقد قاسَى ابن نباتة فى غربته شدائد وآلامًا. فكان لذلك دائمَ الحنين إلى مصر كثيرَ الشوق إلى معاهدها، وقد كان يترك أحيانًا أسرته بالشام أو بمصر ويعيش وحدَه، فيشتدُّ هُيامُه، ويزيد عَتْبُه على الأيام. وما أرقَّه وأوفاه حين يحنُّ إلى مصر فيقول:

بأبى الخدودُ العارياتُ من البكا ... (اللابساتُ من الحرير جلاببا)
النابتاتُ بأرضِ مصرَ أزاهرًا ... والزاهراتُ بأرضِ مصرَ كواكبا
آهًا لمصرَ وأرضِ مصرَ وكيف لى ... بديار مصرَ مراتعًا وملاعبا
حيثُ الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا ... فى الأَقْر بينَ مشاربًا وأصاحبا
والدهر سَلْمٌ كيفما حاولته ... لا مثلَ دهرى فى دِمَشق محاربا

وحين يقول:

ياساريَ البرقِ فى آفاق مصرَ لقد ... أذكرتنى من زمانِ النيل ما عَذُبا
حَدِّثْ عن البحر أو عينى ولا حَرَجٌ ... وانقُل عن النارِ أو قلبى ولا كذبا
واندُب على الهَرَمِ الغربىِّ لى عُمُرًا ... فحبذا هَرَمٌ فارقته وصِبا

وحين يقول:

أمصرُ سقتكِ غوادى السرورِ ... وجادك من أفقها صَيِّبُ
ذكرتُ زمانَكِ حيثُ الوصالُ ... وحيثُ الصِّبا طيبٌ طيبُ
وبيضُ الوجوهِ به تُجتَلَى ... وسودُ الشعور به تُسْحَبُ

وحينما سئم العيشَ بالشام، ولاقىَ ما لاقاه، رحل إلى مصر وأقدم بها وقال:

ورب سائمة عزمى ومرتحلى ... إلى حمى مصر أشكو جفوة الشام
قالت وراءك أطفال فقلت لها ... نعم ونعمى ابن فضل الله قدَّامى

العطف على أسرته: ومن أظهر صفات ابن نباتة العَطْفُ على أسرته وأهله ومن يتصل به، فهو أبٌ رحيم شفيق، وزوج مخلص كريم ماتت زوجُه فرثاها بما يُثير الأشجانَ وخلَط الرثاءَ بالغزل فقال:

ثوَتْ فى مهاوى التُّرب كالتِّبْر خالصًا ... فَحَقّقْتُ أنّ التُّرب بعضُ المعادن
فوالله ما أدرى لحسن خلائقٍ ... تَسِحُّ دموعى أم لخَلْقٍ محاسن

ومنها:

وكنت أخافُ البين قبلَك والنوَى ... فأصبحت لا آسَى على إثْرِ بائنِ
كأنّكِ بادرتِ الرحيلَ تخوُّفًا ... علىَّ من الحسن الذى هو فاتنى
فديتُك مَن لى من سناك بلمحة ... وينزلُ بى من بعدها كلُّ كائنِ
أأنسى قَواما أثقفَ الحَسنُ رمحَه ... فما فيه من عيبٍ يُعَدُّ لطاعنِ
ووجهًا حَكى عن حسنه كلُّ مُقْمِرٍ ... ولحظًا رَوَى عن طَرْفِهِ كلُّ شادِنِ

وماتتْ له جاريةٌ فرثاها وخَلط الحزنَ بالغزل أيضًا فقال:

أقيما فروضَ الحزن فالوقت وقتُها ... لشمس ضحًا عند الزوال فقدتُها
ولا تبخلا عنى بإنفاقِ أدمع ... ملوَّنَةٍ أكْوَى بها إن كنزتها
لغائبةٍ عنى وفى القلب شخصهُا ... كأنىَ من عينى لقلبى نقلتُها

ومات له ولد فرثاه بقصيدة طويلة تفتت القلوبَ وتُدْمِى الأكبادَ، عارض فيها التِّهامىَّ أولهُا:

اللهُ جارُكَ إنّ دمعى جارى ... يا مُوحِشَ الأوطانِ والأوطار

ولقد بلغ من شدة محبته لبنيه أن مات له ولد عَقِيب ولادته فلم يبخل عليه برثاء يقول فيه:

ومـا قلبى إذًا حجرٌ فيسلو ... هلالا قبلَ ما اكتملَ الطلوعا

وكان ابنُ نباتة مروَّعَ القلب دائما بموت أولاده. قال الصفدىّ: «إنه لم يعش له ولد، فدفن فيما أظن ستة عشر ولدًا، كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسا أو ستًا أو سبعًا يتوفاه الله».

عودته إلى مصر: ترك ابن نباتة الشامَ وأقام بمصر بعد أن شاخ وهرِم وتجاوز السبعين، وذلك حينما دعاه السلطان حسن إلى العمل بديوان الإنشاء بمصر حوالى سنة ٧٥٧ هـ، ومن سوء حظٍّ ابن نباتة أنْ مات السلطان حسن بعد سنة فأصبح مرتبه يُعْطَى بغير نظام.

واستمر بمصر حتى مات سنة ٧٦٨ هـ.

* * *

شـــــعـــره

مواهبه الشعرية فطرية وكسبية: يرى كثير أن ابن نباتة أشعرُ شعراء عصره، وحاملُ لواء الفن الجديد بمصر والشام. والحق أنه بلغ الغايةَ فى إجادة التورية حتى أصبح العَلَم المفرد فيها، وساعده على إتقان فنه الشعرى استعدادٌ فطرى سليم، وذوقٌ مصرى دقيق، وقدرة على صياغة النكتة والترشيح لها، وانصبابٌ على قراءة أدب القاضى الفاضل حتى امتزج بنفسه، وتمثّل فى معناه ولفظه، وقد عرفنا كيف نشأ فى أكناف الأدب من طليعة صباه، وكيف أفاد من شعراء عصره حتى إذا حذق أدبَهم ووعاه بذّهم جميعًا فيه، وجرى مغيرًا إلى الغاية. ثم إنه لم يكتف بالفطرة الشعريّة كما هو الشأن فى كثير من شعراء عصره من أصحاب الصناعات كأبى الحسين الجزار، ونصير الدين الحمّامىّ، وابن دانيال الكحّال وغيرهم. فإن القارئَ لشعره يرى فيه شاعرًا مثقّفًا اطلع على دواوين الشعراء، وأحاط كثيرًا بكتب الأدب وأخبار العرب، وألمّ بجملة صالحة من العلوم. وربما كان لكثرة انتقال ابن نباتة فى بلاد الشام أثرٌ فى اتساع مَدَى فكره الشعرىّ وربما كان لبؤسه وفقره شأنٌ فى تزويد فنه معانىَ وأخيلة ميّزته عن سواه، وربما كان للوراثة يدٌ فى نبوغه وعبقريته، فقد عرفتَ أن نسبه ينتهى إلى عبد الرحيم بن نباتة، وهو من أعظم أدباء عصره.

تبريزه فى الصناعة اللفظية: وقد أجمع أهل الأدب فى عصر المماليك على تقديم ابن نباتة وعدِّه أميرَ الأدباء فى الصناعة اللفظية والطريقة الفاضلية. قال ابن حجَّة الحَمَوى المتوفى سنة ٧٣٧ هـ فى خزانة الأدب عند الكلام فى التورية:

«فإنه (ابن نباتة) وإن تأخر فى السبق عن فحول المتقدمين عصرًا، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانًا وسحرًا، وتفقّه فى الطريقة الفاضلية لمذاهبَ سلكها المتقدمون وهانحن نستجدى من حواصلها نظمًا ونثرًا، وكم سأله عالمٌ فى سلوك هذه الطريقة فقال: لن تستطيع معىَ صبرًا، وكيف تصبر على مالم تُحطْ به خُبْرا، وإن قيل إن الفاضل تمذهب بهذا المذهب، فمذهبى - وأنا أستغفر الله - أنه (ابن نباتة) وصل فيه إلى درجة الاجتهاد وهذا القولُ يقول به من رفع الخلافَ وتأدّب، فإن هذه الطريقة ما أمّها ناظم ولا ناثر فى الأيام الأموية، ولا ابتسمتْ ثغورها فى الخلافة العباسية، ولما انتهتْ الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة، واعتادها بلغاء المتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه فأكْرِم بها عادةً وشهادة: ولما اتّصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهّلَ غُرْبتها، وشرّف بأصل شجرته النباتية نسبتها، وأسكن فى أبياته من بديع النظم كلَّ قرينة صالحة، وأمست سواجعُ إنشائها على فروعه النباتية صادحة».

ومن لطائفه فى التورية قوله، وفيه تضمين:

وضعتُ سلاحَ الصبرِ عنه فما لـه ... يقاتلُ بالألحاظ من لا يقاتِلُه !

وسال عِذارٌ فوق خديه جائرٌ ... على مهجتى فليتق الله سائلُه

والأمثلة من مبتدعاته فى هذا الباب كثيرة جدًا.

الاستخدام: ومما برع فيه ابن نباتة الاستخدام كقوله:

إذا لم تُفض عينى العقيقَ فلا رأتْ ... منازله بالقرب تَبْهَى وتَبْهَرُ
وإن لم تواصل عادة السَّفح مهجتى ... فلا عادها عيشٌ بمغناه أخضر

فقد استعمل العقيق استعمالا مجازيا قَصَدَ به الدمعَ، ثم أعاد عليه الضمير بمعنى المكان المعروف، واستعمل السفحَ بمعنى الصَّبِّ والإسالة وأعاد عليه الضمير بمعنى المكان.

ولوعه بالتضمين: وكان ابن نباتة مولعًا بالتضمين، لا تكاد تخلو قصيدة له منه، وربما أخذ البيت أو البيتين فضمّنها قصيدتَهُ، وأبدعُ ما يظهر من براعته أنه يحول المعنى الأصليّ إلى معنى آخر، وينقله من القصد الذى قيل فيه إلى غيره فى دقة وسبك، وربما نقل متنًا فى علم النحو إلى الغزل أو المديح. وقد استشهدنا لشىء من ذلك فى مقالة الشعر.

وهذا النوع يدل على سَعَة اطلاع فى الأدب، واتساعٍ فى مَدَى الإلمام بالشعر، وحسنِ الحيلة والتأنى، ولذلك برع فيه ابن نباتة وأكثر منه، فمن تضميناته:

أتانى علىٌّ البَاتِيَاسِىُّ منشدًا ... فيالَكَ من شعرٍ ثقيلٍ مطوَّلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا ... كجلمودِ صخرٍ حطه السيلُ من عَلِ

ومنها:

يا تالِىَ القولِ كُتْبًا فى لواحظه ... «السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب»

ومنها:

وطابتْ بك الأرضُ التى أنت حِلّها ... (وكلُّ مكان يُنْبِتُ العِزَّ طيبُ)

ويظهر أنه كان شديد الشغف بقراءة ديوان المتنبى حتى إنه ليقتبس منه فى كثير من شعره.

حسن التعليل: ومما حلا فيه ذوقُ ابن نباتة حسنُ التعليل؛ وأغلبه فى بيان علل خيالية لتسمية الأشياء كقوله فى المدح:

وما سُمِّىَ الغيثُ الهَتُونُ سحابةً ... سوى أنه من خَجْلَةٍ يَتَسَحَّبُ

وقوله:

وإذا الفتى قطع السنينَ عديدةً ... شابَ الحياةَ فَظَلَّ يُدْعَى شائبًا

وقوله:

شكرًا لأقلامك اللاتى جرتْ لمدًى ... فى الفضلِ أبقَى لباغى شأوِه التعبا
حَلَتْ وأطربتِ المُصْغِى وحُزْتَ بها ... فضلَ السِّباق فسمّاها الورَى قصَبا

وفى البيت الأخير مهارة حقًا، فهو يعلل تسمية الأقلام بالقصب لثلاثة أسباب، لأنها حُلوة وقصب السكر حلو، ولأنها مطربة والقصبُ المُثَقّب مطرب، ولأنه يسبق بها أقرانه فهى قصب السبق.

ومن لطائفه فى هذا الباب:

تجاسر عــودُ اللهـو يشبــه صــوتها | فمن أجل هذا أصبح العود يُضْـرَبُ

مراعاة النظير: ومما شُغِف به ابن نباتة مراعاة النظير. ومن إحسانه فيه قوله:

وكنتُ أخا سُعْدَى فأصبحتُ عَمهًا | فهيهـات لى جَـــدٌّ بتقبيل خالهــا

وأكثر من استعمال هذا النوع فى مصطلحات العلوم كالنحو والعروض والحديث ونحو ذلك كقوله:

بلـواحِظٍ يـرفعـن جَفنًـا كـاسرًا | فَيُثِـرْن فى الأحشـاء همًا نـاصبًـا

وقوله:

وافـرُ المكـرمـاتِ مُنْسَرِحُ اللفـ | ـظِ طـويلُ الثنا مـديـدُ الثـواب

وقوله:

ويَرْوِى أحاديث الثناء صحيحةً | عطـاءٌ لنـا من راحَتَيْكَ وجـابـر

ومن لطائفه فى هذا النوع قوله:

يــامُنعشِى حيث شخصى فى دِمَشْقَ وفى | تفلِيسٍ مــالى ودمع العين فى حَلَب

تأكيد المدح بما يشبه الذم: وأكثرَ جدًّا من تأكيد المدح بما يشبه الذم حتى لتكاد تجد ذلك فى كل قصيدة كقوله:

ليس فيـه عيب ســوى أنَّ إحســا | نَ يــديــه يستعبـــد الأحــرارا

لعبه بالحروف ـ ومما فُتِن به التعبير عن المعنى بحذف حرف من كلمة أو بتغييره كقوله:

آهٍ لشَرْخِ شبـابٍ كــان لى ومضَى | واعتضتُ شرخـا ولكن مـالـه خـاء

وقوله:

وزيرَ التقى هل أنتَ فى العشْرِ عاطفٌ | على فـاقتى بين الـورى وخضـوعى

ومـا العَشْرُ إلا العُسْرُ فى كل حـالـةٍ | ولكننـــى نقَّطتُــهُ بـــدمـــوعى

يريد بالعَشْرِ عاشرَ المحرم وهو يوم يوسع الناس فيه على عيالهم.

تصرفه فى اسمه: وقد افْتَنَّ كثيرًا فى التصرف فى اسمه، وأنه مأخوذ من النبات أو من السكر النباتى وذلك كقوله يخاطب ممدوحه:

وحَسْبِيَ أن أدْعَى نبـاتِيَّ غَـرْسِـه فلا طِـرسَ إلا وهو بـالحمد مُعْشِبُ

وقوله وقد أهدَى إلى صديق سكرًا:

جـــدتَ وأفحمتنى بما قـــد سمعــتُ مـــن لفظــك المواتِــى
فـــاقبلـــه ذا سكـــرٌ بيـــاضٌ إن عجَـــز السُّكـــرُ النبـــاتِى

ميله إلى الاكتفاء: ونراه فى شعره يميل أحيـانًا إلى الاكتفاء، مرةً بحذف جملة ومرة بحذف حرف كقوله:

فأقطِفُ مـن أوراقِــهِ الأدبَ الـذى وأسمع من ألفــاظــه اللغـــةَ التى

وقوله:

غَـدَتْ كلَّ عــام لى إليــه وِفــادةٌ فياحبذا من أجـل لقُياهُ كلُّ عَا (م)

تخلصاته: ولابن نباتة تخلصات حسنة أكثرها مؤسس على التشبيه كقوله:

لا يقــربُ الصبرُ قلبى أو يفــارقَــه كأنـــه المالُ فى كفِّ ابـن أيـــوبِ

وقوله:

جادتْ جفـونى بمحمرِّ الدموعِ له جـودَ المؤيـد للعـافين بـالـذهب

أســـلوبــه ومعـــانيــه

اهتمامه بالألفاظ: اتجه ابن نباتة كما أسلفنـا إلى الصناعة والزخـرف، وهى النزعة التى تحكّمتْ فى شعراء عصره، فانصرف بجملته إلى الألفـاظ يقلِّبها على وجوهها علّه يظفَر منهـا بجناس أو بتورية أو بمقابلة أو بلغـز أو بأية طريفة من الطرائف يسبـق بها معاصريه، أو يبزُّ بها سابقيـه. وقد أسلفنا من الأمثلة والشـواهد على ذلك ما فيه غَنـاء، والمطلع على ديوانه يدهَش لتحكم هـذا الشغف فى نفسه، حتى لقد أخذ من الألفاظ والحروف مادة للتشبيه كقوله:

لامُ العـذار أطـالتْ فيك تسهيـدى كأنهـــا لغـــرامـى لامُ توكيـــد

وقوله فى خِلْعةٍ:

ورحتُ أخْطـرِ فى ألفــافهـا ألفًــا وكنت مـن دَخَلٍ فى هيئـة الـدال

وأشبه أن يكون من هذا الباب قوله:

يُعْنَى بـــذا دون هــذا مَعْ تماثُلِــهِ وقس على مـــا تـراه السين والشينــا

قلة ابتكار المعانى وتكرارها: لهذا لم يتجه ابن نبـاتة لابتكار المعـانى، أو ابتداع الأخيلة الـرائعة، واكتفى بمعانى من قبلـه وأخيلتهم، فكان الابتكار أو ما يشبهـه قليلا فى ديوانه، وكثيرًا مـا تراه يكرر

معانيه، وهذا إفلاس أدبىّ دفع إليه تعجُّله فى صوغ القصائد، وكثرةُ ما كلّف نفسه من القول للاستجداء وطلب العطاء كقوله:

عـذلـوه على النّـوال فأغـرَوْا ... فنـداه نصبٌ على الإغـراء

فإنه كرّر هذا المعنى مرات عدّة.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا يتسع المقام لاستقصائها.

التعبيرات السوقية: وقد يقع أحيانا فى المعانى البلدية، والتعبيرات السُّوقية كقوله:

وكابدتُ فى المثنَى من العُرْبِ مُشْتكًى ... كمـا قيـل لم تُلْبـَس عليه ثيـاب

وقوله:

وكم ذى كتـابٍ فى الـوَرَى وكتيبـة ... غدا داخـلا من موتـه تحتَ مكتوبِ

وقوله لمن طلّق زوجَه واسمُها دنيا:

ظلمـتَ دنيـاك وطلّقتهـا ... فـرحـتَ لا دنيـا ولا آخـره.

معانيه الجيدة: على أنك مع هذا تجد فى تضاعيف ديوانه كثيرًا من المعانى والأخيلة السَّرِيّة كقوله فى وصف طيف الخيال:

زَوْرٌ عفيفٌ على عين الشّجِىِّ مَشَى ... فيالَهُ صـالحـًا يمشـى علـى الماء
ثم انتبهتُ وذاتُ الخالِ سَـاكنـةٌ ... لم تـدر سُهْدِى ولم تشعرْ بإغفـائى

وقوله:

حلفتُ إنك أذكَـى مَنْ حَـوَى قلمًا ... يُنْشِى البـديعَ وأنْحَى من نَحَـا أدبـا
أَلِيّةً لـو أتـاهـا الفجرُ مـا نَسبت ... لـه البريّـةُ فى ذيل الـدُّجَى كـذبـا

ومن الجيّد قوله:

فَهَبّتْ فى الظـلام إلى مُـدام ... كأنَّ شُعـاعهـا قَبَسٌ يلـوحُ
وحَيّتْنَـا بصـافيـةٍ شَمُـولٍ ... كما يترقـرق الـدَّمعُ السَّفـوحُ
كأنّـا قـد سلبنـا الـديكَ عينًـا ... فقـام من الكَـرَى فـزِعًـا يصيحُ

وكقوله:

وَحَمَى العـواصـمَ رأيُـه ولطـالما ... قَعَـدَ الحُسـامُ وقـامتْ الآراءُ

تشبيهاته: ومن جيد تشبيهاته قوله:

أجـاورُ مَن أَهْـوَى ولا وصل بيننـا ... كأنّـى ومَن أهـواه ثَـغْرٌ مُفَلّجُ

ومما يُسْتَحسَنُ منه ما نظر فيه إلى أكذوبة أبى حَيَّةَ النمَيْرِىّ، الذى ادَّعى أنه رَمى ظبيًا بِسَهْم فما زال الظبىُ يَحِيدُ والسهمُ يتبعه حتى أصابه، وذلك فى قوله:

وبـديعُ الجمـال لم يـرَ طَـرفى ... مثلَ أعطافه ولا طَرْفُ غـيرى
كلّمـا حـدْت عن هـواه أتـانى ... سهمُ ألحاظـه كسهم النُّمَيْرِى

ولابن نباتة جملة صالحة من المعانى الجيدة لا يتسع المجال لاستقصائها.

عيوب شعره: ولعناية ابن نباتة بالنكتة والتورية والبديع عامة لم يبلغ أسلوبُه فى جمهرة شعره منزلة الجودة، لأن أنواع البديع تحتاج عادة إلى ترشيح وتمهيد، وهذا التمهيد كان يُفْرِغه الشاعر فى أىّ قالَب من الألفاظ قَبُحَ أو حَسُن، لأنه يريد الوصول إلى البديع بأىّ ثمن. انظر إلى قوله:

قسمًا بسُـورَةِ عـارِضَيْك فإنهـا ... كالنمـلِ عنـد بصـائر الشعـراء

فإنه لأجل التلميح باسْمَى السورتين جاء بتعبير ضعيف جدًا هو (سورة عارضيك). وهل للعارضين سورة؟ وما هى؟ ثم زَلَّ زلةً أخرى فقال: عند بصائر الشعراء، وهو يريد أبصار الشعراء إذ لا معنى للبصائر هنا.

هـذا مثال واحد أردنا أن نبين به ما يجرُّه الـوَلـوع بالبـديع من الجناية على الأسلوب والإسعاف المُخْزى، مع أن ابن نباتة كان أكثرَ من غيره توفيقًا فى صناعة البديع، ولكنه لم يسلم فى كثير من محاولاته من الزَّلل.

الإكثار من الانتفاع بالضرورات الشعرية: كقصر الممدود وتسهيل المهموز وصرف ما لا ينصرف فمن أمثلة قصر الممدود قوله:

ونـدًى يُخْجِلُ السحـائبَ يمشِى ... من ورا جـوده على استحيـاء

الحشو - ومن عيوبه الحشو وهو كثير فى شعره ويكون بالقسم كقوله:

أوحشـه الغيـثُ الـذى قـد نأى ... وجـاءه واللهِ فى وقتـه

أو بزيادة كلمة أو تركيب كقوله:

نبيسٌ على التحقيق قـالت صِفـاته ... لنُقّـاده ذا مـا يخـالـط ذا مـا

ففى الشطر الأول حشوٌ (على التحقيق)، والجناس فى الشطر الثانى سقيم.

الهفوات اللغوية - ومن عيوب شعره التهاون فى تعدية الأفعال كقوله:

طـرقتْ على تلك النفـوس طـوارقٌ ... وطـرتْ على تلك الجسـوم طـوارى

فإن «طرق» يتعـدَّى بنفسه، وطـرتْ أصلها طـرأت سُهِّلت الهمزة وعـومل الفعل معاملـة المعتل بالألف، وهذا ضعف أيضًا.

وكقوله :

لـقـد أحيـا نَـدَى كفيـكَ حـالى ... كـذاك الغيـثُ يُحْيى للنبـــات

فَعَدَّى الفعــل « يحيى » بـالـلام .

وقوله :

إليـك مـديرَ الكـأس عنـى إننـى ... رأيـتُ دمـوع الخوف تنقَعُ للصَّدَى

والفعل نَقَع متعدٍّ بنفسه .

ومن أخطائه اللغوية قوله :

النــاصرُ اسـمـًا وألقـابًا وأفْعِـلَةً ... فـانظـر لنصرٍ على عطْفيـه مشتملِ

يريد وأفعالاً والشطر الثانى ركيك .

وقوله :

وشـائدُ المـُلكِ مشـغولٌ بأربعـةٍ ... من العَطَا والسُّطا والعلـم والعمـل

وقد أكثر هو والحِلِّيُّ من استعمال كلمة « السُّطا » هذه ولا نعرف لها وجهًا .

وقوله :

يـامَن لـه تُغْـرِبُ الآفـاق عن سيرٍ ... عظمى وتنطق أرضٌ وهى خَـرْسـاءُ

فإن اسم التفضيل لا يطابق موصوفه فى التأنيث إلا إذا عُرِّف بأل أو أضيف إلى معرفة .

وقوله :

قـــاضى القُضـــاة الملَبَّى ... تـــاجُ السَّـــرَاةِ الألِبــــَّهْ

وهو يقصد الألباءَ جمع لبيب .

وقوله :

لَهفى لجوهــرةٍ خَفَتْ فكأنمـــا ... حَجَّبْتُهـــا من أدْمُعى ببحـــار

واللغةُ العاليةُ أن يقول خَفِيَتْ . وقد أكثر من استعمال كلمة العائلة بمعنى الأسرة فمن ذلك قوله :

ومـا أُبـالى إذا استكثـرتُ عـائلـةً ... فقـد كَفَى هَمَّ إصبـاحى وإمسـائى

ونرى أن هذه الكلمة استعملت فى هذا المعنى قبل ذلك بنحو قرنين .

فنـــون شـــعره

أكثرُ شعره فى المديح والرثاء، لأنه شاعر مُسْتَجْدٍ، يعيش من سنِّ قلمه. وأكثرُ مدائحه فى النبى صلى الله عليه وسلم، ثم فى الملك المؤيد صاحب حَماة وأبنائه، وآل فضل الله والشهاب محمود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء، ومدح الملك الناصر والسلطان حسنا، ثم طائفة كبيرة من القضاة والولاة والمحتسبين، وليس له فى الهجاء إلا أبياتٌ قليلة هى إلى الدُّعابة أقربُ منها إلى الهجاء، ولكنّ لسانه لم يَعِفّ عن هُجْر الكلام حتى فى القصائد التى يمدح بها الكبراء، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على تدهور الآداب العامة فى ذلك العصر.

غزلـــه: وابن نباتة كثير الغزل وغزله معظمه صناعى بَحْت يجعله طليعة لقصائده، ويستعمل فى أكثره ضمير المذكر كما هى عادة شعراء عصره ومن قبلهم.

وأحسنُ ما قاله فى الغزل قوله من قصيدة فى مدح الرسول:

صَحَـا القلبُ لـولا نَسْمَـةٌ تتَخَطّرُ ... ولَمْعَـةُ بـرقٍ بـالغَضَـا تَتَسَعَّـر
وذكـرُ جبينِ البـابِليّـة إذ بـدَا ... هلالُ الدُّجى والشىء بالشىء يذكر
سقَا اللهُ أكنـاف الغَضَا سائل الحَيَا ... وإن كنتُ أسْقَى أدْمُعًـا تتحـدَّرُ

خمرياتـه: وله كلامٌ كثير فى الخمـريات وقد كان فى هذا البـاب مقلِّدًا قليل الابتكار، ومما أحسن فيه من ذلك قوله:

عَـوِّضْ بكأسك مـا أتلفـت من نَشَبٍ ... فـالكـأس من فضـةٍ والـراح من ذهبِ
واخطُبْ إلى الشَّـرْبِ أمَّ الدهر إن نُسِبَتْ ... أختَ المسرة واللهـــوِ ابنـــةَ العنب
غَـرَّاءُ حـالِيَـــةُ الأعطـاف تَخْطِـرُ فى ... ثـوبٍ من النـور أو عِقْــدٍ من الحبَبِ

بقية فنون شعره: وله شعر كثير فى الحنين إلى الصِّبا ووصف ويلات الهَرَم والشيب، كما كان يكثر من وصف القلم عندما يمدح الكتّاب والأدباء، وفى ديوانه كثير من التهانى، وأشهرها تهنئة الأفضل بالملك التى جمع فيها بين التهنئة والتعزية، وقد سارت بها الركبان، وترددت أصداؤها فى كل مكان. وأولها:

هنـاءٌ محـا ذاك العَزَاء المُقَــدَّمـا ... فمـا عَبَسَ المحزونُ حتـى تَبَسَّمـا

وله قصيدة فى الطَّرَد سماها «مصايـد الشوارد» وهى من بحر الرَّجَز، فى مائة وسبعة وستين بيتًا، حاكى فيها شعراء العصر العبـاسى ممن طرقوا هذا الفن، كأبى نواس وابن المعتز. وقد وُفِّق ابن نباتة فى هذه القصيدة وأظهر فيها براعة فى التشبيه محمودة، ومما يُختار من هذه القصيدة قوله:

حتى نزلنـــا بمـــكان مُـونقٍ ... إخـوانَ صـدقٍ أحْـدَقـوا بـالمملقِ
فيـالــه فى الحســن مـن محـلِّ ... مـــرَادُ جِـدٍّ ومَـرَاد هَـــزْلِ

للطير في مياهه مواقعُ ... كأنها من فوقه فواقعُ
حتى طوى الأفق رداءَ الورس ... والتقم المغربُ قُرْصَ الشمس

وله بجانب ذلك ألغاز، ومقطّعات كثيرة، منها الثُّنائياتُ والثلاثيات والرباعيات والخماسيات، وأغلب هذه المقطعات كان يقولها لإبراز نوعٍ بديعي أو يرسل بها إلى ممدوحيه في طلب حاجة.

ولابن نباتة قليل من المُوَشّحات ومطلعُ أحدها:

لهفي على غـادةٍ إذا سَفَرت ... غـارتْ وجوهُ الشموسِ واستترتْ
لها من السُّمْر قـامـةٌ خَطَرتْ ... كم قتلتْ عـاشقًا وكم أسَرَتْ
إذا دعتْ للنهوضِ مِيْلَها عِطفًا ... كأن سحرَ الجفون حَمَّلها ضعفًا

الموازنة بينه وبين شعراء عصره

سبق أن قلنا إن ابن نباتة يعد بحق زعيم شعراء مصر فى عصره، وإن معاصريه سلكوا مسلكه، واتبعوا مذهبه، واتخذوه قائدًا وإمامًا، فكانوا يتخطفون ما يقوله ابن نباتة فيقولون على مثاله.

وأقرب من يشبه ابنَ نباتة من شعراء مصر برهـانُ الدين القيراطى، ويتشبه به من شعراء الشام صلاح الدين الصفدى، وكان كثير الاغارة على شعره كما سبقت الإشارة إليه.

أما صَفيّ الدين الحلى فكانت له نزعة فى الشعر تخالف نزعة ابن نباتة، وكان أقلَّ منه احتفالا بالبديع، وكانت ديباجته أقربَ إلى الديباجة العربية السليمة، وكانت بينه وبين ابن نباتة صلة وُدٍّ وثيقة تبادلا فيها القريضَ؛ وتقارضا المديحَ والثناء. وجملة القول أن شعر الحليّ أميل إلى الجزالة، وشعرَ ابن نباتة أميلُ إلى الرقة والإبداع.

سرقاته: وقد أخبرنا ابن حجة الحمويُّ أن ابن نباتة كان يُغيرُ على بدائع عَلاَء الدين الوَداعِيّ المتوفى سنة ٧١٦ هـ، وقد أورد فى خزانة الأدب جملةً من ذلك وذلك كقول الوَدَاعى:

والنهرُ كالمِبرد يجلو الصَّدَا ... بِبَرْده عن قلب ظمآنه

الذى أخذه ابن نباتة فقال:

والنهرُ فيه كمِبْرَدٍ ... فلأجل ذا يجلو الصدا

ويقول الوَدَاعى:

ما كنتُ أولَ مغرمٍ محرومٍ ... من باخلٍ بادى النِّفار كريم

فيقول ابن نباتة:

مُبَخّلٌ يشبه رِيم الفَلاَ ... ياطولَ شَجْوِى من بخيل كريم

وممن استعار ابن نباتة بدائعَهم أبو الحسين الجزار، ومحيى الدين بن عبد الظاهر، وعبد العزيز الأنصارى الحموى، ومجير الدين بن تميم.

كتـــــابتـــــه

كان كاتبًا شاعرًا، كما يصف نفسه مخاطبًا ممدوحه:

يعظُمُ مَن كــان لكــم شــاعرًا ... فكيف وهـو الشاعـرُ الكـاتبُ؟

وقد جرى فى الكتابة على أسلوب عصره، ولكنه امتاز بالسهولة والتجانف عن التعقيد، وسلك سبيلَ البديع فى رفق وهوادة، فجاء نثره حسَنَ النسج لا يخلو من جمال فنىّ. وإنا نقتبس هنا طرَفًا من رسالته فى المفاخرة بين السيف والقلم. قال على لسان القلم يردُّ على السيف:

«أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعَطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضِّراب، وأنا للعِمارة وأنت للخراب، أعلَى مثلى يَشُقُّ القولُ، ويرفع الصوتَ والصَّوْل، وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيـة وهو فى الخصام غير مبين﴾ فقد تعديت حدك، وطلبتَ ما لم تبلُغ به جهدَك، هيهات أنا القائم بمصالح الدول وأنت فى الغمِد طريح، والمُتْعَب فى تمهيدها وأنتَ غافل مستريح، والساعى فى تدبير حال القوم، والمغْنى لنفعهم العمرَ إذا كان نفعُك يومًا أو بعضَ يوم، فاقطَع عنك أسبابَ المفاخرة، واستر أنيابك عند المكاشرة، فما يَحْسُنُ بالصامت محاورةُ المُفْصح، والله يعلم المفسد من المصلح.

أشـــــهر آثـــــاره

(١) ديوان شعر كبير مرتّب على حروف الهجاء، طبع بالقاهرة.

(٢) مَطْلع الفوائد ومجمع الفرائد، وهو كتاب حافل فى الأدب.

(٣) سَرْحُ العيون فى شرح رسالة ابن زيدون، وهو من أحسن مؤلفاته، يدل على سَعَة الاطلاع فى اللغة والأدب وتاريخ العرب.

الشاب الظريف

هو محمد بن سليمان، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ ومات فى عنفوان شبابه سنة ٦٨٨ هـ، فهو طَرَفَة هذا العصر، وشعره يدل على نبوغ موروث، فقد كان أبوه عفيف الدين التِلْمِسانى شاعرًا محسنًا، والشاب الظريف شاعر مجيد رقيق خفيف الروح ناصع الديباجة، فى شعره نفحات من العبقرية المصرية، وكان مولعًا بالبديع كبقية شعراء عصره، ولكن البديع لم يفسد عليه شعره، وأكثر شعره فى الغزل شأن أكثر شعراء هذا العصر، وصفه شهاب الدين بن فضل الله فقال:

«نسيم سَرَى، ونعيم جَرَى، وطيف لا بل أخف موقعًا منه فى الكرَى. لم يأت إلا بما خفَّ على القلوب، وبرئ من العيوب، رقّ شعره فكاد يشرب، ودقّ فلا غرو للقُضُب أن ترقص والحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان، وَوَلج القلوب، ولم يقرع باب الآذان، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره وجمعه أهل دمشق فإنه بين غمائم حياضهم رَبًا، وفى كمائم رياضهم حَبًا، حتى تدفّق نهره، وأينع زهره، وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر. ولا يرون له شعرًا إلا وهم يعظمونه كالمشاعر، لا ينظرون له بيتًا إلا كالبيت، ولا يقدّمون عليه سابقًا حتى ولو قلتُ ولا امرأ القيس ما باليت، ومرّت له ولهم بالحمى أوقاتٌ لم يبق من زمانها إلا تَذَكُّرُه، ولا من إحسانها إلا تَشَكُّرُه، وأكثر شعره لا بل كلُّه رشيق الألفاظ، سهل على الحُفّاظ، لا يخلو من الألفاظ العلمية، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، ووَلِعَ به كل ذاكر، وعاجله أجله فاختُـرِم، وحَرَمَ أحباءه لذة الحياة وحرِم».

ومن شعره وفيه بديعٌ منسجم:

مثلُ الغـزالِ نظـرةً ولَفْتَـة ... مَن ذا رآه مقبـلاً ولا افتتن؟
أعـذبُ خـلقَ الله ثغرًا وفمًا ... إن لم يكن أحـق بـالحسن فمن؟
فى ثغره وخـده وشـكلهِ ... الماء والخضرةُ والـوجـهُ الحسن

ومنه قولُه:

عفَا الله عن قوم عفا الصبرُ منهمُ ... فلو رُمْتُ ذِكرَى غيرهم خاننى الفمُ
تجنّـوا كأن لا ودّ بينى وبينهـم ... قديمًا وحتى ما كأنهـمُ هـمُ
وبالجزع أحبابٌ إذا ما ذكـرتُهم ... شَـرِقْتُ بدمـع فى أواخـره دمُ
ألمّ ومـا فـى الـرَّكْبِ منا مُتَيَّمٌ ... وعـاد ومـا فـى الركب إلا مُتَيم
وليس الهَوَى إلا التفاتـةَ طـامحٍ ... يـروقُ لعينيـه الجمـالُ المُنَعَّمُ
خليليّ مـا للقلب هاجتْ شجونهُ ... وعـاوَدَه داءٌ من الشـوق مؤلـمُ
أظنُّ ديـار الحـىّ منا قريبـةً ... وإلا فمنهـا نَفْحـةٌ تُتَنَسَّمُ

ابن الوردى

هو زين الدين عمر، ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ هـ، ومات بحلب سنة ٧٤٩ هـ، كان شاعرًا أديبًا نحويًا فقيهًا مؤرخًا، وكان عفيفًا لا يستجدى بشعره، وله ديوان شعر مطبوع، وشعره متوسط فى الجودة غاصٌّ بالبديع وبخاصة التورية، تظهر فيه النزعة الفقهية والعلمية أحيانًا، ومن شعره :

دهـرنـا أمسـى ضنينـا ... باللقـا حتـى ضنينـا
ياليـالى الوصـل عـودى ... واجمعينـا واجمعينـا

ومن شعره :

أنتـم أحبـائى وقـد ... فَعَلتمُ فعـل العِـدا
حتـى تـركتم خبرى ... فى العـالمـين مبتـدا

ومن قوله فى رثاء ابن تيمية وقد مات مسجونًا بقلعة دمشق :

عثَـا فى عِـرضـه قـومٌ سِـلاطُ ... لهم من نثـرِ جـوهـرِه التقـاطُ
تَقِـيُّ الـديـن أحمدُ خيرُ حِبْرٍ ... خيـوطُ المعضِـلات بـه تُخاطُ
تـوفى وهـو محبـوسٌ فـريـدٌ ... وليس لـه إلى الـدنيـا انبسـاط
قضَى نحْبًـا وليـس لـه قـرينٌ ... ولا كنظـيرِهِ لُـفَّ القِمـاطُ

وله القصيدة المشهورة فى الحِكم منها :

اعتـزِلْ ذِكْـرَ الأغـانِى والغَـزَلْ ... وقل الفصـلَ وجـانـبْ من هَـزَلْ
ودع الذِّكْـرَ لأيـام الصِّبـا ... فلأيـام الصِّبـا نجـمٌ أَفـَلْ
إن أهنـا عيشـةٍ قضيتهـا ... ذهبـتْ لذاتُـها والإثـمُ حَـل
واهجـر الخمـرةَ إن كنتَ فـتًى ... كيف يَسْعَـى فى جنـون من عَقَلْ
صـدِّقِ الشـرعَ ولا تركَـنْ إلـى ... رَجُـلٍ يرصُـدُ بالليـل زُحَـلْ
حـارتْ الأفـكارُ فـى قـدرة مَن ... قـد هـدانـا سبْلَنا عـز وجـل
كُتب المـوت علـى الخـلق فكم ... فـَلَّ مـن جمـعٍ وأفـنى مـن دول

صفى الدين الحلى

هو عبد العزيز بن سرايا بن على، ولد بالحِلة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ هـ، ونشأ به وتأدب وأجاد الشعر، وخدم ملوك الدولة الأرتقية، وقد رحل إلى مصر فى سنة ٧٢٦ هـ، ومدح السلطان الناصر بن قلاوون بقصيدة عارض فيها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا

فابتدأها بقوله :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا ... فتركن حباتِ القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعةً ... غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغبىُّ كواعبًا ... ولو استبان الرشد قال كواكبا

وقد طرق معظم فنونَ الشعر، وقال من الأوزان المولدة، وفى التشطير والتخميس، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات، وكان شعره سهل اللفظ جيد الأسلوب، وقد يعُدّه بعض الأدباء أشعر شعراء عصره، ومن شعره وهو فى غاية الرقة :

إن غبت عن عِيانى ... يا غاية الأمانى
فالفكر فى ضميرى ... والذكر فى لسانى
ما حال عنك عهدى ... ولا انثنى عِنانى
شوقى إليك باقٍ ... والصبر عنك فانى

ومن شعره :

قد نشر الزَّنبقُ أعلامه ... وقال كلُّ الزهر فى خدمتى
لو لم أكن فى الحسن سلطانه ... ما رُفِعَتْ من دونه رايتى
فقهقه الورد به ساخرًا ... وقال ما تحذر من سطوتى ؟
وقال للسَّوْسَنِ ماذا الذى ... يقوله الأشيبُ فى حضرتى ؟
فامتعض الزنبق من قوله ... وقال للأزهار يا رفقتى
يكون هذا الجيش بى محدقًا ... ويضحك الورد على شيبتى

هذا شعر فى منتهى الرقة، ولكنَّ صفى الدين قد يكون فى منتهى الجزالة والضخامة إذا قال فى الأغراض الشعرية التى تتطلب قوة وحماسة كقوله :

لمن الشوارب كالنعام الجُفَّلِ ... كسبت جلالاً من غبار القسطلِ
يبرزن فى حلل العجاج عوابسًا ... يحملن كل مدرع ومُسربل

شبـــــةَ العـــــرائسِ تُجْتَلَى فكأنها ... فى الخِدر من ذيل العجـــاج المسْبَل
فعلت قـــوائمهن عنـــد طـــرادهـــا ... فعل الصـــوالج فى كـــرات الجنـــدل
فتظل تـــرقم فى الصخـــور أهلـــةً ... بِسنَـــا حـــوافـــرهـــا وإن لم تُنْعَلِ

ومن جيد شعره ورصينه القصيدة النونية المشهورة التى قالها فى صِباه، وكأنه كان يعارض بها نونية ابن زيدون ومن هذه القصيدة :

سل الـرمـاح العـــوالى عن معـالينـا ... واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
وسـائل العـرب والأتـراك مـا فعلت ... فى أرض قبر عبيـــد الله أيـــدينـــا
لما سعينـــا فما رقت عـــزائمنـــا ... عمـــا نـــروم ولا خـــابت مســاعينـا
يـــايـومَ وقعـــةِ زوراءِ العـــراقِ وقـــد ... دِنّـا الأعـــادى كما كـــانـــوا يـدينـونـا
بضُمَّـــرٍ مـــاربطنـاهـــا مســـوَّمـــةً ... إلا لنغـــزو بها من بـــات يغـــزونـــا
وفتيـــةٍ إن نقل أَصغَـــوا مســـامعهم ... لقـولنـــا أو دعـونـــاهم أجـابـــونـا
قـومٌ إذا استُخصمـوا كانـوا فـراعنـةً ... يـومًـا وإن حكمـوا كانـوا مـوازينـا

ومن جيد معانيه قوله :

يامَن حكت شمس النهـار بحسنها ... وبِعـــادِ منـــزلها وبهجـــة نـــورهـــا
هـــلا عـــدلتِ كعـــدلها إذ صيرت ... للنـــاسِ غيبتهـــا بقـــدر حضـــورها

توفى ببغداد سنة ٧٥٠ ه.

بدر الدين الذهبى

كان من أرق شعراء الشام أسلوبًا وألطفهم طريقة، ويمتاز شعره بكثرة الوصف وجمال الديباجة وروعة البديع.

وقد جاء فى المنتخب أمثلة صالحة من شعره، وسقنا إليك فى مقالة الشعر شيئًا منه.

ومن قوله :

وريـــاض وقـفت أشجـــارُهـــا ... وتمشـــت نسمـــة الصـبح إليهـــا
طـالعت أوراقهـا شمـس الضحـا ... بعـــد أن وقّعـــت الـوُرْق عليهـــا

وقوله :

عـــرّج على الـــروض ياندیمـــى ... ومـــِلْ إلى ظـــــله الظليـــــل
فالزهــــر يلقـــــاك بابتســـام ... والريـــــح تلقـــــاك بالقبـــول

توفى سنة ٦٨٠ هـ .

صلاح الدين الصفدى

كاتب شاعر مؤرخ، ولد فى صَفَد سنة ٦٩٦ هـ، وتلقى العلم بدمشق عن ابن نباتة المصرى الشاعر، وتولى ديوان الإنشاء بصفد والقاهرة وحلب، وأشهر كتبه الوافى بالوفيات، وهو أكبر معجم للتراجم يقع فى نحو خمسين مجلدًا، ولا يوجد هذا الكتاب كاملا فى مكان واحد، فمنه أجزاء بمصر وحلب وتونس وغوطة وفيينا ولندن وأكسفورد وباريس. ومن شعره :

بسهم أجفانه رمانى   فذبت من هجره وبينه
إن مت مالى سواه خَصمٌ   لأنه قاتلى بعينه

وله قصيدة طويلة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم يعارض بها لامية كعب بن زهير منها :

سلوا الدموع فإن الصب مشغولُ   ولا تَملوا ففى إملائها طولُ
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى   هل فى الغرام الذى تبديه تبديلُ
وهل لما ضمت الأحشاء بعدكمُ   من الجَوَى عندما تحويه تحويل
أحبتى لا وعيشٍ مرَّ لى بكمُ   وربعُ لهوى بااللذات مأهولُ
ما كان لى مذ عرفتُ الوجد قط ولا   يكون فى غيركم قصدٌ ولا سولُ

ومن قوله :

يا غائبين تعللنا لغيبتكم   بطيب لهوٍ ولا والله لم يطبِ
ذكرت والكأسُ فى كَفِّى لياليكم   فالكأس فى راحة والقلب فى تعب

وكتب إليه ابن نباتة وكان الصلاح مريضًا :

تُنَقِّلُ إذ نبغى بلفظك طبنا   من الهم والجسمُ الشريف نحيلُ
فها أنت فينا كالنسيم بلطفه   طبيب يداوى الناس وهو عليلُ
وحاشاك من شكوى اعتلالٍ سينقضى   قريبًا كما نختاره ويزولُ

فكتب إليه الصلاح الصفدى :

لِحُمَّاى نارٌ جاءها منك جَنةٌ   غصونُ رُباها بالبديع تميلُ
تهدَّلت الأدنان منها فخاطرى   له بين هاتيك الظلال مَقِيل
وأنتَ حبيبُ الشعر أصبحت سيدًا   كما أننى مولى والاسم خليل

مات بدمشق فى ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤ هـ.

ديوان الإنشاء

منذ نشأته إلى نهاية هذا العصر

الكتابة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين: كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نحو نيّف وثلاثين كاتبًا، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وزيد بن ثابت الأنصارى وغيرهم من جِلة الصحابة، وكان المداوم له صلى الله عليه وسلم على الكتابة زيدًا ومعاوية.

وكان عثمان بن عفان كاتبا لأبى بكر، وزيد بن ثابت كاتبًا لعمر، ومروان بن الحكم كاتبًا لعثمان، وكتب عبد الله بن أبى رافع لعلى بن أبى طالب.

الديوان فى عهد بنى أمية: ثم كانت دولة بنى أمية فكان أمر الكتابة فى زمن كل خليفة مفوَّضًا إلى كاتب يقيمه، وكان الخليفة يوقِّعُ فى القصص بنفسه، والكاتب يكتب بما يُشير به هذا التوقيع، وكان كاتب معاوية عُبَيْدَ الله بنَ أوس الغَسّانى، ثم اتخذ كل خليفة من خلفاء بنى أمية بعده كاتبًا أو أكثر إلى آخر عهد خلفائهم، وهو مَرْوان بن محمد فكان كاتبه عبدَ الحميد بن يحيى مولى بنى عامر، وهو أول من وضع أصول فن الكتابة، وهو الذى قيل فيه بدأت الكتابة بعبد الحميد، وخُتِمت بابن العميد.

ديوان الإنشاء فى العهد العباسى: أما الكتابة فى عهد بنى العباس فكانت فى ضمن الوزارة، والوزير هو المتصرف فى الديوان، وتحت يده جماعة من الكتاب، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء، وصاحب ديوان الرسائل، ومن أشهر الكتاب فى الدولة العباسية عبد الله بن المقفّع، وكان كاتبًا لأعمام المنصور ومترجمًا له، والربيعُ بنُ يُونس وكتب للمهدى، وأحمد بن يوسف وعمرو بن مَسْعَدَة وكانا كاتبين للمأمون. وكتب للمتوكل أحمد بن المدبِّر وإبراهيم بن الصُّولى. وكتب للقادر إبراهيم بن هلال الصابئ. وكتب للناصر يحيى بن سعيد الواسطى المشهور بابن زيادة صاحبُ

ديوان الإنشاء ببغداد، وإليه انتهت رياسة الترسُّل. وكتب للمستعصم عزُّ الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبى الحديد مات سنة ٦٥٥ هـ، وقُتِلَ الخليفة عَقِبَ موته، فهو آخر كتاب الإنشاء لخلفاء بغداد. قال السُّيوطى : ومن الاتفاق الغريب أن آخر خلفاء بنى أمية كتب له عبد الحميد الكاتب ؛ وآخرَ خلفاء بنى العباس ببغداد كتب له من اسمه عبد الحميد.

الديوان فى العصر الفاطمى: أما مصر فلم يكن بها ديوان للإنشاء من حين فتحت إلى أيام أحمد بن طولون، وحينما قَوِى أمرها فى تلك الأيام أنشئ بها ديوان للإنشاء، واستمر إلى أن ملكتها الدولة الفاطمية، فعظم شأن ديوان الإنشاء بها. وأشهر كتّاب الإنشاء بهذه الدولة أبو المنصور بن سُوردِين النصرانى، وكان كاتبًا للعزيز بن المعز والحاكم. وأبو القاسم المعروف بابن الصَّيْرَفِىّ، وقد كتب للآمر والحافظ، ويوسف بن الخَلاّل، وهو أستاذ القاضى الفاضل، وكتب للحافظ والعاضد، وكان يلقب صاحبُ الديوان فى الدولة الفاطمية بكاتب الدَّسْت الشريف.

ومن أشهر كتّاب الإنشاء بالدولة الأيوبية القاضى الفاضل، ثم أضيفت إليه الوزارة، وكتب لصلاح الدين وابنه العزيز. ثم بهاء الدين زهير الشاعرُ المشهور وكان كاتبًا فى عهد الملك الصالح.

الديوان فى عصر المماليك: وأنبهُ أصحاب الدواوين ذكرًا فى عهد المماليك محيى الدين بن عبد الظاهر. وأول من سُمِّىَ كاتبَ السر بالديار المصرية ابنُه فتح الدين بن عبد الظاهر، ولِىَ ديوان الإنشاء فى عهد المنصور قلاوون. ومن كتّاب السر المشهورين فى هذا العهد تاجُ الدين بن الأثير وكتب للأشرف خليل. ومحيى الدين بن فضل الله العُمَرى، وشهابُ الدين بن فضل الله، وشرف الدين بن فضل الله، والشهاب محمود الحلبى، وكتبوا للناصر. وشمس الدين محمد بن مزهر وكتب للمؤيد.

صفات صاحب الديوان وأعماله: وكان كاتبُ السر فى عهد المماليك فى أرفع محل وأشرف قدر. إليه تلقى أسرار المملكة، وبرأيه يستضاء فى حل مشكلاتها، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه فى القصص أحيانًا مقام توقيع السلطان.

وقد أطال صاحب صبح الأعشى فيما يجب أن يتحلى به صاحب الديوان من العلم والأخلاق وصفات الساسة، ثم شرح أعماله فى إسهاب : وهى أن يتصفّح هو أو نائبه جميعَ ما يكتبه كتاب ديوانه من الولايات والمنشورات والمكاتبات، وأن يتلقى المكاتباتِ الواردةَ ويقرأها على السلطان ويُجيب عنها، وهو الذى ينظر فى البريد، واختيارِ مَن يُرْسَل إلى الخارج فى الشئون السلطانية، وهو الذى يختار الجواسيس لإرسالهم حيث يريد إلى أى جهة من جهات العدو، وتشمل دائرة عمله المناور، فقد كان بين الفرات إلى قريب من بُلْبَيْس أمكنةٌ عالية يقيم بها مستخدَمون من قبل السلطان، فإذا حدث حادث ببلاد التتار أوقدوا النار بالقِمَم المجاورة للفرات فينظرها من بعدهم فيوقدون النار، وهكذا

حتى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بقرب بلبيس فى يوم أو بعض يوم، ومن هناك تُرْسَل رسالة على أجنحة الحَمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ فى التأهب.

ومن عمل صاحب الديوان فوق ذلك أنه ينظر فى الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته.

وبديوان كاتب السر كتّاب الدَّست، وهم الذين يجلسون معه فى دار العدل ويقرءون القصص على السلطان، ويوقعون عليها بأمر السلطان. وكتّاب الدَّرج وهم الذين يكتبون الولاياتِ والمكاتباتِ ونحوها، وربما شاركهم كتاب الدَّست فى ذلك.

خصائص الديوان وفضله: وربما حسُن بنا هنا أن ننبه إلى ما ابتدعه الكُتاب فى دولة المماليك من وضع ألقاب للسلطان والملوك والوزراء وأمراء الدولة وكبار رجالها، بحيث تختص كلُّ مرتبة بلقب لا تتجاوزه، كالمَقام والمَقَرّ والجناب والمجلس ونحوها، مع إتباع كلٍ منها بألفاظ خاصة للتبجيل والتفخيم. وقد ابتدعوا أيضًا إلحاق ياء النسب بالأوصاف، كالأميرىّ لأرباب السيوف، والصاحبىّ للوزراء، والقضائىّ لأرباب الأقلام، وقد أسرف الكتاب كثيرًا فى هذا العصر فى ألقاب التمجيد والتعظيم.

ولن يجحَد جاحد ما كان لديوان الإنشاء من الأثر البيِّن فى إنهاض العربية وإنعاش الآداب بمصر والشام. ولقد تنافس كبار الكتاب والشعراء فى الوصول إلى هذا الشرف الرفيع والتسلُّق إلى ذلك المنصِب السامى، الذى كان يُشْتَرَط لنيله أن يكون صاحبه عَلَمًا فى الأدب، بعيد الغاية فى جمال الإنشاء وروعة الكتابة، ملما بكثير من العلوم العقلية والنقلية، وقد أبرز ديوان الإنشاء فى عهد المماليك بمصر والشام نوابغَ من الكرام الكاتبين، والشعراء المجيدين، والعلماء النابهين وقد مرت بك أسماء طائفة منهم.

وقد كان للغة العربية أيامَ قيام ديوان الإنشاء دولةٌ قائمة دالت بعد دخول العثمانيين مصر وإبطالهم ديوان الإنشاء، فطُوِى بذلك للعربية والأدب العربى عهدٌ زاهر مجيد.

الكتـــــــــابة

تأثر طريقة الفاضل: تأثّر الكُتّابُ فى هذا العصر طريقة القاضى الفاضل التى جرتْ على غِرار طريقة ابن العميد، وأربتْ عليها بالإغراق فى التورية والطباق ومراعاة النظير وغير ذلك من أنواع البديع، لذلك كانت طويلة الأسجاع، لأن التعمّل لإبراز هذه الأنواع كان يَضْطَر الكاتب إلى التمهيد لها والاحتيال على إيرادها، وهذا يدعو إلى تطويل الكلام. وكانت مواهب القاضى الفاضل وسلامةُ فطرته وتمكنُّهُ من اللغة تُنقِذ كتابته من السقوط فى دَرْك السخف. وكثير مما كتبه بين أيدينا يشهد له

بحسن الذوق ودقّة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارئ كيفما كان رأيه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية .

أولع كتاب المماليك بهذه الطريقة ، فأخذوا يحاكونها ويَجْهَدُون جُهْدَهم فى بلوغ أَوْجها ، وربما جال فى نفوسهم كثير منهم أن يَـبُزُّوها بالإغراق فى البديع والإكثار من الزخرف اللفظى ، فجَنى عليهم اجتهادهم ، وكان عليهم أن يعرفوا أنَّ

أبلغ ما يُدرَكُ النجاح به الطبـ ـعُ وعند التعمق الزلـلُ

فجاءت كتابةُ كثير منهم مملوءة بالبديع ، محمَّلَة بأنواع الصناعة ، فاختفت المعانى تحت أَرْدية الديباج الموشَّى ، والاستبرق المرقَّش ، وناءت عقود الجواهر واللآلىء ببنات الأفكار فأخمدت أنفاسها ، وأصبحتَ تقرأ عباراتٍ هى أشبه بالألغاز منها بصريح الكلام ، وتعجب كيف أن عقلاً إنسانيًا يصور له الجَدُّ العاثر أن من أمارات النبوغ وإحكام الصناعة التدهورَ إلى هذا الحضيض . وطالبُ الأدب تتملكه الحيرة إن أراد أن يعلل لهذه النازلة التى أصابت الأدب فقضت على فن هو أكثر فنونه استعمالاً ، وهو أقلُّ فنونه قيودًا ، وأحوجُها إلى السهولة والانسجام . وربما كان من أسباب ذلك تمكن غريزة التقليد من هؤلاء الكتاب وتحكُّمها فى نفوسهم ، حتى لكأنهم لا يعرفون من النثر إلا ما كان مسجوعا متكلَّفًا ، وحتى لكأنهم لم يقرءوا تلك الكتابة الرائعة السهلة التى تأسِر بلاغتُها النفسَ فى جمال وإبداع ورصانة ، تلك كتابةُ الصدر الأول العباسى لأمثال ابن المُقَفَّع والجاحظ وعمرو بن مَسْعَدَة وسهل بن هارون والصُّولى وغيرهم .

قوة النقاد وتأثيرهم ـ وقد يكون من سوء الطالع أن نشأت طائفة من النُّقَّاد فى هذا العصر لا يروق لها إلا هذه الرطانة ، ولا يهُزُّ أعطافها إلاّ هذا الإسفاف . والنقاد فى كل عصر أصحابُ القوة والصَّوْلة فى دولة الأدب ، وهم المسيطرون على فنونه وأساليبه وطُرُقه ، وهم المتحكمون فى رجاله . والأدبُ يسمو ويسقُط بسموِّ هؤلاء فى إدراك معنى الجمال أو سقوطهم ، والأدباء محكومون حتما بهذه القوة الأدبية ، يتملقونها ويجارونها وينزلون على أحكامها . وقليلٌ من الأدباء من يكون له من قوّةِ نفسه والاعتدادِ بمواهبه ما يدفعه إلى الثورة على حكم هذه القوّةِ الغشوم . ولا نعرف من هؤلاء فى هذا العصر إلا ابنَ خلدون، الذى نَعَى على كُتّاب عصره شغفَهم بالبديع ، وأخذ عليهم إبعادَهم فى التكلف .

الألفاظ قبل المعانى : وقد يكون من أسباب هذا الطغيان الصناعى قلّةُ ما لديهم من الأفكار والمعانى ، لأن مدى اطّلاعهم كان محدودًا ، ولأن دراسة العلوم الكونية كانت مقصورة على طائفة قليلة ، فأرادوا أن يغطوا هذا القصور بستار من الزخرف الممقوت ، وبهذا أصبحت الألفاظ عِمَاد الكتابة ومظهر جمالها الفنّى ، أما المعانى فتأتى تاليةً فى المرتبة ، فإذا أراد الكاتب أن يكتب رسالة كان اتجاهُه إلى اختيار الألفاظ المزوّقة والأسجاع الرنّانة ، وكان على المعانى أن تخضعَ أولا لسيطرة الألفاظ ، ثم تكون بعد ذلك كما تكون . وفى هذا بلا شك مناهضةٌ لأصل الفِطرة ومعاندةٌ لطبائع الأشياء .

إنّ الكـلامَ لفى الفـؤاد وإنمـــا جُعل اللسـانُ عـلى الفـؤادِ دليـلا

شاهد من كتابة ابن عبد الظاهر ـ ولا نتركك من غير أن نسوق إليك شاهدًا تستطيع أن تدرك به ما قدمنا لك من سالف البيان.

من ذلك ما كتبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهو من أعـلام الكتاب فى هذا العصر فى رسالة قال :

«حَرَس اللهُ نعمةَ مولاى ولا زال كَلِمُ السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتَلِف، ومنادى جوده لا يُرَخَّم وأحمدُ عيشه لا ينصرف، ولا عدم مستوصِلُ الرزق من يراعته التى لا تقف الوصلَ، ولا عدِمت نُحاة الجود من نـواله كلَّ موزون ومعـدود، ومن فضله وظلّه كلَّ مقصـور وممدود، وما خاطبت الأيامُ ملتَمسه إلا بلام التوكيد، ولا عدوَّه إلا بلام الجحود».

دخول الصناعة فى لغة التأليف : على أن بعض الكتاب وقـد ملكت عليه الصناعةُ زمـامَ نفسه لم يقصِرْ هذا النوع من الكتابـة على الرسائل الفنية، بل تعدّاه إلى التأليف، فهذا ابن حجّة الحمويّ فى كتابه خـزانة الأدب يُرينا فى مـواطن كثيرة كيف أفسدت عليه الصناعـةُ تأليفه، حتى إنك حين تقـرأ عباراته لتؤثـر أن تتركها إلى ماهو خير لك وأجدى عليك من التردّى فى توريـة أو التدهور فى جناس. وهذا ابن عـرب شاه ألّف كتـابا كـاملا سّماه «عجائب المقدور فى أخبـار تيمور» كله سجع مـن النوع المرتبك المحشو بالبديع، حتى لقد أصبح فهمه أمرًا عسيرًا. وقصارى القول أن هذا الضرب من النثر كان حبيبـا إلى النفوس جميعًـا، فإنك تـراه فى رسائل الأدبـاء، وفتاوى الفقهاء، وإجازات الطلّاب وأحكام القضاة، وكلما أراد إنسان أن يتمسح بالأدب أو ينتسب إلى أهله. وإذا كان العصرُ كلُّه عصرَ صناعـة وتزويق فلِمَ لا يكـون النثر كذلـك ؟ ولِمَ ينفرد الشعر بهذه الـزخارف دونـه ؟ ولم لا يتسع فيه المجالُ للنفس المصريـة التى فُطِرت على اللعب بالكـلام ؟ ولكنّ لكل شىء حدًا إذا تجاوزه فقد قـوتَه وسُلِبَ جمالَه.

على أن بعض النثّار مع التزامهم البديعَ كـانت لهم روحٌ خفيفة وفِطْرة سليمة تستر آثار التكلف، وتُصْلِح ما أفسدته الصناعة.

مقدرة الكتاب اللغوية : ولم يكن ينقُص الكتّاب فى هذا الأوان قوةٌ فى اللغة وتمكن من مفرداتها إلاّ أن لهم هفوات فى الاستعمال وصـور بعض الأساليب، وربما كـان شىء من ذلك قليلا فى رسـائلهـم، ولكنه كثير فى مؤلفاتهم.

أشهر كتّاب هذا العصر

محيى الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبدُ الله بن عبد الظاهر المصريُّ ولد سنة ٦٢٠ هـ وتوفى سنة ٦٩٢ هـ وكان من المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل فى التزام السجع واتباع المحسنات البديعية، وبخاصة التوريةُ، وكان رئيسَ ديوان الإنشاء فى زمن الملك الظاهر بيبرس، فوضع كثيرًا من اصطلاحات الإنشاء ونُظُمِ الديوان، وبقِيَتْ نُظُمه واصطلاحاته معمولا بها فى مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر، وأصبحت مصرُ ولاية عثمانية. وله مؤلَّفات ورسائل سلطانية كثيرة، فمن مؤلفاته فى التاريخ «الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة» وقد استعان بها المقريزى فى تأليف خِططه، ومن رسائله ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن عندما عَزّاه على موت ابنه ويظهر تجلده على فقده، وهى طويلة منها :

«ولنا ـ والشكرُ لله ـ صبرٌ جميل لا نأسَفُ معه على فائت ولا نأسَى على مفقود، وإذا عِلم الله سبحانَه حسن الاستنابة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوّض كل يوم ما يقول المبشِّرُ به هذا مولى مولود، وليست الإبل بأغلظَ أكبادًا ممن له قلب لا يبالى بالصدمات كثرت أو قلّتْ، ولا بالتباريح حَقُرَتْ أو جلّتْ، ولا بالأزمات إن هى توالتْ أو تولّتْ».

وله جملة كافية من النثر فى كتاب المنتخب فارجع إليها.

شهاب الدين الحلبى

هو محمود بن سليمان ولد بدمَشْق سنة ٦٤٤ هـ. وتوفى بها سنة ٧١٩ هـ. وتلقى العلم على علماء الشام وتخرّج فى علوم العربية على ابن مالك النحوىّ. وكان من نوابغ هذا العصر أدبا وكتابة وشعرًا،

ورحل إلى مصر واتصل بسلاطين المماليك، ووَلِىَ رياسة ديوان الإنشاء فى حكم الملك الناصر بن قلاوون. وله شعر كثير منثورٌ فى كتب الأدب.

ومن نثره فى وصف البلاغة: «البلاغة تسحَر الألبابَ حتى تُخَيِّل العَرَضَ جوهرًا، وتُحِيل الهواء المدْرَك بالسمع لانسجامه وعُذوبته فى الذوق نَهرا، لكنّه سحر لم يَجْنِ قتلَ المسلم المُتَحَرِّز فَيَتَأَوَّلَ فى حِلِّه، وإذا كان فى الحديث ما هو عُقْلَة للمُسْتَوفِز فهذا أنشوطة نشاطِ البليغ وحَلُّ عِقال عقله».

وقوله فى وصف الكتابة: «خَطُّهُ شَرَكُ العقول، وفتنةٌ تَشْغَلُ المطمئنَ بملاحَة المرئىِّ المكتوبِ عن فصاحة المَقُول، ولو لم يكن البيانُ سحرًا لما تجسَّدَتْ منه فى طرسه هذه الدُّرَر، ولو لم يكن بعضُ السحر حلالاً لما انجلىَ ظلام النِّقْس عما يُهْتَدَى به من الأوضاح والغُرَر».

ابن فضل الله العمرى

هو شهاب الدين أبو العباس أحمدُ بنُ يحيى بن فضل الله العمرى، من سُلالة عمر بن الخطاب، ولد بدمَشْق سنة ٧٠٠ هـ وتُوُفى ٧٤٨ هـ، وارتحل إلى بلاد كثيرة فى طلب العلم فتلقّاه بدمَشْق والإسكندرية والقاهرة والحجاز. وكان مشهورًا بالذكاء النادر، والحافظة القوية، وصار بعلمه فريدَ عصره، لا يساويه أحدٌ فى أدبه وترسُّله وتأليفه، وكان أعلمَ أهل القطرين بتاريخ الملوك والعلماء والأدباء وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية. وقد أودع ذلك كلَّه كتابَه «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار». وهو كتاب ضخم فى بضعة وعشرين مجلدًا، يبحث فى الأدب والتاريخ وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعى وغيرها. ومن تأليفه «التعريف بالمصطلح الشريف» وهو مجموع رسائلَ فى فن إنشاء الدواوين وعلى نور مِشْكاته وضع القلقشندى كتابَه صبحَ الأعشى. ومن تآليفه كتاب فواضل السَّمَر فى فضائل آل عمر» وله مؤلفات كثيرة فى فنون مختلفة.

ومن رسائله ما كتبه على لسان سلطانه من آل قلاوون إلى نائب الشام مع طيور صَيْد جوارحَ أرسلها إليه:

«صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح، وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادِمة بجَناح؟ ونُعْلِمُه أن مكاتبته المتقدمة الورودِ تضمّنت التذكارَ من الجوارح بما بقى من رسمه، وجرت عادةُ صداقتنا الشريفة أن تُحْسَبَ فى قَسْمِه، وقد جهّزنا له الآنَ منها ثلاثةَ طيور لا يبعد عليها مَطَار، ولا يُوقد للقِرَى فى غير حماليقها جذوةُ نار، ولا تؤُم طيرًا إلا وترشُّ الأرضَ بدمه فلا يَلْحَقُ لها بغبار، وهى طيور كم لها من فتك أخذ الطير من مأمنه، وسلب ما تحلَّى به من رياش الريش ثم تزيًّا بأحسنِه».

القلقشــــندى

هو أبـو العباس شهـاب الدين أحمدُ بن على بـن أحمد القلقشندىّ المصرىّ. ولد بقلقشندة (قرية بجوار قليوب) فنسب إليها. وتلّقى العلمَ بالأزهر، واشتهر بين أقرانه بحدّة الذهن وسرعة الفهم، وقد أحاط بكثير من علوم الأدب فى عصره، وبرَع فى الفقه والإنشاء وأيام العرب وأنسابها.

تـولى ديـوانَ الإنشاء بمصر فى عهـد المماليك سنـة ٧٩١ هــ. وله مـؤلفات كثيرة أشهـرها «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» وهو كتـاب ضخم جَمُّ الفائدة، يستفيد منـه كثيراً كلُّ من يُعْنَىَ بـدراسة تاريخ الأدب فى هذا العصر. ومن مؤلفاته «نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب» وكتاب «قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان» وقد ألّفَ هـذا الكتابَ لأبى المعـالى محمد الجُهَنى البـارزىّ صاحبَ دواوين الإنشاء لفضله عليه، وذكر فيه قبائلَ العرب التى كانت فى عصره.

ومن إنشائه ما كتبه عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس فى وصف موقعة وهو :

«وتحرّكْنا من الديار المصرية فى جيوش لا يأخذها حصر، ولا يلحَقُها هَصْر، ولا يُظَنُّ بها على كثرة الأعداد كسر. ولم نـزل نحُثُّ السير، ونُسْرِع الحركـةَ للقاء العـدو إسراعَ الطير، حتى وافينـا دِمَشْقَ المحروسةَ فنزلنا بظاهرها، مستمطرين النصرَ فى أوائل حركتنا وآخرها، وانضمّ إلينا من عساكر الشام وعُرْبانها وتُرْكُمانها الزائدةِ على العدّ ما لا ينقطع له مَدَد، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد».

ومن قوله فى خطبة كتابه صبح الأعشى :

«وكانت الديار المصرية، والمملكة اليوسفية، أعَزَّ الله تعالى حِماها، وضـاعَفَ عُلاَها، قد تَعَلَّقتْ من الثريا بأقْراطها، ورجَحَتْ سائرَ الأقـاليم بقيراطها، بَشَّرَ بفتحهـا الصادقُ الأمين فكـانتْ أعظمَ بُشرى، وأخبر سيدُ المرسلين أن لأهلها نسبًا وصهرًا».

التـأليـف

كثرة المؤلفات

إذا كان لهذا العصر أن يزدهىَ بشىء من مظاهر الحيـاة الأدبية فإن التأليف أول ما يحِق له أن يفخَر به، فقد كثُرت المؤلفات فيه كثرةً مـدهشة، وانصبَّت العلماء فيـه على التدوين انصبـابًـا صرفهم عن مشاغل الحياة وشئونها، وتـوجهت نفوسهم إلى سـدِّ كل حـاجـة دينية أو فنيـة أو كـونية بمـؤلف أو مؤلفات، وتنافسوا فى الإجادة، وتسابقوا فى كثرة الإنتاج، ووصل كثير منهم إلى مـدَى الاجتهـاد أو كاد، وتناولـوا كلَّ شىء بأقلامهم حتى التافـة الحقير من الشئون، وابتكر بعضهم مباحـثَ وعلوما لم يكن للناس عهد بها، ولا غَرْوَ فقد كانت مصر والشام فى هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم، وكانت القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرُها من البلاد المصرية، ثم دِمَشْق وحلب وغيرهما من البـلاد الشامية، تموج بالعلماء والطلاّب مَوْجًا.

أسباب نهضة التأليف

وأكبر الظن أن كثرة التأليف والإنتاج فى هذا العصر ترجع إلى الأسباب الآتية :

١ ـ عندما سقطت بغـداد وأحرق التتارُ كثيرًا من الكتب، ودمّروا كلَّ شىء تدميرًا، تملّك العلماء شعـورٌ دينى دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الـذى عبِثت بـه كوارثُ الغـزو، وتجديد ذلك المجد الإسلامى الذى بُنى فى دهور، فأخذوا يبذُلون الجهدَ فى التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام، وإنشاء كتب جديدة فى اللغة والدين والأدب وغيرها.

٢ ـ كـان لسـلاطين المماليك ميلٌ إلى العلم والعلماء، وإغـداقٌ دَفعهم إلى التأليف وحَفـَزَهم إلى الإحسان فيه، وكان للسلاطين والأمراء والوزراء وَلوعٌ باقتناء الكتب النادرة، وإنشاء الخزانات الجامعة

لأنواع شتى من المؤلَّفات، حتى إن بعض الكتب كان يُؤلَّف خاصـةً لهم ؛ وقد كانوا يختارون لخزائنهم خيرَ ما أنتجه المؤلفون، فدفع ذلك المؤلفين إلى الإجادة والتنافس. ولقد أظهر لنا ابنُ نباتة هذا الشعورَ جليًا حينها أمر السلطانُ حسن بوضع ديوان شعره فى خزانته إذ يقول :

أمَّـرْت شعــرىَ يـاخيرَ الملــوك على أشعــارِ قــومٍ فلى أمــرٌ وديــوان

٣ـ كان التنافسُ بين علماء مصر والشام بالغًا حدَّه، وكان الاتصال بينهما على بعد الشقة مستمرا، وكان من العقائد الراسخة أن العالمَ أو الأديب الذى لا يُبْرِز أثرًا لا يصح أن يُدْعَى عالما أو أديبا.

الابتكار والتقليد فيه

ويرى كثير ممن كتب فى هذا العصر أن التأليف فيه ليس به أثر للابتكار، وإنما هو جمع من أشتات الكتب، وتقليد لا أثر للاجتهاد فيه، وهذا قول صحيح سائغ فى كثير من الكتب، غير أن هناك كتبا تمتاز على كثير مما أُلِّف فيما سبق من العصور، وإلاّ فمن يستطيع أن يقول إن ابن خلـدون فى مقدمته كان مقلدًا ؟ ومن يجرُؤ أن يدَّعىَ أن المقريزى فى خِططه لم يكن إلا نسَّاخا؟ ومن يظن أن ابن خلكان فى وفياته لم يكن محققا بعيد المدى؟ وهل يشك إنسان فى اجتهاد ابن مالك والشاطبىِّ وابن هشام المصرىِّ فى علوم اللغة؟ وهل لا يحق لهذا العصر أن يفخَر بمثل ابن منظور صاحب لسان العرب؟ ولو أردنا أن نحصى الكتب الجليلة الشأن فى هذا العصر لوجدنا عددًا غير قليل.

المتون والشروح والحواشى

هذا، وقد جرت عادة كثير من المؤلفين فى هذا العصر، وبخاصة مؤلفو العلوم العربية والدينية، أن يضعوا موجزاً فى العلم يسمونه متنًا، ثم يفسِّرون مجمَله فى شىء من الإسهاب ويسمون هذا التفسير شرحا، وأشهر هذه المتـون فى النحو الألفية لابن مالك، وفى القراءات الشاطبيـةُ للشاطبىّ، وفى الفقه الحنفى متن الكنز للنَّسَفىّ، وقد جاء المتأخرون فوضعوا على هذه الشروح شروحا وتقييدات سميت بالحواشى.

وهذه النَّزعةُ ربما كانت سببًا فى خفاء مسائل العلم على المبتدئين فإن المتونَ كانت تُوضَع على نمَط من الإيجاز والإبعاد فى الاختصار يصعب فهمهُ.

ولماذا لا يـوضع العلم أولَ وَهلـة أمـام الطالـب فى أسلوب واضح مفهـوم سـائغ ؟ أمـا الحواشى فمتشعبة المباحث، كثيرة الاستطراد والانتقال من مسائل العلم إلى مسائل علوم أخرى.

وقد كتب ابن خلدون فى هذا العصر فصولاً فى التعليم كـان أجدرَ بمعلمى الناشئين أن يتفهَّموها ويعملوا بها.

الكـــتب الجـامعـــة

يمتاز هذا العصر بـالكتب الجامعة. والـذى مهّد لإبـرازها شـدة صبر العلماء وجَلَدِهم فى هـذا العصر، وتعدّدُ نواحيهم العلمية. فكثيرًا ما كنت تجد بينهم من جمع بين الفقه والحديث والرياضيات والأدب والشعر والتاريخ. ثم إن نازعـة الجمع والاختصار فى هذا الزمان كـان لها شأن كبير فى إظهار هذه الكتب، وقد يكون ظهـورها أثرًا للاعتـداد بالنفس والثقة بها، وسبيلا إلى التبـاهى بعلوّ الكعب والإحاطة بكثير من الفنون والعلوم، أو إجابةً لـرغبة سلطان، بعد أن علمنـا ما كان لسـلاطين هذه الدولة من الميل الشديد لنشر العلوم واقتناء الكتب.

أشهر مؤلفى الكتب الجامعة :وأشهر مـؤلفى هذه الكتب شهابُ الـدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَرىّ، وكتابه «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» سبق التعريفُ به. وشهابُ الدين أحمد بن على القلقشندى. وكتابه «صبح الأعشى». وقد ذكرنا عنه كلمة آنفا. ثم أبو العباس شهاب الـدين أحمد النويْـرىّ أحدُ رجـال الملك الناصر بن قـلاوون. واشتهر بكتـابه «نهاية الأرب فى فنـون الأدب». وهو كتاب ضخم يقع فى أكثـر من ثلاثين مجلدا، وبه مباحث واسعـة فى الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والطب والسيـاسة والتاريخ والأدب. وبدار الكتب الملكيـة نسخة كاملـة من هذا الكتاب. توفى سنة ٧٣٣ هـ.

كـتب الـديـن والعـربيـة

وأكثر مـؤلفات هـذا العصر فى الدين واللغة والعلـوم العربية، ويمتـاز التأليف فى علوم العـربية بقوّته وسعَةَ مداه، وبروز التفكير فيه.

وأشهر المؤلفين فى علوم الدين.

(١) ابـن تيميـــة

هو أحمد بن عبـد الحليم، ولد بحَرَّانَ سنة ٦٦١ هـ وقدِم مع والده وأهلِه إلى دِمَشْق وهو صغير، وقد خرجوا من حَرَّان مهاجرين فِرارا من التتار، فساروا بالليل يحملون كتبهم وأثاثهم على عجلة لعدم وجود الدواب، فقدِموا دِمَشْق فى أثنـاء سنة ٦٦٧ هـ، ونشأ بها ابن تيمية نشأةً صالحة، فى أسرة ذاتِ تمسّك بالدين، وكان أبوه عالما فقيها جليل الصفات، فورث عنه كثيرًا من المواهب الخلقية والنفسية، ثم تلقى العلمَ على عـدد جَمّ من جِلّـة العلماء، وبـرع فى علـوم العـربيـة والفقـه الحنبلى، وأقبل على التفسير إقبـالاً فحاز قصب السبق، وأحكم أصـول الفقه وغيرَهـا من علـوم الشريعة وهـو ابن بِضْعَ عَشْرَةَ سنة، فَبَهر علماءَ وقته بشدّة ذكائه وحدة ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه.

نشأ فى تصوف وعفاف وتزهّد واقتصاد فى الملبس والمأكل، مشغوفا بالعلم والدَّرس، لا تكاد نفسُه

تشبع من العلم، أو ترْوِى من الاطلاع، أو تكلُّ من البحث. وقلَّ أن يدخل فى مبحث من المباحث إلا استوعبه استقصاء واستنبط منه ما غاب من حُذَّاق العلماء.

وقام بوظائف التدريس وعمُرُه إحدى وعشرون سنة، فطار صيته فى الآفاق، وانتهت إليه الإمامة فى العلم والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم. كان شديدًا على المبتدعين، حربا على جهل الأهواء، لا يخشَى فى الحق لومةَ لائم، ولا يهاب الموتَ فى سبيله، حتى لقد سُمِّىَ محيى السنة وآخرَ المجتهدين وهو لم يتجاوز بعدُ الثلاثين من عمره. وقد جَرَت عليه شدتُه عداوةَ كثير من معاصريه، وكان قوامُ مباحثه التوفيقَ بين المعقول والمنقول، وقد ألّف فى هذا الصدد كثيرا من الكتب، وكان المعروف أنّ العالمَ لا يُبرّز إلا فى علم أو علمين، أما ابنُ تيمية فقد بلغ الغاية فى كثير من العلوم.

يقول بعض عارفيه: «كان إذا سئل فى فن من الفنون ظَنَّ السامعُ أنه لا يعرف غيرَ هذا الفن، ثم حكم أنّ أحدًا لا يعرفه مثلَه».

وقد أثار ما ناله من الشهرة كامنَ الحِقد فى نفوس حُسّاده، فأخذوا عليه كلامًا قاله فى أحد دروسه عدوه ابتداعًا فى الدين، فجادلهم وجادلوه، واستعانوا عليه بالسلطان، وسَعَوْا فى نقله إلى الديار المصرية، فنُقِل وأودع السجنَ ثم أفرج عنه. ومازال أعداؤه يكيدون له حتى اعتُقِل مراتٍ، وكان آخرُ اعتقاله بمرسوم جاء من قِبَل السلطان سنة ٧٢٦ هـ بجعله فى قلعة دِمَشق، فأخليت له قاعة حسنة، وأقبل فى هذه المرة على العبادة والتلاوة والتأليف، وكتب فى المسائل التى حُبِس من أجلها مجلداتٍ عِدَّة. فلما اشتهر ذلك مُنع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا له دواة ولا ورقًا ولا قلمًا، فكتب بعد ذلك بفحم على حيطان سجنه يقول: «إنّ إخراجَ الكتب من عندى من أعظم النقم» ولم يعِشْ بعد ذلك طويلا، فمات فى العشرين من ذى القَعْدة سنة ٧٢٨ هـ. وقد ازدحم الناس فى جنازته ازدحامًا شديدًا بين رجال ونساء، وبالغ المؤرخون فى عدد من شيّعوه فأوصلوه إلى مائتى ألف، وأخذ الناس يتنافسون فى التبرُّك بآثاره، ويظهرون ما خالط نفوسهم من الحزن على فقده.

وبلغت مصنفاته ثلثمائة مجلد، أكثرها فى التفسير والفقه والأصول والرد على الفلاسفة والمبتدعة، وأشهر هذه الكتب «مُنْتَقَى الأخبار» و «فتاوى ابن تيمية» و «الإيمان» و «الجمع بين العقل والنقل» و «الواسطة بين الحق والخلق».

(٢) القسطلانى

هو أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القَسْطلانىّ القاهرىّ الشافعىّ، ويلقب بشهاب الدين، ويُكْنَى بأبى العباس، من أشهر المحدِّثين والمؤرخين.

ولد فى الثانى والعشرين من ذى القَعْدة سنة ٨٥١ هـ بالقاهرة، وتعلّم بالأزهر، وحفظ كتبًا عدَّة، منها الشاطبية، وتلقَّى العلم على جماعة من كبار العلماء، منهم الشيخ خالد الأزهرى والحافظ

السخاوى وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى، فبرع فى العلوم الدينية ولا سيما الحديثُ والسيرة النبوية.

وألّف فى الحديث كتابَ «إرشاد السارى إلى شرح البخارى» وهو المشهور بشرحِ القسطلانى فى عشرة مجلدات. ومن مؤلفاته فى التاريخ «المواهب اللدنية فى المنح المحمدية» وهو كتاب جليل القدر ليس له نظير فى بابه، رتبه على عشرة مقاصد فى نسب النبى وولادته ورضاعه ومغازيه، وفيه فصول فى أسمائه وأولاده وأزواجه وأعمامه وخَدَمه ومعجزاته وخصائصه. وقد طُبع فى ثمانية أجزاء، وتُرْجَم إلى اللغة التركية، وله شرح على الشاطبية والبردة، وصنَّف «مسالك الحنفا فى الصلاة على المصطفى» وكتاب «لطائف الإشارات فى القراءات الأربع عشرة».

وكان يصحَب الشيخَ إبراهيم المتبولى، ويجلس للوعظ بالجامع العتيق. تُوُفى يومَ الخميس مُسْتَهَلَّ المحرم سنة ٩٢٣ هـ، وتعذّر الخروجُ به إلى الصحراء ذلك اليوم، لأنه اليومُ الذى دخل فيه السلطان سليم مصر. ودُفن بمدرسة الإمام العَيْنِى بقرب الجامع الأزهر.

ومن أشهر المؤلفين فى علوم العربية:

(١) ابن هشام

هو جمال الدين عبد الله بن هِشام المصرىّ، الإمامُ المشهور، ولد سنة ٧٠٨ هـ كان من كبار العربية، وتخرّج عليه خَلْق كثير، واشتهر بالتحقيق وسَعَة الاطلاع ووضوح البيان، والقدرةِ على تعليل الأحكام، وكان أديبًا عالما بأسرار الكلام العربىّ، ملأ صيتُه العالم الإسلامىّ. قال ابن خلدون فى مقدمته:

«ما زلنا ونحن بالمغرب نسمَع أنه ظهر بمصر عالمٌ بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه».

وله تصانيفُ فى النحو أشهرها «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» و «قَطْر النَدَى وبلِّ الصدَى» و «شذُور الذهب» توفى سنة ٧٦١ هـ، ودفن فى خارج باب النصر، ورثاه ابن نباتة بقوله:

سقى ابنَ هشام فى الثرى نَوْءُ رحمة ... يجرُّ على مثواه ثوبَ غمام
سأروِى له فى سيرة المدح مُسْنَدًا ... فما زلتُ أروِى سيرةَ ابنِ هشام

(٢) ابن مالك

هو أبو عبد الله جمال الدين محمد، كان إمام النحاة وحافظَ اللغة فى عصره، ولد سنة ٦٠٠هـ، ونشأ بجَيَّان، وهى بلدة بالأندلس، وتلقى العلمَ على شيوخها، ثم رحل فى طلب العلم إلى دِمَشْق، فأخذ عن جماعة من علمائها، وتصدَّر لتعليم العربية فى حلب، وبلغَ الغايةَ فى علوم العربية، وألَمَّ بأشعار العرب، وكان إمامًا فى القراءات، واسع الاطلاع فى الحديث، وأقام بدمَشْق مدة يصنِّف

ويدرِّس بالجامع والتربة العادلية، وقد حفِظ التـاريخُ كتابا كتبـه إلى الملك الظاهـر بيبرس يطلب فيه بَسْطَةَ كفّ يستعين بها على مطالب الحياة وهو :

«الفقيرُ إلى رحمة ربـه محمـدُ بن مـالك يقبِّل الأرض، ويُنْهى إلى السلطـان أيّد الله جنـوده، وأبّدَ سعوده، أنه أعْرَفُ أهل زمـانه بعلوم القراءات والنحـو واللغة وفنون الأدب، وأملُه أن يُعينَـه نفوذٌ من سيّد السلاطين، ومُبيد الشياطين، خلّد الله مُلْكـه، وجعل المشـارق والمغارب مِلْكـه، على ما هـو بصدده من إفادة المستفيدين، وهداية المسترشدين، بصدقة تكفيه هَمَّ عياله، وتُعينه على التسبُّب فى صلاح حاله، فقد كـان فى الدولة الناصريـة عنايةٌ يتيسَّر بها الكفـاية، مع أن هـذه الدولَ من الـدولة الظاهريـة كجدول من البحر المحيط، والخلاصـةِ من الـوسيط والبسيط، وقـد نفع الله بهذه الدولـة الظاهرية خصوصًا وعمومًا، وكشف بها عن الناس أجمعين غمومًا، ولَمَّ بها من شَعَثِ الدين ما لم يكن ملموما، فمن العجائب كـونُ المملوك عن خيراتها غائبًـا محروما، مع أنـه من ألزم المخلصين للـدعاء بدوامها، وأقوم الموالين بمراعـاة ذمامها، لا برحَت أنـوارُها زاهرة، وسيوفُ أنصارها قـاهرة ظاهرة، وأياديها مبذولةً موفورة، وأعاديها مخذولةً مقهورة، بمحمد وآله» .

وله أكثرُ من ثلاثين مصنَّفًا فى النحو والصرف والقراءات واللغة .

وأشهرُ مصنَّفاته «التسهيل» و «الكافية الشافية» و «الألفية»، وكان كـريمَ الخُلق حَسَنَ السَّمْت كاملَ الوقار، توفى سنة ٦٧٢ هـ.

(٣) السـيوطـى

هو جلال الدين السيُوطى من أعلام أخريات هذا العصر، الذين امتازوا بكثرة مناحيهم العلمية والأدبية، وبكثرة ما أبرزوه من المؤلفات. ولد بأسيوط سنة ٨٤٩ هـ، وينتهى نسبه من جهـة أبيه إلى أصل فارسي، ويمتزج أصله بالدم التركيّ من قبَل أمه. مات والده وسنُّه خمس سنين وسبعة أشهر، وكان قد وصل فى حفظ القرآن إلى سورة التحريم، وأتم حفظَه قبل أن يبلُغ الشـامنةَ، ثم أخذ فى تلقى العلم على خير أعلامه بالقاهرة، وانكبَّ على دراسة العلوم بأنواعها، حتى نبغ فيها، وأصبح مدرسًا تهرَع إليه الطلاب، ثم عُزِل مـن التدريس قبل موتـه بأربع سنين. وأربت مؤلفـاته على الخمسمائة، وأكثرُ هذه رسائلُ صغيرة الحجم محدودة الموضوعات، وخيرُ مؤلَّفاته «الإتقان فى علوم القرآن» و «المزْهِر» فى اللغة، «والأشباه والنظائر» فى النحو «وحسن المحاضرة فى أخبـار مصر والقاهرة» فى التاريخ. وقد كتب ترجمةً لنفسه فى هذا الكتاب تَدُلُّ على كثير من الاعتداد بالنفس والصراحة، جاء فيها :

«ورُزقت التبحُّرَ فى سبعـة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحـو والمعانى والبيـان والبديع على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، والذى أعتقده أنّ الذى وصلتُ إليه من هـذه العلوم سـوى الفقه والنُّقُـولَ التى اطّلعتُ عليها فيهـا، لم يصل إليـه ولا وقف عليـه أحـد من

أشياخى، فضلا عمن هو دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخى فيه أوسعُ نظرًا وأطولُ باعا.

ودونَ هذه السبعةِ فى المعرفة أصولُ الفقه والجدلُ والتصريفُ، ودونها الإنشاء والتَّرسلُ والفرائضُ، ودونها القراءاتُ، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطبُّ، وأما علمُ الحساب فهو أعسرُ شىء علىَّ، وأبعده عن ذهنى، وإذا نظرت فيه مسألةً تتعلق به، فكأنما أحاول جبلاً أحمِله.

وقد كَمَلتْ عندى الآن آلاتُ الاجتهاد بحمد الله تعالى، أقول تحدثًا بنعمة الله تعالى لا لأفْخَرَ، وأىُّ شىء فى الدنيا حتى يُطْلَبَ تحصيلُه بالفخر، وقد أزِف الرحيل، وبدا المشيب، وذهب أطيبُ العمر؟

ولو شئتُ أن أكتبَ فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها، وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدَرْت على ذلك من فضل الله، لا بحولى ولا قوتى».
توفى سنة ٩١١ هـ.

(٤) ابـن منظـــور

هو جمال الدين بن مُكَرَّم الإفريقىّ، ولد سنة ٦٣٠ هـ، واشتغل باللغة وعلومِها وتاريخها، وخدم بديوان الإنشاء بمصر، وألف مئاتٍ من المجلدات، أشهرُها «لسان العرب» وهو معجمٌ واسع، وموسوعة جامعةٌ فى اللغة والتفسير والحديث والأدب، جمع فيه بين تهذيب الأزهرى، ومعجم ابن سيده، والصحاح، وجَمْهَرَة ابن دُرَيْد، ونهاية ابن الأثير، طبع فى مصر سنة ١٣٠٠ هـ فى عشرين مجلدًا. وكان ابن مكرَّم مشغوفًا باختصار الكتب، فاختصر مفردات ابن البَيْطَار، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ بغداد للسَّمانى، وكان إلى نواحيه العلمية شاعرًا مُقلاً فمن قوله:

بالله إن جُزْت بوادى الأراكْ ... وقبَّلَتْ أغصانُه الخُضْرُ فاكْ
ابعثْ إلى المملوك من بعضِه ... فإننى والله مالى سِواكْ

توفى سنة ٧١١ هـ.

(٥) الفـــيروزآبــادى

هو مجد الدين محمد الفيروزآبادى، ولد بالقرب من شيزار سنة ٧٢٩ هـ، وكان قوىّ الحفظ متمكنا فى اللغة والحديث والتفسير، وتبلغ مصنفاتُه نحو الأربعين أو تزيد، أشهرها «القاموس المحيط» وهو مختصَرُ كتاب ألفه سمّاه «اللامع المُعْلَم العُجاب الجامعَ بين المحكَم والعُباب»، والقاموسُ على كثرة تداوله غايةٌ فى الإيجاز إلى الغموض أحيانًا، لذا شرحه بعض علماء العربية كالقرافى والزَّبيدى ويمتاز القاموسُ بضبط الأعلام.

توفى سنة ٨١٧ هـ.

كـتب التـــاريـخ

كثرة كتب التاريخ والتراجم: ويمتاز هذا العصر بكثرة مـا أُلّف فيه من كتب التاريخ، بين موجَزَة ومطوَّلة، وربما كان الدافعُ إلى ذلك دينيًا قوميًا وفقده كثير من كتب التاريخ عند سقوط بغداد، وتغلُّب الفرنجة على بعض بـلاد الأندلس، وربما كان لميل سلاطين المماليك إلى تـدوين الوقائع وسِيَر الرجال شأنٌ فى كثرة ما ظهر من كتب التاريخ.

وكثُرتْ فى هذا العهد المعجمات التاريخية، التى جُمِعتْ فيها التراجم من أشتات الكتب، أو اعتُمِدَ فيها على الرواية أو المعاصرة ورُتّبت على حروف المعجم.

وظهر فى هـذا العصر أيضًا الاهتمام بكتـابة سيَر السـلاطين والأمراء والـوزراء، كما شاع أن يكتبَ العلماء ترجمةَ حيـاتهم بأنفسهم، وأولُ مَن نعلم ممن كتبـوا ترجمةَ حياتهم بأنفسهـم فى إسهاب وتفصيل وبيان للحوادث، أسامة ابن مُنقِذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ. قال السيوطى فى حسن المحاضرة عندما شرع فى كتابة ترجمة حياته:

«وإنما ذكرتُ تـرجمتى فى هذا الكتـاب اقتداءً بـالمُحْدَثين فقلَّ أن أَلّـفَ واحدٌ منهم تـاريخًا إلاّ ذكر ترجمتَه فيـه، وممن وقع له ذلك الأمامُ عبد الغافـر الفارسىّ فى تاريخ نيسابور، وياقـوتٌ الحموى (توفى سنة ٦٢٦ هـ) فى مُعْجم الأدباء، ولسـانُ الدين بن الخطيب (توفى سنة ٧٧٦ هـ) فى تـاريخ غرْناطة، والحافظُ تقىّ الدين الفارسىّ فى تاريخ مكة، والحافظ ابن حجـر (توفى سنة ٨٥٢ هـ) فى قضاة مصر، وأبو شامة (توفى سنة ٦٦٥ هـ) فى الروضتين».

وظهر فى هذا العصر علمُ فلسفة التاريخ بظهور ابن خلدون، وسنتكلم فى ذلك عند ذكر ترجمته.

وجرَى مؤرخو هذا العصر كما جرَى سَلَفُهم على مَزْج التاريخ بالأدب، وهذا وإن كان عيبًا فنيًا فى التأليف، كان له فضل مذكور على مؤرخى الأدب فى أيامنا هذه، فلولا هذه النزعة فى المؤرخين لفقدنا كثيرًا من الحقائق الأدبية فى هذه العصور.

وقد عُنِىَ أكثـرُ مؤرخى هذا العصر بـالدّقة جُهْدَ المستطـاع وتحرى الصواب، ومما يـؤخذ عليهم، وهذا عيب لم ينفردوا به، تحكيمُ الوجدان والمبالغةُ فى المديح والإطراء أو التحقير والازدراء.

وقد ترى فى بعض هذه الكتب أخبارًا لا يقبلها العقل السليم، ينقلونها على علاَّتها من غير نقد أو تمحيص، وقد أخذ ابن خلدون على المؤرخين فى مقدمته مآخذ من هذا النوع.

وأغفل أكثر المؤرخين تحليلَ الحوادث وبيـانَ عللها وأسبابها، واستنباط ما نشأ عنهـا من النتائج، كما أهملوا جانبًا عظيمَ الشأن فى كتب تـراجمهم، وهو نشأةُ العظماء الأولى، ووصفُ بيئتهم التى درجوا منها، وما كان لها من الأثر فى تكوين بطولتهم.

كما تركوا وصف الحياة الاجتماعية والمنزلية، ولم يتجردوا لتفصيل عادات الناس وأحوالهم المعيشية.

وأشهر المؤرخين فى هذا العصر:

(١) ابن خلكان

هو شمس الدين أبو العباس أحمدُ بن خِلِّكَان ، ولد سنة ٦٠٨ هـ . في إرْبِل ونشأ من أُسرة عريقة المجد تنتمى إلى البرامكة ، وكان أبوه مدرسًا بالمدرسة المُظَفَّرِيَّة بإربل ، فأخذ عليه مبادئ العلم ، ثم رحل فى طلب العلم إلى حلب ودمشق ، وفى سنة ٦٣٣ هـ . ولاّه الظاهرُ بيبرس قضاءَ الشام ، ثم عزله عنها ، فرحل ابن خلكان إلى القاهرة ، وعُيِّن هناك مدرسًا بالمدرسة الفخرية ، وفى أثناء إقامته بالقاهرة أتمّ القسم الأول من معجمه التاريخى ، ثم عاد إلى منصبه بالشام بعد سبع سنين من خلعه ، فوفَد عليه الشعراء يهنئونه . ومن ذلك قول سعد الدين الفارقى :

أذقتَ الشامَ سَبْعَ سنين جَدْبًا ... غداة هجرتَه هجرًا جميلا
فلما زرتَه من أرض مصرٍ ... مددتَ عليه من كفَّيْكَ نيلا

ولم يُقِم ابن خلكان فى منصبه هذا إلا فترةً قليلة ، لأنه اتُّهِم بمعاضدة نائب دمَشْق على الخروج على السلطان فعُزِل ، وعاش بقية حياته مدرّسًا بالمدرسة الأمينيّة وكانت وفاته سنة ٦٨١ هـ .

واشتهر بكتابة « وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهو معجَم تاريخىّ لم يذكر فيه من تراجم الصحابة والتابعين إلا طائفةً قليلة ، ولم يترجم فيه للخلفاء ، وإنما قصره على تراجم العلماء والملوك والأمراء والوزراء وكل من له شهرة بين الناس . وقد بذل عناية فائقة فى تحقيق نسب كل واحد ، وتحرّى سنة ولادته ووفاته وضبط الأعلام ضبطًا دقيقًا .

والكتابُ مظهَرٌ من مظاهر العناية والتدقيق العلمى . وقد امتاز بتحرى الصحة والابتعاد عن كثير من الخرافات والفحش ، وليس بين كتب التاريخ فى هذا العصر ما يضاهيه فى شرف منزلته وعظم فائدته ، وقد نال شهرةً فى الشرق والغرب ، وهو سهل العبارة ، جَلِيُّ الأسلوب ، بلغ الغاية فى الدقة والتمحيص ، وبين تضاعيفه مباحثُ جليلة الشأن فى التاريخ والأدب .

والاهتمام بكتابة التراجم وجد قبل هذا العصر بزمن طويل ، فقد جمع الخطيبُ صاحب تاريخ بغداد ، وابنُ عساكر صاحب تاريخ دمشق آلافا من التراجم لمشهورى الرجال فى كل ناحية من نواحى العلم والأدب والصناعة . وقد ترجم « وفيات الأعيان » إلى الفارسية سنة ٨٩٥ هـ ، وترجمه دِى سِلان إلى الإنجليزية ، ونشرَ فى لَندن فى أربعة مجلَّدات سنة ١٨٤٢ ـ سنة ١٨٧١ م ، وأشهر ذيل له « فَوَات الوفيات » لمحمد بن شاركر الكتبىّ .

(٢) ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خَلدون ، ويتصل نسبه بوائل من عرب اليمن ، رحَل خلدون جده التاسع إلى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ، وسكن إشْبِيلِية ، ولما تغلّب الأسبانيون عليها انتقل بأسرته إلى تونس ، وبها ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ ، ونشأ فى بيت اشتهر بالعلم والأدب

والمروءة، فتعلم وتأدّب على أبيه وكبار رجال المغرب، وأتقن العلوم المعروفة فى عصره حتى صار فريدَ زمانه.

وقد رغِب من صغره فى خدمة الملوك، فولِىَ الكتابة لبعض ملوك الدولة الحَفْصِية بتُونس، ثم لملوك بنى الأحمر بالأندلس، ثم ارتقى منصب الوزارة عند حاكم بِجَايَة بالمغرب الأوسط، ولما ظهر نبوغه كثُر حسَّاده فسعوْا به إلى الحاكم، فتخلّى عن خدمة السلاطين، وانقطع للتأليف أربعة أعوام أقام فيها بين قبائل العرب على حدود الصحراء. وألف فى أثنائها تاريخَهُ ومقدمتَه المشهورة، ثم وفَد على مصر سنة ٧٨٤ هـ فى زمن السلطان برقوق، ودرّس بالأزهر، وولاه السلطانُ قضاءَ ولاية، فاستقدم أسرتَه من تُونُس فغرقوا جميعًا فى أثناء الطريق، فحزِن عليهم حزنًا شديدًا منعه من القيام بأعباء منصِب القضاء، فاستعفى وسافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة، واعتزل فى ضيْعة له بالفيوم، ثم عاد ثانية إلى القضاء ثم استعفى، وهكذا إلى أن تولّى القضاء ستَ مرات. وقد أسَرَه تيمورلنك فى بعض غزواته بالشام، فنال ابن خلدون منزلة عنده، ثم طلب إليه أن يسمح له بالذهاب إلى مصر ليُحْضر مؤلَّفه فى التاريخ، فذهب إليها ولم يعد.

ويُعَدّ ابن خلدون أولَ من استنبط فلسفَة التاريخ، وقد فصَّلها فى مقدمة تاريخه، وأقام الأدلّة على صحة استنباطه بالحوادث التاريخية الصحيحة، وتاريخُه يسمى « العبَر وديوان المبتدأ والخبر » وهو فى سبعة مجلدات اشتهر ابن خلدون بمجلّد واحد منها، هو مقدمة هذا التاريخ، التى تعد مَفْخَرة فى عالَم التأليف العربىّ، لأنها أول بحث جامع فى علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ، وقد بحث فيها فى أحوال العمران وأسبابه، وفى منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها، ثم فى آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة، وما يعتريها من تقدم أو تدهور، ثم فى العلوم وأنواعها، والكتب ومعايبها، وطرائق التعليم وكيف تكون، كلّ ذلك فى أسلوب سهل شائق دقيق، واستنباط منطقىّ صحيح.

ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمّنه من المقدمات الفلسفية فى صدر أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة، وهو أوسع تاريخ للبربر ودولهم ولعرب الجاهلية، ويدلُّنا هذا الكتاب على اتصاف ابن خلدون بالصراحة فى القول، والسداد فى الرأى، والإنصاف فى الحكم.

وقد ساد فى عصر ابن خلدون التزامُ السجع فى الكتابة والمغالاةُ فى المحسنات البديعية فخالف ذلك، ورجَع بالإنشاء إلى عهده الأول، فرغِب عن السجع وزهِد فى البديع، وجعل اللفظ خادمًا للمعنى. وقد أشار إلى ذلك فقال :

« وكان أكثرها (الرسائل) يَصْدُر عنّى بالكلام المرسل بدون أنْ يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة بالأسجاع، لضعف انتحالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس، بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ، وكان مستغربًا عند من هم أهل هذه الصناعة، ثم أخذت نفسى بالشعر، فانثالت علىّ منه بحور

توسطتْ بين الإجادة والقصور » .

فأنتَ ترى أنه ترك السجعَ ومال إلى الكتابة المرسَلَة جريا على الفطرة والسليقة، وترى أنه حكم على شعره بأنه وسط بين الجودة والتقصير، ومن شعره قوله :

أبى الطيفُ أن يعتــاد إلا تَــوَهُّما ... فَمَن لى بـأن ألقَى الخيــالَ المُسَلِّما
وإنى ليـدعـونى السُّلُـوُّ تَعَلُّـلاً ... وتنهـانىَ الأشجـانُ أن أتقـدَّمـا
وذو الشـوق يعتـاد الـربـوع دوارسًـا ... ويعــرِف آثـار الديــارِ تَوَهُّمـــا

توفى سنة ٨٠٨ هـ .

(٣) المقــريــزى

هـو أبو العبـاس تقىُّ الدين بنُ عَـلاَء الدين الحسينىّ، أصلـه من بعلبك، ونسب إلى حارة فيهـا تعرف بحارة المقارزة، وكان جده من كبار المحَدّثين ببعلبك، وانتقـل أبوه إلى القاهرة فولد له فيها تقى الدين سنـة ٧٦٦ هـ، فنشأ فى تلقى العلم ودراسة الحديـث على جده لأمه شمس الـدين بن الصائغ وغيره، وسمع الحديثَ فى مكة من كثيرين، وكان حنفىَ المذهب فى أول أمره، فلما بلغ العشرين تحوّل إلى مذهب الشافعى .

ولما ظهر فضلُه وعلمه وأدبـه تقلد كثيرًا من المناصب الدينية والسياسية ؛ كالخطـابة بجامع عمرو والسلطان حسن، والإمامة بجـامع الحاكم، وقراءة الحديث بالمؤيَّدية، وتولَّى النيـابة فى الحكم وكتابة التوقيع والحِسْبة، ورحل إلى مكة والشام، وتقلّد مناصبَ بدمَشْق، واتصل بالظاهر برقوق، وصَحِب يَشْبَكَ الدُّوِيـدار وأصاب منه ثـروة وجاها، ثم أقـام بالقاهـرة واشتغل بالتأليف فى التاريخ . ولـه فيه مؤلّفات جليلة هى مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر.

ومن أشهر مؤلفاته « المواعظُ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو كتاب جامع جمُّ الفائدة، جعل فيه وصف الخطط والمبـانى والبلاد المصرية ذريعةً إلى الإفـاضة فى تاريخهـا وتاريخ مؤسسيها ومـا توالَى عليها من حـوادث، وله فى أثناء ذلك بحـوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدَى، وبـالكتاب كثير من التراجم والمباحث التى لا توجد فى سواه، ولكثرة فوائده تُرْجِم إلى لغات عدَّة، ونَسَج على منواله على مبارك باشا فى كتابه المعروف بالخطط التوفيقية .

ثم كتابه المسمَّى « السلوك لمعرفة دول الملـوك » وهو يشتمل على تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ هـ إلى سنة ٨٤٤ هـ، ومن مؤلفاته « الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية » يبتدئُ من مقتَل عثمانَ رضى الله عنه، وينتهى بالمستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، وكانت وفاة المقريزى سنة ٨٤٥هـ

كتب تقـويـم البـلدان والرحـلات

الدمشقى ـ أبو الفداء

وقـد نما فى هذا العصر علم تقـويم البلْـدان، وألف فيـه العددُ الجمُّ من العلماء، وهـؤلاء منهـم النظريون الذين نقلـوا ما كتبوه من الكتب أو تَلَقَّوْه من الرواة ونَقَلَة الأخبار، كـالدمَشْقى المتوفىَ سنة ٧٢٧ هـ، لـه كتاب يسمى « نخبـة الـدهر » فى عجـائب البر والبحر» طبـع بأوربا. وكأبى الفـداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ فإن له كتابًا جليل الشأن يدعَى « تقويم البلدان » اهتمَّ به الفرَنْجة كثيرًا.

ابن ماجد النجدى ـ ومنهم المؤلفون عن مشاهدة وخبرة كابن ماجد النجدىّ، وهو ملاح عربى لـه منظـومات مـوجـزة فى فن البحـر وهـدايـة الملاحين فى المحيط الهندى، وقـد كتب بجـانب هـذه المنظومات كتـابًا فى سنة ١٤٨٩ م يشتمل على مبـادئ الملاحة بعضُه منظوم وبعضـهُ منثور، ولم تظهر هذه المؤلفات فى أوْربا إلا من عهـد قريب. وكان ابن ماجد بارعًا فى علمـه وقد ورث هذه البراعة عن أبيه، ويقال إنّ ابن ماجد هذا هو الذى أرشد فَـاسْكُو دى جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل به المسافر حول إفريقية إلى شواطئ الهند.

ابن بطوطة

وأشهر مؤلفى الرحَـلاَت فى هذا العصر أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى المعـروف بابن بطوطة، ولد بطَنْجَـة، وخرج من بلـده سنة ٧٢٥ هـ للحج، فبدأ بـالحرمين فالشـام فالعـراق ففارس فما بين النهرين فآسيا الصغرى فجنوب روسيا والإستانـة فآسيا الصغرى فبخارَى فأفغانستان إلى دِهلْـي، ثـم رحَل إلى سيـلان والصين، وعاد إلى بلـده سنـة ٧٥٠ هـ. ورحل فى السنـة التاليـة إلى غَـرناطـة ثم إلى السودان، وتوفى بَمـرّاكُش سنة ٧٧٩ هـ. وقد دَوَّنَ كـل هذه الأسفارِ فى رحلة سمّاهـا «تحفةَ النُّظار فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» وقد طبعت بمصر وأوربا.

وقـد فاق ابن بطـوطة كـل رحالـة قبله ولا يغضُّ من شأن كتـابـه أنه اشتمل على بعض الأغـلاط خصوصًا بعـد أن نعلم أن مذكِّراته التى دَوَّنها فى أثنـاء الرحلة فقدت حينما دهَم السفينـة التى كان بها لصوصُ البحـر فى المحيط الهندى، وأنـه اعتمد على ذاكرتـه فى قصِّ رحلته، لذا يبقى كتـابه مـرجعًا صحيحًا لوثف الحياة الاجتماعيـة والسياسية والعقلية فى البلاد التى زارها، وهفـوتُه فى الحقيقة هفواتُ أهل عصره، وأغلبها تنشئ من تأثير البيئة وسرعة الميل إلى التصديق لكل ما يقال ويشاع.

وبالكتاب ناحية أدبية أجليلة الشأن، فقد أضاف إليه ابن جُزَىّ أبياتًا شعرية إثيرة استشهد بها فى مواطن عـدّة، واقتباساتٍ رائعةً من ابن جُبَيْره وغيره، إضـافات من عند نفسـه، ولكنّ الكتاب يبقَى بعد هذا قصةً سهلة مليئة بالحوادث والعجائب والفكاهات، من غير تكلف فى الأسلوبد، تُرسلُ على أخلاق أهل هذا العصر وعاداتهم.

كتـــب الأدب

ضعف التأليف فى الأدب : كان التأليف فى الأدب ضعيفًا خائرًا، وجمعًا غير موفّق من كتب الأولين، وممن اشتهر بالكتابة فيه فى هذا العصر:

الوطواط : جمالُ الدين الـوَطْواط المتوفى ٧١٨هـ ، واشتهر برسائلة وبكتابه « غُـرَر الخصائص الواضحة وغرَر النقائص الفاضحة» .

البهاء الدمشقى: وعلاء الدين البهاء الدمشقى وله كتاب يدعَى « مطالع البدور فى منازل السرور» وهو خزانة شعر وأدب ، طبع بمصر.

الإبشيهى : والإبشِيهىُّ واشتهر بكتابه « المستطرَف فى كل فلن مستظرَف» .

النوّاجى : وشمسُ الدين النَّواجِىُّ القاهرىّ المتوفى سنة ٨٥٩هـ، وأشهر كتبه « حَلْبَةُ الْكُمَيْت» .

ابن حبيب الحلبى: وابنُ حبيب الحلبىُّ وكان أديبا مؤرخا ، أشهر كتبه فى الأدب « نسيم الصَّبا» توفى سنة ٧٧٩هـ .

ابن حجة الحموىّ : وابنُ خجَّة الحَمَوِىُّ، وكان رئيس أدباء عصره، مولَعًا بالبديع ، وخير كُتبه كتاب « خزانة الأدب واغاية الأرَب» شرح فيه بديعيته ، و هو خير كتاب لطالب تاريخ الأدب فى عصر المماليك، لأنه أكثر فيه من الاستشهاد بشعراء عصره وصوَّر الحخياة الأدبية تصويرًا صادقًا . توفى سنة ٨٣٧هـ .

كتب العلوم العقلية

ابن النفيس : وكان التأليف فى العلوم العقلية والرياضية قليلا بالإضافة إلى غيرها ، وأشهر المؤلفين فى الطبّ عَلاء الدين بن النفيس ، شيخُ الطب بالديار المصرية . توفى سنة ٦٨٧هـ . وله كتاب «المختار من الأغذية» .

ابن الشاطر : ولابن الشاطر المتوفَّى سنة ٧٧٧هـ مزلفات فى الجغرافية والرياضيات بدار الكتب الملكية .

ابن الهائم : ولشهاب الدين بن الهاشم الفَرضِىّ المتوفى سنة ٨١٥هـ كتاب يدعى « مرشد الطالب» فى الحساب .

الدميرى : وأشهر المؤلفين فى علم الحيوان كمال الدين الدَّمِيرى المتوفَّى سنة ٨٠٨هـ، له معجم مرلى حروف الهجاء ، للحياة الحيوان وطبائعه .

كتب القصص

ألف ليلة وليلة: وظهر فى هذا العصر فى صورة نهائية كاملة كتاب ألف ليلة وليلة، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية، وفتَن كثيرًا من القراء، واجتذب بقوة تأثيره وروعة خياله الأذن الأوربية، وربما كان هو الذى أوحى إلى بعض كتاب الأقاصيص فى الغرب المشهورين بالإغراق فى الخيال بكثير من الصور الخيالية الرائعة، وليس بعجيب أن يُغْرم أهل الغرب بهذا الكتاب لأنه يجرى فى أقاصيصه على سَنن شائق جذاب، وأكثرُ ما تظهر فيه المهارة فى حَبْك القصة، وخَلْقِ المواقف المُعَقّدة التى تضيع وجوه الحيلة فى حلها، ثم العمل على الخروج من هذه المآزق فى لطف وحسن تصرف فنّى، هذا إلى إبداعٍ فى الوصف وإبعاد فى الخيال. وهو وإن وُضع فى أول أمره للتسلية والترويح عن النفس لا يخلو من حكمة تساق إليك، وموعظة تصل إلى قَرارة نفسك، ودراسةٍ عامة لأحوال الحياة.

والفرق بين حكايات ألف ليلة وليلة والروايات الأوربية أن الكاتبَ فى الأولى كان كثير المبالغة والإغراق، وأنه اهتم بالأحوال الظاهرة وقَصَر وصفَه على المحسوس المشاهد. ولم يعمد إلى تحليل النفوس، ولم يتغلغل إلى أسرار الطبائع، ولم يُعنَ عنايةً مقصودة بدراسة الأخلاق، بخلاف الكاتب الأوربى فإن الدراسة النفسية أساسُ قصته وعمادها فى أغلب الأحوال، وهو يسير فى قصته على سَنَن واضح من الطبيعة من غير إسراف. ومصدرُ هذا الكتاب لا يزال محاطًا بالشكوك، والأقربُ إلى الحق أنه من أصل فارسىّ قديم، وأن منشأه كتاب هَزَار أَفْسانَه (ألف حكاية) وبه كثير من حكايات هذا الكتاب، وقد أضيف إلى الأصل الفارسىّ نوادرُ كانت منثورة فى كتب الأدب، وحكاياتٌ جديدة كانت توضع على مر الأيام، فالكتاب إذًا لم يوضع فى عصر واحد، ولم يصنفه مؤلف واحد. أول من ترجم هذا الكتاب لأوربا جالّنْدا (١٧٠٤ ـ ١٧١٧ م).

قصص أخرى: ومن الأقاصيص التى انتشرت فى هذا العصر، والتى يغلب على الظن أنها نبتت مع الحروب الصليبية، سيرة عنترة بن شداد وسيف بن ذى يَزَن، ثم قصةُ الظاهر بيبرس، وهى تتضمن حروبَه مع الصليبيين، وقصة أبى زيد الهلالىّ وغيرها.

وهذه الأقاصيصُ لا تزال تُقرأ فى مشارب القهوة، وقد فقدت الآن مالها من روعة بسبب النهضة الفكرية العامة، وانصراف جمهرة الناس إلى قراءة القصص الحديثة وافتتانهم بها.

خيال الظل: وفى القرن السابع الهجرى ظهر خَيَال الظل وألفَ فيه ابن دَنِيَال المتوَفى سنة ٧١٠هـ كتابًا فريدًا سماه «طيْفَ الخيال» وصف فيه لُعْبَةَ خيال الظل، وبالخزانة التيمورية نسخة منه، وهو كالرواية الهزلية يشتمل على مجون كثير.

وقد كان ظهور خيال الظل بدايةً صالحة للتدرج إلى القصص التمثيلية، ولكنه لم ينهض ولم يَدْرُج ولم يتقدم خُطوة إلى الأمام، وبقيت العربية عاطلاً من الأدب التمثيلىّ حتى ظهر فى العصر الحديث.

٣- العصر العثمانى

هذا هو العصر المظلم حقًا الذى أطفأتْ فيه العواصفُ مصابيح العلم والأدب، وتركتْ مصرَ الزاهيةَ الزاهرة فى ظلام حالك، وليل من الأحداث دامس؛ تلفتت فيه مصرُ فوجدتْ يدها صِفْرا من كل شىء، بعد أن كانت حاضرة الإسلام، وملجأ الأمم المظلومة، ومباءةَ العلماء والمتعلمين من أقطار الشرق والغرب، وبعد أن كانت مدارسُها وجوامعها حتى بعد ما أصابها من الكوارث فى أخريات عهد المماليك حافلةً بحلَقات العلم والأدب. وليس من شأننا أن نتعرض لحال مصر بعد الفتح إلا بقدر ما ينفع طالبَ الأدب فى الدرس والاستنباط، فإن من بدائه العقول أنّ للعلوم والفنون اتصالا وثيقًا بأحوال الأمم السياسية والاجتماعية، وأنها لا تنمو إلا حيث تبسُط السكينةُ جناحها، وينشُر السلامُ أعلامَه.

الفتح العثمانى

هُزِم السلطان الغورى أمام جيش العثمانيين فى موقعه مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ، وأسلمه جُنده فحاول الفرار، وهو شيخ فانٍ فى الخامسة والسبعين، فسقط عن جواده وتخطّفته سنابك الخيل، فلم يُعثر له على أثر، وحاول طومان باى بعده صد غاراتِ العثمانيين، وكان بطلاً صادقَ العزم، فهُزِم فى أربع وقائع، وبعد شدة وبأس التجأ بمديرية البحيرة إلى شخص كان يثق بنجدته، وعاهده على المصحف ألا يغدِر به، ولكنه لم يلبَث عنده طويلا حتى وَشَى به إلى السلطان، فحُملَ مُصَفَّدًا إلى القاهرة، وشُنق عند باب زوِيلَة.

آثار الفتح

أما ما أصاب مصر من الفتح العثمانى فإنا نتركه إلى مؤرخى ذلك العصر، وبخاصة من كتب عن مشاهدة وعِيان، كابن إياس، فإن فى تاريخه صورة واضحة لحال مصر فى هذا الزمان، نصرف وجوهنَا عن هذه الصورة، ونتجه إلى ما أصاب العلومَ والفنون، فنرى أن العثمانيين نقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس إلى القسطنطينية، فحُرِمتْ مصرُ أغلى كنوزها، ثم نقلوا كثيرًا من العلماء والأدباء والأمراء والمهندسين والوَرّاقين وأرباب الصناعات إلى بلادهم، وقد ذكر ابن إياس أسماء كثير من هؤلاء، وقال إنهم قد يبلغون الثمانمائة والألف، وغرقت بعض السفن التى كانت تحملهم فمات كثير منهم، وكان من نتائج الفتح أيضًا أن انتقلت الخلافة من مصر إلى القسطنطينية بإرسال أمير المؤمنين المتوكل على الله وأولاد عمه إلى قاعدة العثمانيين، فأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت حاضرة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية.

وكان من نتائج الفتح أن قلّتْ أموالُ الأوقاف التى كانت محبوسةً على العلماء وطلبة العلم، فتفرّق الطلّاب وانفضّت سوق العلم، ولم يبق منه إلا ذمامةٌ بالأزهر الشريف.

ولم تلق العربيةُ فى ذلك العهد من يأخذُ بيدها، لأن اللغة التركية حلّت محلها، وأصبحت لغةَ الكتابة والدواوين، وغزتها بكثير من الكلمات التركية التى تفشّت فى كتابة الأدباء فى ذلك الحين تَظَرُّفًا وتَشَبُّثًا بمحاكاة الغالبين، وطُوِى بِساط ديوان الإنشاء الذى كان له الفضل الأكبر فى إحياء العربية وآدابها.

النـــــثر

كنا نعيب النثر فى عهد المماليك بإبعاده فى التكلف، وإغراقه فى التحلّى بصنوف البديع، فماذا نقول اليوم وقد عجز الكتاب عن أن يصلوا إلى هذه المرتبة؟ فحاولوا تكلّف البديع فلم يستطيعوا أن يأتوا بشىء له قيمة فنية، وتَرَدّوْا فى الحضيض، وأتوا بالغَث السَّمج، الذى إن حسن فيه شىءٌ كان سرقة واغتصابا من بقايا آثار من سبقوهم من الكاتبين. على أن الضعف فى اللغة وأصولها تدَلّى إلى دَرْك صار فيه كثير من الكتاب عاجزًا عن التّحَرُّز من اللحن، والنجاة من أرزاء العجمة والعِىّ والجهل، وماذا يكتب الكاتب أو يُبدِع الفَنَّان والخوف يملأ جوانبه، والناس لاهون عن الاستماع إليه بما هم فيه من أمرٍ مَرِيج؟ وإنّ من حق العربية علينا أن نُطيل الوقوفَ هنا على أطلالها الدارسة، وآثارها الطامسة، وأن نذكر وهى تتمشّى إلى قبرها فى ضعف وهُزال ما كان لها من مجد كان جمالَ العصور، وزينة الممالك، وفخر الأجيال، وما كان لها فى شبابها من حسن بَهر الألباب، وسحر العقول.

وكان النثر مع هذا مُقفرًا من المعانى السَّرِيّة خاويًا من الأساليب الناصعة، وأصبحت موضوعاته لا تخرج عن الرسائل الإخوانية إلاّ قليلا، وسنُلقى عليك مثالا من أمثلة الكتابة فى هذا العصر ثم نترك لك الحكم.

فمما كتبه عبد الوهاب الحلبىّ إلى الشهاب الخفاجىّ قوله:

مثال من النثر: «لقد طفَحت أفئدة العلماء بشرًا، وارتاحتْ أسرارُ الكاتبين سرًّا وجهرًا، وأُفْعِمتْ من المسرة صدورُ الصدور، وطارت الفضائلُ بأجنحة السرور، بيُمن قدوم من اخضرّتْ رياضُ التحقيق بأقدامه، وغرِقتْ بحارُ التدقيق من سحائب أقلامه».

وعلى هذا النمط كان يُصاغ الكلام، وتتنافس فيه الأقلام.

أما الشعرُ فسكتتْ بلابلُـه وصَوَّحَتْ رياضُه، وحال نظمًا خاليًا من رَوْعـة المعانى، قَفْرًا من بدائع الصنـاعة، ولا عجب فإن الفنـون لا تزدهـر إلا حيث تطمئن القلـوب وتهدأ النفوس، ويكثـرُ الخير وتسهل أسباب الحياة. أرأيتَ الطائرَ الغِردَ يُغَنِّى بين حَفيف السِّهام ؟ أرأيتَ الزهرَ يَبْتَسِمُ وقد ألوتْ به العواصفُ ولَفَحَتْـه السَّمائم، وقد كان الأولـون يقولون: إن اللُّهَـا تَفْتَحُ اللَّهَا وقـد قلّ العطاءُ فى ذلك العصر وانقطعتْ صِلاتُ الشعراء.

وكـان الشعر فى هـذا العصر محاكاةً للعصر السـابق، وأغلبـه فى الغزل الصنـاعىّ والإخوانيـات. وأشهرُ شعراء هذا العصر :

(١) الشهاب الخفـاجى

هو أحمد بن محمد بن شهاب الدين الخفاجى المصرى، ولـد بسَرياقوس وتَلَقَّى دروسَه بالقاهرة ثم رَحَل مع أبيه إلى الحرمين، ثم الإستـانة، وتعيّـن قـاضيًا على الروملى ثم فى سلانيك، وعينّـه السلطان مراد قاضيًا للعسكـر بمصر، ثم استقال وسافر إلى دِمَشْقَ فحلب فالإستانـة، وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ. وكان أديب عصره عالما باللغة وعلـومها كاتبًا شاعرًا مؤلفًا. ومن أشهر مؤلفـاته « ريحانة الألباء » وهو كتاب يشتمل على تـراجم لبعض أدباء عصره، ثم « شفاء الغليل بما فى لغة العـرب من الدخيل » جمع فيه طائفةً من الألفاظ الدخيلة والمُعَرَّبة، وضمّنَه مباحثَ مفيدة.

ومن شعره قوله :

إن وَجْـــدِى بمصر وَجْـــدٌ مُقيمٌ ... وحنينى كما تـــــرون حنينـى
لم يــــزل فى خيـــالىَ النيـلُ حتى ... زاد عن فكـرتى ففاضتْ عيـونى

وقوله :

فـدَيْتُك يـامَن بـالشجـاعـة يرتدى ... وليس لغير السُّمْـرِ فى الحرب يَغْرِسُ
وإن عَشِقَ النـاس المَهَـا وعيـونَها ... من الـدَّلّ فى روض المحـاسن تَنْعِسُ
فـدِرْعُك قد ضَمَّتْـك ضمة عـاشق ... وصـارتْ جميعًـا أعينًـا لك تحرُسُ

وقوله مُضمنا :

يـاصاح إن وافيتَ روضـةَ نـرجِسٍ ... إيــاكَ فيهــا المشىَ فهـــو مُحَرّمٌ
حـاكتْ عيـونَ معـذِّبى بـذبـولها ... (ولأجل عين ألـفُ عين تكـــرمُ)

(٢) ابن منجك

قال شهاب الدين الخفاجي في ريحانة الألباء :

« الأمير محمد بن مَنْجَك الجَرْكَسِي أصلا ومَحْتِداً، الشامي منشأ ومولدًا، أديب أريب، ونجيب وابن نجيب، أورق عوده بالشام وأثمر، فإذا عُدَّت السجايا عرَضًا فسجاياه جوهر، نشأ بها والدهر أبيضُ أقمر، ونادم العيشَ والعيشُ أخضر، وللبقاع تأثير في الطباع، والعِرْقُ كما قيل لمغرِس نَزَّاع، ومن كان جارَ الرياض، لبِس طبعُ بُرْدَ نسيمها الفضفاض، كما لبِس النهر الجاري، درعَ النسيم الساري . . . .

وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفاضَةً ... عليه وما غيرُ الحَباب لها حَلَقْ

وقد صحبني بجلّق ونسيمهُ سَجْسج، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تُنْسَج، ولازمني إذ رأى انعطافي عليه، وشبه الشيء منجذب إليه » .

وقد اختار له الخفاجي طائفةً كبيرة من الشعر نكتفي منها بالصور الآتية التي تدل على علو كعبه في الشعر وأنه كان فيه نادرة عصره من ذلك قوله :

سَقَىَ اللهُ يومَ القصرِ إذ كان بيننا ... حديثٌ كمُرْفَضّ الجُمان المُنَضَّدِ
بروض يجول الماءُ تحت ظلاله ... كأَيْمِ مَروعٍ أو حُسام مُجَرَّد
يلوحُ به قاني الشقيق وقد حَكَى ... لواحَظَ مخمورٍ كُحِلْن بإثمِدِ
وَيْهمِي به قطرُ النّدَى فتَخالُه ... مُبَدَّدَ عِقدٍ في فراش زُمُرُّد
وريحانُه الغَضُّ الشَّهِيُّ كأنه ... مبادِي عِذارٍ فوق خدٍّ مُوَرَّدِ

وقوله :

لا تَبْتئِسْ بالسوء دهرَكَ إنه ... جَبَلٌ يُجِيبُ صداكَ منه صداءُ
مـ[illegible]اتُكَ الدنيا وفعلُك صورةٌ ... فيها فما الشّنعاء والحسناءُ ؟

وقوله :

قصرَ الامير بوادي النَّيْرَيْنِ سَقَى ... رُبَاك عني من الوَسْمِيِّ مدرارُ
كم مَرَّ لي فيكَ أيامٌ هواجرُها ... أصائلٌ ولياليهن أسحارُ
حيثُ الشبيبةُ بِكْرٌ في غضارتها ... وللصَّبابة أحلافٌ وأنصار
حيثُ الرياضُ تغنيني حمائمُها ... بالدفِّ والجَنْك والمنشورُ لي جار
حيثُ الخمائل أفلاكٌ بها طلعتْ ... زُهْرٌ من الزَّهْرِ والنُّدْمانُ أقمارُ

توفي سنة ١٠٨٠ هـ .

(٣) عبد الله الشبراوى

هو عبد الله بن شرف الدين الشَّبراوىّ القاهرىّ، من أكابر مشيخة الأزهر، وهو شاعر رقيق جذّاب، فى شعره لين وسهولة، وأغلبُه فى المدائح النبوية ومدائح أهل البيت، توفى سنة ١١٧٢هـ ومن شعره :

آلَ طـــه ومَن يقل آلَ طـــه ... مستجيرًا بجـاهكم لا يـــردُّ
حبُّكم مـذهبى وعَقْـدُ يقينى ... ليس لى مـذهب سـواه وعَقـد
منكمُ استمـدُّ بل كلُّ مَن فى الـ ... ـكَوْنِ من فيض فضلكم يستمدُّ
بيتكمُ مَهْبِطُ الرسـالة والـوحـ ... ـي ومنكمُ نـورُ النبـوةِ يبـدو
ولكم فى العُـلاَ مقـامٌ رفيعٌ ... مـا لكم فيـه آلَ يـاسينَ نـدُّ
يـاابنَ بنتِ الرسـولِ من ذا يُضاهيـ ... ـكَ افتخـارًا وأنت للفخـر عِقْدُ
يـاحُسينًا هـل مثـلُ أمِّـكَ أمٌّ ... لشريفٍ أو مثلُ جـدِّك جَـدُّ

وبما قاله مؤرخًا فى رثاء أحمد الدلنجاوى :

سألتُ الشعرَ هل لـك من صـديقٍ ... وقـد سكن الـدلنجـاوىُّ لَحْدهْ ؟
فصـاح وخَـرَّ مغشيًـا عليـه ... وأصبح سـاكنًـا فى القبر عنـده
فقلتُ لمن أراد الشعـــرَ أَقْصِرْ ... فقد أرّخْتُ مـات الشعر بعـده

سنة١١٢٣هـ

ومن قوله يعتذر إلى بعض مشايخه :

إنّ ذنبـى واللهِ ذنـب كبيرُ ... غـير أنـى بحلمـكم أستجيرُ
ضاق صدرى وأخجل الذنبُ وجهى ... واعـترانى مـن الحيـا تغييرُ
وتأسفتُ حين كـان الـذى كـا ... ن ولـكن جـرى بـه المقـدور
وتأخـرتُ عن لقـاكم حيـاءً ... ثـم إنـى أعيـانىَ التـأخـير
وتـركتُ الحضـور بين يـديكم ... خَجَـلاً حيـن عَـمَّنى التقصير
لكن العفـو ليس يبعُـد عنكم ... فعـسى أن يصحَّ قـلبٌ كسـير
إن ظنـى والله فيكـم جميـلٌ ... ولسـانى عـن اعـتذارى قصير
سعـةُ الصدر قـد دعتنى إلى مـا ... كان منى والحـلُم عنكم شهـير
شِيـمةُ الأكرمـين عفـوٌ وصـفحٌ ... كـلُّ ذنـبٍ لديكـمُ مغفـورُ

التأليف

نزل التأليف عن مرتبته كثيرًا، واقتصر على أن يكون تطويلاً لموجَز أو اختصارًا لمطوَّل، إلا فى القليل النادر.

الزبيدى

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر الشهاب الخفاجى وقد مرت ترجمته، ثم الزَّبِيدِيُّ وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتَّضى الحسينى الزبيدى، ولد سنة ١١٤٥ هـ، ونَشأ باليمن، وَرَحل فى طلب العلم فنزل مصر سنة ١١٦٧ هـ، واشتهر أمره وعلا ذكره بين العلماء والأمراء وألَّفَ رحلات لأسفاره، ثم تجَرَّد لشرح القاموس المحيط فأتمه فى سنين عدّة، وسمّاه « تاج العروس » ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته فى جامعه، أوعِزَ إليه أن يَقْتَنِيَ تاج العروس فاشتراه من مؤلفه بمائة ألف درهم، وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكُردية، وقد عَوَّل فى شرح القاموس على لسان العرب، واستدرك على صاحب القاموس بعد كل مادة ما غفَل عن ذكره من المفردات اللغوية .

ومن مؤلفاته « إتحاف السادة المتقين » وهو شرح لإحياء العلوم للغزالى توفى سنة ١٢٠٥ هـ.

عبد القادر البغدادى

ومن كبار المؤلفين فى هذا العصر عبد القادر بن عمر البغدادى، درس بدمَشْق، وتردد على القاهرة، ثم رحل إلى أدرنة واتصل برجال الدولة التركية، ثم عاد إلى القاهرة ومات فيها سنة ١٠٩٣هـ.

وكان غزيرَ المادة فى اللغة والأدب، محبًا لاقتناء الكتب، فكانت خزانة كتبه تشتمل على كثير من الكتب الثمينة النادرة، وأشهر مؤلفاته « خزانة الأدب ولُبّ لُباب لسان العرب »، وقد شرح فى هذا الكتاب شواهدَ شرح الكافية، وضمَّنه كثيرا من تراجم الشعراء والأدباء فى الجاهلية وصدر الإسلام، والكتاب جليل القيمة جدًا يدل على علم واسع ودقّة وتمحيص .

علی باشا مبارك (*)

فى حجرة واسعة تصان بها الكتب بدار العلوم، يرى الداخل فى أول ملتقى بصره صورة زيتية لشيخ جليل. تحف به المهابة، وتغضى لرؤيته العيون. تلك صورة المرحوم على مبارك باشا العالم الرياضيّ المهندس المؤرخ الأديب.

ترونه فى هذه الصورة، وقد تجاوز الستين، مظهرًا للقوة الجسمية، ومثالاً لحدة الذهن ونفوذه، سويّ الخلق، قويم القامة، طويلاً طرمّاحا. وقديمًا قالوا: «وإن أعزاء الرجال طيالها». عريضَ المنكبين، لم تقوّس الأيام قناته، ولم يصوح الدهر نباته، يمثل المصريّ الصريح فى وجهه وجسمه وسمته؛ جبين واسع يكاد يشف عما تحته من علم زاخر، ورأى ثاقب، كأن غضونه سطور دونتها التجارب، وخطتها يمين الأيام، وحاجبان مقرونان غزر شعرهما، وقد وخطه الشيب، يظلان عينين لهما نظرة تحار فى تأويل معناها. وتبيُّن مرماها: ففيها الجد، وفيها الإرادة الحكيمة المبصرة، وفيها الطموح والاستهانة بالقليل المبذول. وأنف قويم المارن يكاد يوصف بالضخامة لولا ملاءمته بقية مظاهر وجهه. وشارب أثيث الشعر، شمله الشيب، تحته فم أفوه، انفرجت شفته السفلى قليلاً كأنها كانت تحاول الابتسام فصدها الجد، ودهمتها صرامة الرجولة، فوقفت بين الإقدام والإحجام. ولحية كثة جثلة، سطع فيها صبح المشيب، فتركها فى نقاء صحف الأبرار، وبياض أيادى الكرام.

ذلكم هو على مبارك باشا الذى سنتحدث فى حياته الليلة، وقد أغنى ـ رحمه الله ـ الباحثين بعده عن تنسم أخبار حياته، وتلقفها مبدلة محرفة من أفواه أهل عصره، فكتب ترجمة حياته بقلمه إلى قبيل وفاته بخمس سنين. وقد بسط فيها القول فى أحوال صباه ونشأته الأولى، مما لم يظفر به التاريخ لغيره من عظماء الرجال. ولو أن كل عظيم سلك هذه السبيل لأسدى إلى الأدب والتاريخ إرثًا مجيدًا. وقد

(*) محاضرة ألقيت فى محطة الإذاعة ونشرت بصحيفة «دار العلوم» عدد يناير ١٩٣٥ م من ص ٢٧ إلى ص ٣٣.

كانت سنة بعض العلماء فى الأعصار الماضية أن يدونوا حياتهم بأنفسهم، كما فعل أسامة بن منقذ وجلال الدين السيوطى. ولكن هذه السنة المحمودة لم يتنفس بها العُمُر، ولم تبق عليها الأيام.

ولد المرحوم على مبارك باشا بقرية برنبال الجديدة بمديرية الدقهلية، سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية، من أسرة اشتهرت بحفظ القرآن الكريم، والتفقه فى الدين، فكانت فيها إمامة الصلاة والخطبة والقضاء بين الناس؛ لذلك كانت تسمى بأسرة المشايخ، وكان لها نصيب غير قليل من إجلال الحكام والمحكومين، ثم عصف الدهر بهذه الأسرة، واشتد بها العسر والضيق، فرحل أبو المترجم، الشيخ مبارك الروجى، بأسرته إلى الشرقية، ثم استقر فى جوار عرب السماعنة يفقههم فى دينهم، ويؤمهم فى صلواتهم. ولما بلغ المترجَم الخامسة أرسله أبوه إلى شيخ أعمى ليلقنه مبادئ القراءة، ثم بعث به إلى شيخ مقيم بالقرب من مساكن العرب. وكان أبوه يزوده ما يكفيه من طعام مدة أسبوع يقيمها فى كنف أستاذه الجديد. فكان يزور أهله يوم الجمعة، ولا يعود إلى شيخه فى ذلك اليوم - كما يقول - فارغ اليد خوف شره وأذاه.

بنفسى ذلك الطفلَ وقد حمل ما حمل من قليل المتاع، تاركا أمه وما يلقاه فى ظلها من رفق وحنان وعطف، هو كل ما يهفو إليه الطفل فى السادسة والسابعة، إلى شيخ حطم لا يتكلم إلا بلغة العصا، ولا يعرف من وسائل التهذيب غير الإرهاب والتعذيب. ولقد كان ذلك المعلم عنيفًا أشد العنف، مخيفًا أشد الإخافة، فما أقام علىّ منقمعا تحت حكمه سنتين، ختم فيهما القرآن الكريم وهو فى الثامنة أو التاسعة، حتى كره العلم والتعلّم، وعقد العزيمة صارمة على ألا يعود إليه. وأنتم ترون هذه العزيمة متجلية فى كلماته القليلة حين يقول: «ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب إليه بعد ذلك». وحينما أجبره أبوه على الذهاب نوى الهرب، فما زال به أهله حتى صارحهم بأنه لا يود أن يكون فقيها، ولكنه يريد أن يكون كاتبًا. فأسلمه أبوه إلى كاتب زراعة ليعلمه الخط والحساب؛ فقاسى علىّ عنده عنتا من شظف العيش والجوع والمهانة والخدمة، وقد حدث أن سأله الكاتب مرة ما جُذاء الواحد فى الواحد؛ أى ما حاصل ضربهما؟ فأجاب علىّ متلعثما خائفًا: اثنان. وكان بيد الكاتب مقلاة فضربه بها فشج رأسه؛ فذهب على يشكو إلى أبيه فلم ينصفه، ففرّ وهو فى نحو التاسعة من عمره تحت ستار الليل هائما تتقاذفه الهموم، وتطوّح به الأوجال؛ وقد أصيب فى طريقه بالهيضة المعوية (الكوليرا)، فعطف عليه رجل وآواه مدة مرضه، حتى إذا أبلّ وعثر عليه أهله بعد البحث عنه عاد إليهم. وبعد سنة عمل مساعدًا لكاتب بمأمورية أبى كبير، وكان راتبه خمسة وعشرين قرشا فى الشهر، فأقام عنده ثلاثة أشهر فى بؤس وضنك لا يأخذ من راتبه شيئًا، ولما أخذ حقه بيده من أموال حصّلها غضب الكاتب عليه، وأغرى به المأمور فألقى به فى السجن، ولم ينقذه منه إلا خادم عنبر افندى مأمور زراعة القطن بنواحى أبى كبير؛ فأقام كاتبا عند عنبر هذا براتب قدره خمسة وسبعون قرشا فى الشهر. وهو هنا يحدثنا عما كان يجول فى نفسه فيقول: «إن الكتابة والماهية كانت هى السبب

فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى، وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك، فلو فعل المأمور معى مثل ما فعل الكاتب فمن يخلصنى؟ وكانت همتى فى التخلص من كل ذلك وأمثاله، وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها».

وقد أخبره فراش المأمور أن سيده إنما نال تلك المنزلة لأنه تعلم بمدرسة قصر ابن العينى التى افتتحها عزيز مصر محمد على باشا، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس؛ فأيقظ ذلك فى نفسه آمالا نيامًا. فغادر عمله وهو فيه المحب المكرم وخلى ساقيه النحيلتين للريح حتى بلغ قرية منية العز فكانت - كما يقول - فألاً حسنًا. ودخل مكتبها، وقد حاول أبوه أن يخرجه منه ويعود به إلى تعلم الدين أو الاشتغال بالكتابة فأبى علىّ عليه وصمم؛ فاهتبل أبوه فرصة خروجه وقت الظهر واختطفه، وذهب به إلى بلدته وحبسه فى الدار عشرة أيام. وهو هنا يقول: «كل ذلك ووالدتى تبكى منى وعلى، وتستعطفنى فى الرجوع عما يوجب فراقهم. وتحلفنى أن أرجع عن هذه النية؛ فوعدتها بالرجوع عن ذلك إرضاء لخاطرها. فأطلقونى وكانت لنا غنيمات صرت أرعاها، وأبعدونى عن حرفة الكتابة».

ولو أن عليًّا سكن إلى هذه الحياة واستمرأ البطالة لتغير وجه التاريخ، ولكان على مصر أن تبحث عن على مبارك آخر يضع نظاما لثقافتها، ويرسم الطريق لنهوضها العلمى.

ولكن القدر أبى إلا أن يسمو بغلامنا الصغير، لأن عليًّا أبى أن يكتفى من الحياة برعى غنيمات عجاف؛ وكأنما كشف له فى ذلك الوقت أنه سيكون راعيا للعقول، مهذبا للنفوس، يتنقل بها فى مروج العلم. ويوردها نمير الحياة الصافى. فتسربل الليلَ وخرج من داره خائفًا يترقب حتى بلغ مكتب منية العز ثانية؛ وكان أنجب تلاميذه، فاختير مع طائفة من النجباء لمدرسة قصر ابن العينى فى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف، وكان عمره اثنتى عشرة سنة فأقام بهذه المدرسة سنتين لقى فيهما آلامًا وشدائد، ثم انتقل إلى مدرسة أبى زعبل، وبقى بها ثلاث سنوات. ثم اختير لمدرسة الهندسة ببولاق، فمكث بها خمس سنين كان فيها دائمًا أول فرقته. وفى سنة ستين ومائتين وألف عزم المغفور له محمد على باشا على إرسال أنجاله إلى فرنسا ليتعلموا بها، وصدر أمره بانتخاب فريق من نجباء الطلبة ليسافر معهم، وكان على مبارك من هذا الفريق، فسافر إلى فرنسا، وكان راتبه فى البعثة خمسين ومائتى قرش فى الشهر جعل نصفها لأهله. وقد درس فى فرنسا الهندسة العسكرية والمدنية. وكان مفتح العينين دقيق الملاحظة، فأفاد مصر بمشاهداته شيئًا كثيرًا. وفى سنة ست وستين ومائتين وألف عاد إلى مصر وعين مدرسًا بمدرسة طرا؛ وفى هذا الحين عزم على زيارة أهله، ونحن نتركه يقص عليكم نبأ هذه الزيارة إذ يقول:

«ذهبت إلى بلدتنا برنبال، وكان أهلى قد رجعوا إليها قبل ذلك بمدة، فوجدت أن أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى، ولم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض إخوتى، وكان دخولى عليهم ليلا، فطرقت الباب

فقيل: من أنت؟ فقلت: ابنكم على مبارك. وكانت مدة مفارقتى لأمى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ولم تسمع صوتى، فقامت مدهوشة إلى الباب وجعلت تنظر وتحد النظر، وكنت بقيافة العسكرية الفرنسية لابسًا سيفا وكسوة تشريف؛ وكررت السؤال حتى عرفت صوتى، ففتحت الباب وعانقتنى ووقعت مغشيًا عليها، ثم أفاقت وجعلت تبكى وتضحك وتزغرت، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران وامتلأ المنزل ناسا، وبقينا كذلك إلى الصباح والناس بين ذاهب وآيب».

وبعد هذه الزيارة اتصل بمعية المغفور له عباس باشا الأول، وقام بأعمال هندسية كثيرة. ووضع نظاما للمدارس الملكية تبلغ نفقاته ألف كيس. فاختاره عباس الأول ناظرًا للمدارس الملكية، فقام بأعباء العمل على خير الوجوه مشرفا ومعلما ومرشدًا ومؤلفًا وطابع كتب. وكأن ما أصابه فى نشأته الأولى من ويلات التعليم وسوء النظام وقسوة المعلمين كان حافزًا له على الإصلاح. ولما تولى المغفور له سعيد باشا عزله من نظارة المدارس، وأمره أن يرافق الجيش إلى تركيا لمحاربة الروسيا، فأقام هناك نحو سنتين، قاسى فيهما شدائد وأهوالا، وعند عودته إلى مصر فصل من الخدمة، فسكن بيتًا صغيرًا، وعاد إلى ما كان عليه أولا من الفقر والضيق، وذهب عنه ـ كما يقول ـ ما رأى من الأموال والمناصب. ثم عاد إلى العمل، وتنقل فى مناصب كان منها أن عين معلما للضباط يلقنهم مبادئ القراءة والكتابة، فكان يخط لهم الحروف أحيانًا على الأرض وأحيانًا بالفحم على البلاط، ثم فصل، وقد كثرت نفقاته فى ذلك الوقت وأبهظه الدين، فاشتغل بالتجارة. فكان يشترى بالمزاد ما تبيعه الحكومة من عقار وأدوات وكتب ويبيعه للتجار فربح وغنم. ولما تولى المغفور له إسماعيل باشا وصله بمعيته وعينه ناظرًا للقناطر الخيرية، ثم أضاف إليه إدارة السكك الحديدية، وإدارة المدارس، وإدارة ديوان الأشغال، ثم نظارة عموم الأوقاف. تلك خمسة مناصب كاملة قام فيها جميعًا بضروب شتى من الإصلاح وبخاصة التعليم. فقد وضع نظامًا لإصلاح المكاتب الأهلية فى المدن والقرى، وأوجد للمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كتبها، وأنشأ دار العلوم، وأسس بإشارة الخديوى إسماعيل باشا دار الكتب العامة، جمع فيها نوادر الكتب ونفائسها التى كانت مفرقة فى المساجد والخزائن الخاصة، وخصص بها معرضًا لآلات العلوم الطبيعية والهندسية، وضبط الأوقاف فى أنحاء القطر، وبذل جهدًا مشكورًا فى إحيائها وصيانتها، واستصدر أمرًا خديويًا بتنظيم الشوارع ورصفها، وتحلية المدينة بالمتنزهات والميادين. وأنشئت فى أيامه ترعتا الإبراهيمية والإسماعيلية.

ومازال يتنقل فى المناصب، ويفصل عنها، حتى قلد نظارة المعارف، سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية، واستمر عاملا بها ثلاث سنوات. وفى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وافته المنية. فكان الحزن عليه عاما شاملا.

والوقت لا يتسع لدراسة أخلاقه الكريمة بإسهاب وتفصيل، ولكنا نستنبط، موجزين، أنه كان بعيد الآمال، قوى الإرادة، شديد الثقة بنفسه ومواهبه، راسخ الإيمان بالله، رضى النفس مطمئنها،

وثابا إلى الإصلاح ، لا تفتر همته ولا تنى عزيمته ، قوى الملاحظة واسع الفكر ، خصيب الإنتاج مشغوفًا بالتجديد ، وكان شعاره الدقة وحسن النظام ، مجدًا مشمرًا فهو حركة دائمة ، وقوة دائبة ، وكان بصيرًا بأقدار الرجال ، بارًا بأهله ، شفيقًا بالضعفاء والفقراء . وكانت داره ندوة علم وأدب للمعلمين والطلاب ، يطارحهم العلم ، ويوضح لهم السبيل .

ومن أشهر مؤلفاته الخطط التوفيقية ، وعلم الدين ، وآثار الإسلام فى المدنية والعمران ، ثم كثيرٌ من الكتب المدرسية والهندسية .

رحمه الله رحمة واسعة .

الشاعر أبو الطيب (*)

طلب إلى أن أكتب فى إحدى نواحى أبى الطيب المتنبى، وأعلم أن الناس فى القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا، وأن شعره نال من عناية الأدباء وبحثهم وجدلهم ما لم ينله شعر قبله ولا بعده وأن كتبًا ضخاما ألفت فى كل ناحية من نواحى الرجل والشاعر، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معادًا، وأن كل نظرة فيه تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون، ولكن المتنبى الضخم يعز على من رامه ويطول، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبًا، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديدًا، وهو البحر الخضم تقف عند ساحله فيبهرك ما ترى من عظم، ويفتنك ما تشاهد من ألوان، ثم أنت لا تزال ترسل النظرة فى أثر النظرة فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد، وفن فى الحسن بديع، ولأمر ما كان المتنبى يقول فى ثقة ويقين:

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

فكيفما كتب الكاتبون فى المتنبى لا تزال فيه مجالات للقول، ولا يزال يطل عليك من مشارف أبياته معنى سرى فى ثوب من البيان قشيب يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا، والمتنبى وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد يطغى على الزمن قوة، ويزهو على الأيام جدة وما نزال نقرؤه سنة أربع وخمسين وثلثمائة بعد الألف فنهتز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، ولا يزال يهمس فى الأذن بالحكمة النادرة والقولة الحكيمة وقد مشت فوق رءوس الحقب، وخاضت إلينا مفاوز القرون، وكانت لدة الدهر فى شبيبته، ثم جاءت إلينا من ذلك المكان البعيد الذى نسميه الماضى وقد زادها القدم جدة، وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما العمر

(*) نشرت بمجلة «الهلال» بالمجلد رقم ٤٣ ص ١١٤٤ عام ١٩٣٥ م.

ولا تحسبن المجـــد زقّـــا وقينـــــة فما المجـد إلا السيف والفتكة البكـر
وتـــركك فى الـــدنيـــا دويًّـــا كأنما تـــداول سمع المرء أنملـــه العشر

نقرأ المتنبى فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريـرة مطوى أخبارها، وكثيرًا ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها، ونسمع فى النفس دبيبها ولكنا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها، وهى منـا على طرف الثمام، ومن أخبر بهمسات النفـوس من أبى الطيب ؟ ومن هو أقـدر منه على كشف جولات الخواطر:

بـرتنى السرى بـرى المدى فـرددننى أخف على المركوب من نفسى جرمى
وأبصر من زرقـــاء جــــو لأننى متى نظـرت عيناى سـاواهما علمى

ألف سنـة تمر تطـوى فيها أمم وتنشر أمـم، ويتنقل فيها العقـل الإنسانى فى أطـوار شتى يمحـو بعضها بعضا، وتتبـدل العادات غير العادات والأفكار غير الأفكار، والمتنبى لا يـزال يقرأ ويقرأ ويجد فيه كل عصر طلبته من غذاء روحى تطمئن به النفس وترتاح إليه الضمائر.

مضى سيف الدولـة ومضت آثاره، وذهب كافـور وانطوت أيامه. وأين على الحاجب هـذا الذى أجاز المتنبى على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد ؟ ذهب هؤلاء جميعًا وبقى ذكر المتنبى كالصخرة العبوس ينفرج أمامها زحام الأيام، وتنكص دونها صروف السنين:

وعنـدى لـك الشـــرد الســـائرا ت لا يختصصـــن مـــن الأرض دارا
قـــواف إذا ســـرن عن مقـــولى وثبن الجبـــال وخضن البحـــارا
ولى فيـك مـــا لم يقـل قـــائل ومـــا لم يَسِرْ قمـــرٌ حيث ســـارا

فالمتنبى عظيم وأريد فى هذا المقال أن أكشف عن قليل من سر هذه العظمة، وأن أبين بقدر ما فى قلمى شيئًا من ضخامة هذا الشاعر وقوته التى عصفت بشعراء عصره، وحجبتهم بغبارها، وما كانوا خاملين ولا كانوا مقصرين، وفيهم السرى الرفاء وكشـاجم والنامى والدمشقى والسعدى وأمثالهم من كبار الشعراء ! ولكنه السهم الغائر، والجد العاثر، أن تعيش فى عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخبًا وجلبًا، وينثر درر بدائعه يمينًا وشمالاً فيصغى إليـه الدهر وتشخص له الأبصار وتبقى أنت مغمورًا فى الزحـام لا تعدم وكزة من مغـامر أو ركلة من مـزاحم فى ذلك الخضم الزاخـر الرجاف، والـدنيا أم إذا برزت مواهب أحـد أبنائها انصرفت إليه بتدليلها، وطـوقته بحنانها نابذة أبناءهـا الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجد العثور.

وكان المتنبى شـاعرًا بتلك العظمـة وذلك النبوغ النـادر فتحدى شعـراء عصره فى صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل:

إذا شـــاء أن يلهـــو بلحيـــة أحمق أراه غبـــارى ثم قـــال لـــه الحق
ولا تبـــال بشعـــر بعـــد شـــاعـــره قـد أفسد القـول حتى أحمد الصمم

وأظهر ما يمتاز بـه شعر أبى الطيب القوة والروعة والابتكار والنزوع إلى غـاية لم يصل إليها الشعراء من قبل، والقدرة على إرسال المثل، ودقة الوصف والتصرف فى المعنى القديم حتى يعود غضًّا جديدًا. وقد تجد لكل شاعر فى كل قصيدة قالها بيتًا أو أبياتًا قليلة تعد من عيون الشعر وبدائعه، أما المتنبى فلا تجد له فى كل قصيدة إلا بيتًا أو أبيـاتًا قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد، والباقى الكثير من القصيدة غرر ودرر، فهو إذا مدح يقول:

نهبت من الأعمار مـا لـو حـويته ... لهنئت الدنيـا بأنـك خـالد

فالنـاس يمدحـون الملوك بالشجـاعة والإقدام وكثـرة الغزوات وأن النصر معقـود بلوائهم، ولكن المتنبى يترك كل هـذا ليتناولـه صغـار الفنانين ويصعـد فى المدح بهذه المعـانى إلى أفق أعلى تظهر فيـه خصائصه وتتميز مـواهبه فيجعل قتل الأعداء نهبًا لأعمارهم واغتصابًا لها، ثم يدفعـه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة اتصل بعضهـا ببعض فكونت عمرًا طويـلا غير محدود ثم يرتقى إلى أوج أسمى فيفرض أن سيف الدولة وهب هذه الأعمار غير المتنـاهية التى انتزعها من أعدائه ولا يكتفى بأن هذا - إن تم - يصل به إلى الخلود بل يدعى أن الـدنيا بمن فيها وما فيها تهنأ بهذا الخلود. ثم ما أجل تصوير النصر المحقق فى قوله بعد هذا البيت:

فأنت حسـام الملك والله ضـارب ... وأنـت لـواء الـدين والله عـاقـد

ثم انظر إليه حين يقول فى سيف الدولة:

أتحسب بيض الهنـد أصلك أصلهـا ... وأنـك منهـا سـاء ماتتـوهم
إذا نحن سمينـاك خلنـا سيوفنـا ... مـن التيـه فى أغـمـادها تتبسم

وقد اتخذ المتنبى من اسم سيف الـدولة سبلا شتى لـلافتنان فى مديحه والمماثلة بينـه وبين السيوف فأجاد فى كثير من ذلك وحلق، ومثل هـذه الفرص تعرض لكثير من الشعراء، ومجال القـول فيها هين إذا لم يتجاوز الشاعر اللعب بـاللفظ على نحو رخيص من التخيل، أما المتنبى فليس من هذا الصنف ولا من ذلك الطـابع. استمع لـه وهو يتهكـم بسيوف الهنـد حين تظن كـذبًا وغرورًا وتلمسًـا لشرف الاتصال بسيف الدولة أنها هى وسيف الدولة من أصل واحد فكلاهما قاطع بتار، وكأنى أسمع تهاتفه فى سخرية واستهزاء حين يقول: «سـاء ما تتوهم» وهنا موطن قوته وصرامته الشعـرية، فأكثر ما تظهر فى هذه الجمل القصيرة المفصولة التى لها وقع السهام، ثم يصعد إلى أفق لا تسافر إليه الظنون فيقول إن هذه السيوف تكتفى مـن الشرف بأن اسمك وافق اسمها فإذا سميناك خلناهـا تبتسم فى أغمادها تيهًا وعجبًا.

ثم خذ مثالا آخر فى مدح كافور:

إذا طلبـوا جـدواك أعطـوا وحكمـوا ... وإن طلبوا الفضل الذى فيك خيبوا
ولـو جـاز أن يحووا عـلاك وهبتهـا ... ولكن من الأشيـاء مـا ليس يـوهب

أيستطيع شاعر أن يصور الصفح والتجاوز وعظم النفس هـذا التصوير؟ إن حسادك وأعداءك إذا سألوك العطاء أعطيت وأغدقت وسألتهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا ما فيك من كريم الشيم وعالى الهمم ردوا خـائبين لا ضنا منك ولا بخلا، فلو كان فى استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت «ولكن من الأشياء ما ليس يوهب».

وفى هذه الجملة القصيرة أيضًا تظهر قوة الشاعر وشدة أسره.

ومن أبدع ما قاله فى المديح:

مـــالنَّــا من نـــوالـــه الشرق والغـــر ... ب ومن خــوفـه قلــوب الـرجـــال
قـــابضًـــا كفـــه اليمين على الـدنـــ ... ـــيا ولـــو شـاء حـــازها بـــالشمال

ننتقل بكِ إلى الوصف ولنبدأ بهذه الأبيات:

وذى لجب لا ذو الجنـــاح أمـــامـــه ... بنـــاج ولا الـــوحش المثـــار بســـالم
تمر عليـــه الشمس وهى ضعيفـــة ... تطـــالعـه من بين ريش القشـــاعم
إذا ضـوؤهـا لاقى من الطير فـرجـة ... تَـدَوَّر فـوق البيض مثل الـدراهـم
ويخفى عليك الـرعـد والبرق فـوقـه ... من اللمع فى حـــافـــاتـــه والهماهـم

برع المتنبى فى وصف الجيوش والوقائع، ما فى ذلك شك، فقد كان يحمل بين جنبيه نفسًا نَزَّاعة إلى القتال تدفعهـا الآمال الكبار، وكانت وقائع سيف الـدولة مع الروم حافـزة لهذه النفس مؤججة لتلك الجذوة، ولو حاولنا أن نختار له خير ما قاله فى هـذه الناحية لطال المقال، ولكنا نكتفى بالأبيات التى قدمنا ففيها قـوة وفيها جمال شعرى وفيها وصف دقيق. ما أروع أسلوبـه فى البيت الأول! وما أجمل ما فيه من تقسيم وتنسيق، فالجيش كثير العدد كثير اللجب تتهاوى قذائفه، أثار الوحوش من مكامنها والطيور من أوكارها، فلا ذو الجناح بناج من سهامـه المترامية ولا الوحوش بسالمة من عديده الخضم، ثار فيه الغبار فسد الأفق وعـلا فى السماء فكسف الشمس، فهى تمر عليه ضعيفة ضئيلة الضوء، فإذا أطلت عليه فإنها تطل من بين ريش النســور التى حلقت فوقه لـوثوقها بنصره وشـدة طمعها فى جثث أعدائه، وقد شرح هذا المعنى فى قصيدة أخرى وجلاه فقال:

يطمـــع الطير فيهم طـــول أكلهـم ... حتى تكـاد عـلى أحيـــائهم تقـع

وهـذه الشمس إذا وفقت إلى فـرجـة بين أجنحـة النسور سقطت أضـواؤهـا على الخوذات مـدورة كالدراهم، وهذا تشبيه يدل على دقة الملاحظة وأن المشاهدة الدقيقة لمظاهر الأشياء كان لها أثر بعيد فى تكوين المتنبى، وقد أعاد هذا المعنى فى قصيدة شعب بوان فقال:

وألقى الشرق منهـــا فى ثيـــابى ... دنـــانيرًا تـفـــر مـــن البنـــان

ثم إن هذا الجيش كثرت فيه همهمة الأبطال، وهى الصوت يتردد فى الصدر فإذا رعدت السماء لم تسمع، وازداد فيه بريق السيوف فإذا لمع البرق لم يبصر، وإذا كانت الهمهمة وهى الصوت الخافت تخفى الرعد فأجدر بأن يكون الجيش بالغًا الغاية فى العظم.

وللمتنبى منحى فى الرثاء عجيب، فهو لا يلطم الخدود، ولا يشق الجيوب كما يفعل صغار الشعراء، ولكنه يطلق العنان لفلسفته فى الموت والحياة فهو يقول فى رثاء أخت سيف الدولة الصغرى:

خطبـــة للحمام ليس لها رد ... ولكنهـــا المسماة ثكـــلا
وإذا لم تجد من النـــاس كفئًـــا ... ذات خـدر أرادت الموت بعـــلا
ولـذيـذ الحيـاة أنفس فى النفــ ... ـس وأشهـى مـن أن يمـل وأحلى
وإذا الشيخ قـــال أف فما مَلَّ ... حيـــاة وإنما الضعف مـــلا
آلـة العـيش صحـــة وشـبـاب ... فـإذا وليـا عـن المـرء ولـى

وقد سلك فى رثاء الأخت الكبرى طريقًا جديدًا هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء:

طـوى الجزيـرة حتى جـاءنى خبر ... فزعـت فيه بآمـالى إلى الكـذب
حتى إذا لم يـدع لى صـدقـه أمـلا ... شرقت بـالدمع حتى كـاد يشرق بى
كأن فعـلة لـم تمــلأ مواكبهـا ... ديـار بكـر ولـم تمنـح ولم تهـب

والبيت الأول تصوير غريب لحال من فوجىء بخبر محزن، فهو يتشبث بالأوهام، ويفزع لتكذيبه إلى أوهى الأسباب.

ومن خير مراثيه وأقواها مرثيته فى جدته، ولكنه شغل أكثرها كعادته بالحديث عن نفسه.

وللمتنبى فى الهجاء القول الممض والكلام المر. ولم يكن كثير الهجاء ولكن بيتًـا واحدًا من هجائه يقوم مقام القصيدة الطويلة فى الإيلام وشدة الإيجاع وإصابة المحز، فهو يقول لابن كروس جليس ابن عمار:

فلـو كنت امـرءًا تهجـى هجـونـا ... ولكن ضـاق فتر عـن مسـير

هذا منتهى مـا يصل إليه الاحتقار فهو ليس بـرجل يؤبه لـه لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء، فهو كالفتر أقل من أن ينفسح لمسير.

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم:

إنى نـزلت بكـذابين ضيفهـم ... عن القـرى وعـن الترحـال محدود
جـود الرجـال من الأيدى وجـودهم ... من اللسـان فـلا كـانـوا ولا الجود

ولو أن إنسانًا حاول أن يهجو ألأم مخلوق ما استطاع أن يقول فيه أنكى من هذا وأقذع.

وإذا شكا الـزمان ونقـد الاجتماع أو تعرض لأخـلاق الناس، فهنـاك الانهار فى الحكمـة وضرب الأمثال وفلسفة الحياة. ولا نـريد هنـا أن نكثـر من التمثيل فحكم أبى الطيب كثيرة جـدًا وقد تنـاولها الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد، وأكثر قصائده حكمًا: «لا افتخار إلا لمن لا يضام»، «فؤاد ما تسليه المدام»، «لهوى النفوس سريرة لا تعلم»، «صحب الناس قبلنا ذا الزمانا».

وأوابد أبى الطيب التى بـز بها الشعراء ووصل بها إلى قمة الفن الشعـرى أكثر من أن تجمع فى مثل هذا المقال. وتكفينا هنا هذه الكلمات الموجزة فى إذاعة شىء من سر عبقريته.

مصطلحات الشئون العامة (*)

الإراض

اللسان: «والإراض البِساط لأنه يلى الأرض، الأصمعى: الإراض بِساط ضخم من وَبَر أو صوف، وأرَض الرجلُ أقام على الإراض».

ويفهم منه أن الإراض قد يطلق إطلاقًا عامًّا على البِساط كيفما كان صغيرًا أو كبيرًا، وقد يخصَّص بالبِساط الكبير.

وقد رأى المجمع تخصيصه بذلك ليدلّ على الأبسطة العظيمة الرقعة التى تفرش بها الأبهاء والحجر الكبيرة.

البِساط

اللسان: «والبِساط ما بُسِط».

التاج: «والبِساط بالكسر ما بُسِط، وفى الصحاح ما يُبْسَط، وفى البصائر اسم لكل مبسوط، وأنشد الصاغانى للمتنخِّل الهذلىّ يصف حاله مع أضيافه»:

سأبدؤهم بِمَشْمَعَةٍ وأَثْنِى بجهدى من طعامٍ أو بساط

والمَشْمَعَة: المزاح والضحك، وأُثنى أى أُتْبع. جمعه بُسُط ككتاب وكُتُب.

وإذا كان المعنى اللغوىّ للبساط كل ما يبسط أيا كان نوعه فقد خَصَّه العرف بنسيج خاصّ من الصوف ينسج بخيوط الخيش أو نحوها، وهذا هو المعنى الذى أراده المجمع.

(*) نشر هذا البحث بمجلة مجمع اللغة العربية الجزء ٣ ص ١٨٠ عام ١٩٣٦ م.

النّفــاطــة

اللسان: «التهذيب : والنفاطات ضرب من السُّرُج يُسْتَصبح بها» .

فهى إذًا مصباح يُمَدُّ بالنفط ، وقد أراد المجمع أن تستعمل هذه الكلمة فى هذا «المعنى لأنها صريحة فيه ولأنها تحل مكان كلمة «لمبة الجاز» فى كلام العامة .

التحــذيف

اللسان : «حذف الشىء يحذفه حذفًا قطعه من طرفه والحجام يَحْذِف الشعر من ذلك . . .

الأزهرى : تحذيف الشعر تَطْرِيره وتَسْوِيته ، وإذا أخذت من نواحيه ما تُسَوِّيه به فقد حذفته وقال امرؤ القيس :

لها جَبْهَةٌ كَسَراةِ المِجَنِّ (م) حَذَّفَه الصانعُ المُقْتَدِر

وقال النضر: التحذيف فى الطُرَّة أن تجعل سُكَيْنِيَّة كما تفعل النصارى» .

ويؤخذ من هذا النّص أنّ تحذيف الشعر تَطْرِيره وتَسْوِيته وقصّ أطرافه ، ويُفْهَم منه أن هذا خاصّ بالمرأة .

وقد اختار المجمع هذه الكلمة لتُستعمل خاصّة فى تصفيف شعر المرأة وقصّ أطرافه .

الرمــث

اللسان : «والـرَّمَث بفتح الراء والميم خشب يُشَدّ بعضُه إلى بعض كالطَّوْف ثم يركب عليه فى البحر، قال أبو صخر الهذلى :

تَمَنَّيْتُ من حُبِّى عُلَيَّةَ أننا على رَمَثٍ فى الشَّرْمِ ليس لنا وَفْر

وفى الحديث أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنا نركب أرماثًا لنا فى البحر. . . .

قال الأصمعى الأرماث جمع رَمَث بفتح الميم والراء خشب يُضَمُّ بعضُه إلى بعض ويُشَدُّ ثم يُرْكَب فى البحر، والرَّمَث الطَّوْف وهو هذا الخشب ، فَعَل بمعنى مَفْعول من رَمَثْت الشىء إذا لَمَمْته وأصلحته» .

وقد أطلق المجمع هذه الكلمة على ما يُعْرَف «بالرومس» وعلى ما يُسَمَّى «بالصَّنْدَل» وعلى كل ما يشبهها مما يجرى فى الماء أو يُجَرّ فيه .

المـــزفـــة

اللسان : « . . . والمِزَفَّة المِحَفَّة وقيل المِحَفَّة التى تُزَفّ فيها العَرُوس» .

وقد أقرّ المجمع صِحَّة استعمالها لعَرَبَة العَرُوس من أىّ نوع كانت .

الملقــة، المسـلفـة، الزحّـافـة

(١) اللسان: « . . . والمالَق الخشبة العريضة التى تُشَدّ بالحِبال إلى الثورين فيقوم عليها الرجل ويجرّها الثوران فَيُعَفّى آثارَ اللُّؤمَة والسِنّ ، وقد مَلَّقُوا أرضَهم يُمَلِّقونها تمليقا إذا فعلوا ذلك بها ، قال الأزهرىّ مَلَّقوا ومَلَّسوا واحد ، وهى تُمَلِّس الأرضَ فكأنه جعل المالَق عربيا ، وقيل المالَق الذى يَقْبِض عليه الحارث ، وقال أبو حنيفة المِمْلَقة خشبة عريضة يجرّها الثيران» .

اللؤمة والسِنّ يُقْصَد بهما سِكَّة المِحراث وحديدته .

(٢) وسَلَفَ الأرض يَسْلُفها سَلْفًا وأَسْلَفها حَوَّلها للزرع وسَوّاها ، والمِسْلَفَة ما سَوَّاها به من حجارة ونحوها .

(٣) «زَحَف يَزْحَف زَحْفًا وزُحُوفا وزَحَفانا مَشَى . . . وأصل الزَحْف للصبىّ وهو أن يَزْحَف قبل أن يقوم» .

والزَّحَّافة فَعَّالَة للمبالغة من الزَحْف لكثرة ما تَزْحَف .

والأصل فى الزَّحْف أن يكون من الأَحْياء ، وقد يطلق مجازا على غير الحَىّ كما هنا ، فقد شاع اسم الزَّحّافَة بمصر على المِسْلَفَة ، وهو استعمال يراه المجمع صحيحا لا يُخالف مقاييس اللغة .

لهذا رأى المجمع أن تُطْلَق الكلماتُ الثلاث : المِمْلَقَة ، والمِسْلَفَة ، والزَّحّافَة على تلك الآلة التى يُسَوِّى بها الزارع أرضَه بعد حرثها .

المِــردس، والمــرداس

اللسان : «رَدَسَ الشىءَ يَرْدُسُه ويَرْدِسُه رَدْسًا دَكّه بشىء صُلْب ، والمِرْداس ما رُدِسَ به . . . والرَدْس دَكُّكَ أرضًا أو حائطا أو مَدَرا بشىء صُلْب عريض يسمى مِرْدَسا» .

ويفهم من هذا النصّ أن المِرْداس والمِرْدَس اسما آلة على مِفْعال ومِفْعل من الرَّدْس وهو الدَّكّ ، وقد رأى المجمع إطلاق هاتين الكلمتين على الآلة البخارية التى تُدَكّ بها الحجارة وهى المسماة فى عُرف العامة بـ«وابور الزلط» .

الميطــدة

اللسان : وَطَدَ الأرضَ رَدَمَهـا لِتَصْلُب . والمِيطَدَة خَشَبـة يُوَطَّـد بها المكان من أسـاس بناء أو غيره لِيَصْلُب . وقـد أطلقها المجمع على كـل آلة يـوطـد بها أساس بنـاء سـواء أحركت بـاليـد أم بالبخـار (مندالة) .

المنـــوار

ابتعمل بعض قدماء اللغويين هذه الكلمة فى القنـاديل تسرج أمام أبواب الملوك ، ولم نعثر عليها فى المعجمات التى بين أيـدينا ، وكل مـا يمكن أن يقال فى تخريجهـا أنها مِفْعال للمبـالغة من نـار يَنُور بمعنى أضاء ، وكثيرا ما تأتى صيغ المبالغة من اللازم ، وقـد يقال إنها مِفعال للآلة لأنها أداة النور، ولا تتصف الآلة بالعلاج دائما كالمحبرة والميثرة .

وقـد أطلق المجمع هذه الكلمـة على المصابيـح الكبيرة التى تضاء بها الميـادين والشوارع العظيمـة والتى تعرف «بالجلوبات» .

المِعـــرض

اللسان : «والمِعْرَض الثوب تُعْرَض فيه الجارية وتُجْلَى فيه» .

المصباح : «والمِعْرَض وِزان مِقْوَد ثوب تُجْلَى فيه الجوارِى ليلة العُرْس وهو أفخر الملابس عندهم أو من أفخرها» .

التاج : (و) المِعرض (كِمنبر) ثوب تجلى فيه الجارية وتُعْرَض على المشترى .

ومقتضى نصّ صاحب اللسان والمصباح تخصيص المِعْرَض بثـوب العَرُوس تُجْلَى فيه ليلة العُرْس ، والمراد بالجارية فى عبارتها وفى عبارة صاحب القامـوس الفَتِيَّة من النساء لا الأَمَة ، ويظهر أن صاحب التـاج صرف لفظ الجاريـة فى عبارة المتن إلى الأَمَـة فَعَقَّبَ عليهـا بقـوله وتُعْـرَض على المشترِى ، وهـو تخصيص غير صحيح بعد أن تضافرت النصوص على التعبير بالجلاء وهو عَرْض العَرُوس على الزوج ، وخلاصة القول أن المعجمات تفيد تخصيص المِعْرَض بثوب الجلاء ، ويرى المجمع أن يخرج به عن هذه الدائرة الضَيِّقة ، وأن يُطْلِقه على الثوب الذى تلبسه المرأة فى زينتها وهو أفخر أثوابها . أو من أفخرها .

واشتقاق اللفظ يعين على هذا التوسع ، لأنّ المِعْرَض من أسماء الآلة ، فهو يدلّ على ما يكون وسيلة وأداة لعَرْض زينة المرأة فى خير أحـوالها ، على أن إطـلاق الخاصّ من بعض قيـوده كثير شائع فى لغـة العرب .

النطـاق والمنـطق

اللسان: «والمِنْطَق والمِنْطَقَة والنِّطاق كلّ ما شدّ به وسطه(1)».

غيره: والمِنْطَقَة معروفة اسم لها خاصّة، تقول منـه نَطَّقْت الرجل تنطِيقا فتَنَطَّق أى شدَّها فى وسطه، ومنه قولهم جَبَل أَشَمّ مُنَطَّق لأنّ السحاب لا يبلغ أعلاه . . . . . وقد انتطق بالنِّطاق والمِنْطَقَة وتَنَطَّق وتَمَنْطَق، الأخيرة عن اللحيانى.

والنِّطاق شِبـه إِزار فيه تِكَّـة كانت المرأة تَنْتَطِق بـه، وفى حديث أم إسماعيل: أوّل مـا اتخذ النِّساء المِنْطَق من قِبَل أم إسماعيل اتّخذت مِنْطَقًا هو النِّطاق وجمعـه مَناطِق، وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشدّ وسطها بشىء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها.

وفى المحكم: النِّطَاق شُقَّة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشدّ وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة، فالأسفل ينجرُّ على الأرض وليس لها حُجْزَة(2) ولا نَيْفَق(3) ولا ساقان والجمع نُطُق».

المصباح: «والنِّطاق جمعه نُطُق مثل كتاب وكُتُب، وهـو مثل إِزار فيه تِكَّة تلبسه المرأة، وقيل هو حبل تشدّ به وسطها للمِهْنَة وعليه بيت الحماسة:

«كُرْهًا وحَبْلُ نِطاقِها لم يُحْلَل».

والمِنْطَق بالكسر مـا شددت بـه وسطك، فعلى هذا النِّطاق والمِنْطَق واحـد، وقيل لأسماء بنت أبى بكر ذات النِّطـاقين، قيل لأنها كانت تُطارِق نِطاقـا على نِطاق، وقيل كان لها نِطاقـان تلبس أحدهما وتحمل فى الآخـر الـزاد للنبى صلى الله عليـه وسلـم حين كـان فى الغـار، قـال الأزهـرى وهـذا أصح القولين».

الأساس: «وانتطق بِنِطاق ومِنْطَق وهو إِزار له حُجْزَة، قال ذو الرُّمَّة:

حَبَرْبَجَـةٌ خَـوْدٌ كأنّ نِطـاقَهـا ... على رَمْلَـةٍ بين المقيَّـد والخَصْر»

تـدور هذه المشتقـات جميعـا وهى المِنطَق والنِّطاق والمِنْطَقة حـول أصل واحد هـو الناطقـة وهى الخاصرة.

ويظهر أن المِنْطَقة الحِزام بلا خلاف، ففى عبارة القاموس:

«وكِمكْنَسَـة: ما يُنْتَطَق بـه، وكِمنبر وكِتاب: شُقَّـة تلبسها المرأة وتشـدّ وسطها إلخ» ففَـرَّق بين

---

(1) لعلها الوسط.

(2) الحجزة معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة «القاموس».

(3) نيفق السراويل الموضع المتسع منه «القاموس».

تفسير المِنْطَقة والمِنْطَق والنِّطاق ويقول صاحب المصباح فى شرح المِنطقة: «والمِنْطَقة اسم لما يسميه الناس الحياصة».

أما المِنْطَق والنِّطاق فاختلف اللغويُّون فى معناهما: فهما فى بعض الأقوال الحبل يشدّ به الوسط، وهما فى قول آخر إزار أو شبه إزار فيه تِكَّة تلبسه المرأة، وأن أسماء بنت أبى بكر إنما سميت ذات النِّطاقين لأنها كان لها نِطاقان تلبس أحدهما وتجعل فى الآخر الزاد، ويقول الأزهرى إن هذا أصح القولين فى تعليل التسمية.

بقى أن صاحب المحكم يصف النِّطاق بأنه لا حُجْزَة له ويراه ثوبا عاديا يُشدُّ حبل فى وسطه. أما صاحب الأساس فيشترط أن يكون به حجزة، ويفسره غيره من اللغويين بأنه إزار أو شبه إزار فيه تكة.

والمجمع أخذ برأى من يرى أن النِّطاق والمِنْطَق ثوب وأن له حُجْزَة، ثم إنه مع ما يرى من الترادف بينهما اختار أن يخصِّص النطاق بالثوب الظاهرىّ، يشدّ بوسَط المرأة ويرسل إلى قرب القدمين، وهو ما يسمى بالإنجليزية Skirt وبالعامية «الجنلة الخارجية»، وأن يخصِّص المِنْطَق بالثوب الداخلى تشدّه المرأة إلى وسطها ويسمَّى بالإنجليزية Petticoat.

الميـدعـة

القاموس: «الميدَع والمِيدَعَة والمِيداع بالكسر الثوب المبتذل ج مَوَادِع».

اللسان: «والميدَع كل ثوب جعلته مِيدَعًا لثوب جديد تودِّعه أى تصونه به......

قال الأزهرى: والتوديع أن تودِّع ثوبا فى صِوان لا يصل إليه غبار ولا ريح ووَدَّعت الثوب بالثوب فأنا أدعه مخفف.

وقال أبو زيد: الميدَع كل ثوب جعلته مِيدَعا لثوب جديد تودّعه به أى تصونه به.

وقال الأصمعى: الميدَع الثوب الذى تبتذله وتودّع به ثياب الحقوق ليوم الحَفْل وإنما يُتَّخذ المِيدَع ليودَّع به المَصُون».

أقول: وأصل ذلك كله من الدَّعَة وما اتَّصل بها من التوديع والإيداع وهما بمعنى الصِيانة.

والمِيدَع والمِيدَعة على مِفْعَل ومِفْعَلَة قلبت فيهما الواو ياء لسكونها بعد كسر، وهى من أوزان الآلات، فالمِيدَعة وَسِيلة الصِيانة، وفَسَّر اللغويون هذه الوسيلة على وجهين: فمنهم من فَسَّرها بالثوب يبتذل فى الخدمة أو نحوها لصيانة ثوب آخر يحفظ فى صِوان ونحوه لأيام الحَفْل (انظر رأى الأصمعى)، ومنهم من فَسَّرها بالصُّوان أو نحوه تُحفظ فيه الملابس وتودَّع (انظر رأى الأزهرى).

ويمكن أن يفهم من عبارة أبى زيد السابقة وجه ثالث، وهو أن تكون الوسيلة لحفظ الثوب أن يُلْبَس فوقه ثوبٌ يُعْرَض للابتذال ليودّع ويصان به ثوب آخر تحته.

على هذا يمكن أن يراد بالميدعة ما تلبسه الفتاة أو المرأة فى أوقات عملها لصيانة ما تحته من الثياب.

البِـذلـة

القاموس: «. . . . . وكمكنسة (مِبْذَلَة) ما لا يصان من الثياب كالبِذْلَة بالكسر».

وقد أطلقها المجمع على الثوب يلبسه العامل أو نحوه وقت العمل.

النشـير

التاج: «. . . وفى الحديث: إذا دخل أحدكم الحَمَّام فعليه بالنِّشِير ولا يخصف (النِّشِير) كأمِير: (المِئزر) سُمِّى به لأنه يُنْشَر لِيُؤْتَزَر به».

التاج: «(الفُوَط كَصُرَدٍ) أهمله الجوهرى، وقال الليث: (ثياب تجلب من السِّند) وهى غلاظ قِصار تكون مآزِر (أو) هى (مآزِر مخططة) يشتريها الحمالون والأعراب والخدم وسفل الناس بالكوفة، فَيَتَّزِرون بها (الواحدة فُوطة بالضم) قاله الأزهرى: قال: ولم أسمعها فى شىء من كلام العرب، ولا أدرى أعربية هى أم هى من كلام العجم.

قال ابن دريد: فأما الفوط التى تلبس فليست بعربية (أو هى لغة سِندية) معربة بوته بضمة غير مشبعة، قاله الصاغانى.

اللسان: «الفُوطَة ثوبٌ غليظ يكون مِئزَرا يُجْلَب من السِنْد، وقيل الفوطة ثوب من صوف فلم يحل بأكثر وجمعها الفوط.

قال أبو منصور: لم أسمع فى شىء من كلام العرب الفوط، قال ورأيت بالكوفة أُزُرًا مخططة يشتريها الحمالون والخدم فيتَّزِرون بها الواحدة فوطة، قال: فلا أدرى أعربى أم لا.

المئـزر

اللسان: «. . . والإِزْر والمِئزَر والـمِئْزَرَة الإزار الأخيرة عن اللحيانى. . .».

التاج: (والإزار) بالكسر معروف وهو (الملحفة) وفسّره بعض أهل الغريب بما يستر أسفل البدن، والرداء ما يستر أعلاه، وكلاهما غير مَخِيط.

وتفسير اللغـويين لا يفـرِّق بين النَّشِير والمِئْــزَر، ولكن المجمع رأى أن مـادة النشير تسـاعـد على إطلاقه على مـا يُغَطِّى الجسم كلّه لأنه من النشر وهو البسط والامتـداد، فأطلقه على الثوب من نسيج المآزر له كُمَّــان وبه غطـاء للرأس يلبس بعـد الاستحمام، ويلبسه المصطـافون فوق الإتـب قبل نزول البحر وبعده.

الكمــة، (الطـاقيـة)

اللسان: «والكُمَّة القَلَنْسُوَة.

الصحاح : الكُمَّة القَلَنْسُوَة المُدَوَّرَة لأنها تُغَطِّى الرأس.

ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه رأى جارية متكمكمة، فسأل عنها فقالوا أَمَة آل فلان، فضربها بالدِّرَّة، وقال: يالكعاء أتتشبَّهين بالحرائر؟

أرادوا مُتَكَمِّمَة فضاعفوا، وأصله من الكُمَّة وهى القَلَنْسُوَة فَشُـبِّه قناعها بها.

وفى الحديث كانت كِمام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطيحا، وفى رواية أكمة.

وقد خصص المجمع هذه الكلمة بالقلنسوة المنبطحة التى تلبسها البنات والنساء.

الشـــبكة

أصل الشَّبْك إدخال بعض الأشياء فى بعض، ومنه تشبيك الأصابع وشَبَكَة الصياد، وقد أطلقت الشَّبَكَةُ هنا على ذلك النسيج الذى يُشْبِه شَبَكَة الصياد تتخذه المرأة صيانة لشعرها أن يذهب نظامه.

القَـرْطـف

اللسان: «القَرْطَفَة القَطِيفَة المُخْمَلة قال الشاعر:

«بأن كذب القَراطف والقُروف»

الأزهرى فى ترجمة قطف : القَراطف قُرُش مُخْملَة، وفى حديث النخعىّ فى قوله ﴿يأيها المدثر﴾ أنه كان متدثرًا فى قَرْطَف هو القطيفة التى لها خَمْل.

التاج : «القَرْطَف كجعفر القطيفة» نقله الجوهرى، ومنه قول الكميت:

عليــه المنــامــة ذات الفضــول ... من الــوهن والقَــرطـف المُخْمَل

وفى حديث النخعىّ فى قوله تعالى: ﴿يأيها المدثر﴾ أنه كان متدثـرا فى قَرطَف وهو القطيفة التى لها

خَمْل والجمع قراطف، قال الأزهرى: هى قُرُش مُخْمَلَة، قال معقر البارقىّ:

وذبيـــانيــــة أوصت بنيهـــا — بأن كــذب القــراطف والقــروف

أى عليكم فاغنموها.

وفى فقه اللغة للثعالبى: المنامة والقرطف والقطيفة: ما يتدثر به من ثياب النوم».

أقول ومن النصوص السابقة يظهر أن القَرْطَف نسيج غليظ به خَمْل يُتَدَثَّر به، وهذا ما يسمى (بالبطانية) وقد أطلقه المجمع عليها.

الـزَّرْبيَّــة، الـزرابــىّ
الطِّنفِسة، الطنافِس، السجادة

اللسان: «والزَّرَابىّ البُسُط، وقيل كل ما بُسِط واتُّكِئ عليه، وقيل هى الطنافِس.

وفى الصحاح: النمارق والواحد من كل ذلك زَرْبِيّة. . . .

وقال الفراء: هى الطنافِس لها خمل رقيق، وروى عن المؤرج أنه قال فى قوله تعالى ﴿وزَرابِىُّ مبثوثة﴾ قال: زَرابِىّ النبت إذا اصفرّ واحمرّ وفيه خُضرة وقد ازْرَبّ، فلما رأوا الألوان فى البُسُط والفُرُش شَبَّهُوها بزَرابىّ النبت. . . . . وتكسر زايها وتفتح وتضم. . . . .

الطِّنفسة: فى اللسان: الطِّنفِسَة والطُّنْفُسَة بضم الفاء الأخيرة. عن كُراع النمرقة فوق الرَّحْل وجمعها طنافِس، وقيل هى البِساط الذى له خَمْل رقيق.

السجادة: فى التاج: «الخُمرة المسجود عليها وسمع ضم السين كما فى الأساس».

أقول هذا هو الأصل فى معناها، ثم أطلقت على ما يفرش من الطنافس للسجود أو غيره.

ويرى المجمع أن تخصص الزَّرابىُّ بما له خَمْل رقيق، وأن تطلق الطنافس والسجادات إطلاقًا عامًّا.

طريق تكميل المواد اللغوية (*)

وضع المجمع فى دورته الثانية قرارًا خطير الشأن، كبير الأثر، هو:

قـرار تكمـلة مـادة لغـوية

ورد بعضها فى المعجمات ونحوها ولم تردْ بقيتها

إذا لم تذكر من مادة لغوية فى المعجمات ونحوها إلا بعض ألفاظها كالمصدر أو الفعل أو أحد المشتقات الأخرى، فلذلك حالان:

الأولى: أن تكون المادة غير ثلاثية الحروف، وحينئذ يجوز لنا أن نصوغ منها ما لم يذكر على حسب قياس كل باب من أبواب مزيد الثلاثى وباب الرباعى وملحقه ومزيده.

الثانية: أن تكون المادة ثلاثية والمذكور حينئذ إما فعل، وإما مصدر، وإما مشتق غير الفعل.

(أ) فإن كان المذكور فعلا، فهو إما متعدّ وإما لازم. فالمتعدّى نصوغ له مصدرًا على وزن (فَعْل) بفتح فسكون، ما لم يدل على حرفة.

واللازم له أربع حالات:

١ - إما أن يكون على وزن (فَعِلَ) مكسور العين، فنصوغ له مصدرا على (فَعَل) مفتوح العين، ما لم يدل على لون، فيصاغ مصدره حينئذ على وزن (فُعْلة) بضم فسكون.

٢ - وإما أن يكون على وزن (فَعُلَ) مضموم العين، فنصوغ له مصدرًا على (فَعَالة) أو (فُعُولة) بالضم.

(*) ألقى هذا البحث فى جلسة المجمع بتاريخ ١٦ يناير ١٩٣٦ ونشر بمجلة المجمع بالجزء الثالث ص ٢١١.

٣ ـ وإما أن يكون على وزن (فَعَلَ) بفتح العين، فنصوغ له مصدرًا على (فُعُول) بالضم، ما لم يدل على حرفة، أو اضطراب، أو صوت، أو مرض، فنصوغ مصدر كل منها على الوزن الذى قرّر المجمع قياسيته فى دورته الأولى، وما لم يدل أيضًا على سير أو امتناع، فإننا نصوغ للأول مصدرًا على (فعيل)، وللثانى مصدرًا على (فِعال) بالكسر، وما لم يكن معتل العين فيكون قياسه (الفَعل) بفتح فسكون.

٤ ـ وإما أن يكون مجهول الباب، فنرجعه بحسب ما يدل عليه من المعنى أو التعدية أو اللزوم، إلى باب من الأبواب المتقدمة، ونصوغ له مصدرًا مناسبًا لهذا الباب.

(ب) وإذا كان المذكور فى المعجمات ونحوها مصدرًا:

١ ـ فإما ألا يدل على سجية، أو حزن، أو فرح، أو لون، أو عيب، أو حلية، أو خلوّ، أو امتلاء، أو خوف، أو مرض على وزن (فَعَل)، فيصاغ له فعل من باب نصر أو ضرب، ما لم تكن عينه أو لامه حرف حلق، فإن بابه (فَعَل يَفْعِل).

٢ ـ وإما أن يدل المصدر على معنى من المعانى السابقة.

فإن دل على سجية كان فعله على (فَعُل يفعُل)، وإلا كان الفعل من باب (فَعِلَ يَفْعَل).

(جـ) وإذا كان المذكور فى المعجمات ونحوها مشتقا غير فعل استدللنا على مصدره أو فعله بمعرفة ما يدل عليه هذا المشتق من المعانى والتعدية واللزوم.

وكل ما تقدم جائز، ما لم ينصّ على أن الفعل ممات أو محظور، وما لم يسمع عن العرب ما يخالفه. فإن سمع عملنا بالمسموع فقط، أو عملنا بالمسموع أو القياس».

* * *

ولما كان العمل بهذا القرار يتطلب دقة فى النظر، وذوقًا حساسًا فى العربية، وإلمامًا وبصرًا بعلم الصرف، وحيطة وأناة فى العمل، أردت أن أعرض أمثلة تبين طريق العمل بهذا القرار. راجيا أن يكون بها ما ينير السبيل فى هذا البحث.

وقد درست ثمانيا وخمسين مادة ناقصة فى جميع المعجمات التى ظفرت بها يدى، وانتهيت فى كلّ منها إلى حكم بعد البحث وطول النظر. ولعلى أكون قد وفقت إلى الوصول إلى ما أردت.

وإنى ذاكر الآن ما جاء من النُّصوص اللغوية فى كل مادة، ومعقّب عليها بما هدانى إليه نظرى. فأقول:

جبــس

جاء فى المعجمات من هذه المادة :

الجِْبس: الجبان الفـدم، الضعيف اللئيم، أو الثقيل الـــذى لا يجيب إلى خير، أو الـردىء الدنىء.

والأجبس: الجبان الضعيف.

والتجبس: التبختر، وتجبس تبختر.

والمجبوس: المتهم فى عرضه.

ونرى أنّ المادة اشتملت على صفتين مشبهتين هما الجِبْس والأَجْبَس، ونعرف أنّ أفعلَ فيما دلّ على عيب فى الصفة المشبهة، يكون مؤنثه فعلاء وأنه يختصُّ بباب فرح.

وإذًا يكون الفعل جَبِس الـرجل يُجبَس جَبَسا، جبن أو ضعف ولـؤم أو ثقل ونرى فى هـذه المادة أيضًا اسم مفعول من الثلاثىّ، وهو إنما يصاغ من المتعدى مجردًا من الظرف والجارّ والمجرور والمصدر، وهذا يوحى بوجود الفعل جَبَس متعدِّيا.

ولما كان المضارع مجهولا، ساغ لنا أن نصـوغه من باب نصر[1]، وأن نقول جَبَسَه يجْبُســه جَبْسا، اتهمه فى عرضه وعابه.

ومن مصدر هذا الفعل يأتى اسم الفاعل وبقية المشتقات القياسية.

وفى رأينا أنّ تجبَّس المزيد الذى جـاء بمعنى تبختر مأخوذ من هذا الفعل، لأن التبختر فى الغالب لا يدلّ على الرجولة الكاملة.

جــدس

جاء فى المعجمات التى فى متناولنا من هذه المادة:

الجادس من كل شىء ما اشتد ويبِس كالجاسد.

وأرض جادسة لم تعمر ولم تحرث.

والذى نراه أن الجادس مقلوب الجاسد، وقد ذُكر للجاسد مصدر وفعل.

---

(١) فى المخصص ١٤ ـ ١٢٣ قال بعض النحـويين: إذا علم أن الماضى على فعل (بفتح الفاء والعين) ولم يعلم المستقبل على أى بنـاء هـو، فالـوجـه أن يجعل على يفعل (بكسر العين) لما قـدمت من أن الكسرة أخف من الضمـة وقيل هما يستعملان فيما لا يعرف ا هـ. وقد رجحنا باب نصر لكثرة أفعاله.

قال فى اللسان:

والجسد مصدر قولك جسِد به الدم يجسَد إذا لصِق به فهو جاسِد وجَسِد . والذى يرجح عندنا أن الجادِس مقلوب الجاسِد تساويهما فى المعنى بدليل تفسيرهم الجادِس بالجاسِد .

فنحن الآن أمام مادتين متحدتين فى الأحرف لا فى ترتيبها ، ولابن جنِّى فى ذلك رأى فاصل ، جاء فى شرح القاموس فى مادة «جبذ» واختلاف علماء اللغة فى أنه مقلوب جذب أو ليس مقلوبه .

قال ابن جنِّى : ليس أحدهما مقلوبًا عن صاحبه ، وذلك أنهما يتصرفان جميعا تصرفًا واحدًا ، تقول جذب يجذب جذبا فهو جاذب ، وجبذ يجبذ جبذًا فهو جابذ ، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فسد ذلك ؛ لأنك لو فعلته لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر ، فإذا وقفتَ الحالَ بهما ، ولم تؤثر بالمزية أحدهما ، وجب أن يتوازيا فيتساويا ، فإن قَصر أحدهما عن تصرف صاحبه فلم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفًا أصلاً لصاحبه .

وإذا اعتمدنا هذا الأصل وارتضيناه ، وهو ما نميل إليه ، رأينا أن مادة جسد أكثر تصرفًا من جدس فتكون الأولى هى الأصل ، ويقتصر فى الثانية على ما ورد منها .

أما أرض جادسة فيظهر أن الكلمة مشتقة من اسم ذات وهو جَدِيس (حىّ انقرض منْ عاد) وقد قالوا جدس الأثر يَجْدُس(1) إذا دَرَس (كما دَرَسَتْ قبيلة جَدِيس) ، ومن ذلك أرض جادسة أى خَرِبة لم تُعْمَر ولم تُحْرث فهى قَفْر كما أقفرت الأرض من جَدِيس وعلى هذا تكون هذه المادة (جدس) جمعت أصلين : أحدهما اليُبْس والشدّة ، والثانى الخراب والإقفار ، ولا يكون للأصل الأول تصريف ، أما الثانى فمتصرف .

جـــــدن

جاء فى المعجمات:

أجدن الرجل استغنى بعد فقر ، والجَدَن حسن الصوت .

والجَدَن هنا مصدر كما يظهر على وزن فَعَل فيكون فعله لازمًا من باب فرح .

جدِن يجدَن بمعنى حسن صوته .

أما أجدن فالظاهر أنها مشتقة من الجامد ، وهو ذو جَدَنٍ قَيْل من أقيال حمير والمناسبة ظاهرة(2) .

---

(1) لم نعثر إلا على الماضى فى كتب اللغة ، أما المضارع فقد استظهرناه ويكون مصدره الجدوس لأن ماضيه على فعل لازم .

(2) ويمكن تخريجها على أنها مبدلة من أجدم ففى شرح القاموس أجدمت النخلة حملت شيصا ، واستعمال أجدن الرجل بمعنى استغنى بعد فقر على هذا التخريج مجاز علاقته المشابهة .

جَـتّ

جاء فى المعجمات:

الجَتُّ الجَسُّ للكبش لتنظر أسمين أم لا .

وظاهر أنّ الجَتّ مصـدر الفعل المتعدى المضعف (جَتَّ)، وبابه غالبًا نصر، تقول جَتَّ الكبش يَجُتُّه جسَّه، وليس ما يمنع من أن يراد به الجسّ مطلقًا لكبش أو غيره(١).

جَـرَه

جاء فى المعجمات:

يقال سمعت جَرَاهِيَةَ القوم: كلامهم وجَلَبَتهم وعـلانيتهم دون سِرهم، وجَرَّهْت الأمر تجريها إذا أعلنته.

والظاهر أنّ الجَرَاهِيَة مصدر كالكراهية والطماعِية والعلانية، وأن ما قد يظن له من فعل ثلاثى هو جَرَه مقلوب جَهَرَ، فإذا رجعنا إلى رأى ابن جنـى رأينا أن مادة جهـر أكثر تصرفًـا فتكون هى الأصل، ويقتصر على ما سمع من مادة جره.

غير أننا نجد فى اللسان فى مادة شده، قال أبو منصور: لم يجعل شُدِهَ من الدَّهش كما يَظُنّ بعضُ الناس أنه مقلوب منه واللغة العالية دهِش على فعِل، وأما الشَّدْه فالدال ساكنة.

ويفهم من هذا النّص أنه إذا اختلفت أوزان التصاريف فى المادتين اللتين يُظَنّ أنّ إحداهما مقلوبة الأخرى اعتبرت كلّ مادّة أصلاً من غير نظر إلى تساويهما فى التصرف أو عدم تساويهما، ونحن إذا نظرنا فى مصادر جهـر لا نجد بينهما مصدرًا على وزن الفعـالية، فهى على حسب ما نقلـه صاحب اللسان أصل قائم بذاته فـإذا صرفناها قلنا: جَـرَه الشىء وبالشىءِ جَـرْها من بـاب فتح لأنه حلقى الـلام بمعنى أعلنه وأظهره، فهو متعدّ بنفسه وبالباء، ويشتّق منه بقية المشتقات.

جَـدَه

جاء فى المعجمات:

رجل مَجْدوه: مَشْدوه فَزِع.

---

(١) قد تكون التاء مبدلة من السين، وقد ذكر فى المخصص لذلـك أمثلة. وإذا كان الأمر كذلك وجب الوقوف عند ماورد من مادة جت.

ونرجح أن يكون الفعـل من باب فرح لدلالته على الخوف والفـزع والدهش[١]، فيقال جَدِهَ فلان يَجْدَه جَدَهًا ، وجُدِهَ به فهو مجدوه[٢].

جشـــن

جاء فى المعجمات:

الجَشْنُ الغليظ والمجشونة المرأة الكثيرة العمل النشيطة .

ويظهر لنا أن الجَشْن صفة مشبهة على وزن فَعْل كضخم وفخـم فيكون فعله جَشُنَ يَجْشُن جُشونة غَلُظ .

أما المجشونة فهى على وزن مفعول فيكون فعلها متعديا ، كأن يقال جَشَنه يَجْشُنُه جَشْنًا شَغَلَهُ .

جــزن

جاء فى المعجمات:

حَطَب جَزْن وجَزْل وجمعه أَجْزن وهو الخُشُب الغِلاظ .

والظاهر أن النون مبدلة من اللام فى هذه المادة فإنهما تتعاقبان كثيرًا ، يقال فرس رِفَنٌّ ورِفَلٌّ ، طويل الذنب، كما يقال جِبْرِين وجِبْرِيل .

لهذا نرى مادة جزل أصلاً ، ونرى أن نقتصر على ما سمع من مادة جزن ، ولا نزيد عليه .

جــلذ

جاء فى المعجمات:

قالوا: إنهُ لَيَجْلذَ بكلِّ خير أى يظن به .

والأَجْلِوّاذ والأجْلِيوّاذ المضـاء والسرعة فى السير ، قال سيبـويه لا يستعمل إلا مـزيدًا . ا هـ من اللسان.

من هذا يُرَى أنه لا يصحّ أن يُؤتَى بمجرّدلـ« اجْلَوَّذَ »كما قال سيبويه ، ومن رأيى أنه إذا سمع المزيد وكان كافيا فى تأدية معنى الفعل المجرد اكتفى به وبمشتقاته ، وأنه لا يسوغ حينئذ فرض فعل مجرد .

---

(١) فى المخصص : أجروا الذعر والخوف مجرى الداء لأنه بلاء اهـ ونص قبل ذلك على أن الداء من باب فرح ١٤ـ١٤٠ .

(٢) أى : مجدوه به ؛ ففى الكلام حذف وإيصال .

أما يُجْلَد التى جيء بها دون بقية المشتقات والمصادر فهى نظير يُجْلَد بالمهملة لفظًا ومعنى، ومعناه يظن أو يتهم، ففى حديث الشافعى: كان مجالـد يُجْلَد أى كان يُتَّهَم ويُرْمَى بـالكذب، فكأنه وضع الظنّ موضع التُّهَمَة. ثم إننا لا نجد فيما بين أيدينا من المعجمات أيضًا تصريفًا للفعل يُجْلَد بـالدال بمعنى يُظَنّ، لذلك نرى أن يقتصر على تصريف أسهل الفعلين وأن يقال جَلَده يَـجْـلُده جَلْدا ظَنّه أو اتّـهَمَه أو رماه بالكذب.

جنــص

فى اللسان: أبو مالك واللحيانى وابن الأعرابى: جَنَّص الرجل إذا مات. أبو عمرو: والجَنِيص الميت، وجَنَّص رُعِبَ رُعْبًا شديدًا أو هَرَب من الفَزَع، وجَنَّص بصره حَـدَّدَه، وجَنَّص فتح عينيه فَزَعًا.

ويغنينا عن الفعل المجرد هنا مـزيده، إلا فى جَنَّص بمعنى مـات؛ لـورود الجَنِيص منـه بمعنى الميت، والجَنِيصُ فيما يغلِب على ظنّنا صفـةٌ مشبَّهة، فهى تحتاج إلى فعل مجرد، وهو فيما يغلب على ظننا من باب فرح[1]، لأن المادة فى جملتها تدل على الفَزَع والوَهَل، فيقال جَنِص الرجلُ يَجْنَصُ جَنَصًا مات، وجَنَّصَ المزيد بمعنى المجرَّد.

جهــف

هذه المادة ليسـت فى اللسان، وفى التاج «أَجْهَفَ الشيءَ أخَذَه أَخْـذًا شديدًا، هكذا نقلـه عن الصاغانى فى العُباب، قلت: ولعله لغة فى اجْتَأَفَه بالهمزة، أو جَحَفَه بالحاء».

وجَأَفَ من باب فَتَح والمصدر الجَأْف من معـانيه الأخذ بالشدّة؛ يُقَـال: جَأَفَ الشجرةَ إذا قلعها من أصلها.

وجَحَفَ من باب فتح أيضًا، ومن معانيه القشر والجَرْفُ والجَمْع والرَّفْس.

وهناك فعل ثالـث هو جَعَفَ من باب فَتَح أيضًـا، بمعنى الصَّرْع والقَلْع.

وأرى أن الهاء فى الفعل جَهَفَ مبـدلـة من الهمـزة أو الحاء أو العين، ولما كانت الأفعال: جَأَفَ وجَحَفَ وجَعَفَ أكثر تصرُّفًا وجَبَ أن تكون هى الأصل وأن يُقْتَصَر على ماورد فى اللغة فى مادة جهف للاستغناء عنها بأصولها.

---

(١) جاء فى المخصص عند الكلام فى باب فرح «وقد يجىء الاسم فعيلا، ومثل له بمريض وسقيم وعسير وحزين».

حشب

في **اللسان**: احتَشَب القوم احتشابا إذا اجتمعوا، وفى التاج: ويقال أحْشَبه إذا أغْضَبه كأحْشَمَه نقله الصاغانى ، وفيه الحَشِيب من الثياب والخَشِيب والجَشِيب الغليظ ؛ وفى اللسان: والحِشْمَة والحُشْمَة أن يجلس إليك الرجل فتؤذيه وتُسمِعه ما يكره، حَشَمَه يَحْشِمُه ويَحْشُمُه حَشْما.

والظاهر أن الباء مبدلة من الميم ، وأن تَصَرُّفَ الأفعال فى ذى الباء قليل فيقتصر على ما ماورد منها، وليس من العسير أن نجد صلة وارتباطا بين معنى الاحتشاب وهو اجتماع القوم ومعنى الغضب لأن الاجتماع قد يكون سببه الغضب .

أما الحَشِيب بمعنى الغليظ فيقرب فى لفظه ويتَّحِد فى المعنى هو والجَشِيب. وقد نُصّ فى اللغة على فعل للجَشِيب من بابى نصر وكرم ، جاء فى اللسان : وجَشَب الشيءُ يَجْشُب غَلُظ، وجاء فيه وجَشُبَ جَشَابة.

وعلى هذا نكتفى فى هذا المعنى أيضًا بمادة جشب، لكثرة تصرفها، ونقتصر على ما سمع من مادة حشب.

حـقــز

فى التاج الحاقِزة أهمله الجوهرىّ وصاحب اللسان، وقال الصاغانى هى التى تَحقِز برجلها أى ترمح بها كأنها مقلوب القاحِزة.

ونرى أن الصاغانى صرح بفعله بقوله هى التى تحقِز برِجلها، ولم يذكره غيره ولعله أخذه من لفظ اسم الفاعل.

وجاء فى مادة قحز : قحز كجعل يَقْحَز قَحْزًا وَثَب وقَلِق واضطرب .

ثم قال : وقَحَز الكلبُ ببوله يَقحَز بالفتح قَحْزًا وقحوزا وقحزانا محركة رمى بِهِ كقزح ، وهو مقلوب منه كما قال الزمخشرى وابن القطاع . وجاء فى المستدرك : قحز الرجل عن ظهر البعير يقحز قحوزا سقط، وقحز الرجلَ قحزا وقحوزا وقحزانا أهلكه .

ونحن نرى تقاربًا فى المعنى بين حقز وقحز وقَزَح ففى كل منها معنى الطرح والرمى ونوافق الزمخشرى على أن أصل كل ذلك قزَح ، لذلك نرى الاكتفاء بما ورد من مادة حقز .

حــلد

قال فى التاج: «(إبل محاليد) أهمله الجوهرى والجماعة أى (ولت ألبانها)، قلت: وقد تقدم له هذا المعنى بعينه إبل مجاليد، فإن لم يكن تصحيفًا من بعض الرواة فلا أدرى».

وجاء فى التاج فى مادة جلد: (و) الجِلاد (من الإبل الغزيرات اللبن)، والجِلاد أدسم الإبل لبنا، وعن ثعلب ناقة جلدة مِدرار (كالمجاليد) جمع مجلاد، أو الجِلاد من الإبل (ما لا لبن لها ولا نتاج).

ونرى أنه لا محل لشك صاحب التاج فى صحة الكلمة؛ لأن صاحب القاموس كان عليما بالغريب مشغوفا به، غير أننا نقول: إن ذات الحاء لغة فى ذات الجيم[1] ولما كانت مادة جلد تامة التصريف فقد جاء فى اللغة جلُدتِ الناقة تجلد جلادة جف لبنها فهى مجلاد ـ وجب الاقتصار على ماورد من مادة حلد اكتفاءً بذات الجيم.

حــمــر

اللسان: الحمرة من الألوان المتوسطِة معروفة ـ لون الأحمر يكون فى الحيوان والنبات وغير ذلك ـ وقد احمرَّ الشىء واحمارّ بمعنى.

فذكر لهذه المادة فى هذا المعنى المصدر والصفة المشبهة وفعلين مزيدين، ولم يذكر المجرد، وقد نصَّ بعض أعلام اللغة على أن الحمرة لا يأتى منها فعل مجرد، ففى اللسان: قال الفراء: العرب لا تقول حِمر ولا بِيض ولا صفِر، ونحن نوجب العمل بهذا النص، وندعو إلى صيانة اللغة من أن يدس فيها ما ليس منها.

ولا بأس أن نورد هنا مصادر بعض الألوان وأفعالها التى عثرنا عليها فى أثناء مراجعاتنا وهى:

الصُّهبة: وفعلها من باب فرِح.

والشُّهبة: وتأتى من بابى كرم وفرح.

والزُّرقة: وبابها فرِح.

والأدمة: وهى من باب فرِح[2].

والسُّمرة: وهى من بابى كرم وفرِح.

والسواد: من باب فرِح، وفعله سوِد وساد.

---

(١) لا نظن أن هنا إبدالا؛ لأننا لم نعثر فيما وقفنا عليه أن الجيم تبدل حاء.

(٢) ومن باب كرم فى لغة ـ المخصص.

والقُتمة: وهى من بابى ضرب وفرِح.

والخُطبة: وبابها فرِح.

والقُهبة: وفعلها من باب فرِح[1].

والكُهبة: وهى من بابى فرِح وكرم.

والكُمدة: وبابها نصر.

والعُفرة: وبابها فرِح.

والدُّكنة: وبابها فرِح.

والحُوَّة: وبابها فرح.

والغُبْشة: شدة الظلمة، وبابها فرِح.

والغُبسة: لون الرماد، وبابها ضرب.

والكُمتة: حمرة يخالطها سواد، وبابها كرم.

والوُردة: الحمرة تضرب إلى الصفرة، وبابها كرم.

والشُّقرة: بياض فى حمرة، من بابى فرح وكرم.

أما السُّخمة، والصُّحمة، والدُّبسة والعِيسة والبرُشة، فلم تـذكر لها فى المعجمات أفعـال مجردة، وليس ما يمنع من وضع أفعال لها من باب فرِح، وهو الباب الشائع فى الألوان، وسنتناول بعض هذه بالكلام فى هذا المقال.

حمـــج

فى اللسان: التحمِيج فتح العين وتحديد النظر كأنه مبهوت، قال أبو العِيال الهذلِى:

وحَـــمَّـــجَ للجبـــانِ المـــو ... تُ حتـــى قلبـــهُ يَـــجِب

أراد حَمَّجَ الجبانُ للمـوت فَقَلَب[2]، وقيل تحمِيج العينين غُثـورهما، وقيـل تصغيرهما ليمكـن النظر...

وقوله: «وقد يقود الخيل لم تُحَمَّجِ» فقيل تحمِيجها هزالها.

والتحمِيج التغير فى الوجه من الغضب ونحوه.

---

(١) ومن باب كرم فى لغة ـ المخصص.

(٢) يستقم المعنى على مجاز بديع من غير قلب.

وفى التاج «والحَمُوج كصَبُور الصغير من ولد الظبى»، وهذا المشتق يدل على وجود الثلاثى، وقد يكون من أسباب إطلاق الحَموج على الصغير من ولد الظبى هزاله أو صغر عينيه.

ونرى أن يصاغ فعلـه من باب ضرب لازما[1] حَمَج يَحْمِج حُمُوجًا بمعنى فتح عينيـه فى دَهَش أو ضَيَّقَها لتحديد النظر، وبمعنى هُزِل وتغير، ويكون فعَّل منه للمبالغة أحيانا وللتعدية أحيانا.

خـدن

الخِدْن والخَدِين الصديق، والمُخَادنة المُصاحبة، والأَخْدَن: ذو الأخدان، ورجل خُـدَنَة: يُخادِن الناس كثيرًا، ونرى أن الخدن والخَدِين والأَخْـدَن صفات مشبهة، وأنها تنبىء بوجـود الفعل الثلاثى، غير أن الفعل المزيد «خادن» يؤدِّى معنى المجرد فلا داعى لوضعه.

خـذر

فى اللسان: الخاذِر المستتر من سلطان أو غريم، ولم يُذْكَر لهذه المادة فعل أو مشتقات أخرى فى المعجمات، ولكن يظهر أن الذال فيها لغة فى ذات الدال (خدر) لذلك يقتصر فيها على ما جاء منها.

خسـن

فى اللسان: أهمله الجوهرى، وروى ثعلب عن ابن الأعرابى أخسن الرجل إذا ذَلَّ بعد عِزٍّ، وهى أقـرب فى المعنى إلى خَشُنَ العيش خُشُـونـة ضـد لان، وإذا كـانت السين مبدلـة من الشين كـما هـو ظاهر[2] وجب الوقوف عند المسموع من مادة خشن.

خَفَـل

فى اللسان: ابن الأعرابى الخافِل الهارِب، وكذلك الماخِل والمالخ، وقد أعاد ذلك فى مخل، ولم يذكر له فعلا أو مصدرًا، أما ملخ فإنه مـن باب فتح ومصدره الملخ، ولما كان المعنى واحـدًا فى هذه المشتقات الثلاثة وهى الخافِل والمالخ والماخِل، وكان أحدها من باب فتح رجح أن يكون فعل الخافِل من باب فتح أيضًا، أما الماخِل فلا نرى وضع فعل له لأنه مقلوب المالخ.

---

(١) إنما اخترنا باب ضرب هنا استئناسا بكلمة صبور الذى وزن بها صاحب التاج الحموج.

(٢) عدّ صاحب المخصص من هذا النوع من الإبدال أمثلة كثيرة ١٣ ـ ٢٧٨.

خـلم

فى اللسان: الخلم بالكسر الصديق الخالص. . . والجمع أخلام وخلماء، قال ابن سيده:

وعندي أن خلماء على توهم خليم، والمخالمة المصادقة والمغازلة. . . والخلم مريض الظبية أو كِناسها لإلفها إياه وهو الأصل فى ذلك تتخذه مألفا وتأوِى إليه، ويسمى الصديق خلما لألفته. . . والخِلم أيضًا العظيم، وزاد فى القاموس الخالِم المستوِى الذى لا يفوت بعضه بعضًا، وإبِل خِلْمَة بالكسر رِتاع، واختلمه وخَلَّمه تخليما اختاره، وخالمه صادقه.

ومن ذلك يفهم أن الأصل فى هذه المادة« الخلم »مَريض الظبية، وهو اسم ذات وأن العرب نقلته إلى المصادقة والمصاحبة بجامع الإلف، ثم أخذت منه مصادر اشتقت منها خالمه وخلَّمه واختلمه، ثم اشتقت اسم الفاعل وهو الخالم من مصدر الثلاثى بمعنى آخر يتصل بالمعنى الأصلى وهو مريض الظبية بسبب الاستواء فيها، أما الخلم: بمعنى العظيم فيبعد عن هذا الأصل بعض البعد.

ونحن نكتفى بالأفعال المزيدة التى وردت بمعنى المصاحبة والمصادقة، لأنها تغنى عن المجرد، ونرى أن يوضع فعل من باب نصر مصدره الخَلْم للدلالة على استواء المكان(١) وأن يوضع فعل من باب كَرُم للدلالة على العظَم(٢).

خـمـت

فى اللسان: الخَمِيت السمين حِمْيَرِيَّة، وفى القاموس الخميت السمين وبوزنه، وفى زنة صاحب القاموس للخميت بالسمين ما يشبه الإشارة إلى أن فعله كسمِن، فيكون خَمِتَ يَخْمَت، وقياس مصدر فعِل اللازم الفعَل، ويكون الخميت صفة مشبهة.

خـنر

فى اللسان: أبو العباس: الخانر الصديق المصافى وجمعه خُنُر، يقال فلان ليس من خُنُرى أى ليس من أصفيائى، وعقب صاحب التاج على القاموس فى قوله جمعه خُنُر بضمتين بأن الصواب خُنَّر كـ: ركَّع، ولعل سبب ذلك أن فاعلا لا يجمع على فُعل، ويمكن أخذ الفعل والمصدر من المشتق خَنَرَه يَخْنُره خَنْرًا بمعنى صادقه وصافاه.

---

(١) وذلك لورود اسم الفاعل خالم.

(٢) تأتى الصفة المشبهة على وزن فعل بكسر فسكون من باب كرم كملح.

خـــوش

فى اللسان: الخَوْش صغر البطن، وكذلك التخـويش والمُتَخَوِّش والمُتخَاوِش الضـامر البطن، وتَخَوَّشَ بَدَنُ فلان هُزِل بعد سِمَن، وخَوَّشه حقّه نَقصَه.

ومن السهل أخذ الفعل من المصدر هنا وهو الخوش بأن نقول: خاش البطن يخوش خوشًا صغر، وخاش المال يخوشه نَقَصَه.

دَبَـــس

والدُّبسـة لون فى ذوات الشعـر أحمر مشرب، والأدبس من الطير والخيل الـذى لـونه بين السـواد والحمرة، وقد ادَّبس ادِّباسا، وقد ادباسّ وهو أدْبَس، والدِّبس الأسود من كل شىء . . . أبو حنيفة: أدبست الأرض رئِى أوّل سواد نبتها فهى مُدْبِسة . . . ودَبَّس الشىءَ واراه.

ذُكر من هذه المادة المصدرُ وصفتان مشبهتان وأفعال مزيدة، ولما كانت هذه المادة تدل على لون، وكان مصدرهـا على فُعْلَة كان فعلها مـن باب فرح، تقول: دَبِس الشىء يَـدبَس دُبْسَة كان لـونه بين السواد والحمرة، أما أَدْبَسَت الأرض فالمزيد فيها يغنى عن المجرد، وتقول: دَبَس الشىء يَدْبَس بمعنى توارَى واختفَى، ودبَّسته أخفيته، ولا يغنِى هنا ادَّبَس وادْبـاسّ عن المجرد لأنهما يفيدان معنى جـديدًا بالزيادة وهو التدرّج(١).

ذَهَـــف

فى تـاج العـروس: (إبل ذاهفة) أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، وقال ابن عباد: (معيبة) من طول السير (لغة فى الدال)، وصوّب الصاغانى فى التكملة أنها بإهمال الدال لا غير.

والداهفة بالدال بابها منع، ونـرى ما دامت ذات الـذال لغـة فى ذات الدال أن يقتصر عليهـا ولا يُصَرَّف منها.

رَبَش وبَرَش ورَمَش

فى اللسـان: الأربش المختلف الألوان نقطـة حمراء وأخرى سـوداء أو غبراء أو نحو ذلك، وفرس أربش ذو برش مختلف اللون، وخص اللحيانى بـه البِرْذَوْن وأربش الشجر أورق، وقيل أربش أخرج

(١) فى المخصص: وقد يستغنى بافعالّ عن فعل وفُعل ولكنا نميل إلى رأى المتأخرين وهو أن المزيد هنا أدّى معنى بالزيادة لم يكن فى المجرد فلا يستغنَى عن المجرد.

ثمره. . . ابن الأعرابى : أرمش الشجر وأربش وأنقد إذا أورق وتفطر ، وأرض ربشاء وبرشاء كثيرة العشب مختلف ألوانها ، وجاء فى مادة رمش : أرض رَمْشاء رَبشاء أو جَذبة كأنه ضد ، ورجل أرمش أربش مختلِف اللون ، وأرمش الشجر أورَق .

والذى يفهم بعد قراءة هذه المواد فى معجمات اللغة أن مادة برش هى الأصل وقد ذُكِر لها فى المعجمات فعل ثلاثى من باب فرِح ، وذُكِر لها من المصادر البَرَش والبُرْشَة فيجب الاقتصار على ما ورد فى المادتين رَبش ورمش ، لأن الأولى بها قلب مكانى ولأن الثانية أبدلت فيها الميم من الباء(١).

رتــل

فى اللسان : الرَّتَل حسن تناسق الشىء ، وثغر رَتَل ورَتِل حسن التنضيد مستوى النبات ، وقيل مفلَّج. . . والرَّتَل بياض الأسنان . . . ، وربما قالوا رجل رَتِل الأسنان مثل تَعِب بَيِّن الرَّتَل ، وكلام رَتَل ورَتِل أى مُرَتَّل حَسَنٌ على تُؤَدَة ، ورَتَّل الكلام أحسن تأليفه وأبانه وتَمَهَّل فيه . . . والرَّتَل ، والرَّتِل : الطّيب من كل شىء ، وماء رَتِل بَيِّن الرَّتَل بارد .

وزاد فى القاموس , والراتِلة القصير .

وظاهر أن الفعل المجرد من باب فرح ، وأن مصدره الرَّتَل ، وأن رَتَلا ورَتِلا صفتان مشبهتان(٢)، وأن التضعيف فى رَتَّل للتعدية ، وتكون معانى الفعل هكذا :

رَتِلَ الشىءُ تناسَقَ أو طاب ، والثَّغْرُ استوتْ أسنانه أو فُلِّجَت أو ابيَضَّتْ ، والكلامُ حَسُن وألقىَ فى تُؤَدَة وإبانة ، والماءُ بَرَد ، أما الراتِلة بمعنى القَصير فاسم فاعل فيه التاء للمبالغة ويَحْسُن أن يكون فعله من باب نصر(٣).

رَثَــن

فى اللسان : الرِّثَانُ قِطار المطر يَفْصِل بينها سُكون . . وأرض مُرَثَّنَة تَرْثينا ومُرَثَّمة ومُثَرَّدَة أصابها مطرٌ ضعيف ، وفى نوادر الأعرابى : أرض مَرْثُونَةَ أى مَرْكُوكَة وأصابها رِثان ورِثام ، وقد رَثَّنَت الأرض تَرْثينا عن كُراع ، قال ابن سيده : والقياس رُثِنَتْ كطُلَّتْ وبُغِشَتْ وطُشَّتْ وما أشبه ذلك ، الأزهرى : قال بعض من لا اعتمد عليه : تَرَثَّنَت المرأةُ إذا طَلَتْ وجهها بِغُمْرَة ا هـ.

---

(١) عد صاحب المخصص من هذا الإبدال أمثلة كثيرة ١٣ ـ ٢٨٤ .

(٢) الظاهر أن رتلا بالتحريك من المصادر التى استعملت استعمال الصفات .

(٣) يصح أن يبقى الفعل من باب فرح هنا أيضًا لأن الصفة تأتى من هذا الباب على فاعل أحيانًا .

وأقول: لعل النون مبدلة من الميم فى ترثنت المرأة، وهو ما يحدث كثيرًا فى لغة العرب، ففى مادة رثم فى اللسان ورَثَّمَت المرأة أنفها بالطين لطخته وطلته، وهو على التشبيه ا هـ.

وإنما كان على التشبيه لأن الرثم فى الأصل كسر الأنف أو الفم حتى يقطر منه الدم.

ويؤخذ مما ورد فى مادة رثن أنه ورد منها اسم مفعول للثلاثى وهو مرثونة. وأن ابن سيده استنبط أن قياس فعلها رثن، وبذلك يستطاع أن يقدر هذا الفعل من باب نصر متعديًا؛ ويقال رَثَنَ المطرُ الأرضَ يَرْثُنُها رَثْنًا أصابها، وأما تَرَثَّنَت المرأة فالظاهر أنه مقلوب ترثمت فيقتصر فيه على الوارد.

خـــوذ

اللسان: المُخاوَذَة المُخالفة إلى الشيء، خاوَذَه خِوَاذا ومُخاوَذَة خالفه.

الأمويّ: خاوَذْته مُخاوَذَة فعلت مثل فعله، وأنكر شَمَّر خاوَذْت بهذا المعنى، وذكر أن المخاوذة والخواذ الفراق. . . وخاوَذَتْـهُ الحُمَّى أخذته ثم انقطعتْ عنه ثم عاوَدَته. . . وفى النوادر أمر خائِذ لائذ، وأمر مُخاوِذ مُلاوِذ إذا كان مُعْوِزًا، وخاوَذ عنه إذا تنحَّى.

جاء من هذه المادة مصدر المفاعلة وفعله، ثم جاء اسم فاعل الثلاثى، ولما كان هذا الفعل أجوف واويا كان من باب نصر على الغالب، فهو خاذ يخوذ خَوْذا، تقول: خاذَنى الأمر أعْوَزَنى، ولكن لما كان الفعل المزيد وهو خاوذ يؤدى معنى الفعل المجرد نرى أن لا حاجة إلى وضع مجرد له.

دخـــى

فى اللسان: الدَّخَى الظلمة، وليلة دخياء مظلمة، وليل داخ مظلم، قال ابن سيده: فإما أن يكون على النسب، وإما أن يكون على فعل لم نسمعه.

ونرى أن الدَّخَى مصدر لمعناه صلة بالألوان لذلك يكون فعله من باب فرح؛ كأن نقول: دَخى الليل يَدْخَى أظلم فهو أَدْخَى والليلة دَخْيَاء، ويكون لفظ داخٍ صفة مشبهة على وزن اسم الفاعل كسالم من سَلِمَ يَسْلَم.

درك

فى اللسان: الدَّرْك اللحاق وقد أدركه ورجل دَرَّاك مُدْرِك كثير الإدراك، وقلّما يجىء فَعّال من أَفْعَل يُفْعِل إلا أنهم قالوا: حَساس دَرَّاك لغة أو ازدِواج، ولم يجئ فَعّال من أَفْعَل إلا: درّاك، وجَبّار من أَجْبَرَه على الحُكْم أكرهه، وسار من أَسْأَر فى الكأس: إذا أبقى فيها سؤرا. وتدارك القوم: تلاحقوا. . . وفى الحديث: «أعوذ بك من دَرْك الشقاء».

قال ابن برى: جاء دَراك ودرّاك ، وفَعـالِ وفعّال إنما هـو من فعل ثلاثى، ولم يستعمل منـه فعل ثلاثى، وإن كان قد استعمل منه الدرك.

ونرى أن نتابع نص ابن برى فى أن العرب لم تستعمل الثلاثى لهذه المادة، ونكُفّ عن استنباط فعل ثلاثى منها.

ثم إن فى عبارة اللسان: «ولم يجئ فعّال من أفعل إلا دَرّاك وجبار وسئّار» نظرًا من وجوه: الأول أن المصدر أصـل الاشتقاق فى رأى البصريين وهو الـرأى الراجح ودَرّاك مشتق مـن مصدر الثلاثـى وهو الدَّرْك، على أن وجود الدَّرْك يستلـزم وجود فعل ثلاثى أُميت اشتق منـه دَرّاك على مذهب الكوفيين، الثانى: جاء فى لسان العرب فى مادة جبر: وجَبَر الرجلَ على الأمر يَجْبُره جَبْرًا وجُبُورًا ، وأجبره : أكرهه والأخيرة أعلى، فأثبت وجـود الفعل الثلاثى وهـو جَبَر فى لغة ؛ فجبّـار من هذه اللغة لا مـن غيرها. الثالث أنه جاء فى مادة سأر فى اللسان: يقال سأر وأسأر إذا أفضل فليس إذن سأر من مصدر أسأر.

دفـــه

فى اللسان: الأزهرى أهمله الليث، وروَى ثعلب عن ابن الأعرابى قال :الدافِـهُ الغريب، قال الأزهرى :كأنه بمعنى الداهِف والهادِف، وجاء فى دَهَف «والداهِفَة قال الأزهرى كأنه بمعنى الداهِف والهادِف».

والداهِف المُعْيى من طول السير، والغريب قد يكون كذلك، وباب الداهِف مَنَع. وجاء فى هِدِف فى اللسان ويقال: هل هَدَف إليكم هادِف أو هَبَش هـابِش يستخبره هل حدث ببلده أحد سوى من كان به. فالكلمات الدافِه والـداهِف والهادِف كلها بمعنى الغريب، وبينها قلب مكانى فى الأحرف، وإحداهـا وهى الداهِف يمكن اعتبارهـا أصلا لهذه الموادّ، فيجب أن يقتصر فى مادة دَفـه على ماورد منها.

دكـــب

أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، وفى القاموس المدكُوبة المعضوضة من القتال.

ونقول : إن اسم المفعـول يُشعر بـوجود فعل يمكن صـوغه من بـاب نصر متعديـا، فنقول دَكَب الكلبُ الهِرّة يَدْكُبها دَكْبًا عَضَّها فى القتال.

دلـــس

فى اللسان: الدَّلَس بالتحريك الظُّلْمَة، وفلان لا يُدالِس ولا يُوالِس أى لا يُخادع. . . ودلَّس فى

البيع وفى كل شىء إذا لم يُبَيِّن عيبه وهو من الظلمة . . . والدُّلْسة الظلمة . . . مالى فيه وَلْس ولا دَلْس أى مالى فيه خيانة ولا خديعة . . . واندلس الشىء خفى . . . إلخ .

والظاهر أن المذكور فى المادة ثلاثة مصادر هى الـدَّلَس والدَّلْس والدُّلْسَة والأخير مصدر الألوان، وأفعالها من باب فرح، وعلى هذا يكـون الفعل دَلِسَ الليل يَدْلَـس دَلَسا ودَلْسًا ودَلْسَـة أظلم، وجميع الأفعال المزيدة التى جاءت فى هـذه المادة لِتَدُلّ على الخفاء أو الخديعة من باب المجاز وتـوجيه الزيادة فيها ظاهر .

ذغـــى

أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، **وفى القاموس** : الذاغية المضَاغة الرَّغْناء وجاء **فى التاج** لابن سيده : والغاذِية من الصبىّ الرَّمّاعَة ما دامتْ رَطْبَة ، فإذا صَلُبَتْ وارتْ عَظْمًا فهى يافُوخ .

وإتيان صـاحب التاج بـالغاذِيـة فى مادة ذغى يشير إلى أن الـذاغِيَة مقلـوب الغَاذِيَـة ويظهر أنها أطلقت على الرَّغْناء على المجاز والجامع الرَّخاوَة وعدم تمام التكوين، ولما كانت مادة غذى أكثر تصرُّفا من ذغى وجب الاقتصار على ماورد من الثانية .

ذقـــو

فى التـاج : (وفرس أَذْقَى) أهمله الجوهـرى والجماعة (وهو الـرِّخو الأذن الرخـو الأنف وهى ذقواء) ونصّ التكملة : فرس أذقى وَرَمَكَة ذَقْوَاء وهو الرِّخو الرانِف الأذن فتأمل هذه مع سياق المصنف اهـ .

وعبارة اللسان : رجل أَذْقَى رِخْو الأنف والأنثى ذَقْوَاء ، والجمع الذُّقْوُ وهو الرِّخْو أنف الأذن .

ونرى فى عبارة اللغويين هنا شيئا من الإبهام والاضطراب ، وذلك أن قولهم : الرخو الأنف المقصود به أنف الأذن، وأنف كل شىء طرفـه ، ويقصد به . رخاوة الأذُنِ نفسِها ، أما عبـارة صاحب التكملة وهى الرِّخْو الرانِف الأذن فلعل صوابها رِخْو رانِف الأُذُن ، ورانِف الأُذن ورانفتها غُضْروفها .

ولنرجِع الآن إلى استخراج الفعل بعـد أن ظهر لنا أنّ الوصف منه على أفعل فعـلاء ، وهذا خاصّ بباب فرِح ، فيكون الفعل الثلاثى ذَقِيَ الفرس يَذْقَى ذَقًا اسْتَرْخَتْ أذناه ، أصل الفعل ذَقِوَ وقعت الواو متطرِّفة بعد كسرٍ فقلبت ياء .

ذكـــب

قال فى التـاج : (المذكوبة) بالذال المعجمة أهمله الجوهرى وصاحب اللسان، وقال الصاغانى هى (المرأة الصالحة) .

وجاء فى لسان العـرب فى مادة كذب: المكذوبة من النساء الضعيفة، والمذكوبة المرأة الصالحة، وكذلك فعل صاحب التاج فى مادة كذب.

ولأمرٍ مـا يذكر صاحب اللسـان المذكوبة بجانب المكـذوبة، وظـاهر ذلك أنـه يرى بينهما قلبًـا، والمكذوبة بمعنى الضعيفة اسـم مفعول من كذبتها النفس أو الأيام فمنَّتْها بـالصحة والقوّة ولم تَصْدُق فهى مكذوبة، وكـذلك المذكوبـة مقلوبتهـا بمعنى المرأة الصالحة اسم مفعـول من كذبتهـا النفس أو الأيام فمنّتْها الأمانى الكاذِبة فعرفَت قيمتها فاتّعظتْ وأصبحت صالحة بصيرة بأحوال الدهر وصروفه، فإطلاق المذكـوبة على الصالحة من إطلاق الـلازم وإرادة الملزوم، وإذا ثبت لنـا أن المذكوبـة مقلوب المكذوبة، وكانت تصاريف الثانية أكثر من تصاريف الأولى وجب الاقتصار على ماورد من الأولى.

رخـد

فى القاموس والتاج: الرِّخُودَة اللين والنُعومَة والخِصْب والسَّعَة، وهم فى رَخُـودَة من العيش، ويقال هو رِخْوَدٌّ كإِرْدَبّ قال أبو الهيثم: الرِّخْود: الرِّخْو؛ زيـدت فيه دال وشددت مكسوعا بها وهى بهاء رِخْوَدَّة، ويقـال رجل رِخْـوَدّ الشباب نـاعمـه، وقيل رجل رِخْـوَدّ لَيِّن العَظْم سَمِين كثير اللحم رِخْو، وجمع رِخْوَدّة رَخاوِيد.

ويظهر لى أن الرُّخُودَة مصـدر من المصادر السماعية النادرة، وأن معنى هذه المادة كمعنـى رَغِد، ولكنها ليست مقلوبتها لأننا لا نجد مصدرًا من رغد على وزن فَعُولَة. ولما كانت قريبة المعنى من مادة رَغُد وكـان الفعل رَغُد من بابى فرِح وكَـرُم جاز أن نقتِصر هنا على بـاب واحد هو باب فـرح ونقول: رَخِد العيش يَرْخَد رَخُودَة لانَ وطابَ واتَّسَع.

وأما الـرِّخْوَدُّ فهـو على رأى أبى الهيثم من مادة أخـرى هى رَخُو، وعلى غير رأيه يكون وزنًـا غريبًا للصفة المشبهة.

رزع

فى التاج: (هو أرزع منه) بالزاى بعـد الراء أهمله الجوهرى وصاحب اللسان وقـال الصاغانى فى العُباب (أى أجْبَنُ)، وأهمله فى التكملة، ولا إخاله إلا تصحيـف أروع بالواو فانظـره، أو هو بالغين المعجمة فتأمل.

وأقول إن إبـدال العين من الغين معهود فى لغة العرب؛ ذكـر منه السيوطى فى المزهر جملـة صالحة منها: العَلَث شدة القتـال واللزوم له والغلث، ولَعَنّ لغة فى لَعَلّ وَلَغَنّ، وسمعتُ وعاهم ووغاهم، وبَعْثَر متاعه وبَغْثَره، وشعفها حبا وشغفها.

وجاء فى اللسان فى مادة رزغ فيه إرزاغا وأغمز فيه إغمازًا استضعفه واحتقره .

وإنا نجد كثيرًا من الاتصال فى المعنى بين رَزَع ورَزَغَ ورَدَغ ورَدَع جاء فى اللسان ورَدَغَتْ السماء مثل رَزَغَتْ، وفى التاج وأخذ فلانا فَرَدَغ به الأرض إذا ضربه بها (يريد ضربها به)، وفيه فى رَدَع ويقال رُدِعَ بفلان أى صُرِعَ، وأخذ فلانا فرَدَع به الأرض أى ضَرَب به الأرض اهـ.

وهذه المواد فى جملتها كما قال الصاغانى تدل على استرخاء واضطراب، ومن كل هذا استنبط أولا أن صاحب اللسان أتى بالماضى المجرد لـرَدَغَ ورَزَغَ ولكنه لم يذكر بابهما، وكذلك لم يذكره أحد من اللغويين فيما نعرف.

ثانيا أن الذى يفهم من نصوص اللغة ومن قواعد الصرف أن تصاغ مادة رَزَغَ على النحو الآتى:

رَزَغَت السماء تَـرْزَغ رُزُوغـا من باب فَتَح بَلَّت الأرض أو بَـالَغَتْ فى بَلِّهـا، ومثله أَرْزَغَت، ورَزَغَ الـرجل ارتَطَم فى الـوَحل أو فى العُيُـوب أو جَبُنَ مجاز، وأَرْزَغَه لَطَخه بالعيب، وأرزغ فيه استضعفه واحتقره وعابه، وأرزغ الرجل احتفر حتى بلغَ الطِينَ الرَطْب، ويقال فى مـادة رَدَغ رَدَغَت السماء تَرْدَغ رُدُوغًا بَلَّت الأرَض أو بالغَتْ فى بَلِّها، ورَدَغ بفلان الأرَض يَرْدَغُها به رَدْغا ضربها به، ورَدَغ به صَرَعَه.

رضــــن

فى اللسـان: المَرْضُون شبه المَنْضُـود من الحجارة ونحوها يضم بعضهـا إلى بعض فى بناء أو غيره، وفى نوادَر الأعرابى رُضِنَ على قبره وضُمِدَ ونُضِدَ ورُثِدَ كُلّه واحد.

ولكنه فى مادة ضَمَد لم يذكر من معانيها معنى نَضَد، ثم إن الفعل نَضَد من باب ضرب، ورَثَد من باب نصر، فيمكن أخذ باب منهما للفعل رَضَن لتشابههما فى المعنى وليكن باب نصر لأنه أكثر، فنقول رَضَنَ البَنّاء الحجارة يَرْضُنها رَضْنًا ضَمَّ بالبِنَاء بَعْضَها إلى بعض.

رفـــخ

فى التـاج: (وعيش رافِخ رافِغ) الغين بدل عن الخاء[1]، وفى اللسان فى مادة رَفَغ: والرَفْغ والرَّفَاغَة سَعة العيش والخصب، وعيش أرفغ ورافِغ ورفيغ واسع طَيِّب، ورفُغَ عَيْشُه بالضم رَفَاغَة اتسع، ولما كانت الخاء فى رافِخ مبدلة من الغين وجب ألا يُتَّسَع فى تصريفها.

---

(١) ذكر صاحب المخصص مثالا لهذا النوع من الإبدال ١٣ ـ ٢٧٥.

رفـــن

التاج: (الرفْن : البَيْض) كـذا فى النسخ والصـواب النَّبْض كما هـو نصّ ابن الأعـرابى (و) الرِّفَنُّ (كجِذَبٍّ الطويل الذنب من الخيل) قال الأزهرى : والأصل رِفَلٌّ . . . . . (والرافنة المتبخترة فى بَطَر) .

ونقول : إن الظاهر أنّ الرَّفْن بمعنى النَّبْض مصدر ، ونرى أن يكون فعله من باب ضرب لازمًا[1] فيقال : رَفَنَ العِرق يَـرْفِن رفونا ضرب وتحرَّكَ ونَبَضَ ، ومنه الـرافِنة المتبخترة فى بَطَرٍ لـدلالة الفعل على معنى الحركة .

أما الرِّفَنّ فنرى أنّ النون فيه مبدلة من اللام ، وقد عَدّ السيوطى فى المزهر جملـة من هذا النوع منها فرس رِفَلّ ورِفَنّ ، ولهذا نرى الاقتصار على ما سُمِع منه .

رقـــح

اللسان: الترقيح والترقح : إصـلاح المعيشة . . . . وترقّـح لعِياله : كسب وطلـب واحتال . . . والاسـم الرَّقَاحَة ، والرَّقَاحَـة الكسب والتجارة ، ومنـه قـولهم فى تَلْبِيَـة بعضِ أهل الجاهليـة : جئناك للنصاحة ولم نأت للرَّقَاحَة .

ونفهم من هذا أنّ الرَّقَاحَة مصـدر الفعل الثلاثى الذى لم يذكر فى المادة ، وهو مصدر غير مقِيس فى مفتوح العين كالرَّجاجَة والفَطانَة ، واقترانه فى تلبية أهل الجاهلية بـالنَّصاحَة التى هى مصدر نَصَح يُشْعِر بهذا ، وإذ كان الفعل حلقىّ اللام نرى أن يكـون من باب فتح هكذا : رَقَح العيشُ يَرْقَح رَقاحَة صَلَح ، والمال نما ، ورقّحه أصلحه ونمّاه ، ورَقَح الرجل لعِياله كسب كتَرَقَّح . وبعد كتابـة هذا رأينا أن البيهقى فى كتابه تاج المصادر قد عدّ الرَّقَاحَة مصدرًا من باب فَعَل يَفْعَل .

رفـــح

فى اللسان : الأرفح هو الذى يذهب قَرْناه قِبَلَ أذنيه فى تباعد ما بينهما . .

ابن الأثير: فى الحديث : « كان إذا رفّح إنسانا » ؛ أراد رَفَّأ أى : دعا لـه بالرفاء فأبـدل الهمزة حاء ، وبعضهـم يقول : رقّح بالقاف ، وفى حديث عمر رضى الله عنه لما تزوج أم كلثومٍ قال : رَفِّحونى ؛ أى : قولوا لى ما يقال للمتزوّجِ .

وظاهر أن هـذه المادة تشتمل على أصلين ، وقد ذكر فيها من الأصل الأول الصفـة المشبهة لمصدر

---

(١) إنما آثرنا باب (ضرب) لمشابهته فى المعنى لنبض.

يدلُّ على الخِلقة الظاهرة، وهى على وزن أفعل الذى مؤنثه فعلاء، ولا تأتى هذه إلا من باب فرِح كما فى أرْسَح ورَسْحاء وأَحْنَف وحَنْفاء، لهذا نقترح أن يكون مجرد هذه هكذا:

رَفِحَ الثور يَرْفَح رفَحا: ذهب قرناه قِبل أذنيه.

أما الأصل الثانى فهو رَفَأَ؛ لأن الحاء فى رفَّح مبدلة من الهمزة وهنا يجب الاقتصار على المسموع بالحاء لأنه مقلوب المهموز.

رصح

فى اللسان: الرَّصَح لغة فى الرَّسَح، رجل أَرْصَح وأمرأة رَصْحاء... ويقال الرَّصَع قرب ما بين الورِكين، وكذلك الرَّصَح والرَّسَح والزَّلَل... وربما كانت الصاد بدلا من السين.

أقول: وإبدال الصاد من السين معهود. (راجع ص ٢٧٧ وما يليها من المزهِر جـ ١).

فإذا عددنا الرَّسَح أصلاً لكثرة مشتقاته وجب أن نقتصر على ما سُمِع من مادة رَصَح.

ركى

فى اللسان: «والرَّكِيُّ: الضعيف، وقيل ياؤه بدل من كاف الركيك، قال فإن كان ذلك فليس من هذا الباب، وهذا الأمر أَرْكَى من هذا أى أهون منه وأضعف».

والعرب تبدل ثالث الأمثال فى المضعَّف ياء، فتقول فى التَّمَطُّط التَّمَطِّى، وفى التَّقَصُّص التَّقَصِّى، وفى التَّظَنُّن التَّظَنِّى، وقالت فى لَبَّبْتُ فى المكان لَبَّيْتُ، وفى قَصَّصْت الشعر قَصَّيْتُ، وقال تعالى: ﴿وقد خاب من دسَّاها﴾ أصله: دَسَّسَها، فإذا جرينا على أن الياء الثانية فى الرَّكِيّ مبدلة من كاف فلابد أن يكون ذلك الإبدال حدث أوّلا فى مصدر الخماسِىّ وهو التَّرَكُّك فأصبح التَّرَكِّى، ثم سَرَى هذا الإبدال إلى مصدر الثلاثىّ وهو الرَّكَاكَة أو الرِّكَّة، فصار المصدر على هذا التوهم الرَّكَاية أو الرِّكْيَة، فاشتقت منه الصفة المشبهة وهى: الرَّكِىّ بمعنى الضعيف، واسم التفضيل وهو: أَرْكَى.

وإنى أرى فى هذا تَكَلُّفا ظاهرًا، وأوثر الاقتصار على أن الياء فى الرَّكِى مبدلة من كاف الرَّكِيك، وفى أَرْكَى مبدلة من كاف أَرَكّ لسبب لا نعرفه، وأنّ الفعل رَكّ هو فعلهما فيقال: رَكَّ الشىء فهو رَكِيك ورَكِىّ، وهذا الشىء أَرَكّ و أَرْكَى من ذاك.

رهم

فى اللسان: الرِّهْمَة بالكسر المطر الضعيف الدَّائم... وأَرْهَمَت السماء إرْهاما أمطرت، وروضة مَرْهُومَة ولم يقولوا: مُرْهَمة.... ونزلنا بِفُلانٍ فكنا فى أَرْهَم جانبيه أى أخصبهما.

ذُكِر من هذه المادة المصدر والفعل المزيد بالهمزة، واسم المفعول من الثلاثى واسم التفضيل، ويمكن أن نصوغ فعلا ثلاثيًا له مادام قد سُمِع اسم المفعول واسم التفضيل والمصدر.

ولما كانت عين المصدر حرف حلق يحسن أن يكون من باب فتح هكذا : رَهَمَت السماء تَرْهَم رِهْمَة : أنزلت المطر ضعيفًا، ورَهَمَت الأرض أخصبت، ورَهَمَت السماء الأرضَ سقتها فالأرض مَرْهُومَة .

سـخـم

فى اللسان : السَّخَم مصدر السَّخِيمَة، والسخيمة : الحِقد والضَّغينة . . . ورجل مُسَخَّم : ذو سَخِيمة ، وقد سَخَّم بصدره، والسُّخْمَةُ : الغضب، وقد تَسَخَّم عليه . . . ، والسُّخْمة السواد، والأسخَم الأسود، وقد سخَّمت بصدر فلان إذا أغضبته . . . والسُّخَام بالضم : سواد القِدْر، وقد سَخَّم وجهه أى سوَّده، . . . ابن الأعرابى : سَخَّمْت الماءَ وأوغرته إذا سَخَّنته .

ونرى أن هذه المادة تشتمل على أصلين : الأول : السَّخَم وهو السواد، وقد تكون الخاء فيها مبدلة من الحاء ، أو الحاء مبدلة من الخاء، وهذا كثير، وقد عدّ السيوطى من ذلك فى المزهر جملة صالحة (انظر ص ٣١٧ و٣١٨جـ١) وتفرع من هذا الأصل على المجاز السَّخِيمَةُ بمعنى الحِقد، والسُّخْمَةُ بمعنى الغَضَب. الأصل الثانى : وهو التسخيم بمعنى التسخين، وظاهر جدًا أنّ الميم فيه بدل من النون، وهذا الإبدال كثير معهود. (انظر ص ٢٧٦ من الجزء الأول من المزهر) .

لهذا نرى أن نكمل المادة على الأصل الأول هكذا : سَخِم الشىءُ يسْخَم سُخْمة وسَخَما سَوِد فهو أَسخمُ وهى سخماء، وسَخَّم وجهَه سَوَّده ومن المجاز سَخِم صَدرُهُ حَقَد، وسَخَّمَه دفعه إلى الحِقْد، وسَخِم الرجُل سُخْمَةَ غَضِب، وسَخَّمْت بصدره أغضبته فتَسَخَّم .

أما على الأصل الثانى : فنرى الاقتصار على المسموع وهو سَخَّمْت الماء لأن إبدال الميم من النون فيه ظاهر.

صـحـم

جاء فى كتب اللغة من هذه المادة الأَصْحَم والصُّحْمَة وهى سواد إلى الصُّفْرة، وقيل هى لون من الغبرة إلى سواد قليل، وجاء فيها الصَّحْماء، واصْحَامَّ النبتُ : اشتدت خضرته ، واصحامَّت الأرضُ : تغيَّر نَبْتُها .

ونرى أن ماذكر فى هذه المادة من المصدر والصفة المشبهة يهدينا إلى أنّ الفعل الثلاثى من باب فرح حتما، وماذكر فيها من الفعل المزيد لا يغنى عن المجرد؛ لأن الزيادة فيه لمعنى زائد وهو التدرّج،

والفعل المقترَح هو : صَحِمَ الشيءُ يَصْحَم صُحْمَةً سَوِدَ إلى صُفْرَة، أو اغْبَرَّ إلى سَواد.

سخد وصخد

في اللسان في مادة سخد : وأصبح فلان مُسَخَّدًا إذا أصبح وهو مُصْفَرٌّ مُوَرَّمٌ. . . ، والسُّخْدُ الرَّهَلُ والصُّفْرَةُ في الوجه، والصاد لغة على المضارعة اهـ .

ثم أعاد العبارة السابقة في مادة صَخَد فاتحا سين السُّخْد قائلا : إن الصاد فيه لغة، ومقتضى عبارة التاج ضمُّها .

وجاء في صفحة ٢٧٧ من المزهر ج ١ عن البطْليوسي : كل سين وقعت بعدها عين أو غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادًا .

ونرى أن الأصل في مادة سَخَد السُّخْد وهو الماء الأصفر الثَّخين يخرج مع الولد، وكل ماجاء فيها من المعاني يحوم حول هذا الأصل، وأن الأصل في مادة صَخَد الحرارة وقوة حر الشمس فهي متصلة بمادة صَهَد، ولابد أن يكون بين الخاء والهاء تبادل ، فالمادتان سخَد وصَخَد مختلفتان في الأصل، والمعاني المتصلة بسَخَد تحتم أن تكون السين أصلا وأن الصاد مبدلة منها، لذلك نرى أن نضع فعلا لهذه المادة ، وأن نقتصر على ما ورد من مادة صَخَد .

ولما كان الفعل حلقيّ العين نرى أن يكون من باب فتح هكذا : سَخَد الرجل يَسْخَد سُخْدًا اسْتَرْخَى لحمه واصفرّ.

سدخ

في اللسان : ضربه حتى انسدخ أي انبسط، ونقل التاج عبارة اللسان ثم قال : وقد تقدم في الجيم فراجعه، وجاء في التاج في مادة سدج « وانْسَدّج مقلوب انْسَجَد وانْدَسّج إذا انكبّ على وجهه كحالة الساجد اهـ » .

ويرافق هذه الطائفة من الأفعال سَدَح ومعناه صَدَع . قال الأزهري : والسَّدْح والسَّطْح واحد أبدلت الطاء فيه دالا كما في مَطَّ وَمَدَّ وما أشبهه، ومن هذا نرى أن الانكباب على الأرض له ستة أفعال: هي سَجَد وسَدَج ودَسَج وسَطَح وسَدَح وسَدَخ .

ونرى أن ادّعاء صاحبِ التاجِ بأنّ انسدج مقلوب انسجد فيه نظر؛ لأننا لم نجد في كتب اللغة نصًا يدل على صحة انسجد، ونعرف أن المطاوعة لانفعل إنما هي مطاوعة الفعل المتعدى ككسره فانكسر، وليس سجد فعلا متعديا بحال. إذًا انسدج فعل قائم بنفسه لا اتصال له بسجد، وهو مطاوع لفعل

متعدٍ هو سَدَج ، ولا فرق فى الحقيقة بينه وبين اندسج لأن كليهما فعل قليل التصرف ، ولكنا نستطيع أن نَعُدّ سَدَج أصلا ونصوغ منه فعلا من باب نصر هكذا : سَدَجَه على الأرض يَسْدُجه سَدْجًا كَبَّه وطرَحه عليها ، ويكون اندسج إذًا مقلوب انسدج ، أما سَدَح وسَدَخ فأصلهما سَطَح أبدلت الطاء فى الأول دالا فصارت سَدَح ، ثم أبدلت الحاء فى هذه خاء فصارت سدخ[1] ، ولما كانت تصرفات الفعل سَطَح أكثر وأوسع نرى أن يكون هو الأصل وأن يقتصر على المسموع من مادتى سَدَح وسَدَخ .

سـطـل

فى **اللسان** : وقال بعضهم الطاسِل والساطِل من الغبار المرتفع ، ومن اسم الفاعل يستطاع الإتيان الفعل من باب نصر : هكذا سطل الغبار يَسْطُل سُطولًا : ارتفع .

سـطـن

فى **اللسان** : الساطِن الخبيث ، وقد ظننت أن السين هنا مبدلة من الشين فرأيت فى اللسان الشاطِن الخبيث ، والشيطان فَيْعَالٌ من شَطَن إذا بَعُد فيمن جعل النون أصلا ، قال فى المصباح : وفى الشَيطان قولان : أحدهما أنه من شَطَنَ إذا بَعُد عن الحقّ أو عن رحمة الله فتكون النون أصلية ووزنه فَيْعَال . . . والقول الثانى أن الياء أصلية والنون زائدة عكس الأول ، وهو من شاطَ يشيط إذا بَطَل أو احْتَرَق فوزنُه فَعْلاَن .

وأقول : إن صوغ الشاطِن بمعنى الخبيث من شَطَن لا شاطَ ، ولما كانت كلمة الساطِن مبدلة من الشاطِن[2] وكانت مادة الشاطِن أعظم وأوسع وجب الاعتماد عليها .

زبـع

فى **اللسان** : الزَّبْع أصل بناء التَّزَبُّع ، والتزبعُ : سوء الخلق ، والمُتَزبع الذى يُؤذى الناس ويُشارُّهم ، والتَّزَبُّع التَّغَيُّظ كالتَّزَعُّب ، وتَزَبَّع الرجل تَغَيَّر ، والزَّبِيع المُدَمْدِم فى غَضَب وهو المتزبِّع .

أقول : ذكر فى هذه المادة مصدر الثلاثى وصفة منه على فَعِيل بمعنى فاعِل هى الزَّبِيع ، وأشار إلى قرب هذه المادة من زَعَب بقوله : والتَّزَبُّع التَغَيُّظ كالتَّزَعُّب وإن كنا نرى أنها مأخوذة من الزَّوْبَعة وهى الشيطان أو الريح المعروفة ، ويُسْتطاع أن يؤتى بالفعل المجرّد من هذه المادة من باب فتح لأنه حلقىّ اللام فيقال : زَبَع الرجل يزْبع زَبْعا : اغتاظ أو ساء خلقه كتَزَبَّع .

---

(١) عدّ صاحب المخصص أمثلة كثيرة لهذا النوع من الإبدال ١٣ ـ ٢٧٦ .

(٢) فى المخصص جملة كافية من هذا النوع من الإبدال ١٣ ـ ٢٧٨ .

زرز

في التاج: الزَّرِيـز كأَمِير: الخفيف النظيف، وقال أبـو عمرو: هو العـاقل المُحْكَم الرأى، ونصّ النوادِر: والشديد الرأى، هكذا نقله الصاغانى وأهمله الجوهرى وصاحب اللسان.

أقول لم يـذكر فى هـذه المادة إلا الصفة المشبهة، وقـوله: الزَّرِيـز كأمِير يدفعنـا إلى الاستئناس بأن فعلها مثل فعل أمير، وأَمِير يكـون من باب فرِح ومن بـاب كَرُم [1]، ولكنا نقصِره على البـاب الثانى ونقترح أن يكون زَرُز يَزْرُز زَرَازَةً خَفَّتْ رُوحهُ ونَظُفَ أو حَصُفَ رَأْيُه.

صقــح

في اللسان: الصَّقْحَةُ الصَّلْعَـة، ورجل أَصْقَح أَصْلَع؛ يمانِية، وفى القامـوس وشرحه: الصَّقَح محركـة: الصَّلَع، والنعت أَصْقَح وهى صَقْحـاء، والاسم: الصَّقَحة محركـة، والصُّقْحـة بالضم لغـة يمانية.

وإذا كان المصدر الصَّقَح والوصف منه على أفعل فعلاء تعين أن يكون الفعل من باب فرِح، وكان الفعل حاصلا فى الكَفّ على حَدّ تعبير ابن جنّى.

سَــغى

أهمله صـاحب اللسـان: وفى التـاج: السَّاغِيَـة، أهمله الجوهـرى، وقال الصاغـانى عن ابن الأعرابى: هى الشربة اللذيذة، وكأنه من سَغَى الشرابُ فى الحلق مقلوب ساغ إذا سَهُل، ثم بُنِيَ منه الساغِيَة وهى كعِيشَةٍ راضِيَة فتأمل.

نقول: إن القلب هنا واضح، ولا نـوافق صاحب التاج فى أن فى السَّاغِيَـة مجازًا عقليًا استُعْمِل فيه اسم الفاعل مكان اسم المفعول لأن الفعل سـاغ يكون لازمًا ومتعديًا، ولزومه أكثر وأشهـر، فالساغِيَة مقلوب السائِغَة من الفعل اللازم ومعناها العذبة اللذيذة السهلة فى الحلق. ولما كان القلب هنا ظاهرًا وجب أن يقتصر على كلمة الساغِية من غير زيادة.

* * *

ومما يَتَّصِـل بهذا الموضوع ما عقـد له صـاحب المخصص بـابًا أسماه: باب أسماء المصـادر التى لا تشتق منها أفعال (الصفحة ٢٢٢ من الجزء ١٤) وقد تناولنا هذا الباب ببحث فياض سننشره فى الجزء

---

(١) فى المخصص: وقالوا: أَمُر علينا كَتْبه. مفتوحان والفتح أجود وأفصح. وهذا يجعله من باب نصر أيضًا.

التالى من المجلة إن شاء الله تعالى[1]. ولكنا نتعجل هنا نشر خلاصة هذا البحث. فنقول :

عد ابن سيده من هـذه المصادر ستة وخمسين مصدرًا، نقل واحـدًا وأربعين منها عن أبى عبيد، ولكن أبا عبيد نفسه ذكر أفعالا لخمسة مصادر منها، وعقب ابن سيده على مصدرين، فذكر لكليهما فعلا. وهـدانا البحث إلى العثور على أفعالٍ لثمانيـة وعشرين منها. أما بقية المصـادر التى جاءت فى هذاالبـاب، فمنها ثمانية عن ابن دريد، وأربعـة عن ابن السكيت، وثلاثة عن ثعلب، وقد وجـدنا لهذه لها أفعالا، وانتهى بنـا البحث إلى أن الستة والخمسين مصدرًا التى زعم أنـه لا أفعال لها لم يصحّ منها إلا ستة مصادر.

(١) انظر صفحة ٢١٧ فى هذا الكتاب.

طموح المتنبي (*)

فى نحو السنة الخامسة عشرة بعد الثلاثمائة ، نرى عند أبواب دمشق شيخًا رقيق الحال ، تقتحمه العين ، أخذ منه جهد السفر وجهد الحياة ، ودل عبوس وجهه ورثاثة زيه أنه لا ينال عيشه إلا بعرق القربة ، ونضح الجبين ، وقد أخذ بضبع غلام فى الثانية عشرة ، سعفته الشمس فزادت وجهه المليح سمرة على سمرته ، وقد شعت عيناه الواسعتان السوداوان بذكاء نادر وعبقرية لا يخطئها من له علم بالفراسة ، وتقدير مواهب بنى الإنسان . وكان هذا الصبى قلق النفس كثير التلفت ، كلما رأى مشهدًا من مشاهد العظمة فى المدينة ، أو مر به سرى من سراتها فى خدمه واتباعه حدق فيه ، ومد عينيه فى لهفة ظمأى ساغبة امتزج فيها الحسد بالغبطة ، واليأس بالأمل ، ثم أطرق إطراقه الحزين ، وهمهم بما يشبه الأنين .

ذانكم هما الحسين بن الحسن ، وابنه أحمد الذى عرفناه بعد ذلك بالمتنبى ، قدم به أبوه دمشق ، ليتلقى فنون الأدب واللغة على جهابذتها وأعلامها ، بعد أن نطقت مخايله بما أعد له الزمان : من مجد رفيع ، وشأن بعيد .

كان الطموح وتطلب معالى الأمور من أبرز صفات هذا الصبى وأظهرها ، والخلق كيفما كان (كريماأو ذميما) إذا تملك نفسًا أخضعها لسلطانه ، وأنزلها عند حكمه ، وتحكم فيها تحكم الصبى على أهله فألقت إليه بعنانها ومكنته من ناصيتها وساقت إليه جميع ما فيها من صفات ، لتكون وسائل غايته ، وحشرت فى طاعته كل ما تستطيع بذله لإطفاء غلته .

فالناس عبيد نفوسهم وما يسيطر عليهم من نزعات قوية إلى الخير أو إلى الشر، وعلماء الأخلاق فى

(*) ألقى هذا البحث فى الاحتفال بالذكرى الألفية للمتنبى ، الذى أقيم بدار الأوبرا فى ٢١ من فبراير سنة ١٩٣٦م ونشر

كل أفق وزمان يحشدون حشدهم، ويجهدون جهدهم لتقوية نزعات الخير والسمو الروحى إلى أرفع أوج، ومحاربة نزعات الشر والتدلى بالنفس الإنسانية إلى الحضيض.

وأساس هذا الخلق ودعامته أن يكبر المرء نفسه أولا، ويثق بمواهبه، ويسخر من شدائد الدهر وأزمانه، ويبذل الوسائل جميعها التى تصل به إلى الغاية، وأن يقدم إذا كان الإقدام عزمًا، ويحجم إذا كان الإحجام حزمًا، وأن يطأطئ ليثب، ويدمن القرع ليلج، وألا ينهنهه بأس، ولا يفل من عزيمته ملل، وأن يصانع ويداهن إذا خطت به المصانعة إلى طلبته، ويهدد ويتوعد إذا طار به التهديد إلى أربته، وأن يجعل عزمه مطية أمله، وأمله فوق نفسه، ونفسه فوق متناول الآمال، وقد كان المتنبى كذلك فى جميع أطوار حياته فهو يقول فى صباه:

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبٍ ... لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ
أَنَا تِرْبُ النَّدى وَرَبُّ الْقَوَافِي ... وَسِهَامُ الْعِدى وَغَيْظُ الْحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللهُ ... غَرِيبٌ، كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

ويقول فى كهولته:

وَفى النَّاسِ مَنْ يَرْضى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاَهُ والثَّوْبُ جِلْدُهُ
وَلكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ مَالَهُ ... مَدًى يَنْتَهِي بى فِي مُرَادٍ أَحُدُّهُ

ويقول فى أواخر أيامه:

ذَرِينِى أَنَلْ مَا لا يُنَالُ مِنَ الْعُلاَ ... فَصَعْبُ الْعُلا فى الصَّعْبِ والسَّهْلُ فى السَّهْلِ
تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً ... وَلابُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

* * *

إن بوادى الطموح، ذلك الخلق العنيف الوثاب ظهرت فى شاعرنا منذ نشأته الأولى، وملكت عليه جوانب نفسه، فأحس عظم همته وسمو مطالبه فى فتائه وصباه، حين يقول فى كبر وصلف:

وخُضرَةِ ثَوْبِ الْعَيْشِ فى الْخُضْرَةِ الَّتى ... أَرَتْكَ احْمِرارَ الْمَوتِ فى مَدْرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِى بِـ(مَا، وكَأَنَّهُ) ... فَمَا أَحَدٌ فَوقِى، وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِي

وقد وصل (فى صباه) إحساسُه عظمَ نفسه وكبر همته إلى حد الجنون، حين يقول:

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ؟ أَيَّ عَظِيمٍ أَتَّقِي ؟
وَكُلُّ مَاقَدْ خَلَقَ اللّٰهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِى مَفْرِقِى

وقدرأى المتنبى ـــ منذ غضارة عوده وميعة صباه ـــ أن آمال نفسه الكبيرة لا تنال إلا بحد السيف وشباة السنان؛ لأنه نشأ فى عصر يشبه عصر الفتوة بأوربا، وقد رأى بعينيه ـ بعد أن أصبحت الدولة العباسية نهبًا مقسمًا ـ أن القوة كانت تؤسس ملكا فى يوم وليلة، لذلك نراه فى جميع أوجه حياته، يرى أن الحق للقوة وأن المجد لا ينال إلا تحت ظلال السيوف؛ استمعوا له حين يقول فى صباه :

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا تَمُتْ وَتُقَاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقًا بِاللّٰهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِى الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِى الفَمِ

وقد يتغلب اليأس على هذا الفتى المسكين، ويحس بُعد آماله، وقصر ذات يده، فيقول :

لِيَسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِى وَلاَ الْقَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِى
وَلاَ أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِي حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقَهَا هِمَمِى
لُمِ اللَّيَالِى التى أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِى بِرِقَّةِ الْحَالِ، واعْذِرْنِى وَلاَ تَلُمِ
أَرَى أُنَاسًا، وَمَحْصُولِى عَلَى غَنَمٍ؛ وَذِكْرَ جُودٍ، وَمَحْصُولِى عَلَى الْكَلِمِ

حتى إذا ضاقت نفس شاعرنا الناشىء، وأنف أن يطوف به طائف من الضعف، قال :

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاَتَ مُصْطَبَرٍ فَالآنَ أُقْحَمُ حَتَّى لاَتَ مُقْتَحَمِ
لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ

على رسلك أيها الفتى ! أين هذه الخيل؟ ومن أين تأتى بالشيعة والأنصار، وقد أراد القدر أن تكون من أسرة حيث وضعها القدر؟ ولكن النفس الطموح تتسلى بالآمال، وتتشبث بأذيال الخيال.

ما هذه الهمَّة الشماء يا أبا الطيب؟ وإلى أى شىء تتجه؟ لقد كشف المتنبى الحدث عن ذات نفسه، وباح بما يحيك فى صدره من ذلك المطلب السامى البعيد، الذى بذل لنيله فيما بعد ماء وجهه وماء حياته، فقال :

أَيَمْلِكُ الْمُلْكَ ـــ وَالأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ ـــ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ

مرحى مرحى !! لقد عرفنا ما كان يريده أبو الطيب؛ إنه كان يريد الملك، نعم لقد كان يريده، ولقد كان من أجل ذلك شديد الحقد على ملوك عصره، حتى فى أيامه الأولى، ولقد حاول فى سن العشرين أن يدعو إلى نفسه، فبايعه طائفة من عرب السماوة، ولكن المحاولة لم تنجح كما كان مقدرًا لها، فأُخذ أبو الطيب وأودع السجن، وأظهر فى السجن ذلة واستخذاء لا يليقان بالفارس المغوار، صاحب الآمال الكبار، حين يناجى فى سجنه صاحب حمص :

أَمَالِكَ رِقِّى، وَمَنْ شَأْنُهُ ... هِبَاتُ اللُّجَيْنِ، وَعِتْقُ الْعَبِيدِ
دَعَوْتُك عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا ... ءِ وَالْمَوْتُ مِنِّى كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَانِى الْبَلَاءُ ... وَأَوْهَنَ رِجْلَىَّ ثِقْلُ الْحَدِيدِ
وقَدْ كَانَ مَشْيُهُمَا فِى النِّعَالِ ... فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فى الْقُيُودِ

وخرج المتنبى من السجن، فنفض عنه ما اعتراه فيه من ضعف، وعاد إلى سالف عزيمته، وآنِف طموحه، ولكنه رأى ضرورة تغيير خططه، وابتكار وسائل جديدة لغايته، فسبق إلى نفسه أن الاستجداء بالشعر، وجمع الأموال من هذه الطريق، قد يُعِدُّه إلى مطلبه الأسمى :

فَلَا مَجْدَ فى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلَا مَالَ فِى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فهام على وجهه فى الآفاق، يمدح من عز وهان، ولكن نفسه كانت تطالعه باليأس من هذه الوسيلة، وتناجيه فتقول :

إِلى كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ وَالتَّوَانِى ... وَكَمْ هَذَا التَّمَادِى فِى التَّمَادِى؟
وَشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِى ... بِبَيْعِ الشِّعْرِ فِى سُوقِ الْكَسَادِ

لا ياصاحبى، إن مطلبك البعيد لا ينال بالخضوع وذل السؤال، فكن كما قلت :

مَنْ أَطَاقَ الْتِمَاسَ شَىْءٍ غِلَابًا ... وَاغْتِصَابًا، لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَا

وكأنى أرى المتنبى، بعد لأى، مطرق الرأس، كاسف البال، بين شعور بالضعف، وأمل فى القوة، ينشد :

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لَا أَلْوِى عَلَى أَحَدٍ ... أَسُوقُ رَاحِلَتَىَّ، الْفَقْرَ والأدَبَا
أَذَاقَنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا ... لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ـ مَا عَاشَ ـ وَانْتَحَبَا
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةً، ... وَالسَّمْهَرِىَّ أَخًا ، والمشرفِىَّ أبا

ولكنه يسأم مديح الناس، وتضيق نفسه بالوهدة التى وضع فيها نفسه، فيثور ثورة الحانق المهدد :

لِلَّــهِ حَـــالٌ أُرَجِّيهَـــا، وَتُخْلِفُنِى وأقتضِى كَـوْنَهَا دَهْـرِى، وَيَمْطُلُنِى
مَدحْتُ قَوْمًا؛ وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ قَصَـائِدًا مِنْ إِنَـاثِ الْخَيْلِ والْحُصُنِ

لماذا كل هذا؟ لأن الناس لا يعرفون قدره، ولأن الأقدار لم تضعه فى موضعه:

أَنَا صَخْـرَةُ الْوَادِى إِذَا مَـا زُوحِـمَتْ وَإِذَا نَطَقْـتُ فَـــإِنَّنِـى الْجَوْزَاءُ
وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغَبِىِّ فَعَـــاذِرٌ أَلَّا تَـــرانِى مُقْلَـــةٌ عَمْيَــــاءُ

ومادام الناس لم يرفعوه فوق الرءوس، ومادامو لاهين عما تستحقه عظمته ومواهبه، فليسحقهم تحت قدميه سحقا، وليقل:

ومَنْ عَـرَفَ الأَيَّـامَ مَعْـرِفَتى بِهَا وَبِـــالنَّـــاسِ، رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ
فَلَيْسَ بِمَـرْحُـوم إِذَا ظَفِـرُوا بِـهِ وَلاَ فِي الـــرَّدَى الجارِى عَلَيْهِمْ بِـــآثِمِ

إن له مطلبا أسمى من قرض الشعر ومن بلوغ الغاية فيه، وقد وسوست إليه نفسه أن هذا المطلب من حقه، وأنه لم يسع إليه متطفلا، ولم يحبس عليه آماله دعيا، استمعوا له حين يقول:

سَـــأَطْلُبُ حَقِّى بِـــالْقَنَـا وَمَشَـايِخٍ كَـأَنَّهُمُ مِنْ طُـولِ مَـا الْتَثَمُـوا مُـرْدُ
ثِقَـالٍ إِذَا لاَقَـوْا، خِفَـافٍ إِذَا دُعُـوا كَثِيرٍ إِذَا شَـــدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُـــدُّوا

سأطلب حقى!! ما هذا الحق الذى يطلبه المتنبى؟ يكشف عن هذا الحق فى كثير من الغموض والإبهام فيقول مرة:

إِذَا غَـــامَـــرْتَ فِي شَرَفٍ مَـــرُومِ فَـــــلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُــــــومِ
فطعـم الموتُ فِي أَمْـــــــــرٍ حَقِيرٍ كَطَعْـمِ الْمَوْتِ فِي أَمْــــــــرٍ عَظِيـمِ

ويقول ثانية:

ذَرِ النَّفْسَ تَـأْخُـذْ وُسْعَهَـا قَبْلَ بَيْنِهَـا فَمُفْتَرِقٌ جَـــارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْــــرُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَجْــدَ زِقًّـا وَقَيْنَـــةً فَمَا الْمَجْـدُ إِلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَـةُ الْبِكْـرُ
وَتَـرْكُكَ فِي الـدُّنْيَـا دَوِيًّـا كَأَنَّمَـا تَـــدَاوَلُ سَمْعَ المَرْءِ أَنْمُلُـــهُ الْعَشْرُ

ويقول ثالثة:

أُرِيــــــدُ مِـنْ زَمَنِى ذَا أَن يُبَلِّغَنِى مَـا لَيْسَ يَبْـلُغُهُ مِنْ نِفْسِـهِ الـــزَّمَنُ

ويقول أخيرًا فى تهويل مرهب مخيف:

تَغَــــرَّبَ لا مُستعظِماً غيرَ نَفْسِـــــهِ وَلاَ قَـــــابِـــــلاً إِلاَّ لِخَالِقِـــهِ حُكْمَا
وَلاَ سَـــالِكـــاً إِلاَّ فُــؤَادَ عَجَــاجَــةٍ وَلاَ وَاجِـــداً إِلاَّ لِمَكْـــرُمَـــةٍ طَعْمَا
يَقُـولُــون لِي : مَـا أَنْتَ فِي كُـلِّ بَلْـدَةٍ؟ وَمَـا تَبْتَغِي؟ مَـا أَبْتَغِى جَلَّ أَنْ يُسْمَى

ما هذا الذى جل أن يسمى يا أخا العرب؟ لقد عرفناه من قبل، ولقد كشف عنه المتنبى مرة أخرى فى بيت دسه فى آخر قصيدة لكافور، حين يقول :

فَـــازِمْ بِـى مَـــا أَرَدْتَ مِنِّـى فَإِنِّـى أَسَـــــدُ الْقَلْبِ، آدَمِىُّ الـــــرُّوَاءِ
وَفُـــؤَادِى مِنَ الْمُلُـــوكِ، وَإِنْ كَــا نَ لِسَـــانِى يُـــرَى مِـنَ الشُّعَــرَاءِ

ولكن ماذا يصنع المتنبى للوصول إلى هذه الأمنية الشاسعة، وقد يقف تطامن نسبه عقبة فى سبيل مطلبه العزيز ؟ لا، لا، إن شيئا من ذلك لن يقف فى سبيل غاياته؛ إن المتنبى يفرع مجدُه، الذى بناه لنفسه، مجدَ الباحثين عن أصله، ومجد آبائهم ، وإن الإنسان إنما يلجأ إلى الفخر بالأنساب بعد أن تنفَد وسائل الفخر الأخرى :

أَنَـا ابنُ مَـنْ بَعْضُـهُ يَفُـوقُ أَبَـا الْـــ ـبَـــاحِثِ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَـــهُ
وَإِنَّمَا يَـــــذْكُــــــرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَـنْ نَفَـــرُوهُ وَأَنْفَـــدُوا حِيَلَـــهُ
فَخْـــراً لِعَضْـبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَـــــهُ وَسَمْهَـــــرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَـــــهُ
وَلْيَفْخَـرِ الْفَخْـــرُ إِذْ غَـــدَوْتُ بِـهِ مُـــرْتَـــدِيًـــا خَيْرَهُ وَمُنْتَعِلَـــهُ
أَنَـــا الَّـــذِى بَيَّنَ الإِلَـــهُ بِـــهِ الْـــ ـــــأَقْدَارَ، وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَـــهُ

ثم يرحل أبو الطيب إلى سيف الدولة ، وإذا قرأنا شعره فى هذا الأمير العظيم ، وقد لزم بساطه نحو تسع سنين ، نرى أن هذه المنازعة العنيفة إلى مطلبه الأسمى قد هدأت كثيرًا، وأن فخره كاد يقتصر على التمدح بمواهبه الشعرية البارعة، وعلى تحدى شعراء العصر جميعًا ، وكانوا شيوخ الشعر ونجوم الدهر، كما يقول الثعالبى .

والسبب فيما أرى أنه لم يجد مجالا، ولم ير فائدة من كشف مراميه البعيدة فى حضرة أمير عربى قوى، نهض بملكه الصغير إلى أسمى المراتب فى السياسة والعلم والأدب، فلم يستطع المتنبى أن ينبس بكلمة عن آماله، ولا عن قومه ونصرائه ، الذين كان يتخيلهم فى كل قصيدة قبل ذلك، لهذا ضاق به المكان على اتساعه، وقلق به المضجع على وثارته، لأنه رأى أنه إن أقام بكنف سيف الدولة فإنه سيعيش شاعرًا ويموت شاعرًا ، وهذا ما تأباه نفسه الطماحة، فماذا يفعل؟ يتيه ويدل ويهدد، ويضن على سيف الدولة بالمديح، ويخاطبه مخاطبة الند، ويقرّعه أحيانا، ويصبح كَلاًّ لا يطاق ولايحتمل، ويخاطب سيف الدولة فى مجلس حافل فيقول :

أُعِيـذُهـا نَظَـراتٍ مِنْكَ صَـادِقَـةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَـا انْتِفَـاعُ أَخِي الـدُّنْيـا بِنَـاظِـرِه إذَا اسْتَـوَتْ عِنْـدَهُ الأنْـوارُ والظُّلَمُ؟
سَيَعْلَمُ الْجَمْـعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَـا بأنَّنِي خَيرُ مَـنْ تَسْعَى بِـهِ قَـدَمُ!

وبعد كل هذا يرضى عنه سيف الدولة، ويقربه، ويخلع عليه، ولكن نفس المتنبى السجينة، تريد أن تنطلق، وتريـد أن تطير إلى جو تجد فيه إربتهـا، وتصل فيه إلى غايتهـا، فيذهب المتنبى إلى مصر، وفيها كـافور يقوم بـالملك عن ابن سيده، فيظن المتنبى أن الزمن واتـاه، وأن أمنيته التى غالبتـه عليها الأيام أصبحت منـه على طرف الثمام! كافـور يقصده أعظم شعـراء المشرق ولا يجود عليه بولايـة؟ هذا مستحيل، كان هـذا الظن الكاذب أكبر غلطـة غلطها المتنبى فى حياتـه، قطع عليها أصـابعه حسرة وندما.

أخذ يتذلل للأسود ويتضع، ويصغـر ويهون، ونسى الشمم، ونسى الشهامة، ونسى صلفه على سيد الدولـة، وهو يرى أن الغاية تبرر الوسيلـة، حتى لقد جعل خاتمة أكثر قصائده فى كـافور، طلبًا ذليلا، يريد منه صاحبه النظر بعين الرأفة والإنصاف... اسمعوا طلبا من هذه:

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِى كَمْ حَيَاتِى، قَسَمْتُهَا وَصَيَّرْتُ ثُلْثَيْهَـا انْتِظَـارَكَ؛ فَـاعْلَمِ
وَلَكِنَّ مَا يَمْضى مِنَ الْعُمْـرِ فَـائِتٌ فَجُـدْ لِي بِحَظِّ البَـادِرِ الْمُتَغَنِّمِ
رَضِيتُ بِمَا تَـرْضَـى بِـهِ لِي، مَحَبَّـةً وَقُـدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَـوْدَ الْمُسَلِّمِ
وَمِثْلُكَ مَنْ كَـانَ الـوَسِيطَ فُـؤَادُهُ فَكَلَّمَـهُ عَنِّـى، وَلَمْ أَتَكَلَّـمِ

ولم يعبأ المتنبى بصلات كافور، ولا بما أغدق عليه من أموال؛ لأنه يقول:

وَمَـا رَغْبَتِى فِي عَسْجَـدٍ أَسْتَفِيـدُهُ وَلَكِنَّهَـا فِي مَفْخَـرٍ أَسْتَجِـدُّهُ

وكان الأسود وعـده بولاية، لا ليفى وعده، بل ليمد له حبل الأمل، وليطيل إقـامته بمصر، فكان المتنبى يطالبه بوعده ويستبطئه، ويتهكم أحيانا بالحال التى وصل إليها كقوله:

أَبَا الْمِسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ فَـإِنِّي أُغَنِّى مُنْـذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ؟
وَهَبْتَ عَلَى مِقْـدَارِ كَفَّىْ زَمَـانِنَـا وَنَفْسى عَلَى مِقْـدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ
إِذَا لَمْ تَنُطْ بِـى ضَيْعَـةً أَوْ وِلَايَـةً فَجُـودُكَ يَكْسُـونى، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وما زال بين إلحاح ودهان، ويأس عـابس، وأمل ضاحك، حتى ظهر له أنه كان مـوضع خديعة هائلـة، وسخرية مخزيـة، وأنه لا ولاية ولا ملـك، وأن ماء وجهه الـذى أراقه، وشممه الـذى دسه فى التراب، لم يحصل منهما على شىء إلا الهزيمة والعار، فهو يقول فى حزن وأنين:

وَلاَ أُمسِى لأَهْلِ البُخْلِ ضَيْفًا ... وَلَيْسَ قِرىً سِوى مُخِّ النَّعَامِ
وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمنْ أَصْطَفِيهِ ... لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ

ثم يفر من مصر تحت ستار الليل. وتنفجر نفسه بهجاء كافور، انفجارا قد يكون الوحيد من نوعه فى تاريخ الأدب، وهنا يعرف المتنبى أن كل وسائله الأدبيه لا تجدى، وأن القلم وحده لا يصل به إلى شاسع آماله، فيقول قول النادم الحزين:

حَتى رَجَعْتُ وَأَقْلاَمِى قَوَائِلُ لِى: ... المَجْدُ لِلسَّيْفِ، لَيْسَ المَجْدُ لِلْقَلَمِ
اُكْتُبْ بِنَا أَبَدًا، بَعْدَ الكِتَابِ بِهِ ... فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ

ولكنه ينظر فيرى أن الشيخوخة أدركته، وأنه بعد كل ما بذله من جهد لم يعمل عملاً، ولم يبلغ أملاً، فيتعزى بأنه جاء إلى الدنيا بعد أن طارت منها فرص المجد، وعاش فى أمم لاتقدر الرجال، فيقول:

وَقْتٌ يَضِيعُ، وَعُمْرٌ لَيْتَ مُدَّتَهُ ... فِى غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ
أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فى شَبِيبَتِهِ ... فَسَرَّهُمْ، وَأَتَيْنَاهُ على الهَرَمِ

ويزيد به الألم، وتلذعه لوعة اليأس وضياع الأمل، فيصيح:

أَمَا فِى هَذِه الدُّنْيَا كَرِيمٌ ... تَزُولُ بِهِ عَنِ القَلْبِ الهُمُومُ؟
أَمَا فِى هَذِه الدُّنْيَا مكَانٌ ... يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الجَارُ المُقِيمُ؟

ولا يزال فى أسف وبكاء على تلك الأمانى الغالية، التى طارت أمام عينيه فى الهواء، وذهبت مع الهباء، إلى أن يقول ـ فى آخر قصيدة قالها ـ قول اليائس المتهدم:

فَرُبَّ يَابُعْدُ عَنْ أَيْدِى رِكَابٍ ... لَهَا وَقْعُ الأَسِنَّةِ فِى حَشَاكَا
وَأَنَّى شِئْتِ يَاطُرُقِى فَكُونِى: ... أَذَاةً، أَوْ نَجَاةً، أَوْ هَلاَكَا...!

الفاروق: الأديب الناقد (*)

«. . امتزج تقدير عمر للشعر وإحساسه بروعته وجماله، بقوة نزعته الدينية وبما رسخ فى نفسه من الإيمان المكين، وكان يميل إلى الصدق فى المديح وإلى الحكمة العالية وإلى الجد فى القول . وكان يستنكر الهجاء ويحاول تأويله نزوعًا إلى درء الحدود بالشبهات . .»

يستطيع الباحثون أن يجدوا مجالا فسيحا للقول إذا حاولوا الحديث عن عدل الفاروق وحكمته ودينه وسياسته . ويستطيع المؤرخون أن يظفروا فى حياة الخليفة العظيم بنبع فياض ينقع الغلة ويشفى العلة . ويستطيع المؤرخون أيضًا أن يهتدوا عند النظر فى سيرته الشريفة ببارق يؤسسون فى ضوئه ماشاءوا من نظريات لنظام الحكم العادل وصفات الحاكم الحكيم .

ولكن الأديب إذا نظر فى حياة عمر رضى الله عنه ـ وقد كانت حياة جد وصرامة وجهاد وعزم ـ لا يجد إلا لمحات هنا وهناك انتثرت فى كتب الأدب يعثر عليها بين الحين والحين .

وقلة ما بين أيدينا من لفتات الفاروق فى الأدب ونقده للشعر، إنما كانت لأن الكاتبين الأولين حينما كتبوا تاريخه العظيم توجهوا إلى أبرز صفاته وأظهر مميزاته فبهرهم لألاؤها، وملك عليهم زمام القول جلالها، ورأوا أن الوقت أضيق من أن يتسع لاستقصائها، فأسرعوا يدونون منها ما يستطيعون، ويتلقفون من كريم أخبارها ما يتلقفون .

أرأيت البحر الخضم المائج وقد وقفت على طرف من سيفه، أكنت مستطيعًا أن تحيط بمداه، أو تقف طرفك عند منتهاه؟

(*) : نشر بصحيفة «دار العلوم» بالعدد الأول يوليو ١٩٣٦م. من ص ٦٧ ـ ٧٦ .

أرأيت السماء الصافية فى الليلة الصاحية وقد طرزت النجوم رقعتها ، ولمعت الزهر على شطآن مجرتها؟

أترى وقد أرسلت طرفك إلى هذا الفضاء الفسيح أنك قادر على عد هذه الكواكب المشتبكة المتناثرة؟

كان الفاروق أديبا ، وكان له ذوق عربى صميم فى نقد الشعر، ونظرة البصير فى الحكم على جيده ورديئه . ولو أن المؤرخين عنوا بهذه الناحية من حياة عمر لوصل إلينا منها الجم الكثير.

كانت النزعة الأدبية فيه شديدة الإحساس. وهذه النزعة هى التى دفعته إلى الدخول فى الإسلام فهو لم يسلم خوفًا من أحد ، ولم يسلم رغبة فى جاه أو عتاد ، ولكنه أسلم لأنه قرأ القرآن الكريم وتأثر به فملك شعوره وأخذ عليه نواحى نفسه .

وقد امتزج تقدير عمر للشعر وإحساسه بروعته وجماله ، بقوة نزعته الدينية وبما رسخ فى نفسه من الإيمان المكين ، فكان يميل إلى الصدق فى المديح وإلى الحكمة العالية وإلى الجد فى القول ، وكان يستنكر الهجاء ويحاول تأويله نزوعا إلى درء الحدود بالشبهات. وكان شديد الميل إلى شعر زهير بن أبى سلمى ، لمزيد عنايته بصقل شعره ، وتهذيبه ، ولكثرة ما كان يأتى فى تضاعيف كلامه من الحكم ، ولأنه كان لا يمدح إلا مستحقّاولأنه كان شاعر سلم لا شاعر حرب ، وقف مواهبه الشعرية على الإصلاح بين القبائل وحقن دمائها . فقد كان عمر يقول : أشعر الشعراء من يقول من ومن ومن ، يقصد زهيرًا ويشير إلى ما جاء من صنوف الحكمة فى آخر معلقته .

دخل مرة على عمر بن الخطاب ، ابن هرم بن سنان (ممدوح زهير) فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن هرم بن سنان . قال : صاحب زهير؟ قال : نعم . قال : أما إنه كان يقول فيكم فيحسن . قال : كذلك كنا نعطيه فنجزل . قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

قال ابن عباس : قال لى عمر بن الخطاب : أنشدنى من قول زهير، فأنشدته قوله فى هرم بن سنان ابن حارثة حيث يقول :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأفلاذ من ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا ... مرزّؤون بها ليل إذا احتشدوا
محسّدون على ما كان من نعم ... لاينزع الله منهم ماله حُسدوا

فقال عمر: ما كان أحب إلى لو كان هذا الشعر فى أهل بيت رسول الله !

فعمر هنا بعربيته الذواقة يدرك جلال الشعر وجماله وقوته، وبإسلامه الراسخ لا يريد إلا أن يكون الشعر صورة للحق الأبلج لا ختل فيه ولا خداع، فهو لذلك يود لو كانت أبيات زهير مديحًا فى بيت النبوة ليتم له المثل الأعلى الذى يريده للشعر، وهو أن يصل إلى قمة البلاغة مع الصدق الذى لا يعبث به رياء .

وقال عمر مرة ـ فيما روى الرواة ـ لابن عباس : أنشدنى لأشعر الناس الذى لا يعاظل بين القوافى ولا يتبع حوشىّ الكلام. قال : من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : زهير بن أبى سلمى . فلم يزل ينشده حتى أصبح .

وكان عمر يطرب لقول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفاذ أو جلاء

ويلى زهيرًا فى المنزلة عنده نابغة بنى ذبيان للسبب الذى ذكرناه آنفًا، وهو جزالة شعر النابغة، وميله إلى الحكمة وضرب المثل، ولأنه فى كثير من اعتذاراته للنعمان كان يصور الحقائق كما هى من غير مواربة أو مخاتلة .

دخل على الفاروق مرة وفد من غطفان فقال لهم من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال لهم : من الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى ... على وجل تظن بى الظنون
فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

قالوا هو النابغة، قال: هو أشعر شعرائكم . والبيت الثانى من بيتى النابغة يشبه لغة الإسلام ولعل ذلك كان سببا فى إعجاب عمر بهذا الشعر، فقد رسخ الدين الكريم فى نفسه رسوخًا حبب إليه كل شىء من الشعر فيه أخلاق الإسلام وآدابه .

حج مرة فلما كان بضجنان قال : لا إله إلا الله العلى العظيم المعطى من يشاء ماشاء، كنت بهذا الوادى فى مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب، وكان فظًا يتعبنى إذا عملت ويضربنى إذا قصرت، وقد أمسيت الليلة وليس بينى وبين الله أحد ثم تمثل :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذتجرى الرياح له ... والجن والإنس فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت نوافلها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يوما كما وردوا

وأشهد أن هذا الشعر لم يعظم عند عمر إلا لأنه يفيض بآداب الدين وينطق بلغة الإسلام .

وكثيرًا ما كانت القبائل أو عظماء العرب تفزع إلى ـ عمر رضى الله عنه ـ يستعدونه على الشعراء الذين هجوهم، فكان عمر رفقا بالشعراء وإبعادًا للشر عنهم يتكلف التأويل لهذه الأهاجى، ويبالغ فى تهوين أمرها، وهو أعلم بما انطوت عليه من سم زعاف. وحكايته مع الزبرقان بن بدر والحطيئة مشهورة .

ولما هجا النجاشى رهط تميم بن مقبل استعدوا عليه عمر وقالوا يا أمير المؤمنين إنه هجانا، قال : وما قال فيكم؟ قالوا قال :

إذا الله عادى أهل لؤم ودقة ... فعادى بنى عجلان رهط ابن مقبل

قال عمر: هذا رجل دعا؛ فإن كان مظلوما استجيب له، وإن لم يكن مظلومًا لم يستجب له .

قالوا : فإنه قد قال :

قبيلته لا يخفرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يريدون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل

قال عمر: ليت آل الخطاب مثل هؤلاء فإن ذلك أجمّ وأمكن، قالوا فإنه يقول :

وما سمى العجلان إلا لقوله ... خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

قال : سيد القوم خادمهم فما أرى بهذا بأسًا .

والخلاف فيما أعتقد بين رهط تميم وعمر أنهم يفهمون الشعر بروح الجاهلية، وعمر رضى الله عنه يفهمه بروح الإسلام .

كان عمر مع هذا يبغض صريح الهجاء ويستنكره، وقد حبس فيه الحطيئة لما لم يجد مناصا من عقوبته، ولكنه كان يتأثر بالشعر إذا استعطف به. وقد كان الحطيئة حين استعطفه ليطلق سراحه أعلم الناس بأخلاق الفاروق، فجاءه أولا من ناحية بنيه الصغار وما يلاقون من جوع وشظف بعد حبس أبيهم، ثم لما همّ بمدحه لم يجاوز الحد ولم يقل إلا حقًا :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله ياعمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ... ألقت إليك مقاليد النهى البشر
ما آثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم قد كانت الأثر

لذلك أمر عمر بإطلاقه وأخذ عليه ألا يهجو مسلما .

وكان عمر رضى الله عنه شاعرًا مقلا . قال سعيد بن المسيب كان أبو بكر شاعرًا وعمر شاعرًا وعلى أشعر الثلاثة .

وقد كان شعره صورة من نفسه المؤمنة ، حتى إنه حينما أراد أن يرتجز لحداء ناقته كان يقول :

إليك يغدو قلقا وضينها ... مخالفا دين النصارى دينها

أى دين صاحبها . ومن قوله يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... على كل دين قبل ذلك حائد
غداة أجال الخيل فى عرصاتها ... مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره ... وأمسى عداه من قتيل وشارد

هذا موجز فى الناحية الأدبية الشعرية من حياة الفاروق أرجو أن يكون فيه غنية للمتأدبين .

اقتراح في مراتب وضع الألفاظ

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ لسنا الآن فى صدد الكلام على اختيار كلمات للمعجم الكبير الذى سنضعه إن شاء الله؛ فإن هذا المعجم سيشتمل على كل شىء من حديث الكلام الصحيح وقديمه، مشهوره وغريبه، ذائعة ونادره، وإنما البحث الآن محدود باختيار كلمات صحيحة لأدوات حديثة، أو آلات جديدة، أو أى شأن من شئون الحياة العامة، وبعبارة أخرى: نحن فى صدد اختيار كلمات صحيحة بدل الكلمات التى يستعملها الناس محرفة أو أعجمية أو عامية ولا مسوغ لها، وأرى أن هذا الاختيار يتطلب وضع نظام محدد حتى لا تعمى علينا الطرق، وحتى لا نحتاج إلى الإفاضة فى المناقشة واقتراح مبدأ جديد عند النظر فى كل كلمة يراد اختيارها.

ومجالات الاختيار معروفة محصورة وهى :

(أولا) الكلمات العربية الفصيحة.

(ثانيا) الكلمات العامية الصحيحة، أو المحرفة وفى الاستطاعة تصحيح ألفاظها.

(ثالثا) الاشتقاق.

(رابعا) المجاز .

(خامسا) التعريب.

وأرى أن يكون النظام المتبع عند اختيار كلمة لمعنى من معانى الشئون العاملة أن ننظر:

(١) فإن وجدنا للمعنى الجديد فى المعجمات لفظا يطابقه، وكان هذا اللفظ جامعا ما اشترطناه من الخفة وموافقة الذوق ـ أخذناه.

(٢) ويجب أن نتجه بعد ذلك إلى متعارف الكلام عند الناس : فإن رأينا اللفظ الذى وضعوه لهذا

المعنى يمكن تصحيحة وتخريجه ؛ اختير اللفظ المتعارف ؛ ليكون بجانب اللفظ المعجمى رديفا ، وأبيح للناس اختيار اللفظ الذى يرونه .

أمـا إذا كان اللفظ العـامى بحيث لا يهتـدى إلى أصله العـربى ، لكثـرة مـا اعتوره من عـواصف التحريف فى أدوار التاريخ ، أو كان منحولا من لفظة أعجمية ـ فإنه يجب نبذه .

أما إذا لم يوجد للمعنى الجديد لفظ يطـابقه فى المعجمات ، ووجد فى متعارف الكلام لفظ يستطاع تصحيحه ـ فإنـه يكتفى باختيار اللفظ المتعارف . فإذا أظهر البحث فى مستقبل الأيـام لفظا معجميا يطابق المعنى وضع هذا اللفظ بجانب اللفظ الأول .

(٣) فإذا لم نجد هذا ولا ذاك عمدنا أولا إلى الاشتقاق .

(٤) فإن لم يسعدنا الاشتقاق عمدنا إلى المجاز ، وذلـك إنما يكون باختيار كلمة من مهجور اللغة للمعنى الحديث ، لمناسبة بين المعنيين كما نسمى الـ Direction بالكوثل .

(٥) فإن لم نجد فى ذلك طلبتنا عمدنا إلى التعريب ، وذلك آخر سهم فى الكنانة .

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر ـ نريد من حضرة الأستاذ على الجارم أن يذكر لنا أمثلة .

حضرة العضو المحترم الأستـاذ على الجارم ـ إذا كـان عندنا معنى جـديد لآلـة أو أداة مثل (حنفية الماء) فإن أول ما نعمله هـو أن ننظر إلى ناحيتين مختلفتين . وهما ناحيتا المعاجم ، واللغـة العامية ، فإن رأينا فى المعـاجم كلمة تطـابق هذا المعنى ، ورأينـا فى العاميـة كلمة يمكن أن تكـون صحيحة أخـذنا الكلمتين فقلنا (الصنبور والحنفية) وتركنا الناس أحرارا فى استعمال أية كلمة منهما .

وإذا وجدنا أداة لم نجد لها اسما مطـابقا فى العربية الفصيحة ، مثل (عقرب السـاعة) وهى كلمة لم يستعملها العرب فى هذا المعنى ، ولكنها عربية صحيحة ، نقول : عقرب الساعة ولا نقول : (المشير) ؛ فإن هذه الكلمة موضوعة بالاشتقاق ، ونحن لا نلجأ إليه متى وجد العامى الصحيح .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ هل هناك مشابهة بين العقرب وعقرب الساعة ؟

حضرة العضو المحترم الأستـاذ الشيخ أحمد الإسكندرى ـ القدمـاء سموه عقربا لمشـابهة بينه وبين العقرب .

حضرة العضو المحترم الدكتور فـارس نمر ـ كلمة (عقرب الساعة) عاميـة ، وجدت إما للمشابهة بينها وبين العقرب ، وإما لسبب آخر ، فليست العلاقة هى المشابهة دائما .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ ذيوع الكلمة طول هذه السنين يشفع لها ، وأنا أعتقد أن لابد من صلة وإن خفيت .

حضرة العضو المحترم الدكتور فارس نمر ـ كانت المشابهة فى زمن من الأزمان، ثم تنوسيت بانقضاء هذا الزمان، فليس من الضرورى إذن أن نبحث عن العلاقة سواء أكانت المشابهة أم غير المشابهة مادام اللفظ عربيا صحيحا، وهو شائع فى معناه .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ أما كلمة (الحنفية) العامية ـ فلها مناسبة أو وجه صحيح فى العربية، لأنها كما قيل نسبة إلى الحنفية المنتسبين إلى الإمام أبى حنيفة، فهذه نقبلها .

وأما المثال الثانى وهو (عقرب الساعة) الذى قلتم إننا نقبله ـ فهل هناك مناسبة بين العقرب وعقرب الساعة؟

حضرة صاحب المعالى رئيس المجمع ـ هناك قاعدة ومثال : أفى المثال تطعن أم فى القاعدة؟

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ أطعن فى القاعدة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ الجارم ـ القاعدة أننا إذا لم نجد فى المعجمات كلمة للمعنى الجديد نفضل الكلمة العامية الصحيحة المتعارفة .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ كلامى فى القاعدة، أما المثال فلو بحثنا فيه وضح ما قاله الأستاذ الإسكندرى من أن لعقرب الساعة نوعا من الشبه بالعقرب، فالمثال صحيح ، والقاعدة غير مسلم بها ؛ فإن قاعدة الأستاذ الجارم أن نأتى بالكلمة العامية ولو لم يكن بينها وبين المعنى صلة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ أقول نأتى بالكلمة العامية إذا لم يكن لها رديف فى العربية .

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ هذه القاعدة خارجة عن القواعد العربية، وقد تدخل فى اللغة ألفاظا كثيرة غير صحيحة .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ الكلمة التى اختيرت عربية صحيحة، فماذا يضيرنا لو أضفنا إلى معجمنا كلمة عربية صحيحة جرت على ألسنة العامة؟

حضرة العضو المحترم الشيخ حسين والى ـ إذا جرت الكلمة العامية على أقيسه العرب قبلناها، وإلا فلا نقبلها .

حضرة العضو المحترم أحمد العوامرى بك ـ الكلمة صحيحة عربية مستعملة فى معنى شائع .

حضرة العضو المحترم الشيخ إبراهيم حمروش ـ إن اقتراح الأستاذ الجارم لا يخرج فى الجملة عن المادة الثانية من لائحة المجمع .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم ـ هناك فرق بين ما أقوله وبين اللائحة : فأنا أريد أن أبين المراتب التى ينتهجها الواضعون للألفاظ ، فهل توافقون على الترتيب الذى أقترحه؟

حضرة العضو المحترم الشيخ أحمد الإسكندرى - أرى أن نتبع اللائحة ؛ فإن اللائحة هى العقد الذى اتفقنا عليه، وهى دستورنا .

حضرة العضو المحترم الأستاذ جب - إذا اتفق حضرات الأعضاء على أن تطبق اللجان هذه القواعد كانت بمثابة توضيح لما فى اللائحة .

حضرة العضو الأستاذ نلينو - أوافق حضرة الأستاذ على الجارم، غير أنى أخشى أن نقيد أنفسنا ونحن فى بدء أعمالنا بقيود ثقيلة، وقد يخيل إلينا أن الأمر هين، ولكننا لا نعرف ما يطرأ فى المستقبل . ثم إن اقتراح الأستاذ الجارم خلو من (التعريب) ولابد من التعريب أحيانا . على أنه لم يذكر مع المعاجم المراجع العلمية التى تحوى المصطلحات مثل كتب الطب والعلوم .

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - لقد ذكرت التعريب فى اقتراحى ، ولا مانع عندى أن أقول (المراجع) بدلا من المعجمات؛ لتدخل كتب العلوم التى تحوى المصطلحات .

حضرة صاحب المعالى رئيس المجمع - أتوافقون على اقتراح الأستاذ على الجارم أم تكتفون بما ورد فى المادة الثانية من اللائحة؟

فقرر المجمع الاكتفاء بالتزام اللائحة .

حضرة صاحب المعالى الرئيس - لننتقل إذن إلى البحث فى الكلمات العامة .

كما جاء فى محضر جلسة المجمع فى دورته الثانية بالجلسة رقم ١٢ فى مارس ١٩٣٥ ونشر فى مجلة المجمع ص ١٢١ .

مقدمة

ديوان على الجارم (*)

الحمد لله ، والصلاة على جميع رسله وأنبيائه ، وبعد فإنى لا أريد أن أسهب فى الكلام على معنى الشعر وخصائصه . ومبعث الروحانية فيه ، ذلك لأن هذا المبحث طرقه الباحثون كثيرًا فأخفقوا . وأطالوا فيه فكانت إطالتهم أول دليل على العىّ والحصر، ومن العىّ إطالة الكلام، وتكرار تاء التمتام .

أرادوا أن يحدُّوا روحانيته بالألفاظ . فعجزت الألف ، وضلت الباء . وكيف يحيط المحدود بغير المحدود؟ وكيف تكشف ظلمة المادة توهّج النور؟

إن شرح آثار الإحساس الجسمى من أبعد الأمور تأتيًا وأدخلها فى باب الاستحالة . أرأيت لو أنك ذقت سكرًا أو ملحًا ، ثم سألك سائل متعنت أن تشرح له طعم السكر أو الملح ، أكنت مستطيعًا؟ أرأيت لو شممت وردًا أو نرجسًا ، ثم بدهك إنسان يفقد حاسة الشم أن تبين له فى وضوح ودقة ذلك الأثر الذى شعرت به . أكنت قادرًا على أن تجد له اللفظ إن وجدت المعنى؟

فإذا كان هذا الشأن . وتلك الحال فى إحساس الأجسام ، فكيف فى إحساس العقول؟ وإذا كانت الألفاظ عاجزة عن وصف أثر المادة الجامدة فى الأجسام ، فكيف تكون إذا همت بوصف أثر الروح النورانية فى النفوس والأرواح؟

حاول عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه «أسرار البلاغة» ، « دلائل الإعجاز» ، أن يشرح ما بهر نفسه من ضروب البلاغة فى بعض ما ساق من الشواهد فأخفق وأخفق ، وطالما نظرتُ مبتسما إليه وهو يكد ويكدح ، ويعلو ويسفل ، ويحاول الوصول إلى مواطن السحر فلا يستطيع ، ويتلمس اللفظ لشرح ما

(*) نشر بمجلة الهلال بالعدد نوفمبر ١٩٣٧ ص ٢٤ .

يجول بنفسه فلا يوفق، والغيظ ينفخ أوداجه، والألم تسمعه فى نبرات لفظه، يرسل الصيحة إثر الصيحة، كأنما يدعو إلى اصطياد ظبى نافر، أو إلى التوثب إلى أجنحة طائر، ثم هو بعد طول الصياح وشدة الإلحاح لم يعمل شيئًا، ولم يترك فى كف القارئ شيئا!

إنك تهتزّ للبحترى، وتطرب له، ولكنك لا تستطيع أن تفضّ خاتم سحره، ولا أن تنقل إلى نفس غيرك صدى جرسه فى نفسك حين يقول فى الفتح بن خاقان:

وَلَمَّا حَضَرْنا ساحَةَ الإذْنِ أُخِّرَتْ ... رِجالٌ عن البابِ الذى أنا داخِلُهْ
فأفْضَيْتُ مِنْ قُرْبٍ إلى ذى مَهابَةٍ ... أُقابِلُ بَدْرَ التِّم حينَ أُقابِلُه
فَسَلَّمْتُ فاعْتاقَتْ جَنانِىَ هَيْبَةٌ ... تُنازِعُنى القَوْلَ الذى أنا قائِلة

السحر فى اختيار النظم، وفى إبداع التصوير، وفى وضع الكلمة فى موضعها، وفى الجرس والنغم، ولكن أين السبيل إلى إبانة ذلك؟

قف أمام صورة بديعة لمصور ماهر، وكن ممن يفهمون سّر الفن، ومعنى الألوان وامتزاجها وتشاكلها، ثم اشرح لصديق آيات النبوغ فيها، فإن فعلت - ولن تفعل - فتجرأ على إفشاء سر البيان، وتصوير الخيال.

والناس يلهجون قديمًا بقول عُروة بن أذينة:

إنَّ التى زَعَمَتْ فُؤادَكَ مَلَّها ... خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقْت هَوى لها
بَيْضاء باكَرَها النَّعيمُ فَصاغَها ... بِلَباقَةٍ فَأَدَقَّها وأجَلَّها
مَنَعَتْ تَحِيَّتَها فَقُلْتُ لِصاحِبِى ... ما كانَ أَكْثَرَها لَنا وأقَلَّها!
فَدَنا وقالَ لَعَلَّها مَعْذُورَةٌ ... فى بَعْضِ رِقْبَتِها فَقُلْتُ لعَلها

ويقولون: إن أبا السائب المخزومى نزل بعُروة بن عبيد الله فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، أبيات لعروة بن أذينة، بلغنى أنك سمعته ينشدها، فأنشده الأبيات، فلما بلغ قوله:

فَدَنا وقالَ لَعَلَّها مَعْذُورَةٌ ... فى بَعْضِ رِقْبَتِها فَقُلْتُ لَعَلَّها

طرب وقال: هذا والله الدائم الصبابة، الصادق العهد، لا الذى يقول:

إن كان أهلُكِ يمنعونَكِ رغبةً ... عنِّى، فأهلى بى أضَنُّ وأرغبُ

لقد عدا هذا الأعرابى طوره! وإنى لأرجو أن يُغْفَرَ لصاحب هذه الأبيات لحسن الظن بها. وطلب العذر لها، ثم عرض عروة الطعام فقال: لا والله، ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعامًا حتى الليل!

إن الأديب وحده هو الذى يفهم الشعور الذى ملك على المخزومىّ نواحى نفسه، واللذة الفنّية التى لم يُرِد أن يفسدها بطعام طول يومه.

ثم انظر إلى قول سعد بن ناشب وكان من مردة العرب، وشياطين الإنس، تجد فخامة وجزالة وبطولة لا يصوّرها إلا الشعر، ولا يدركها إلا ذوق الشاعر:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... ونكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جانِبًا
ولم يَسْتَشِرْ فى رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... ولم يَرْضَ إلاَّ قائِمَ السَّيْفِ صاحِبًا

ومن التصوير الرائع الذى يملك الجنَان، ويعقل اللسان قول أبى نواس:

رَكْبٌ تَسَاقَوْا عَلَى الأَكْوارِ بَيْنَهُمُ ... كَأْسَ الكَرَى فَانْتَشَى الْمَسْقِيُّ والسَّاقِي
كأَنَّ أَرْؤُسَهُمْ والنَّوْمُ وَاضِعُهَا ... عَلَى الْمَنَاكِبِ لَمْ تُخْلَقْ بأعْنَاقِ
سارُوا فَلَمْ يَقْطَعُوا عَقْدًا لِرَاحِلَةٍ ... حتَّى أَنَاخُوا إِلَيْكُمْ بَعْدَ أَشْواقِ
مِنْ كُلِّ جائِلَةِ الطَّرْفَيْنِ نَاجِيَةٍ ... مُشْتَاقَةٍ حَمَلَتْ أَوْصَالَ مُشْتَاقِ

قالوا: إن محمد بن زياد الأعرابى كان يطعن على أبى نواس، ويعيب شعره. ويضعّفه ويستلينه، فجمعه مع رواة شعر أبى نواس مجلس، فأنشده أحدهم الأبيات السابقة، فقال: لمن هذه الأبيات؟ وكتبها، فقال: للذى تذمه وتعيب شعره أبى على الحكمى، قال: اكتم علىّ، فوالله لا أعود لذلك أبدًا.

وإذا أردت لهو أبى نواس وعبثه الذى يبعث فى النفس إعجابا يروغ من التصوير، ونشوة تفر من الوصف والتعبير، فاستمع إليه حين يقول:

غَنِّنَا بِالطُّلُولِ كَيْفَ بَلِينَا ... وَاسْقِنَا نُعْطِكَ الثَّنَاء الثمينَا
من سُلافٍ كأنها كلُّ شئ ... يَتَمنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا
فإذَا مَا اجْتَلَيْتَهَا فَهَبَاءٌ ... يَمْنَعُ الْكَفَّ مَا يُبِيحُ الْعُيُونَا
ثُمَّ شُجَّتْ فاستضْحَكَتْ عن لآلٍ ... لو تَجَمَّعْنَ فى يَدٍ لاقْتُنِينَا
فى كُؤوسٍ كَأَنَّهُنَّ نجُومٌ ... دائراتٌ، بُرُوجُهَا أَيْدِينَا
طَالِعَاتٌ مَعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا ... فإذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا

هذا فن يدركه الذوق، ولا يشّرح تشريح الجثث.

ومن الأبيات التى يروعك جمالها: ويهتز وجدانك لتأثيرها، ويبهر نفسك تصويرها، قول الشريف الرضى:

ولَقَـــدْ مَـــرَرْتُ عَلى دِيـــارِهِمُ ‏ ‏ ‏ وطُلُـــــولُها بِيَـــدِ البِلَى نَهْبُ
فَتَلَفَّتَتْ عَيْنى فَمُـــــذْ خَفِيَتْ ‏ ‏ ‏ عَنّى الطُّلُـــــول تَلَفَّتَ القَلْبُ

ولو أردنا أن نقول فى لطف جمال الشعر وروحانيته، وعجز الألفاظ عن الإحاطة بسره، وإماطة اللثام عن مكنون سحره، لطال حبل الكلام، وحاد القلم عن الجادّة، ولكنا نستطيع أن نقول فى جملة قصيرة إن جمال الشعر فى نظمه وجرسه ورنينه، وفى انتقاء ألفاظه وتجانسها. وفى ترتيب هذه الألفاظ ترتيبًا يبرز المعنى فى أروع صورة وأبدعها، وفى اختيار الأسلوب الذى يليق بالمعنى ويلبّق به؛ فمرة يكون إخبارًا، ومرة يكون استفهامًا، ومرة يكون استنكارًا، ومرة يكون نفيًا، ومرة يكون تعجبًا؛ كل ذلك يكون مع المحافظة على الأسلوب العربى الصميم.

ثم فى المعانى وابتكارها أو توليدها من القديم فى صورة جديدة رائعة، ثم فى الخيال وحسن تصويره والتزام الذوق العربى فيه، ثم فى إحكام القافية والتمهيد إليها، ثم فى انتقاء البحر الذى يلائم موضوع القصيد، ثم فى التنقل فى القصيدة فى فنون شتّى من القول مع المحافظة على الوحدة الشعرية، ثم فى روح الشاعر وخفة ظله، وانسياقه مع الطبع. وتعمده لمس مواطن الشعور.

ولا يكون جمال الشعر دائمًا بالمجاز والتشبيه وضروب التزويق اللفظى؛ وإنما جماله فى استعداده للنفاذ إلى النفس والوصول إلى القلب على أى صورة كان، وفى أى ثوب يكون، ولأمر ما كان لبعض الشعر الجاهلى منزلته التى لا تسامى، ومحله الذى لا ينازع، ولأمر ما هوى الشعر صريعًا يلهث حينما أثقله المتأخرون بنفائس الحلى وأنواع الحلل.

وقد يخلط من لابصر له بالشعر بين تأثير الحال التى قيل فيها الشعر وتأثير الشعر نفسه، وكثيرًا ما نال الشاعر تصفيق الجماهير واستحسانهم لأنه يتجه إلى عاطفة فيهم سريعة الالتهاب سهلة الإثارة، وكثيرًا ما يلجأ بعض الشعراء فى موضوع بعيد عن عاطفة العامة إلى الاستطراد إلى ذكر ما يثير نفوسهم استجداءً لصيحات الاستحسان وطلب الإعادة.

هذا دجل أدبىّ نعوذ بالله منه، وهذا إفساد للفن ممن يريدون الالتصاق بالفن. شأن هؤلاء شأن صغار المصورين الذين يعمدون إلى دريهمات العامة بالإكثار من الألوان الزاهية البراقة، وإن ضاع الانسجام، وقُتل الفن الرفيع قتلا.

وربما كان الشعر أعصى الفنون على التعلم، وأبعدها من أن ينال بالدرس والتدريب، إنما هو شعاع يضعه الله فى قلب من يشاء، وهبة يمنحها لمن يشاء، وحاسة معنوية يزيدها فى خَلْق نفر من عباده يحسون بها مالا يحسه كثير من الناس، فيترجمونه بيانًا ساحرًا، وقولا مبينًا.

والشعر طريق معبّدة بين عالم الأجسام وعالم الأرواح، ينقل إلى المادة الفانية نفحات الروح

الخالدة، ويرسل إلى ظلمات الحياة نورًا قدسيًا، يبدّد غيوم الغموم، ويكشف السبيل للأمل الحائر.

فليس الشعر الوزن وحده، ولا القافية وحدها، ولا الكلمات التى تملأ فراغ التفاعيل، وإن عذبت ولطفت، وإنما الشعر ما وراء كل بيت من ضوء روحانىّ وجد له بين ألفاظه منفذًا، ومن سحر سماوىّ زحزح البيتُ دونه طرف الستار.

وشأن الشعر شأن الفنون كلها، إما أن يكون فنًا، وإما ألاّ يكون، وإما أن يكون شعرًا، وإما ألاّ يكون، فليس فيه كبقية منتجات العقول جيد ومتوسط ورديء. فهو إما أن يكون جيدًا، وإما ألا يكون شعرًا، نعم إن الجودة متفاوتة، ولكنها إذا نزلت إلى حد التوسط فقد الشعر مميزاته، وسلب مقوماته، وأصبح كلامًا، كما يُجرّد القائد المذنب من رتبه وألقابه فيصبح جنديًا.

والكلام فى الشعر يطول، وبحور الشعر فيّاحة النواحى، بعيدة الغور، ولكنى أريد هنا أن أقدّم للأدباء وجمهرة المثقفين مجموعة أشعارى، بعد أن أرجأت طويلاً نشرها، وأهملت كثيرًا فى جمعها، وبعد أن ألح علّى كثير من أصدقائى فى إبرازها لتنال حظها فى سوق الأدب.

فإذا استطاعت هذه الأشعار أن تزيد فى بناء العربية صفًّا، أو أن تضيف إلى آياتها البينات حرفا. أو أن تذيع من مسكىّ معانيها شذًا طيبًا وعرفًا، فقد بلغت المنى، وحمدت السرى، ونلت التوفيق كله، وسكنت نفسى أن قدمت بين يدىّ عملاً أشعر أن فيه أداء لحق لغتى وأمتى، وأن فيه غذاء صالحًا للناشئة المصرية الكريمة التى بذلت حياتى وأبذل ما بقى منها فى تثقيفها وإنهاضها إلى الأوْج الذى تريد وأريد.

(*) نشرت فى مقدمة ديوان على الجارم الجزء الأول عام ١٩٣٧م.

المصادر التى لا أفعال لها (*)

أسلفنا الكلام (1) فى الجزء السابق من المجلة فى تطبيق ما أقره المجمع من تكميل المواد اللغوية الناقصة، ولما كان هذا الأصل الخطير الشأن يشترط فى هذا التكميل ألا ينص علماء اللغة أو يشيروا إلى أن المادة لم يسمع لها فعل، أو أن فعلها أميت، وجب على الباحثين أن يلموا بنصوص اللغويين فى هذا الصدد حتى لا يصاغ فعل لم يجيزوا صوغه بالإجماع. وقد اعتاد بعض العلماء أن يعقِّبوا على بعض الأسماء أو المصادر بأنها لا فعل لها، ولكن الباحث إذا واصل البحث واستقصى كثيرًا من المراجع وجد من اللغويين من يذكر لها أفعالا، ورأى أنهم فى المادة الواحدة قد ينقلون رأيين أحدهما بجواز صوغ الفعل، والآخر بمنعه من غير تعقيب، كأنما كان عملهم محصورًا فى نقل آراء اللغويين ورصف بعضها بجانب بعض.

ولا شك أن هذا البحث من المسائل الأولى التى يجب على واضعى المعجم الوسيط تمحيصها، حتى يخرج للناس تامًّا كاملاً، وقد جمعت مواده كل ما كان ضروريا للتعبير من أسماء وأفعال.

ويدخل فى هذا الموضوع ما عقد له ابن سيده بابا فى الصفحة ٢٢٣ من الجزء الرابع عشر سماه باب أسماء المصادر التى لا يشتق منها أفعال، فقد أورد من هذه المصادر تسعة وخمسين مصدرًا، نقل منها ثلاثة وأربعين عن أبى عبيد، وأربعة عن ابن السكيت، وثلاثة عن سيبويه، وثمانية عن ابن دريد، وواحدًا عن ثعلب، ورد على أبى عبيد فى خمسة منها فأثبت لها أفعالاً، فبقى أربعة وخمسون مصدرًا لاتزال فيما نقله لايصح أن يشتق منها أفعال.

(*) نشر هذا البحث بمجلة المجمع بالجزء الرابع ص ٢٢٥ عام ١٩٣٧، وهو ما وصل إليه قرار مجمع اللغة العربية الآن كما جاء فى تعليق الأستاذ الدكتور مهدى علام نائب رئيس المجمع فى عام ١٩٨٨.

(1) انظر ص ١٦٤.

وقد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب فى المعجمات فظهر أن لجميعها أفعالاً عدا سبعة منه .

وسأذكر فى هذا المقال نص صاحب المخصص أولا، ثم أعقب عليه، والله الهادى إلى أقوم سبيل.

(١)

المخصص : « هو رجلٌ بَيّنُ الرُّجولة وراجل بين الرجلة (ضبطت بكسر الراء) .

وفى اللسان : « والرُّجلة بالضم مصدر الرَّجُل والراجل والأرجَل، يقال رجل جيد الرُّجلة ورجل بَيِّنُ الرجولة والرُّجلة والرُّجْلِيّة والرجولية، (والأخير عن ابن الأعرابى) وهى من المصادر التى لا أفعال لها ، وهذا أرْجَلُ الرجلين أى أشدهما، أى فيه رُجلية ليست فى الآخر. قال ابن سيده: وأراه من باب أحنك الشاتين أى إنه لا فعل له . وإنما جاء فعل التعجب (يقصد اسم التفضيل . وسوغ ذلك أنهما سواء فى الحكم) من غير فعل .

وحكى الفارسىّ : إمرأة مُرْجِل تلد الرجال، وإنما المشهور مُذْكِر» ويظهر أن المصدر أخذ من الاسم الجامد وهو الرجل، وكذلك اسم التفضيل فاستغنوا بذلك عن الفعل. أما فى امرأة مُرْجِل، فإنى أميل إلى أن اسم الفاعل هذا مأخوذ من الفعل أرجلت المرأة ولدت رجالاً .

(٢)

المخصص : « وحرٌّ بين الحُرية والحُرُورِيَّة » .

وفى اللسان : « والحرُّ بالضم نقيض العبد . . . ويقال حَرَّ العبد يَحَرُّ حرارة بالفتح أى صار حرا . . . وإنه لحُرّ بين الحُرِّية والحُرورة والحُرُوريَّة والحَرارة والحَرار بفتح الحاء » .

فإذا كان صاحب المخصص يريد أن الفعل لا يشتق من الحرية والحرورية فذاك مسلم له ، لأنهما مصدران صناعيان (الأول أخذ من الوصف وهو الحر، والثانى أخذ من المصدر وهو الحرورة) والمصدران الصناعيان ليسا بأصل للاشتقاق، وإن أراد أن الفعل لا يوجد ألبتة فغير مسلم بعد أن نص صاحب اللسان على الفعل الثلاثى ومصدره .

(٣)

المخصص : « ورجل غِرّ وامرأة غِرة بينة الغَرَارة من قوم أغْرار » .

وفى اللسان : « والغِرُّ والغَرِير الشاب الذى لا تجربة لـه . . . وقد غَرِرت غَرارة . . وقد غَر يُغِرُّ بالكسر غَرارة . . . ويقـال من الإنسان الغِرّ غَرَرْتَ يارجل تَغِر غَـرارة، وفى المصباح : وغَرَّ الشخص يَغِرُّ من باب ضرب غَرارة بالفتح فهو غارّ وغِرّ بالكسر، أى جاهل بالأمور غافل عنها» .

ومن ذلك ترى أن الغَرارة يأتى منها فعل، وأنه يكون على بابين فرح وضرب .

(٤)

المخصص : « ورجل ظَهير بَيِّن الظَّهارة وهو القوى » .

وفى اللسان : « ورجل ظهير ومُظَهَّـر قوى الظهـر، ورجل مُصَـدَّر شديـد الصدر، ومصـدور يشتكى صدره، وقيل : هو الصلب الشديد من غير أن يُعَيَّن منه ظهر ولا غيره، وقد ظَهِرَ ظَهَارة » .

فالمصدر هنا يشتق منه فعل أيضا .

(٥)

المخصص : « حافر وَقَاحٌ بَيِّن الوَقاحة والوَقَح والقِحَة والقَحَة » .

وفى اللسان : « حافـر وَقَاحٌ صلب باق على الحجارة، والنعـت وَقَاحٌ، الذكر والأنثى فيـه سواء وجمعه وُقُح ووُقَّح . وقد وَقُح يَوْقُح وقاحة ووُقوحة وقِحَة وقَحَة » .

فقد ذكر له صاحب اللسان فعلا .

(٦)

المخصص : «ورجل عِنِّين بين العنِّينة وقد عُنِّنَ » .

وفى اللسان : ما يفيد إمكان أخذه من عَنّ يَعِنّ أو يَعُنّ بمعنى عَرَض، وذكر لذلك تعليلا . . .

(٧)

المخصص : « وصريح بيِّن الصراحة والصُّرُوحة » .

وفى اللسان : « وقـال ابن سيده . الصريـح الرجل الخالص النسب، والجمـع الصُّرحاء، وقـد صُرح بـالضم صراحـة وصرُوحـة» . . . ومن العجيـب أن ينقل ابن سيـده فى المخصص أن الصَّراحـة والصُّروحة لا يؤخذ منهما فعل، ثم ينقض هذا النقل فى المحكم .

(٨)

المخصص : « وفرس ذَلول بيِّن الذُّل، وذليل بين الذُّل والذِّلة ».

وفى القاموس : « ذَلَّ يذِل ذُلا وذُلالة وذِلة ومَذَلة وذَلالة هان فهو ذليل». وفيه: «والذُّل بالضم ويكسر ضد الصعوبة . . ذَلَّ يَذِل ذُلا فهو ذَلُول». فذكر للذلّ والذلّة فعلا.

(٩)

المخصص : « ومعتوه بين العَتْه والعَتَه أيضًا».

القاموس : «عُتِه كعُنِى عَتْها وعُتْها وعُتَاها بضمهما فهو معتوه نقص عقله أو فُقِد».

وفى اللسان : « ورجل معتوه بينُ العَتَـه و الْعُتْه: لا عقل له. ذكره أبو عبيـد فى المصادر التى لا يشتق منها أفعال».

ومن العجيب أنه لم يعقِّب عليه، مع أنـه ذكر له فى صدر المادة فعلا، وكـذلك عبارة الصحاح، وقد أسـاء صاحب التاج النقل، ففيـه : « (و) فى الصحاح التعَته : (التَّجَنُّنُ والـرعونة) . ذكـره أبو عبيد فى المصادر التى لا يشتق منها أفعال » فنقل صاحب التاج التعته وهو مصدر قياسى بدل العتة.

وفى المصباح : «عَتِه عَتَها من بـاب تعب ، وعَتَاها بالفتح نقص عقلـه». فجعل العَتَه مصدرًا للفعل.

فكيف يقال بعد ذلك: إن العَتْه والعَتَه لا فعل لهما؟

(١٠) و (١١)

المخصص : « وجارية بيِّنة الجَرَاية والجَرَاء، وجَرِىٌّ بيِّن الجَرَاية وهو الوكيل».

وفى اللسان : « والجَرِىُّ الوكيل . . . ويقال جَـرِىٌّ بيِّن الجَرَاية والجِرَاية وجَرَّى جَـرِيًّا وكَّلَه . . . وسمى الوكيل جَرِيًّا لأنه يَجْرِى مجرى مُوَكِّلـه . . . والجارية الفَتِيَّةُ من النساء بينة الجَرَاية والجَرَاء والجَرَى والجِراء. والجَرَائية (الأخيرة عن ابن الأعرابى) ».

وفى المصباح : « والجارية السفينـة سميت بذلك لجريها فى البحر، ومنـه قيل للأمة جـارية على التشبيه لجريها مستمرة فى أشغال مواليها، والأصل فيها الشـابة لخفتها، ثم توسعوا حتى سموا كل أمة

جارية ، وإن كانت عجوزا لا تقدر على السعى ؛ تسمية بما كانت عليه .

ومن هذا وما قبله يظهر أن الجَرِىَّ والجارية فعلُهما جرى ، وأن هذه المصادر التى ذكرت إنما هى مصادر لهذا الفعل .

(١٢)

المخصص : « وفلان طريف فى النسب وطَرِفٌ بيِّن الطرافة » .

وفى الصحاح : « والطريف فى النسب الكثير الآباء إلى الجد الأكبر، وهو خلاف القُعْدُد ، وقد طَرُف بالضم طرافة » .

فذكر فعله ، ولا شك أن فعيلا وفَعِلا يأتيان من باب كرم .

(١٣)

المخصص : « الأقعد بين القُعْدُد والقُعْدَد » .

وفى اللسان : « القُعْدُد القُرْبَى . . . والإقْعَاد قلة الآباء والأجداد . . . يقال : هو أقعدهم أى أقربهم إلى الجد الأكبر . . . ابن الأعرابى : ورث فلان بالإقعاد ولا يقال ورثه بالقعود » .

ومن ذلك يفهم أن اسم التفضيل وهو أقعد ، وكذلك المصدر وهو القعدد فعلهما رباعى ، وليس لهما فعل ثلاثى من مادتهما ، وكثيرًا ما يستعمل القعدد وصفًا وهو الأقرب إلى الأب الأكبر.

(١٤)

المخصص : « وعقيمة بيِّنة العُقْم والعَقَم » .

وفى المصباح : « . . . وعَقِمت الرَّحِم عَقَمًا من باب تعب » .

فأثبت له فعلا .

(١٥)

المخصص : « رجل وضيع بين الضِّعَة والضَّعَة » .

وفى اللسان : « ورجل وضيع . وَضُع يَوْضُع وضاعة وضَعَة وضِعة صار وضيعا » ؛ فأثبت له فعلا .

(١٦)

المخصص : « ابن السكيت : وَطِيءٌ بيِّن الوَطَاءة والطِّئَة والطَّأَة » .

وفى اللسان : « والوطىء السهل من الناس والدواب والأماكن ، وقد وَطُؤ الموضع بالضم يَوْطُؤ وطاءه وَوُطوءة وطِئَة صار وَطيئا » .

فأثبت له فعلا .

(١٧) ، (١٨) ، (١٩)

المخصص : « أبو عبيد : رفيع بيِّن الرفعة وقد وَضُع ورَفُع . قال أبو عليّ : ليس من هذا الباب على عقده ، إنما هو من هذا الباب على ما حدّه سيبويه ، وذلك أن سيبويه قال : ولم يقولوا : وَضُع ولا رَفُع ، كما لو يقولوا : شَدُدت ولا فَقُرت » .

وقد نقلنا عن صاحب اللسان ورود الفعل وَضُع ، أما رَفُع ففى اللسان : « والرِّفْعة خلاف الضعة ، رَفُع يَرفُع رَفاعه فهو رَفِيع إذا شَرُف ؛ » ثم نقل رأى سيبويه .

وفى المصباح : « رفُع الرجل فى حسبه ونسبه فهو رَفيع

وأما شدّ فلم يجىء فعله من باب كرم ، وإنما جاء من باب ضرب ، والوصف منه شديد » (انظر المصباح) .

وفى اللسان : « وقد شدَّ يَشِدُّ بالكسر لا غير إذا كان قويا » .

وأما فَقُر ففى **المصباح** : « الفقير فعيل بمعنى فاعل ، يقال فَقِر يفقَر من باب تعب إذا قَلَّ ماله » .

قال ابن السراج : « ولم يقولوا : فَقُر ـ أى بالضم ـ استغنوا عنه بافتقر » .

ولا أجد معنى لهذا الكلام ؛ لأن الوصف فعيلا لا يختص بباب كرم ، كما أن الفقر يدل على الخلق وهو ألزم بباب فرح .

وفى اللسان : « وقال سيبويه ، وقالوا : افتقر ، كما قالوا : اشتد ، ولم يقولوا : فَقُر ، كما لم يقولوا : شَدُد ، ولا يستعمل بغير زيادة » .

وفى الصحاح : « وقولهم : فلان ما أفقره وما أغناه شاذ ؛ لأنه يقال فى فعليهما : افتقر واستغنى ، فلا يصح التعجب منهما » .

ومن العجيب أن صاحب الصحاح نفسه يقول فى مادة (غ ن ى) والغنى مقصورًا اليسار، تقول منه غَنِىَ فهو غَنِىٌّ، فأنكر الفعل فى مكان وأثبته فى آخر.

(٢٠)

المخصص: « والسرُّ من كل شىء الخالص بيِّن السَّرَارة».

اللسان: « والسِّر من كل شىء الخالص بين السَّرَارة ولا فعل له ».

(٢٥،٢٤،٢٣،٢٢،٢١)

المخصص: « الشمس جَوْنَة بيِّنة الجُونة، وبعير هِجان بين الهجانة، ورجل هجين بين الهُجْنة، وخصىّ مجبوب بيِّن الجِباب، وعربّى بيِّن العُرُوبيَّة، ابن دريد: والعُرُوبة والعَرَابة».

ليس للجون وهو الأسود أو الأبيض فعل مجرد، وإن كان مصدره يتطلب أن يكون فعله من باب فرح، وقد ورد له فعل مزيد.

ففى اللسان:

« التَجَوُّن تَبييض باب العروس، والتَّجَوُّن تسويد باب الميت».

وتفسير التجون بالتبييض والتسويد فيه نظر، والأولى أن يقال: التجوين.

أما الهجان **ففى القاموس** « وكـ(كتاب): الخيار، ومن الإبل البيض والبيضاء، والرجل الحسيب، و. . . وفعل الكل يهجِن ويهجُن».

فأثبت له فعلا.

وأما الهجين. فقد أثبت له صاحب القاموس فعلا أيضا. قال: «والهجين اللئيم وقد هجن ككرم هجنة بالضم وهَجانة وهُجونة».

أما المجبوب ففعله فى اللسان جَبَّه يَجُبُّه جبّا وجِبابا.

وأما عربى بيِّن العُروبة، ففى اللسان: « وعربى بين العُروبة والعُروبيَّة وهما من المصادر التى لا أفعال لها» ثم قال فى مكان آخر: « وعرُب الرجل يعرُب عُرْبا وعُروبا. عن ثعلب: وعُروبة وعَرابة وعُروبيّة كفَصُح (أى لفظا ومعنى) وعَرِب إذا فَصُح بعد لُكْنة فى لسانه ».

فجاء بفعل من العُروبة والعَرابة.

(٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣)

المخصص : « أبو عبيد : عَبْد بيِّن العُبُـوديَّة والعُبُودة ؛ وأمة بينة الأُمُوَّة ، وأُمٌّ بينـة الأُمُومة ، وأَبٌ بين الأُبُـوَّة ، وأخت بينة الأُخُـوَّة مثل الأخ ، وبنت بينـة البُنُـوة مثل الابن ، وعَمٌّ بين العُمُـومة وكـذلك الخُؤولة ، أما العَبْـد والعُبُوديَّة والعُبودَة ، ففى اللسان : والاسم من ذلك العُبُودَة والعُبُـوديّة ولا فعل له عند أبى عبيد ، وحكى اللحيانى عَبُد عُبُودة وعُبُوديَّة . فأثبت اللحيانى فعلا للمصدرين .

وأما الأَمَة والأُمُوَّة ، ففى اللسان : « وأَمَت المرأة وأَمِيَتْ وأَمُوَتْ (الأخيرة عن اللحيانى) أُمُوَّة صارت أَمَة ، وقال مَرَّة : ما كانت أمة ولقد أَمُوَتْ أُمُوَّة ، وما كنتِ أمة ولقد تَأَمَّيْتِ وأَمِيتِ أُمُوَّة » .

وأمـا الأم والأمومـة ، ففى اللسان : « وأَمَّتْ تَـؤُم أُمُومـة صـارت أمًّا ، وقـال ابن الأعرابى فى امـرأة ذكرها : كانت لها عمة تَؤُمّها أى تكون لها كالأم » .

وأما الأب والأُبُوَّة ، ففى اللسان : « وأبوت وأَبَيْت صرت أبا ، وأَبَوْتُه صرت له أبا . قال بَخْدَج :

اطلب أبا نَخْلة من يَأْبُوكا   فقد سألنا عنك من يعزوكا

إلى أب فكلهـم ينفيكـــــا

التهذيب . ابن السكيت : أبـوت الرجل أأبوه إذا كنتَ لـه أبا ، ويقال : مـاله أب يَأْبُـوه أى يغذوه ويربيه » .

وأما الأخت أو الأخ والأخوة . . . . ففى اللسان : « قال ابن سيده : ولقد تَأَخَّيْتَ وآخيت وأَخَوْت تأخو » . فذكر ابن سيده نفسه للمصدر وهو الأخوة فعلا .

وأما البنت أو الابن والبنوّة ، فلم نجد لها فعلا ثلاثيا .

وأما العم والعمومة ، ففى اللسان : « وما كنت عما ولقد عَمَمت عُمُومة » .

فأثبت للمصدر فعلا .

وأما الخال والخؤولة ، ففى اللسان : « والمصدر الخؤولة ، ولا فعل له » .

ولم نجد له فعلا ثلاثيا فيما بين أيدينا من المعجمات الأخرى .

(من ٣٤ إلى ٣٧)

المخصص : « يقال : أسد بيِّن الأَسَد ، وليث بيِّن اللباثة ، ووَصِيفٌ بيِّن الوَصَافة » .

ثعلب : ووصِيفَة بيِّنة الإيصَاف ، ووَلِيدة بيِّنه الوَلَادة والوَلِيدِيَّة » .

يقول فى اللسان : « وأسد بيِّن الأَسَد نادر . . . . وأَسِد الرجل : استأسد، صار كالأسد فى جراءته وأخلاقه . . . . وفى حديث لقمان بن عاد : خذ منى أخى ذا الأسد ، الأَسَد مصدر أَسِدَ يأْسَدَ، أى ذو القوة الأسدية» .

هذا النص يدل على أن الأسد مصدر معناه القوة الأسدية وأن فعله أَسِدَ يأْسَد فله إذا فعل مجرد .

وفى اللسان : « الليث الشدة والقوة . . . . والليث الأسد . . . . وإنه لبين اللِّياثة ، والليث الشجاع بين اللُّيوثة ، قال ابن سيده : وأراه على التشبيه . . . . ، وفى حديث ابن الزبير أنه كان يواصل ثلاثا ثم يصبح وهو أليَثُ أصحابه ؛ أى : أشدهم وأجلدهم» .

والذى نفهمه أن الليث القوة، وأن الليث وهو الأسد تسمية بالمصدر، وربما أخذ ذلك من قول صاحب اللسان (وبه سمى الأسد ليثا) . وإذا جاز ذلك كانت اللِّياثة بمعنى الأسدية ، وهى لذلك لا فعل لها، كالخؤولة التى هى مصدر مصوغ من كلمة الخال .

وأما وَصِيف بين الوَصَافة ، ففى اللسان : « وفى حديث أم أيمن أنها كانت وصيفة لعبد المطلب أى أَمَة ، وقد أوصف ووَصُفَ وصافة» .

فذكر للوصيف فعلا .

أما وليدة بيِّنه الوَلادة والوَلِيديَّة ، ففى فتح الواو فى الولادة نظر .

والذى فى اللسان : « والوَلِيدة الأمة والصبيَّة بيِّنه الوِلادة (بكسر الواو) والوَلِيدية» .

وظاهر أن الوَلِيدة فَعِيلة بمعنى مفعولة ، وفعلها ولد يلد، والمصدر ولادة وإلادة على البدل . والأصل فى معنى الوليدة الصغيرة، قال فى اللسان : « وقد تطلق الوليدة على الجارية والأمة وإن كانت كبيرة» .

من هذا يظهر أن للمصدر وهو الولادة فعلا وهو ولد يلد، أما الوَلِيديَّة فمصدر صناعى وهو لا فعل له دائما .

(من ٣٨ إلى ٤٠)

المخصص : « ورجل جُنُب بين الجَنَابة والجَنْبة وهو الأجنبىُّ والجانب مثله .

ابن السكيت : رجل جَلِيدٌ وجَلْد بيِّن الجَلادة والجَلَد، ولحم طرىّ بين الطَّراوة والطَّراءة» .

فى اللسان : « وَجَنب فلان فى بنى فلان يجنُب جنابة ويجنب ، إذ نزل فيهم غريبا ، فهو جانب والجمع جُنَّاب، ومن ثمَّ قيل : رجل جانب أى غريب ورجل جُنُب بمعنى غريب والجمع أجناب» .

فذكر له فعلا .

في اللسان : « والجَلَد الصلابة تقول منه : جلُد الرجل بالضم فهو جَلْد وجَلِيد» فذكر له فعلا .

في اللسان : « ابن سيده (نفسه) طرُؤ الشيء يطرُؤ وطَرِىَ طراوة وطَرَاء وطراءة وطراة مثل حصاةفهو طَرِىّ » فجاء له ابن سيده بفعل .

(من ٤١ إلى ٤٥)

المخصص : « ابن دريد : رجل جِلْف أى جافٍ غليظ ، والمصدر الجَلافة ، والعَدَالة مصدرُ عَدْل حَسَن العَدَالة ، وقال : سيِّد بيِّن السُّودَد ، وهم من أهل بيت النُّبُوَّة والنَّبَاوة ، وضارٍ بيِّن الضَّرَاوَة والضَّرَاءة» .

في القاموس : « والجِلف بالكسر الرجل الجافى كالجليف ، وقد جَلِف كفرح جَلَفا وجَلافة» .

ونقول : المشهور أن العدل فى الأصل مصدر لعدل يعدِل من باب ضرب ، ثم استعمل فى الوصف فقيل شاهد عدل ، ودليل ذلك أنه يطلق على الواحد وغيره بلفظ واحد ، أما العدالة كما فى المصباح فمصدر عَدُل ، قال : « وعَدُل هو (الشاهد) بالضم عدالة وعُدُولة فهو عَدْل أى مُرْضٍ يُقنع به » .

ويظهر من سياق صاحب المصباح أن عَدْلا هنا صفة مشبهة ، وقد يشايع هذا الرأى أنه يجمع فيقال : رجال عُدُول ، وأنه قد يطابق فى التأنيث فيقال : امرأة عَدْلة . وسواء أكانت كلمة عَدْل مصدرا فى الأصل أم صفة مشبهة فإن للعدالة فعلا هو عَدل .

فى اللسان : « السُّودَد الشرف معروف ، وقد يهمز وتضم الدال طائية ، الأزهرى : السؤدُد بضم الدال الأولى لغة طيِّئ ، وقد سادهم سُودًا وسودُدا وسِيادة وسَيْدودة ، وعبارة المصباح وساد يسود سيادة والاسم السُّودَد» .

ولا أرى معنى للتفرقة بين السيادة والسودد ؛ فكلاهما يدل على معنى المصدر.

والنبىّ إما من النبأ وهو الخبر، وفى **اللسان** : « واشتقاقه من نَبَأَ وأنبأ أى أخبر . . فعيل بمعنى فاعل للمبالغة ، وفيه : « ونبأت الرجل ونبأنى : أنبأته وأنبأنى » .

وقد انفرد صاحب اللسان فيما أعلم بالإتيان بنبأ بمعنى أنبأ وأخبر، وفى القاموس : نبأ بمعنى ارتفع وطلع وخرج من أرض إلى أرض .

وإذا كان النبى من نبأ بمعنى أخبر كان مصدره القياسى النّبْء بسكون الباء ولكن المسموع

فتحها ، أما إذا كان النبيّ من نبا بمعنى ارتفع فمصدره النَّبْو والنُّبُوّة والنَّباوة .

فى اللسان : « وإن أخذت النبيّ من النبـوة والنباوة وهى الارتفاع من الأرض لارتفاع قـدره ولأنه شُرِّف على سائر البشر، فأصله غير الهمز وهو فعيل بمعنى مفعول .

وفى القاموس : « والنَّبَــاوة مـا ارتـفــع مـن الأرض كالنَّبْــوة والنَّـبِى وموضــع بالطــائف وبالكسـر: النبوة» . فهو يحتم كسر النون فى النباوة بمعنى النبوة .

ومن ذلك نـرى أن كلمـة النبيّ إمـا مهمـوزة وإمـا غير مهموزة ، وأن لها مصـدرًا وفعـلا فى كلتـا الحالتين .

فى التاج : « وكلب ضارٍ بالصيد أى متعـود به ، وقد ضَرِى يضرَى ضراوة كما فى الصحاح ، وهو قول الأصمعى ، وضرى بالقصر وضراء بالكسر والفتح » .

وذكر فى صدر المادة الضراءة من مصادر ضرى .

(من ٤٦ إلى ٥٤)

المخصص : « ثعلب : شَيْخ بيِّن الشَّيْخُوخِيّة والشَّيْخُوخـة والتَّشْيِيخ ، وأَيِّم بيّن الأيمة والأُيوم . أبو عبيد : فعلت ذلك بـه خَصُوصيَّة ، وهو لِصٌّ بيّن اللَّصُوصِيّـة ، قال ابن السّكّيت : ولا تقالان إلا بالفتح . ثعلب : الضم فيه لغة . أبو عبيد : حَرُورِىٌّ بيّن الحَرُورِية . ابن السكيت : لا يقال إلا بالفتح ثعلب : الضم فيه لغة . ابن السكيت : فارِسٌ على الخيل بيّن الفُرُوسيّة والفُرُوسة . ابن دريد : صَارِمٌ بيّن الصَّرَامة وقـالوا الصُّرُومة ، وليس بثبت . وحازم بيّن الحَزَامـة ، وقالوا الحُزومـة ، وليس بثبت . وهو حجر صَلْد بيّن الصَّلادة والصُّلُودة » .

وفى اللسان : « وقد شاخ يشيخ شَيَخا بالتحريك وشُيُوخة وشُيُوخِيَّة عن اللحيانى : وشَيْخُوخة وشَيْخُوخِيَّة فهو شَيْخ » .

فذكر له فعلا .

أمـا التشيّخ والتشييخ اللـــذان ذكـرهما فمن البـديهى أن فعل الأول تشيَّـخ ، والثـانى شيّخ ، وهما مصدران قياسيان .

فى اللسان : « وقد آمت المرأة من زوجها تَئِيم أَيْما وأُيُوما وأَيْمَة وإيمة » ـ فذكر له فعلا .

فى المصباح : « وخصصته بكـذا أخصه خصـوصا من باب قعـد وخصوصيَّـة بالفتح ، والضم لغة ، إذا جعلته له دون غيره » . فذكر له فعلا .

فى المصباح : « ولصّ الرجل الشىء لَصّا من باب قتل : سرقه » .

وفى القاموس : « والمصدر اللَّصَص واللَّصاص واللَّصوصية واللُّصوصية» .

فله فعل .

اللسان : «حر وراء موضع بظاهر الكوفة تنسب إليهاالحَرورية من الخوارج . . . . . ويقال : حَرورىّ بيّن الحرورية» .

وظاهر أن الحرورية فى الأصل لا تدل على معنى المصدر، وإنما هى طائفة تنسب إلى مكان، ويظهر أيضا أنها نقلت فى بعض الاستعمالات لمعنى يقرب من معنى المصدر بتضمينها معنى الانتساب إلى هذه الطائفة، فحين قالوا : حرورى بيِّن الحرورية أرادوا بيّن الانتساب إلى هذه الطائفة، ولعل هذا التضمين هو الذى سوغ لبعضهم ضم الحاء فى لغة قليلة تشبيها لها بالمصادر، ولا أرى فىَّ ميلا إلى عدها من المصادر.

اللسان : « والمصدر الفَراسة والفُروسية ولا فعل له، وحكى اللحيانى وحده : فرَس وفرُس إذا صار فارسا . وهذا شاذ .

وفى المصباح : « وفى التهذيب : فارس على الدابة بيّن الفُروسية» .

وفى القاموس : « الفراسة الحذق بركوب الخيل وأمرِها، كالفروسة والفروسية ـ وقد فرُس ككرم» .

وفى التاج : « وقال ابن القطاع وفرَس الخيل فروسة وفروسية أحكم ركوبها وفرُس أيضا كذلك، فاقتصار المصنف على ذكر باب واحد قصور لايخفى» .

ومن ذلك يظهر أن للفروسية والفروسة فعلا .

فى المصباح : « وصرُم الرجل صرامة وزان صخُم ضخامة شجُع، وصرم السيف احتد، وسيف صارم قاطع» .

فذكر للمصدر فعلا .

اللسان : « حزُم بالضم يحزُم حزْما وحزَامة وحُزومة وليست الحزومة بثبت» فأثبت فعلا للمصادر.

اللسان: « وقد صَلَد المكان وأصلد وأرض صَلْد» .

ومن المجاز صلُد الرجل بخِل صلادة .

هذا ما تيسر لنا القول فيه فى هذا الموضوع، وللسيوطى فى المزهر والهمع جولة فى هذا الباب سنتناولها إن شاء الله بالبحث فى مقال آخر .

صوم رمضان في اللغة (*)

تحتفى الأمم الإسلامية وتبتهج فى أقطار الأرض عامة بهذا الشهر الجليل المنزلة ، الرفيع المكانة ، الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وكما يتبع الجد الناس فيرتفع بعضهم فوق بعض درجات ، وتقبل السعادة على بعض بنى الإنسان فينالون منها حظا موفوراً وشأنا مذكورًا ، كذلك يسعد بعض الأيام دون الأيام ويبرز بعض الشهور علما بين إخوته من أبناء العام :

هو الجد حتى تحسد العين أختها | وحتى يصير اليوم لليوم سيدا

وإنما يسعد اليوم أو الشهر لما تضمنه من حوادث جسام كان يكون لها شأن فى إنهاض أمة أو إعلاء كلمة دينها ، وحينما أراد أبو تمام أن يشيد بفتح عمّورية وأن يعلى من قدره وأن يجعل يومه يومًا من أيام فتوح الإسلام فى قصيدته المشهورة التى يمدح بها المعتصم جعل يقول :

إن كان بين حروف الدهر من رحم | موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها | وبين أيام بدر أقرب النسب

فرمضان يظهر على الشهور جميعا بأنه الشهر الذى فيه الهدى ونور الحق ، وأنزل فيه القرآن الذى كشف عن النفس حجابها ، وقاد بنى الإنسان إلى خير طريق وأقوم سبيل .

فهناءً بنى الإسلام بالإسلام ، وهناءً بشهر رمضان شهر الرحمة والإحسان ، ونحب أيها السادة فى محاضرتنا هذه أن نقدم إليكم بحثا لغويا فى الصوم ومدلولاته وما كان له من شأن عند أهل الجاهليات ، ثم نذهب بالحديث إلى البحث فى الشهور العربية وما كان لها من أسماء فى القديم وبحديث مع بيان علل هذه الأسماء وتمحيصها واختيار أسدّ الآراء فيها .

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٩٣٨/١١/١٠ ، ونشر بجريدة الأهرام .

الصـوم مصدر صـام يصوم، ومـن مصادره الصيـام، وتقول رجل صـائم وصَـوْمان (بفتح أولـه وضمّه) وصَوْم على الوصف بالمصدر، وهـو مما يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، وجمع الصائم صُوّام وصُيّام وصُوّم وصُيّم وصَيامَى وصِيام، ولعل الأخيرة هذه من الوصف بالمصدر أيضا.

والأصل فى هـذه المادة أنها بمعنى الإمساك والامتنـاع فإن جميع المعـانى النوعيـة تـدور حول هـذا الأصل، ففى قولنا صام الرجل امتناع، وفى قوله تعالى على لسان مريم ﴿ إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ امتناع؛ لأن المراد بالصوم فى الآية الكـريمة الصمت، وهو امتناع من الكلام. وفى قولهم صامت الريح وصام النهار، إذا قامت شمسـه عند انتصافه ولم تبرح مكانها، وصامت الناقة إذا أمسكت عن الدّر.

فلما جاء الإسلام خصص هـذا الصوم بالامتناع من أشيـاء فى وقت محدود، ويرى بعض الباحثين أن الصوم بمعناه الاصطلاحى كـان معروفا عند أهل الجاهلية فقد ذكر صاحب حجـة الله البالغة أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء، واحتج على ذلك بأحاديث مأثورة. والصوم ـ على أى حال ـ رياضة نفسية وجدت حيث وجد الزهد ومحاربة الشهوات وكان بالجاهلية كثير من الزهاد الموحدين كخالد بن سنان العبسى وحنظلة بن صفوان وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم وغيرهم.

واختلف اللغويون فى علـة اشتقاق كلمة «رمضان». وأصل هذه الكلمة وهـو الرَّمَض يدل على الحرّ أو شدتـه فقال بعضهـم: إنه مأخوذ من رمض الصـائم يرمَض إذا حرّ جوفـه من شدة العطش، وقال صـاحب القاموس وقـد انفرد بهذا التعليل: إنما سمى رمضان لأنـه يحرق الذنوب. ويـرى أكثر اللغويين أنـه سمى رمضان لأن العرب حينما نقلوا أسماء الشهـور عن اللغة القديمة وهى لغـة العرب العاربة عاد وثمـود وغيرهما سمّوا الشهور بحال الأزمنة التى وقعت فيها عنـد هذه التسمية فاتفق أنهم حينما أرادوا تغيير اسم شهر «ناتِق» كان الحر والرمض فى أشده فسموه رمضان.

والعلتان الأولى والثـانية يستلزم قبـولهما التسليم بأن العرب فى جـاهليتها كانت تصـوم رمضان أو بعضا منه وإلا فكيف تستقيم العلة الأولى وهى أنه من رمض الصائم إذا حَر جوفه من شدة العطش؟ وكيف تستقيم الثانية وهو أنه يحرق الذنوب؟ والـذى يرجع إلى أقوال اللغويين فى مادة(نتق) يرى أنهم يقولون: وأنتق الرجل صام نـاتقا وهو شهر رمضان؛ فإذا كان هذا اشتقاقا جـاهليا «وهو بعيد» كان دليلا على أن العرب قبل الإسلام كانوا يصومونه وإذا كـان اشتقاقا إسلاميا «وهو ما أرجحه» لم يتوجه به دليل على ذلك وفى هـذا مبحث دقيق يغرى المحققين بالبحث والإفاضة فيـه حتى يصلوا إلى حكم صحيح. على أنى أميل من الآن إلى أن صـوم رمضان لم يكن إلا فى الإسلام وأعتقـد أن اللغويين حينما حاولوا التعليل لاشتقاق رمضان تأثروا بالزمن الذى هم فيه وبالبيئة الإسلامية التى تحيط بهم، فعللوه تعليلا إسلاميا وذهلوا عن أن الكلمة من وضع أهل الجاهلية؛ لهذا يجب دائما تمحيص علل اللغويين والتريث فى قبولها.

ويحتم الفراء، وهـو من كبار اللغويين، ذكر الشهـر قبل رمضان والربيعين بأن يقال : هـذا شهر رمضان وهما شهرا ربيع ، ويوجب ألا يذكر« الشهر» قبل غيرها من الشهور وزاد بعضهم رجبا ؛ فتحتم ذكر الشهر قبلـه ، واستخلص اللغويون من ذلك قاعدة هى أن كل شهر يبتـدئ بالراء يجب أن يسبق بلفظ شهر والرأى الصحيح أنه يجوز فى كل الشهـور أن تضاف إلى كلمة شهر وألا تضاف على حسب ما يراه المتكلم أكفل بما يريد من تأدية المعانى ومما رد به اللغويون على الفراء قول أبى ذؤيب :

جـاريــة فى رمضـان المـاضــى تقطــع الحــــديث بـالإيـماض

فلم يذكـر لفظ الشهر قبل رمضان. وجاء فى الصحيحين من روايـة أبى هريرة أنه صلى اللـه عليه وسلم قال : « إذا كاء رمضان أغلقـت النيران وصفّدت الشياطين» وهذا صريح فى جواز تعـريته عن الإضافة.

ويجمع رمضان على رمضانات ورماضين وأرمضاء وأرمضة ومما هـو جدير بالنظر أن العرب سوّغوا جمع كل اسم من أسماء الشهـور جمعًا مـؤنثـا سالماً فقـالـوا : المحرمـات وصفـرات وربيعات إلى آخـر الشهور. وهـذا فيما يظهر لنا على تضمين كل شهر معنى مـؤنثا فإن الشهر يـدل على فترة من الزمن أو مدة وربما كان تسويغهم هذا يعاضد الـرأى الذى نقله صاحب المصباح المنير عن ابن الأنبارى قال : واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس ؛ تقول فيه : منزل ومنزلات ومصلى ومصليات.

وقبل أن ننتقل من الحديث فى الشهور العربية يجب أن ننبه هنا إلى خطأ مشهور هو قول بعضهم : ربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى وجمادى الثـانية ، وهذا غلط، والصواب أن يقـال ربيع الآخر وجمادى الآخرة؛ لأن التعبير بربيع الثـانى وجمادى الثانية يستدعى فى ذوق لغة العـرب أن يكون هناك ربيع ثالث وجمادى ثالثة . ولنذكر قبل أن نختتم هـذه المحاضرة أسماء الشهور عند العرب العاربة قبل أن يغيرهـا من جاء بعـدهم من أبناء إسماعيـل، وتخطئ المعجمات هنا وتسميهـا شهور الجاهليـة كأن الجاهلية مـا كانت تعرف شهور الإسـلام فكانت العرب العـاربة تسمى المحرم المؤتمر، وصفرًا نـاجراً، وربيعا الأول خـوّانا ، وربيعـا الآخر وَبْصـان، وجمادى الأولى حنينا ، والآخِرةَ رُبـى، ورجبا الأصم، وشعبان عاذلا (وأخطأ صـاحب صبح الاعشى فسماه عادلا بالدال) وتسمى رمضـان ناتقا كما سبق، وشوالًا وَعِلا، وذا القعـدة وَرْنة، وذا الحِجة بُرَك . وللغـويين تعليل لكل اسم من هذه بنى على الظن وعلى كثير من التكلف.

هذه ، أيها السادة، محاضرة لغويـة رمضانية أردنا فيها أن يكون للغـة نصيب من الحفاوة برمضان والإشادة به ؛ نسأل الله لكم صوما مقبولا ، وحياة سعيدة صالحة . . والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (١) (*)

لقد نهضت لغة القرآن الكريم ـ ولله الحمد والمنة ـ نهوضًا مباركا فى جميع آفاق العربية، وأحس أبناؤها نزعة نفسية تدفعهم إلى ربط طريف مجدهم بتليده، وحديث تاريخهم بقديمه، فاتجهوا إلى العربية فى أزهى عصورها وأنضر عهودها، يتخيرون أرق ألفاظها وأقوى أساليبها وأروع أخيلتها، فامتلأت كتاباتهم بالطريف النادر، وأشعارهم بالرقيق الساحر، وخطبهم بالجزل الرصين. ومن وازن بين حالى اللغة الشريفة فى عصر نهضتنا هذه وفى العصر السابق عليه عصر السبات والظلام؛ رأى الفرق جسيما والبون عظيما، ودهش كيف أن ابنة عدنان استطاعت فى هذه الفترة القصيرة من أعمار الأمم وأدهار التاريخ أن تخطو هذه الخطوات الواسعة وتصل إلى تلك الغاية المباركة. ولكنى أعتقد أن حيوية هذه اللغة أقوى من كل حيوية فى سواها، وأنها تبقى كامنة خادرة حتى إذا وجدت السبيل أمامها مذللة، والطريق معبدة؛ وثبت وثبة تطوى لها الأرض، وتطأطئ لها الجبال. وإن نظرة فى تاريخ الفصحى تدل على أنها تنقبض فى صدفهاولا تموت، وتنصل فى ألواحها ولا تمحى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. فلقد أصابت العربية أحداث، ومستها قروح كان أقلها كافيا لهدم أقوى اللغات ركنا وأمنعها حصنًا من غارات للأعجمية ذهبت بالرطب واليابس، وجولات للشعوبية كادت تقضى على الشرف الخالد والمجد التالد:

لقد رمتها الليالى فى فرائدها ... وكاد بنيانها ينهار من صبب
وعاشت العجمة الحمقاء ثائرة ... على ابنة البيد فى جيش من الرهب
يقوده كل ولاغ أخى إحنٍ ... مضمخ بدماء العرب مختضب
كأن عدنان لم تملأ بدائعه ... مسامع الكون من نـاء ومقترب

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ١٨١ فى ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨ ص ٨ ولقد تعرض المرحوم على الجارم لهذا الموضوع الهام وقدم فيه سلسلة من الأحاديث الإذاعية

ومع هذا أيها السادة بقيت اللغة العربية تنظر إلى الأحداث شزرا، وتسخر من الخطوب؛ فقام رجال فى هذا العصر فى كل بلاد العربية بنصرتها وشد أزرها والإشادة بمجدها.

لهذا أيها السادة تروننا لا نألو جهدا فى تطهيرها من أدران اللحن، وتنقيتها من فاسد الأساليب؛ لأن الشعور بالنقص أول مراتب الكمال، ولأن أبا الطيب يقول:

ولم أر فى عيوب الناس شيئا　　　كنقص القادرين على التمام

ولو أن كل أديب نبه إلى خطأ فأصلحه، أو فساد فى التعبير فتجنبه، لطهرت اللغة من شوائب النقص فى زمن قصير. وإلى الشباب ندائى، وإلى أبناء العربية رجائى أن يكون لهذه المحاضرات أثرها النافع إن شاء الله تعالى؛

ولنبدأ بالكلام فى الموضوع فنقول:

يخطئ كثير من الشادين فى الكتابة فيستعملون فعلا لا وجود له فى العربية وهو «تضامن» فيقولون مثلا يجب أن نتضامن فى هذا الأمر وهذا المشروع يحتاج إلى التضامن؛ يريدون أنه يحتاج إلى بذل الجهد المشترك مع ثقة كل شخص بأخيه، ومن العجيب أن هذا الفعل المصنوع الزائف انتشر على ألسنة المثقفين انتشارًا عظيمًا، وخير فعل يحل مكانه ويؤدى معناه الفعل «تواثق» ومصدره التواثق؛ قال كعب ابن زهير:

ليوفوا بما كانوا عليه تواثقوا　　　بخيف منى والله راء وسامع

أى: ليوفوا بالأمر الذى تعاهدوا عليه واتفقوا على بذل الجهد فيه متحدين متواثقين. ويشبه خطأهم فى استعمال هذا الفعل الذى لا أصل له فى اللغة استعمالهم الفعل تكاتف؛ فيقولون مثلا: يجب أن نتكاتف فى هذا الأمر؛ بمعنى نتعاون، ونجاح هذا المشروع موقوف على التكاتف؛ وهذا الفعل تكاتف لم يرد فى كتب اللغة المعتمدة، والكلمات الصحيحة فى هذا المعنى كثيرة فلسنا فى حاجة إلى ابتكار فعل جديد نشتقه من الكتف؛ ففى الاستطاعة أن نقول: نتعاون ونتعاضد ونتساند ونتآزر، ولابد من المعاونة والتعاضد والتساند والمؤازرة.

ومن الغلط أنهم يجمعون الأبله على بلهاء. وهذا من أعجب العجب؛ لأن أفعل الذى مؤنثه فعلاء؛ كأبله وبلهاء لا يجمع جمع تكسير إلا على: فُعْل، أما بلهاء فإذا صح فإنه يوجب أن يكون فى اللغة: بليه أو باله، وليس لهما وجود فيها؛ فالصواب أن يجمع الأبله على بله، كما يجمع الأحمق على الحمق، والأعرج على العرج.

ومن الغلط الفاشى قولهم: تحسنت الصناعة عن ذى قبل وزيادة قبل الكلمة «قبل» غلط لأنه لا معنى له ولأن العرب لم تستعمل هذا التركيب، ولم تجىء كلمة قبل فى لغتها مسبوقة بذى، وإنما تقول

فى التركيب السابق : تحسنت الصناعة عما كانت عليه من قبل . أما ذى فإنها لا تدخل على قبل ، وإنما تـدخلهـا العـرب على قبل ـــ بفتحتين ـــ لمعنى غير هـذا فتقـول : أفعل ذلك من ذى قُبُلْ ؛ أى : فيما استقبل من الزمان ، ولاشك أن الغرضين مختلفان ، وأن قُبُلْ غير قَبْل .

ويغلطون فيقـولون : تقضى آداب اللياقة بكـذا ؛ كأنهم يجعلون اللياقـة مصدرًا للفعل ؛ لأن يليق وهو ليس له بمصـدر؛ لأنه لم يسمع بين مصادره ولأنه لا يدل على حرفـة حتى ينقاس ، وإنما مصدره الصحيح : الليق والليقان ؛ فالواجب أن نقول : تقضى آداب الليق والليقان بكذا ، ولو أننا أبدلنا بياء اللياقة باء فقلنا : اللبـاقة ـ بالباء ـ لأصبنا شاكلة الصواب ؛ فإن العـرب تقول : هذا الأمر يلبق بك ولا يليق بك أى لا يحسن فمن السائغ لنا أن نقول : تقضى آداب اللباقة بكذا .

ومن الأغلاط الفاشيـة قولهم : حادث مريع ، فيصوغون اسم الفـاعل وهو مريع من الفعل أراع ، ولا أثـر لهذا الفعل فى اللغـة وإنما يقـال : راعنى الأمـر وروعنى ؛ بمعنى : أخـافنى وأفـزعنى ولا تقل أراعنى ، فالصـواب أن يقال : حـادث مروع ، ويصح أن تقـول : حادث رائع ؛ بمعنى : مفـزع أيضًا ولكن الرائع يأتى لمعنى آخر؛ فقد يكون لما يعجب الناس بحسنـه وجهارة منظره أو شجاعته ؛ تقول : جمال رائع ، والأصل فى ذلك كله هو الروع ؛ وهو القلب أو موضع التأثر منه . وزللهم هذا يشبه زللهم فى قولهم : هذا فعل مشين ـــ بضم الميم ـ وما هذه الأفعال المشينة ؟وهـذا غلط صارخ ؛ لأنه ليس بين أفعال اللغة (أشان) وإنما الفعل شانه يشينه شينا بمعنى : عابه فالصحيح أن يقال : عمل شائن ، أو : عمل مشين ـ بفتح الميم ـ على أنه اسم مفعول أى أنه عمل يعيبه الناس ويشينوه .

ومن الغلط قـولهم : زرتك والساعـة تسع ، مثلا ، ووجـه الغلط فيه أن السـاعة هنا مبتـدأ ، ومن القواعـد الأولى فى العربيـة وجوب مطابقـة الخبر المبتدأ ، فإذا كـان المبتدأ مفـردًا وجب أن يكون الخبر مفردًا ، والساعـة هنا مفرد يدل على شىء واحـد ما فى ذلك ريب ، وتسع تدل بوضعهـا على أكثر من شىء واحد ، أى أنها تـدل على تسعة معدودات ، فـانتفت المطابقة واضطـرب الكلام ، وهبك قلت : التفاحة تسع ، أو : الـدواة تسع ، أتظن هذا قولا تسيغه نفسك أو يستسيغـه سامعوك ؟ولكن الألسن جرت على هذا اللحن ولم تضجر له الآذان ؛ لأنه شاع فى العاميـة فلما نقل إلى العربية المعربة كان له فى النفس مكان مأهول ، والصواب ـ إن أريد التشبث بهذا التركيب ـ أن تقول : زرتك والسـاعات تسع ، أو أن تقول كما يقول الناس : زرتك فى الساعة التاسعة .

ويقولـون : هذا الشىء يجلب الشهية للطعام ، أو : يـذهب بالشهية . وكلمـة الشهية بهذا المعنى غلط هنا لا نـدرى من أين جـاءت ، وإنما الشهيـة : مـؤنث الشهى ، والشهـى : الشىء المشتهى واللذيذ ، ولاشك أن الكلام لا يستقيم البتة على هـذا حين نقول : هذا الشىء يجلب الشهية للطعام ؛ إذ يكون معنـاه هذا الشىء يجلب اللـذيذة للطعام وهـذا هراء ، فالصـواب أن يقال : هـذا الشىء شه للطعام أو يشهى الطعام أى يحمل على اشتهائه .

إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٢) (*)

أعود إلى الكلام فى تصحيح الأغـلاط الشائعة فى العربية، وأنا أزداد فى كل يوم ثقـة بأن الدعوة إلى هذه الناحية من الإصـلاح أخذت تدنو من أفئدة الشبان والمتعلمين فى مصر وبقيـة الأقطار العربية، وأزعم أنـه بعد أن كـانت الأذن تنفر فى أوقـات فـراغها من البحـوث العلمية وأقـاويل الجد، شرعت تصغى إلى من بعيد علهـا تتدارك خطأ فتصلحـه، أو غلطا فتتجنبه؛ لأنى أدعـو إلى إصلاح يجب أن يحلـه كل عربى المحل الأول، وينـزله من ثقـافته فى المكـانة العليـا. ودعونى من الشبـان المستهترين والكتـاب الإباحيين؛ فلست هـؤلاء أعنى ولا إليهم أسـوق الحديث، ولعلنـا نتقابل بعـد قليل حينما ينتعشون من كبوتهم، ويفيقون من غفوتهم، ولقد وصلت إلى رسائل ليست بالقليلة، وعلمت فى أثناء رحلتى إلى لبنان وسـورية والعـراق أن صوتى لم يذهـب فى الهواء، وأن صرختى لم تكن صرخة فى واد، وأن حميتى للعربية وأهلها عرفت سبيلها إلى القلوب.

وقـد أخذت على نفسى ألا أحكم بخطأ كلمـة لها فى العربيـة وجه مقبـول، وألا أتجاوز عن غلط يأباه ذوق العـربية وتنبـذه نصوصها وتتجـافى عنه أصـولها؛ لأنى بان لا هـدام، ومصلح لا متزمت، ومترخص فيما اتسعت له الرخصـة، وحارس بستان إذا ذدت الغربـان عن ثماره فلن أذود الصادحات عن أفنانه.

والتعرض للحكم بأن كلمـة غير صحيحة وأن أخرى صحيحة ليس بالأمـر السهل، ولا هو على طرف الثمام، وإنما يجب أن يصـدر عن نضج فى اللغة والأدب، وتمكن من طـرائق العرب فى تصريف الأبنية ومناحى استعمال الكلام، ورب كلمة لا تجد لها نصًا فى معجمات اللغة ولكنها جاءت فى أشعار المتقدمين، وعبارات كبار الكاتبين الذين يحتج بهم لمكانتهم فى اللغة؛ فللجاحظ مثلا كلمات لم نظفر

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٨٤ فى ٢٤ سبتمبر ١٩٣٨ ص ٥ .

بها فى المعجمات وللإمـام الشافعى فى مـؤلفاتـه ألفاظ لم تقع بأيـدى اللغويين، وهـو الذى يقـول فيه الأزهرى صـاحب الحكم : (وقول الشـافعى نفسه حجة ؛ لأنـه عربى فصيح اللهجـة ، وقد اعترض عليه بعض المتحذلقين فخطأه ، وقد عجل ولم يتثبت فيها قال ؛ ولا يجوز لحضرى أن يعجل إلى إنكار ما لا يعرفه من لغات العرب) .

وقد كنت مرة أقرأ للمتنبى قصيدته البائية فى مدح سيف الدولة التى أولها :

فديناك من ربـع وإن زدتنـا كـربا   فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

فتلاقيت بهذا البيت :

ويخشى عباب البحـر وهو مكـانه   فكيف بمـن يغشـى البـلاد إذا عبا

ورأيت أن الشراح جميعًـا فسروا عـب بمعنى زخـر وارتفع مـاؤه، فأحببت أن أرجع إلى المعجمات لدراسة هذا الفعل دراسـة كاملة، فلم أجد فيها نصا بهذا المعنى، ففيهـا : عب فلان الماء يعبه : شربه مرة واحدة، وعب النبت : طال ، وعب الرجل : إذا حسن وجهه بعد أن أصابه تغير .

ولم أجد بين صفحاتها فعلاً مثل عب البحر إذا زخر وارتفع ماؤه.

ولكنى أجد فيها كلمة العباب وأرى أنهم قالـوا فى تفسيرها : عباب الماء : أوله ومعظمه وارتفاعه . وهنا ينقذنى وينقذ المتنبى علم الصرف؛ فيقول : إن الماء إذا تدفق وارتفع سمع له صوت ونئيج، وإن الغالب فى الأفعـال الدالـة على صوت ـ من غير بـابى فرح وكرم ـ أن يكون مصـدرها على فعيل أو فعال؛ كصهيل وصراخ، وإذًا فعباب هذا إنما هو مصدر لـ «عب» بمعنى زخر ، وإذًا يكون اللغويون قد ذكروا المصدر وأغفلوا الفعل ثم يقول علم الصرف ثانية : أن مضارع عب الماء يحمل أن يكون يعب بكسر العين؛ لأنه فعل مضعَّف لازم والغالب فى هذا أن يكون من باب ضرب.

ورب كلمة لهج بها المتعلمون بأنها خطأ ، وجرت عليها أقلام المعلمين الحمر قاسية غاضبة ؛ لأنهم لم يروها فى كتب اللغة ماثلة بنصها وحروفها واشتقاقها .

وذلك ككلمـة : عـائلـة؛ لماذا؟ لأنها ليست فى المعجمات. يـاسـادتى أن هـذه الكلمـة ليست مستحدثـة فى هذا القرن ولا فى القـرن الذى قبل، إنها وجـدت فى شعر لشعراء الـدولة الأيوبيـة ، وقد يكون لها ذكر قبل ذلك ولكنى لم أعثر عليه ، والدولة الأيوبية نشرتها فى سنة سبع وستين وخمسمائة، إذن مـر على هذه الكلمـة المسكينة تسعـون وسبعمائة عام وهى تـدور على الألسنة وتكتب فى الشعـر، ثم نجىء نحن اليوم ونقـول لها اخرجى من وكرك أيتهـا الدعية اللـزيقة السنيدة فلست منـا ولا من لغتنا لأنك لست فى معجماتنا! ياسادتى المعجمات لا تذكر المشتقات ولو استوفت المشتقات جميعًا لعادت حجمًا كبيرًا وعبئًا ثقيلاً .

تعـالوا نبحث فى هـذه الكلمـة من الوجهتين اللغـويـة والصرفيـة ، وتمهلوا فإن الحكم على كلمـة بالإعدام يشبه قتل النفس البريئة بغير حق .

العائلة على وزن فاعلة، وهى مشتقة من عال ما فى ذلك ريب، فلننظر إذن معانى الفعل : عال؛ فنرى علماء اللغـة يقولـون: عال الرجل يعـول ويعيل إذا افتقر . يكفينا هـذا فعائلـة بمعنى مفتقرة، ولاشك أن زوج الرجل وصغاره مفتقـرون إلى من يقوم عليهـم ويمونهم ؛ فعائلة الـرجل المفتقرة إليه هى زوجه وأولاده، وهذا هو المعنى الحقيقى الذى يقصده الناس عند التعبير بكلمة العائلة .

ثم نعـود إلى المعجمات ثانيـة ، فنـرى عال الـرجل أهلـه يعولهم : كفـاهم ومـانهم وأنفق عليهـم ، والعائلـة على هذا المعنى فـاعلة بمعنى مفعـولة؛ أى : معـولة . واستعمال اسم الفـاعل فى معنى اسم المفعول شائع فصيح . قال الله تعالى : ﴿فهو فى عيشة راضية﴾ أى : مرضى عنها، ثم إن هنا معنى بليغا ؛ لأن العائلة وإن كـان كاسبها يمونها هى التى فى الحقيقة تمونه ؛ لأنها هى التـى تدفعه إلى الكد والعمل وطلب الرزق .

قال تعـالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إمـلاق نحن نرزقهم وإيـاكم ﴾ فقد رزق الأولاد على رزق آبائهم؛ لأن الآباء بأبنائهم يرزقون .

جملة القول أن كلمة العائلة صحيحة من ناحية الاشتقاق اللغوى على كلا المعنيين لـ «عال» .

ومما يجرى هـذا المجـرى كلمة فنـان. نبت بين المتأدبين مـن يقول : لا تستعملـوا كلمـة فنـان فى صاحب الفن كالشاعر والمصور والمغنى والممثـل؛ لأن الفنان فى اللغة الحمار الوحشى، فرجع الكتّاب والمتعلمون إلى معجماتهم فوجدوا فيها :

والفنان فى شعر الأعشى حمار الوحش؛ لأن له فنونًا فى العـدو. فآمنوا وصدقوا وسخروا من كل من يسمى المصور فنانًـا . ولو تأمل هؤلاء فى عبارة اللغـويين لرأوا أمرين حقيقين بالنظـر؛ أولا أنهم قالوا: «الفنان فى شعر الأعشى) أى أن الأعشى استعمل هذه الكلمة ليدل بها على الحمار الوحشى، فالفنان إذن ليس اسما موضوعًا للحمار الوحشى يعرفـه به كل العرب ،على أن هذه الكلمة فى الحقيقة فى شعر الأعشى وصف لموصوف محذوف ، وهذا كثير فى لغة العرب فهو يقول :

وإن يك غريب من الشد غالها ... بميعـة فنـان الأجــارى مجـذم

أى بميعة حمار فنان الأجارى .

وثانيا أن اللغويين قـالوا: (لأن له فنونًا فى العدو) وهـذا صريح فى أن هذا الوصف إنما أطلق على حمار الوحش لأن لـه أنواعًا مختلفـة من العدو ومـا علمنا أن الوصف يختص بشىء بعينـه ، ولا أننا إذا وصفنا فرسًا بأنه سباق لا يسوغ لنا أن نصف عالما بأنه سباق فى علمه وفضله .

على أن صيغة فنـان من صيغ النسب الجارية على فعّال كـ: لبّان، وزجّاج ؛ أي : ذى لبن، وذى زجاج . فمعناها : ذو الفنون ، فهى تطلق على كل صاحب فن فى العدو أو التصوير أو غيرها .

هذه أمثلـة قليلة عنـدنا منهـا كثير، تدل على أن كتب اللغة يجب أن تقـرأ بفهم وبصيرة وتمكن فى علوم الاشتقاق .

وهذه إشارات خاطفة للذين يتعجلـون فيكتبون فى الصحف والمجلات بأن هذه الكلمة خطأ وأن هذه الكلمة صحيحة من غير إلمام وتريث وتدقيق .

والله ولى التوفيق .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٣) (*)

نعود الليلة إلى موضوع الكلام فى الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية، وقد وقفنا الكلام فى المحاضرة السابقة إلى تصحيح بعض كلمات حكم عليها ظلما بأنها غير صحيحة ، وبقيت عهدًا طويلا طريدة منبوذة تأباها أقلام الكاتبين، وتنفر منها أسماع المعلمين. حتى رددنا إليها اعتبارها كما يقولون ورجعناها إلى أخواتها وأهلها بعد طول الغيبة واشتداد النفرة، وعندى من هذا النوع كلمات كثيرة لا يزال المتحذلقون الواقفون عند عبارة المعجمات وألفاظها يعتقدون أنها خطأ وهى صحيحة فصيحة صريحة النسب. وأريد أن أخصص بهذا الشأن عدة محاضرات أتجه فيها إلى مقاومة هذا الخطر الداهم مادامت الجرائد والمجلات قد فسحت صدورها لطائفة من المبتدئين الذين يرون أن أول مدارج الشهرة أن يخطئوا الناس فيما يقولون ويكتبون ، ولو جاءوا فى ذلك بالغث السقيم! سأفرغ لهذا الموضوع فى ليالٍ تجيء ، ولكنى سأطرفكم الليلة بكلمتين اثنتين من هذا النوع لمحض التسلية والترويح، فإن النفس تميل إلى التنقل من حديث إلى حديث وهى ملول سئوم لا تصبر على طعام واحد.

الكلمة الأولى أيها السادة هى كلمة (كسول) .

نشأت تلميذًا فطالبا فمعلما ثم مفتشا والعلماء فى كل هذه الأطوار وفى جميع هذه الأحوال يخيفوننى من استعمال كلمة كسول، فيقولون : إياك أن تستعمل هذه الكلمة وصفا للرجل، وإياك ثم إياك أن تقول: هذا رجل كسول ؛ إنما يجب أن تقول : رجل كسلان وكَسِل، فإذا كنت تعطف على هذه الكلمة بعض العطف ، وأردت أن تعيد إليها أنفاس الحياة ، فاجعلها وصفا للمؤنث وقل: امرأة كسول. هذا ما استقر فى أنفس الأدباء وهذا ما يتحذلق به حذاق اللغويين منهم، والويل ثم الويل لطالب وصف فى مقاله أو كتابته رجلا بأنه كسول. هنا تقوم محاضرة لغوية طويلة الذيول موضوعها

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٧/ ٤/ ١٩٣٨ .

كسول وكسلان وكَسِل ، وأن الأول منها يكون خاص بالنساء ولا يجوز له أن يخطر بين الفحول .

والسبب فى هذا أنهم بحثوا عن هذه المادة فى المعجمات فرأوا أن صاحب القاموس يقول :

«كسل كفرح ، فهو كَسِل وكسلان ، جمعه كسالى مثلثة الكاف ، وكسالى بكسر اللام ، وكَسْلَى وهى كِسلة وكسلانة وكسولٌ ومكسال» .

رأوا هـذا النص فقالـوا : إن صاحب القـاموس خصص كلمتى كسل وكسـلانٍ بوصف الـرجل وخصص كلمة كسول بـوصف الأنثى ، وإذاً يجب ألا نقول : رجل كسول ، ثم أرادوا أن يزيـدوا وثوقا وإيمانا فوق إيمانهم ، فأسرعوا إلى أكبر مرجع من مراجع اللغة وهو لسان العرب لابن منظور فرأوا فيه :

كسِل عنه بالكسر فهو: كسيل وكسلان ، والجمع : كَسُالَى وكُسَالَى وكَسْلَى .

قال الجوهـرى : وإن شئت كسرت اللام كما قلنا فى الصحـارِى ، والأنثى كسلة وكسلى وكسـلانة وكسول ومكسال .

رأوا هذا أيضا أيها السـادة فزادوا يقينًا ـ كيف لا وصاحب اللسـان يقول : «والأنثى كسلة وكسلى وكسول! هذا معناه فى رأيهم أن هذه الصفات الأربع جميعـا خاصة بالمؤنث لا يتصف بها سواه ، ولكن أين علم الصرف! أيها السادة؟ وأين فقـه اللغة؟ وأين فَنّ قـراءة كتب اللغويين؟ لا لا. لا يعنيهم من هذا شىء ، هكذا قال صاحب القاموس وكفى ، وهكذا قال ابن منظور وهو حسبهم .

ليس الأمـر كما تظنون أيها المتعجلـون . إن علينـا أن نفهم عبـارة اللغويين وأن نستعين فى فهمهـا بقبس من علم تصريف الكلام .

يقول علماء الصرف إن الـوصف إذا كان على وزن فعول وكـان بمعنى فاعل لا تلحقـه تاء التأنيث للفرق بين المذكر والمؤنث وذلك نحو شكـور وصبور بمعنى شاكر وصابر فيقـال للمذكر رجل شكور وللمؤنث امرأة شكور بغير تاء .

لم يقل علم الصرف أيها السادة إن الوصف الذى على وزن فعول بمعنى فاعل لا يوصف به المذكر ، وإنما قـال : إن المذكـر والمؤنث يوصفـان بـه على السـواء من غير حاجـة إلى تـاء التأنيث عنـد وصف المؤنث . إذًا علم الصرف يجيـز لنا أن نقـول : رجل كسول وامـرأة كسول كما أجـاز لنا أن نقـول : رجل صبور وامرأة صبور. تعالوا بعد ذلك نفهم عبارة اللغويين على هذا الضوء وفى هداية هذا القبس . ماذا قال اللغويـون؟ قالوا : يقال للـرجل كسِل وكسلان ؛ هذا صحيح لا غبار عليـه لأن هذين الوصفين خاصان بالمذكر ، ولأنه لما كان الوصف كسولٌ مشتركا بين المذكر والمؤنث لم يضعوه بين أوصاف المذكر ، لأن البداهة تقضـى بصحة أن يكون وصفا للمذكـر لخلوه من تاء التأنيث ، فلم يجدوا حـاجة إلى ذكره فلما جاءوا لذكر أوصـاف المؤنث قالوا : كَسِلة وكسلانة وكسول ؛ لينصوا على صـلاحية أن تكون كلمة

كسـول وصفا للمـؤنـث مع خلوهـا من التـاء. ومن هذا نـرى أن اللغويين جـروا على سنن تتسق مع العقل، فلم ينصوا على البديهى ونصـوا على غير المألوف أو ما يصح أن يكون مـوضعا لشك، والذى يدل على هـذا أن كلمة كسول جـاءت فى شعر عربى وصفـا للمذكـر، وقد نقل هذا الشعـر صاحب اللسان فى معجمه، فالكلمة إذًا لم تفته ولم يخف عليه مكانها ولو كان يعرف أنه أهملها فى موضعها لعاد إليه وذكرها فيه، ولكنه كما رأينا رأى ألا يضع الكلمـة مع أوصاف المذكر؛ لأن صلاحيتها له من بدائه العقول. اسمعوا ما جاء فى لسان العرب فى مادة (زمل): والزميل الضعيف الجبان. قال أُحَيحة:

ولا وأبيك مـا يغنى غنـائى   من الفتيـان زمّيل كسـول

والكسول هنا أيها السادة من الفتيان لا من الفتيات!

الكلمة الثانية كلمة (وحيدة):

ظهر بين المستعلمين واللغـويين من يمنع وصف الأنثى بكلمة وحيـدة، فلا يجيز أن يقـال: فتاة وحيدة فى الظرف، ولا: هذه هى المرة الـوحيدة التى زرتك فيها. ماذا نقول يا سـادتى؟ إذًا يقولون: قل وحِدة يا فتى. فجـربت أن أقول: هذه فتاة وحدة فى الظرف، وهـذه هى المرة الوحِدة التى زرتك فيهـا؛ فلم أجـد ذلك سائغـا فى حلقى ولا فى ذوقى! من أين جئتـم بهذا؟ جئنا بـه من كتب اللغـة! فارجع إليها إن شئت. فرجعت إلى القـاموس فرأيت صاحبه يقول: رجل وَحَـد وأَحَد وَوحْد ووحيد ومتـوحـد: منفـرد، وهى وحِـدة، فقـالـوا: ألم نقل لك إنـه قصر وصف المؤنث على وَحِـدة ولم يقل وحيـدة؟ قلت: نعم هذا صحيح، ولكنى أعـرف من نـاحية أخـرى أن وحيدا بمعنى فـاعل؛ أى: متوحد وأن كل فعيل إذا كان بمعنى فاعل لحقته تاء التـأنيث قياسا، فأقول: كريم وكريمة، وعفيف وعفيفة، ولا أحتاج إلى المعجمات. ثم إنى أعرف من ناحية ثانية أن أصحاب المعجمات لا ينصون على ما كان قياسيـا، وإلا صحبوا كل وصف لمذكر بمؤنثه؛ ثـم أعرف من ناحيـة ثالثة أن اللغويين إذا رأوا أن العـرب خالفـوا القياس فى كلمـة سـارعوا إلى التنبيـه عليها فقـالـوا مثلا (ولا تقل وحيـدة) ولكن صاحب القاموس لم يفعل هذا وهو لم يذكر وحيدة لأن تأنيثها قياسّى لاغبار عليه.

على أنى حين أتمُّ قراءة هذه المادة فى القاموس نفسه أجده يقول بعد قليل: «والوحيدة من أعراض المدينة بينها وبين مكة» إذًا فالعـرب قد نطقوا بكلمة الوحيدة وسموا بها مكانـا بين مكة والمدينة، وهو علم منقول من الصفة ولو كانت كلمة الوحيدة مخالفة للغتهم ما استطاعوا أن ينطقوا بها، وإذًا يكون هـؤلاء الـذين يـدعـون على المعجمات إنما يتعجلـون فى الحكم ويتسـابقـون إلى الهدم من غير فقـه أو تمحيص. هذا ما أردت التحدث فيه فى هذه الليلـة، أيها السادة، وسنستمر فى تناول هذا الموضوع فى محاضرات أخرى إن شاء الله وهو الموفق سبحانه.

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٤) (*)

والآن أيها السادة نلتقى فى رحاب العربية الشريفة التى تهوى إليها قلوب أبنائها على اختلاف الديار وبُعد الآفاق، والتى نعدها بحق الرمز الصادق لتاريخنا المجيد، والنبع الفياض لثقافتنا الحديثة، والعروة الوثقى لآمالنا المتفرقة وعواطفنا المتزاحمة. وقد ألقينا قبل ذلك من هذا المكان الذى يشرف على ديار العروبة جميعا أحاديث وأحاديث فى تنقية العربية مما أصابها من درن ، وتطهيرها من وضر اللحن ومن كل ما أجلبت به عليها العجمة من دخيل فى اللفظ والتواء فى الأسلوب. وأهبنا بالشبان الأمجاد أن يصغوا إلى أحاديثنا، وأن يقتطعوا من أوقات لهوهم جزءا للتفقه فى اللغة والإلمام بصحيح أوضاعها، وأنهم إن فعلوا وتفضل الله علينا بأن نستمر فى أحاديثنا قضوا على كل ما تتعثر به الألسن من خطأ شائع ، وتتظرف به أقلام بعض الكاتبين من عربية مدخولة ولكنا بعد أن مضينا شوطا فى إصلاح الخطأ فى الكلمات والأساليب لمحنا أن هناك داهية أدهى، وأن وراء الأكمة خطرا أعظم، ذلك هو تشبث بعض المعلمين بالحكم على كلمات صحيحة فصيحة بأنها خطأ، وقيام نابتة من المبتدئين تتعالم على الناس وترمى بالخطأ كل تركيب أو لفظ صحيح .

مسكينة أنت أيتها العربية. ماذا تصنعين بين مجازف باللحن لا يبالى ما يصنع ، وجرىء اللسان والقلم لا يريد أن يترك لك أديبا صحيحا؟ وماذا يكون حالنا أيها السادة وقد أردنا أن نرأب صدعا فى البناء فإذا بنا نرى فى الجانب الآخر معاول تهدم القوى المتماسك من هذا البناء . ألقينا بكل شىء كان فى أيدينا وتركنا الحديث فى الأغلاط الشائعة إلى حين، وأسرعنا إلى هذه المعاول نحطمها وإلى تلك الأيدى العادية على العربية نغلها.

رحماك اللهم . أردنا أن نعالج فى العربية داء قديما فإذا نحن من هؤلاء الهدامين أمام داء جديد.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٠/٦/١٩٣٨ .

وقد ذكرنا فى حديث سابق أن الحكم بخطأ الصحيح من الألفاظ يرجع إلى أسباب منها: الجمود عند عبارة المعجمات من غير ذوق لغوى وملكة سليمة تدرك ما وراء هذه العبارات، ومنها: الجهل بعلم الاشتقاق وقواعد التصريف، ومنها: الاقتصار أحيانا على معجم من غير استقصاء غيره من كتب اللغة والأدب. ونحن الليلة متناولون أربع كلمات نفاها بعض المتحذلقين من حظيرة العربية وأهابوا بالأدباء والكتاب أن يجتنبوها، منها كلمتا الفطور والغداء، وأظن أن إنسانا لا يستغنى عن استعمال هاتين الكلمتين فى كل يوم من أيام حياته، قالوا لنا: إنها خطأ لا يصح أن تتداوله الألسنة بحال، فلا يصح أن تستعمل كلمة الفطور إلا لطعام الصائم عندما تغرب الشمس، أما فى غير رمضان فطعام الصباح لا يسمى فطورا. ولكننا أيها السادة اللغويون نحتاج إلى هذا الاسم أشد الحاجة وكيف تكون لنا لغة تصح أن تسمى لغة إذا لم يكن بها اسم لطعام الصباح! قالوا: سمه غداء. سم الفطور غداء؛ لأن القاموس يقول «والغداء طعام الغدوة» والغدوة أول النهار أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس قلت: إن الناس لا يقبلون أن تسموا لهم الفطور غداء، قالوا: وما لنا وللناس إننا نأخذ اللغة من نصوصها، قلت: وبم تسمون طعام ما بعد الظهر الذى يسميه الناس جميعا غداء؟ قالوا سمهالكرزمة. فلم أسغ الكلمة وعلمت أن شيئا من هذا الخلط لن يكون صحيحا، فرجعت إلى المعجمات فماذا رأيت. رأيتها تقول:

الفطر الشق؛ تقول: فطر فلان الحائط يفطُره شقه، والفطر البدء بالشيء؛ تقول: فطر الله السموات؛ أى: بدأ خلقها ــ فالفَطر للصائم بفتح الفاء وهو المصدر وبكسرها وهو الاسم ـ مأخوذ من هذين المعنيين فالصائم بفطره يشق الصوم؛ أى يصدعه: أو يبتدئ الأكل بعد أن كان محظورا، والطعام الذى يبتدى به يسمى فطورا؛ لأنه يكسر الصوم أو يجىء أول الطعام. وإذا جاء الفطر والفطور فى حديث أهل اللغة عن الصوم والصائم. ألا يسوغ لنا أن ننقله إلى غير الصائم ما دام الأصل اللغوى يعاضدنا والحاجة إلى الكلمة تستحثنا؟ نعم يسوغ؛ إما على ضرب من المجاز بالاستعارة وإما بإطلاق الخاص بتوسيع معناه وإما بالرجوع إلى الأصل اللغوى المحض؛ لأن طعام الصباح وهو الفطور أول طعام يبتدأ به فهو من الفطر بمعنى الابتداء، أو لأنه يشق ما كان عليه الآكل طول الليل فيكون من الفطر بمعنى الشق والصدع، وتوافق اللغات هنا عجيب جدا بين العربية والإنجليزية فإن الفطور يسمى بالإنجليزية "breakFast" أى صدع الصيام.

انتهينا إلى أن نسمى طعام الصباح فطورا كما يسميه جميع الناس. بقى الغداء وما قالوه من أنه طعام الصباح، وكانت عبارة صاحب القاموس تشهد لهم؛ لأنه يقول: والغداء طعام الغدوة وهى ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ولكننا حين ذكرناهم بقوله تعالى فى شأن موسى عليه السلام ﴿ **فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ وقلنا: كيف يلقيان نصبا من السير والسفر وقت الغدوة فى بكرة النهار؟ قالوا: لعله كان يسير ليلا. فذهبنا إلى المعجمات فرأينا صاحب المصباح

يقول: غدا غدوا ذهب غدوة؛ هـذا أصله ثم كثر حتى استعمل فى الذهاب فى أى وقت. وإذًا يجوز أن تقـول: غدا فـلان إلى الإسكندريـة فى قطار العصر؛ بمعنى: ذهب. ثم رأينـا صاحـب الصحـاح يقول: والغداء الطعـام بعينه وهو خلاف العشـاء، فهو لم يقيده بأن يكون أول النهـار، فطعام الظهر عنده غداء مـن غير شك. وهناك دليل آخر على ذلك لطيف، وهو مـا قاله شارح القـاموس، قال: ويسمى السحور غداء؛ لأنه للصائم بمنزلته للمفطر. وفى هذا معنيان دقيقان؛ فهو أولا: يبيح لنا أن نسمى طعام الصباح فطـورا؛ لأن العرب تجوزوا وسموا سحور الصـائم غداء. وإذا تجوزوا فى الصائم فلـم لا نتجـوز فى المفطر؟ وهـو ثانيـا: يفيد أن طعـام الغـداء هو طعـام ما بعـد الظهر، أو الـذى يلى الفطور؛ لأنهم استعملـوه للصائم فيما يلى الفطـور وفى طعام نصف الليل. «أمـا الكرزمـة» هذه وهى أكل نصف النهار؛ فهى على غرابتها وثقلها ونبوها لم نرها فى كتب الأدب ولا فى شعر الشعراء، على أن ابن الأعـرابى ينكـرها ويقول: لم أسمعه لغير الليث.

ومن هذه الكلمات التى لا تـزال محكوما عليهـا بالخطأ من جميع المعلمين والمتأدبين «كلمة يـدعوه كذا». و«تعود على كذا» فلا يجوزون مطلقا أن يكتب كاتب مثلا إن التغاضى عود فلانا على الكسل. أو أن يقول: إن فـلانا تعـود على الإهمال؛ لأنهم رجعوا إلى معجمات اللغـة فرأوهـا مجمعة على تعـدية الفعل بنفسه لـذلك يحتمون أن يقال: إن التغاضى عـود فلانا الإهمال فتعوده. ولكننا نـريد أن نفهم نصوص اللغـة معهم فى هدوء وتؤدة ففيها: وعـاد فلان على الشىء وإلى الشئ رجع إليه وفيهـا وعاد فلان الشىء صار عادة له. وفيها: وعوّد كلبه الصيـد فتعوده: جعله يعتاده، فالفعل عاد فى كل هذه التعاريف معناه الرجـوع إلى الشىء أو العمل فإذا تكرر هذا الرجوع صـار عادة، وإذا جاز أن نقول: عاد فلان على الشىء بمعنى رجع. ألا يجوز حينما نريد أن نعدى هذا الفعل إلى المفعول بالتضعيف أن نقول: عوّد فلان فلانا على الشىء؛ أى: أعادة إليه مـرة بعد أخرى. هذا بدهى كما نقول: سار فلان على نهج قويم، وسيرته على نهج قـويم. وحينما قالوا: عاد فلان الشىء، وأرادوا تعـديته إلى مفعولين قالـوا: عودتـه الشىء، ولكن اللغـويين أهملوا ذكـر الفعل الأول مُضعَّفًا؛ وهـو عّوده على كـذا وأتوا بالفعل التالى وهو عوده كذا. وإهمالهم هذا لا يـدل على منع عوده على كذا مادام التضعيف مسموعا ومـادامت العرب استعملت الفعل المجـرد معّـدىً بعلى فقالـوا: عـاد فلان على الشىء فإذا لم يـؤمن المتأدبون بعد كل هذا، فأظنهم يمتلئون إيمانا عندما يسمعون قول زهير فى مدح هرم بن سنان:

وعــوَّد قـومَـه هـرِمٌ عليـــه   ومن عــاداتـه الخلق الكـــريم

عودهم عليه أى: جعلهم يعودون إليه لطلب المعروف مرة بعد أخرى. وكذلك إذا قلت: عودت فلانا على الكرم. كان المعنى: جعله يعود إليه مرات فتعود عليه.

ومن الكلمات التى أنكرها علىّ بعض الأدباء كلمة «نسائم» جاءت فى بيت قلته هو:

يُفدِّيه غُصن الدوح ريأن ناضِرًا إذا اهتز فى كـف النسائم مائله

قالوا : إن النسيم لا يجمع على نسائم وإنما جمعه أنسام ، ولم نجد أن كتابا فى اللغة جمعه على نسائم . والحق أن هذا الكلام عجيب جدا كأن الجموع القياسية يجب أن تؤخذ أيضا من كتب اللغة مع أنها لا تذكر الجمع القياسى إلا فى القليل النادر .

جمع نسيم على نسائم جمع قياسى ؛ لأن فعائل جمعا تطرد فى كل رباعى مؤنث ثالثه مدة زائدة ، فاجمع سلافة على سلائف ، وحبيبة على حبائب ، وحلوبة على حلائب . ولا تبحث عنها فى كتب اللغة ، والمؤنث إما أن يكون بالتاء كما سبق ، وإما أن تكون العرب عدته مؤنثا مثل شمال وشمائل ويمين ويمائن وعجوز وعجائز .

والنسيم مؤنثة لأن الريح مؤنثة وكل أسمائها مؤنثة كذلك .

وإذا كانت النسيم مؤنثة فهى رباعية ثالثها مدَّة زائدة هى الياء ، فهى تجمع على نسائم فى قياس مطرد لا يتخلف ، ولذا يقول الحسين الواسانى من أكثر من تسعمائة سنة :

ولما نضا وجه الربيع نقابه وفاضت بأطراف الرياض النسائم

وفى هذا القدر ما يكفى هذه الليلة والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٥) (*)

نعود الليلة إلى ما بدأنا به من الحديث فى العربية الشريفة لغة الدين والقرآن وجامعة أشتات الأمم العربية على اختلاف آفاقها وتباين لهجاتها . فهى لغتها القائمة وصلتها الدائمة فكم نزلنا بلادًا عربية النبعة والتاريخ والأدب والعادات والدين فعجزنا فيهـا عن مشافهة كثير من عوامهـا وقلّت حيلتنا فى تفهم لهجاتهم لما اعتورها من التحريف والتغيير والمسخ ولما تفشّاها من مولّد ودخيل، كما هو الشأن فى عاميتنـا المصرية فلم ينقذنا بينهم إلا مخاطبتهم بـالعربية السهلة الصحيحـة وحملهم على محادثتنا بها . هنالك اجتمـع المتنائيان وتعـانق الأخوان ورأيـا أنهما وإن تباعـدت بينهما الديار وشـط المزار من أرومة واحدة تجمعهما أواصر تاريخ مجيد وتلتقـى فروعهما عند أصل واحد كريم هو العـربية والعرب بكل ما فى الكلمتين من معنى سام وذكريات غالية .

فالعـربية هى ربـاط القلوب ونسب الأرواح وهـى أخوة فى الـدم والتاريخ دائمـة وآصرة فى المجد والنسب قائمـة . أليس من الواجب علينا بعد هـذا أن نعمل على هدم العامية فى كل قطـر عربىّ وأن نحيى فيه العربية الصحيحة حتى تزيد هذه الصلة قوة وهذه الآصرة متانة وإحكامًا ؟

والقضاء على العاميـة لا يكون أولا إلا باستنكارهـا والاشمئزاز منها ، وأنها تجر فى أذيالها بقـايا من عصور الظلم والإظلام، وأنـه لا يحسن بمتعلم أو بشبه متعلم أن ينطق بها أو يلقنها أطفـاله الصغار. ثم بانتشـار التعليم الأولىّ وعمومـه ، ثم بحرص الجرائد والمجـلات كيفما كانت نـواحيها على العـربية الصميمة ، وألا ينفذ إليها أسلوب عامى أو كلمة سقيمـة . ثم بهجر التمثيل العامى هزليا كان أو غير هزلىّ ، ثم بعناية كل خطيب أو مـدرس أن يكون سليم التعبير صحيح الأسلوب . والمعلمون المعلمون

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٨/ ٧/ ١٩٣٨ .

هم موطن الأمل ومحط الرجـاء وهم الملح المصلح وما يصلح الملح إذا الملح فسد؟ فإذا التزمـوا العربية السهلة السائغة نفذت إلى نفوس تلاميذهم ورسخت أساليبها فى حوافظهم فانطلقوا يتحدثون فى يسر بعبارة صحيحة ونسق مستقيم .

لذلك أيها السادة وقفنا هذا الموقف وسنقفه ما تنفس بنا العمر نرفع الصوت لنصرة العربية وسنجد بحول الله من غيرة إخواننا وأبنائنا ما يشد أزرنا ويقوى زندنا .

وقد كنا نتحـدث فى محاضراتنا السابقة فى كلمات وأساليـب ادعى بعض المتعجلين خطأها وأذاعوا ذلك فى الجرائد ونشروه بين الناس وبين الناشئة المتعلمة ، فكان ضرر ذلك جسيما وشره مستطيرا ، فإن فيه تضييقا للعربية وهى فسيحـة الصدر فياحة الرحاب ، وقد وصل هؤلاء إذا حـاولوا الكتابة إلى شبه شلل أدبى ، فتشككوا فى كل كلمة ورجعوا إلى حروف المعجمات إذا هموا بأى تعبير.

وسنواصل البحث الليلة فى تصحيح كلمات أخـرى أبعدوها عن حظيرة العربيـة ، وحكموا عليها بالخطأ . ومحاها المعلمون بالقلم الأحمر من كراسات التلاميذ .

من هذه الكلمات كلمة : عديدة ؛ بمعنى كثيرة ، فإذا قال قائل : زرتك مرات عديدة ، أو: عندى كتب عديدة خطئوه ؛ لأن المعجمات لم تذكر ، فى رأيهم ، عديدة بهذا المعنى ، وإذا وردت فى المعجمات فيجب فى مذهبهم أن ترد ظاهرة جلية لا تحتاج إلى إعمال فكر، ولا إلى تخريج على قواعد الاشتقاق .

فقد رأوا فى المعجمات ممـا يدور حول هذه الكلمـة أن العديد : العـدد ، والكثرة ، والنظير، ورنين القوس ، وأن العديدة : النصيب؛ تقول : خذ عديدتك أى حصّتك ونصيبك . رأوا هذا ، ولم يروا فيها أن العديدة تأتى بمعنى الكثيرة ، فجهروا بأن استعمالها فى هذا المعنى خطأ ، وراحوا يتعالمون بذلك منذ أكثر من ثلاثين سنـة ، والفلك يدور والليل يعقبه النهار، وكلمة عـديدة بمعنى كثيرة على الرغم من ذلك تملأ الصحف والكتب ، وتطَّرد فى عبـارات الأدباء المبرزين ، ويظهر أن ثبات الكلمـة طوال هذا الزمن على كثرة ما كان يصيبها من الزجـر والطرد دليل على حقها فى البقاء ودليل على أن العربية تضن ببناتها أن تزال . تعالوا نفهم معًا أيها السادة :

استعملت اللغة العديد بمعنى الكثرة باتفاق منـا ومنكم ، ونزيد هنا ـ إذا أذنتم ـ أنها استعملت العديد بمعنى الكثير. قال الراغب فى مفرداته : ويقـال : جيش عديد أى كثير، فالعديد إذًا تستعمله العرب بمعنى الكثير. قالت الخنساء ترثى أخاها صخرًا :

فأقسم لـو بقيت لكنت فينـا   عـديـدًا لا يكـاثـر بـالعـديـد

أى لا يغالب بالكثير من الرجال .

وإذا كان العديد صفة بمعنى الكثير فهو إذا مشتق من عد الشىء يعده ، وإذا كان مشتقا فهو بلا

شك صيغة مبالغة كـ: رحيم وسميع ؛ لأن فعله متعد فالعديد الكثير العدد، كما أن الرحيم كثير الرحمة، والسميع: شديد السمع، ولا شك أن صيغة المبالغة تؤنث بالتاء، فقل إذًا: كتب عديدة ومرات عديدة. كما تقول: امرأة رحيمة وسميعة. ومن هذا يظهر أن كلمة عديدة بمعنى كثيرة صحيحة فى اللغة والقياس ؛ لا يصيبها رشاش من شك. ثم إننا نستطيع من ناحية أخرى أن نستخرجها بالنص من عبارة اللغويين. قالوا العديدة النصيب. أتدرون لم سموّا النصيب فى الميراث عديدة؟ لأنه سهام وأجزاء من التركة معدودة فعديدة الوارث ما أصابه من المال المعدود. وإذا استعملت العرب العديدة بمعنى المعدودة فلم لا نستعملها نحن؟ ولا يقال هنا: إن كلمة معدودة تفيد القلة ؛ لأن الزجّاج يقول: كل عدد قلّ أو كثر فهو معدود.

ومن الكلمات التى خطّئوا فيها الناس كلمة (استغرب) فلا تقل: استغربت هذا الأمر؛ أى: عددته غريبا؛ لأنهم يرون أن هذا الفعل (استغرب) لم يأت فى المعجمات إلا لازما بمعنى المبالغة فى الضحك. قال فى اللسان: واستغرب عليه الضحك: اشتد ضحكه ولجَّ فيه. ونحن لا ننكر عليهم ذلك ولكننا نستغرب ما يقولون؛ لأن هذا الفعل استعمل كثيراً فى القديم والحديث وأقيسة اللغة لا تأباه.

وأصله من غَرَب الشيء يغرُب أو غَرُب يغرب غرابة؛ بمعنى بعد، فهو غريب أى: بعيد عن المعروف المألوف. فإذا أدخلنا عليه السين والتاء للاعتداد والإصابة قلنا: استغربت الشىء ؛ أى عددته غريبا، كما نقول: استحسنت الشىء؛ أى أصبته حسنا، واستقبحته؛ أى وجدته قبيحا، والسين والتاء للطلب أو الإصابة قياسية.

قال سيبويه: والباب فى استفعل أن يكون للطلب أو الإصابة، وإذا قالوا: الباب؛ فهذا معناه القياس. وقال ابن يعيش: والغالب فى هذا البناء (استفعل) الطلب والإصابة، وما عدا ذينك فإنه يحفظ حفظا ولا يقاس عليه.

ومما زعموا أن الفعل صارح لا يكون إلا لازما، وأن الكتّاب يخطئون حين يقولون: صارحت فلانا برأيى ودليلهم على ذلك أن المعجمات التى يعول عليها لم تأت بهذا الفعل إلا لازما، ولكن أبا طالب عمّ النبى صلى الله عليه وسلم يقول:

وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

فاستعمل صارح متعديا. وهذا دليل يساق إلى أدلة كثيرة ذكرتها على أن المعجمات لم تحصر كل كلام العرب، وأنه يجب التريث والبحث قبل البت بنفى كلمة من ساحة اللغة الصحيحة.

هدانا الله إلى طريق السداد ووفقنا لخدمة دينه ولغة كتابه الكريم والسلام عليكم ورحمة الله.

إصلاح الأغلاط الشائعة فى اللغة العربية (٦) (*)

تحدثنا فى أربع محاضرات سابقة فى تصحيح كلمات وأساليب جرت طائفة من حذاق العربية على الحكم بأنها خطأ، فأعدناها إلى فناء العربية بعد طول التشريد، واشتداد الجفاء، ورجعناها إلى أخواتها من بنات الضاد، فلقيت من البشاشة والرحابة ماهى خليقة به وقد كنا نريد أن نكون أبعد شوطا وأوسع مدى فى هذا البحث، ولكنا رأينا أن ننتقل بالسامعين إلى فن آخر من القول قد يكون أهون عليهم وأحب إلى نفوسهم وأبعد إلى خشونة الاصطلاح وجفوة التعقيد. فقد أسهبنا فيما عرضناه على السامعين آنفا فى نقل النصوص اللغوية وتمحيصها وبيان الطريق إلى فهمها حق الفهم، وقد كنا فى هذا نقصد إلى إرشاد طلاب اللغة والأدب إلى طريق قراءة كتب اللغة وفهم ما وراء ألفاظها من معان، وإلى ما فى أساليب تأليفها من عيوب قد تؤدى إلى خطأ فى الفهم وفساد فى الحكم؛ لأنها قد تهمل ما تحكم البداهة بعربيته، وقد تنقص فى مواضع فتكملها الآثار العربية الصحيحة من شعر ونثر وتشمر لمعونتها علوم التصريف وقواعد الاشتقاق.

وقد وضحنا ذلك بأمثلة كثيرة تناولت مسائل شتى مما ندّ عن الناشئين فهمه، وغرب علمه، ولعلنا نكون قد رسمنا بما فصلناه نهجا قويما للباحثين، ومهيعا واضحا لمن أراد البحث والتمحيص.

والآن نتحدث فى أغلاط تنتشر فى عبارات الكتّاب، وبعض هذه قد جاء الغلط فيها من ناحية الأسلوب. لأن الترجمة فى هذا العهد الحديث طغت على كل شيء وتصدر لها فى كثير من الأحيان من لا يعرف من معنى الترجمة إلا أنها وضع كلمة عربية مكان كلمة أعجمية، وأنها نقل الأسلوب الأعجمى إلى العربية كما هو، بتغيير كلماته من غير تصرف سليم أو ذوق عربى دقيق. وليت الحال فى

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٣/ ٩/ ١٩٣٨.

سقم الأسلوب والتوائه وأعجميته، كانت تقف عند الكتب المترجمة فقد تجاوزت ذلك بعيدا وسرت عدوى الترجمة إلى التأليف.

ورأى بعض الكتّاب أنه من التظرف والتجديد أن ينحو فى كتابته منحى الأسلوب الفرنجى فأصبحنا نقرأ أحيانا لبعض الكتاب كتابة عربية فى غير ردائها العربىّ الصميم فظهرت مضطربة مختلفة الألوان . هى أشبه بأعرابىّ انتزعته من البادية وأبقيت له خُفّية وشَمْلته، ثم أضفت إلى كل ذلك ما يحلو لك من ملابس فرنجية فبدا فى زى عجيب تقتحمه العيون . لا هو بزى العرب ولا بزى الأعاجم . وإذا عرض لكم شك أيها السادة فى بعض ما أقول فإن أيسر ما يذهب بهذا الشك أن تعرضوا إلى قطعة مما يكتب هذا الصنف من الكتّاب، وأن تجربوا بأنفسكم بوضع كلمة أجنبية مكان كل كلمة عربية فإن استقام لكم ذلك من غير كلفة ورأيتم أنكم خرجتم بعد هذا العمل اليسير بقطعة فرنسية أو إنجليزية صادقة التعبير صحيحة المعانى، فاعلموا أنى صدقتكم الحديث وأنى لم أكن مبالغا ولا مغرقا . وفى الحق إنى لم أرشدكم إلى هذه التجربة إلا بعد أن سبرت الأمر بنفسى، ورأيت أن ذلك خير ميزان لتمييز الأسلوب العربى السليم من الأسلوب الأجنبى الدخيل . إن لكل لغة أسلوبها وخواص تعبيرها ، وإنه من الخلط والخبل الأدبى أن يسطو أسلوب لغة على أخرى، وإن من ضعف القومية وخور النفوس أن تنسى الأمة مقومات لغتها لتفنى فى سبيل لغة أخرى . تخيلوا أيها السادة أننا ترجمنا إلى أية لغة غربية العبارات الآتية ترجمة حرفية وهى : أكل عليها الدهر وشرب، ركب فلان رأسه، قطعت المسافة فى يوم . إننا لو فعلنا لأتينا بالسخيف المضحك . فما بالنا نرى هذا ولا نعدل عن تشويه لغتنا بخلطها بأساليب لغات تخالفها فى النمط البيانى والتفكير وطرائق التعبير.

طلب إلىّ عظيم مرة أن أذكر له الفرق بين ترجمة فلان وترجمة فلان، وكانت لهما شهرة فى الترجمة وتمكن فى الإنجليزية وإلمام بالعربية فقلت له على الفور: إن فلانا يترجم الألفاظ وفلانا يترجم المعانى فسرّ لهذا الإيجاز الذى يتضمن المعنى الصحيح للترجمة ويبرز أكبر عيوبها، نحن لا نريد ترجمة الألفاظ ولكنّا نريد ترجمة المعانى . من يظن أن كتاب كليلة ودمنة مترجم؟! نريد ترجمة على هذا النمط، ومن هذا الطراز . نريد من المترجم أن يقرأ الصفحة فى الأصل الأجنبى ويفهمها حق الفهم ويدرك مراميها، أو كما يقول السادة الأزهريون منطوقها ومفهومها، ثم يلقى بالكتاب من يده ويكتب ما وعاه من عند نفسه بلسان عربى مبين، وإذا كان بالأصل مجاز أو خيال أو كناية بحث فى لغته الفسيحة الواسعة المدى عما كان يقوله العرب فى أمثال هذه التراكيب.

وليعلم أن لكل لغة خصائصها وبيئتها وأسباب سعتها وضيقها، فقد تجد كلمة فى اللغة الأجنبية لا تؤدى إلا بجملة فى العربية وقد تجد عكس ذلك، وقد تجد كثيرا من المترادفات الأجنبية فى ناحية خاصة فى حين أنك لا تظفر بكلمة عربية فى هذه الناحية إلا بعد عرق الغربة، وقد تجد عكس ذلك وقد تجد فى كل لغة دقة فى التعبير فى بعض نواحيها وانحلالاً شائنا فى نواح أخرى.

أقول هذا لأنى كثيرا مـا سمعت من بعض الشبان أن هذا التعبير مثلا أو هذه الكلمـة الإنجليزية أو الفرنسية ليس لها مثيل فى العربية . وهذا خطأ لأن العربية الشريفة لا تضيق بكلمة أو أسلوب كيفما كانت وكيفما كـان ، ولكن التعبير قد يكـون موجزا فى اللغـة الأجنبية ويأبى ذوق العـربية إلا أن يترجمه مسهبا ، وقد تكون الكلمة فى الأجنبية مؤدية لمعان مركبة لا تؤديها العربية إلا بكلمتين أو ثلاث .

طلب إلى مرة أن أراجع كتابا كبير الحجم ترجم من الإنجليزية لإصلاحه وتهذيبه فرأيت أن المترجم كـان أمينا إلى أقصى حـدود الأمانـة وأنـه ترجم كل كلمـة وكل حـرف ، فعادت كتـابته وهى عجيبـة العجائب لا شرقية ولا غربية ، فحرت فى أمـرى وسقط فى يدى ورأيت أن إصلاحه من المعجزات وأنه خير لى وأهون أن أكتبه من جديد .

هذه نبذة قصيرة فى الترجمة وخصـائص اللغات لو أردنا أن نبسط القول فيهـا لطال حبل الكلام ، ويكفى أن نحفز شبـابنا المثقفين إلى الحرص على لغتهم ، والتمسك بـأساليبها ، وتطهير أقـلامهم من لوثات العجمة والدخيل .

ولنذكر أمثلة من الأساليب التى تسربت إلى العربية من سوء الترجمة ولم يتنزه عنها كثير من كتابنا .

من التراكيب المترجمة التى لا يستسيغها الـذوق العربى ، وليست العـربية فى حاجـة إليها وليست الدقة فى التعبير تتطلبها ألبتة : قولهم مثلا : قال فلان كذا وأنا بدورى أقول كذا ، وكلمة : بدورى هذه لم تتسلل إلى حمى العربيـة إلا من عهد قريب جـدا ، وهى ترجمة حـرفية دسها بعض الكتـاب فى اللغة وحاكاه فيها بعض الشداة فى الكتابة ومن لا يدققون فى اختيار الأساليب ، وهو تركيب مقحم لا معنى له ، وهو لا يؤخر ولا يقدم والكلام بدونه سـائغ مستقيم ؛ فلو قلت : قال فلان كذا وأنا أقول كذا ـ ما طالبك إنسان أن تنص على هذا القول كان بدورك أو بدور غيرك .

ومن التعبيرات المترجمة قـول بعضهم مثـلا : إن هذا المشروع يفيـد سكـان الصعيد وبـالتـالى جميع سكان القطر ، وكلمـة بالتالى هنا عجيبـة وغريبة لم نرهـا فى فصيح الكلام قديمه وحـديثه ، وكلمة ثم العـاطفة تغنى عنهـا تمام الغنـاء فالتركيب العـربى الصحيح أن تقـول : إن هـذا المشروع يفيد سكـان الصعيد ثم جميع سكان القطر.

ومن التراكيب المترجمة مثل قولهم : عظمت ثـروة مصر عن طريق الـزراعة ، أو : نهضت مصر عن طريق العلم وهـذا التركيب (عن طريق) محدث فى العـربية تغنى عنـه باء الجر فى إيجاز ورشـاقة ؛ فإن العرب تقول : عظمت ثروة مصر بالزراعة ونهضت بالعلم .

ومن التراكيب المترجمة السقيمـة قولهم مثـلا : نصف شفاف ، وأنصـاف المتعلمين ، وهذا بـدع لا يسيغه الذوق . وكانت العرب تقول فى هذا : شبه الشفاف ، وأشباه المتعلمين . ومن كلام علىّ كرم الله وجهه فى خطبته المشهورة : « يا أشباه الرجال ولا رجال» .

وعندى من هذا النوع أمثلة كثيرة موعدنا بها المحاضرات المقبلة إن شاء الله والسلام عليكم .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٧) (*)

تناولنا فى حديثنا السابق طرفا من تأثير لغة الترجمة فى لغة التأليف والكتابة، وذكرنا فيما ذكرنا أن إهمال العناية بالترجمة فى أول عهد نهضتنا الحاضرة جر على العربية ويلات تحاول اليوم التخلص منها فلا تكاد تستطيع. وأن شبح الترجمة وظلها يبدو اليوم ماثلا فى كل ما نقول ونكتب، حتى أصبح كبار لغويينا وعظماء أدبائنا المحافظون على تراث الآباء الحريصون على إبقاء العربية صميما خالصة يخشون أن تهفوا أقلامهم بأسلوب دخيل، أو يشبّه عليهم تعبير فى العربية ستيد.

ويجب أن نسارع هنا إلى أن نمحو من أذهان السامعين ما يمكن أن يخطر بها من أننا ندعو إلى الجمود، أو ننادى بالوقوف باللغة دون النمو ومسابقة الحياة الحاضرة التى سبق فيها كل شىء وبلغ الغاية أو كاد.

لا يا سادتى إننى أعتقد أن لغتنا الشريفة بموادها الواسعة وصدرها الرحيب وأساليبها اللّينة المرنة، جديرة بأن تعبر عن كل دقيق وأن تشرح أساليبها كل معنى مستحدث جديد، وأن تخلع على مدنية هذا القرن الملىء بالعجائب ما شاء من حلل سابغات، دون أن يمس شىء من أسلوبها العربى السمح، أو يقوض جدارًا من بنائها الراسخ الرصين.

إن لغة العرب ليست لغة أثرية وضعت لتسد حاجات عصر موغل فى القدم، حتى إذا انقضى ذلك العصر زالت بزواله وقامت على أساسها لغات جديدة لعصور جديدة. كلا! إن العربية لغة كل زمان. إن لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر العربى الرائع لا تضيق بحاجات أى قوم ولا أىّ زمان.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٧/ ١٠/ ١٩٣٨.

وقد يخيل إلى بعض المشتغلين بالأدب أو المعانين للترجمة أن اللغة لا تستجيب لهم فى بعض الأحيان إذا دعوها، وأنها تخذلهم كثيرًا فى مواطن الحاجة، وأنهم إذا أهابوا بها للتعبير عن معنى جديد قصرت يدها عن أن تناله، فتراهم وقد عادوا بصفقة المغبون يملئون الجو صياحًا ويرمون اللغة بالقصور والتقصير. وليست اللغة قاصرة ولا مقصرة ولكنهم هم القاصرون المقصرون. عجزوا عن استخراج كنوز اللغة من دفائنها، وقعدوا عن دراسة أسرارها وعجائبها، فإذا عاقبتهم بالهجر والصد وأسدلت النقاب دون سحر جمالها، وأوصدت الباب فى وجوههم، راحوا يقولون: إنها كزة الكفين وإن جمالها - إن كان لها جمال - صحراوى لا يجتذب القلوب فى هذا الزمان.

وفى الحق إن إهمالنا اللغة ليس من عيوب اللغة، وإن نومنا طويلا عن الانتفاع بذخائرها فى حياتنا الجديدة لا يكون إلا حجة على عجزنا أو تقصيرنا.

وإننى فى هذا المعنى أقول:

الدهر يسرع والأيام معجلة ... ونحن لم ندر غير الوخد والخبب
والمحدثات تسد الشمس كثرتها ... ولم تفز بخيال اسم ولا لقب
والترجمات تشن الحرب لاقحة ... على الفصيح فيا للويل والحرب
نطير للفظ نستجديه من بلد ... نساء وأمثاله منا على كثب
كمهرق الماء فى الصحراء حين بدا ... لعينه بارق من عارض كذب
أزرى ببنت قريش ثم حاربها ... من لا يفرق بين النبع والغرب
وراح فى حملة رعناء طائشة ... يصول بالخائبين: الجهل والشغب
أنترك العربى السمح منطقه ... إلى دخيل من الألفاظ مغترب
وفى المعاجم كنز لا نفاد له ... لمن يميز بين الدر والسخب
كم لفظة أجهدت مما نكررها ... حتى لقد لهثت من شدة التعب
ولفظة سجنت فى جوف مظلمة ... لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما قد تولى القارظان بها ... فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب

يقول بعض الناس إن كل شيء فى هذه الدنيا يصيبه التطور والتحول واللغة شيء من الأشياء، فلماذا لا يعتورها التطور؟ ولماذا نلزم أن نعبر بلغة البادية فى زمان هو أبعد الأزمنة عن البادية. مرحى أيها السادة!! إن اللغة يصيبها التطور. وقد أصابها هذا فى عصور التاريخ جميعها وهو عارض طبيعى لا مناص منه ولا محيص ولكن التطور الذى نريده تطور إحياء لا تطور إماتة. ظهرت اللغة فى صدر الإسلام بمظهر جديد، وأصابها فيض من التجديد أيام الدولة العباسية، فاتسعت للعلوم واتسعت للفنون واتسعت لشئون الحياة. وكانت حياة مائجة صاخبة ولكن بناءها لم يمس وأسلوبها لم ينتقض وجمالها البدوى لم تشنه تطرية الحضارة. ولنأخذ الآن فى تصحيح بعض الأساليب التى تسربت إلى

العربية من الترجمة فى عصرنا الحديث . فمن ذلك قولهم مثلا : بناء على اعتراف فلان حكم عليه بكذا ، وهذه العبارة تكثر جدا فى الدواوين وتمتلئ بها الصحائف ، وهى ترجمة حرفية من اللغات الأجنبية وليست من العربية فى قديم ولا حديث ، والعرب تقول فى أسهل تعبير وأسلسه : حكم على فلان لاعترافه .

ومن ذلك قولهم أيضا : حضر فلان فى الساعة العاشرة ، وجاء أخوه فى نفس الوقت . وكلمة فى نفس الوقت ترجمة غير سائغة ، لأن كلمة «نفس» من ألفاظ التوكيد المعنوى وليس من ذوق العربية أن يقدم المؤكد على المؤكَّد ، لأن الإنسان لا يؤكد شيئا غير موجود والتعبير العربى الصحيح أن تقول : حضر فلان فى الساعة العاشرة وحضر أخوه فى الوقت نفسه .

ومن الأساليب التى انتشرت انتشار الوباء قولهم : أنا كطبيب أقول كذا ، وهو كمهندس يقول كذا ، وهو تعبير منقول بالحرف من لغات الفرنجة ، وهو إذا حاولت رجعه إلى العربية حاولت عسيرًا لأن ذوق العربية يقضى أن كاف التشبيه تدخل على غير المشبه ، وهذا أيضا مما تقضى به بدائه العقول ، فإذا قلت الشعر كالليل كان الشعر غير الليل ، وإذا قلت : أنا كطبيب ، حكمت العربية بأنك غير الطبيب مع أن مقصود القائل أن يقول إنه طبيب . أترون هذا الخلط وهذه العجمة وذلك التبلبل ! هو يقول إنه طبيب وتعبيره يقول إنه ليس بطبيب . والأسلوب الصحيح فى هذا التعبير أن تستعمل الحال النحوية وما أسهلها وما أظرفها ، وذلك بأن نقول : أنا طبيبا أقول كذا وهو مهندسًا يقول كذا . وقد أراد بعض الحذاق أن يصلح الأسلوب السابق فقال : أنا بوصف أنى طبيب أقول كذا وفى هذا تشويه وتكلف .

ومن أغلاط الترجمة التى جاءت من بعض الأقطاب قولهم إن قيمة هذا الكتاب بالكاد ثلاثون قرشا ، وأحيانا يستعملون (بالكاد) هذه فى الحصول على الشىء بمشقة ، فيقولون : استمر فلان يمشى طول النهار وبالكاد وصل إلى المدينة عند الغروب . وكلا هذين التعبيرين لم يستعمله العرب ولا المولدون إلا منذ عهد الترجمة الحديث على أنه والحمد لله ثقل على الألسنة فأخذ يتوارى من مصر بعد أن ملأ الروايات المترجمة ردحا . والكاد هذه مصدر من مصادر كاد التى للمقاربة ولم تستعمل العرب هذه المصادر فى هذا المعنى وإنما استعملوا الفعل فقالوا فى التعبير الأول : يكاد ثمن هذا الكتاب يبلغ ثلاثين قرشا ، وفى التعبير الثانى : استمر فلان يمشى طول النهار ولم يكد يصل إلى المدينة إلا عند الغروب .

وفى هذا القدر ما يكفى وسنبحث فى محاضرة ثالثة إن شاء الله فى عيوب الترجمة من نواح أخرى مع الاستشهاد والتمثيل والله الموفق والسلام عليكم ورحمة الله .

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٨) (*)

نعود الليلة فنحدثكم في إصلاح بعض الأغلاط الشائعة ولا نزال نأمل أن يكون من وراء هذه النبذة الموجزة ما يدفع بنا إلى انتهاج سبيل السداد في القول والكتابة حتى تخلص العربية الشريفة مما علق بها من تشويه وتحريف فنقول :

١ ـ إن من الغلط : أن يقال مثلا هذه التذكرة تخوّل لصاحبها حق الدخول بدون أجرٍ ، وإن لفلان من الحقوق ما يخوّل له المطالبة بها . والفعل (خوّل) بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين ، فمن الغلط دخول اللام على مفعوله الأول من غير مسوّغ ، فيجب أن يقال : هذه التذكرة تخوّل صاحبها الدخول بدون أجر وإن لفلان من الحقوق ما يخوّله المطالبة بها .

٢ ـ ومثل هذا غلطهم في استعمال الفعل أعطى فيقولون مثلا أعطيت له كتابًا وأعطى المحسن للفقير ما يكفيه . والفعل أعطى يتعدى إلى مفعولين بنفسه فلا تدخل اللام على أحد مفعوليه مع تأخره عن الفعل ، فالصواب أن يقال : أعطيته كتابا . وقد دخلت اللام على أحد المفعولين مع تأخرها في بيت من قصيدة لليلى الأخيلية تمدح الحجاج :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ... المنايا بكف الله حيث عراها
إذ هبط الحجاج أرضا مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام إذا هزّ القناة سقاها
سقاها دماء المارقين وعلها ... إذا جمحت يومًا وخيف أذاها
إذا سمع الحجاج صوت كتيبة ... أعدّ لها قبل النزول قراها

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٣/ ١٠/ ١٩٣٨ .

أعـد لها مصقـولـة فـارسيـة بأيـدى رجـال يحسنـون غـذاهـا
أحجـاج لا تعطى العصـاة مناهم ولا اللـه يعطى للعصـاة منـاهـا

وشاهدنا فى قولها: « ولا الله يعطى للعصاة مناهـا» فعدت للمفعول الأول باللام وهو متأخر عن الفعل وهذا شاذ لا يجرى عليه قياس.

٣ ـ ويقع مثل هذا الغلط فى الفعل منـح فيقولون مثلا: تمنح جوائز للفـائزين، ويقولون: يطعم الخادم ويكسى فوق ما يمنح له من أجر. والفعـل (منح) كالفعل(أعطى) يتعدى إلى مفعولين بنفسه فمن الخطل دخـول اللام على أحـد مفعوليـه بلا مسوّغ، فالصواب أن يقـال: يمنح الفـائزون جوائز ويطعم الخادم ويكسى فوق ما يمنحه من أجر.

٤ ـ ويقولون: تكبد فلان المشاق؛ بمعنى أنه قاسى من الأمور ما فيه من شدة وعنت. والأولى أن يقال: كابد فلان المشاق، ففى اللغة يقال: كابـدت الأمر أى قاسيت شدته، ويقال أيضا: أكبدهـم الأمـر أى شق عليهم وأرهقهم وفى الحديث «أكبـدهم البرد» أى شق عليهم والفعـلان كـابـد وأكبـد مأخوذان من الكَبَد وهـو المشقة، أما الفعل(تكبد) فلم تستعمله العرب فى مقـاساة المشقة وإنما جاء مأخوذًا من الكبد وهو جزء معـروف من أجزاء جسم الحيوان، ويطلق الكبد أيضا على وسط الشىء. قـالت العـرب: تكبـدت الشمس السماء أى صارت فى كبـدهـا، وتكبّـد اللبن أى غلظ حتى صـار كالكبد، وتكبـدت الفلاة قصدت وسطها، فإذا قصـد قاصد من تكبد المشـاق أنه تغلغل فى وسطها وأنه تجاوز أطرافها ودخل فى غمرتهاـ جاز له ذلك على ضرب من التجوّز.

٥ ـ ومن الغلط قـولهم: فلان التحق بمدرسة كذا وشروط الالتحـاق بها كذا، لأن الفعل(التحق) لم نعثر عليه فى المعجمات المعتمدة التى بين أيدينـا، وليس التحق فى اللغة مطاوعًا للفعل ألحق، وإنما المطاوع له لحق وألحق تقول: ألحقت محمدًا بعلىّ أى أتبعتـه إياه فلحق هو وألحق أيضا، والمناسب من معانى ألحق هنا أن تكون بمعنى نسب أو بمعنى وصل فالصواب أن يقال: ألحقته بمدرسة كذا فلحق وشروط اللحاق كذا.

٦ ـ ويغلطون فيقولون: فلان يتجوّل فى البـلاد لأنه بائع متجّول كثير التجّول والفعل تجوّل لم نعثر عليه فى اللغة، وإنما يقال: جال فلان جولانا وجوّل تجوالا واجتال اجتيالا وانجال انجيالا، وكل هذه الأفعال بمعنى طـوّف، فالصواب أن يختـار أحد هـذه الأفعال الأربعة، ففيهـا كفاية وفيهـا غناء وأن يقال: فلان يجول فى البلاد أو يجّول أو يجتال أو ينجال، لأنه بائع مجوّال أو مجّول أو مجتال أو منجال.

٧ ـ ومن هـذا النوع استعمال الفعل تنازل فيقـولون مرة: تنازل فـلان عن حقه، ويقولـون أخرى: تنازل فلان بالحضور إلى الحفلة وكان حسنا منه هذاالتنازل. والفعل (تنازل) لا يكون فى نزال المتقاتلين فى الحرب. يقال تنـازل الفارسان إذا نـزل كل منهما فى مقابلـة صاحبه لقتـاله، فالأولى أن يقـال: نزل

فلان عن حقه، وأن يقال تفضل فلان بالحضور. على أن التنازل عن البيع والحق جاء فى عبارات الفقهاء فلا أرى بأسًا فى استعماله .

٨ ـ ومن الغلط قولهم: كان الصوت(يَدْوِى) فى الفضاء وكانت لفلان صيحة داوية، ولم يأت من هذه المادة فعل من باب ضرب وإنما جاء منها: دَوِى الرجل يَدْوَى بمعنى مرِض، ودوِى صدره أى ضغن والذى يقال فى الصوت: دوّى بالتضعيف دويا فالصواب أن يقال: كان الصوت يدوّى فى الفضاء وكانت لفلان صيحة مدوّية.

٩ ـ ويقولون: خرج فلان ليروّح عن نفسه عناءَ التعب فيأتون بعد الفعل روّح بمفعول به هو عناء التعب ظانين أن الفعل ينقصه المفعول به، مع أن الفعل فى الحقيقة أخذ مفعولا أو ما فى معناه؛ لأن معنى يروّح عن نفسه يريح نفسه، فلو جئنا بمفعول آخر لكان تأليف الكلام هكذا: خرج فلان ليريح نفسه عناءَ التعب. وهو تركيب ظاهر الفساد لأن الفعل روّح وأراح لا يحتاجان إلا إلى مفعول واحد، ومثل هذا التركيب فى المعنى والاستعمال رفّه عن نفسه ورفّه نفسه أى أراحها، فالصواب أن يقال خرج فلان ليروح عن نفسه دون أن يزاد على ذلك شىء، فإذا أريد ذكر ما يحصل به الترويح قيل خرج ليروح عن نفسه بمشاهدة التمثيل أو بالسير فى الحدائق، وإذا كان من الحتم ذكر ما يراد إراحة النفس منه قيل يروح عن نفسه من التعب. أو قيل: خرج ليسرّى عن نفسه التعب أو الهم أى ليلقيه بعيدًا .

١٠ ـ ومن الأغلاط الشائعة قولهم: إن الواجب يلزمنى بمساعدة المعوزين وإن فلانا حكم عليه بكذا مع إلزامه بالمصاريف. والفعل(ألزم) لا يتعدى بالباء وإنما يتعدى بنفسه تقول: ألزمته العمل وألزمته المال. أى أوجبته عليه قال جل شأنه : ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ (هود/ ٢٨) فالصواب أن يقال إن الواجب يلزمنى مساعدة المعوزين، وإن فلانا حكم عليه بكذا مع إلزامه النفقات أو المصروفات. والأولى أن يهجر استعمال كلمة المصاريف لأن جمع مفعول على مفاعيل غير مقيس والقياس أن يجمع جمعاً سالماً.

١١ ـ من هذا الباب قولهم فلان مريض وتلزم له إجازة، والتلميذ يلزم له كثير من الكتب والأدوات، والفعل لزم هنا بمعنى المصاحبة والتعلق. تقول: لزم الدائن المدين ولزم فلان البيت، أى صاحبه فلم يفارقه، وهذا الفعل كيفما كان معناه يتعدى بنفسه ولا يحتاج فى تعديته إلى اللام، فالصواب أن يقال فلان تلزمه إجازة وخير من هذا أن يقال: فلان يحتاج إلى إجازة والتلميذ يحتاج إلى كثير من الكتب والأدوات فإن هذا التعبير أوضح فى معناه وأبين .

١٢ ـ ومن الغلط قولهم: (دعّم) فلان البناء بالتضعيف، وكانت دعوى فلان (مدعّمة) بالدليل. والفعل المجرد دعم متعد بنفسه ليس فى حاجة إلى وسيلة أخرى، ولم نجد الفعل دعّم فى المعجمات

التى نرجع إليها فالصواب أن يقال: دعم فلان البناء ودعوى مدعومة بالدليل.

١٣ ـ ويستعملون الفعل عقّم مكان الفعل (عَقَم) وأعقم فيقولون مثلا: عقّم الطبيب المبضع، وقطن معقّم. والأولى أن يقال: عقَم الطبيب المبضع أو أعقمه، وقطن معقوم أو مُعْقَم فقد جاء فى لسان العرب: قال ابن برى: الفصيح عقَم الله المرأة وعُقِمت، أو عقِمت قال: أعقمها الله وعقمها مثل أحزنته وحزنته. ومعنى هذا الكلام أن طائفة من العرب تبنى الفعل عقَم من باب ضرب دائما وتجعله متعديا بنفسه وهذا هو الفصيح ومن العرب من يصوغه من باب كرم، ومنهم من يجعله لازمًا من باب فرح فإذا أرادوا تعديته عدوه بالهمز فقالوا أعقم أو جاءوا به من باب ضرب فقالوا عقَم ومن ذلك يؤخذ أن العرب لم تقل عقّم.

١٤ ـ وقد وقع لى فى أثناء قراءاتى أن قرأت حديثا لأحد الكتاب قوله: يستأدينا الواجب أن ننصح للناس. يريد يقضينا الواجب أى يطلب منا الواجب قضاء دين هو النصح للناس والفعل(يستأدى) لا يأتى لهذا المعنى وإنما يقال: استأدى عليه بمعنى استعدى عليه. ويقال: استأدى فلان فلاناً أى صادره وفى حديث هجرة الحبشة قال: «والله لاستأدينّه عليكم» أى لأستعدينه عليكم، فأبدلت الهمزة من العين لأنهما من مخرج واحد يريد: لأشكون إليه فعلكم ليُعدينى عليكم وينصفنى منكم.

١٥ ـ ومن الغلط قولهم: هذا المشروع يحتاج كثيرًا من المال. فيعدون الفعل (احتاج) بنفسه وهذا غير صحيح والواجب أن يتعدى هذا الفعل بإلى فيقال: هذا المشروع يحتاج إلى كثير من المال.

١٦ ـ ويقولون: اعمل هذا على ضمانتى، أو: أقرضته المال بضمانة فلان، و(الضمانة) بالتاء لا تأتى مصدرًا للفعل ضَمِن بمعنى كفل والتزم، وإنما هذا مصدره الضمان بدون تاء أما الضمانة فهى مصدر الفعل ضمِن بمعنى مرض؛ تقول: ضمِن فلان -أى مرض- ضمانة وضمانا وضَمَنا وضُمنه.

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (٩) (*)

ذكرنا فى حديثنا السابق جملة صالحة من الكلمات والتراكيب التى يقع فيها غلط الناشئين، وبيّنا وجوه الصواب فيها. وسنأخذ اليوم فى ذكر طائفة من هذا النوع راجين أن يكون لعملنا هذا أثر فى تسديد الألسنة، وتنقية العربية الفصيحة مما علق بها من غلط أو تحريف فنقول:

١ ـ من الغلطات الشائعة الإتيان بالواو بعد بل كقول أحد الكتاب كان الأرقاء فى الزمن القديم يُضربون ويعذبون بل ويقتلون: والصواب حذف الواو هذه لأن «بل» وحدها كافية فى العطف ولأننا لم نعثر على مثل هذا التركيب فى الفصيح، ولا يقال إن «بل» هنا سابقة لمعطوف محذوف ويكون التأويل مثلا: بل يصلبون ويقتلون؛ لأن فى ذلك تعسفا والتأويل والتمحل إنما يكون بعد السماع أما إذا كان التركيب لم يسمع فمن الخير أن ينبذ أول وهلة.

٢ ـ ويغلط بعض الناس فيقول: فلان ظهرت عليه (مخائل) النجابة، ويقولون: (مصائد) الأسماك فيعلّون الياء فى مخايل ومصايد بقلبها همزة ظانين أنها على مثال صحائف وقلائل، والصواب تصحيح الياء وأن يقال، مخايل ومصايد، كما يقال: مكايد ومعايش ومعايب وذلك لأن الياء فى مخايل وأشباهها أصلية لأن مفردها مخيلة فعلها خال، والياء الأصلية لا تقلب همزة فى هذه الصيغة، أما الياء الزائدة كما فى صحيفة وقليلة فتقلب همزة، ومما شذّ فى هذا الباب مصائب؛ لأنها من صاب يصوب فكان القياس أن يقال: مصاوب.

٣ ـ ومن الأغلاط التى سرت إلى الكتاب من الترجمة مثل قولهم: ولا نعلم إذا كان الدواء يشفى المريض أو يزيده سقما، ولا ندرى إذا كان الطالب يميل إلى الطب أو الهندسة، فيجعلون «إذا» الشرطية من أدوات التعليق وهذا التركيب غير معهود فى كلام العرب، والتعبير الصحيح أن نقول: لا

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٨/ ١٠/ ١٩٣٨.

نعلم أيشفى الدواء المريض أم يزيده سقما، ولا ندرى ألى الطب يميل الطالب أم إلى الهندسة وقد جاء هذا الأسلوب فى القرآن الكـريم كقوله تعالى : ﴿ وإنـا لا ندرى أشر أريـد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾ [الجن : ١٠] وقوله تعالى : ﴿وإن أدرى أقريب أم بعيد مـا توعدون﴾ [الأنبياء : ١٠٩]
ويقول الشاعر العربى :

ومـا أدرى ولست إخـال أدرى أقـوم آل حصن أم نسـاء

ويقول الآخر:

لعمـرك مـا أدرى وإن كنت داريـا بسبع رَمَيْنَ الجمـر أم بثمان

أى أبسبع رمين الجمر.

٤ ـ ومن الأغلاط الشائعة مثل قولهم : يجب أن يكون كذا وكذا وإلا للزم اجتماع الضدين ومعلوم أن «إلا» هنا إنما هى أداة الشرط «إن» مـدغمة فى «لا» وفعل الشرط محذوف يـدل عليه مـا قبله وتقـدير الكلام وإلاّ يجبْ للزم اجتماع الضـدين ووقوع اللام فى جواب إن الشرطية غلط والصـواب حذف هذه اللام وأن نقول : وإلا لزم كذا، وإلاّ كان كذا. وقد حاول أبو البقاء فى كلياته أن يصحح هذا التركيب فقال : إنّ « إنْ» تستعمل استعمال «لو» ولكنه لم يأت لذلك بشاهد عربىّ .

٥ ـ وقريب من هذا ما يغلط فيه بعض المبتدئين فيقولون : إذا حصل كذا لحصل كذا فيأتون باللام فى جواب إذا والصواب حذفها .

٦ ـ ومن الأغـلاط مثل قولهم . ما رأيك فيما إذا سـافرنا اليـوم؟ وقولهم : مثلا وسننظـر فيما إذا كان الأمر يحتـاج إلى إعادة البحث . وغلط هذا التركيب يظهـر بقليل من التأمل فإن «ما» فيه إمـا أن تكون زائدة فيكون حـرف الجر «فى» داخلا فى الحقيقة على «إذا» وهذا غير سـائغ فى العربية : وإمـا أن تكون «ما» موصـولة وفى هذه الحالة تكون الصلـة خالية من العائد والصـواب العدول عن هذا التركيب وأن تقول إذا سافرنا اليوم فما رأيك؟ وأن تقول : وسننظر أيحتاج الأمر إلى إعادة البحث أم لا.

٧ ـ ومما يغلطـون فيه كثيرًا قولهم مثلا : خرجت رغم فلان . والصـواب أن يقال : على رغم فلان ، كما قال زهير:

فـردّ علينا العَيْرَ من دون إلْفـه على رغمه يـدمى نساه وفائلـهْ

أو أن يقال : على الرغم من فلان كما يقول ابن سناء الملك نسوق قوله للتمثيل لا للاستشهاد وهو:

وإنك عبدى يا زمان وإننى على الرغم منى أن أرى لك سيدا

أو أن تقول : خرجت بـرغم فلان ، لأن الرغم معناه الكُرْه أو القسر أو الذل ، فإذا قلت : خرجت

رغم فلان لا يستقيم لك المعنى إلا إذا قدّرت خافضـا هو «على» أو «الباء» والنصب على نزع الخافض سماعىّ وليس بقياسى، ولم نر فيما بحثنا فيه من كتب اللغـة كلمة الرغم مستعملة فى هذا التركيب بغير خافض.

٨ ـ ومما يقع فيه التحريف كلمة (مأزق). كثير من المتعلمين ينطق بها بفتح الزاى والصواب مأزق بكسرها لم يسمع إلاّ هذا والفعل أزِق يأزَق يأزِق. يقال: أزِق صدره أى ضاق، وقد نص علماء اللغة على ضبط المأزِق بالكسر كأن العـرب حتموا أن يكـون اسم المكان هذا من مصـدر الفعل الذى بـابه ضرب لا من مصدر ما بـابه فرح فإذا صغت اسم المكان من باب فرح جـريت على القياس وخالفت السماع والسماع مقـدم على القياس وعبـارة أساس البـلاغـة: ثبتوا فى المأزِق المتضـايق، وهم ثبتٌ فى المضايق. ومثل المأزِق المأزل لفظًا ومعنى.

٩ ـ ومـا يغلطون فى ضبطـه الشّريان يضمـون فيه الشين والصـواب فتحها أو كسرهـا وهذا غلط شائع.

١٠ ـ ومثلـه فى الذيوع قـولهم النُّشا بكسر النون والصـواب: النَّشا بالفتح ليس غير، وهـو فارسىّ معرّب أصله نَشاسْتَج، فحذف بعض الكلمة تخفيفا فبقى مقصورًا كما قالوا للمنازل مَنَا.

١١ ــ ويحرفون فيقـولون: النَّقْرَس والصـواب: النِّقْرِس بكسر النـون والراء، وهـو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.

١٢ ـ ومن التحريف الفاشى كثيرًا بين النـاشئين قولهم تجرُبة وتجارُب بضم الراء فيهماولا تجد بينهم إلا قليلا من يكسر الراء فيهما، وهو الصواب، أما ضـم الراء فغلط.

١٣ ـ ومثـل ذلك فى التحريف قـولهم: صدرت نُشرة إلى المصـالح بكذا، فيضمـون النون والنُّشرة بضم النون إنما هى رُقية يعالج بها المجنون والمريض، والصواب فى المعنى الذى يقصدون: النَّشره بفتح النون وهى مصدر نشَر الخبر ينشره أذاعه دخلت عليه التاء للوحدة.

١٤ ـ ومن الغلط التعبير بالفعل « جندل» كأن يقال: ضربه فجنـدله والصواب: ضربـه فجدّله أو جدّله أى صرعه على الجَدالة والجدالة الأرض. أما الفعل « جندل» فلم يرد فى كتب اللغة المعتمدة وإن وضع فى المعجمات المستحدثـة كأنهم اشتقوه من الجندل وهو الصخـر. وقد رأيت فى بعض الكتب فى رثاء البرامكة:

ولما رأيت السيف جندل جعفرًا ونادى منادٍ للخليفة فى يحى

وهو تحريف والصواب جدّل جعفرًا

١٥ ـ ومما يقع فيه الغلط قولهم: تقضى حقوق الزِّمالة بكذا والفعل هنا زَمَل فلان فلانًا يزمِله زَمْلاً أردفه على البعير أو عادله.

إصلاح الأغلاط الشائعة في اللغة العربية (١٠) (*)

بيّنا فى حديثنا الماضى وجه الصواب فى طائفة من الأغلاط الشائعة فى الكلام والكتابة، وسنأخذ فى هذه الليلة ذكر طائفة أخرى آملين أن يكون لكلماتنا هذه أثرها المرجّى فنقول :

يغلط كثيرون فيقولون : إنى أعضد فلانـا أى أعينه وأنصره، وهذا المشروع فى حاجة إلى التعضيد. ولم يرد الفعل (عضّد) بهذا المعنى، وإنما المستعمل فى هـذا عضَد فلان فلانا يعضُده عضْـدا وعاضده معاضدة، فالصواب والأسهل أن يقال : إنى أعضد فلانا وهذا المشروع فى حاجة إلى المعاضدة.

وقد كثر بين كتـاب عصرنا استعمال الفعل تكاتف فيقولـون مثلا : يجب أن نتكاتف فى عمل الخير بمعنى نتعـاون، ونجاح هـذا المشروع موقـوف على التكاتف. وهـذا الفعل لم يرد فى اللغـة والكلمات الصحيحـة فى هـذا المعنى كثيرة فلسنـا فى حـاجـة إلى ابتكـار فعل جـديـد نشتقـه من الكتف، ففى الاستطاعة أن نقول : نتعاون ونتعاضد ونتساند ونتآزر ونتكاتف .

ومما يقع فيه الغلط الفعل (يتفرج) فيقولون مثلا : خرج فلان ليتفرج على الزينة، أو على اللاعبين. يقصدون أنه خرج لمشاهدة الزينة أو لمشاهدة اللاعبين، والفعل تفرّج يأتى فى اللغة على معنين. تقول : فرّج الشىء الغم عن فلان بمعنى كشفه وأذهبه فتفرج الغم وفرّج فلان الشىءَ فتحه أو وسعه فتفرج الشىء أى انفتح أو اتسع، وعلى هـذا المعنى يصح مجازًا أن نقول خـرج فلان ليتفرج أى لتتسـع نفسه بعد ضيقها وانقباضها، أما تعدية تفـرّج بـ«على» وتخصيصه بالمشاهدة فغير صحيح، وإنما يسوغ لك أن تقول : خـرجت لأتفرج بمشاهدة الـلاعبين، أو : لأتفرج باستنشـاق النسيم. ويصح أن تقول : خرجت للفرجة، لأن الفرجة . مثلثة الفاء معناها التخلص من الهم .

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٤/ ١١/ ١٩٣٨ .

ومن الغلط قولهم : تأكدت من إخلاص فلان . ويقولون أحيانا : تأكدت إخلاصه واستعمال هذا الفعل تأكّد على هذا النحو غلط شنيع ؛ لأن الفعل تأكد مطاوع الفعل أكد ؛ يقال : أكدت الشيء فتأكد أي قويته فتقوى، فالذي يتأكد إنما هو الشيء لا أنت، وهو فعل لازم لأنه مطاوع المتعدى لواحد، والصواب فى هذا التركيب أن تقول : وثقت من إخلاص فلان .

ومن الأغلاط الفاشية أنهم يستعملون الفعل يجب فى حالة النفى استعمالا غير صحيح فيقولون مثلا : لا يجب أن تهمل حقوق الأصدقاء، ولا يجب أن تتهاون فى واجبك . ونفى الوجوب يقتضى الجواز فكأن معنى ما يقولون : ويجوز أن تهمل حقوق الأصدقاء، ويجوز أن تتهاون فى واجبك . وهو عكس المعنى الذى يقصدونه والصحيح أن يدخل النفى فى هذا التركيب على الفعل الواقع بعد أن يقال : يجب ألا تهمل حقوق الأصدقاء .

ويقولون : أمرنى فلان فصدعت بالأمر يقصدون فامتثلت الأمر، وهذا غلط فى فهم معنى الفعل صدع فإن معنى (صدع بالأمر) جهر به وصرّح مفرّقا بين الحق والباطل وهو معنى مجازى من الصدع وهو الشق والتفريق كما فى قوله تعالى : ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين﴾ [الحجر/ ٩٤] أى اجهر بالدعوة إلى الدين الحق فالصواب أن يقال هنا : أمرنى فامتثلت أو أطعت .

ومن الغلط قول بعض الناشئين : أعلن التاجر عن بضائعه وقولهم وهذا الشيء أعلن عنه فى الجرائد والفعل (أعلن) بمعنى أظهر لا يكون إلا متعديا بنفسه أو بالباء فالصواب أن يقال : أعلن التاجر بضائعه أو ببضائعه .

ويغلطون فيقولون : سيكون جناز فلان يوم كذا يقصدون حفلة الصلاة . وكلمة (جناز) ليست فى اللغة والمعروف الجنازة بالتاء ليس غير، وهى بكسر الجيم على الفصيح : السرير فيه الميت فالواجب أن يقال ستكون حفلة الصلاة يوم كذا .

ويقولون : هيئة المهندسين، أو هيئة المدرسين، وهذا الشيء مفيد للهيئة الاجتماعية . واستعمال الهيئة فى هذا المعنى لم يعهد فى كلام العرب؛ لأن الهيئة فى اللغة الحالة الظاهرة للشيء والشارة . تقول : فلان حسن الهيئة ولا ارتباط بين هذا المعنى وما يريدون، والأشبه بلغة العرب أن يقال : طائفة المهندسين، أو جماعة المهندسين، وهذا الشيء مفيد للجماعة أو المجتمع .

ويغلطون فيقولون : أبلّ فلان ولكنه لا يزال فى طَوْر النقاهة . وكلمة النقاهة غير صحيحة والصواب النَّقَه والنُّقُوه . يقال : نقه فلان من مرضه ينقَه نقَها فهو نقِه فلان ينقَه نقوهاً فهو ناَقه . أما النقاهة فلا تسوغ إلا إذا وجد لها فعل من باب كرم وهو غير موجود .

ومن الغلط الشائع قولهم كتب فلان رسالة شيقة وكان أسلوبه فيها شيقا واستعمال الوصف (شيق) على هذا النحو غير صحيح لأن الشيق كما فى معجمات اللغة المشتاق والرسالة لا تكون مشتاقة

والأسلوب لا يكون مشتاقا وإنما المشتاق قارئها تقول شاقتنى الرسالة تشوقنى بمعنى حملتنى على الشوق إليها فالرسالة شائقة وأنا مشوق أو أنا شيق.

قال المتنبى من قصيدة مشهورة:

أرق على أرق ومثلى يأرق	وجوى يزيد وعبرة تترقرق
جُهد الصبابة أن تكون كما أرى	عين مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو ترنم طائر	إلا انثنيت ولى فؤاد شيق

ففؤاد المتنبى شيق أى مشتاق.

ويقولون واجهة البيت يريدون جانبه الذى به الباب والعرب لم تستعمل هذين اللفظين فى هذا المعنى وإنما كانت تقول وجه البيت لأن من معانى الوجه مستقبل كل شيء وفى الحديث كانت وجوه بيوت أصحابه شارعة فى المسجد وفى لسان العرب وجه البيت الذى يكون فيه بابه .

ومن الغلط قولهم فلان يسكن فى الطابق الأول من البيت أو الثانى منه فيستعملون الطابق استعمالا غير صحيح لأن الطابق فى اللغة الآجر الكبير أو نصف الشاة أو ظرف يطبخ فيه فليس لمعناه اتصال بأجزاء البيت والصواب أن يقال فلان يسكن فى الطبقة الأولى. وقد فسر الزمخشرى السموات الطباق بأنها طبقة فوق طبقة ومن المجاز قول العرب الناس طبقات أى منازل بعضها أرفع من بعض.

ويغلطون فى الألفاظ الخاصة بالبيت أيضا فيقولون شُقة يقصدون جزءًا من الطبقة والأشبه بالصواب أن يسمى هذا الجزء شِقا بكسر الشين لأن الشق من معانيه نصف الشيء والغالب أو الأصل أن تقسم الطبقة شقين.

ومما يستحق النظر قولهم بالغ فى مدحه بعض الشيء، وتماثل المريض بعض الشيء، وتحسنت حاله بعض الشيء، وإضافة بعض إلى الشيء فى هذه المثل وأمثالها غريبة؛ لأن المضاف هنا وهو بعض يدل على بعضية المصدر لا على شيء آخر، فيجب أن يقال: بالغ فى مدحه بعض المبالغة، وتماثل المريض بعض التماثل، وتحسنت حاله بعض التحسن ولذلك كانت كلمة بعض هنا نائبة عن المصدر وكانت منصوبة ووجب أن تضاف إلى مصدر من نوع الفعل العامل، أما إذا قلت أعطانى بعض الشيء ويكفينى بعض الشيء، أو بعض الشيء قد يجزئ. فهذا مجال آخر لا شية للمصدر فيه، ولا أثر وإنما هو اسم واقع على الذات؛ فهو مرة مفعول به ومرة فاعل ومرة مبتدأ.

نهضة الشعر في العصر الحديث (*)

«الأدب أحد العناصر القوية التى تكوّن الأمم، وليست الأمم إلا مجموعة من عقول وأخلاق وعزائم وآداب وفنون، وكل أمة فى أول نشأتها تعمل على تكوين هذه العناصر فإذا تمت لها جميعًا جاءت السيطرة وجاءت الثروة وظهرت فيها الرؤوس المفكرة والعقول المبتدعة وأطل على كل هؤلاء جيش من الكتاب والخطباء والشعراء يشجعون العامل وينبهون الغافل، وهذه العناصر تكاد تكون متشابكة متداخلة كلما ضعف منها عنصر ذبلت له العناصر الأخرى وفقدت قوتها وربما مضت على الأمة قرون قبل أن يحس ما بها من ضعفا؛ لأن هذه العناصر لا تموت فى يوم وليلة، ولا نريد أن نطيل فى ضرب أمثلة من التاريخ الأوربى والإسلامى وحسبنا الآن أن نقول إن عناصر القوة ضعفت فى مصر فى حكم المماليك فلم تتجه العقول إلى الابتكار، وانحلت الأخلاق والعزائم لذلك كان الإنتاج الفعلى فى هذه الأمة تكرارًا وكان الشعر هزيلاً فى معانيه وروحه.

ولما أصبحت مصر ولاية عثمانية ضاع القليل الباقى من كل شىء ومسخ الشعر إلى أبعد حدود المسخ، ولما تولى مصر مصلحها الكبير «محمد على باشا» ونهض بتأسيس دولة فيها أخذت العناصر التى تكون قوة الأمة تعمل عملها، فتنبهت العقول واستيقظت الأخلاق والعزائم وسارت فى أثر هذه وتلك الآداب والفنون، ولكن عصر محمد على كان عصر إنهاض وتغذية. أما عصر إسماعيل فكان عصر نهوض وهضم وتمثيل، كثرت فيه المطابع وتزاحمت البعوث إلى أوربا وأنشئت المدارس وتعددت الصحف ونهض المترجمون والمؤلفون.

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٣٦٨ فى ٤ إبريل ١٩٤٢م ص ٤ عن حديث للمرحوم على الجارم قدمه فى الإذاعة المصرية.

فى هذا العصر نشأ صفوت الساعاتى والشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر ومحمود سامى البارودى وصبرى وشوقى، وكانت نهضة الشعر الحقة بظهور هؤلاء الأساطين الثلاثة . كان البارودى حامل لواء النهضة فتبعه صبرى وشوقى وحافظ .

انتقل الشعر بهؤلاء فبعد أن كان ضعيفًا خائرًا لا يتعدى موضوعات المدح والتهنئة والهجاء أصبح قويًا فى أسلوبه ناصعًا فى ديباجته بعيدًا فى خياله ومعانيه، لا يكاد يتميز من الشعر العباسى فى أزهى عصوره إلا بما فيه من تجديد فى الأفكار والأغراض، واتسعت موضوعاته فجال فى الوصف والحماسة والحكم والأخلاق والاجتماع والتغنى بمجد مصر القديم ودعوتها إلى السبق والنهوض .

وجملة القول أن نهضة الشعر الحديث قامت على إحياء القديم فى أسلوبه وخياله، ثم على تطعيمه بكثير من عناصر الثقافة وآثار المدنية وجعله قلب الأمة النابضة بآلامها وآمالها .

وهو يفصّل هذا فى حديثه فلا يفوتك الاستماع إليه، والجارم بك إذا تكلم عن الشعر وهو الشاعر الفحل فإنما يتناول موضوعًا هو حجة فيه يعرفه حق المعرفة .

فى ذكرى المغفور له حفنى بك ناصف (*)

يود كثير من نابتة هذا الجيل أن يعرفوا الشىء الكثير عن رجالهم الذين طواهم عباب الماضى.

والنفس الإنسانية من الطمع بحيث تحب أن تعيش فى عصرها وفى عصور غيرها من الأولين، وهذا مظهر من مظاهر غريزة البقاء التى هى أم الغرائز الحيوانية وجذم فروعها وأفنانها؛ لأن المرء يريد أن تطول به الحياة فإذا لم يستطع أن يزيد فيها من أيامه هو عمد إلى أن يزيد فيها من أيام ماضيه البعيد فاتجه إلى التاريخ يقلب صفحاته وينشر طياته ويتعرف وجوه رجاله ويستقصى حوادث أزماته، فما هى إلا لحظة حتى يجد نفسه فى جو جديد بين خلق جديد له وجود جديد. وقد عرف حملة الأقلام فى القديم والحديث هذه النزعة النهمة فى الإنسان فخلقوا له من أخيلتهم دنيا غير دنياه صوروها فى قصص وروايات يفر إليها القارئ إذا سئم تكرار حياته وضيقها وآلام حقائقها، فيجد عالما أوسع ومجالا أفيح وقوما غير قومه وعصرا غير العصر الذى يعيش فيه. وكثيرا ما نسمع بشخص من عظماء رجالنا يجرى اسمه على أفواه الآباء، أو يمر له ذكر خاطف فى صفحات الجرائد فنصبو إلى معرفة الشىء الكثير عنه، نريد أن نراه فلا نستطيع لأن الصور الشمسية لا تروى غليلا ولا تشفى عليلا، ثم نريد أن نستمع إليه فلا نجد إلى ذلك من سبيل، فليس إذًا إلا أن ندرس حياته وإلا أن تتسرب نفوسنا فى نفسه وإلا أن نستمع إلى قصته استماع المنصت المتفهم.

وحفنى بك ناصف الذى نشيد الليلة بذكراه رجل عظيم من أكبر علماء مصر وأشهر قادة الأدب فيها، وقصته قصة ممتعة حقا فيها أدب وفيها علم وفيها تسلية وفكاهة وفيها متطلع للمتأدبين ومثل

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٥/ ٤/ ١٩٤٢ .

عال للناشئين . قصة كثيرة الألـوان متعددة المناظر تضطرم فيها الحوادث وتتقلـب الأيام ، يظهر بطلها حفنى حينا ويختفى أحيانا ثم يظهر فى الفصل الأخير وقـد صقلته التجارب وملك زمام المعرفة وأصبح بذكائه ونبوغه وجده العلم الفرد والفارس المعلم .

قصـة حفنى بك قصـة النهضة الأدبيـة الحديثـه فى ضحاهـا وفى إبـان استكمالها واشتداد مـرتها ، وعندما أخـذت البذور التى غرسها المغفـور له محمد على باشـا تؤتى أكلها وتجود بثمارها ، وعنـدما مَرّ وقت كاف على ذلك الطعام الأدبى العلمى الذى غذيت به النفوس والعقول فى مبدأ النهضة فهضمته ومثلته ثم صورته فى ألوان شتى فيها تقليد وفيها توليد وفيها ترسم وفيها ابتكار.

نشأ غلام هذه القصة فى قرية صغيرة هى« بركة الحج» من قرى قليوب . عاش يتيما بين أسرة تعيش كغيرها من أسر الـريف معتمدة على الكـد والدأب ومـا تنتجه الأرض من خير قليل أو كثير ومـا كان أحوج هـذا الغلام فى هذا الحين إلى من يقرأ مخايلـه ويتفرس مواهبه ويـرى فيه نبوغ الجاحظ وشاعـرية النواسّى وأدب البديع وعلم الخليل . ويحى لذلك الغلام اليتيم الأسمر اللون المكلثم الوجه وهو يسير فى أنحاء قـريته وحيدا ذاهـلا وقد تملكته عاطفـة شعرية لا يعـرف لها كنها وطافت بنفسـه طيوف من الخيال ملكت عليه نفسه واستبدت بعقله .

فالنجـوم فى السماء حبات من اللـؤلؤ انتثـرت والبدر ينظـر إليها بـاسما فى استخفاف وسخـرية ، والأشجار وقـد هزها النسيم عـذارى سكرت من مـاء الشباب ورنحها الإعجـاب والإدلال ، والحقول الخضر والمياه المتـدفقة والسواقى الدائرة كل أولئك لـه ترجمات وله أشباح ولـه صور أخرى يصورهـا له خياله الفياض الخصيب .

لم يجد الطفل حفنى من يقرأ مخايلـه فقرأ مخايله بنفسـه ووجه استعداده إلى مـايريده منـه ، وإلى ما أعّده إليه . ولقد كان يكـون فلاحًا ، ولقد كان يكون تاجرًا ولقد كـان يكون أى شىء كأمثاله من أبناء القريـة ونابتتها ولكن نفسه عـزفت به عن كل هذا ، وكأن هامسـا فى أذنه كان يقول لـه إنك يا بنى لم تخلق لهذا؛ إن أمامك يا بنى دنيا غير هذه الدنيا ، وناسا غير هؤلاء الناس الذين تعيش بينهم ، ومدى معنـويـا أفسح مـن هـذه الحقـول الفيح التى يتقطع دونها مـدى البصر ، وأنت عقـل يـا بنى ولست بجسم؛ أنت روحانية مشرقـة ولم تكن مادة قاتمة مظلمة . يسمع حفنى هذا أو مـا يشبهه وهو مفترش الأرض مستند إلى جدار داره فتأخـذه الحيرة ويغم عليه الأمر ، ويرى أنـه لا يفهم ما يجول فى نفسه ولا يدرك معنى ما تريده منه . وبينا هو إذ يمر أمامه أطفال يحملون ألواحا وهم يتنافسون فى إجادة حفظ بعض السور القصيرة من القرآن الكريم ، فيقوم الغلام حفنى ويلحق بهم وينقل النظرة من هذا الغلام إلى ذاك فى دهش وإعجـاب لما يسمع من حفظ واستحضـــار وتحد وتفـاصح . يســايـر حفنى هـؤلاء الأطفال فيصلون إلى الكتّاب فيدخل معهم ويندمج فى جمعهم .

غاب حفنى عن الدار فأخذت أمه فى تلهف واضطراب تسأل عنه كل من ترى : أين حفنى؟ أين حفنى؟ حتى إذا ارتفع النهار جاء غلام من قبل سيدنا يقول لها : إن حفنى فى الكتاب فهل تريدين أن يستمر وأن يتعلم؟ فتتنفس الأم الصعداء ويطوف بذهنها ما يلاقيه حفظة القرآن العاطلون من شظف العيش وضيق الحياة ثم تتجه إلى زاوية أخرى من التفكير وتطرق قليلا ثم تقول : نعم أريد أن يستمر وأن يتعلم وليكن ما يكون. وقد كان ما يكون حقا وكانت هذه الكلمة ـ لو علمت ـ ذات شأن كبير فى حياة الأدب المصرىّ وازدهار النهضة الحديثة .

ظهر نبوغ حفنى فى الكتّاب وتفتحت أول مرة مواهبه ، واشتهر بقوة الحافظة وسرعة البادرة فحفظ القرآن الكريم بينما كثير ممن سبقوه لا يزالون فى المضمار. وحينما اشتد ساعده وبلغ الخامسة عشرة أو نحوها تطلع حفنى حوله فرأى آفاق القرية أضيق من آفاق آماله ، ورأى أن نفسه الجياشه بين جنبيه تضطرب صاخبة ساخطة على حياة ضيقة كتب عليها أن تحبس فيها ولم تخلق لها . والسخط على ما يكون أول مراتب النبوغ ومعرفة النقص وأول منازل الكمال .

وبينما هو فى تفكير وآلام وتردد إذا جماعة مقبلون من ناحية المحطة يلتفون حول شاب معمم وهم فى سرور ومرح ، وإذا الشاب قادم من الأزهر وإذا شباب القرية ينظرون إليه فى إكبار ويسألونه عن أحوال مصر وأهل مصر وعن الأزهر وعلمائه وطلبته وماذا يتعلمون فيه ، والشيخ الأزهرى يتفاصح ويتكلم بلغة أرقى من لغتهم ولسان أجرى من ألسنتهم ، وحفنى يسمع وهو مطرق ذاهل ، ولعله شعر أن هذا الشيخ يتحدث عن الدنيا التى تحن إليها نفسه دون أن يعلم ، ولعله فيما كان يسمع رأى تلك الحياة التى كان يصورها له خياله حقيقة واقعة ليس بينه وبينها إلا أن يعقد العزم ويشمر للرحيل . وفى يوم صائف خرج حفنى من داره وتطلع يمينا وشمالا فلم يجد أحدا فولى وجهه شطر القاهرة وعزم على النزوح إلى الأزهر، ولم يفكر وهو فى تلك الحال النفسية المضطربة وبين براثن تلك الرغبة الجامحة فى تلك الأم الرءوم التى تطير نفسها لفرقته ويتمزق فؤادها لغيبته .

سار فى الطريق قدما تلفحه الشمس بهجيرها ، وتأكل الأرض من قدميه ،حتى إذا وصل إلى القاهرة سأل : أين الأزهر؟ فأرشد إليه فدخله شابا صغيرًا غريبا حتى كأنه كان المعنىّ ببيت الطغرائى :

نـاء عن الأهل صفر الكـف منفرد كـالسيف عـرى متنـاه عن الخلل

أقام بالأزهر ولا ندرى كيف أقام ولا كيف كان يعيش ، ولكنا نعرف أنه كان ندىّ الصوت حلو التنغيم رخيم الأداء ، فعرفه عشاق الفن ورجال التصوف بحسن الإنشاد وجمال الصوت والتطريب ، ووجد حفنى أمامه باب العلم مفتوحًا فدخله مشغوفا ، وميدان النبوغ فسيحا فجال فيه وصال ، والعصامية أخت النبوغ والشظف سفير النعيم .

بصرت بـالـراحـة العظمـى فلم أرهـا تُنـال إلا على جسر من التعب

أصبح بين إخوانه مضرب المثل فى الذكاء وسرعة البديهة وصدق الفهم وقوة الذاكرة. وفى ذلك الحين أحس بطائف من الشعر يتلجلج فى صدره، فتنغم به وترنم ثم فاض به لسانه كلامًا ساحرا يأسر القلوب ويستهوى النفوس، فشاع فى حلقات الأزهر ذكره، وأقبل علماؤه يستمعون إلى هذا الشاعر الناشئ الذى سيكون له شأن فوق شأن الساعاتى والليثى وأبى النصر. رأى حفنى أن عبقريته الشعرية يجب أن تخرج من نطاق الأزهر قليلا. فنظم قصيدة فى مدح المغفور له محمد توفيق باشا خديو مصر. وحينما أتمها هذبها وبيضها وذهب بها إلى ساحة عابدين، حتى إذا قرب من الباب رآه طائفة الحرس فتجهموا له وزجروه وأمروه بالانصراف فاستعطفهم وتلطف إليهم وأخبرهم بأنه نظم قصيدة فى مدح الخديو وأنه يريد أن يقدمها إليه بنفسه، فزادوا منه سخرية وبه استخفافا وله زجرًا؛ رأوا شابا مجاورًا تقتحمه العين لا يزينه ثوب ولا يشفع له سمت. وفى أثناء هذا المشهد الغريب مرّ رئيس التشريفات فاستوقفه الأمر فسأل فقيل له: شاب مجاور كما تراه خيلت له نفسه أنه يقول شعرا: ثم خيلت له أن شعره حقيق بأن يقدم للملوك، ثم زاد وأغرق فطلب أن يقدمه إلى الخديو بنفسه. فدفعهم عنه ودعاه إليه واستجلاه طلبته، فلما علم بها سأله أن يقرأ عليه القصيدة فما كاد يتم منها أبياتا حتى أخذ الباشا بما فيها من بيان رائع وخيال سام وتصوير بديع فقال له قف: يا بنى حيث أنت حتى أعود إليك. ثم صعد إلى الخديو مبهورًا وقال يا مولانا إن بالباب معجزة من معجزات النبوغ. شاب مجاور أنشأ قصيدة فى مدح مولانا لو وزن بها كل ما قيل فى مدحه لرجحته: وسيكون لهذا الشاب شأن خطير لم تتمخض عنه الأيام بعد. فأمر الخديو بدعوته إليه فجاء الشيخ حفنى وأنشد قصيدته بين يديه، فاهتز الخديو اهتزاز الكريم، وأعجب بما فيها من جمال وروعة وأمر له بمال.

أخذ الشيخ حفنى القطع الذهبية فى يديه يقلبها ويحملق فيها ويستمع إلى صليلها والدهشة تملأ جوانب نفسه. الآن صار غنيا. الآن صار مثريا. الآن يستطيع أن يشترى ما كانت تمتد إليه عيناه من طعام ولباس. الآن يستطيع أن يشترى دواوين ابن النبيه وابن الفارض والبهاء وابن مطروح وابن نباتة والشاب الظريف. إنه الآن رجل منتج وإن مواهبه التى كانت خيالا وأوهاما يمكن أن تتحول إلى ذهب أصفر رنان، ويمكن أن تنقله من هذه الحياة إلى حياة أخرى.

ذهب إلى زميله سلطان وساق إليه البشرى ونفض إليه الخبر فسر له وسّر لنفسه لأنه سيشاطره ما أفاء الله عليه من رزق. ثم مرت الأيام فإذا الدنانير قد طارت وإذا حفنى وسلطان يعودان إلى ما كانا عليه بعد أن لمع لهما برق خلب من النعيم. جلسا فى غرفتهما مطرقين حزينين وقد تنكر لهما الدهر وكاد يحول بينهما وبين الاستمرار فى طلب العلم.

وبينما هما فى تقليب كف واهتزاز رأس إذ دخل لزيارتهما الشيخ محمد صالح وكان قد لحق بدار العلوم فرأوا شكلا أنيقا: جبة جوخ وقفطانا قطنيا وعمامة بيضاء لم يمسسها درن، فسألاه عن منشأ هذه النعمة الطارئة فأخبرهم بأن دار العلوم تمنح طلابها مكافأة شهرية، ووصف لهم ما فيها من علوم

وتعلم ولم يغادرهما حتى عقدا العزم على دخول دار العلوم .

دخل حفنى دار العلوم، فاتسع أفقه وبرزت مواهبه فى الأدب، وتفرغ للبحث والإنتاج، فكان السبّاق بين أنداده، وجال فى ميدان الشعر وطارح الشعراء وعارضهم وتصدر مجالسهم .

ثم تخرج فى دار العلوم فعين مدرسًا، ولم يمكث طويلا حتى احتاج شفيق بك منصور النائب العمومىّ فى ذلك الحين إلى أدِيب يعينه فى كتابة البحوث ومراجعة مؤلفاته. فأرشد إلى حفنى وقيل له: إنك لن تجد له مثيلا فهو عالم فقيه أديب شاعر ناثر.

كانت هذه الوظيفة أول عهد لحفنى بالحياة العامة، فيها التقى بساسة مصر وكبرائها وعظماء أدبائها، وحضر مجالس اللهو والترف واختلف إلى نوادى الشعر والأدب فالتقى بالبارودى وصبرى والليثى وأبى النصر. وهنا ظهر حفنى كاملا وتجلت خصائصه بارعة وذاع صيته فى آفاق مصر: نكتة حاضرة بعيدة الغور، وعلم غزير بفروع العربية جميعها، وإحاطة نادرة بغرائب الأدب وآدابه، وشعر مصرى رقيق لا يخلو من جمال التورية وبراعة النكتة وحسن الذوق فى التصوير.

ثم نطرق قليلا فنرى حفنى بك أصبح أستاذا بمدرسة الحقوق، ثم قاضيا أهليا اشتهر بالعدل والنزاهة وسداد الرأى، ولكن القضاء لم يستطع أن يقضى على حفنى الأديب ولا على حفنى الشاعر الكاتب؛ فغطت شهرته فى الأدب أعمال وظيفته وأصبح عمله فى القضاء على هامش حياته الأدبية .

وكأن القدر كان يدخره للغاية التى أعده لها؛ فحينما لقى الشيخ حمزة فتح الله ربه لم يكن بالبلد من يقوم مقامه فى الإشراف على لغة العرب سوى حفنى بك، فعين المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف .

وآثار حفنى فى العلم والتأليف كثيرة يعرفها الناس ولشعره طابع خاص يمثل الديباجة المصرية فى رقته وحلاوته، لم يرد فيه حفنى بك أن يقلد شعراء بغداد وإنما أراد أن يتم به السلسلة الشعرية التى انقطعت بموت ابن النبيه وابن نباتة وأمثالهما من شعراء مصر.

وجدير بشعره ان يقرأ ويفهم، وجدير بالجامعة المصرية أن تعنى بجمعه ودراسته؛ لأنه يمثل فنا شعريا فريدا كاد يدركه الزوال .

وقد ختم حفنى بك حياته بأجَلِّ ما تُختم به حياة . ذلك هو كتابة المصحف الشريف، والإشراف على طبعه وترقيمه وهو عمل مضن يتطلب علما واسعا وكدا ومثابرة .

إن الأدباء بمصر قليل، وأمثال حفنى أقل .

غفر الله لحفنى وجزاه عنا خير الجزاء .

نشأة الشعر الأندلسي وتطوره(*)

الشعر الأندلسى حبيب إلى النفس، قريب من القلب، له مناح فى الخيال والتفكير والصياغة تجذب إليه الأسماع وتستهوى القلوب، وله شخصية متميزة، وخصائص فارقة بينه وبين الشعر المشرقى لم يوفق كثير ممن كتب فى تاريخ شعر الأندلس فى تحديدها واضحة خالية من اللبس والإبهام.

والشعر الأندلسى جميل كله، غير أننا نعتقد أن شعر الطوائف وما بعده هو النموذج الصحيح للشعر الأندلسى بعد أن استقر العرب فى شبه الجزيرة نحو أربعة قرون، وبعد أن نسوا بداوتهم الأولى ونشأت لهم أجيال فى حضارة جديدة وبيئة جديدة، وبعد أن امتزجوا بالأسبانيين وأصهروا فيهم، واختلط دم أبناء الصحراء بدماء سكان السهول الخضر، والأودية الزهر، فتكون نسل هذين العنصرين القويين، جمع إلى قوة البداوة الموروثة أناقة الحضارة المكسوبة، وإلى سرعة إدراك العربى دقة نظام العقل الأوربى.

* * *

حينما نزل العرب شبه الجزيرة عاشوا فى عزلة كما يعيش الفاتحون فى أول أمرهم دائمًا، وأضافوا إلى صلف الغالب المنتصر زهو العربى بجنسه وقوميته فجعلوا بينهم وبين القوط حدًّا، ونظروا إليهم وإلى مدنيتهم شزرًا، ولم يستفيدوا من ثمار عقولهم ولا من خصائص اتجاههم فى التفكير والنظر إلى الأشياء.

والشعر العربى على قلته فى هذه الفترة أراد أن يجارى الفاتحين فيكون محافظًا معتزلًا معتزًّا ببساديته وصحرائه، حتى لكأن هذا الجو الأوربى الغريب وهذه المشاهد التى تختلب اللب، وتستهوى العين

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٣٩٥ فى ٩ سبتمبر ١٩٤٤م ص ٣، ولقد تناول المرحوم على الجارم موضوع الشعر الأندلسى فى سلسلة أحاديث إذاعية لم نتمكن من الحصول إلا على الأحاديث التالية (الناشر).

وتستشير الإحساس بالجمال، لم تكن فى نظر الشعراء شيئًا مذكورًا، فهم دائبون على قديم أسلوبهم، لا يحيدون عن طرائقهم، يقيمون عمود الشعر فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية، كما هو مقام بدمشق والكوفة والمدينة، ولا تزال أسماء مواضع جزيرة العرب: كسلع والعقيق، وحاجر، وكاظمة، تتردد فى أشعارهم، ولا يزالون كعادتهم يقفون بآثار الديار تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد، أما الأنهار الدافقة، والحدائق المتألقة، والمبانى الباسقة فلا تكاد فى أول عهدهم تسمع لهم فيها شيئًا.

فلما خفف الحكام العرب من غلوائهم، وطمأنوا من عصبيتهم، وامتزج أبناؤهم بأبناء الأسبانيين، وأصبح بين الغالبين والمغلوبين شىء من الاتساق الفكرى والاجتماعى، وتطورت الحياة العربية، وتطور معها الشعر والخيال، فأصبحنا نسمع له جرسًا خاصًا، ونغمًا متميزًا، ونستعرض منه صورًا خيالية فاتنة، وصار الشعر يؤدى ما يجب عليه أداؤه، فصور البيئة التى يعيش فيها، وخفق بالآمال والآلام التى تختلج فى صدور الشعراء، وكان ترجمانًا صادقًا لحياتهم، وللمأزق الحرج الذى وضعهم فيه القدر بين أعدائهم من القوط وأعدائهم من أنفسهم.

وتطور الآداب كتطور كل شىء فى الطبيعة، يحصل على التدريج، لا يكاد يحس، ولا يستطاع أن يحدد له مبدأ أو نهاية. وهكذا كان تطور الشعر الأندلسى لا تعرف متى بدأ، ولكنك تحس وجوده، وترى شيئًا من نموه فى فترة من خلافة عبد الرحمن الداخل.

وكانت أول بارقة لتميز الشعر الأندلسى وسموه إلى التلون بلون خاص، ونبضه بقلب جديد قول هذا الأمير فى نخلة جلبها من دمشق وغرسها فى بستان له بالزهراء بالأندلس، وقد أثارت فيه هذه النخلة الحنين إلى أهله ووطنه فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض النخل عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

وقال يتشوق إلى معاهد الشام:

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقر من بعضىَ السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونىَ غمضى
وقضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

* * *

ثم ترى الشعر بعد ذلك ناميا مطرد النماء فى عصور من جاء بعده من خلفاء بنى أمية، حتى إذا بلغ دولة ملوك الطوائف بلغ أشده وشارف اكتماله.

ازدهر الشعر والأدب والفن فى هذه العهود بـالأندلس ما فى ذلك شك، فإن قارئ الأدب فى هذه الفترة يشعر بلذة نفسـانية وجدانية، قلما يجدهـا فى ألوان الأدب بالآفاق الأخـرى، وإن فيما تقرؤه من مجالس الأدباء وطرائف الشعراء، مما تطرب له الأذن وتهتز العاطفة، لدليـلا على ما وصلت إليه فنون الكلام عنـد القوم من منزلـة عالية ومقـام رفيع، حتى لقد كان الأدبـاء المطبوعون إذا سمعـوا شعرًا ولم يتبينوا قائله، قالوا: إنه أندلسى، وإذا انتحل أهل الشرق أبيـاتًا منه نمت عليها أندلسيتها فافتضحوا فقد ادعى المنازى لنفسه أبيات حمدونة بنت زياد الأندلسية وهى:

وقـانـا لفحـة الـرمضـاء واد ... سقـاه مضـاعف الغيـث العميم
حللنـا دوحـه فحنـا علينـا ... حنـو المرضعـات على الفطيم
وأرشفنـا على ظمأ زلالا ... ألـذ مـن المدامـة للنـديم
يصـد الشمس أنىّ واجهتنـا ... فيحجبهـا ويـأذن للنسيـم
تـروع حصـاه حـاليـة العـذارى ... فتلمس جـانـب العقـد النظيم

فدلت رقتها، وشهد أسلوبها على أنها أندلسية. قال الرعينى: وهذه الأبيات أثبتها مؤرخ الأندلس لحمدونـة قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الـوجود. وقال ابن النـديم فى تاريخ حلب: وبلغنى أن المنازى وصل إلى أبى العـلاء لينشده هـذه الأبيـات وكلما أنشد المصراع الأول من كـل بيت سبقه أبـو العلاء إلى المصراع الثانى.

ومن الذى يقرأ الأبيات الآتية فلا يقول إنها أندلسية وإن لم يعرف قائلها:

عـاطيتـه والليل يسحب ذيلـه ... صهبـاء كـالمسك الفتيق لنـاشق
وضممتـه ضم الكمى لسيفـه ... وذؤابتـاه حمائل فى عـاتقى
حتى إذا مـالت بـه سنة الكـرى ... زحـزحته شيئـا وكـان معـانقى
بـاعـدتـه عـن أضلع تشتـاقـه ... كيـلا ينـام على وسـاد خـافق

وأى أديب مرهف الحس، موسيقى الأذن، لا يجزم بأن أندلسيا هو الذى يقول:

متى أبثـك مـابى ... يـاراحتى وعـذابى
متى ينـوب لسـانى ... فى شرحـه عـن كتـابى
اللـه يعلـم أنـى ... أصبحـت فيـك كما بـى
فما يلـذ منـامى ... ولا يسـوغ شرابى
يـافتنـة المتعـزى ... وحجـة المتصـابى
الشمـس أنـت تـوارى ... عن نـاظـرى بـالحجـاب
مـا النـور شفّت سنـاه ... على رقيـق السحـاب
إلا كـوجهـك لما ... أضـاء تحت النقـاب

وهل يصف الخال فى خد الحسناء هذا الوصف الرائع إلا خيال أندلسى حين يقول :

ألـــــوّامى على كلفى بحب | متى من حبه أرجو سراحا
وبين الخد والشفتين خـــال | كـزنجى أتى روضًا صباحا
تحير فى جنــاه فليس يـدرى | أيجنى الـورد أم يجنى الأقاحا

وهل يبدع التنسيق والتصوير إلا ابن خفاجة الأندلسى الذى يقول :

ومهفهف طـاوى الحشـا | خنث المعـاطف والنظـر
مــلأ العيـون بصـورة | تليت محاسنهـا سـور
فـإذا دنـــا وإذا مشى | وإذا شـدا وإذا سفـر
فضح الغــزالـة والغما | مـة والحمامـة والقمـر

وإذا اسئلت من قائل الأبيات الآتية فلم تعرفه ، فهلا يخطر ببالك أن ترجح أنه أندلسى :

كأنما الـراح والـراحـات تحملهـا | بـدور تم وأيـدى الشرب هـالات
حشـاشـة مـا تـركنـا الماء يقتلهـا | إلا لتحيـا بها منهـا حشـاشـات
قـد كـان من قبلهـا فى كأسهـا ثقل | فخف إذ ملئت منهـا الـزجـاجـات

* * *

وصل الشعر الأندلسى إذن فى عهد ملوك الطوائف إلى ما وصل إليه من علو المكانة وبعد المنزلة . ونريد أن نتعرف الأسباب التى بلغت به إلى ما بلغ ؛ لأن مؤرخ الأدب الذى يريد أن يلتمس لكل شىء سببا ، والذى يريد أن يزاحم المنطقى فى رجع النتائج إلى مقدماتها ، أو تطبيق القاعدة على جزئياتها يقف فى شىء غير قليل من الحيرة أمام هذه الظاهرة الأندلسية .

لقد رسخ فى نفس هذا المؤرخ بما لا يقبل الريب أن الأدب والفنون جزء لا ينفك عن أحوال اجتماع الدولة وسياستها ، فراح فى اطمئنان وهدوء بال يطبق هذه النظرية على الدول فى ماضيها وحاضرها والأقطار عند نشوئها وتطورها ، فجاءت صحيحة صادقة لا تكاد تتخلف ، وهو يزعم جازما أن الدولة الثابتة الدعائم ، المستقرة الملك ، الحكيمة السياسة العظيمة الثروة ، التى يعيش أهلها فى ظلال الأمن والسلامة ، يزدهر فيها الأدب وينمو. والدولة المهتزة الأركان ، المزعزعة الحكم ، المضطربة السياسة ، الفقيرة فى منابع الثروة التى يعيش أهلها فى ذعر وتوجس ، تبوخ فيها شعلة الأدب وتخبو.

رأى مؤرخ الأدب ذلك فى آخر حكم العباسيين بالعراق ورآه فى مصر فى معظم عصورها الخالية ،

لا يكاد سراج الأدب يلتمع بها لحظة حتى ينطفئ. حتى أن المتنبى حينما زار مصر فى عهد كافور لم يجد من الشعراء من يزحمه أو يصاوله، أو يصح أن يكون له بمنزلة التلميذ من الأستاذ، وهجا المتنبى مصر وأهلها عند رحيله بأقذع الهجاء فما سمعنا أن شاعرًا انبرى له، أو رد اللطمة إلى وجهه.

ولولا أن حروب الصليبيين فى عهد الأيوبيين أيقظت عواطف الشعراء النائمة بمصر والشام، وهاجت من شعورهم الراكد، ما سمعنا منهم فى هذا العهد إلا المدح الممجوج، والخيال المكرر فى وصف سجادة أو سبحة أو سواك.

يضع مؤرخ الأدب قاعدته هذه أمام عينيه، ويحاول أن يطبقها على الأدب فى عهد ملوك الطوائف وما بعده، فيرى أنها تتخلف فى ظاهر الأمر بعض التخلف: حكومات ملوك الطوائف كانت مضطربة واضطراب الحكومات يستلزم اضطراب النفوس، والفنان لا تجود نفسه بالأوابد، ولا ينزل عليه الإلهام، ولا تتفتح عبقريته إلا فى جو هادئ كله صفاء واطمئنان، كالطائر الغرد لا يجود بأغاريده الحلوة إلا وهو فى أمن من براثن البازى ومناصب الفخاخ.

ونحن نعلم ما كانت عليه بلاد الأندلس من حروب لا يبرد وطيسها، واضطراب لا يركد غباره، فكيف يستريح مؤرخ الأدب بعد هذا إلى قاعدته الذهبية التى كان يباهى باستنباطها، والتى جعلها ميزانا لحكمه على الدول غابرها وحاضرها، حتى إنه لشدة ثقته بها كان يكتفى بالنظر إلى إحدى ناحيتى الدولة: ينظر إلى سياستها واجتماعها فيحكم على الأدب، أو ينظر إلى أدبها فيحكم على سياستها وأحوال الاجتماع فيها.

ولكن مؤرخ الأدب لا يريد أن يتقهقر، ولا يريد أن يفسد نظريته التى آمن بها إيمانه بنفسه؛ لأنه يستنكر تخلفها ويدعى أن تطبيق حال الأدب بالأندلس عليها بالوضع الذى هى عليه، وبالألفاظ التى صورت بها، فيه جور شديد، واشتطاط فى الحكم، وتجوز ظاهر فى استعمال بعض الألفاظ، ومخالفة للحق فى أخرى، ثم يجاهر بأن هناك أحوالا بجانب هذه القاعدة دعت إلى نهوض الأدب وازدهاره، ويزعم أن أكبر عيب وقع فيه مؤلفوا العرب أنهم كانوا يضعون القاعدة ثم يحشرون إليها الجزئيات حشرا، فإذا ضاقت ببعضها لم يعمدوا إلى توسيع القاعدة، كما كان يقضى بذلك الحق والتدقيق ولكنه شذ عنها، وكثيرا ما يكثر الشاذ حتى تخجل القاعدة، وكثيرا ما تتعدد المستثنيات حتى تحتاج إلى قاعدة جديدة.

* * *

إن تواتر الحروب واشتباكها بدويلات الطوائف لم يبث الذعر بين الأهلين، ولم تضطرب له حياتهم إلا فى أحوال قليلة نادرة، تخرج من حساب المؤرخ، فقد كانت هذه الحروب محلية فى أكثر وقائعها، ثم إنها كانت مقصورة على طائفة من المحاربين من الجنود المرتزقة، وبقيت الطوائف الأخرى التى تؤلف

النظام الاجتماعى فى أمن واطمئنان، ثم إن توالى الحروب واستمرارها طبع الأندلسيين على الاستخفاف بأخطارها وعدم المبالاة بأوزارها . .

اعتاد الأندلسيون الحروب حتى ألفوهـا، وحتى لم تستطع فى أكثر أحوالها أن تعترض نظام حياتهم وكان الأنـدلسيون يمتـازون بروح قويـة، وجلد شديـد، قد يكـون للبيئة الجغرافيـة والتاريخيـة أثر فى تكوينها، فقـد علمتهم الأيام الصبر على الحوادث والتماسك عند الكوارث، وكـان لهم إيمان غريب والقدر هـون عليهم كل شىء، فاستهـانوا بكل شىء ومضـوا فى أعمالهم، واستعجلوا لـذائذ الحياة، وشربوا كؤوس اللهو حتى الثمالة، عابثين ساخرين.

انظر كيف ينظر إلى الحرب الوزير الكاتب أبو جعفر بن طلحة حين يقول فيخلط الجد بالهزل:

ألفـــت الحرب حتـــى علمتنـــى ... مقـــارعـــة الحوادث والخطـــوب
ولم أك عـــالما وأبيك حـــربـــا ... بغير لـــواحظ الـــرشأ الـــربيب
فهأنـــا بين تلـك وبين هـــذا ... مصـــاب من عـــدو أو حبيب

ثم انظر إلى ما يقول أبو جعفر بن عائش فى اقتناص اللذات وعدم المبالاة بمشاغل الحياة:

إذا رأيـت الجو يصحـــو فـــلا ... تصح ــ سقـاك اللـه ــ من سكـر
تعـال فـانظـر لـدمـوع النـدى ... مـــا فعلت فى مبسم الـــزهـــر
ولا تقـل إنـك فى شـــــاغـل ... فليس هـــذا آخـر الـــدهـــر
تخلف مـا فـات سوى سـاعـة ... تقنصهـــا فى لـــذة الخمـــر

وإلى ما يقول أبو مروان بن غصن:

يـــافتيـــة خيرة فـــدتهم ... من حـــادثـــات الـــزمـــان نفسى
شربهم الخمـــر فى بكـــور ... ونطقهـم عنـــدهـم بهمـس
أمـــا تـــرون الشتـــاء يلقى ... فى الأرض بسطـــا من الـــدمقس
مقطبـــا عـــابســـا ينـــادى ... يـــوم سرور ويـــوم أنـس

وإلى ما يقول محمد بن رشيق الغرناطى:

(سيـــدى) عنـــدى أتـــر ... ج ونـــــــارنـج وراحُ
وجنـــى آس وزهـــــــر ... وجمان لا يـــــــاح
ليـس إلا طـــرب فيـــ ... ـــه النـــدامى والملاح

ومكـــــان لانتهـــــاك قـــد نـأى عنـــه الفـــلاح
لا يــــــرى يطلـع فيـــــه دون أكـــــواب صبـــــاح
فيـــــه فتيـــــان لهم فى لـــــــــذة العيش جماح
طـــرحـــوا الـــدنيـــا يســـارا فـــــاستراحت واستراحـــوا
لا كقـــــــوم أوجعتهـم لهم فيهـــــا نيـــــاح

وإذا أردت أن تعرف مقدار استهانتهم بحوادث وصروف القدر فاقرأ لهذا الشاعر أيضًا :

ليس عنـدى من الهمـوم حـديث كلما ســـاءنى الـــزمـــان سررت
أتـرانى أكـون للـدهـر عـونـا فـإذا مسنى بضر ضجـــــرت
غمـــــرة ثـم تنجلى فكـأنـى عنـد إقـــلاع همها مـــا ضررت

غمرة ثم تنجلى! هذه كانت الكلمة الشائعة على الألسن فى هذا الزمان بها وبأمثالها نفضوا غبار الهموم، وبها وبأمثالها عاشوا فى أمن نفسى بين هبوب العواصف وسقوط النوازل.

ثم إن مزاج أهل الأندلس كان من النوع المرح المستبشر الضحاك، وهو مزاج النازلين على شواطئ بحر الروم عامة! وإذا نشأ الفن فى أصحاب هذا المزاج نما وازدهر، على الرغم مما قد يصيبهم مما يكدر صفو الحياة، ففى قتام الحوادث المتعقد وبين صليل السيوف، ألّف المظفر بن الأفطس ملك بطليوس كتابا فى فنون الأدب فى نحو مـائة مجلدة، وألّف المقتـدر ابن هود، صاحب سرقسطة، كتبا كثيرة فى الهيئة والهندسة.

عناية ملوك الطوائف بالشّعر والشّعراء(*)

بلغ ملوك الطوائف ووزراؤهم الغاية فى البذخ والترف، وتقلبوا فى أكناف النعيم، وأسرفوا فى اللهو والعبث، وكان بعضهم ينافس بعضا فى عظمة الملك ورهبة السلطان.

ثم كانوا جميعا ينافسون خلفاء بنى العباس بالمشرق فيما كانوا ينفقون من الأموال ويبعثرون من الهبات والصّلات، ويقيمون من مظاهر شامخة للمجد ودلائل باهرة لقوة الدولة. فنثر ملوك الطوائف الأموال فى تشييد القصور، وغرس الحدائق واقتناء التحف النادرة وإنشاء خزائن الكتب الحافلة بخير ما ألف فى العلوم والآداب.

فقد شاد المأمون بن ذى النون ملك طليطلة قصرا كان آية فى الفن وإبداع الصناعة، أنفق عليه أموالا تضيق بحسابها الدفاتر وصنع فى وسطه قبة من الزجاج الملون المنقوش بالذهب، وبنى حول القبة مجرى مستديرا يحيط بها. فكان الماء ينزل من أعلى هذه القبة إلى حافاتها متصلا بعضه ببعض، وكان المأمون يجلس تحتها دون أن يمسه رشاش، وقد دار ستر رقيق من الماء يتألق وتتعدد ألوانه العجيبة إذا أوقدت الشموع بالقبة ويقال: إنه بينما كان فيها ليلة ينتهب اللذات بين جواريه وقيانه إذ سمع منشدا يصيح:

أتبنى بناء الخالدين وإنما ... مقامك فيها لو علمت قليل

لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كلّ يوم يقتضيه رحيل

ويقول أبو محمد المصرى فى وصف هذا القصر:

قصر يقصّر عن مداه الفرقد ... عذبت مصادره وطاب المورد

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٢٥/ ٤/ ١٩٤٢.

نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون فى أرجائه بدر تمام قابلته أسعد
وكأنما الأقداح فى راحاته دُرٌّ جمان ذاب فيه العسجد

ويقول فى وصف القبة :

شمسية الأنساب بدريّة يحار فى تشبيهها الخاطر
كأنها المأمون بدر الدُّجى وهى عليه الفلك الدائر

وكانت قصور بنى عباد بأشبيلية منازل عزّ ومظاهر ملك وعظمة ، لم يدخر شىء فى إبداعها وزخرفها وجلالة بنائها ، وكان كلّ ملوك الطوائف على هذا الطراز لا تستثن منهم أحدا . فقد نافسوا خلفاء العباسيين فى كل شىء حتى فى أعراسهم ، فنافس المستعين بن هود عرس «بوران» زوج المأمون الذى يضرب به المثل فى المشرق ، فأنفق فى عرسه الأموال جزافا وحشر إليه الناس أرسالا ، وفرق الهبات التى لا تعدّ ، وأحضر ــ كما يقول صاحب القلائد ـ من الآلات المبتدعة والأدوات المخترعة ما يبهر الألباب ، وتنقطع دونه الأسباب .

وبحسبك فيما وصل إليه الملوك والأمراء من الثروة والبذخ ، والعناية بالأدب أن تقرأ ما كتبه ابن حيان مؤرخ الأندلس بشأن الوزير أحمد بن عباس . قال :

كان كلفا بالأدب مؤثرا له على سائر لذّاته ، جماعا للدفاتر مقتنيا للجيد منها مغاليا فيها ، نفّاعا لمن خصه بها ، حتى جمع منها ما لم يكن عند ملك . وزعم بعض من عرف أمره أن ماله العين بلغ خمسمائة ألف مثقال جعفرية ، سوى الفضة ، والآنية والحلية . أما الأمتعة فى المخازن ، والكسوة والطيب والفرش فبحسب ذلك . ثم يقول : وكان بقصره خمسمائة من مثمّنات القيان .

واشتهر عن أمراء الأندلس عنايتهم واحتفالهم بالشعر والشعراء والإغداق عليهم وإغراؤهم على المثول فى حضرتهم ودفعهم إلى مديحهم . وربما كان شىء من هذا سببا فى ازدهار الشعر فى هذا العصر وبلوغه القمة .

وما أشبه نهضة الشعر والأدب والعلوم عند تمزق دولة الأندلس وتفرقها إلى ولايات وطوائف ، بما أصاب الشعر والآداب من نهوض عند انقسام الدولة العباسية إلى ولايات وإمارات منذ القرن الثالث الهجرى . فإن سيف الدولة بن حمدان أمير حلب المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، استطاع أن يجعل مملكته الصغيرة على ضيق مواردها وقصر مدة حكمه ـ كعبة يقصدها العلماء والأدباء والشعراء ، وأن ينهض بالعلوم والآداب نهضة كادت تعيد إلى الأذهان عهد الرشيد والمأمون . أخذ كل ملك بالأندلس يفاخر صاحبه وينافسه فى أبّهة الملك ويباهى بكثرة قصاده وشعرائه ، ويعظم ما يجزل لهم من عطائه

وأن يجعل إمارتـه مباءة العلماء والشعـراء، وأن يرسل اسمه مجلجـلا فى الآفاق. والشعـراء ألسنة تنشر المحامد، وإعلانات متنقلة، وآلات إذاعة، ووسـائل دعاية، لذلك تهافت عليهم الملوك واجتهد كل أمير أن يسبق منافسيه إليهم، فراجت سوق الشعر وعظـم شأنه، وأبدع الشعراء وافتنّوا، واللّهى ـ كما يقـولون ـ تفتح اللّها. فكـان لكل ملك شعـراء يختصون بحضرتـه، وكـان يجلس لسماعهم يومـا فى الأسبوع، وكانوا يستقبلون كل شاعر جديد بالحفاوة وإجزال الصلة.

وبلغ تدلل الشعـراء على الملوك فى هذا العهد حدّا قـد تدهشون له، ذلك أن بعـض الشعراء كان يحدّد لقصيدتـه ثمنا لا ينـالها أحد من الملوك بأقل منـه. حكوا أن المعتمـد بن عباد طلب إلى أبى علىّ العبدرىّ أن يمـدحه بقصيـدة يعارض فيهـا قصيدتـه التى مدح بها ابـن حمود، فقال لـه العبدرىّ فى صراحة وفى غير خشيـة: أشعارى مشهـورة، وبنات صـدرى كريمـة، فمن أراد أن ينالها فقـد عرف مهرها.

وبلغ من إعزاز الملـوك للشعراء أنهم كـانوا يتجاوزون عـن هجائهم ويقابلـون سلاطتهم بـالعطاء والهبات. فقد كـان النحلىّ الشاعر من صنائع المعتصم بن معن بن صمادح، صـاحب ألمرية، فذهب مرة إلى أشبيلية ومدح المعتضد بن عباد بشعر يعرّض فيه بالمعتصم، إذ يقول:

أباد ابن عبّاد البربرا وأفنى ابن معن دجاج القرى

ثم نسى النحلىّ تلك الزلة التى بدرت منه، وساقته أسفاره إلى ألمرية، ونزل بقصر المعتصم، فدعاه إلى منادمته، وأحضر للعشاء موائد ليس فيها إلا الدجاج.

فقال النحلىّ: يا مولانـا، أما عندكم بالمرية غير الدجـاج؟! فقال المعتصم: إنما أردنا أن نبين لك أن الدجاج لم يفن بألمرية، وأنه لا يزال كثير بها، وأن نكذبك فى قولك:

وأفنى ابن معن دجاج القرى

فطار لبّ النحلىّ، وجف ريقه، وتملّكه الخوف. فقال له المعتصم: خفّض عن نفسك، فلا بأس عليك ولا تثريب. وأجزل له العطاء فى إقامته، وواصل إحسانه إليه بعد سفره.

ليس من شك فى أن تـدليل الملوك للشعـراء إلى هذا الحد وحفـاوتهم بهم، دفعتهم إلى المنافسـة فى السبق والإجادة، وحفزت هممهم إلى التطلع إلى صلات الملوك والتقرب إليهم بأدبهم، فنشأت فى هذا العهد غيرة شعرية عنيفة، وتحاسد أدبىّ مضطرم، وتزاحم على الجوائز بغيض.

رووا أن عمر بن الشهيد الشاعر حينما أنشد المعتمد بن صمادح قوله فى مدحه:

سبـط البنان كأن كل غمامة قـد ركبت فى راحتيـه أناملا

لا عيش إلا حيث كنت وإنما تمضى ليالى العمر بعدك باطلا

التفت المعتصم إلى من حوله من الشعراء وقال لهم: هل منكم من يحسن أن يجتذب القلوب بمثل هذا؟! فقال الخزّاز الشاعر: نعم. وإنما هو الحظّ المواتى وإن للسعادة هبّات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها:

ومـا زلت أجنـى منك والـدهـر ممحل ولا ثمـر يجنـى ولا الـزرع يحصـد

ثمار أيـــاد دانيـــات قطـــوفهـــا لأغصـــانها ظلّ علىّ ممـــدّد

يُـرى جـــاريـــا مـــاء المكـــارم تحتهـــا وأطيـــار شكـــرى فـــوقهـــنّ تغـــرد

فـارتاح المعتصم وقـال: أأنت أنشدتنى هـذا؟! قال: نعم. قـال: والله كأنها ما مـرت بسمعي. صدقت، إنه الحظ المواتى وإن للسعـادة هبّات. ونحن نجيزك عليها بجـائزتين: الأولى لها، والثانية لمطل راجيها.

آراء المستشرقين فى الشعر الأندلسى (*)

ليس من شك فى أن الشعر الأندلسى شرقى المنبت عربى الزى والسمة، رحل مع طارق وأصحابه إلى إسبانيا، وحل مع العرب والبربر حيث حلّوا وطوّف معهم أينما طوفوا. وما كان ينزل بوادى الطلح بإشبيلية أو يحلق فوق بساتين قرطبة، أو ينصت إلى ترانيم الطيور بمرج غرناطة، أو يشهد جبال نيفادا التى تتألق الشمس فوق قممها الثلجية طوال العام، أو يلمح تلك المياه المنحدرة من الصخور لها خرير ولها نثيج وصخَب، أو يمر به ذلك النسيم الأوروبىّ الواهن بعد أن بلل بحر الروم أذياله، أو يملأ عينيه من الجمال الآرىّ الذى تزاوجت به خشونة الحسن القوطىّ بالوسامة الرومانية. ما كاد الشعر يحس هذه الأحاسيس، ويمتلئ من هذا الجمال الذى يفتن النفوس ويبهر العيون حتى نسى مقيله بالصحراء وحُداءه بالبيداء ووقوفه على الأطلال وبكاءه على هند وأسماء. حقا إنه كان انتقالا أشبه بالرؤى ترى فى المنام أو بتهاويل السحر تخدع لها الأبصار والأحلام. فُتحت للعرب بين عشية وضحاها كنوز الدنيا ودانت لهم أجمل بقعة فى أوروبا، ورأوا جبالا وأنهارًا وأودية خضرًا وأرضًا كثيرة الثمرات غنية المعادن، ومدنًا أمنع من عقاب السماء عزا وملكا كبيرا. فما لبث الشعر العربى حتى تأثر بهذه البيئة، وظهر فيه طابعها وانعكست عليه صورها، فباح بما يرى وبما يحسّ، ورسم بريشته العربية ما توالى أمام عينيه من مشاهد وما جال فى نفسه من خواطر، وما هيأه له الخيال من روائع وبدائع.

إن كل شىء فى الحياة يؤثر فى غيره ويتأثر به، ويفعل وينفعل. وهذه الصفة فى الأحياء وآثار الأحياء أبين وأظهر، فليس عجبا أن يتأثر الشعر العربى بالبيئة الأوروبية كما تأثر بها رجاله فى كثير من أحوالهم ومظاهر حياتهم. غير أن الشعر العربى مع قوّة التأثير الأوروبىّ فيه وعنفه كان محافظا شديد

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ٣/ ٥/ ١٩٤٢.

المحافظة معتزا بخصائصه شديد الاعتـزاز، فتمسك بالأسلوب العربى الصميم وتشبث طويلا بأوزانه وقوافيه وحصر المعين الذى يستقى منه فى ثقافة العرب وعلوم العرب وتـاريخ العرب، وأنِف أن يشِذّ عما تواضع عليه شعر المشـارقة أو أن يتخذ غير طريقه طريقا. ولكنـه مع كل هذا لم يستطع أن يفر مما تأثرت به النفس من المشاهد والأجواء والأفكار والأخيلة الغربية، ولم يستطع أن يعيش فى معزل عما تراه العين كل يـوم، وتسمعـه الأذن كل حين. إن العلم يعيش فى كل مكـان، وليس للعلـم وطن ــ كما يقولون ـ ولكن الفنون دائما موضعية محلية، تعبر عما يحيط بها من مظاهر جغرافية وسياسية واجتماعية، وإذا شذت عن ذلك فعبّرت عن بيئات أخرى كان صاحبهـا مقلّدا محاكيا، لا يصور ما يجول في قرارة نفسه.

وفى محافظة الشعـر الأندلسى يقـول نكلسون المستشرق: «إن نظـرة إلى الشعر الأنـدلسىّ فى جملته ترينا أنه لم يتغير عن شعر المشارقة، فقد بقى بقرطبة وإشبيلية على خصائصه ومميزاته التى لم تستطع أن تتخلص منها بغداد وحلب، غير أن الشعـر العربى بالمشرق كما تأثر بـالثقافة الفارسيـة، كذلك تأثر الشعر الأندلسى بالامتزاج التدريجى بين الجنسين الآرى والسـامى، فظهرت فيه طبائع هذين الجنسين وخصائصهما الأدبية. وربما كان من أبرز مميزات الشعر الأندلسى فى الغزل ذلك الشعور الرقيق المرهف الذى جعل الحب قدسًـا طهورًا، والمرأة ملكا كريما. وقـد سبق هذا الشعور أوانه وسبق مـا كان يحسه فرسان القرون الـوسطى بأوروبا نحو المرأة من كرامة وتبجيل. ثم هو من نـاحية أخرى لا يقل فى رفقه ونقائه عمّـا يتغنى به شعراء العصر الحديث من جمال صور الطبيعة ومفاتنها، وبسبب هذه الظاهرة فى الشعر الأنـدلسى مال إليه كثير من أدباء أوروبـا الذين لا يستطيعون إدراك معانى المعلقـات وقصائد المتنبى فى سهولة ويسر». والذى يقصـده نكلسون أن شعراء الغزل بالأندلس كـان أكثر شعرهم يضع المرأة فى موضع القداسـة، وكان لا يند فيه لفظ عما يقتضيه الـذوق السليم والأدب العَفّ النزيه، مثل قول ابن زيدون:

يـا روضــة طـالما أجنت لــواحظنـا ... وردًا جناه الصبـا غضـا ونسرينـا
ويــا حيــاة تملأنــا بــزهــرتها ... منى ضروبــا ولــذات أفـانينــا
ويــا نعيما خطـرنـا من نضـارتــه ... فى وشى نعمى سحبنـا ذيلـه حينـا
لسنــا نسميك إجــلالا وتكـرمـة ... فقـــدرك المعتلى عـن ذاك يغنينــا
إذا انفـردت ومـا شـوركت فى صفـة ... فحسبنـا الـوصف إيضاحًـا وتبيينـا

وهذا الـرأى عجيب من الأستاذ نكلسون؛ لأن إجلال المرأة وإحـاطتها بسياج من الـرفق والحنان والحب الظاهر قديم متوغل فى القدم قبل أن يولد أجداد شعراء الأندلس، وهو خلق العرب الأولين، والشعر الجاهلى خفاق بالغزل الشريف، زاخر بإعلاء شأن المرأة، ودعكم مما وضعه الرواة ونسبوه زورا إلى العهد الجاهلى، فهذا عنترة يقول:

وأغض طـرفى إن بـدت لى جـارتى ‏ حتى يـوارى جـارتـى مأواهـا

ويقول عمرو بن كلثوم :

على آثـارنـا بيـض حسـان ‏ نحـاذر أن تفـارق أو تهونـا
ظعـائن من بنى جشـم بن بكـر ‏ خلطن بميسم حسبـا ودينـا
أخـذن على فـوارسهـن عهـدًا ‏ إذا لاقـوا فـوارس معلمينـا
ليستلبنّ أبـدانًـا وبيضًـا ‏ وأسرى فى الحديـد مقـرنينـا
يقتن جيـادنـا ويقلـن لستم ‏ بعـولتنـا إذا لم تمنعـونـا
إذا لم نحمهـن فـلا بقينـا ‏ لشىء بعهـدهـن ولا حيينـا

ثم جاء شعراء الغزل العفيف فى عهد بنى أميـة ، كقيس وجميل وكثير وابن الدمينة وغيرهم ، فكان غزلهم أنقى من قطرات السحـاب ، لا يخمش الذوق ولا يحمرّ له خد الفتاة . استمعـوا إلى ابن الدمينة حين يقول :

لئن سـاءنى أن نلتنى بمسـاءة ‏ لقـد سرنى أنـى خطـرت ببـالك
فلـو قلت طَأْ فى النـار. أعلم أنـه ‏ رضـا لك أو مُـدنٍ لنـا من وصـالك
لقـدمـت رجلى نحـوهـا فـوطئتهـا ‏ هـدًى منك أو ضلّـة من ضـلالك
أبينى أفى يمنـى يـديـك جعلتنى ‏ فـأفـرح أم صيّرتنى فى شمالـك

ثم تمشّى الفساد الخلقى فى الشعر العربى حتى أصبح المجون فيه فنا ، ولم يسلم من ذلك كثير من الشعر الأندلسى الذى وصفه نكلسون بيا وصفه . ويقول الأستاذ جب فى تأثر الشعر الأوروبى بالشعر الأندلسى : «إنـه فى نهاية القـرن الحادى عشر للميلاد ظهـر فجاءة فى جنـوبى فرنسـا نوع جـديد من الشعر ، وإن المحققين فى نهاية القرن الثامن عشر رأوا أن بين هـذا الشعر الذى انبثق فى إقليم بروفانس والشعر الأندلسى وجـوه شبه قوية لما تجلّى فى غزله من الحب العـذرى ، ولما طرأ على أوزانه من التغيير الذى يشبه فى نظامه الموشحات الأندلسية» .

ويقول المستشرق إستانلى لين بول :

«هُرع الكثير من الإسبـان إلى اعتناق الإسلام راغبين راضين ، فامتـزج الدينان وعاش الفـريقان فى خلطة وصداقة وحسن معاملة ، أما النصارى فأخذوا يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة ويصدفون عن آدابها ، فتعلموا العربيـة واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها كما يكتب العـرب أنفسهم ، وقد ندد القَس يوجوليوس بهذه الحال ، إذ يقول : النصارى يولعـون بقصائد الشعر العربى وقصصه ومما يوجب الحزن والأسى أن الجيل الناشئ لا يعرف غير العربيـة ، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف ، وينشئ لها الخزائن الحافلة ، فى حين أنـه يبخل بنظرة إلى كتـاب مسيحى . ثم يقول : لقد نسى النصـارى لغتهم وهم مع

هذا يستطيعون أن ينظموا شعـرًا عربيا رائعا يفوق شعر العـرب أنفسهم»، ثم يقول لين بول فى ازدهار الأدب والشعر بـالأندلس : أمـا الأدب العربى فإن أوروبـا لم تر فى عهد من عهـودها حفـاوة بالأدب وأهله ، كما رأت فى الأندلس حين كـان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر ويظن أن هـذا الشعر هو الذى أوحـى للشعراء بإسبـانيا بأنـاشيدهم القصصيـة ، وهو الـذى حاكـاه شعراء بروفـانس بفـرنسا وترسمت خطاه إيطاليا ولم تكن تعد الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمنت أبياتا من الشعر الرصين، ويظهر أن كل العـالم الإسلامى بـالأندلس اتجه بـروحانيته إلى آلهة الفنـون، فمن الخليفة فى عـرشه إلى النوتى فى سفينته تسمع النظم الرائق فى مشاهد الأندلس وجمال مدنها ثم فى روعة خرير الأنهار وسحر الليل السـاجى، وقد هـدأت النجوم ثم فى نشـوة الحب والخمر ومجتمع الأنس، وقـد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التى ترمى بقوس حاجبها فتصيب حبات القلوب .

إعادة النظر في قرار قياسية فعّل للتكثير والمبالغة(*)

وبعد افتتاح جلسة المجمع فى السبت ٢٠ يناير ١٩٤٥ أعلن أن موضوع اليوم هو إعادة النظر فيما سبق أن أقره مؤتمر المجمع فى الجلسة السابعة بتاريخ ٢٩/ ١/ ١٩٤٤ من جعل صيغة فعّل قياسا للتكثير والمبالغة، وذلك بناء على معارضة فى هذا القرار قدمها الأستاذ أحمد العوامرى إلى مجلس المجمع فى الجلسة السادسة عشرة بتاريخ ٢٠/ ٣/ ١٩٤٤، فرأى المجلس عرض الأمر على المؤتمر.

وقد وزعت على الأعضاء قبل موعد الجلسة بيومين مذكرة قدمها الأستاذ على الجارم فى تأييد قرار المؤتمر، وهذا نصها:

أما قياسيته للتعدية فمفروغ منها لورود نص عن أئمة اللغة بها، وموضع الجدل إنما هو موضوع «فعّل» من الفعل المتعدى للتكثير والمبالغة، وأدعى أن هذا كثير جدا فى لغة العرب حتى لكأنه من سليقتها، وإذا جاز بناء القياس على عشرين مثالا أو دونها، فإن الوارد فى معجمات اللغة من صوغ «فعّل» للتكثير والمبالغةِ من «فعَل» المتعدى أكثر من ذلك جدا، وقد كفتنى لمحة خاطفة لتدوين الأفعال الآتية:

أبّره	حصّبه	سطّره	قصّ الشعر
أدبّه	حطّمه	سقّفه	قلّبه
أرّخه	حقّره	سكّر الباب	قلّمه
ألّبه	حلّقه	شذّبه	كبّله
أمّله	خبّأه	شقّقه	كتّمه

(*) نشر بمجلة مجمع اللغة العربية ص ٢٢٨.

بذّر الحب	خبّله	شهّره	كسّره
بكّاه	خرّقه	طانه	كفّنه
ثقّبه	خصّه	عبّر الرؤيا	كلّمه
ثلّمه	خضّبه	عدّه	مزّقه
جرّحه	خلّقه	عقّده	مسّحه
جرّده	درّسه	غذّاه	مشّطه
جمّعه	ذبّحه	فجّره	ملّح القدر
حبّر الشىء	رقّعه	فلّقه	نقّطه
حجّبه	راعه	قرنّه فى القرن	هدّمه
حدّه	سحّره	قسّمه	هشّمه
ودّعه			

فهذه أمثلة لواحد وستين فعلا متعديا ضعّف للمبالغة ، جئت بها للتمثيل لا للاستقصاء ، وأظنها كافية للقول بقاسية تضعيف الفعل المتعدى للتكثير والمبالغة .

اقتراح وضع قواعد جديدة يستعان بها
في اشتقاق الأفعال من الجامد للضرورة(*)

قرر المجمع فى دوره الماضى جواز الاشتقاق من الجامد للضرورة فى لغة العلوم ، ولما كان هذا الاشتقاق يحتاج إلى وضع قواعد جديدة يستعان بها فى اشتقاق الأفعال، أردت أن أضع اقتراحًا بهذا ليكون موضعًا للبحث، وهو:

الاسم الجامد : إما أن يكون ثلاثيا مجردًا أو مزيدًا فيه، ويصاغ منه فى حاليه فعلٌ ثلاثي بعد حذف الزوائد فى المزيد، والفعل الثلاثى الذى يؤخذ من الجامد يكون من باب نصر، لكثرة هذا الباب وشيوعه، ويكون لازما ومتعديا على حسب ما يقصد من معناه، فنقول مثلا: قطنت الأرض تقطن: كثر قطنها. وقطنتها: زرعتها قطنا.

إلا إذا كان الفعل حلقى العين أو اللام فيكون من باب فتح لازما ومتعديا أيضًا، على حسب ما يقصد منه، مثل: قمح الأرض يقمحها.

وإلا إذا دل على امتلاء أو خلو أو لون أو عيب أو حيلة أو مرض، فيكون من باب فرح لازما، مثل: كبِد فلان يكبَد أى يمرض بكبده.

إلا إذا دل على صفة لها مكث، فيكون من باب كرم لازما، مثل كرُش الرجل يكرش، أى عظم كرشه.

وإذا كان الاسم رباعى الأصول أو رباعيا مزيدا فيه، مثل درهم وكبريت، اشتق منه على وزن فعلل بعد حذف الزائد من المزيد. وإذا كان خماسيا مثل سفرجل، اشتق منه على وزن فعلل بعد حذف خامسه.

(*) قدم فى الدورة الثانية للمجمع بالجلسة رقم ٢٤ ونشر فى مجلة المجمع، ص ٣٦٣ عام ١٩٤٥ .

وتلحق الأفعال المشتقة من الجوامد حروف الزيادة للمعانى التى تقصد من زيادتها فى الأفعال المشتقة من المصدر.

حضرة العضو المحترم الأستاذ على الجارم - لقد سبق أن قررنا جواز الاشتقاق من الجامد، ولا فائدة من هذا القرار إلا بوضع قواعد للاشتقاق، فنقول مثلا فى درهم دَرهم، وفى كبريت كبرت.

ومسألة المسائل فى هذه القاعدة خاصة بالفعل الثلاثى فيها. وإذا تهيبنا أن نضع قواعد لهذا القرار فكأننا لم نفعل شيئا، والأفعال الزائدة شأنها هين، أما الثلاثية فتختلف أبوابها.

وما دمنا قررنا المبدأ فلا بد أن نجرى إلى أبعد شوط فيه. والاشتقاق من الجامد الثلاثى يستدعى إيجاد فعل ثلاثى، ولا بد أن يكون من باب من أبوابه الستة. وباب نصر هو أكثر الأبوب جريانا على الألسنة، حتى قال بعض العلماء: إذا ما جهلت باب فعل ثلاثى فاجعله من باب نصر.

والذى أراه فى الثلاثى هو أن نلتزم فيه أسلوب العرب، فما كانت عينه أو لامه حرف حلق مثلا جعلناه من باب فتح، كقمح وبلح. وإذا دل على صفة دائمة مثلا يكون من باب كرم، ككرش فلان إذا كان ذا كرش كبير، وهكذا. وإذا رأيتم حضراتكم تناقشنا فى هذا الاقتراح قبل انتهاء هذه الدورة.

المعارضات في الشعر العربي

١ - في العصر الجاهلي

غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية، وهي في الإنسان أبين منها في الحيوان وأظهر أثرًا؛ الإدراك يزيدها قوة ويستحثها إلى البروز والظهور. وإذا كانت في الحيوان غريزة عمياء، تصدر دافع آلي، ولا تتجه إلى غاية، ولا تعمل إلا عملا تسوقها إليه الفطرة عن غير قصد، فإنها في الإنس غريزة مبصرة متعمدة، تعرف ما تأتي وما تذر، وترمي إلى هدف منصوب، وتركض لتناول القصب ميدان سباق الحياة.

وتظهر المنافسة في أنواع الحيوان المنحط الإدراك في التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به، ، الفرخ لا يكاد ينقف البيضة، ويتنسم نسيم الوجود، حتى يزاحم إخوته على الطعام، وقد يختط القطعة من منقار منافسه لينفرد بها في إحدى الزوايا الهادئة من الفناء. وأظنك قد شعرت مرارا الدابة البليدة إذا ركبتها فسارت بك منفردة نقلت الخطا بطيئة متثاقلة، وربما زادتها العصا بطئا وتثا وحرانًا. أما إذا ركبتها وكان بجانبها دابة أخرى أنشط منها وأسرع، فإنها تبذل جهد الطاقة في مجا تلك الدابة وتعطيك من النشاط فنونًا لم تكن لك ببال.

هذا شيء مشاهد في الحيوان لا مرية فيه ولا شك، ولو أردنا أن نستطرد فيه أو أن نعدد له الأمث لاتسع نطاق البحث وطال بنا حبل الكلام.

أما غريزة المنافسة في الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل، وتصاحبه من لدن نشأته إلى منته رقدته، وتظهر في كثير من أعماله، وتكتب في سجل القدر ما يكون له من خطر في الحياة وما

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثاني ص ٣٨٣ عام ١٩٤٥.

يكون. فهى فيه بمنزلة القوة الدافعة فى الآلة الميكانيكية، تقدر قيمة الآلة بقدرها قوة وضعفًا، لذلك عنى رجال التربية بتقوية هذه الغريزة فى الأطفال بكل ما وسعهم من ضروب الإغراء، فدفعوهم إلى التغالب فى كل شىء، حتى فى الصراع والملاكمة. وعدوا الطفل الهادئ المستكين القانع بما لديه، الذى لا يمد عينيه إلى أفضل مما هو فيه مريضًا مرضًا نفسيًّا عضالاً، إذا لزمه فى صغره فقد الرجولة الكاملة حينما يشب عن الطوق، وأصبح فسلا خائرًا لا رجاء فيه ولا غناء عنده.

وترتكز غريزة المنافسة على غريزة المحاكاة، أو على غريزة الإحساس بالنقص، فإن الحيوان إذا شهد عملاً حاول أول الأمر محاكاته، لما يجول بخاطره أو خاطر فطرته وجبلته من أنه لا يستطيع أن يأتى بمثله، فيأخذ فى محاكاته مرة بعد أخرى، حتى إذا رأى أنه بلغ فى المحاكاة منزلة لا تقل عن الأصل المحاكى دقة وإحكامًا، تضاعفت فيه الثقة بنفسه، وتملكه الإعجاب بها، وطفق يستصغر فى يومه ما كان يكبره فى أمسه، وأراد أن يرتفع درجة أو درجات فوق من كان أو ما كان يحاكيه ويعده مثلا عاليًا فى الإتقان والإجادة، وهكذا يتنقل الحيوان أو الإنسان من محاكاة إلى منافسة، إلى سبق وتبريز.

هذه المنافسة وهذه المزاحمة بالمناكب للسبق والوصول إلى الغايات، هما سر تدرج الحياة الإنسانية نحو الكمال، وهما سر تطور الحياة من حال إلى حال، وهما سر تنقل التاريخ البشرى فى سلم الارتقاء؛ لأن المنافسة كما تكون فى الأفراد تكون فى الأمم، وإذا تنافست الأمم سعد العالم بكثير من نتائج هذا السباق التى تنهض بالإنسانية وتخفف كثيرًا من ويلاتها.

ويعجبنى بيت من الشعر للشاعر الإنجليزى «روبرت براوننج» Robert Browning وهو:

A mans' reach should exceed his grasp, or what is a heaven for ?

وترجمته:

غـايـةُ المرءِ فـوقَ مـا تصلُ الكَـــ ـــفُّ وإلاّ لمن تكـــونُ السماء!

هذا تصوير من أدق ما يصوره شاعر للنفس الوثابة والأمل السباق والمنافسة التى لا ترضى بالقليل ولا الكثير، إن صاحب هذه النفس يزهد فى كل ما يستطيع نيله: ويعد صغيرًا كل ما تصل إليه يده، ويأنف من أن يخلد إلى الأرض ويرضى بغاياتها الدنيا، وتثب همته إلى الوصول إلى ما فى السماء من خلد وبجادة. وهذا قريب من بيت «البارودى»:

هَمامـةُ نفس أرخصتْ كلَّ مطلَبٍ فكلَّفتِ الأيـامَ مـا ليس يُطلبُ

وهو أشبه جدًّا ببيت «شوقى» حين يخاطب الشباب:

واطلبـوا المجـدَ على الأرض فإنْ هى ضـاقتْ فـاطلبوه فى السماء

«وللمتنبى» الطموح شعر كثير فى هذا المعنى، ولعل أقربه إلى ما نحن بصدده قوله:

ولكنَّ قلبًا بين جَنْبيَّ مـا لـه ... مَـدًى ينتهى بى فى مُـرادٍ أحُـدُّه

وفى هذا المعنى أقول :

إنّ النفـوسَ تضيقُ وهـى صغيرةٌ ... ويضيقُ عنهـا الكـونُ وهى كبـارُ

وللمتنبى أيضًا فيما يحوم حول هذا الموضوع قوله :

يقـولـونَ لى مـا أنتَ فى كلِّ بلـدةٍ ... وما تبتغى؟ ما أبتغى جَلَّ أن يُسْمَى!

وقوله :

وشرُّ مـا قنصَتْـه راحتى قَنَصٌ ... شُهْبُ البُـزاةِ سَواءٌ فيـه والـرَّخَمُ

هذا استطراد موجز دعت إليه الموازنة بين شعر الإفرنج وشعر العرب، لندلل على أن فيض الإلهام عام ينتظم الجماعات وإن اختلفت الألسنة والألوان، وأنّ توارد الخواطر يكـون فى الأفراد كما يكون فى الأمم، وأن كوكب الفنون يشرق على الشرق والغرب على السواء، ولنقول للشاعر «كبلنج» الذى قال : « الشرق شرق، والغرب غرب فلن يجتمعا » إنهما يـاسيدى يجتمعان فى كثير : يجتمعان فى العلوم، فإن الشرق فى العصور الوسطى كان أداة الاتصال فى نقـل فلسفة اليونان إلى أوربا، ويجتمعان فى الفنون، الأندلس، وهى شرقية فى كل شىء إلا فى موقعها الجغرافى، نقلت فنون الشعر والنقش والموسيقى إلى أوروبا، ويجتمعان فى العواطف؛ إنهما أدركا بعد لأى أن الإنسانية أسرة واحدة وإن تفرقت بها الأوطان وبعدت الديار.

ألا إنّما الأيـامُ أبنـاءُ واحـدٍ ... وهـذى الليـالى كلُّهـا أخَـواتُ

نعود فنقول : إن المنافسة فى كل شىء حـافز إلى الرقى، يدفع الهمم إلى السخط على كل ما يمكن أن ينال، وهى إذا سرت إلى الفنون وصلت بها إلى الأوج. والـذى يعنينـا فى هـذا البحث أن نبين أن المنافسـة الفنية فى الشعر دفعت الشعراء إلى مـا يسمى بالمعارضة، والمعـارضة الشعرية مـوضوع خطير الشأن فى الأدب العربى، أردنـا أن نخصه بالبحث فى هذه اللفتـات القصيرة، وأن نعرضه عرضًـا قد يكون جـديدًا فى بابته، وأن نلم بنشأتـه وأسبابه ومميـزاته، ثم بآثاره، وبما أفـاء على الأدب العربى من ثمرات، وما جدد فيه من فنون.

والأصل فى المعارضة أن تكون بين الأحياء حين يدفع الشاعر إلى معارضة شاعر آخر ما يحس به فى نفسه من قوة وما يجيش فى صدره من رغبة فى التحدى وحب الغلب، فهو رجل معتز بفنه، واثق الثقة كلها من تمام تمكنه منه وتحكمه فيه. وفى هذا ضرب من الأثرة وحب الانفراد بالكمال، فهو لا يريد أن يرى له فى شعره قرينًا أو مثيلا. وكثيرًا ما كان يسير « امرؤ القيس » فى أحياء العرب، ومعه أخلاط من شذاذهم من « طيىء » و « كلب » و « بكر بن وائل » وقد زهاه الشباب، وأفسده الفراغ والجدة، وملأه

الغرور والزعم بأنه أشعر شاعر رددت صوته جزيرة العرب. فكان يتحدى كل شاعر، ويهاتن كل قوال، وينافر كل من توهم أنه قد يزحزحه عن عرش شعر، . يروى أن امرأ القيس لقى التوأم اليشكرى فقال له : إن كنت شاعرًا فأجز أنصاف ما أقول. فقال التوأم : قل ما شئت.

فقال امرؤ القيس	:	أحارِ ترى بُرَيْقًا هب وَهْنًا
فقال التوأم	:	كنار مجوسَ تستعر استعارًا
فقال امرؤ القيس	:	أرقتُ له ونام أبو شُريح
فقال التوأم	:	إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا
فقال امرؤ القيس	:	كأن حنينه والرعدُ فيه
فقال التوأم	:	عشارٌ وُلَّهٌ لاقت عشارا

وهكذا يستمران حتى يعجز امرؤ القيس عن إعجاز التوأم، فيلقى السلاح ويحلف أن لا ينازع أحدًا الشعر بعده. وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تصور نازغة غلابة تجيش بنفس كل معتز بفنه. ومما يحسن التنبه له هنا أن امرأ القيس عن قصد أو غير قصد، أو لأنه هو البادئ بالمماتنة، اختص نفسه بصدور الأبيات التى تخلو من صعوبة القافية، ثم إنه كان يتعمد وضع العقبات أمام التوأم، إما بالإتيان بها يتطلب التشبيه على البديهة، وإما بالإتيان بأحد طرفى التشبيه وترك التوأم يبحث عن الطرف الآخر.

ومن المعارضة فى الجاهلية ما رواه أبو عبيدة قال : كان امرؤ القيس قد تزوج امرأة من طئ حين كان جارًا لهم، فنزل به علقمة الفحل التميمى فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك. وتحاكما إلى زوج امرىء القيس، فأنشدها امرؤ القيس قصيدة طويلة أولها :

خليلىّ مرّا بى على أمّ جندب   لنقضى لبانات الفؤاد المعذّبِ

ثم أخذ فى وصف حصانه فأطال، ومما جاء فى هذا الوصف :

فللسّوط ألهوبٌ وللسّاق درّة   وللزجر منه وقع أهوج متعبِ

ثم أنشدها علقمة قصيدة طويلة من البحر والقافية أولها :

ذهبتِ بنا فى الهجر فى غير مَذْهبِ

ووصف فرسه أيضًا وهو يطارد الصيد حتى انتهى إلى قوله :

فأدركهنّ ثانيًا من عنانه ... يمر كغيث رائح متحلّب

فقالت زوج امرئ القيس له : علقمة أشعر منك، قال : وكيف ؟ قالت لأنك زجرت فرسك، وحرّكته بساقك، وضربته بسوطك، أما فرس علقمة فقد أدرك الصيد ثانيًا عنانه، لم يضرب بسوط، ولم يزجر بساق، فغضب امرؤ القيس وقال : ليس كما قلت ولكنك هويته فحكمت له .

ويخيل إلى أن أسواق العرب فى الجاهلية كان بها الشىء الكثير من هذا، وأن الشعراء والنقاد كانوا ينتحون ناحية بعيدة عن المتاجر وأماكن البيع، فيجتمعون فى حلقة واسعة يتزاحم عليها الناس من كل صوب، لسماع خير ما ينشد من الشعر ولإرضاء ميولهم بمشاهدة ما يقع بين الشعراء من المعارضة والمنافرة والتحدى، كما نجتمع الآن فى سباق الخيل أو حفلات الملاكمة أو المبارزة بالسيوف. والمعارضة الشعرية كالمبارزة فى كثير من نواحيها : فكما أن المبارزين يجب أن يستعملا سلاحًا من نوع واحد، كذلك الشاعران يجب أن يتحدا فى البحر والقافية. وكما أن فى المبارزة محكمين، كذلك فى المعارضة نقاد محكمون يقضون لمن له السبق والغلب. وكما أن المبارزة قد تنتهى بقتل أحد المبارزين، كذلك المعارضة الشعرية قد تؤدى إلى موت الشاعر موتًا معنويًا لا تقوم له قيامه بعده. هذا وسيكون لنا بحول الله حديث عن المعارضة فى صدر الإسلام فى عدد تالٍ.

المعارضات في الشعر العربي (*)

٢ - في صدر الإسلام

أشرقت الجزيرة العربية بنور الإسلام، وقام ابن عبد الله يدعو إلى الدين وحيدًا أول الأمر، وفى قلة من المناصرين بعد حين، قام يصدع بأمر ربه جريئًا لا يخشى فى الله إيذاء ولا تفنيدًا، فدعا إلى التوحيد، فكانت هذه الدعوة فتحًا جديدًا فى هذه الجزيرة التى مردت على عبادة الأوثان. ثم دعا إلى المساواة وكان شعاره ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [سورة الحجرات: ١٣] فى قوم نفخت خياشيمهم عُبيّة الجاهلية، وطبعوا على التفاخر بالأنساب، ثم دعا إلى هدم كثير من عادات الجهل والعصبية القَبَلية التى رسخت فى نفوس القوم حتى أصبحت من طبائعهم، ومن أخص مميزاتهم. والجاهليُّون أشد الناس جفاء وعنادًا، وأصعبهم قيادًا، وأحرصهم على التمسك بالقديم، فثاروا على النبى الكريم، وسد كثير منهم آذانهم عن سماع الوحى الإلهى، فلما طال به المدى، وطالت أيديهم إليه بالأذى، رأى لتذليل سبيل دعوته ولإرغامهم على الحق الذى عميت أعينهم عن نوره الساطع، أن يحاربهم بسلاحهم، وأن يتحداهم بوسائلهم، ولم يكن لهم إلا وسيلتان : السيف والشعر، فحاربهم بالسيف والشعر. جنّد عليهم جنودًا من أصحابه يقاتلونهم بحدّ السنان، وردّ عليهم من الشعراء جنودًا يصاولونهم بعضب اللسان. رُوى أنه لمّا كان يومُ الأحزاب، ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا﴾، قال النبى ﷺ: «من يحمى أعراض المسلمين؟» فقال كعب بن مالك: أنا يارسول الله. وقال عبد الله ابن رواحة: أنا يارسول الله. وقال حسان بن ثابت: أنا يارسول الله. فقال النبى ﷺ: نعم اهجهم أنت فإنه سيُعينك الله بروح القدس. وقيل إن رجلاً جاء إلى ابن عباس فقال له : جاء اللعين حسان من الشام. فقال ابن عباس: ماهو بلعين، لقد نصر رسول الله ﷺ بلسانه ونفسه.

(*) نشرت بمجلة «الكاتب» بالجزء الثانى ص ٥٥٤ عام ١٩٤٥.

وكان للمعسكر الآخر من مشركى قريش شعراء مجيدون، منهم : عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وعباس بن مرداس، وضرار بن الخطاب، وغيرهم. وقد كثرت المعارضات الشعرية فى هذا العهد، وثار غبارها، وحمى وطيسها، فإذا قال شاعر من المسلمين قصيدة فى الفريق الذى يناصره، أو أشاد بمديحه والمفاخرة به، أجابه شاعر أو شعراء من الفريق الآخر بقصيدة أو قصائد من البحر والقافية، فنهض الشعر من حيث إنه فن، ونهض مرة أخرى من حيث إنه أصبح أداة سياسية للدفاع والهجوم، ونهض مرة ثالثة من حيث إنه ازداد ثروة فوق ثروته بالكلمات الإسلامية الجديدة التى جاءت فى القرآن الكريم، وفى أحاديث النبى عليه السلام.

وإنى ألتقط هذه الفرصة السانحة لأردّ بكل ما فى نفسى من عنف على بعض من كتبوا فى تاريخ الأدب مدّعين أن الشعر هدأ وخبت ناره عند ظهور الإسلام. وقد احتجوا لهذا الرأى القائل بتعليل شعرى جذاب، لأنهم يقولون : إن العرب بهرهم القرآن، وأخذتهم بلاغته، فخرست ألسنتهم وأجدبوا حينًا طويلاً. وهذا كلام يجب أن يطير فى الهواء قبل أن يستقر فى أذنين. إن ذلك الانقلاب العظيم، وتلك الثورة الفكرية الشاملة، وهذا الدين الجديد الذى جاء ليبدّل كل شىء، كان جديرًا أن يثير النزعة الشعرية فى أمة مجدبة الخيال لا تعرف الشعر ولا فنون الكلام، فكيف بأمة طبعت على الشعر وفطرت على البلاغة البارعة التى تصوّر كل ما يمر بها من أحداث ؟ إن من يطلع على كتب السّير يملكه الدهش لما يرى من كثرة ما قيل من الشعر من شعراء المسلمين وغير المسلمين على السواء، وأكثر هذا الشعر فى المعارضات التى اتحد بحرها وقوافيها، حتى يحارب كل خصم خصمه بسلاحه.

ويمكن أن يسمّى هذا النوع بالمعارضات السياسية؛ لأن الشاعر لا يتجه فيها لنفسه، ولبيان قوة فنه أولاً وبالذات، بل أعظم ما يكون اتجاهه إلى التغلب على مذهب خصمه، والتفوق عليه فى مجال الفخر والمحامد، أو فى ميدان الهجاء والتنابز.

ولا نريد أن نطيل فى هذا الموضوع بذكر كثير من الشواهد، فإن كتب الأدب تزخر بها وتموج، وبحسبنا أن نأتى بمثالين، نختار أحدهما مما قاله الشعراء فى غزوة انتصر فيها المسلمون نصرًا مؤزّرًا، وهى واقعة «بدر»، ونختار ثانيهما مما قيل فى غزوة «أحد» التى كان يومها بلاءً وتمحيصًا للمسلمين.

قال ضرار بن الخطاب يوم بدر :

عجبتُ لفخر الأوسِ والحَيْنُ دائرٌ ... عليهم غدًا والدهرُ فيه بصائرُ
وفخر بنى النجّار إن كان معشرٌ ... أصيبوا ببدر كلهم ثمَّ صابرُ
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا ... فإنّ رجالاً بعدهم سنغادر
وتُرْدِى بنا الجُرْدُ العناجيجُ وسْطَهم ... بنى الأوسِ حتى يشفى النفس ثائرُ

وهى طويلة . وقد أجابه كعب بن مالك فقال :

عجبتُ لأمـــر الله والله قـــادرُ ... على مـــا أراد ، ليس لله قـــاهـــرُ
قضى يـومَ بـدر أن نـلاقى معشرًا ... بَغَوْا ، وسبيـل البغى بالنـاس جائر
وقـد حشـدوا واستنفـروا مَنْ يليهمُ ... من النـاس ، حتى جمعُهم متكـاثـر
وســارت إلينــا لا تحاول غيرَنــا ... بأجمعهـا كعـبٌ جميعًـا وعـامـر
وفينـا رسـول الله والأوسُ حـولَـه ... لـه مَعْقِلٌ منهم عـزيـز ونـاصر
وجمع بنى النجّــار تحت لــوائه ... يُمشُّـون فى الماذِىِّ والنقـعُ ثـائر
فلما لقِينـــاهـم وكـلٌّ مجاهــد ... لأصحابه ، مستبسل النفس صابر
شهــدنــا بأنّ الله لا ربَّ غيرُه ... وأنّ رسـول الله بـالحق ظـاهــر
وقـد عَـرِيَتْ بيضٌ خفِـاف كأنها ... مقـاييسُ يُـزْهيهـا لعينيكَ شـاهـر
بِهنَّ أبــدْنــا جمعَهم فتبــددوا ... وكـان يـلاقى الحَيْنَ من هو فـاجـر
فكُبَّ أبـو جهل صريعًـا لـوجهـه ... وعُتْبـة قـد غـادرنـه وهـو عـاثـر
وشيبــةُ والتيمىُّ غـادرن فى الـوغى ... ومـا منهمُ إلاّ بـذى العـرش كـافـر
فـامسَوْا وقـودَ النـار فى مستقَرِّها ... وكلٌّ كفـــور فى جهنـم صـــائر
وكـان رسـول الله قـد قـال أقبلـوا ... فـولَّـوْا وقـالـوا إنما أنت ســاحـر
لأمــرٍ أراد الله أن يهلكـوا بــه ... وليس لأمــر حمّه الله زاجـــر

وبحسب قارئ هذه القصيدة أن يرى الفرق العظيم بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام ، وأن يرى تأثر الشعراء الشديد بألفاظ القرآن ومعانيه .

أما فى غزوة أحد فقد شمِت المشركون بمحمد وأصحابه ، وقالوا فى هزيمتهم شعرًا كثيرًا عارضه المسلمون بشعر كثير ، نكتفى فيه بما قالته هند بنت عُتبة بعد أن بقرت عن كبد حمزة ولاكتها فلم تستطع أن تُسيغها ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

نحن جـــزينــاكم بيــوم بــدرِ ... والحربُ بعــد الحرب ذات سُعْـرِ
مـا كــان عن عُتبــة لى من صبر ... ولا أخـى وعمِّــــه وبكـــرى
شفيت نفسى وقضيت نَــذْرى ... شفيتَ « وَحْشِىُّ » غليـلَ صـدرى
فشكـــرُ وَحْشِيّ علىّ عمــرى ... حتى تـــرِمَّ أعظمـى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عبّاد بن المطلب فقالت :

خَـــزِيتِ فى بـــدرٍ وبعـــدَ بـــدرِ ... يـــابنتَ وقّـــاعٍ عظيـم الكفـــرِ
صبَّحـك الله غـــــداةَ الفجـــــر ... مـــا للهـاشميين الطِّــوال الـزُّهْــر
بكلِّ قطـــاعٍ حســـامٍ يفـــرى ... حمـــزةُ ليثـــى وعلىّ صقـــرى
إذ رام شيبٌ وأبـــوكِ غَـــــدرى ... فخضَّبـــا منـــه ضـــواحى النحـــر

ونـــذرُكِ السَّـــوءَ فشـــرُّ نـــذْر

ونعتقد أن الرواة وضعوا شعرًا ومعارضات كثيرة فى هذا العصر، غير أن هذا لا يمنع من كثرة الشعر الذى قيل ، ولا يمنع أيضًا من أن النقاد قبلنا ميزوا بين صحيح الشعر ومنحوله . وينبغى لنا أن نسجل مـا كان للنســاء فى هذه الفترة مـن الشأن العظيم فى كلا الميـدانين : ميـدان القتال وميـدان السياسـة والأدب، مما يقلُّ أن تجد له مثيلاً فى عصر من عصور التاريخ أو فى أمة من الأمم .

فقد قاتلت أمُّ عمارة يوم أحد مع المسلمين : روت عنها أم سعد أنها قالت :

خرجت أول النهار وأنا أنظـر ما يصنع الناس، ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيـت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه، فلما انهزم المسلمـون انحزت إلى رسـول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمى عن القوس، حتى خلصت الجراح إلىّ. ثم قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جُرْحًا أجوفَ له غورٌ، فقلت : من أصـابكِ بهذا ؟ قالت : ابن قمِيئـة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ، أقبل يقول: دلونى على محمد فلا نجوتُ إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عميرة وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربتـه على ذلك ضربات ، غير أنَّ عدو الله كان عليـه درعان. وسقط لواء المشركين يـوم أحد فحملتـه عَمْرة الحارثيـة لقريش فـاجتمعوا حوله .

وهنا نقف لنتحدث عن المعارضة فى عصر بنى أمية فى عدد يجىء إن شاء الله .

المعارضات في الشعر العربي (*)
٣ ـ العصر الأموي

هذا عصر الفتن والأحداث، والكوارث العظام، وتقلب القلوب، واللعب بالنفوس، وعهد الملك العضوض، وانتقال الخلافة من رفق الزهاد الناسكين، إلى سيطرة الدهاة المالكين، ثم هو عهد انطلاق العرب من ربقة الوحدة العربية التى قهرهم عليها الإسلام فى عهد النبى الكريم والخلفاء الراشدين، فما كادت قبضته تنفرج عنهم أصابعها حتى عادوا قبائل وشيعًا، وفرقًا وأحزابًا، وحنوا إلى نعرة الجاهلية الأولى، وإلى الفخر بالأنساب والتحدث بالمآثر والأيام، ونبشوا ما دفنه الإسلام من أحقاد وترات، وانفصمت تلك العروة الروحية الجميلة التى بذل الدين غاية الجهد فى عقدها، وتأليف وحدة محصدة الفتل من أشتات العرب تغزو العالم بقوة الإيمان، وتجبه الدنيا بعقيدة تنهزم أمامها الجحافل.

طلعت الشمس فى بداية هذا العصر، محمرة حزينة، تنفث أشعتها دماء متناثرة، وأطرق الإسلام واجمًا وهو يرى أبناءه الذين كانوا جسمًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، يحتكمون إلى السيوف، ويحز منهم المرء رأس أخيه، جذلان مرحًا، كأنه فى سبيل الله يجاهد، وفى إعلاء كلمته يجالد، ولكنها الفتنة العمياء، والداهية الدهياء، والرين يغشى القلوب فلا ترى الضلال ضلالا، ولا ترضى الصواب صوابًا.

بدأ هذا العهد بالخلاف بين على ومعاوية، فسالت دماء عزيزة على المسلمين، ووثب شيطان الفرقة يفتر عن أنياب أفعى، ويحجل حجلان الغراب المشؤوم، ثم خرج كثير من المسلمين على علي

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثانى ص ٦٨٠ عام ١٩٤٥.

لأنه حكم فى دين الله، فنشأت فرقة الخوارج التى عاشت شاغبة ساخطة، لا تريد حكمًا، ولا ترضى عن حاكم، حتى استأصل شأفتها المهلب بن أبى صفرة فى خلافة عبد الملك بن مروان. ثم قام ابن الزبير فى مكة يدعو إلى نفسه، ويطالب بالخلافة، فكان له جند مناصرون. وهكذا انتشر العقد، وانشقت العصا، وانتقض الغزل أنكاثًا، وتفرق المسلمون شيعًا، وتبددوا أحزابًا مخلصين أو غير مخلصين، راغبين فى عرض الحياة الدنيا أو غير راغبين. فإننا نعتقد أن النفس الإنسانية فى هذا الزمان هى النفس الإنسانية فى كل زمان، وأن اتجاه الناس إلى الزعماء فى ذلك الحين، لم يكن كله خالصًا عن محض عقيدة أو اقتناع بمذهب.

والناس من يلق خيرًا قائلون له   ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

ومن الناس من يحتال فى أيام الشغب والفتن، فيلبس ثوبًا ذا لونين، ويصطاد فى ماءين؛ فقد رأينا من هؤلاء من يتصل بعلى؛ لأن الصلاة خلفه أخشع، ويحوم حول مائدة معاوية، لأن الطعام على خوانه أدسم. وإنى أشك كثيرًا فى أن مسكينا الدارمى كان صادقًا حين كان يرفع عقيرته بالدعوة إلى مبايعة يزيد بن معاوية ويقول:

بنى خلفاءِ الله مهلاً فإنما   يبوّؤها الرحمنُ حيث يريد
إذا المنبر الغربىّ خلّاه ربُّه   فإنّ أمير المؤمنين يزيد

وما أظن أن أعشى ربيعة كان يصور ذات نفسه حين قال:

وفضّلنى فى الشعر واللبِّ أننى   أقول على علم وأعرف من أعنى
وأنىَ إذْ فضلت مروانَ وابنه   على الناس قد فضّلت خير أبٍ وابن

أغلب الظن أن شاعرًا يعيش من فتات قوافيه، لا يحتاج إلى أن يقول على علم، ولا أن يعرف من يعنى. والشعر كالناس، أو قد يكون أبعد منهم نظرًا، وأسرع إلى الفرص اهتبالا، وحاجة الزعماء إلى الشعر والشعراء كحاجتهم إلى تكتيب الكتائب وتجنيد الجنود، فكان لعلى شعراء، ولمعاوية شعراء، وللخوارج شعراء، ثم للزبيريين بعد ذلك شعراء، وأشهر شعراء الشيعة الكميت، ويبرز من شعراء معاوية الأخطل وجرير وابن جعيل، ويحمل لواء شعراء الخوارج عمران بن حطان، ويشيد بآل الزبير عبيد الله بن قيس الرقيات.

وإذا كان للشعر ميزان حرارة، فإن حرارة شعر الأحزاب تنحط وتتدلى كثيرًا إذا قورنت بشعر الصدام والكفاح والنار المتأججة بين شعراء النبى ﷺ وشعراء المشركين؛ ذلك لأن البون بعيد، بين من يقول عن إيمان لاصق بالقلب، أو للنفح عن شرف قديم ممتزج بالدم، ومن يقول لينتصر لمسلم على مسلم، إما لعقيدة واهية، وإما لأجر يناله لقاء ما يقول. فقد أستطيع أن أزعم وأنا مغمض العينين أن شعراء الحزب الأموى لم يرسلوا سهام أشعارهم عن رأى صح عندهم وزنه، أو وضح لديهم برهانه،

ولكنهم كانـوا فى جملتهم أبواقًا مأجورة تنعق هنـا وهناك، وجرائد صفـرًا يوجهها الخليفـة أو صاحب دعايته كما يشاء. وحسبك أن قائد كتيبتهـم كان الأخطل، وهو هـو الذى لا يعنيه من أمـر الخلافة الإسـلامية شىء إلا مـا تدره عليـه من لبن وعسل. أمـا شعراء الشيعـة فكانـوا مخلصين فى غضبهم وبكائهم، ولكن قلوب بعضهم كانت تضعف أمام سيطرة الأموى، وترجف فرقًا من سيفه المسلول. فإذا قالوا نظروا قبـل أن يقولوا يمنة ويسرة، وإذا انزلـق بهم اللسان مـرة أو مرتين باتوا بليلة الملسوع، وأعدوا العدة للفرار. وإذا صح ما نسـب إلى الكميت من رعبه من هشام بـن عبد الملك، وهربه من السجن بعد أن لبس ثياب زوجه، وتركها خلفه تـلاقى من شياطين السجن ما تلاقى، والتجائه إلى قبر معاوية بن هشام، واستنقاذ نفسه بمدح بنى أمية، ثم استمراره فى مدحهم إلى آخر أيامه، علمنا ما يفعل الخوف بالعقائد، وكيف تستل الغرائز شهامـة الرجال. يقولون: إنـه عمل بمذهب التقية، ولكننا لا نفهم كيف تستبـاح هذه التقية إلى آخـر أنفاس الحياة؟ وقـد حدث هذا بعينـه لعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر آل الزبير حين أهدر عبد الملك بن مروان دمه، فتنقل مختفيًا فى الأحياء والقبائل، حتى استعاذ ذليلا خانعًا بعبد الله بن جعفر، فسعى للعفو عنه، فلما ظفر بالعفو انطلق يهدر بمدح المروانيين كأنما أطلقت سيلا حبيسًا!

وكان الفرزدق شيعيًا، ولكنه كان لبقًا دوارًا، لا يتخذ من عقيدته حليـة يعرضها على الناس، ولا يجعل من مذهبه شـارة يلصقها بكم قميصه حتى يراهـا كل ناظر، وله شعر كثير فى مـدح بنى أمية، والقصيدة المنسوبة إليه فى مدح على بن الحسين موضوعة فى أغلب الظن.

وأريـد هنا أن أنبـه على حقيقـة يجب ألا يغفل عنها مـؤرخـو الأدب، تلك هى أنه كلما اشتـدت المنازعات الدينية أو السياسية كثر الوضع والانتحال، وقامت مصانع كل حزب تسبك شعرًا فى صور يصعب فيها كشف التـزييف والتزويـر، وأخذت تنسب إلى كل شاعـر من أى فريق شعـرًا يحاكى فيه أسلوبـه، وتبرز مميزاتـه، حتى لقد يخدع فيه بعض صيـارفة الكلام، فيـا أيها الأدباء خـذوا حذركم، وراجعـوا أنفسكم مرات كلما التقيتم بشعـر سياسى أو دينى، وادرسـوا البيئة، والنفـوس الإنسانيـة، وأساليب كل عصر، قبل أن تبتوا برأى أو أن تسرعوا بنفى أو إثبات.

أما شعـراء الخوارج، فقد زهدوا فى الـدنيا وزخرفهـا، وسخطوا على الحكم ورجالـه، وانصرفوا إلى عقيدتهم صحيحة أو فاسدة، يغذونها بأرواحهم ويذودون عنها بسيوفهم وألسنتهم. وسيرة عمران بن حطان رأس شعرائهم سيرة الفوضوى المجاهد الذى باع نفسه لمذهبه. والذى ينطبق عليه بيت المتنبى أصدق ما ينطبق:

تغـــرّبَ لا مستعظمًا غيرَ نفســـه ... ولا قـــابــلاً إلا لخالقـــه حكما

وشعـر قطرى بن الفجـاءة يصور الفـدائية والثقـة بالنفس والاستهـانة بـالموت فى أسلوب سـاذج رصين:

وضـــاربـةٍ خـدًّا كـريمًا على فتى — أغـرَّ نجيبِ الأمهــات كـريمِ
أُصيب بـدولاب ولم تـك مـوطنًـا — لـــه أرض دولاب وديـــر حميم
فلـو شهِـدتنـا يـومَ ذاك وخيلُنـا — تُبيح مـن الكفــار كـلَّ حـريـم
رأت فتيـةً بـاعـوا الإلـه نفـوسَهم — بجنـــات عـــدن عنـــده ونعيم

هكذا كانـت حال الأحزاب، وهكذا كانت حـال شعرائها، ولقـد قيل شعـر كثير فى نصرة كل حزب، ولكنه لم يكن شعرًا ملتهبًا متأججًا، حتى إنه لكثيرًا ما كان يفر من الحديث عن الحزبية البحتة إلى حديث المديح والهجاء. ولم تكن المعارضات فى هذا الشعر السياسى شديدة أو كثيرة؛ لفتور نفوس الشعراء، أو لأنهم كانـوا مشتتين فى الأقطار بين الشام والعـراق والحجاز، ولبعد الشقـة بينهم وعسر الاتصال لم تستطع أجنحة الشعر أن تطير خفاقة بين هذه الأقطار.

والذى وعيناه من معارضات الشعر السياسى ما ذكره المبرد من أن معاوية أرسل إلى على كتابًا كتب فى آخره أبياتًا لكعب بن جعيل هى :

أرى الشـامَ تكـره مُلْكَ العـراق — وأهلَ العـراق لـه كـارهينـا
وكـلاًّ لصـاحبـه مبغضًـا — يـرَى كلَّ مـا كـان فى ذاك دينـا
إذا مـا رمَـوْنـا رمينـاهمُ — ودنَّـاهُـم مثلَما يُقـرضـونـا
فقـالـوا علىّ إمـامٌ لنـا — فقلنـا رضينـا ابنَ هنـد رضينـا
وقـالـوا نـرَى أن تَـدينـوا لـه — فقلنـا ألا لا نـرى أن نَـدينـا
ومن دون ذلـك خـرطُ القتـاد — وضربٌ وطعنٌ يُفـرُّ العيـونـا

فكتب إليه علىّ جواب رسالته، ثم دعا النجاشى أحد بنى الحارث بن كعب، فقال له : إن ابن جعيل شاعر أهل الشام، وأنت شاعر أهل العراق، فأجب الرجل فقال : يـا أمير المؤمنين أسمعنى قوله، قال : إذن أسمعك شعر شاعر، فقال النجاشى يجيبه :

دَعـا يـا معاوىَ مـا لا يكـونـا — فقـد حقّق الله مـا تحذرونـا
أتـاكم علىٌّ بـأهل العـراق — وأهل الحجـاز فما تصنعـونـا ؟

لا نجد كثيرًا من المعارضات القويـة السياسية فى هذا العهد، ولكنا نجد نوعًا آخر طريفًا، ابتكره معاوية، وجرى الخلفاء بعده على أثره، فقد أحيوا العصبية بعد أن أخمد الإسلام نارها، وأرثوا العداوة بين الشعراء، وأثـاروا بينهم عاصفـة من التهاجى والإقـذاع، حتى يصرفـوا الناس عما أحـدثـوه من أحداث، وحتى يبعثوا روح الجاهلية الأولى، التى كان لهم فيهـا مجد عريق، وشرف ورياسة، وحتى يجدوا لأنفسهم فيما يتنابز به الشعراء ملهاة، كما يتسلى المترفون بمهارشة الديكة، ومناوشة الكلاب، وحتى يقفوا بينهم موقف المحكمين، ليرفعوا من تشاء السياسة رفعه.

وقد كثرت المعارضة الشعرية فى هذا النوع، وطمى سيلها، وهى التى نسميها بالمعارضة الهجائية، ولا يقصد بها إلا المباراة فى فنون الهجاء المقذع، والتباهى بمجد الجاهلية وأحسابها وأيامها، ونبش ما دفنه الإسلام من مثالب القبائل فى عهودها الأولى.

فقد ثارت حرب الهجاء ضروسًا طاحنة بين جرير والفرزدق والبعيث المجاشعى، وسبب ذلك أن ناسًا من يربوع يقال لهم بنو ذهيل سرقوا إبلا للبعيث فقال جرير قصيدة طويلة يهجو بها البعيث أولها:

طـاف الخيـال وأين منك لمامـا ... فـارجع لـزورك بـالسلام سـلامـا

فثار البعيث وعارضه بشعر مر الهجاء أوله:

أجـريـرُ أقصر لا تَحِنْ بك شِقْـوَةٌ ... إنّ الشقى تـرى لـه أعـلامـا

وكان الفرزدق فى ذلك الحين، قد قيد نفسه، وحلف أن لا يطلق قيده حتى يحفظ القرآن، ولكن هجاء جرير للبعيث أقض مضجعه، وأثار فيه نازعة النجدة ففك قيوده، وهب ينتصر للبعيث بقصيدة أولها:

ألا استهـزأت منى هُنَيْـدة أنْ رأت ... أسيرًا يـدانى خطـوَه حَلَقُ الحِجْل

وتبعه البعيث بأخرى يهجو جريرًا:

أهـاج عليك الشـوقَ أطـلالُ دمنـة ... بنـا صفـة الجوَّيْن أو جـانب الهَجْل

فانبرى لهما جرير بقصيدة مطلعها:

عـوجى علينـا واربعى ربـةَ البعل ... ولا تقتلينـى لا يحلُّ لكـم قتلى

فرماه الفرزدق بأخرى أولها:

ألا حىِّ رَهْبَى ثم حىِّ المطـاليـا ... فقـد كـان مأنـوسًا فأصبح خـاليـا

ويرى البـاحث فى هذه المعارضـات أو النقائض أنها ابتدأت ببحـر الكامل، ثم انتقلت إلى بحـر الطويل، والتزمت فيه قافية واحدة، حتى نقلها الفرزدق إلى قافية أخرى، وهو ضرب يعمد إليه المعتز بفنه فى المباراة للعبث بالخصم وإعجازه وتحديه.

وكان من أسباب اشتعـال المهاجاة، وتأجج المعـارضة بين الفـرزدق وجريـر ما رواه الـرواة من أن الأخطل فضل الفرزدق على جرير أمـام بشر بن مروان أمير الكوفة، وأرسل قصيدة طويلة يعلن فيها هذا التفضيل أولها:

بكـر العـواذل يبتـدون مـلامتى ... والعـالمون فكلُّهم يَلْحـانـى

وفيها يقول:

قَبّح الإلـــــه بنى كليب إنهم   لا يحفظـون محـــارم الجيــــران
تــاج الملــوك وفخــرهم فى دارم   أيـــامَ يـربــوع مع الــرُّعيـــان

فأسرع الفرزدق يعاضده فى هجاء جرير:

يــابن المراغــة والهجــاء إذا التقت   أعنـــــاقُـــــه وتماحـك الخصمان
يــابن المراغــة إنّ تغلــب وائــل   رفعــوا عَنــانى فــوق كل عَنــان

فصال عليهما جرير يقول :

لمن الــديــار ببُرْقـة الــرَّوْحـان   إذ لا نبيع زمـــاننـــا بـــزمـــان

وفيها يخاطب الأخطل :

أنسيتَ ويـلَ أبيك غــدرَ مجاشع   ومجرَّ جِعْثِنَ ليلــــة السِّيـــدان ؟
ونسيت أَعْيَنَ والــرِّبـابَ وجــاركم   ونَـوار حيث تصلصـل الحِجـلان !

يقـول للأخطل: أنسيت غـدر مجاشع ، وهى قبيلـة الفرزدق، بـالزبير بـن العوام حين استجـار بمجاشعي بعد وقعة الجمل، ثم يذكر بعد ذلك حادثة غريبة ، هى أن غالبًا أبـا الفرزدق جاور طلبة ابن قيس بالسيدان، وكانت جعثن أخت الفرزدق صديقة لظميـاء بنت طلبة تتحدث إليها كل ليلة ، وكـانت إذا أرادت لقـاءهـا صفقت لها بحجل لتجىء إليها، فـاشتهى الفرزدق أن يلتقى بظميـاء ، وحدث أن شغلت أخته ليلـة بأمر نفسها، فأخذ حجلهـا وحركه فجاءت ظميـاء كعادتها، فارتابت بالفرزدق وصاحت، وعادت إلى رحلها، فلما علم فتيان الحى من أهلهـا أسرعوا فأخـرجوا جعثن من خبائها، ثم سحبوها ليشهروا بها .

وكـان من ضروب إثارة المنـافسـة والمعـارضـة بين الشعـراء ، مـارواه أهل الأدب من أن الفـرزدق والأخطل وجريرًا كـانوا فى حضرة عبد الملك بن مروان ، فأحضر بين يديه كيسًـا فيه خمسمائة دينار، ثم قال: ليقل كل منكم بيتًا فى مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس، فبدأ الفرزدق فقال :

أنـــا القَطِـرانُ والشعــراء جَــرْبَى   وفى القطــران للجــرْبَى شفـــاء

وقال الأخطل:

فـإن تـك زقَّ زاملــــــــةٍ فـإنـى   أنـــا الطـاعـــون ليس لـــه دواء

وقال جرير:

أنـــا الموت الــــذى آتـى عليكم   فليـس لهارب منـى نجـــــــــاء

فقال عبد الملك: لعمرى إن الموت يأتى على كل شىء ، وقضى له .

ويروون أن الفـرزدق قال فى هـذا المجلس : النوار طـالق إن لم أقل شعرًا لا يستطيع ابـن المراغة أن ينقضه أبدًا، ولا يجد فى الزيادة عليه مذهبًا ، فقال عبد الملك : ماهو؟ فقال :

فإنى أنــا الموت الــذى هــو واقع ... بنفسك فـانظـر كيف أنت مـزاولـه
ومــا أحــد يــاابن الأتــان بـوائل ... من الموت إن الموت لاشك نــائلــه

فأطرق جريـر ثم قال : أم حزرة طالق ثلاثًا إن لم أكن نقضته ورددت عليه، فقال عبد الملك : هات فقد والله طلق أحدكما لا محالة ، فقال :

أنا البدر يغشَى نورَ عينيك فالتمس ... بكفَّيك ياابن القَيْن هل أنت نائله ؟
أنا الـدهر يفنَى الموتُ والدهرُ خـالدٌ ... فجئنى بمثل الـدهـر شيئًا يطـاولـه

فقال عبد الملك : فَضَلك والله ياأبا فراس وطلق عليك .

تلك روايات تصدقُ أو لا تصدقُ ، ولكنها من ذخائر الأدب وطرائفه على أى حال، وحسبنا هذا القدر من المعارضـة الشعرية فى هذا العصر ، وسنتحدث عن المعـارضة فى العصر العبـاسى فى عدد يجىء إن شاء الله .

المعارضات في الشعر العربي (*)

٤ - العصر العباسي

وهذا عصر كل ما فيه جديد، فهو جديد فى اتجاهه العربى، جديد فى سياسته، جديد فى روحانيته وفلسفته، جديد فى مدنيته. أو قل هو جديد فى كل شىء، فإنك إذا وازنته بالعصر الأموى، وبخاصة الصدر الأول منه، رأيت حضارة جديدة، وأخلاقًا جديدة، وصنفًا من الناس جديدًا.

انتُزِعت الخلافة الإسلامية من براثن الأمويين بسيوف الفرس ورماحهم، فركن العباسيون إلى سياستهم، واتخذوا منهم وزراء وقوادًا، وفتحوا لهم أغلاق أسرارهم، فدخلوا إليها من كل باب. ولم ينس الفرس، أو طائفة منهم، أن العرب هم الذين ثلوا عروشهم، وأذلوا تاريخهم الحربى المجيد. ثم إنهم لم ينسوا ما مُنوا به من الاضطهاد فى عهد بنى أمية، لذلك ناصروا بنى العباس وعملوا جاهدين فى بطء وحذر أن يستلوا النفوذ والسلطان من أيديهم قليلاً قليلاً.

وقد نام العباسيون وهم فى سكرة الأمل، والتعطش إلى الملك، وشفاء أضغان قديمة أركدتها سماحة الإسلام فى صدورهم حينًا، عن هذا الخطر واستغشوا ثيابهم دون رؤية أشباحه وتهاويله. ولم يهمس فى أذنهم ذلك الخاطر الذى جال بصدر المتنبى بعد مائتين من السنين:

ومن يجعل الضِّرْغام بازًا لصيده ... تصيّده الضِّرْغام فيما تصيّدا

ولم يصيخوا إلى قول نصر بن سيار:

أبلغ ربيعة فى مروٍ وإخوتهم ... فليغضبوا قَبْلَ أن لاينفع الغضبُ
ولينصِبوا الحربَ إن القوم قد نصبوا ... حربًا يُحرِّق فى حافاتها الحطبُ

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثانى ص ٨٤٩ عام ١٩٤٥.

مـابـالكم تُلقِحـون الحربَ مُـذنكُمُ كأنّ أهل الحجـا عـن رأيكم عُـزُبُ
وتتركـــون عـــدوًّا قـــد أظلّكُمُ بها تـأشّـب ، لا ديـنٌ ولا حسـبُ
قِـدْمًا يـدينـون دينًـا ما سمعت بـه عن الـرسـول ولم تنـزل بـه الكتبُ
فمن يكن سـائلاً عـن أصل دينهم فـإن دينهُمُ أن تُقْتـل العـــربُ !

وتيقظ المنصور للأمر الداهم وتوهم أنه أدركه ، واهتز منه عرش الرشيد وظن أنه استأصله ، ولكن هيهات هيهات !

تغلغل الفرس فى الدولة العباسيـة فأصبحت فارسية إلا فى شعارها ، كسروية إلا فى رايتها ، وفتنوا الناس بمدنيّة الفرس ، وأدب الفرس ، وبالمال ينثر هنا وهنـاك ، فاجتذبوا القلوب ، وأذلوا أعنـاق الرجال ، وكانت لهم دولـة فى الدولة ، وملك فى الملك ، وجند وحاشية وشعـراء وعزّ وسلطان . وكان الخلفاء قد مدّوا لأنفسهم فى أسباب اللهو والعبث ، وسحروا بالمدنيّة الجديدة فاستناموا إلى اللذات ، وتفنّكوا فى النعيم ، وتركـوا لهم شؤون الـدولة ينقضـون فيها مـا يشاؤون ويبرمـون . واهتزت القصـور بالموسيقى والرقص والغناء ، وثملت مجالس الشراب بما فيهـا من عربـدة ومجون ، وكأن كـل شىء فى بغداد كان يردد قول أبى نواس :

إنمـــا العيش سمـــاعٌ ومُـــدام ونـــدامُ
فـإذا فـــاتـك هـــذا فعلى الــدنيــا الســلام !

وأصبح للقيان الملك والسلطان من دون الخليفة ، فسمعنا الرشيد يقول بما يزعم الرواة :

مَلكَ الثـلاث الآنســات عنـانى ونـــزلن من قلبى بكل مكـــانِ
مـــا لى تطيعنىَ البرّيـــة كلُّهـــا وأطيعهـنّ وهنّ فى عصيـــــانى
مـــا ذاك إلا أن سلطـــان الهوى ـ وبـه قوين ـ أعـزّ من سلطـانى

ثم سرت الفتن فى أحشاء الـدولة وأوصالها كلما أطفئت فتنـة تأججت أخرى . وكانت هذه الفتن تظهر أول الأمر فى صورة خلاف دينى أو مذهبى ، ولكنها لم تكن فى الحقيقة إلا محاولـة أجنبية لانتزاع الحكم من أيدى العرب . أما هؤلاء فكـانوا فى نشوة من الملك والسلطان غـافلين سادرين ، ولم تكن حياتهم اللاهية العابثـة الماجنة إلا نذير الفناء ، وطلائع البلاء . وهذه كارثـة الأمم العربية التى هيأت لابن خلدون أن يـؤلف من نكباتها المتلاحقة فلسفـة وكتابًا ، فإن الاستعصام بالأجنبى والاستقواء به مصيبة لازمت ممالك الإسلام منذ هذا العهد ، فكانت أمّ قيحها ومصدر بلائها ومعول انهيارها .

استعان بنو العباس بالفـرس ثم بالأتراك فدالت دولتهم وذهبت ريحهم ، وأصبح الخليفة العربى الهاشمى كما يقول الشاعر :

خليفـــــة فى قفـــــص بيـــــن وصيـــــف وبغـــا
يقـــول مـــا قـــالا لـــه كما تقـــــول البَبّغـــا

واستعان الفاطميـون بالأرمن أيام خلافة المستنصر بـالله فتمزق ملكهم بددًا، وجلب الصالح بن أيوب المماليك ليناصروه فقضوا على دولة الأيوبيين. أما الأندلس فلا تـزال العين تدمع من أجلها على ملك كان زينة الدنيا وحديث الدهور.

هكذا نشأت الدولة العباسية، وفى هذا الجو المائج بالخداع والدسائس والمدنية الخلابة ترعرعت، وفيها نشأ الشعر صورةً من حياتها، مشتقًا من أفئدة الناس وميولهم ونزواتهم، نشأ الشعر فيها ساخطًا على القديم، منددًا به، بعد أن بهرته حضارات الأمم المغلوبة، ولعبت بعقله تلك الإباحية التى نعم الناس فى ظلالها بكل مـا فى الحياة من متع وفتن وإغراء. فقد رأى الشعراء فى البساتين الضـاحكة ما أسخطهم على الصحراء العابسة، وفى القصور الشـامخة ما أنساهم الرسـوم والأطلال، وفى مجالس الخمر والقيـان ما بغّض إليهم ذكر هريـرة وبَوْزع، وفى ترجمة علـوم الأولين ما فتح عقـولهم لدنيـا من الثقافة جديدة. ووجدت الشعوبيـة فى الشعر ميدانًا فسيحًـا للنيل من العرب، والتهكم بهم والإزراء بمحامدهم، وتشويه مآثرهم، ولم يغضب الخلفاء لقومهم ولم يقفوا لصد هذا الاضطهاد الأدبى الذى يتخوّن مجدهم. أين هـذا من تعصب الأمويين للعـرب وإسكـات كل صوت يهمس بمجـد غير مجد العرب؟ فإن إسماعيل بن يسار ما كاد ينشد أمام هشام بن عبد الملك قوله:

إنى وجَـدِّك مـا عـودى بـذى خَـوَرٍ … عند الحِفاظ، ولا حـوضى بمهدوم
أصلى كـريم، ومجدى لا يُقاس بـه … إلى لسـان كحـدِّ السيف مسمـومِ
أحمى بـه مجد أقـوامٍ ذوى حسبٍ … من كلِّ قَـرْمٍ لتـاج الملك معمـومِ
مَنْ مثلُ كسرى وسـابورِ الملـوك معًا … والهُرْمُـزانِ لفَخْـرٍ أو لتعظيمِ؟!

حتى برقـت عينا هشام من الغضـب وقال: أعلىّ تفخـر؟ وإياى تنشـد قصيـدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غطوه فى الماء، فغطوه حتى كـادت نفسه تخرج. والحق أن ابن يسـار كان مـوغلاً فى الصفاقة وقلة الذوق، وكانت بلواه أنه لم يعـرف أن لكل مقام مقالاً، هكذا كانت الحال فى عهد بنى أمية. ولكنّ الشعر فى هذا العصر نال حريـة فوق ما كان يجب أن ينال، وكان أكثر الشعراء من الموالى الناقمين من العرب، وعلى رأسهم بشار وأبو نواس والخريمى، فأصبحنا نسمع بشارًا يقول:

نمت فى الكـرام بنى عـامـرٍ … فـروعى، وأصلى قـريشُ العجمْ!

ويقول:

من خُـراسـانَ وبيتى فى الـذُّرا … ولـدى المسعـاة فـرعى قـد سَمَقْ

وسمعنا منهم من يقول:

فلستُ بتـاركٍ إيـوانَ كسرى … لتُـوضح أو لحَوْمَلَ فـالـدَّخُـولِ
وضبٍّ فى الفـلا سـاعٍ وذئبٍ … بها يعـوى، وليثٍ وَسْطَ غِيـلِ

ومن يقول :

بنى هاشم عودوا إلى نَخَلاتكم ... فقد صار هذا التمر صاعًا بدرهم
فإن قلتمُ رهطُ النبىِّ محمدٍ ... فإنّ النصارى رهطُ عيسى بن مريمِ

أما المتوكلى، وهو من ندماء الخليفة المتوكل، فقد بلغ الغاية فى النفج :

أنا ابن الأكارم من نسل جَمْ ... وحائزُ إرث ملوك العجم(*)
فقل لبنى هاشم أجمعينَ ... هلُمّوا إلى الخلع قبل الندمْ
ملكناكُمُ عَنْوةً بالرما ... ح طعنًا وضربًا بسيف خَذِمْ
وأولاكم الملكَ آباؤنا ... فما إن وفيتم بشكر النعمْ
فعودوا إلى أرضكم بالحجازِ ... لأكل الضِّبابِ ورعى الغنمْ
فإنى سأعلو سرير الملوكِ ... بحدِّ الحسام وحرف القلمْ

وهذا المذهبُ الشعوبى إصبعٌ من أصابع الغزو الأجنبى البطىء المستور، فقد كان لأعداء العرب جماعة تشبه فى عصرنا الحاضر (وزارة الدعاية) وكانت النزعة الشعوبية أمضى أسلحتها، وأنفذ سهامها، فأطلقوها فى صور شتى من الشعر والتأليف والقصص الدالة على بلاهة العرب وجهلهم، ثم دسوا سمومهم فى التفسير والحديث.

تمرد الشعراء فى هذا العصر على القديم، وسخِر كثير منهم من الشعر الجاهلى، وتندروا بأغراضه، وهزؤوا بنؤيه وأطلاله. وفى الحق إن معظم الشعر نحا فى هذا العصر منحىً غربيًا، ولم يكن عربيًا إلا فى ألفاظه وأسلوبه، أما فنونه التصويرية فكانت بدعًا جديدًا. لذلك لم يكن ليظن، وقد وصل الشعراء إلى قمة هذا الترف الفنىّ، وبلغوا هذه المنزلة من الاعتداد بأنفسهم، والزراية على من سواهم، أن تحدث أحدًا منهم نفسه بمعارضة الشعر الجاهلى أو الأموى، لأن المعارضة لا تكون إلا فى إحدى حالين : الرغبة فى تحدى القوى، أو الفلَج على الخصم فى الجدال الدينى أو السياسى. أما فى الأولى فقد عرفنا نظرتهم إلى الشعر والشعراء قبلهم، وأما فى الثانية فإن استقرار صخرة الإسلام وانتهاء الأمر إلى بنى العباس جملة لم يترك إلا حزبية ضئيلة. وإذا كان بالدولة أضغاث من نصراء الأموية أو العلوية فإن الخوف وقلة النصير لم يدع لهم إلا صوتًا خافتًا.

والمعارضات إنما تزدهر وتكثر بين عواصف الخلاف العنيف، ولم يكن فى صدر هذه الدولة شىء مما يثير المعارضة إلا ذلك الصراع القومى بين العرب والفرس، وكان فى أكثره شعرًا يتساقط من أحد الجانبين من غير أن يُلتزَم فيه اتحاد البحر والقافية، وكان يسلك أحيانًا سبيل المعارضة المعروفة، كما جرى بين عبد الله بن طاهر (من الفرس) ومحمد بن يزيد (من العرب). قال عبد الله بن طاهر يتغنى بمآثر أهله ويفخر بقتلهم الأمين العباسى :

(*) جم : جمشيد ملك الفرس.

أقصرى عما لهِجْتِ بــــــه ففــــؤادى عنكِ مشغـــولُ
أنــا من تــدريـن مــا نسبى سلفـى الغـــرُّ البهـــاليـلُ
وأبـى مـن لا كِفـــاءَ لــــه من يســاوى مجده ؟ قـولــوا !

فعارضه محمد بن يزيد بقوله :

لا يَـــرُعْـكَ القـــالُ والقيـلُ كـل مــــا بُلِّغْـتَ تضليـلُ
يــاابن بيتِ النــار ، مـوقـدُهـا مــــا لحاذَيْــه سراويـل(*)
مَنْ حسينٌ ؟ من أبـــوك ؟ ومـن مُصْعبٌ ؟ غـــالتكُمُ غُـــول !

وهذا شعر ضعيف خائر لم يتفجر عن روية شعرية حاذقة .

وقد أثار الخلاف فى أحقية بنى العباس بالخلافة دون بنى علىّ شيئًا مـن الشعر الجدلى ، وقامت حول ذلك معارضة بين الشعراء ، وكـان من أكبر دعاة العباسيين مروان بن أبى حفصة ، فقد قال قصيدة يمدح بها المهدى حينما عقد البيعة لابنه الهادى جاء فيها :

يــابن الــذى ورث النبىّ محمـدًا دون الأقـارب مـن ذوى الأرحـامِ
الــوحىُ بين بنى البنـات وبينكم قطع الخصـامَ فـلاتَ حينَ خصـامِ
مـا للنسـاء مع الـرجـال فـريضـةٌ نـزلت بـذلك سـورة الأنعـامِ
خلُّــوا الطـريق لمعشرٍ عـاداتهُم حَطْمُ المنــاكب كلَّ يــوم زحـامِ
ارضَــوا بما قسم الإلـــهُ لكم بـــه ودعــوا وراثـة كلِّ أصيـدَ حـامى
أنّى يكـــون وليس ذاك بكــائن لبنـى البنـــات وراثـــةُ الأعمامِ

وحنق شيعة أبناء فاطمة من هذه القصيدة ، وكان أشد ما غاظهم منها قوله :

أنّى يكـــون وليس ذاك بكــائن لبنـى البنـــات وراثـــةُ الأعمامِ

روى صاحب الأغانى : أن صالح بن عطية لما سمع منه هـذا البيت عاهد الله أن يغتاله ، فلم يزل يلاطفه حتى أنس به ، ثم مرض مروان بالحمى ، فخلا البيت يومًـا به وبصالح ، فوثب عليه صالح حتى أخذ بحلقه ، فما فارقه حتى مات . وتابع ابنَ أبى حفصة الطاهرُ بن على العباسىّ فقال :

لـو كـان جـدُّكُـم هنـاك وجـدُّنـا فتنـازعـا فيـه لـوقت خصـامِ
كـان التراث لجدِّنـا مـن دونــه فحـواه بـالقُـربَى وبـالإسـلامِ
حقُّ البنــات فـريضـةٌ معلـومـةٌ والعـمُّ أوْلى مــن بنـى الأعمامِ

وهبَّ الشعراء يعارضون هذا الشعر بشعر كثير ، منه ما قاله محمد بن يحيى التغلبى :

(*) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين .

لِمَ لا يكـــون ، وإنّ ذاك لكـــائن لبنى البنــات وراثــة الأعمـــامِ
للبنت نصفٌ كــامل من مـــالــه والعـمُّ متروكٌ بغيــــر سهـــامِ
مـــا للطليـــق وللتــراثِ وإنمـــا صلّى الطليـــق مخافة الصَّمْصـامِ

ويشير فى البيت الأخير إلى أن العباس بن عبد المطلب كان مع المشركين يوم بدر، ثم أسر فافتدى نفسه. والمسألة كلها مغالطة سافرة، ومناظرة اختلف فيها اتجاه النظر. فالعباسيون يرون أن ابن العم، وهو على بن أبى طالب، لا يرث النبى مع وجود عمه العباس، والعلـويون لا يحتجون بعلى وإنما ينظرون إلى فاطمة الزهراء وإلى ولديها الحسن والحسين، ويرون أن البنت فى الميراث أقرب من العم.

وقد استمرت هذه الحجة بيد العباسيين يلوحـون بها كلما حدّثت علويًّا نفسه بالخلافة، حتى جاء عبد الله بن المعتز فشد من أواصرها وقوى من أركانها بقصيدته الرائعة الغاضبة التى يقول فيها:

ونحـن ورِثْنـــا ثيـــابَ النبىِّ فَلِمْ تجذبـــون بـأهـــدابها ؟
لكـم رَحِمٌ يـــابنـى بنتــــهِ ولكـن بنــــو العم أولى بها

ثم يقول:

قتلنـــا أميـــة فى دارهـــا ونحـن أحق بـأســـلابها
إذا مـــا دنــوتـم تلقَّيْتُمُ زَبــونًـــا أمَـرَّت بجــلاّبها

ومازالت هذه القصيدة تجتاب السنين بلا معارض، حتى جـاء صفى الدين الحلى فسألـه نقيب نقباء الأشراف ببغداد أن يعارضها فقال:

ألا قُـل لشرِّ عبيـــد الإلـــهِ وطـــاغى قـــريش وكـذّابها
وبـــاغى العنـاد وبــاغى الفسـادِ وهـــاجى الكـــرام ومغتـــابها
أأنـت تفـــاخـــر آل النبىِّ وتجحـدهـــا فضل أحســابها ؟
أعنكـم نفى الـــرجس أم عنهـم لطُهْـــرِ النفـوس وإلبــابها ؟(*)
وقلتَ « ورِثْنـــا ثيـــابَ النبىّ فَلِمْ تجذبـــون بـأهـــدابها »
وعنـــدك لا تـــورث الأنبيـــاءُ فكيـف حظيتـم بـأثـــوابها ؟

ثم كان من أسباب المعارضة فى صدر هذا العصر أن يهجو شاعـر عظيمًا فيعارضه أحد الشعراء المنتمين إلى ذلك العظيم، ونحن نوجز هنـا مارواه صاحب « الكامل » فى شأن عبـد الله بن محمد بن أبى عيينة وإسماعيل بن جعفر. قال: كان ابن أبى عيينـة بين الرؤساء الذين أخـذوا البصرة للمأمون من المخلوع، وكان معـاضدًا لذى اليمينين طـاهر بن الحسين فى حـروبه، وكان إسماعيل بـن جعفر

(*) إلبابها: إخلاصها.

جليل القدر مطاعًا وكانت الحال بينه وبين ابن أبى عيينة ألطف حال، فوصله ابن أبى عيينة بطاهر فولاه البصرة، وولى ابن أبى عيينة اليمامة والبحرين وغوص البحر، فلما رجعا إلى البصرة تنكر إسماعيل لابن أبى عيينة، فاشتعلت بينهما نار البغضاء، ثم عُزل ابن أبى عيينة فأخذ يهجو إسماعيل ويسأل طاهرًا عزله، ولكنه كان يدافعه ويضن بالرجل. وفى ذلك يقول لطاهر:

مـــالى رأيتك تـــدنى كـل منتكثٍ ... إذا تغيب، ملتـــاثٍ إذا حضرا
إذا تنسم ريح الغـدر قـــابلهـا ... حتى إذا نفخت فى أنفـه غـدرا

ويتطير ابن أبى عيينة لإسماعيل بالعزل والأسر حين يقول:

لا تعـدَمِ العـزل يـا أبـا الحسن ... ولا هُـــزالاً فى دولـــة السِّمَـن
ولا انتقـــالاً من دار عـــافيـــة ... إلى ديـــار البـــلاء والفتـن
ولا خـروجًا إلى القفـار من الـ ... أرض، وتـرك الأحبـاب والـوطن
كم رَوْحـــةٍ فيـك لى مهجَّـــرةٍ ... ودُلْجـــةٍ فى بقيّـــة الـــوَسَن

وقد وقع لإسماعيل ما تطير له به، إذ حمل إلى دار الخلافة معزولا مقيدًا ومعه ابناه فى ذل ومهانة. وفى ذلك يقول ابن أبى عيينة:

مَـــرَّ إسماعيـل وابنـــا ... ه معًـــا فى الأَسَـــرَاءِ
جـالسًـا فى مَحْمِلٍ ضَنْـــ ... ـكٍ علـى غـير وطـاءِ
يتغَنى القيـــدُ فى رجـــ ... ـليه ألـوانَ الغِنـــاءِ
بـــاكيًـا لا رقأت عيـــ ... ـناه من طـول البكـاءِ

وقد عارض قصيدة ابن أبى عيينة النونية عمرو بن زَعبل مولى بنى مازن فقال أبياتًا كلها فحش صيغ فى صور من الأحاجى منها:

إنى أحـاجيك ما حنيفٌ على الـ ... ـفطرة بـاع الـرَّبـاحَ بـالغبنِ
يـاذا اليمينين اضرب عـلاوتـه ... يُـدْفعْ ومـانى فى النـار فى قَـرَنِ

قال المبرد. وكان «مانى» رأسًا من رؤوس الزنادقة.

ويرد إبراهيم السواق على عمرو بن زعبل مدافعًا عن ابن أبى عيينة بقصيدة منها:

قـد قيـل مـا قيل فى أبـى حسن ... فـانتحـروا فى تطـاول الـزمن

ولابن أبى عيينة قصائد رائعة فى معاتبة ذى اليمينين، يدعونا جمالها الفنى إلى الخروج عن جادة الموضوع قليلاً، فإن شعرًا مثل هذا لا يصح أن يمر به الأديب مرًا. وأروع هذه القصائد قوله:

أيـــا ذا اليمينين إنّ العتـــا ب يُغرى صدورًا ويشفى صـدورًا
وكنتُ أرى أنّ تـــرك العتـــا ب خيرٌ وأجــــدرُ أن لا يُضيرا
إلى أن ظننتُ بأن قـــد ظننـــــــــــتَ أنّى لنفســـىَ أرضَى الحقـــيرا
فأضمـــرتِ النفسُ فى وَهْمِهـــا مـــن الهمِّ همًا يكُـــدُّ الضميرا
ولا بـــدَّ للماءِ فى مِـــرْجلٍ على النـــار مُـــوقَـــدةً أن يفـــورا
ومـن أشْربَ اليأسَ كــان الغنِىَّ ومن أشْرب الحرصَ كـــان الفقيرا

وكثر فى هـذا العصر تحدى الشعراء أو اختبـار صدق بـديهتهم بمطالبتهم بإجـازة بعض الشعر، وهذا ضرب من المعارضة قد نـدعوه « معارضة البدائه ». من ذلك ماروَوْا من أن الرشيـد كان ليلة بين سماره فغناه بعض المغنين قول جرير :

إنّ الـذيـن غَـدَوْا بلبّك غـادروا وَشَـلاً بعينـكَ لا يـزال مَعينـا

فطرب الرشيد وقال لجلسائه ـ وكان بين يديه بدرة ـ إن هذه البدرة لمن يجيز منكم هذا البيت. فلما لم يصنعوا شيئًا قال خـادم كان على رأسه : أنا لها ياأمير المؤمنين، فقال له : شأنك. فاحتمل البدرة وأسرع إلى دار الناطفى، فاستأذن منه على عنان، فلما أخبرها الخبر قالت : ويحك اكتب :

هيجتَ بـالقـول الـذى قـد قُلتـه داءً بقلبى مــا يـــزال كمينـــا
قــد أينعـت ثمـراتـــه فى طينهـا وسُقِين من مــاء الهوى فـرَوِينـا
كـذب الـذين تَقوَّلـوا يــا سيـدى إنّ القلـوبَ إذا هـويْـن هَـوِينـا

فسر الرشيد، وكان ذلك سبب شرائه عنان.

ومن ذلك مارواه بكر بن حماد، قال : دخلت دار الناطفى، فقال لجاريته عنان : هذا بكر شاعر باهلة، يريد مجالستك، فقالت : لا والله إنـى كسلى، فحمل عليهـا بالسـوط ثم قـال لى : ادخل، فدخلت ودمعها يتحدر، فقلت :

هـــذى عِنـــانٌ أسبلـتْ دمْعهـــا كـــالـــدرِّ إذ يَنْسَلُّ من خيطـــهِ

ثم قلت : أجيزى، فقالت :

فَلَيْـتَ مـن يضربها ظـــــــالمًا تجفُّ كفـــاه على سَـــوطـــهِ

ثم قلت لها : إنى وجدت بيتًا على ظهر كتاب لى لم أقدر على إجازته، فقالت : قل، فأنشدتها :

فما زال يشكـو الحبَّ حتـى حَسِبتُـه تنفّس فى أحشـــــــائه فتكلّما

فأطرقت ثم قالت :

ويبكـى فـأبكى رحمةً لبكـــــائه إذا مـا بكـى دمعًا بكيت لــه دمـا

ومن ذلك ما رواه صاحب بدائع البدائه نرويه موجزًا، قال: قال دعبل الخزاعي: بينما أنا بباب الكرخ إذ أنا بفتاة تسمى قرة، معروفة بظرف وجمال وشعر وأدب وغناء، فتعرضت لها وقلت:

دمـــوعُ عيني لها انبســاطٌ ... ونـــومُ عيني بـــه انقبــاضُ

فقالت:

وذا قليــل لمن دهتـــــه ... بسحـــرهـــا الأعينُ المِراضُ

فقلت:

فهل لنـــا منك عطفُ قلبٍ ... أو للـــذي في الحشـــا انقــراضُ ؟
إن كنت تبغي الــوصـــال منــا ... فـــالــوصل في ديننــا قِــراضُ

قال دعبل: فنقلتها من تلك القافية وقلت:

أتُــرى الـــزمـــان يسرُّنــا بتــلاقِ ... ويضمُّ مشتـــاقًــا إلى مشتـــاق ؟

فقالت:

مـــا للـــزمـــان تقـــول فيـــه وإنما ... أنت الـــزمـــان فسُـــرَّنا بتـــلاقِ

وهنا نقف القلم، ولنا عودة إن شاء الله نذكر فيها ما جدّ في أخريات هذا العصر من معارضات.

المعارضات في الشعر العربي (*)

٥ - عصر التراجع العباسي

يزعم بعض مؤرخي الأدب أن اللغة والفنون تجرى فى ذيل الدولة، وتتابعها فى ميزان القدر، وتشاركها فيما قسم لها من رفعة وضعة، ومن قوة وضعف، فإذا قويت الدولة وعظمت شوكتها واشتد ساعد سلطانها، ازدهرت اللغة فى مادتها وأسلوبها وطرائق دلالتها، وكثرة الناطقين بها، والواردين على شريعتها، والمعتزين بشرف الانتماء إليها من قومها كانوا أو من غير قومها. وربما كان من لم يصله بها نسبه أشد غيرة عليها وأكثر بحثًا عن روائعها وإذاعة لمفاخرها. وقد يكون من أسباب ذلك أن اللصيق حين ضعف باللغة سببه، أراد أن يقوى الصلة بأدبه. فإن الإحساس بالنقص كثيرًا ما يحفز إلى الكمال. وقد يكون من الأسباب تلك النزعة التى تدعى اليوم بمركب النقص.

ونظرة فى تاريخ لغتنا الشريفة توحى بأن الغلبة الكاثرة من الباحثين فيها، المحققين لنصوصها، المشيدين بفرائدها، كانوا من الموالى والدخلاء على أمة العرب. وحسبك أن إمام اللغة فى عصره كان أبا عبيدة معمر بن المثنى، وأصله من يهود فارس، وأن ابن المقفع كان زعيم البيان، وأن بشار بن برد كان حامل لواء الشعراء، وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون.

ومن أظرف ما يحضرنى ونحن نتكلم فى مركب النقص ما كان من أمر شهاب الدين بن الصيفى الشاعر، وكان فارسى النبعة ينتمى إلى تميم، فإنه كان يغرق فى التشبه بالعرب، ويتخير فى حديثه أغرب الغريب الذى لا يكاد يفهم، ويتزيا بزىِّ العرب القحاح، فلا يرى إلا متقلدًا سيفًا أو متنكبًا رمحًا، كل ذلك لأنه يحس أنه ليس منهم ويريد أن يراه الناس منهم. ولكن أبا القاسم بن القطان الشاعر البغدادى كشف عن حيلته وفضح خبيئته حين قال:

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٤٠٤ عام ١٩٤٦.

كم تُبـــارِى وكم تطـوّل طُـــرطـــو　　　　رَكَ ! مــــا فيـك شَعْـــرَةٌ مــن تميم
فكُلِ الضبَّ واقــرِض الحنظلَ ليـــا　　　　بسَ واشرب إن شئت بـــولَ الظليم
ليسَ ذا وجـهَ من يُضيف ولا يُقْـــــــــــــ　　　　ــــــرى ولا يـدفع الأذَى عن حـريم

ويقول ابن خلدون: إن الأمم المغلوبة مولعة دائمًا بمحاكاة الغالب ؛ ولأمر ما تنتشر بعض اللغات الأجنبية الآن فى أنحاء الأرض ؛ لأن اللغة تتبع الراية وتساير الأساطيل.

ومن العجيب أن العربية قويت واشتد ساعدها فى مدى العصر العباسى كله، وأن اللغة لم تبال، والأدب لم يأبـه لما أصاب الدولـة من تدهـور سياسى مفجـع فى القرن الرابـع الهجرى، حينما انحلت أواصر ذلك الملك البعيد السلطان، وانقسم إلى دويلات فى الشرق والغرب، وتمزق ميراث المسلمين بين فرس وترك وديلم.

وتفــرّقـــوا شيَعًـــا فكلُّ قبيلـــة　　　　فيهـــــــــا أميرُ المؤمنين ومِنبَر

أجل ! لم تسقط اللغة، ولم يسقط الأدب عند سقوط الدولة، على الرغم من نظرية مؤرخى الأدب التى أشرنا إليهـا فى صدر هذا المقـال ؛ والسبب فى أنها لم تسقط أن الأعاجم الذين قـذفت بهم أمواج الفتوح إلى شاطـئ العربية، والـذين توثبـوا بعـد ذلك إلى الملك، لم تكن لهم لغـة جديـرة بالإحيـاء والإنعاش، ولأنهم كانوا يعدون الشعر والأدب أكبر وسيلة للـدعاية لدولهم الناشئة، ولأنهم كان لهم تمكن فى الأدب ومشاركة فى فنونه. فقد كان بين ملوك آل بويه وغيرهم من ملوك الأوطان الطارئة أدباء وشعراء. وقد نترقى فى الحكم فندعى أن الشعر والأدب كانا فى القرن الرابع أقوى منهما فى صدر الدولة العباسية، ونزعم أن الشعـر تم نضجه وبلغ أشده واستـوى على سوقه فى هـذا القرن، بعد أن هضم الثقافات الأجنبية، وبعد أن نشأت فى المدنية الجديدة من رجاله أجيال. وإن عصرًا يزهى بابن الرومى وأبى تمام والبحترى والمتنبى والشريف والمعرى لعصر جدير بالزهو والاختيال.

أحسَّ الشعراء فى هـذه الملاوة بقوتهم، واعتزوا بفنهم، فلم يتطلعـوا إلى معارضـة من سبقهم من المجيدين، إلا ما نلتمح من ومضات هنا وهناك بين الحين والحين. فأغلب الظن أن بائية أبى تمام التى أولها:

لهن عـوادى يـوسف وصــواحبــه　　　　فمهـلاً فقـدمًا أدرك النجح طـالبـه

إنما هى معارضة لبائية بشار التى يصف فيها الجيش بقوله:

وجيش كجنح الليل يزحَف بالحَصى　　　　وبـالشوك والخطِّئ حُـمْـرٌ ثعالبُـه
مشينـا لـه والشمـس فى خِـدْرِ أمِّهـا　　　　تطـالعنـا والطلُّ لم يَـجْـرِ ذائبـه

كما أنه مما لا يقبل الشك أن القسطلىّ كان فى رائيته يعارض رائية أبى نواس التى أولها:

أجـــارةَ بيتيْنـــا أبـــوكِ غيـــورُ　　　　وميسـورُ مـــا يـرجَى لـديك عسير

ولا يتسع فراغنا الآن لتشمم قصائد هذا العصر واستخراج ما ينظر منها إلى معارضة ما سبقها من قصائد، فلنترك من ذلك بابًا مفتوحًا لبحث الباحثين.

وقد جدّ فى هذا العصر نوع من المعارضة جديد هو معارضة التلميذ أستاذه، ليبلو نفسه فى السير على جادته، ومقاربة خطوه، كما كانت الحال بين مهيار وأستاذه الشريف، فإن نفس مهيار كانت تدفع به أحيانًا إلى الجرى مع الشريف فى طَلَق، وإلى ترسم مذهبه القرشى الصميم. ويمكن أن تسمى هذه المعارضة بالمعارضة الترسمية.

وإنى لأجد ريح المعارضة فى بائية أبى فراس لقصيدة المتنبى التى قالها سنة تسع وأربعين وثلاثمائة والتى أولها:

منًى كنّ لى أن الشبابَ خِضابُ ... فيخفى بتبييض القرونِ شبابُ

وقد بعث أبو فراس ببائيته من الأسر إلى سيف الدولة بعد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة وأولها:

أما لجميل عندكنّ ثواب ... ولا لمسىء عندكنّ متاب؟

وبهذه القصيدة أبيات يقرب لفظها وبعض معانيها قليلا أو كثيرًا من قصيدة المتنبى مثل قوله:

وقد صار هذا الناسُ إلا أقلَّهم ... ذئابًا على أجسادهنَّ ثياب

وقوله:

إلى الله أشكو أننا بمنازلٍ ... تَحَكَّمُ فى آسادهنَّ كلاب

وقوله:

ومازلتُ أرضى بالقليل محبةً ... لديه، وما دون الكثير حجاب
كذاك الودادُ المحضُ لا يُرْتَجَى له ... ثوابٌ ولا يُخْشَى عليه عقاب

وقوله:

فكيف وفيما بيننا مُلْكُ قيصرٍ ... وللبحر حولى زَخْرَةٌ وعُباب

أما قوله:

إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكلُّ هينٌ ... وكل الذى فوق التراب تراب

فهو بعينه بيت المتنبى:

إذا نلت منك الودَّ فالمال هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

ويبرز فى هذا العصر ضرب من المعارضة عنيف يصح أن ندعوه بمعارضة التحدى. وأظهر ما يطالعنا من هذا النوع ما حدث بين بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى. وكان البديع شابًا أشرًا أطغته العبقرية، وأبطره النبوغ، فما ترك لأديب أديمًا صحيحًا، وما علم بكاتب نال منزلة من الشهرة

إلا تعرض له والسوط فى يده يضرب به دراكًا. وكان فتى دانت له اللغة، وذل شموسها، فتصرف فيها كما يتصرف الطفل العابث المدلل بلعبه وأهواته.

وقصته مع الخوارزمى مشهورة طويلة الذيول، فقد ورد نيسابور وأبو بكر بها فى ذلك الحين العلم المفرد، والفارس المجلى، فكتب إليه البديع يتطلب زيارته فلم يحسن أبو بكر لقاءه، فرماه البديع بوابل من العتاب المر والكلم الممض، ثم دعاه متحديًا للمساجلة فى الشعر وسرعة البديهة فى مجلس يجمع كبار رجال الأدب، فحضر أبو بكر مرغمًا، ثم انطلقا فى المصاولة فى أبواب من الشعر والنثر واللغة، كان فيها الغلب للبديع. ويكفينا أن ننقل من هذه المبادهة طرفًا قصيرًا يتبين منه القارئ ما كان يتسلط عليها من روح خبيث، وحقد متأجج، قال البديع:

« واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبى الطيب المتنبى:

أرق على أرق ومثلى يأرق ... وجوًى يزيدُ وعَبْرة تترقرق

وابتدر أبو بكر إلى الإجازة فقال:

وإذا ابتدهتُ بديهةً ياسيِّدى ... فأراك عند بديهتى تتقلَّق
وإذا قرضتُ الشعر فى مَيْدانه ... لاشك أنك يا أخى تتشقَّق
إنى إذا قلت البديهة قلتُها ... عَجِلاً وطبعُك عند طبعى يرفُق
مالى أراك ولست مثلى عندها ... متَموِّهًا بالتُّرهات تمخرق ؟

ثم وقف يعتذر ويقول: إن هذا كما يجىء لا كما يجب. فقلت: قبل الله عذرك، لكنى أراك بين قواف مكروهة، وقافات خشنة، كل قاف كجبل قاف، منها: تتقلق وتتشقق وتمخرق. فخذ الآن جزاءً عن قرضك، وأداءً لفرضك، وقلت:

مهلاً أبا بكر فزندُك أضيق ... فاخرَس، فإن أخاك حىٌّ يرزق
وانظر لأشنِع ما أقول وأدّعى ... ألِـهُ إلى أعراضكم متسلِّق ؟
ياأحمقًا! وكفاك ذلك خِزْيةً ... جرَّبتَ نار مُعَرِّق هل تُحرِق ؟

فلما أصابه حر الكلام، قطع علينا فقال: « يا أحمقا » لا يجوز فإن « أحمق » لا ينصرف. فقلنا: ياهذا لا تقطع، فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب، فليس بظرف ظرف. ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلاً إليك. وأما « أحمق » فلايزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه! ».

وهكذا ينطلقان فى سباب وإقذاع بشعر ردىء وأدب وبىء. ولم يدعنا إلى ذكر نبذ من هذه القصة إلا شهرتها، ولما لها من صلة بهذا الحديث.

ومن المعارضة أن يُعرض على الشاعر بيت أو أبيات ليقول من بحرها ورويها. وقد كثر هذا النوع فى هذا العصر واتخذه الأمراء ذريعة لاستجداء المديح حينما يبطىء عليهم الشعراء.

رووا أن الصاحب بن عبّاد لما حصل فى وقعة جرجان على الفيل الذى كان بعسكر خراسان أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه على وزن قصيدة عمرو بن معديكرب التى أولها :

أعـــددتُ للحَـدَثـــان ســـا ... بغـــةً وعــــــدّاءً عَلَنْـــدَى

فقال عبد الصمد بن بابك :

قسمًا لقـــــد نشر الحيـــــا ... بمنـــــاكب العلَمينِ بُـــرْدا

وقال أبو الحسن الجوهرى :

قل للـــوزيـــر وقـــد تبـدَّى ... يستعـــرض الكـــرمَ المُعَـــدّا

وقال أبو محمد الخازن :

حـــازوا سعــودَ ديـــار سُعْـــدَى ... ورعَـــوْا جنـــابَ العيـش رغـــدا

وكان سيف الدولـة كلما ماطله المتنبى وتلكأ فى مديحه أرسل إليـه أبياتًا ليجيزهـا تصيدًا للمديح . بعث إليه مرة بأبيات لسهل بن محمد الكاتب منها :

يـــالائمى كـفَّ الملام عن الـــذى ... أضنـاه طـولُ سقـامـه وشقـائه

إن كنتَ نـاصحَـه فـداوِ سَقـامـه ... وأعنـــه ملتمسًـــا لأمـــر شفـــائه

فأجاب المتنبى بقصيدة أولها :

القلبُ أعلـمُ يـــاعـــذولُ بـــدائه ... وأحـقُّ منـك بجفنـــــــه وبمائه

ولكن المتنبى اللئيم أضاع اثنى عشر بيتًا فى الغزل ، وتصدق على ممدوحـه بستة أبيات ليس غير، لذلك استزاده سيف الدولة ، فكان من أروع ما قال فى المديح :

إن كـــان قـــد ملك القلـــوبَ فإنـــه ... ملك الـــزمـــــان بأرضـــه وسمائه

الشمسُ من حسَّـــاده ، والنصر من ... قـــرنـــائه ، والسيـف من أسمائه

وأرسل له مرة ببيتين للعباس بن الأحنف، وطلب إليه أن يجيزهما وهما :

أمنّى تخافُ انتشـــار الحديث ... وحظـــىَ فى ستـــره أوفـــر ؟

ولـــو لم أصُنْـــه لبُقْيـــا عليك ... نظـــرتُ لنفسى كما تنظـــر

فقال أبو الطيب :

رضـــاك رضـــاى الـــذى أوثـــر ... وسرُّك سرى فما أظهـــــــر ؟

كفتـك المروءة مـــــا تتقى ... وآمنك الـــوُدُّ مـــا تحـــذَر

وسركُـمُ فى الحشـــــا ميّت ... إذا نُشـــر الســـرُّ لا يُنْشـــر

كـــأنـى عصـــت مقلتـى فيكُـمُ ... وكـــاتمت القلبَ مـــا تُبصـــر

وإفشـاء مـا أنـا مستـودَعٌ　　　من الغـدر ، والحـر لا يغـدِر
دواليـك يـاسيفَهـا دولـةً　　　وأمـرَك ياخيـرَ من يأمـر
أتـانـى رسـولك مستعجـلاً　　　فلبّـاه شعـرى الـذى أذخَـر
ولـو كـان يـومَ وغًـى قـائمًا　　　للبّـاه سيفـىَ والأشقـر
فـلا غفل الـدهـر عن أهلـه　　　فإنـك عيـنٌ بهـا ينظـر

وكأنى بسيف الدولة يتحرق غيظًا لأنه لم ينل من شاعره الضنين كل ما كان يريد من المديح .

ومن ضروب المعارضة فى هذا العصر أن يدعو الأمير الشعراء إلى القول فى موضوع بذاته وتسمى هذه بالمعارضة الموضوعية ، ولا يشترط فيها اتحاد البحر والقافية .

مات بِرْذَوْن كان أهداه الصاحب بن عباد إلى أبى عيسى المنجم ، فأوعز إلى ندمائه وشعراء حضرته أن يرثوه ويعزوا أبا عيسى فيه . فقال أبو القاسم الزعفرانى قصيدة طويلة أولها :

كن مـدى الـدهـر فى حِمًى النعماء　　　مستهينًـا بحـادث الأرزاء

وبدأ عبد العزيز الجرجانى قصيدته بقوله :

جلَّ واللهِ مـا دهـاك وعـزّا　　　فعـزاءً إنَّ الكـريـم مُعـزَّى

وقال أبو القاسم بن أبى العلاء قصيدة أولها :

عـزاءً وإن كـان المصـاب جَليـلا　　　وصبرًا وإن لم يُغْـن عنك فتيـلا

وزاد ما قيل فى هذا البرذون العزيز على عشر قصائد ، كلها من جيد الشعر ورائعه .

ومن المعارضات التى نبتت ثم كثرت فى هذا العهد التراسل بالشعر؛ بأن يبعث الشاعر إلى صديق له أبياتًا فيجيبه عنها بأبيات من بحرها وقافيتها .

كتب أبو إسحق الصابئ إلى أبى الحسن النقيب الموسوى يشكـو زمانه ، وأنه أصبح يحمل فى محفة فى قصيدة طويلة منها :

إذا مـا تعـدَّت بـى وسـارت مِحَفّـةٌ　　　لها أرجـل يسعَى بها رَجُـلان
ومـا كنت مـن فُـرسـانها غير أنها　　　وفت لى مـا خـانت بىَ القـدمـان

فأجابه أبو الحسن بقصيدة أولها :

ظمائى إلى من لـو أراد سقـانى　　　ودَيْنى على من لـو يشاء قضـانى

ومنهـا :

إذا أقعـدتك النـائبـاتُ فطـالما　　　سرَى مُـوقَـرًا من فضلك المَلَـوان
وإن هـدمت منك الخطوبُ بمرِّهـا　　　فَثَمّ لسـانٌ للمنـاقب بـان
مـآثـر تبقى مـا رأى الشمسَ نـاظـر　　　ومـا سمعـت من سـامـع أذنـان

ويجدر بنا بعد أن ألممنا بصنوف المعارضة فى هذا العصر ألا نغفل ضربًا خفيًا قد يسمى بالمعارضة التشهية، وهو أن يتبع الشاعر سبيل من سبقه فى معالجه غرض من أغراض الشعر ليفوقه فيه، ويفلج عليه، ولا يشترط فى هذا النوع أيضًا اتحاد البحر والقافية. ومن ذلك ما ساقه الموصلى فى «المثل السائر» من توارد البحترى وأبى الطيب المتنبى على وصف الأسد فى قصيدة البحترى التى أولها:

أجــدّك مــا ينفك يسرى لــزينبــا ... خيـــالٌ إذا آب الظــلام تــأوّبــا

وقصيدة المتنبى التى أولها :

فى الخدّ إن عـــزم الخليـطُ رحيـــلا ... مطــرٌ تـــزيـــد بـــه الخدودُ مُحولا

ومن أعجب العجب ما زعمـه هذا الموصلى من أن البحترى جـرى فى وصف الأسد على سنن بشر ابن عوانة، وأنه استرق كثيرًا من معانيه فى قصيدته التى أولها:

أفــاطمُ لــو شهــدتِ ببطن خَبْتٍ ... وقــد لاقى الهزبـــرُ أخـــاك بشرًا

وهذه قاصمة الظهر، وعوراء الأبد، فقد ظن الموصلى أن بشر بن عوانة شاعر جاهلى، ولم يكن فى الواقع إلا شاعرًا خياليا خلقه بديع الزمان فى مقامته البشرية. والقصيدة كلها من كلام البديع، وبديع الزمان نفسه هذا الذى استرق معانى البحترى وبعض ألفاظه.

ولنا إن شاء الله عودة نتناول فيها المعارضات فيما تلا من عصور.

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

١ - تدليل الشعر والشعراء

اتسع صـدر النـاس للشعـر، ونظـروا إليه نظـرتهم إلى الطفل المدلـل، فابتسمـوا لـه كلما أسـاء، واستهـانوا بـوخزه وإن أدمى، وضحكـوا مع الضـاحكين إذا تندر بهم أو جعل منهم سخـرية للهـو والفكاهة. وكأنما كانت محاباة الفنون ومجاملتها غريزة من غرائز الفطرة، فقد اجتمعت الأمم عامة على غض الطرف عن الشاعر، وإرخاء العنان له، وترك فنـه يهيم به حيث شاء فى أودية الخيال والتصوير، دون أن يقف فى طريقه حائل؛ لأن الشعر يخلق لهم دنيا جديدة يستريحون فى ظلالها كلما قست عليهم رمضاء الحياة، ويفتح لهم من الخيال أبوابًا كلما سـدت فى وجوههم أبواب الحياة، ويصور لهم أحلامًا ضاحكة كلما عبست لهم حقائق الحياة، فهم يحرصـون دائمًا على أن يرف الشعر طليقًا فى جوه الروحى العجيب، دون أن تنتـزع من جنـاحـه ريشة تعـوقـه عن الطيران، أو ينصب لـه فخ يسكت صـوتـه الصـداح، ويقضى على تلك النغمات الفردوسيـة التى هى نفحة من عـالم الروح، وصلـة بين الأرض والسماء.

وكأن كل نفس تحس بهاجس يحوم حولها ويهمس: ماذا نعمل لو عشنا يومًا واحدًا من غير شعر؟ إن هذه الحياة بأرزائها وثقيل أغلالها لا تحتمل لحظة واحـدة، ولابد من الفرار منها بشىء يحط عنا هذه الأرزاء، ويفك هاتيك الأغلال. أليس الأمل شعرًا؟ أليس الأمل بارقًا وضاء يلمع فى حواشى سحب الحياة القاتمة؟ أليس الأمل صيحة شعـرية تذود عنا ذئاب الفكر القاتلة، وصـولة الحقائق الجامدة؟ أليس الأمل اليد السحرية التى تمسح عناء المكدود، وتجفف دمعة الحزين؟ الأمل شعر والشعر أمل،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثانى ص ٥٢٧ عام ١٩٤٦.

وهما مصباحا الحياة إذا انطفأ عاش الكون فى ظلمة دامسة. إن الطفل الباكى يهدأ للترنيم، والبائس الشاكى يستريح للغناء، والإبل الناصبة تنسى نصبها بالحداء.

وكان الشعر حبيبًا إلى قلوب النساء، على شرط أن يصف بحق أو بغير حق ما لهن من رشاقة وجمال. فما رأت فتاة عربية من بأس فى أن يكشف شعر عن محاسنها فى القبائل، أو يصور شاعر حولها قصة خيالية لم تطل برأسها إلى الوجود. ولو أن حديثًا غير الشعر خاض فى هذه المجالات لاشتعلت الفتنة وسلت سيوف من أغمادها. وأخبار تعرض حسان مكة لعمر بن أبى ربيعة فى أيام الحج، لكى يقول فيهن شيئًا، سائرة مشهورة ليس الحديث فيها إلا معادًا. ولو صدق ابن أبى ربيعة حين يقول:

قالت لها أختها تعاتبها لتُفسِدِنّ الطوافَ فى عمر
قومى تصَدّىْ له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أختِ فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرَّت تشدُّ فى أثرى

ولو صدق فى هذا لعددنا غانيات مكة أبرع فى الإغراء وألعب بألباب الرجال من فاتنات العصر الحديث!

ودللت اللغة العربية نفسُها الشعر، فأجازت فيه ما لم تجزه فى غيره: أجازت فيه مد المقصور وقصر الممدود، وتنوين ما لا ينصرف، ومنع صرف ما ينصرف، وتسكين المتحرك من الأبنية، وتحريك الساكن، إلى غير ذلك من منادح الشعراء.

ودلل الملوك الشعر، فأباحوا للشاعر وحده أن يخاطبهم مخاطبة الند، وأن يناديهم بأسمائهم عارية من ألقاب التمجيد والتعظيم، وأن يجرؤ عليهم بالنقد والخوض فى شئون الدولة صراحة وجهارة؛ واستساغوا من الشاعر صورًا لا يستسيغونها من الناثر، ولم يجدوا فى أنفسهم حرجًا من أن يستمعوا إلى شاعر غزل يتجاوز حد الغزل العفيف، أو شاعر يقذف بألفاظ يتوارى منها وجه الحياء، أو شاعر معربد يصف الخمر ومجلسها ونشوتها، ثم يقول للخليفة بعد أن لعبت برأسه سورتها:

خرجتُ أجرُّ الذيلَ تيهًا كأننى عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

وقد جرؤ النابغة الذبيانى على وصف المتجردة وصفًا يندى له جبين الأدب، ولم يبال بها للنعمان بن المنذر ملك العرب من حول وصول. وهجا كعب بن زهير رسول الله ﷺ فغضب وأهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة، ولكنه حينما جاء معتذرًا متوسلا بالشعر عفا عنه وخلع عليه بردته. وقد كان شىء من غزل كعب فى قصيدته غزلا مكشوفًا سافرًا، فهو يقول فى وصف حبيبته:

هيفاء مقبلةً، عجزاءُ مدبرةً لا يُشتكَى قصرٌ منها ولا طولُ

ولكنه كان يتحصن بامتياز الفن فلم يتجه إليه ملام.

وحبس ابن الخطاب ـ وكان صارمًا فى الحق ـ الحطيئة . بعد أن ولغ فى أعراض المسلمين، غير أنه لم يلبث أن أطلقه حينما بعث إليه بأبيات من الشعر هزت أريحيته وأطفأت نار غضبه .

ولمعاوية ـ حليم العرب وأكبر ساستها ـ الكثير من الأخبار فى هذه البابة . قالوا : إن عقبة الأزدى بعث إليه يومًا برقعة كان فيها :

معـــاوىُ إننـــا بشرٌ فأسجح ... فلسنــا بــالجبــال ولا الحديــد
نـــزلتم أرضنـــا فجـــردتموهـــا ... فهل مـن قـائمٍ أو من حصيـــد ؟
فهبنـــا أمـــةً هلكت ضيـــاعًـــا ... يـــزيـــدُ أميرهـــا وأبـــو يـــزيـــد

فدعا به معاوية وقال له : ما جرأك علىَّ؟ قال : نصحتك إذ غشوك، وصدقتك إذ كذبوك . فأطرق معاوية طويلا ثم قال : ما أظنك إلا صادقًا . ثم قضى له حاجته . وروى الرواة أن عبـد الرحمن بن حسان كان يتغزل فى عاتكة بنت معاوية، وقال فيها قصيدته النونية التى ذاعت فى الآفاق والتى أولها :

صـــاحِ حيّـــا الإلـــهُ أهـــلاً ودارًا ... عنـــد أصل القنـــاة من جَيْرون

فدخل يزيد على معـاوية مغضبًا وهو يقول : أما سمعت قـول عبد الـرحمن بن حسان فى ابنتك؟ قال : وما الذى قال؟ قال : إنه يقول :

وهى زهـــراءُ مثل لـــؤلـــؤة الغـــوَّ ... اص مِيـــزَتْ من جـــوهـــر مكنـــون

فقال معاوية : صدق . فقال يزيد : ويقول :

وإذا مـــا نسبتهـــا لم تجدهـــا ... فى سنـــــاء من المكـــــارم دون

فقال معاوية : صدق أيضًا . فقال يزيد : ويقول :

ثم خـاصرتُها إلى القبـةِ الخضـــــــــــــــــراء تمشى فى مَرْمَـرٍ مسنـون

فلم يزد معاوية على أن قال : كذب . وانتهى الأمر عند هذه الكلمة !

وروى الرواة أن إبراهيم بن المهدى حينما سقطت عنـه الخلافة واستخفى من المأمون، هجاه دعبل الخزاعى، فدخل إبراهيم على المأمون فشكا إليه حاله وقال : يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه فضلك فى نفسك علىَّ، وألهمك الرأفة والعفو عنى، والنسب بيننـا واحد، وقـد هجانى دعبل فـانتقم لى منه . فقال المأمون وماذا قال؟ لعلك تقصد قوله :

نعـــر ابن شَكْلَـةَ بـــالعـراق وأهلِـــه ... فهفـــا إليـــه كـلُّ أطلسَ مـــائقِ
إن كـــان إبـــراهيم مضطلعـــا بها ... فلتصلُحَنْ مـن بعـــده لمُخـــارق
أنَّى يكـــون وليس ذاك بكـــائن ... يـرث الخلافـةَ فـاسقٌ عن فـاسق !

فقال : هذا من بعض هجـائه، وقد هجانى بما هو أقبح من هذا . فقـال المأمون : لك أسوة بى، فقد هجانى واحتملته حين قال فى :

أيسومنى المأمونُ خُطةَ جاهل — أوَ ما رأى بالأمس رأسَ محمد؟
إنى من القوم الذين سيوفُهم — قتلت أخاك وشرّفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله — واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال إبراهيم : زادك الله حلمًا يا أمير المؤمنين !

ودعبل هذا شاعر هجاء بذيء اللسان مولع بالحط من أقدار الناس ، وقد هجا الخلفاء فمن دونهم ، وطال عمره ؛ وكان يقول : لى خمسون سنة أحمل خشبتى على كتفى ، أدور بها على من يصلبنى عليها ، فما أجد من يفعل . ودعبل فى هذه الدعوى كاذب نفاج ، فإنه كان شديد الخوف والحذر ممن يهجوهم ، وكان لا يجد له منجاة منهم إلا بالفرار فى أقطار الأرض ، فإنه لما هجا المعتصم طلبه فى كل مكان ، ففر منه إلى مصر ونزل بأسوان وقال :

وإنّ امرأً أضحت مطارحُ سهمه — بأسْوانَ لم يترك من الحزم مَعْلَما
حللتُ محلاً يقصُر الطرفُ دونه — ويعجِزُ عنه الطيفُ أن يتجشّما

وهذا المعنى من أروع المعانى وأبدعها .

واشتهر المتنبى بالتيه على ممدوحيه ، والإدلال عليهم ، ومخاطبتهم مخاطبة النظير ، والتهجم فى شعره على ما لا يحسن الحديث فيه . فقد هدد سيف الدولة بالرحيل عنه تلويحًا فى قوله :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك — ولا تعطينّ الناسَ ما أنا قائل

ثم تصريحًا فى قوله :

لئن تركن ضُميرًا عن ميامننا — ليَحْدُثَنّ لمن ودّعتهم ندمُ

ثم تدلل عليه تدلل الأخ على أخيه فى آخر بيت من هذه القصيدة :

هذا عتابُك إلاّ أنه مِقَةٌ — قد ضُمِّن الدُّرَّ إلاّ أنه كلم

لو أن شاعرًا كتب إلى صديق له يعاتبه ما تجاوز ما كتب به المتنبى إلى سيف الدولة وقد بعث إليه كتابًا يدعوه إلى حلب :

وما عاقنى غيرُ قول الوشاةِ — وإنّ الوشايات طُرْقُ الكذب
وتكثيرُ قوم وتقليلُهم — وتقريبُهم بيننا والخَبَب
وقد كان ينصرهم سمعُه — وينصرنى قلبُه والحسب

ولم أر شاعرًا قبله يرثى أم ملك فيقول :

صلاةُ اللهِ خالقِنا حَنوطٌ — على الوجه المكفّن بالجمال

أو أخت ملك فيقول :

يعلمن حين تحيّا حسنَ مبسمها وليس يعلم إلاّ اللهُ بالشنب

وانتهى تدلل المتنبى واعتزازه بشعره بعد أن بلغ منزلة من الشهرة إلى أنه كان يأبى أن يمدح غير الأمراء، حتى إنه لم يقبل أن يمدح أبا القاسم طاهرًا العلوى إلا بعد رجاء الأمير الحسن بن طغج وطول إلحاحه. ويتحدث أبو على الكاتب فيقول: كنت حاضرًا هذا المجلس فما رأيت ولا سمعت فى خبر أن شاعرًا جلس المدوح بين يديه مستمعًا لمدحه غير أبى الطيب، فإنى رأيت طاهرًا تلقاه وأجلسه فى مجلسه وجلس بين يديه وهو ينشد قصيدته التى أولها:

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب وردّوا رقادى فهو لحظُ الحبائب

والكلام فى المتنبى من هذه الناحية يطول بما لا تحتمله هذه العجالة.

وحينما زج الشعر بنفسه فى ميدان السياسة فسد كما يفسد كل شىء، واتخذه الخلفاء والملوك ذريعة لإعلاء شأنهم ونكاية أعدائهم، حتى أصبح عدة الدول وجيشًا يساير جيوشها، وأداة لإذاعة مآثرها، وبوقًا للدعاية لها، وجمع القلوب حولها. وقد غالى كثير من الملوك فى دفع هذه الدعاية إلى أبعد مداها، فتملقوا الشعراء واستجدوا مديحهم، وأغروهم بالمال والمناصب، وتجاوزوا عن آثامهم.

فشاعر القصر فى عهد عبد الملك بن مروان كان الأخطل. وكان المنصور العباسى على صرامته وتشدده فى الدين يُغضى عن عربدة ابن هرمة وإدمانه، حتى إنه وقد أراد أن يبرئ نفسه أمام نفسه من تغاضيه عن مجاهرة الشاعر بشرب الخمر، أمر رئيس شرطته أن يقيم حد الخمر على ابن هرمة إذا جىء به إليه سكران، على شرط أن يضرب الذى يحضره مائة جلدة. فكان ابن هرمة يترنح فى طرق بغداد فلا يتقدم أحد لأخذه إلى رئيس الشرطة، وكان يصيح متحديًا والخمر تعبث بلسانه: أيها المسلمون: من منكم يشترى ثمانين بمائة!

وتأخر أبو دلامة الشاعر أيامًا عن باب المنصور، فلما حضر أمر بإلزامه القصر وإلزامه الصلاة فى مسجده، ووكل به من يراقبه، فمر به يومًا أبو أيوب وزير المنصور فإذا أبو دلامة يدفع إليه برقعة مختومة ويقول: هذه ظلامة لأمير المؤمنين فأوصلها إليه فلما فتحها المنصور قرأ فيها:

ألم تعلموا أن الخليفة لزّنى بمسجده والقصرِ ما لى وللقصر؟
أُصلّى به الأولى مع العصر دائمًا فويلى من الأولى وويلى من العصر!
ووالله ما لى نية فى صلاتهم ولا البر والإحسان والخير من أمرى
وما ضرّه والله يُصلح شأنه لو انّ ذنوبَ العالمين على ظهرى!؟

فضحك المنصور طويلاً ثم أحضره وقال: ما قصتك؟ قال: دفعت إلى أبى أيوب رقعة مختومة أسأل فيها إعفائى من لزوم ما أمرتنى بلزومه. فقال له المنصور: اقرأها. قال: ما أحسن أن أقرأ. وقد علم أنه إن قرأها حده الخليفة حد تارك الصلاة. فلما رآه تنصل من ذلك قال: أحببت لو كنت أقررت

لأضربك الحد. ثم قال: أعفيتك من لزوم المسجد، فقال أبو دلامة: أو كنت ضاربى يا أمير المؤمنين لو أقررت؟ قال: نعم. قال: مع قول الله عـز وجل: ﴿ يقولون مـا لا يفعلون ﴾ [الشعراء: ٢٢٦] فضحك المنصور ووصله.

والقصة كما هى موضوعـة ظاهرة الوضع، ولكنها تصور حقيقة لا نزاع فيهـا هى أن الملوك كـانوا يصانعون الشعراء ويجاملونهم مجاملة لا يظفر بمثلها سواهم.

وقد بلغ من استظهـار بنى العباس بالشعـر واتخاذه قوة متممة لملكهم أن أبـا العتاهية الشـاعر فى إحدى لحظات نسكـه طاف به طائف مـن الزهد، فعقد العـزيمة على أن لا يقـول الشعر. فلما علم الخليفة المهدى بما اعتزمه أمر بحبسه، فحبس فى سجن الجرائم مع حاضر صـاحب عيسى بن زيد. فلما طال حبسه أحضرهما المهدى، فسأل صاحب عيسى: أين عيسى بن زيد؟ فقال: ما يدرينى أين عيسى بن زيد؟ تطلبته فهرب منك فى البلاد، وحبستنى فمن أين لى أن أقف على خبره؟ قال له: أين كان متواريًـا؟ ومتى كان آخر عهدك به؟ وعنـد من لقيته؟ قال: ما لقيته منذ توارى، ولا عرفت له خبرًا. قال: والله لتدلن عليه أو لأضربن عنقك الساعة. قال: اصنع ما بدا لك، فوالله ما أدلك على ابن رسول الله، وألقى الله تعالى ورسوله بدمه! ولـو كان بين ثوبى وجلدى ما كشفت لك عنه. قال: اضربوا عنقه، فضربت عنقه وأبو العتاهية واقف يرتعد فرقًا، فلما دعى قال له المهدى: أتقول الشعر أم ألحقك به؟ قال: بل أقول الشعر والله ياأمير المؤمنين!!

وكـان كبار الشعـراء فى الأنـدلس يحددون للقصيدة ثمنًـا لا يحظى بها ملك بأقل منـه: حكوا أن المعتمد بن عبـاد ألح على أبى على العبدرى أن يمـدحه. فما كان مـن العبدرى إلا أن أجـابه فى كبر واعتزاز قائلاً: إن أشعارى مشهـورة، وبنات صدرى كـريمة، فمن أراد أن ينـالها فعليـه أن يعـرف مهرها. وكانت جائزة قصيدته لا تقل عن مائة دينار.

وبلغ من إعزاز ملـوك الطوائف للشعراء أنهم كانوا يتجـاوزون عن هجائهم، ويقابلون سلاطتهم بالإعطاء والإغداق. كان النحلى الشاعر من صنائع المعتصم بن معن بن صمادح، فلما سار إلى إشبيلية مدح المعتضد بن عباد بقصيدة قال فيها:

أبـــاد ابـن عبّـــاد البربـــرا وأفنى ابـن معنٍ دَجـــاج القـــرى

ثـم مر زمن نسى فيـه النحلى ما قال، وذهب إلى ألمرية حـاضرة ملك المعتصم، فدعاه إلى منادمته وأعد للعشاء موائد ليس فيها إلا الدجاج، فقال النحلى: يامولانا، أما عندكم بألمريـة غير الدجاج؟ فقال المعتصم: إنما أردنا أن نكذبك فى قـولك: «وأفنى ابن معن دجاج القرى» فإن الـدجاج لا يزال عندنا والحمد لله كثيرًا، فطار لب النحلى وطفق يعتذر ويعتذر، ولكن المعتصم أسرع إلى تهدئة روعـه ووصله بأكرم صلة.

قلنا : إن الشعر فسد لأنه زج نفسه فى ميدان السياسة ، فاندفع الشعراء فى هذا الميدان ، وزهاهم أن يتزاحم الأمراء على أبوابهم ، ولم يعلموا أن السياسة سلاح ذو حدين ، وأن الأمراء الذين يبسمون لهم اليوم قد يعبسون غدًا ، وأن الفن إذا بيع بالمال ودفع به فى سوق المساومات ارتفع حينًا وكسد أحيانًا ، وأن الشاعر الذى يبيع نفسه لسواه يدخل فى رقه ، ويتعرض حينًا لرضاه وحينًا لسخطه ، وأن الذى يجعل من نفسه وضميره وفنه أداة لإعلاء قوم والحط من آخرين لا يفتأ إن وجد الحياة وطيبها عند هؤلاء ، أن يجد الموت وأهواله عند أولئك .

وذلك ما سنبسط الكلام فيه فى حديث آخر إن شاء الله .

الذين قتلتهم أشعارهم (*)

٢ ـ ابن العشرين

أتخيل طرفة بن العبد شابا ريان الشباب، ناضر العود، عربى الوجه والسمات متين البناء فارعًا. وأتخيله وقد أرسل شعره جثلاً أثيثًا، فانساب خلف عنقه خصلاً سودًا كأنها قطع الليل البهيم. ويصوره لى الوهم وقد أطبق أجفانه فى وجوم وذهول، كأنه ينظر إلى عالم آخر فيه استهواء وإغراء وفتنة، وفيه حياة هانئة بين ظل وماء ونسيم رفاف وجنة ونعيم، حتى إذا فتح عينيه أرسلهما سابحتين فى مضطرب من الخيال تجاوز به حدود الصحراء وانطلق محلقًا فى السماء.

وكلما ذكرت هذا الشاعر أو مر بى طائف من سيرته، تجلت لى العبقرية الوثابة، وقد ضاقت بها ساحة العمر، وضنت عليها الحياة بالبقاء، فأخذت تملأ بآثارها أرجاء الحياة، وتتحدى حصار السنين. فترسل من خلال قضبانها آيات بينات تزاحم الخلود، وتصارع الآباد. قال ابن العبد كثيرًا، وأنتج كثيرًا، وكأنه أحس بأن العمر لن يتنفس له طويلاً فعاجل الموت، ونطق بالشعر صبيا. فقد قيل إنه خرج يومًا مع عمه وهو صغير فنصب فخا لصيد الطير، فلما هم بالرحيل رفع الفخ وقال:

يـــــالك مـن قبرة بمعمـــــر   خـلا لك الجو فبيضى واصفـرى
ونقــــرى مـــا شئت أن تنقـــرى   قـــــد رفع الفخ فماذا تحذرى ؟
لابـد يومًا أن تصـادى فاحـذرى!

وكأن الرواة أرادوا أن يكرموه بعد موته، أو عز عليهم أن تقطع الطريق على هذه العبقرية قبل اكتمالها فانتحلوا له كثيرًا من الشعر؛ ولكن الأديب البصير بمعادن الكلام يستطيع أن يشم ريح طرفة فى كل بيت يعرض عليه.

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٧٠٠ عام ١٩٤٦.

نشأ طرفة فى أسرة كريمة الحسب من ذؤابة بكر بن وائل، ومات أبوه صغيرًا فكفلته أمه «وردة»؛ ولمحت فيه عشيرته مخايل النبوغ فدللته، وبذلت له المال فى سخاء وإغداق. ورأت أمه فيه كثيرًا من صفات أبيه وسجاياه فشغفت به حبا، وبذلت له كل رغبة وأغضت عن كل هفوة، حتى نشأ طفلاً بطرًا متحكمًا، يقول ما يشاء ويفعل مايريد. وترك اليتم فى نفسه عقدة نفسية دفعته إلى السخط على العظماء والأغنياء، والثورة على نظم الحياة وأساليبها، والعطف على الصعاليك و « بنى غبراء ». وزادت تلك العقدة إحكامًا حينما منع أعمامه أمه من مال أبيه ؛ فقال وهو طفل :

ما تنظرون بحق « وردة » فيكم ... صغر البنون ورهط « وردة » غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيرة ... حتى تظلّ له الدماء تصبب
أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم ... إن الكريم إذا يحرب يغضب

وكانت شاعرية طرفة صدًى لنوازع قوية تسيطر على نفسه، وسيلا هدارًا لأربعة ينابيع تصطخب فى فؤاده : كان يتحكم فيه حب الحياة، والميل إلى التمتع بكل ما فيها من لذائذ وعبث، كأن إحساسًا روحيا أوحى إليه بأن حياته ستتكون قصيرة الأمد، فأخذ يتملأ من كل ما فيها من متع طولا وعرضًا وعمقًا، ويسرح فى تيهاء اللهو بين شباب القبيلة المترفين بعد أن أعدوا للمجون عدته من فراغ وشباب وجدة، حتى إذا جارت به الطريق، وأسرف فى العبث خلعه بعض أهله. فهو يقول فى معلقته :

ومازال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد
ألا أيهاذا الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويقول فيها :

نداماى بيض كالنجوم وقينة ... تروح إلينا بين برد ومجسد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروفة لم تشدد

وكان إذا صحا من نشواته، وأفاق من صباباته، اتجه إلى ينبوع آخر فوار هو ينبوع العقل والحكمة والتفكير فى شؤون الكون وصروفه، فقد كان على حداثته خبيرًا بالحياة، عليما بأسرار النفوس. فهو يقول :

وأعلم علمًا ليس بالظن أنه ... إذا ذل مولى المرء فهو ذليل
وأن لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة ، على عوراته لدليل

ويقول :

خالط الناس بخلق واسع ... لا تكن كلبًا على الناس يهر

ويقول :

وعين الفتـــى تنبـــى بها فى ضميره ... وتعـــرفـه بـــاللحظ حين تنـاطقــه

ومن كـابـد الـدنيـا فقـد زاد همه ... ومن عف واستغنى رأى مـا يـوافقـه

إذا المرء لم يبـــذل من الـــودِّ مثلما ... بـذلت لـه ، فـاعلـم بأنى مفـارقـه

أما الينبوع الثالث فهو الزهو بنفسه، والإعجاب بمواهبه. فإنك ترى شعره فى هذه الناحية صورة صادقة لفتى غض الإهاب، كريم المنبت، لماع العبقرية، عرف قدر نفسه فحتم على الناس أن يزنوها بميزانه، وأن ينظروا إليهـا بعينه. وزهـاه أنه ولم يبلغ العشرين أصبح فى القبيلـة فتـاها المدلل وصـوتها المجلل.

وأنمى إلى مجد تليـــد وســـورة ... تكـون تــراثًـا عنــد حى لهالك

أبى أنـــزل الجبـــارَ عـــاملُ رمحه ... عن السرج حتى خـر بين السنـابك

ويقول فى معلقته :

فإن تبغنى فى حلقـــة القـــوم تلقنى ... وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطـــد

وإن يلتق الحى الجميـع تـــلاقنى ... إلى ذروة البيت الشريـف المصمـــد

ويقول :

نحن فى المشتـــاة نـــدعـــو الجفلى ... لا تـــرى الآدب فينـــا ينتقـــر

ولقـــد تعلـم بكـــر أننـــا ... آفـــة الجزر مســـاميح يسر

ولكن ينبوعًا رابعًا كان أشـد الينابيع غليانًا، وأطغاها طغيانًا، ذلك هـو الحقـد على كل عظيم، والثورة على كل نحام لئيم. وكأن طرفة كان يميل إلى ضرب من الاشتراكية ينال فيه الفقراء من الأغنياء ما يرد عنهم ألم الحاجة فهو يقول:

فلو شـاء ربى كنت قيس بن خـالد ... ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد !

ولم يمدح طرفة فيما نعلم إلا سعد بن مالك وقتادة بن سلمة، لأنهما كانا جوادين يبذلان أموالهما فى السنين العجاف. ولكنـه هجا غير قليل مـن سادة القبـائل، ورشق كثيرًا من أبنـاء عمـومته بـالكلم الممض. هجا ابن عمه عبد عمرو بن بشر، وكان من خاصة الملك عمرو بن هند، فقال:

أيـا عجبـا من عبـــد عمـرو وظلمـه ... لقـــد رام ظلمى عبـد عمـــرو فأنعما

ولا خير فيــــه غير أن لــــه غنى ... وأن لـــه كشحًـــا إذا قـــام أهضما

لــه شربتـــان بـــالنهـــار ، وأربع ... من الليل ، حتى صار سخدًا مورما

وهجا الملك عمرو بن هند أقذع الهجاء بأبيات منها:

فليت لنـــا مكـــان الملـــك عمـــرو ... رغـــوثـــا حـــول قبتنـــا تخـــور

وهجا بنى المنذر عامة فأفحش وأساء.

وقد كان هذا الهجاء سبب قتله، وهو فى سن العشرين، أو فوقها قليلاً، وقد خلط الرواة فى قصة مقتل طرفة واضطربوا، وحاولوا أن يحسنوا الوضع فلم يحسنوا. زعموا أن طرفة بن العبد قدم مع خاله المتلمس إلى عمرو بن هند لمديحه واستجداء صلته، فجعلهما فى حاشية أخيه قابوس، وكان قابوس شابًا ماجنًا كثير اللهو، يقضى يومه بين الصيد والشراب، وكان يكلف طرفة والمتلمس الوقوف على بابه إذا جلس للخمر، فضاق طرفة بالأمر، ولم يحتمل هذه الذلة فهجا عمرًا وقابوسًا بالقصيدة التى منها:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تخور

وبعد أن أقاما قليلا رحلا عن الحيرة، ومر زمن نُسى فيه ما كان من هجائهما لعمرو، واتفق أن خرج ابن هند مع بعض حاشيته للصيد وبينهم عبد عمرو بن بشر ابن عم طرفة فأصابوا طريدة فاشتووها، وبينما كان عبد عمرو يأكل إذ بدا كشحه فقال له ابن هند: لقد أبصر طرفة حسن كشحك حين قال:

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما

فغضب عبد عمرو وقال: لقد قال فى الملك ما هو أقبح وأشنع، وأسمعه القصيدة التى هجاه بها فسكت عمرو وأسرها فى نفسه، وانتوى أن يأخذ طرفة على غرة، وكان المتلمس قد هجا الملك قبل ذلك. ومرت فترة من الزمن قدم بعدها طرفة والمتلمس على ابن هند لالتماس صلته، فكتب لكل منهما كتابًا ليوصله إلى عامله بالبحرين وقال لهما: انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما. فخرجا فلما وردا «النجف» قال المتلمس لطرفة: إنك غلام غر، والملك من عرفت حقده وغدره، وكلانا قد هجاه، فلست آمناً أن يكون قد أمر فينا بشر، فهلم ننظر ما فى كتابينا، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه، وإن كان أمر بغير ذلك لم نهلك أنفسنا. فأبى طرفة أن يفض خاتم الملك، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة فأعطاه الصحيفة فقرأها وصاح: ثكلت المتلمس أمه! فعلم المتلمس ما فيها، وانتزع الصحيفة من الغلام وألقاها فى نهر الحيرة وقال لطرفة: إن ما فى صحيفتك مثل الذى فى صحيفتى فلنعجل بالفرار. فقال طرفة: إن كان اجترأ عليك فما كان ليجترئ علىّ! ففر المتلمس إلى الشام، وذهب طرفة إلى عامل البحرين. فلما قرأ كتابه قال له: هل تعلم ما أمرت به فيك؟ قال: نعم، أمرت أن تجيزنى. فقال له العامل: إن بينى وبينك لخؤولة، فاهرب من ليلتك هذه فإنى قد أُمرت بقتلك. فقال طرفة: اشتدت عليك جائزتى وأحببت أن أهرب وأجعل لابن هند علىّ سبيلا. والله لا أفعل هذا أبداً. ولكن العامل تكرم عن قتله وكتب إلى ابن هند: أن ابعث إلى عملك غيرى فإنى غير قاتل الرجل. فعزله واستعمل رجلا آخر يسمى عبد بن هند، فلما قدم أمر بقتل طرفه فقتل.

وهذه الرواية بينة الوضع، ظاهرة الكذب، لأن ابن هند إذا كـان يريد قتل الرجلين فقـد كان من الهين عليه وهو الملك المطاع أن يـأمر بقتلهما وهما بحاضرة ملكه، وإذا كان يخشى صـولة قبيلتهما فإن سما يدس فى طعام، أو رجلا من رجالـه يثب عليهما فى غبش الظلام، كفيل بأن ينيل الملك إربتـه فى غير جلبة أو صخب. ولم لم يمنحهما الملك جائزتيهما من خزانته، ويضطر إلى أن يبعث بهما إلى عامله بالبحرين ؟ إن أحط الناس إدراكا ـ بله طرفة والمتلمس ـ لا يستطيع أن يصدق أن خزائن الملك تضيق بجائزة شـاعرين ! وإذا أجـزنا هذا فلم يعطى الملك كـلا منهما رسالة؟ وهل كـانت رسالـة واحدة لا تكفى لإبلاغ عامل البحرين إرادة الملك؟ وهل من السائغ فى طـرائق العقول أن يأبى طرفة فض كتابه بعد أن علم ما فى صحيفة المتلمس من موت محقق، وبعد أن نصح له المتلمس بالفرار؟ وهل يصدق مأفون أن طرفة يأبى الفرار، ويتهم العامل بما يتهم، بعد أن قرأ له الرسالة وأعلمه بما فيها وحضه على الهرب؟

يجب أن نرفض هذه الرواية من أولها إلى آخرها. وفى رأينا أن الذى يستسيغـه العقل أن يكون عبد عمرو قد وشى للملك بأن طرفة والمتلمس يهجوانه، فصبر الملك طويلا، وهو يضمر لهما الشر، ثم بعث إلى كل منهما برسـالة يدعوه فيها ويمنيـه الأمانى. أما المتلمس وكـان داهية ماكـرًا فحين بلغته الرسالة علم أنها مؤامرة لهلاكه فألقاها فى مجرى ماء وقال:

وألقيتهـا بـالثنى من جنب كـافـر	كـــذلـك يلقى كـل قط مضلـل
رضيت لها بـــالماء لما رأيتهـــا	يجول بها التيــار فى كل جـــدول

وأما طرفة فصـدق ما فى رسالته وذهب إلى عمرو بن هند فقتله، بعـد أن عرف أنه خدع، وأن ابن عمه هو الذى أوغر عليه صدر الملك، وفى ذلك يقول:

أسلمنى قـــومـى ولم يغضبـــوا	لســوأة حلـت بهـم فـادحـة
كل خليــل كنــت خـاللتــه	لا تـــرك الله لهـــم واضحـــة !
كلهـــم أروغ مـــن ثعلـــب	مـا أشبـه الليلـة بـالبـارحـة

هذا كل ما فى الأمر. ولكن الرواة طغى بهم الخيال فأوقعهم فى الخبال.

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

٣ـ وضّاح اليمن

امتزج فيه الدم الفارسى بـالدم العربى العريق، فأبرزا صـورة تأنق فيها الجمال، وأبدعت فيها يد القدرة ما شـاءت أن تبدع. كان أبـوه إسماعيل حميريًّا، وكانت أمه فـارسية النبعة، تعتز بكـل ما فى الفرس من جمال ساحر، ورشاقة فاتنة. ومات أبوه وهو لا يزال رضيعًا فكفلته أمه، وتزوجت رجلا من أبناء الفرس، فشبَّ الغلام فى ظلال حبهما قرير العين ناعمًا مدللا. وكثيرًا ما كانت الهواجس تتواثب على الأم، وهى ترى ابنها يثب فى فناء الدار عابثًا مرحًا، وقد تلألأ وجهه، وتفتحت محاسنه كما تتفتح أكمام الزهر لأشعة الصباح: إن عبد الرحمن زينة كل فناء، وملتقى إعجاب كل عين، وهو حقيق بأن تصونه فى سويداء فؤادها، وأن تتحدى به نساء القبيلة، وأن تحرص عليه حرصها على نسمات الحياة. ولكن القدر يأبى أن يعطى كل شىء كاملا. وهو لا يجود بالنعيم إلا لكى يملأ القلوب حزنًا على زوال النعيم، ولا يبسم إلا بمقدار ما يتألق البرق فى الليلة المظلمة ليجر وراءه جيشًا من الرعود والصواعق.

تتنهد الأم الوالهة فى ألم وحسرة، وتضرب بكف على كف فعل اليـائس القنوط، حتى إذا سكتت عنها غشية الحزن، صاحت بعبد الرحمن فأقبل نحوها صخّابًا ضحوكا، فتمسح دمعة عرفت طريقها إلى جفنها بعد طول الاحتباس، ثم تميل برأسها على الغلام فتقبلـه فى وله ولهفة وتهمس فى أذنه والحزن 'اد يخنقها قائلة:

ـ أتحبنى ياعبد الرحمن؟ فيشب الغلام على أصابع قدميه ليملأ خديها لثما وتقبيلا، ويصيح:

ـ مـا هذا السـؤال ياأماه؟ لقـد مللته وضجـرت به! إنى أحبك كما أحب نجم الصبـاح الخفاق،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الثالث ص ٨٤٠ عام ١٩٤٦.

وصمت الصحراء الهادئ، وظل السرحة فى يوم قيظ. ولن يجد رأسى راحــة إلا فى أن يميل على ذلك الصدر الذى يموج بـالرفق والحنان، فيستريح بعـد كد، ويهدأ بعد اضطـراب. إنى أحـب الجمال وتفتننى الملاحة فى كل شىء. أحب الجمال فيك ياأماه، وأحبه فى النخلة الفارعـة وقد عبث بسعفها النسيم فماست تيهًا واختيالاً، وأحبه فى الأقحوانـة الباسمة سقاهـا الندى فاهتزت كما يهتـز الشارب الثمل، وأحبـه فى الشمس الغاربـة وهى تأبى إلا أن تغـوص فى لجة من الذهب كما بـزغت فى لجة من الذهب، فتلصق أمه وجهها بوجهه فى شغف وتقول:

ـ شاعر ابنى ورب الأكاسرة ! فينحيها عنه مترفقًا ويقول:

ـ أتسمين الكلام شعرًا ؟

ـ لا يابنى ! إن الشعر كلام حقًّا، ولكن ليس كل كلام شعرًا. ثم تنظر طويلاً فى وجهه وتهمس:

ـ أتحب أن تفارقنى ياعبد الرحمن ؟

ـــ أفـارقك ؟ ! كيف ياأمـاه ؟ إن غصن الـدوحـة إذا فارق أمـه مـات. وتجيبـه الأم بين الزفـرات والعبرات:

ـ إن أخشى ما أخشاه يـاعبد الرحمن أن يطلبك أعمامك، وأن يغتصبوك منى. ولو فعلوا لذهبت حياتى معك. لقد قلت الآن: إن غصن الدوحة يموت إذا فارق أمه، ولكن الدوحة التى أنبتت فرعها سوف تموت ضربة لازب إذا انتزعوا منها فرعها، لأنه ينبثق من قلبها، وتتغلغل جذوره بين جوانحها. أعرفت كيف أخشى عليك ياعبد الرحمن، وكيف يزيد همى كلما زدت نموًا وجمالاً ؟

وبينما هما فى الحديث إذ يدخل زوجها فتنطلق إليه بـاكية حزينة، تبثه لواعج نفسها، وتكشف له عما يساورها من خوف وآلام. ولكن الرجل يطويها إلى صدره فى حنو وإشفاق، ويهدئ نفسها القلقة الواجفة هامسًا: انضحى عنك الخوف يافتاتى، فإن عبـد الرحمن لم يكن ابن أحـد غيرى. إنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منه منـالا ؛ إنه فارسى لا عربى. ولن يكون للعرب فيه نصيب. إن كل شعرة فى جسده تصيح بأنه فارسى الأرومة كسروى النسب. انظرى إلى عينيه، ثم إلى جبينه، ثم إلى أنفه، هل ترين فيـه إلا ملامح الفرس وسماتهم ؟ لا ! إنـه ليس من العرب، ولن يستطيع أعمامه أن يستلبوه من أيدينا، ولو أعانهم الخليفـة الأموى. وتهدأ الأم وتعـود إلى وجهها الـوسيم بشـاشته ونضـارته بعـد أن عصفت بها الأحزان.

ويتوثّب القدر، ويضرب الدهر ضربته، وتزدحم الـدار بعم عبد الرحمن وجدتـه لأبيه، ومعهما جماعـة من حمير ومن آل قيفان ومن آل ذى جـدن يطالبـون بابنهم عبـد الرحمن فى شراسـة وصخب. فيشتد الحزن بأمه، ويتملكها الهلع. وتحتضن الغلام فى ذعـر يشبه الجنون، وتأبى أن تسلمه إليهم،

ويصيح زوجها : إن هذا الغلام ابنى ، وهو فارسى ، ولن أتركه لأحد منكم ولو لقيت الموت دونه . ويشيع الخبر فى الحِلّة فيسارع أبناء الفرس إلى نصرة أخيهم ، وتدفع الحمية العرب إلى مظاهرة عم الغلام لاستنقاذه من أيدى أخواله الفرس ويتفاقم الشر ، وتتأجج الفتنة ، ويصبح الأمر نزاعًا على شرف الجنس بعد أن كان نزاعًا على غلام . ويقبل شيخ الحى فيشير بعرض الأمر على حاكم القبيلة ، فتطمئن النفوس الثائرة إلى رأيه ، ويرحل القوم ومعهم الغلام إلى الحاكم . ويتقدم إليه عم عبد الرحمن مدعيًا أن الغلام عربى ، وأنه ابن أخيه إسماعيل ، وأن نسبه ينتهى إلى يعرب بن قحطان . وتؤيده البينة ، وتزكى قوله الشهود ويقبل زوج أمه فينكر أن يكون إسماعيل أبو الغلام من جد عربى ، ويؤكد أن آباءه الأولين كانوا من الفرس الذين قدموا لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة . ثم يتجه إلى الحاكم قائلا : « وإذا رجعت إلى نسبه أيها القاضى رأيت أنه عبد الرحمن بن عبد كلال بن داذ ، و « داذ » اسم فارسى ما فى ذلك شك ، فكيف يزعم هؤلاء أنه عربى خالص النسب ؟ » ولكن الحاكم يرد عليه بأن العرب قد تسمى أبناءها بأسماء العجم فقد سموا بأبرهة وهو اسم حبشى ، وأن الأسماء علامات ودلالات لا توجب نسبًا ولا تدفعه ، وأن أحد أجداد الغلام يدعى بأبى جمد ، وهى كنية يمانية ، ولا يعلم أن أمة من الأمم تكتنى غير أمة العرب . ثم حكم بالغلام للحميريين ، ويتجه إليه فيبهره جماله ، فيمسح بيده على رأسه ويقول : « اذهب فأنت وضاح اليمن » .

ويخرج الحميريون من لدنه فرحين يتسابقون إلى حمل الغلام وإلى تقبيله وتدليله ، وتنتحى الأم وزوجها ناحية وهى تشهق بالبكاء وتردد الحسرات .

ينشأ الغلام بين أعمامه ، بعد أن نال نصيبه من مال أبيه ، نشأة ناعمة مترفة ، وينتقل من الطفولة إلى الشباب مرحًا تياهًا ، وسيما سمحًا ناضر العود ، يزهى بوجه صباحى ألقى عليه الحسن رداءه ، وقامة كأنها عامل الرمح ، وجسم وثيق العضل فوار ماء الشباب . وكان شديد إحساس النفس ، واسع الخيال ، مطبوعًا على الشعر مجيدًا فيه ؛ جم الشهوات والنوازع ، مولعًا باللهو والعبث ولذائذ الحياة . وكأنما أطغاه حسن صورته فراح يشبب بكل فتاة ، وينصب شباكه لكل عذراء نفور ؛ وكان يتقنع لفرط حسنه إذا ورد مواسم العرب كما كان يفعل المقنع الكندى وأبو زبيد الطائى .

أولع بفتاة من بنات الفرس تدعى « روضة » فقال فيها شعرًا كثيرًا منه :

قالت : ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائر
قلت : فإنى طالب غِرّة ... منه ، وسيفى صارم باتر
قالت : فإن القصر من دوننا ... قلت : فإنى فوقه ظاهر
قالت : فإن البحر من دوننا ... قلت : فإنى سابح ماهر
قالت : فحولى إخوة سبعة ... قلت : فإنى غالب قاهر

قـالت : فليث رابض بيننـا ... قلت : فإنى أسـد عـاقـر
قـالت : فـإن الله من فـوقنـا ... قلت : فـربى راحم غـافـر
قـالـت : لقـد أعييتنـا حجـة ... فأت إذا مـا هجع السـامـر
واسقط علينـا كسقـوط النـدى ... ليلـة لا نـاه ولا زاجـر

ولما شفه حبها؛ واشتهر أمره معها، خطبها إلى أهلها فأبوا أن يزوجوه إياها، فرحل عنها يائسًا وهو يقول:

يأيها القلب بعـض مـا نجـد ... قـد يعشـق المـرء وهـو يتئـد
قـد يكتـم المـرء حبـه حقبًـا ... وهـو عميـد وقلبـه كمـد
مـاذا تـريـدين من فتى غـزل ... قـد شفـه السقم فيك والسهـد ؟
يهـددونى كيمـا أخـافهم ... هيهـات أنّى يهـدد الأسـد

وكـان وضاح اليمن يـرحل إلى مكة فى مـوسم الحج ليتلقى وفـود الحجاج مقبلـة من الشام وفيهـا الهوادج المطرزة بالذهب، يحملن الكواعب الحسـان، والجوارى الساحرات، والغيد الفواتن، كما كان يفعل ابن أبى ربيعـة وغيره من فتيـان الشعـراء. وكـان النسـاء يتعـرضن فى هـذا الموسم للشعـراء، ويغرينهم على التشبيب بهن؛ وينصبن لهم أشراك الفتنة وكان الشعراء فى هذا العهد أشبه بالمصورين فى عصرنا الحاضر تتعرض لهم الفتاة المدلة بجمالها لترى صورتها فى المجلات السائرة بعد يوم أو يومين.

وحج الوليد بن عبـد الملك الخليفة الأموى بالنـاس سنة إحدى وتسعين، وحجت معـه زوجه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان. وكانت بارعة الحسن فاتنة الملاحة. عرفت أنها جميلة فزادت بجمالها زهوًا، وقويت فيهـا غريزة المرأة فأغـرتها بالتبرج، ففتنت الناس وفتنـت الشعراء. رآها وضـاح اليمن بمكة فسحره جمالها، وكان معه كُثَيِّر صاحب عَزّة، فرأى أن يحتفظ برأسه بين كتفيـه ويكتفى بالغزل بجاريتها غاضرة، ولكن وضاحًا كان شاعرًا مفتونًا مغامرًا، خدعته نفسه فسوّلت له أن جماله سحر أم البنين وأوقعها فى حبائل حبه، فأرسل الشعر فى التشبيب بها طليقًـا غير هياب، وكأنما غاب عنه أنه يحوم حول عرّيسة أسد، ويعدو إلى الموت عدوًا. لقـد تغزل غيره من الشعـراء فى أم البنين، ولكنهم كانوا أحزم منه، كانوا يرسلون أبياتهم فى خفية ومكاتمة، كما كان يفعل عبيد الله بن قيس الرقيات. ولما انقضى موسم الحج رحل شاعـرنا إلى دمشق ليكون إلى جوار فاتنته وسـالبة لبه، ومدح الوليد بقصائد منها:

فإنـك لـو رأيت الخيـل تعـدو ... سراعًـا يتخـذن النقـع ذيـلاً
إذًا لـرأيت فـوق الخيـل أسـدًا ... تُفيـد مغـانمًا وتفيـد نيـلا
إذا سـار الـوليـد بنـا وسرنـا ... إلى خيـل نلفُّ بهن خيـلا
ونـدخل بـالسرور ديـار قـوم ... ونعقب آخـريـن أذى وويـلا

ويذيع شعر وضاح فى أم البنين، وينتهى خبره إلى الوليد فيعقد العزم على قتله. ولكن ابنه عبد العزيز يحاول أن يرد أباه عنه، فيدخل عليه راجيا ألا يقتل الرجل. ثم يتوسل إليه بقوله: لا تأبه للرجل ياأبى فإنه مائق مضطرب مسلوب العقل، وإذا قتلته يا أمير المؤمنين حققت قوله فى أمى، وتركت لى سبّة الأبد. ولكن افعل بـه ما فعل معاوية بأبى دهبل، فإنه لما شبب بابنته، وشكاه إليه ابنه يزيد، وطلب إليه أن يقتله، قال له معاوية: لو قتلته لحققت قوله، ولكنا نبَرُّه ونحسن إليه فيستحيى ويكف ويكذِّب نفسه. ولكن الوليد يأبى أن ينصت إلى رجاء ابنه، ويصيح: ألم تسمع قوله؟

قـد أصبحت أم البنين مـريضـة	نخشى ونشفق أن يكـون حمامـا
يـارب امتعنى بطـول بقـائهـا	واجبر بها الأرمـال والأيتـامـا
كـم راغبين وراهبين وبـؤّس	عصموا بقرب جنابها إعصامًا
بجنـاب طـاهرة الثنـا محمـودة	لا يستطـاع كـلامهـا إعظـامـا

يكفينى أنه يصرح باسمها فى شعره ليطير فى الآفاق ويجمع حولها الشبهات. ثم إنه لم يكتف بذكر أم البنين حتى تعدى إلى ذكر أختى فاطمة إذ يقول:

بنت الخليفـة والخليفـة جـدهـا	أخت الخليفـة والخليفـة بعلهـا
فـرحت قـوابلهـا بها وتبـاشرت	وكـذاك كـانت فى المسرة أهلهـا

أما لهذا الكلب مزدجر عن نسائنا وأخواتنا؟ أما له عنا مذهب؟ ويل لـه منى! والله لأسكتن لسانه. ثم يأمر بعض أعوانه أن يحملوا إليه وضاحًا وحين يساق إليه يأمر بحفر بئر فتحفر ويدفن فيها حيًّا.

هذا مجمل قصة وضاح اليمن. وقد زاد فيها الرواة كثيرًا من أكاذيبهم، وبدت فيها أصابع الشعوبية عابثة ساخرة من العرب وخلفائهم. فقد زعموا أن أم البنين بعثت إلى وضاح وكثيّر وطلبت إليهما أن ينسبا بها. وادعوا أنها دعت وضاحًا إلى الشخوص إلى دمشق ومدح الخليفة، وأنها وعدته بأنها ترفده عنده، وتقوى أمره لديه. وروى أصحاب الأخبار أنه وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية ورجل من بنى الوليد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة وذلك فى دولة بنى العباس، فوضع الشعوبى كتابًا زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحًا، وأنها كانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها، فإذا خافت أن يراه أحد وارته فى صندوق وأقفلت عليه، وأن الوليد بعث إليها مرة بجوهر ثمين مع خادم له، فدخل عليها الخادم مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى، فأدى إليها رسالة الوليد، ثم قال: يامولاتى هبى لى منه حجرًا فأبت عليه وزجرته، فعاد إلى الوليد وأخبره الخبر، فدخل على أم البنين وهى جالسة فى هذا البيت تمشط شعرها، فجلس على الصندوق ثم قال لها: هبى لى هذا الصندوق، فقالت: كل ما فى البيت لك ياأمير المؤمنين. قال: لا أريد إلا هذا الصندوق. فقالت:

خذ غيره يـا أمير المؤمنين فإن لى فيه أشيـاء أحتاج إليهـا ، قال : ما أريد غيره ، قالت : خذه ، فدعا بالخدم وأمرهم بحملـه وأن يحفروا بئرًا عميقة ، ثم دعا بـالصندوق وأخذ يشير إليـه ويقول : إنه بلغنا شيء إن كان حقًا فقد كفناك ودفناك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فإنا دفنا الخشب وما أهون ذلك ! ثم قذف بالصندوق فى البئر وهيل عليه التراب .

هذا هو حديث الإفك الجديد ، وهو حديث لا يدخل فى عقل عاقل ، ولا يقابل ممن يعرف سيرة الوليد وصرامته ، ومكانة أم البنين وشدة حفاظها وتمسكها بدينها إلا بالسخرية والاستهزاء .

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

٤ - الشاعر المغامر

نشأ بالكوفة فى بيت يمنى رفيع النسب معروف المكانة ، واختار له أبوه دراسة العلم والتثقيف فى علوم الدين ليكون فقيهًا محدثًا . وكان الفتى عبد الرحمن بن عبد الله متوقد الذكاء ، حاضر البديهة ، قوى النفس ، فيه مرح ، وفيه عزيمة ، وفيه بطولة مخبوءة . ولم يكن يظهر لرائيه أنه سيكون له شأن فى الفقه أو الحديث ، أو أنه سلك الطريق التى تواثم مواهبه وطبائعه . لأن لرجال الدين سمتًا يتميزون به حتى فى أطوار الشباب ، وسحناء يعرفون بها من قبل أن يعرف عنهم شىء . إنهم يمشون على الأرض هونا ، ويجلسون فى صمت وإطراق ، ويتحدثون بما لا لغو فيه ولا تأثيم ، وينظرون إلى الدنيا نظرة قاتمة ؛ لأنها خداعة غرارة ، لا يدوم لها نعيم ، ولا تستقر على حال ؛ فهم لا يضحكون للنادرة الطريفة ، ولا يبهرهم ما أبدع الله من جمال . ولكن ماذا يصنع عبد الرحمن ، وهكذا وضعه أبوه ، وهكذا قدر له أن يكون ، وهكذا ألبس مسوح الراهب ، ونزع عنه درع الفارس ، وهكذا وضع بين يديه المصحف وكتب الدين ، وحجبت عنه طرائف أشعار الأولين ! لم يكن يستطيع أن يعمل شيئًا ، فطرق المساجد ، وتردد على دور العلم ، واختار من بين كبار الفقهاء والمحدثين زوج أخته عامرًا الشعبى ليكون له شيخًا وإمامًا . لزم الشعبى أو أُلزم الشعبى ، وتجرد لدرس الحديث أو أُلزم التجرد له ، وظن بعض الناس أن سيكون له شأن فى الفتيا وتذليل المشكلات .

ولكنه على الرغم من انصرافه إلى علوم الدين ، وما تقتضيه من تبتل ، كانت تهفو نفسه إلى أن يركب جوادًا ، فيُحضره إلى أبعد ما يكون الحُضْر . وكان إذا رأى فتيان العشيرة يتصارعون أو يتبارون فى القوة ، أو فى الصفح بالسيوف ، تمنى أن يزج بنفسه بينهم ليصرع أقواهم ، ويطيح بسيف ألعبهم بالسلاح ،

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الرابع ص ١٠٠٩ عام ١٩٤٦ .

وكان إذا بـدت له كـاعب من حسـان الحى امتدت إليها عينـاه فى نهم لا يحسن برجـال الديـن وحملة العمائم. وكان كثيرًا ما يباغت نفسه وهى تصوغ أبياتًا فى الغزل، وتترنم بها فى طرب ونشوة. كان يعيش حياتين، ويروح بين الناس بنفسين: نفس تقية ورعة تتجنب الخبائث ما ظهر منها وما بطن، وتنصب على دراسة القرآن والحديـث زاهدة فى الدنيا صـادفة عنها، ونفس فوارة جياشة تموج بـالحب والغزل والشعر، وتحن إلى اعتساف المخاطر واقتحام الخطوب.

بقى عبد الرحمن حائرًا بين هذين النفسين: مضطربًا بين ما يكـون وما يجب أن يكون، حتى رأى فيما يرى النائم أنه دخل بيتًا فيه حنطة وشعير، وسمع قائلاً يقول له: خذ أيهما شئت، فأخذ الشعير. رأى هذه الـرؤيا فأسرع إلى شيخه الشعبى ليعبرهـا له، فأطرق الشعبى مفكـرًا ثم قال: إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقراءته وقلت الشعر.

كان التعبير صحيحًا، لأنـه ليس من فـرق بين الشعـر والشعير إلا تلك اليـاء الصغيرة التى قـد يخطؤها أو يشوهها الكاتب، ولعل الشعبى لمح هذا عندما عبر الرؤيا، ولعله لمح أن الشعـر شعير فى هوانه وكساده، وأنه يبذل لمن لا يستحقه رخيصًا فيطرحه ويزدريه. وكيفما كان الأمر، وسواء أصحت رواية المنام أم لم تصح، فإن صاحبنا هجر دراسة القرآن والحديث، واتجه إلى الشعر ظمآن إلى موارده، فنهل منها وعلّ.

لم يتدرج عبد الرحمن فى إجادة القريض، ولكنه وثب إليها دفعة واحدة كـأنه كان يختزن الشعر فى نفسه وهو يدرس الحلال والحرام، فلما فكّ يديه عنهما، انطلق كما ينطلق السيل الهدار، وسار شعره بين الناس، فبهرهـم وملأ آذانهم لما فيه مـن قوة أسر، وبعد خيال، وروعة لغة، وسلامة أسلوب. ولكل هؤلاء لقبوه «بأعشى همدان».

وما كاد يحتضن مزهر الشعر، حتى طوّف به فى أنحاء البـلاد مدّاحا هجّاء، يحمل فى يمينه تاجا من الفخار لأهل اليمين، وفى شماله سوط عذاب من نار لأهل الشمال.

ورد على النعمان بن بشير وهـو عـامل حمص من قبل مـروان بن الحكم، فشكا إليه حاله، فرأى النعمان أن لهذه الشكاية مـا بعدها، وأن الشاعر يبدأ ذليلا، وينتهى شيطانًا مريدًا، فجمع اليمانيّة وقال لهم: هذا شاعر اليمن ولسانها، وقد دفعته إلينا حاجة، فهل من باذل؟ فنـزل له كل رجل عن دينار من عطائه، وكانوا عشرين ألفًا. فمدح النعمان فقال:

ولم أر للحـاجـات عنـد التماسهـا ... كنعمانَ نعمان النـــدى بـن بشير
إذا قـال أوفى مـا يقـول، ولم يكن ... كمُـدلٍ إلى الأقـــوام حبل غـــرور
فلـولا أخـو الأنصـار كنت كنـازل ... ثـوى مـا ثـوى، لم ينقلب بنقير

وورد مملقا على خالد بن عتاب فأنشده:

رأيت ثنـاء النـاس بـالقـول طيبـا ... عليك ، وقـالوا ماجـد وابن مـاجد
بنى الحارث السامين للمجد : إنكم ... بنيتم بنـاء ذكـره غير بـائد
هنيئًـا لما أعطـاكم الله واعلمـوا ... بأنى سأطـرى خـالـدًا فى القصـائد
فإن يـك عتّـاب مضـى لسبيلـه ... فما مـات من يبقى لـه مثل خـالـد

فافتدى منه عتاب عرضه بخمسة آلاف درهم .

ولهذا الشاعر مواقف مع عتاب تدل على خوف عتاب من سلاطته ومرّ هجائه . روى أهل الأدب أن عتابا كان فى غزاة مع الشاعر ، فحينما قفل الجيش ، خرج جوارى عتاب ليتلقينـه وفيهن أم ولد له أثيرة عنده حبيبة إلى قلبه ، فجعل الناس يمرون عليها إلى أن جاز بها الأعشى وهو على فرسه يميل يمينًا وشمالاً من النعاس ، فقالت لجواريها : إن امرأة خـالد تفاخرنى بـالعرب ، وتـزهى علىّ بأبيها وعَمّهـا وأخيها، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المرتعش ؟ وسمعها الأعشى فقال : من هذه فقيل له : هذه جارية خالد ، فضحك وقال : ويل للكسعاء ، ثم وقف أمامها يقول :

ومـا يـدريك مـا فـرس جـرور ... ومـا يدريـك مـا حمـل السـلاح ؟
ومـا يـدريك مـا شيخ كبير ... عـداه الـدهـر عن سنن المراح ؟
فأقسـم لـو ركبت «الورد» يـومـا ... وليلتـه إلى وضـح الصبـاح . . .

ثم أتبع الأبيات ببيت رابع كلـه إقذاع ونكر ، فأسرعت الجارية إلى عتاب شـاكية باكية ، وأنشدته الأبيات، ووصفت له الرجل ، فقال : ذلك أعشى همدان . ثم بعث إليه وقال له : إن هذه تزعم أنك هجوتها ، فقال الأعشى : إنها أساءت سمعًا ، وإنما قلت :

مـررت بنسـوة متعطـرات ... كضـوء الصـبح أو بيض الأداحى
على شقـر البغـال فصـدن قلبى ... بحسن الـدلج والحـدق المـلاح
فقلـت من الظبـاء ؟ فقلـن سرب ... بـدا لـك من ظبـاء بـنى ريـاح

فقالت الجارية : لا والله ، ما هكذا قال ، وأعادت الأبيات ، فما كان من حلم خالد ، أو من خوفه ، إلا أن قال للأعشى : والله لولا أنها ولدت منى لوهبتها لك ، ولكننى أفتدى جنايتها بمثل ثمنها ودفعه إليه ، ثم قال له : أقسمت عليك ياأبا المصبح ألا تعيد فى هذا المعنى شيئًا بعد ما فرط منك .

هذا منتهى الحلم ، أو منتهى ما يصل إليه تدليل الشعراء ، غير أن عتابا على الرغم من كل هذا لم يسلم من هجاء أبى المصبح ؛ ذلك أنه منّـاه مرة الأمانى ، وأكثر له من الـوعود الحسان إذا ولى ولاية ، حتى لقد قال له : إذا اسند إلى عمل أعطيتك خاتمى لتقضى بين الناس . فلما ولى أصبهان رحل إليه الأعشى فنسى وعوده وأهمله وجفاه ، فرجع الأعشى إلى الكوفة بعد أن أرسل فى هجائه أبياتًا سارت كل مسار منها :

أتــذكـــرنـــا ومُــرة إذ غـــزونــا		وأنت على بغيلك ذى الـــوشـــوم ؟
ويـــــركـب رأســـــه فى كـل وحل		ويعثــــــر فى الطــــريـق المستقيم
وليـس عليـك إلا طيلســـــــــان		نصيبيـــــى ، وإلا سحـــق نيـــم
فقــــد أصبحت فى خـــز وقـــز		تبختر مـــا تـــرى لك مـن حميم
وتحسب أن تلقَّـــاهـــا زمـــانًـــا		كـــذبت ورب مكـــــة والحطيم

وقد ابتـدع الشاعـر فى هذه القصيدة فنـا من الشعر يمكن أن يسمى بـالشعر الـرمزى، ذلك أن الأبيات حينما بلغت خالدًا بعث إليه من يسأله عن «مرة» الذى ادعى أنه غزا معهما، وعن «البغل» ذى الوشوم الذى كان خالد يركبه وأين كان ذلك؟ ويسأله عن «الطيلسان» و «النيم» اللذين وصفهما ومتى رآه يلبسهما؟ فضحك الأعشى حتى بـدت نـواجذه وقـال: هذا كـلام أردت به وصفـه بظاهـره، أما تفسيره: فإن «مرة» مرارة ثمرة ما غرس عندى من القبيح، و «البغل» المركب الذى ارتكبه منى ولا يزال يعثر بـه فى كل وعر وسهل، وأما الطيلسـان فما أُلبسه إيـاه من العار والـدم. وإن شاء راجع الجميل فراجعته له. فلما بلغ الحديث خالدًا قال: إى والله، إنى أراجع معه الجميل، وأرسل إليه من ترضاه ووصله بمال عظيم.

وعاد الأعشى إلى ما كان له من المنـزلة عند خالد، ولكنه حضره مرة وهو يفـرق العطايا فجعل له أقلها، وفضل عليه آل عطارد، فخرج غاضبًا، وأطلق لسانه فى ذمه فنفد صبر خالد فحبسه ثم أطلقه بعد قليل، فقال فى هجائه:

ومــا كنـت ممن ألجأتـه خصــاصـة		إليك ، ولا ممـن تغـــرُّ المواعــــد
ولكنهـــا الأطماع وهى مـــذلـــة		دنت بى ، وأنت النـازح المتبـاعـد
أتحسبنـى فى غير شىء ؟ وتـــارة		تـلاحظنى شـــزرًا وأنفك عـــاقـــد
فإنك لا كـــابنىْ فـــزارة فـــاعلمن		خلقت ، ولم يشبههما لـك والــــد
وإنك لـــو ســاميت آل عطـــارد		لبـزتـك أعنـــاق لهم وســـواعـــد

وهذا ضرب من الهجاء ممض، فقد كان مما يسبق إلى الظن أن يهجو الشاعر آل عطارد، لأن خالدًا فضلهم عليه، ولكنه يمدحهم ليؤكد علو منزلتهم على خالد مع ما ناله من غبن بسببهم.

ولم تكن حياة الشاعـر ـ كما علمت من بعض ما مر بك ـ حيـاة هدوء واستقرار، فإنه كان لا يفتأ ضاربًا فى الأرض، غازيًا محاربًا، نائيًا عن أهله ووطنه، وله فى هذه الغزوات شعـر من أروع ما سجله ديوان الشعر العربى، وردده أفواه الرواة. جهز الحجـاج بن يوسف جيشًـا من رجال الكـوفة بينهم أعشى همدان إلى غزو الديلم، فطال أمد هذه الحرب، وأخذ فيها الأعشى أسيرًا، فقذف به فى السجن مكبلا، فبقى به حينًا، وكانت قد رأته بنت أمير الديلم، فراعها حسنه واكتمال قوته، فاهتبلت فرصة غفلة مـن أهلها ودلفت إليـه فى ظلمة الليل حـذرة خائفـة تبادله الغـرام، ثم قالـت له: أفرأيت إن

خلصتك اتصطفيني لنفسك ؟! قال: نعم. فحلت قيوده، وأخذت به طرقًا تعرفها حتى جاوزت به مدينة أبيها. وفي ذلك يقول:

أصبحت رهنًا للعداة مكبلا ... أمسى وأصبح في الأداهم أرسف
ولقد أراني قبل ذلك ناعمًا ... جذلان آبى أن أضام وآنف

وضرب البعث على جيش أهل الكوفة إلى مكران، فأخرجه الحجاج معهم وطال بمكران مقامه ومرض، فاجتواها، وقال في ذلك قصيدة من عيون الشعر وقلائده منها:

ولم تك من حاجتي مُكرانُ ... ولا الغزو فيها ولا المتجر
وخبرت عنها ولم آتها ... فما زلت من ذكرها أذعر
فإن الكثير بها جائع ... وإن القليل بها مقتر
ولكن بعثت لها كارها ... وقيل انطلق كالذي يؤمر

وخرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف سنة اثنتين وثمانين، وحشد معه جمعًا من أهل الكوفة، فلم يبق من أقرانهم أحد له ذكر ونباهة إلا خرج معه. وقذف شاعرنا بنفسه في أتون الثورة فكان فارسها المعلم، وشاعرها المفرد، وأرسل الشعر مجلجلا بمدح ابن الأشعث وذم بني أمية والتحريض على الحجاج، واستثارة عزائم الجنود، فهو يقول في ابن الأشعث:

قرم إذا سامى القروم ترى له ... أعراق مجد طارف وتليد
وإذا دعى لعظيمة حشدت له ... همدان تحت لوائها المعقود
يمشون في حلق الحديد كأنهم ... أسد الأباء سمعن زأر أسود

وتغلب الحجاج على الثوار سنة ثلاث وثمانين وأسر زعماءهم، وكان منهم الأعشى فلما قدم على الحجاج أسيرًا قال له: الحمد لله الذي أمكن منك، ألست القائل لابن الأشعث وفرسك يهملج بك أمامه:

لما سمونا للكفور الفتان ... حين طغى بالكفر بعد الإيمان
بالسيد الغطريف عبد الرحمن ... سار بجمع كالقطا من قحطان
ومن معد قد أتى ابن عدنان ... أمكن ربي من ثقيف همدان
يومًا إلى الليل يسلي ما كان ... إن ثقيفًا منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان

ثم ألست القائل:

يابن الأشج قريع كندة لا أبالي فيك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعبا

نبئت حجـــاج بـن يـــو سـف ، خرّ مـن زلـق فتبـا
فـــانهض فـــديت لعلـــه يجلـو بـك الـرحمن كـربـا
وابعث عطيـــة فى الجنـــو د يكبهـــن عليـــه كبـــا

كلا ياعدو الله بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذى خر من زلق فتب، وحار وانكب، وما لقى ما أحب. ورفع بها صوتـه واربدّ وجهه، واهتز منكباه فلم يبق أحـد فى المجلس إلا ارتعدت فـرائصه. فتلعثم الأعشى وقال: بل أنا القائل أيها الأمير:

أبـى الله إلا أن يتمـم نـــــوره ويطفئ نـار الفـاسقين فتخمـدًا
وينـزل ذلا بـــالعـراق وأهلـــه كما نقضـوا العهـد الـوثيق المؤكـدا
ومـا لبث الحجـاج أن سل سيفـه علينـــا فـــولى جمعنـــا وتبـددا
ومـــا زحف الحجـــاج إلا رأيتـــه حسـامـا ملقّى فى الحروب معـوّدا

فقال من حضر من أهل الشام: قد أحسن أيها الأمير فخل سبيله. فقال: أتظنون أنه أراد المدح؟ لا والله، ولكنه قال هـذا أسفًا لغلبتكم إياه، وأراد به أن يحرض أصحـابه. ثم أقبل عليه فقـال له: أظننت ياعدو الله أنك تخدعنى بهذا الشعر وتتفلت من يدى؟ يا حرسىُّ: اضرب عنقه.

الذين قتلتهم أشعارهم(*)

٥ - قتيل السفينة

قيل : عرضه أكبر من طوله ، وكتلة آدمية بشعة منفرة ، وصورة لو حاول مثال أن يجمع ما تفرق من الدمامة فى تمثال ما استطاع أن يأتى بأقبح منها وأشنع ؛ أو لو أراد طفل هازل أن يعبث بقلم ما وفق فى عبثه وتخليطه إلى ماهو أجفى منها للعين وأصدع للقلب ؛ أو لو رأتها تلك المرأة التى أخذت بضبع الجاحظ إلى نقاش ليرسمه لتخيف به ابنها لتركت الجاحظ يذهب إلى سبيله ولرأت فى تلك الصورة ما يرهب جيشًا من الصبيان الطغاة المعربدين .

لسنا من المتجنين على بشار بن برد ، ولسنا من المتندرين به بعد أن أمنا شر انتقامه بموته ، ولسنا ممن يروق لهم أن يصفوا شيئًا قبيحًا ، وقد ملأ الله - وله الحمد والمنة - الدنيا بالجمال ، وهيأ لنا فى هذا الكون من مظاهر الحسن ما يشرح النفس وتهفو له العين ، ومن بدائع الخلق ما يغرى أقلام الكاتبين ويستهوى بدائه الشعراء . ولكنا رأينا إجماعًا من التاريخ ، لا تكاد تند عنه رواية ، على أن بشارًا كان صورة مشوهة تزحف على الأرض ، وأثارة من فصيلة القردة والخنازير دست على البشرية دسا ، وأدخلت زورًا فى بنى الإنسان !

أوصى بشار مرة أحد صناع البصرة أن يصنع له جاما وأن ينقش به صور طير فلما أتمه ووصفه له لم يعجبه وهدده بالهجاء ، فأنذره الصانع - وكان جريئا سليطا - إن هو فعل أن يصوره على باب داره وأن يصور معه قردًا على حال يندى لها جبين الحياء ، فذعر بشار ، وأخذ يترضى الرجل ويقول : أنا أمازحه وهو يأبى إلا الجد !

(*) نشرت بمجلة «الكتاب» بالجزء الرابع ص ١١٧٢ عام ١٩٤٦ .

وأراد أبو الشمقمق أن ينال منه بعض دراهم، ولم يكن بشار بالجواد المعطاء فزعم له أنه مَرَّ بصبية ينشدون:

إن بشـــــار بن بـــــرد   تيـــسٌ اعمـى فى سفينـة

فأخرج إليه بشار مائتى درهم، وقال: خذ هذه ولا تكن راوية الصبيان ياأبا الشمقمق!

ورآه رجل من الكوفة منبطحًا فى دهليز، كأنه جاموس، فقال: ياأبا معاذ من القائل:

فى حلتى جســم فتى نـــاحل   لـو هبت الـريح بـه طـاحـا

والله إنى لأرى أن لو بعث الله الـرياح التى أهلك بها الأمم الخالية ما حـركتك من موضعك فبهت بشار ولم يقل شيئًا.

ووصفه الأصمعى: بأنه كان ضخمًا عظيم الخلق والوجه، مجدورًا، طويلاً، جاحظ المقلتين، قد تغشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى، وأفظعهم منظرًا. ويقول فيه حماد عجرد:

فيـــا أقبح مـن قـــرد   إذا مـــا مسخ القـــرد!

وقد نكب هذا المسخ الآدمى بِنفْسٍ أقبح من وجهه، وبصور من الرذائل أشنع من صورته: كان جشعًا نهمًا شهوانيا فحاشًـا ماجنًا مستهترًا سادرًا، أفسد بغزلـه نساء البصرة وشبانها، حتى لقـد كان يقول مالك بن دينار: مـا شيء أدعى لأهل هـذه المدينة إلى الفسـق من أشعار هـذا الأعمى! وكـان واصل بن عطاء يقول: إن من أخـدع حبائل الشيطـان وأغواهـا لكلمات هذا الأعمى الملحـد! ونهاه الخليفة المهدى عن الغزل وعن ذكر النساء مرارًا.

وقد يمر بعض شـداة الأدب غير عابئين بتكرار هذه الشكايـة من غزل بشار، ولا بشدة استنكار المهدى له، ونرى أن الأمر حقيق بالنظر، فإننا لم نر أوسع صدرًا من العـرب وملوك العرب بالغزل على كثرة ضروبه وأفانينه. لذلك نرجح أن غزل بشار كان من نوع سمج غير مألوف، وأن هذا الضرب من الغزل ضاع فى جملة ما ضاع من شعره، ولم يبق منه إلا بعض أبيات نقرؤهـا اليوم مشمئزين كارهين، كقصيدة الرائية التى تتضمن حوارًا ماجنًا بينه وبين فتاة أغواها.

لقد ألف الناس فى غزل جميل وكثير وعروة بن حزام وقيس بن ذريح فنا رفيعًا، لايخرج عن تصوير رائع للحسن يجمع بين جمال الوجوه وجمال النفوس؛ أما غزل بشار فكان من نوع خبيث فاجر، عرف مواطن ضعف المرأة، ودرس غرائزها، فسرى إلى قلبها عالمًا كيف يتجه وكيف يسير وكيف يلمس منه مكان الخفقان، حتى لقد دفعت ثقة بشار بسيطرته على المرأة إلى أن يقول:

لا يـــوئسنـك مـــن مخبـــأة   قـــول تغلظـــه وإن جـــرحـــا
عسر النســـاء إلى ميـــاسرة   والصعب يمكن بعـد ما جمحا

فتنت عذارى البصرة بشعـره، وفتنت به عذارى العـراق، وتطلعت كل ذات دل إلى أن يشير إليها

فى شعره، أو أن يهتف باسمها فى أغزاله، وأصبحت داره متفيأ للحسان ومقيلا ؛ ولم تجد فتاة من العار أن يختلس منها قبلة، أو يقذفها بإشارة. وهو إلى كل ذلك لم يخجل من دمامته، ولم يقبع بها بعيدًا عن الناس فى خزى وحسرة يخشى أن يؤذيهم بها، أو يصيبه رشاش من تقززهم واشمئزازهم، لأنه كان صفيقًا مغرقًا فى الصفافة، حتى إنه يقول:

نَمَتْ فى الكرام بنى عامر عروقى، وأصلى قريش العجم
فإنى لأغنى مقام الفتى وأصبى الفتاة فما تعتصم

ولا يقدم له أنه كان مكفوف البصر عذرًا، فإن فرار الناس من رؤيته، وتواتر وصفهم إياه بالدمامة، طالما قرع سمعه فأوغر صدره على الناس، وإذا كانت «الأذن تعشق قبل العين أحيانًا» كما يقول فإن الأذن يجب أن تعلم ما ينقل إليها إذا لم يكن لرؤية العين من سبيل.

كان له غزل كثير، وليس من غرضنا فى هذا المقال الموجز أن ننقد غزله، أو أن ننقد شعره عامة، ولكننا نرسلها كلمة عابرة قد يعجب لها بعض الناس، هى: أن الناس بالغوا كثيرًا فى شعر بشار. والحق أنه دون ما وصفوا كثيرًا، وأن شهرة بشار إنما جاءت من عوامل أبرزها خوف الناقد منه، ودعاية النساء والشبان له، وتقليد كل طبقة من الأدباء من فوقها. ولو أنك أخذت شعره بيتًا بيتًا لرأيت جيده قليلاً، ولظهر لك أن هذا القليل منتهب مسبوق. لا شأن لنا الآن بالكلام فى هذا فإن ذلك حديث يطول.

كان بشار حاقدًا على الناس لأنه كان يقدر مواهبه فوق قدرها، ويملى عليه غروره أنه يجب أن ينال فوق ما ينال الناس.

سمع بعض أهل البصرة قوله:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه؟

فقال له: كنت أظن هذا البيت لرجل كبير. فقال بشار: إنه لأكبر الجن والإنس. وسمع مغنية بالكرخ تغنى من أبياته:

يا منظرًا حسنًا رأيته من وجه غانية فديته
بعثت إلى تسومنى برد الشباب وقد طويته
ونخضب رخص البنا ن بكى علىّ وما بكيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئًا أبيته

فصاح: هذا والله أحسن من سورة الحشر! ونحن لا ندرى، ولا بشار يدرى، لم خص سورة الحشر من سائر السور؛ ولكن إذا صحت الرواية كان الرجل مجنونًا بالعظمة والغرور، وكان له أن يهرف بما يشاء!

إننا لا ننكر ذكاء بشار، ولا قوة عارضته، ولا قدرته على ارتجال النكت اللاذعة ولكننا ننكر عليه مغالاته فى تقدير هذا الذكاء، حتى لقد ظن أنه أمة وحده، وأن جميع الناس دونه، وأنه يجب أن يسيطر عليهم ويزدريهم ويتبرم بهم ويبتز أموالهم، وأن يتخذ من شعره سوطًا يسوط به كل شاعر وكل أديب وكل عظيم وكل من تحدثه نفسه بالتعالى عليه أو بالتهاون بأمره. لم نر أحدًا اغتبط بعماه كما اغتبط بشار، حتى لقد جعل منه نعمة يحمد الله عليها، واتخذه أداة للسخرية من الناس، فلقد كان يقول: «الحمد لله الذى أذهب بصرى حتى لا أرى من أبغض». وقال له صاحب له يمازحه: إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشيء فما عوضك؟ قال: الطويل العريض! قال: وما هذا؟ قال: أن لا أراك ولا أمثالك الثقلاء!

وكان بشار فى أثناء هذا الحقد على الناس، وتلك الجرأة المعربدة للنيل من مالهم وأعراضهم، جبانًا رعديدًا، يجمع ذيله بين ساقيه إذا رأى خصمه لدودًا جريئًا، أو إذا أحس خطرًا داهمًا. فقد كان شعوبيا يكره العرب ويسخر منهم. ويمدح الفرس ويشيد بمجدهم. ولكنه إذا لمح فى الأفق نذير سوء وضع عقيدته فى علبة ودفنها بين أطباق الثرى، وقام يغنى بأيام العرب ومقاماتها. فهو مرة يفتخر بولاء بنى عقيل:

إننى من بنى عقيل بن كعب ... موضع السيف من طلى الأعناق

ومرة يستأذن ابن ثور السدوسى فى هجاء أعرابى فيأذن له فيقول:

سأخبر فاخر الأعراب عنى ... وعنه متى تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزًا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع ... بنى الأحرار؟ حسبك من خسار!

وكان بشار - فيما زعموا - زنديقًا يدين بالرجعة فى هذه الدنيا، ويكفر جميع الأمة، ويصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين، ويقول:

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار

ولكنه كان يخفى مذهبه، ويتحدث به فى همس إلى من يثق بهم، وكلما توجس شرًا لبس غير ثوبه، واصطنع الإخلاص وحب الوصول إلى الحق. جادله ابن خلاد مرة فى مذهبه، فلما أفحمه ذل واستكان وقال: ما أظن الأمر إلا ما تقول، وإن الذى نحن فيه خذلان! ولذلك أقول:

طبعت على ما فى غير مخير ... هواى، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، وأعطى ولم أرد ... وقصر علمى أن أنال المغيبا

وأكبر الظن أن يكون بشار ماجنًا، وأنه لم يكن زنديقًا، ولم يكن صاحب رأى، فإن فطرته العابثة

أشغل بمجونها من أن تحقق مـذهبًا دينيًا ، أو أن تعنى بـرأى فلسفى ، ولكن بغضه للعرب هـو الذى دفعه إلى الثورة على كل ما يتصل بهم وبمعتقداتهم ، وأراده على أن يكون زنديقًا .

كان بشار شاعـرًا مستجديًا ، فكان يمـدح ولكنه كـان فى أكثر مـديحه يتربص لهجاء ممـدوحيه ، ويعرض لهم بها فى نفسه ويهدد ، فخافه الناس ، واتقى شره الأمراء والوزراء . ورد على خالد بن برمك فكان مما قال له :

فإن تعطنى أفـرغ عليك مـدائحى	وإن تـأب لم يضرب على سـداد
ركـابى على حـرف ، وقلبى مشيع	ومـالى بـأرض البـاخلين بـلاد

وكـان يرى أن الهجـاء أجلب للمال من المديح ، وأعظم لمهابة الشاعر . قيل له مرة : إنك لكثير الهجاء ، فقال : « إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشـاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيُعطى » .

وهكذا بقى بشار مستمرًا هجاء الناس ، مستنزفا أموالهم بالتهديد . وهو ما يسمى بـالإنجليزية « Black Mailing » ، فهجـا جـريرًا وهـو حـدث ، وكـان يقـول : « هجـوت جريـرًا فأعـرض عنى واستصغرنى ، ولو أجابنى لكنت أشعر الناس » . وهجا واصل بن عطاء والأصمعى وسيبويه ويزيد بن مزيد والعباس بن محمد ، وهجا روح بن حاتم وكان من عظماء الـدولة العباسية ، فقال روح : « ما لى صدقة إن وقعت عينى عليه لأضربنه ضربة بالسيف ، ولو أنه بين يدى الخليفة » ، فبلغ ذلك بشارًا فقام من فوره حتى دخل على المهـدى وعاذ به ، فأحضر الخليفة روحًـا وطلب إليه أن يصفح عـن بشار ، فقال : إننى قد حلفت ياأمير المؤمنين فاحتل ليمينى . وانتهى الأمر بأن ضربه بعرض سيفه .

وهجـا الخليفة المنصـور فى قصيـدة يمدح بها إبـراهيم بن عبـد الله بن الحسن وكـان خارجًـا على العباسيين ، فلما قتل إبراهيم خاف ، فقلب القصيدة فى هجاء أبى مسلم الخراسانى .

وهجا يعقوب بن داود وزير المهدى بقوله :

بنى أميـة هبـوا طـال نـومكم	إن الخليفـة يعقـوب بن داود
ضاعـت خلافتكم يـاقوم فـالتمسوا	خليفـة الله بين النـاى والعـود

وهجا المهدى نفسه بقصيدة يشمئز القلم من نقل بعض أبياتها ، فدخل يعقوب على المهدى وقال له : ياأمير المؤمنين إن هذا الأعمى الزنديق الملحد قد هجاك ، فقال : بأى شىء ؟ قال : بما لا ينطق به لسانى . فحلف عليه المهدى بالأيمان التى لا فسحة فيها أن يخبره ، فقال : أما لفظًا فلا ، ولكنى أكتب ذلك ، فكتبه ودفعه إليه فكاد ينشق غيظًا . ثم انحدر إلى البصرة يقصد بشارًا ، فلما بلغ البطيحة أمر بإحضاره إليه ، وكان فى حراقة ، وأمر بأن يضرب سبعين سوطًا ، فضرب حتى شارف الموت ، ثم ألقى

فى سفينة حتى مات، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة ودفن فيها .

وقد شمت الناس بموته، وهنأ بعضهم بعضًا، وتصدقوا، وحمدوا الله حمدًا كثيرًا. وقال أبو هاشم الباهلى :

يــابــؤس ميت لم يبكــه أحــدُ أجـل ، ولم يفتقــده مفتقــدُ
لا أم أولاده بكتــــــه ، ولم يبك عليــه لفــرقــة ولــدُ
بل زعمــوا أن أهلــه فــرحًــا لما أتــاهم نعيــه سجــدوا

الحكمة والأخلاق في شعر شوقي (*)

اختص الله شوقي بخصائص إذا اتفقت لشاعر كان من أفذاذ الشعر وأساطين البيان، فقد طوعت له الفطرة خيالا رائعًا سباحًا ينفذ إلى مكامن أغلقت على كثير ممن سبقوه أقفالها، وسدت أبوابها، ووهبت له الدراسة وحسن الاستعداد لغة صافية نقية كانت في يديه كالغصن الأملود يلويه كيف يشاء، ويذلله لأغراضه كما يريد. وأسلوبًا قرشيا رصينًا برئ من وصمة العجمة، ونجا من ميوعة الحضارة، وركة المتأخرين. واختصه الله بعقل نافذ وحافظة واعية جمعت له من المعانى والأفكار وعقد الصلات بين الأشباه وإدراك الفروق بين المتقابلات والمتشابهات ما يعيا بمثله كثير ممن خاضوا بحار الشعر فغرقوا عند ساحله.

والكلام في شوقي وشاعريته طويل الذيول لا يتسع له مقال، وهو أمر يجب أن تنظر فيه الجامعة وتخصه بدراسات واسعة تستغرق الأعوام.

وقد طلب إلى أن أتحدث في الحكمة والأخلاق في شعر شوقي، وهذا أيضًا مجال فسيح المدى، مترامى الجنبات، ولعلى أوفق فيه إلى الرأى القويم والقول المبين.

الحكمة في الشعر أثر التجربة الصادقة والإدراك الحق، وقوة البصر بحقائق الحياة، والأصل في الشعر أن يكون غنائيًا يصف ما تحس به النفس ويجيش بالصدر، وقد تتسرب الحكمة في غضون وصف الشاعر لآماله وآلامه، وقد ينطلق المثل من فيه من غير قصد عندما يعمق التفكير ويساير العقل الخيال. فقد ظهرت الحكمة في العصر الجاهلي وكان في كثير منها من الدقة وبعد النظرة ما يملؤك روعة وعجبًا. استمع لقول النابغة الجمدى:

ولا خير في حلم إذا لم يكن لـه ... بـوادر تحمى صفـوه أن يكـدرا

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٦٥٨ في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ م. ص ٨.

ولقول طرفة ابن العشرين :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ولقول الهذلى :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

والتمشى فى هذا الطريق يدفعنا إلى الإطالة .

وهكذا استمرت الحكمة فى الشعر فطرية ساذجة، حتى جاء العصر العباسى وترجمت كتب الأوائل، وامتزجت حضارة العرب بحضارات الأمم الأجنبية، فأصبحت الحكمة دراسة وفنًا قائمًا بذاته، ودبت الفلسفة إلى الشعر، وكان أول من حمل هذا اللواء أبو تمام الطائى، ثم أبو الطيب المتنبى ثم أبو العلاء المعرى فأغرق وأوغل حتى كاد يفسد الشعر بالفلسفة. وجاءت فترة الركود الأدبى فمات الشعر أو كاد، وماتت معه الحكمة والفلسفة، ثم نقر فى الناقور، وبعثر من فى القبور، وظهر البارودى فى عصر إسماعيل العظيم بشعر جمع خصائص العصور الزاهرة، فبهر الدنيا وشغل الناس، وكان البارودى يكثر من الحكمة وضرب المثل، ولكنها كانت حكمة منقولة مكررة معادة أو تافهة ليس له فيها من جهد إلا النظم وتقديم الأوزان وذلك مثل قوله :

والنفس إن صلحت زكت وإذا خلت ... من فطنة لعبت بها الأهواء

لو لم يكن بين الرجال تفاوت ... ما كان فيهم سادة ورعاء

وقوله :

والدهر مدرجة الهموم فمن يعش ... يهرم ومن يهرم يَمُتْ فيه البلى

ولو ذهبنا فى إحصاء حكم البارودى، لملأنا منها أوراقا، على أننا لو قلنا لكل حكمة : اذهبى إلى عشك الذى منه درجت، لم يبق فى هذه الأوراق شىء .

أما شوقى، فقد كان يرسل الحكمة مكررة أحيانًا، شأن غيره من الشعراء، ولكنه بعد أن نضجت شاعريته واشتد بالقريض أسره، جعل ينثر الحكمة الشاردة، رقيقة بعيدة الغور. فهو بهذه الميزة ند المتنبى وصاحبه المجلى، وقد وصفت فيه هذه الناحية بقصيدة يوم تكريمه جاء فيها :

وقفت تجدد آثارها ... وتنشر للعرب أشعارها

بقول له نفحات الرياض ... إذا نقط الطل أزهارها

أطاعت قوافيه بعد الشماس ... جرىء القريحة جبارها

فمن حكمة علمتها السنون ... حديث النفوس وأخبارها

لها صفحة الكون منشورة ... تترجم بالشعر أسطارها

أشوقى وأنت طبيب النفوس ... وضعت عن النفس آسارها

نصرت الفضيلة من بعد أن ... طواها الزمان وأنصارها

وجئت لمصر كعيسى المسيح ... تفتح للنور أبصارها
بآى تفصلها محكمات ... كأن من الوحى أسرارها
تسرد الشبيبة للصالحات ... وترجع للدين هتارها

ووصفت هذه الناحية أيضًا فى قصيدة رثائه، حين أقول:

عالم بالنفوس ما غاب سر ... فى خبايا النفوس حتى أبانه
أودع الدهر مسمعيه عن الكو ... ن، حديثًا فلم يطق كتمانه
ذاك سر الإله يختص من شا ... ء بآثار فضله سبحانه
شعره حكمة وصدق خيال ... وجمال وروعة ورصانة

أولع شوقى بإرسال الحكمة فاستمع له، وهو يقول بعد العودة من منفاه:

نثرت الدمع فى الدمن البوالى ... كنثرى فى كواعبها الشبابا
وقفت بها كما شاءت وشاءوا ... وقوفا علّم الصبر الذهابا
ومن شكر المناجم محسنات ... إذا التبر انجلى شكر الترابا
وإن المجد فى الدنيا رحيق ... إذا طال الزمان عليه طابا

وما أصدق حكمه حين يقول:

لا تثبت العين شيئا أو تحققه ... إذا تحير فيها الدمع واضطربا
والصبح يظلم فى عينيك ساطعه ... إذا سدلت عليك الشك والريبا
إذا طلبت عظيما فاصبرن له ... أو فاحشدن رماح الخط والقضبا
ولا تعد صغيرات الأمور له ... إن الصغائر ليست للعلا أهبا
ولن ترى صحبة ترضى عواقبها ... كالحق والصبر فى أمر إذا اصطحبا
كم صعّب اليوم من سهل هممت به ... وسهّل الغد فى الأشياء ما صعبا
ضموا الجهود وخلوها منكرة ... لا تملئوا الشدق من تعريفها عجبا
خلوا الأكاليل للتاريخ إن له ... يدًا تألفها درًا ومخشلبا
أمر الرجال إليه لا إلى نفر ... من بينكم سبق الأنباء والكتبا
أملى عليه الهوى والحقد فاندفعت ... يداه ترتجلان الماء واللهبا
إذا رأيت الهوى فى أمة حكما ... فاحكم هنالك أن العقل قد ذهبا

ويقول فى نصح قومه:

لا يعجبنكم ساع بتفرقة ... إن المقص خفيف حين يقتطع

ويقول:

إذا آخت الجوهرى الحظوظ ... كفلن اليتيم له فى الصدف

وإن عـــرضت عنـــه لم يحل فى		عيـــــــون الخرائد غير الخزف

ويقول :

إن الـــذى خلق الحقيقـــة علقما		لم يخل من أهـل الحقيقـــة جيـــلا

ويقول :

بــالعلم والمال يبنى النـاس ملكهم		لم يبن ملـك على جهل وإقـــلال

ويقول :

والظن يأخــذ مـن ضميرك مأخـذا		حتـى يـــريـك المستقيم محالاً

ويقول :

إذا كـــان الـرمـــاة رماة ســوء		أحلـوا غير مـرمـاهـا السهـامـا

وما أحكم قوله :

تقضى على المرء الليـــالى أو لـــه		فـالحمـد مـن سلطـانها والـذام
مـــا ليس يـدفعـه المهند مصلتًـا		لا الكتب تـدفعـه ولا الأقـلام
إن الغـــرور إذا تملـك أمـــة		كـالـزهـر يخفى الموت وهــو زؤام
يحصى الـذليل مـدى مطالبـه ولا		يحمى مـــدى المستقبل المقـــدام

وقوله :

من يـــرد حقـــه فللحق أنصـــا		ر كثير وفى الـــزمــــان كـــرام
لا تـــدومن نـــومـــة الحق للبـــا		غـى فللحق هبـــة وانتقـــام
إن للـــوحـش والعظـام منـــاهـا		لمنـــايـــا أسبـــابهن العظـــام

وقوله :

لا يقــــــولـن الفتـى أصلى فما		أصلـه مسك وأصـل النـاس طين
نسـب البــــدر أو الشمس إذا		جىء بــــالآبـــار مغمـــور رهين
وأصـــول الخمـــر مـــا أزكى على		خبث مـا قـد فعلت بـالشـاربين

وقوله :

فـــلا يغـــرنـك سكـــون الملا		فـالموت حـول الصـارم المغمـد

ويقول :

كـل دار أحـق بـــــالأهـل إلا		فى خبيـث مـن المذاهـب رجـس

وقد أجاد الإجادة كلها فى قوله لبنى الشرق :

فمن خـدع السيـاسـة أن تغـروا		بـألقـــاب الأمـــارة وهـى رق

وكـــم صيـد بـدا لك من ذليـــل ... كما مـــالت مـن المصلـوب عنـــق
ولـــلأوطـــان فى دم كل حـــر ... يـــد سلفـــت وديـن مستحق
ففى القتـــلى لأجيـــال حيـــاة ... وفى الأسرى فـدى لهـــم وعتـــق
وللحـــريـــة الحمـــراء بـــاب ... بكل يـــد مضرجـــة يـــدق

والحكم فى شعر شـوقى كثيرة، لا تخلو منها قصيدة، وبخـاصة سياسيـاته واجتماعياته ومـراثيه، حتى إننا لنجدها أحيانا فى غزله، كقوله:

لك نصحـى ومـا عليك جـدالى ... آفـة النصح أن يكـون جـدالا

أما حديثه فى الأخلاق فكثير شائع فى ديوانه، لأن شوقى نفسه كان صورة كاملة للخلق الكريم، وقد وصف نفسه بحق فى قصيدته التى يعتذر فيها لتخلفه عن فريضة الحج:

ويـارب هل يغنى عن العبد حجـة ... وفى العمـر مـا فيـه من الهنـوات
وتشهـد مـا آذيت نفسـا ولم أضر ... ولم أبغ فى جهـرى ولا خلـــواتى
ولا غلبتنى شقـــوة أو سعـــادة ... على حكمــــة آتيتنى وأنــــاة
ولا بت إلا كـابن مـريم مشفقـا ... على حسـدى مستغفـرًا لعـداتى
ولا حملت نفس هـوى لبـلادهـا ... كنفسـى فى فعـــلى وفى نفثـاتى
وإنـــى ولا مــن عليـك بطـاعـة ... أجـــل وأغلى فى الفـروض زكـاتى
ومن تضحك الـدنيـا إليـه فيغترر ... يمت كقتيـل الغيـد بـــالبسمات

لذلك أشاد شوقى بالأخلاق، وجعلها أساسا لحياة الأمم ومصدرًا لإسعادها، فهو يقول:

تخلق الصفح تسعـد فى الحيـاة بـه ... فـالنفس يسعـدهـا خلق ويشقيهـا

ويبكى أحيانا ضعف الأخلاق فيقول:

فأيـن النبـــوغ وأيـن العلـــوم ... وأيـــن الفنـــون وإتقـــانها ؟
وأين مـن الخلق حـظ البـــلاد ... إذا قتـــل الشيـــب شبـــانها ؟

ويقول:

الجهل لا تحيـا عليــه جماعـة ... كيف الحيـاة على يدى عـزريلا
وإذا أصيب القـوم فى أخـلاقهم ... فأقـــم عليهم مأتما وعـويـلا

ولم ينس أن ينوه بالأخلاق فى قصيدته الرائعة التى يصف فيها مملكة النحل:

قف ســـائل النحـل بـــه ... بـأى عقــــــل دبـــــره
يجبك بـــالأخــــلاق وهـــ ... ـــى كـالعقـــول جـوهـــره
ويـــــرفع الله بهـــــا ... من شـــاء حتـــى الحشـــرة

ويزعم أن الخلق عماد الحياة فيصيح :

رب بـــان لهـــادم وجمـــوع ... لمشـــت ومحســـن لمخـــس
إمـــرة النـــاس همـــة لا تأتـــى ... لجبـــان ولا تسنـــى لجبـــس
وإذا مـــا أصـــاب بنيـــان قـــوم ... وهى خلـــق فإنـــه وهـــى أس

ويقول :

دون الجـــلاء ودون يافـــع ورده ... خطـــوات شعب فى القتـــاد تســـار
وبنـــاء أخـــلاق عليـــه من النهـــى ... ســـور ومن علـــم الـــزمـــان إطـــار

ثم يجمع كل ما فى نفسه فى بيت واحد فيقول :

وليس بعـــامـــر بنيـــان قـــوم ... إذا أخـــلاقهم كـــانـت خـــرابـــا

ولشوقى شعر كثير فى الحث على الإحسان، والرفق بالضعفاء، والدعوة إلى كل ما ينهض بمصر والشرق، وشعره إلى ذلك يموج بالحكمة والاعتصام بالخلق القويم، ولا يتسع مجالنا هنا للاستقصاء واستيعاب الشواهد، ولكنا نرجو أن نكون قد ألممنا بها فيه كفاية وغناء .

شرح نهج البردة(*)

مُدح النبى الكريم بمدائح كثيرة منذ ظهور الإسلام إلى اليوم . وجاء عصر المماليك فامتاز الشعر بكثرة المدائح النبوية والإجادة فيها . وأشهر شعراء هذا العصر شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة خمس وتسعين وستمائة .

وشعر البوصيرى فى غير المدائح النبوية ضعيف خائر ، ولكنه فى البردة والهمزية يحلق إلى أبعد أفق فى البلاغة وجمال الروعة وسمو العاطفة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن الرجل كان شديد التأثر بجلال المقام الذى يقول فيه ، وأن روحه وحدها هى التى كانت تتكلم ، وأن نفحة نورانية غمرته فتلقف وحيها ونطق بلسانها .

ويحدثنا البوصيرى نفسه عن سبب تسميته قصيدته بالبردة فيقول :

اتفق أنى أصبت بفالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه وهى البردة ، فعملتها واستشفعت بها إلى الله فى أن يعافينى ، ونمت ليلة فرأيت النبى ﷺ فمسح على وجهى بيده المباركة وألقى على بردةً فانتبهت فوجدتنى قادرًا على النهوض فقمت بارئا من علتى . وشاع خبر هذا المنام حتى بلغ الصاحب بهاء الدين برع حنا فبعث إلى وأخذ القصيدة وحلف ألا يسمعها إلا قائما حافيا .

وقد خلقت البردة فنا جديدًا فى الشعر هو فن البديعيات ، ذلك أن الشعراء أخذوا يعارضونها مع التزام نوع بديعى فى كل بيت ، وأشهر هؤلاء صفى الدين الحلى وعز الدين الموصلى وابن حجة الحموى . وعارض البردة فى العصر الحديث البارودى فأحسن وأجاد كعادته . ومطلع قصيدته :

يارائد البرق يمم دارة العلم ... واحدُ الغمام إلى حى بذى سلم

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٦٥٨ فى ٢٥ أكتوبر ١٩٤٧ م ص ١٦ .

وحينما حج الخديو عباس الثانى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف نظم أمير الشعراء شوقى قصيدته التى سماها « نهج البردة » وجعلها تذكارًا لهذه الحجة، وشعر شوقى رائع كله ولكنه فى هذه القصيدة أبدع وأروع، فإن الذى يقرؤها يشعر بأن الفن إذا اتصل بالصوفية النقية الصافية كان وحيا من الوحى وهمسا من الإلهام.

والآن نأخذ فى شرح بعض أبيات هذه القصيدة الفريدة:

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

الريم: الظبى الخالص البياض. القاع: الوادى المنبسط. البان: شجر معتدل الساق تشبه به قدود الحسان. العلم: الجبل. الأشهر الحرم: هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وكانت العرب لا تستحل فيها القتال. بدأ الشاعر قصيدته بالغزل، فشبه حبيبته بالظبى فى رشاقته وحسنه وجمال عينيه، ثم شكا من أن حبيبته قتلته بالهجر والتجنى، وأحلت دمه فى الوقت الذى تسكت فيه السيوف وتدفن الأحقاد.

لما رنا حدثتنى النفس قائلة ... ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى

رنا إليه: أطال النظر. يقول إن الحبيبة حينما نظرت إليه فتنته هذه النظرة وأصابت قلبه كما يصيب السهم المسدد مرماه.

جحدتها وكتمت السهم فى كبدى ... جرح الأحبة عندى غير ذى ألم

ولكنه كتم هذه الرمية ولم يتشك منها لأن جرح المحبوب لا يؤلم «وكل الذى يأتى الحبيب حبيب».

يا لائمى فى هواه، والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

لقد أنلتك أذنا غير واعية ... ورب منتصت والقلب فى صمم

شفك: أضناك وأنحلك. منتصت: مستمع. يلوم لائمه فى الهوى ويذكره بأن الحب قضاء ليس للمرء فيه حيلة وبأنه لو عرف الحب وبرح به الغرام لكف عن لومه وتعنيفه، ثم يقول. إنى استمعت إلى عذلك مجاملة وإبقاء وكثير من الأحاديث ما يصل إلى الآذان ولا يصل إلى القلوب.

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدًا ... أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

عاد إلى حبيبه بعد أن ذاق فيه آلام الحب فأخذ يدعو له بالسلامة من الهوى وويلاته ويطلب إليه فى رفق أن ينام هانئًا فى رعاية الحب بعد أن أرق محبه وأقض مضجعه.

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية ... وإن بدا لك منها حسن مبتسم

صلاح أمرك بالأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها فى خير عافية ... والنفس من شرها فى مرتع وخم

حسن مبتسم: حسن ابتسام. مرتفع وخم: حياة وبيئة سيئة العاقبة.

انطلق الشاعر من الغزل إلى مناجاة النفس كما فعل البوصيرى، فهو يحذر نفسه من الاغترار بزخرف الدنيا لأنها تخفى وراء ابتسامها شرًا مستطيرًا. ثم يقول: إن النفوس لا تنجو من أوزار هذه الحياة إلا إذا تمسكت بالأخلاق الكريمة فإذا تحلت بخلال الخير عاشت فى أمن وعافية وإذا تردت فى مهاوى الشر عاشت فى أسوأ حال.

إن جل ذنبى على الغفران لى أمل ... فى الله يجعلنى فى خير معتصم
ألقى رجائى إذا عز المجير على ... مفرج الكرب فى الدارين والغمم
إذا خفضت جناح الذل أسأله ... عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة ... قدمت بين يديه عبرة الندم

خير معتصم: خير ملجأ وملاذ. الغمم: الهموم. لم أسأل سوى أمم: لم أطلب إلا شيئا هينا عليه. عبرة الندم: دموع الحسرة والأسف.

يقول: إن كان ذنبى عظيما فإن أملى فى غفران الله يجعلنى فى خير حمى وأكرم جناب، وإذا قل من يجيرنى من العذاب فإن لى رجاء فى سيد المرسلين الذى بعثه الله ليفرج الكروب ويكشف الهموم، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم فإذا تقدمت إليه ذليلا خاشعًا أسأله الشفاعة فى لم أسأله إلا شيئًا هينًا يسيرًا، وإذا تقدم إليه التقاة الأبرار بما قدموا من خير وعمل صالح فإنى سأتقدم إليه بدموع الندم والحسرة:

لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
محمد صفوة البارى ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نسم
ونودى (اقرأ) تعالى الله قائلها ... لم تتصل قبل من قيلت له بفم
هناك أُذّن للرحمن فامتلأت ... أسماع مكة من قدسية النغم

النسيم: النفوس. يقول إنى صرفت نفسى إلى الالتجاء إلى سيد الأنبياء لأنه مفتاح رحمة الله، ومن يظفر برضاه فقد غنم فى الدنيا والآخرة، فهو الذى اصطفاه ربه وأرسله ليكون رحمة لجميع خلقه، وهو الذى أنزل عليه الله: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾[العلق: ١] وهو خطاب لم ينطق به فم لسواه فصدع الرسول بالأمر ودعا إلى دين الرحمن وعز أرجاء مكة بالقرآن فملأ أسماع أهلها بالنغم القدسى والوعى الكريم.

سَرَتْ بشائر بالهادى ومولده ... فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
أتيت والناس فوضى لا تمرّ بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم

يقول: إن الدنيا هتفت مبشرة بمولد الرسول ﷺ، وإن هذه البشرى سرت فى مشارق الأرض ومغاربها فكانت نورًا يبدد الظلم والظلام، فقد بعث النبى الكريم والناس فى جهالة عمياء عكفوا على عبادة الأوثان فكانوا أصنامًا تعكف على أصنام.

أسرى بك الله ليـــلا إذ مـــلائكـــه والرسل فى مسجد الأقصى على قدم
لما خطـرت بــه التفـوا بسيـدهم كالشهب بـالبدر أو كالجنـد بالعلم
صلى وراءك منهم كـل ذى خطـــر ومـن يفـــــز بحبيـب الله يـأتمم
جبت السمـوات أو مـا فـوقهن بهم على منـــــورة درّيـــــة اللجـم
مشيئـــة الخالق البـــارى وصنعتـــه وقـــدرة الله فـــوق الشـك والتهم
حتـى بلغت سماء لا يطـــــار لها على جنـــاح ولا يسعى على قـــدم
وقيـل كل نبـى عنـــــد رتبتـــــه ويـا محمـد هـذا العـرش فـاستلم

الشهب: النجوم. كل ذى خطر: كل ذى منزلـة رفيعة. والمراد بـالمنورة الـدرية اللجم: البراق، ومعنى استلم: قبّل.

يـذكر هنـا إسراء النبى الكريم من مكـة إلى المسجد الأقصى فيقـول: إن الملائكة والرسـل كانوا محتشدين للقائه، وإنهم التفوا حوله كما تلتف النجوم بالبدر والجنـود بالراية وإنهم ائتموا به فى الصلاة وهذا فوز لهم عظيم، ثم يصف عروجه إلى السماء وأنه ركب البراق وهو ليس من جنس الدواب ولكنه من خلق الله القدير ومشيئته العاليـة التى هى فوق الشك وخطرات الظنون، وأنه بلغ السموات العلا التى لا يصل إليها طائر ولا ساع بقدم وأن رتبته كانت فوق رتبة الأنبياء.

يـــارب هبت شعـــوب من منيتهـــا واستيقظت أمم مـن رقـــدة العـــدم
رأى قضـــاؤك فينـــا رأى حكمتـــه أكـرم بـوجهك من قـــاس ومنتقم
فـالطف لأجل رسـول العـالمين بنـا ولا تـــزد قـــومـــه خسفـــا ولا تسم
يـــا رب أحسنت بـدء المسلمين بـــه فتمـم الفضل وامنـح حسن مختتـم

هبت: نهضت من رقدتها. لا تسم: لا تكلفنا سوءًا أو مشقة.

يبتهل إلى الله ويسأله اللطف بالمسلمين ويقول: إن شعوبا كثيرة يارب تيقظت بعد الموت وعادت إليها الحيـاة، وقد رأى قضاؤك الحكيم فينا رأيـا وأنت خير قاض وأعدل منتقم، فـالطف اللهم بجاه رسولك بنا، ولا تزدنا ذلا وعـذابًا. ولقـد شملت المسلمين يـارب بـرحمتك ببعثك فيهم محمـدًا فأتمم عليهم النعمة وامنحهم حسن الختام.

الهجرة بطولة وعزم وإيمان (*)

احتلك الظلام قبل بَعثة النبى الكريم، وخبط الناس فى عمياء، وأصابت الكون موجة من الشر والفساد، فطُمست معالم الأديان، ونُبذت الشرائع، وماتت أخلاق الرجال، وأصبح الناس فوضى تقودهم الشهوات، وتسيطر عليهم غرائز الشرّ. فقد كانت الدنيا تعنو لتاجين، وتخضع لدولتين: هما دولة الرومان ودولة الفرس. وقد بلغ هاتان الدولتان قمة عزهما، وأمد مجدهما فى ملاوة من الدهر طويلة، ثم امتد بهما الزمان ونشأت فيهما أجيال فى أكناف الرفاهية والنعيم، رأوا الدنيا تحت أقدامهم، وأن ثمرات العالم تجبى إليهم، فانصرفوا إلى الراحة وناموا فى ظل ظليل من الأمن والثقة، وافتنّوا فى صنوف اللهو الفاجر والعبث الأثيم، وقذفوا بكل ما بقى فى نفوسهم من شهامة ورجولة وخلق رصين، فاضطربت الموازين وانقلبت الأوضاع، وأصبحت الرذيلة من دلائل النبل وكرم المنبت، والفضيلة عارًا تَنفر منه النفوس وسخرية تتنادر بها المحافل.

هكذا كانت الدنيا قبل بعث النبىّ الأمى عليه صلوات الله ورضوانه . أما بلاد العرب فكانت وكرًا للوثنية الجاهلية الغبية، أرخى أهلها على عقولهم النافذة الوقادة غشاء من التعصب والجمود، فعكفوا على أوثان لهم صنعوها بأيديهم، ثم زعموا أنها تضرهم وأنها تنفعهم، وأن لها التصرف المطلق فى هذا الوجود. ولقد كانت هذه الوثنية قبرًا لعقولهم، وقضاء على مواهبهم، وتفريقًا لوحدتهم، فكانوا جميعًا وقلوبهم شتى: شقاق ونزاع بين القبائل، وإدراك كاذب لمعنى الإباء والبطولة، ونخوة فيها جموحٌ وجهل، ووحشية يلتهم فيها القوى الضعيف، وكبر وجبرية لا يلينان لحق ولا يخضعان لحاكم، وحرية مقيدة مغلولة لا تنال إلا بالاحتكام إلى السيوف، وتفاخر أجوف بالألقاب والأنساب. جهل وظلم وظلام! حقًّا لقد فسد الكون كله، وضلت الإنسانية سبيلها، وسقطت البشرية فى هوّة عميقة

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٣/ ١١/ ١٩٤٧ .

الغور بعيدة المرتقى، وتطلعت الأرض إلى السماء تلتمس منها النور والهداية. إن الله أرحم من أن يترك الناس هكذا هملا! وأكرم من أن يدع العقل الإنسانيّ هكذا مرتكسًا بين رذيلة موبقة وجهل محيق!

رأى الله أن يبعث للناس كافة رسولا اختاره واجتباه من صفوة خلقه، رأى الله أن يبعث فيهم محمدًا الأمين بعد أن اصطفاه لنفسه وكمله بأكرم الصفات، وحلاّه بمكارم الأخلاق. اختار رسوله من جزيرة العرب لأنها مقر بيته العتيق، ولأن العرب ـ على ما كان فيهم من جفوة وخشونة ـ كانوا أمة أبيّة، موفورة الذكاء، متأججة العاطفة، سلمت بداوتها من مآثم المدينة، فلم تُضعِف الشهوات رجولتها، ولم تعبث رفاهية النعيم بغرائزها. وهى أمة إذا اقتنعت بحق أو اطمأنت نفوسها إلى رأى قذفت بأرواحها رخيصة فى نصرته، واستعذبت العذاب فى سبيله.

رأى الله جلت حكمته هذا، فبعث فى العرب رسولا من أنفسهم، استطاع بهذه الأمة الصغيرة المفككة، بعد أن وحد كلمتها الإيمان، أن يغزوا بها العالم كله، وأن يَثُلّ بها عروش القياصرة الرومان، ويحطم تيجان الأكاسرة. وأمة العرب لم تذق فى حياتها ذل الاستعمار، أحاطت بها من جانبيها إمبراطورية الرومان ودولة الفرس، وبذلت كل دولة جهودًا فى أن تبسط ظلها عليها، ولكن العرب كانوا أصلب عودًا، وأحمى أنوفًا من أن ينهزموا أمام فاتح، أو أن تلين قناتهم لغازٍ كيفما كان صوله وطوله وحوله؛ فهذه الأمة العزيزة بأنفتها، القوية بأخلاقها كانت أولى بأن يكون رسول الله ﷺ منها، حتى ينشأ كما نشأت، عزيزًا من أعزاء، وحتى يستطيع أن يبعث من حرية الصحراء إلى العالم كله حرية طليقة تضع عنه إصره والأغلال.

نشأ محمد ﷺ فى أرفع بيت وأشرف قبيلة، وكان فى حداثته يمتاز بصدق التفكير وقوة البيان وطهارة النزعة. وإن من يُعده الله لرسالته العظمى ودعوته الكبرى خليق بأن تظهر فيه مخايل النبوة، وأن ينماز عن الناس جميعًا بما أودع الله فيه من وقوى كامنة، وبما أمده من سجايا وشيم. رأت فيه قريش كل هذا، وتكهن عقلاؤها بما سيكون له من شأن وخطر. كان بشرًا مثلهم ولكنه كان روحًا قدسيًّا يمشى على الأرض، وسرًّا سماويًّا يخالط الناس كأنه من الناس. وقد شاء الله عزّ شأنه أن ينشأ نبيه المرجّى يتيمًا وأن تدفعه الحياة إلى طلب الرزق، وأن يلاقى من أحداث الأيام ما يلاقى الناس من خير وشرّ، فما كاد يبلغ العشرين حتى اتخذ التجارة سبيلا لكسب العيش، فطلب الحياة من أسباب الحياة، وفى هذا بلاغ للناس وحكمة بالغة لأولى الألباب. فليت شعرى هل علم قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وجحاجحة الأمم جميعًا أن هناك فى زاوية محجوبة من جزيرة العرب، سيفًا بتارًا يريد أن يستل من غمده ليهزم الشرك ويقضى على الطغيان؟ وهل خطر لهم وهم فى غمرات شهواتهم أن كوكبًا سماويًّا من الحق وصدق العزيمة سينقض من حيث لا يتوقعون فيبدِّد شملهم ويفرق سمّارهم؟

نشأ النبى الكريم نشأة روحية طاهرة، فيها زهد، وفيها تبتل، وفيها عزوف عن كل ما يشين.

وكـان يقضى فى كل عام زمنًـا متحنثًا فى غـار حراء منصرفًـا إلى التوجـه إلى خالقـه والتفكير فى دلائل قدرته . صمته عبـادة ، ونطقه تقديس وتسبيح ، ونظراته إيمان واعتبار. وقـد هبط عليه الوحى الكريم فى إحدى هذه المرات ، فأصـابته رجفة وغشيه من هول الأمـر ما غشيه ، وهاله مـا هاله . فما إن سمع صوت الملك هامسًا فى أذنه «اقرأ» حتى صاح فى فزع : «ما أقرأ» ، ثم قال : مـاذا أقرأ؟ فقال : ﴿اقرأ بـاسم ربك الـذى خلق . خلق الإنسـان من علق . اقرأ وربـك الأكرم . الـذى علم بـالقلم . علم الإنسان مـا لم يعلم﴾ [العلق ١ـ٥] فكان هذا مبـدأ رسالته وأول صوت انطلق فى بطحـاء مكة ، فهزّ العالم هـزًّا ، وأطلق العقول من عقالها ، أطـاع الرسول نـداء ربه فأرسل صوتـه قويًّا مجلجـلا فى أنحاء مكة ، يدعـو قومه إلى الدين الحق ، ويبشّر وينذر ، لا يهاب قوة ولا يخشى جبروتـا ، ولقد كان العبء شاقًّا ، والجهاد مضنيًا ، ولكن صبر النبوة كان لا يخور ، وعزم الرسالة كان لا يلين ، جاء يدعو القوم إلى إله واحد وإلى نبذ آلهتهم ، وفيها مجدهم كما يزعمـون ، وجاء يصرفهم عن عادتهم بعد أن امتدت فيهم جذورها ورسخت أصـولها ، وجاء ينعى عليهم التفاخر بالأنساب والألقـاب ، وهى غذاء غرورهم ، وجاء يسوى بين الناس جميعهم وهـم أحفل الناس بنظام الطبقات ، ثم جاء يشرع لحياتهم ومعاملاتهم بعد أن استمرءوا الفوضى واغتصاب الأموال .

لم يستجب لدعـوة الرسـول الكريم إلا فئة قليلـة شرح الله صدورها لـلإيمان ، ولكن الرسـول أقام سنين مثابرًا يصـدع بأمر ربه ، ويعرض نفسـه على القبائل ، حتى رأى أن يهاجر إلى المدينـة ، فهاجر. لقى النبى ﷺ كثيرًا من الإيـذاء من قريـش ، وتعرض لكثير من أسبـاب الهلاك . إن من يظن أن النبى ﷺ هـاجر لإيـذاء قريش إنما يقيس حياة الرسل الكرام بحيـاته ، ويحكم على أنفسهم بهواجس نفسه . إن أولى العزم لا يخافـون وإنهم معصومون من الناس ومن شر النـاس ، وإن الذى يقول لابنته فـاطمة بعد أن غلبهـا البكاء لشدة ما يقـاسى من قومه : «لا تبكى يـا بنية ، فإن الله مانع أبـاك» . وإن الذى يقول لصاحبـه إذ هما فى الغار: « يا أبا بكر، مـا ظنك باثنين الله ثالثهما» . إن الذى يقـول هذا وهذا لا يأبه لإرجاف ولا يبالى بـوعيد . إنما هجر الرسول عليه أزكى السلام مكة لأنـه رأى بعد حين ، وبعد ما ظهر له من غلظة أهلها وجفوتهم ـ وقد كانت فيهم الـرياسة والزعامة ـ أن عقولهم لم تنضج بعد لتفهم الدين الجديد وأنـه يجب أن يُترك لهذه العقول الجامحة وقت يراوضها فيـه التفكير ويفاديها ، فلعل طول التأمل وتكرار النظرات يهدئ من شماسها ويفتح ما أغلق من أقفالها . هكذا رأى النبى الكريم أن يترك قريشًا لأنفسها حينًـا من الدهر، على أن يعاودها بالدعوة إلى الإسـلام بعد أن يكمل استعدادها ويتم نضجها . وهكذا كان ، فإن اعتزاز الدين إنما كان بفتح مكة حين جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا . وقد كان أهل المدينة ألين جانبًا وأشف نفوسًا وأجدر بالإسراع إلى الدعوة لدماثة فى خلقهم ولاختلاطهم بكثير من أهل الكتاب ، ولأن بعضهـم وفد عليه بمكة ، فآمن بـه وبايعه . لكل هذا هـاجر رسول الله إلى المدينة .

والهجرة من أولها إلى نهايتها عمل كله بطولة وإقدام واستهانة بالصعاب. خرج مع صاحبه الصديق فى جرأة واعتزام، ومكثا بالغار أيامًا، وعلم فتيان قريش بخروجهما، فاقتفوا أثرهما والسيوف تلمع فى أيديهم، والشر يصرخ باسمه فى وجههم، ولكن الله أعماهم عنه، فنجّى رسالته وأتمّ نوره، وحمى رسوله من صولة المشركين.

كان الطريق وعرًا طويلاً، والقيظ لافحًا والسير مضنيًا، ولكن محمدًا وصاحبه كانت تظلهما آمال رفافة النسيم، ويذلل مسالكهما إيمان لا يدع للكلال أو الألم إلى نفسيهما سبيلاً. سارا أيامًا وأيامًا حتى بلغا المدينة فدخلها الرسول وهو يمتطى ناقته، وقد أرخى لها زمامها، والمسلمون من أهل يثرب حوله يهللون ويكبرون حتى بلغت الناقة مربدًا لغلامين يتيمين من بنى النجار، فبركت، فنزل الرسول الكريم وطلب أن تبنى له دار بهذا المكان وأن يقام به مسجد للمسلمين. وهكذا، رسخت صخرة الإسلام شامخة شماء، وهكذا ضرب النبى الكريم المثل الأعلى فى الصبر والثبات لكل مجاهد وثّاب. ثم جاءت الآية الكريمة تتوج هذه الهجرة المباركة، فتقول: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم**﴾.

الشعر الأندلسي (*)

يمرّ أساتذة تاريخ الأدب وكل من كتب فى تاريخ الأدب بالشعر الأندلسيّ فيقفون به لحظات كما يمر الشاعر الجاهلى على دراسات الأطلال، فلا يلقى عليها أكثر من تحية وذكرى، وربما ودّعها، وهو يزجر ناقته للسير، بكلمة دعاء يسأل لها فيها انهمال المطر وعودة الخصب ورونق الحياة. يمرّون بالشعر الأندلسى فيكتفون بالقول بأن هناك فروقًا بينه وبين الشعر المشرقى، وبأنه يمتاز بكثرة الوصف وتعدد ألوانه، لا يزيدون على ذلك شيئًا، ولا يسمحون بأن يبينوا لنا هذه الفروق حتى ندركها ونشعر بها ونحكم معهم واثقين، وحتى نكون على أهبة لتبيينها لكل سائل، وشرحها لكل طالب، وحتى نستطيع أن نضع شعرًا أندلسيًّا إلى جانب شعر مشرقى ثم نشير بسبَّابتنا إلى الفروق فرقًا فرقًا، كما يفعل كل مختص فى صناعته، ماهر طَبّ بمهنته. إن تاجر القطن يعرف أول وهلة نوع القطن الذى يعرض عليه، ويجد من النظرة الأولى الفرق بين ضروبه ومراتبه. وإن عالم التشريح إذا ألقيت إليه عظمًا بشريًّا نبأك بعد قليل باسمه وموضعه من الجسم وبسن صاحبه، وبأنه عظم رجل أو امرأة، وربما قص عليك بعض الأمراض التى اعتورته أيام حياته.

لا يذكر لنا أساتذة تاريخ الأدب شيئًا من هذه الفروق، وإنما يكتفون بكلمات غامضة عائمة، لا تروى غليلاً، ولا تشفى عليلاً. والموضوع جد خطير، وهو مبحث لا ينتهى فيه الأمر بكلمة عابرة، أو فكرة خاطرة. وهذا عيب مؤرخى الأدب من قدامى ومحدثين، لا يتركون سانحة ولا بارحة من غير أن يشيروا إليها، ولا يتركون موضوعًا من غير أن يرسلوا إليه نظرة عاجلة لا تسمن ولا تغنى من جوع. يطرقون كل باب ولا يدخلونه، ويدلون على الكنوز ويكتفون بالبحث عنها فوق الطبقة الأولى من التراب. إن برامج تاريخ الأدب ومناهجه فى المدارس تموج بأدق المسائل وأجدرها بالبحث، ولقد كان

(*) نشرت بمجلة « الكتاب » عدد ديسمبر ١٩٤٧ .

واضعوهـا كرمـاء إلى أقصى حد، أسخيـاء بها لا يدخـل فى طوق باذل. ولكـن يظهر أن عـد أمهات المسائل شيء، وأن بحثها واستقصاء أطرافها شيء آخر، ويظهر أيضًا أن التفكير فيما يمكن أن يبحث ويـدرس سهل هين يسير، وأن البحث نفسـه والـدرس نفسـه من أعقـد الأمـور وأعصـاهـا على غير الراسخين، وربما مرّ بك عنوان طريف فى الأدب له بـريق، وله روعة، فإذا أنعمت فيه النظر وتجرّدت للبحث فيه بجدّ واستيعاب لم تلق أمامك شيئًا، أو التقيت بتوافه من القول لا تغنى فتيلاً.

أنا واثق من أن هنـاك فروقًا بين الشعرين الأنـدلسى والمشرقى، وأنا محسّ هذه الفروق حقًـا، وأنا مدرك مـن غير حاجة إلى تعليل أو فلسفـة أننى بعد قـراءاتى الطويلـة للشعرين الأنـدلسى والمشرقى أستطيع أن ألمح الشعر الأندلسى، وأن أتبين خصائصه غـامضة من وراء ضباب. وأعتقد أن الأديب الذى لا يستطيع أن يمّيز على وجه من الـوجوه بعد طول المعاناة والمزاولـة، خصائص الشعر وسماته فى عصوره المختلفة أديب خائب ضعيف الملكة له دماغ لا تثبت عليه الصور.

وقديما كـان نقاد الأدب يميـزون شعر شاعـر من شعر شـاعر آخر. قـال أبو عبيـدة: أنشد رجل بشارًا:

وأنكـرتنى ومـا كـان الـذى نكـرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعـــا

ونسب البيت إلى الأعشى، فـاستنكر بشار نسبتـه إليه وقـال: هذا بيت مصنـوع، ما يشبـه كلام الأعشى. فعجبت لذلك، فلما كان بعد عشر سنين كنت جالسًا عند يونس فقال: حدثنى أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعـر الأعشى. فجعلت حينئذ أزداد عجبًا من فطنة بشار، وصحة قريحته، وجودة نقده للشعر.

إن الشعر كالماء يأخذ لون إنائه، وهو مثل كل مخلوق حيّ نابض، يتأثر بالبيئة التى هو فيها، وإذا كـان هناك فـرق بين شعر شـاعـر وشاعـر، فأولى أن يكـون هذا الفـرق أبين وأظهر بين شعـر الموطن والموطن. إن الشعر الجاهلى غير الشعر الإسلامى وهذا لا يماثل الشعر العباسى فى خصائصه؛ وشعر مصر غير شعر الشـام؛ والشعر المصرى فى عهـد الفاطميين غيره أيـام الأيوبيين والمماليك، كـل هذه حقائق ثابتـة بالذوق والإحساس من غير أن تنال مـا تستحق من الدراسة والتمحيص حتى تثبت على الجدل وتأخذ مكانا قريبًا من الحقائق المنطقية التى تصمد للنقد وتعتز بالبرهان.

أما أن الأنـدلسيين أكثروا من الوصف فصحيح، ولكنـى لا أعد هذا من الفـروق بين الشعرين، لأنى أريد الفروق فى الصناعة الفنية، فى الأسلوب، فى الصياغة وفى تصوير الخيال، لا فى أنهم أكثروا من هذا النوع وأقلـوا من ذاك. ومن ذا الذى يعيش فى الأندلس، فى هذه الروضة الـوارفة الظلال، فى هذا الفـردوس الأرضى، ويكون فيـه فطرة الشعـر، ولا يسجع سجع الحمائم؟ من ذا الذى يـرى تلك الأنهار الـدافقة، والأدواح البـاسقـة، والبساتين البـاسمـة، والجبال السـامقـة، ولا يطرّب تطـريب العنادل؟ ولكن بِمَ كانوا يطرّبون؟ وبأىّ لحن كانوا يغنون؟ وعلى أى مزهر كانوا يضربون؟

هل تأثر شعراء الأنـدلس بالثقافة الإسبـانية ؟ سؤال يجب أن يجاب عنه ، لأننـا واثقون إلى حد لا يقبل الشك ، بأن الإسبان تأثروا بالثقافة العربية ، وأن مـدارس العرب كانت مثابة ومآبا لطلاب العلم من القارة الأوربيـة جميعها ، وأن الأدب الإسبانى والشعر الإسبـانى يفيضان بالأخيلة العـربية والذوق العربى ونمط العرب فى التفكير، وأن كثيرًا من كتب العرب ترجمت إلى الإسبانية واللاتينية ، وكانت فى أوربا فى عهود ظلامهـا سراجًا وهاجًا . نحن على يقين من كل هذا، ولكن الذى نـريد أن نتعرفه على نحو تطمئن إليه النفس، هو استفادة الشعر الأندلسى من الحضارة الإسبانية . إن الشعر المشرقى تأثر بالفـرس والرومان واليونـان والهنود، وظهرت آثار هـذه المدنيات فى معانيه وأخيلتـه وأساليب تفكيره ، فهل ظهرت فى الشعـر الأندلسى أثـارة من المدنية الإسبانيـة ؟ الحق أن هناك تأثيرًا وتأثـرًا ، ولكن هذا التأثر لم يكن فى قوته ووضوحه كما كانت الحال فى تأثر الشعر المشرقى بالحضارات الأجنبية ، لأن عرب إسبانيـا ، وهـم الفاتحون المعتزون بقـوميتهم وجنسهـم، كانوا فى مبـدإ الفتح فى قمة من الكبر والصلف والتعصب لعروبتهم لا تطوّع لهم التدلى إلى اقتباس شىء من شعب مستكين مغلوب ، فكانوا فى ذلك أشبه ببنى أمية فى المشرق، على أن هـذا التشبيه يذهب هباء إذا علمنـا أن الأمويين أنفسهم هم الذين كانوا يحكمـون الأندلس فى ملاوة طويلـة من عهود الازدهار. ويجب أن لا ننسى أن الثقافـة الإسبانية أيام الفتح العربى لم يكن لها من القوة والـروعة ما يغرى العرب باقتباسهـا والعكوف على ترجمتها ، كما فعل العبـاسيون فى عهـد نهضتهم الأولى ، غير أن العرب فى عهـد ملوك الطـوائف وبخاصـة بعد أن استقرّوا طـويلاً بـالجزيرة، وبعـد أن خمدت من نفوسهم حماسـة الفتح ، وبعد أن امتـزجوا بـالإسبان وأصهروا فيهـم، أخذوا يحاكون الإسبان فى لبـاسهـم وسلاحهم وأعلامهم وسروجهـم، وكان كثير منهم يعرف الإسبانية وغيرها ، وكثير يحذق علومهـا وآدابها . قال صاحب « نفح الطيب » : « كان محمد بن أبى بكر المرسى من أعرف أهل الأندلس بالعلـوم القديمة ، كالمنطق والعدد والموسيقى والطب ، وكان فيلسوفًا طبيبًا ماهرًا ، وآية من آيات الله فى المعرفة ، وكان يعلّم أبناء كل أمة بلسانها ما يرغبون فى تعلمه من فنون ، ولما تغلب طاغية الإسبـان على مرسية عرف له قدره، فبنى له مـدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود» .

وقـد تلقى العـرب من الإسبـان شيئًـا غير قليل من مهـارتهم فى الهنـدسـة وفنـون العمارة والنحت والتصوير.

وأظهر ما يبدو لنا من تأثر الشعر الأندلسى بالثقافة الإسبانية ما شاع فيه من نظم حوادث التاريخ وسير الأبطال والملوك ، فإن هـذا شىء جديد فى الشعر العربى من غير شك . وأول ما نقـرأ هذا النوع لابن عبد ربـه صاحب « العقد » ، فقـد نظم سيرة أبطال الإسلام، ثم جـاء من بعده أبو طـالب عبد الجبار فنظم قصيـدة طويلـة فى ثلاثة وخمسين وأربعمائة بيـت ، منها سبعة وخمسـون ومائة فى المقـدمة والتوحيد والتصوف وبدء الخليقة وتاريخ الرسل ، ومـائتان وأربعة عشر بيتًا فى تاريخ الإسلام من لدن

الخلفاء الراشدين إلى خلافة المسترشد العباسى، واثنان وثمانون فى تاريخ الأندلس من دولة بنى أمية إلى حكم على بن يوسف بن تاشفين، وكان ذلك حوالى سنة خمسمائة من الهجرة. ولاشك أن الشعر العربى لم يكن له عهد بهذا الطول فى القصيد، ولا بالتعرض لتاريخ الوقائع والأشخاص، فإننا لا نعرف شاعرًا بالمشرق نحا هذا المنحى؛ ونعتقد أن شعراء الأندلس سمعوا كثيرًا من الملاحم الإسبانية الطويلة التى كان يتغنى فيها الشعراء ببطولة شجعانهم، وكان المنشدون من الإسبان ينشدونها فى المجامع والمحافل العامة.

والموشحات الأندلسية قبس من الشعر الإسبانى، أو قل إن الشعر الإسبانى هو الذى أوحى بها ووجه الشعراء إلى تلك الحرية، وأجج فيهم هذا التمرد على الأوزان القديمة، وما يزعم الناس من أن ابن المعتز نظم موشحة لا يؤبه له كثيرًا؛ لأن للموشحات روحًا وفنًّا وطعمًا، وما نظمه ابن المعتز من بعض أبيات لا يخرج فى رأيى عن محض تصرف فى القافية لم يكن معهودًا.

ومن الجديد الذى نلمحه فى شعر الأندلس دفع بعض الشعراء الجماد إلى الكلام، وتحريك لسانه بالحديث، وتنزيل الصخر الأصم منزلة العاقل المدرك، واستنباط العبرة من وراء كل ذلك. وكانت أول محاولة لهم فى هذا الاتجاه ما عقدوه من حوار نثرى بين بلاد الأندلس، فجعلوا كل مدينة تجادل عن نفسها، وتتحدث بمحاسنها، وتفخر على بقية البلدان بما لها من شأن ومكانة، فترد عليها مدينة أخرى وهكذا، وأكبر الظن أن هذا مقتبس من الأدب الإسبانى، فإذا حدث شىء من ذلك فى المشرق كالمنافسة بين السيف والقلم، فإنما هو عن الأدب الأندلسى مأخوذ.

كان العرب يحيون الديار، ويلحون عليها فى أن تتكلم، ولكنها كانت تمتنع أن تفوه بكلمة، حتى ليقول قائلهم:

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم

ويقول الآخر:

يادار عبلة بالجواء تكلمى ... وعمى صباحًا دار عبلة واسلمى

ولكن ابن خفاجة الأندلسى استطاع أن ينطق الحجر، فأنشأ لنا قصيدة كاملة قصّ علينا فيها حديثًا طويلاً لجبل مر به فى طريق سفره. وإنى أزعم أن هذا جديد فى الشعر العربىّ، وأن للبيئة الإسبانية شأنًا فيه. استمع له:

وأرعنَ طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أعناق السماء بغارب
يسدّ مهبّ الريح من كل وجهة ... ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالى مُفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب

أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وقال : إلى كم كنت ملجأ قائل وموطن أوّاه تبتل تائب !
وكم مرّ بى من مدلج ومؤوِّب وقال بظلى من مطى وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفى وزاحم من خضر البخار غواربى
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى وطاحت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكى غير رجفة أضلع ولا نوح وُرْقى غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعى وإنما نزفت دموعى فى فراق الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب أودع منه راحلًا غير آئب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرًا فمن طالع أخرى الليالى وغارب
فرحماك يامولاى دعوة صارخ يمد إلى نعماك راحة راغب

هذا خيال جديد فى أسلوب جديد، وأعتقد أن قصيدة أبى الهول لشوقى إنما هى محاكاة لابن خفاجة.

وتأثر الشعر الأندلسى بالبيئة النصرانية واليهودية واضح. نعم إن هذا التأثر وجد بالمشرق أيضًا منذ قال الشاعر الجاهلى :

إنّ من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جآذرا وظباء

ولكن شيئًا من ذلك كان قليلا، أما فى الأندلس فكان بيّن الأثر لاختلاط العرب بالفرنجة واليهود اختلاط معاشرة ومخادنة، يقول ابن الزقاق :

وحبب يوم السبت عندى أننى ينادمنى فيه الذى أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياء أنى مسلم حنيف ولكن خير أيامى السبت

وتقول نزهون الغرناطية :

لله درّ الليالى ما أحيسنها وما أحيسن منها ليلة الأحد !

أما محمد بن الحدّاد الشاعر فقد فتن فى صباه بفتاة نصرانية سماها نويرة، ولعل اسمها نورا «Nora» وإن زعم بعض المؤرخين أن اسمها جميلة، وقد أبدع فى التغزل بها، وقال فيها كثيرًا، ومن ذلك قوله :

فإن لى بالروم رومية تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة بين صواميع وبيعات
أفصح وحدى يوم فصح لهم بين الأريطى والدويحات

هذا ما نعرفه الآن من تأثر العرب بثقافة الأندلس، وربما غاب عنا أكثر منه، وربما جهلنا أكثر من هذا الأكثر، ولكنا إذا رجعنا إلى الشعر الأندلسى لا نلمح فيه ثقافة تزيد عن ثقافة العربى الصميم،

أو تزيد عـن ثقافة شاعر معـاصر فى العهد العباسى، وأكبر ظنى أن الشعر الأنـدلسى ظل محافظًا فى هذه الناحية وأنـه كان يستورد ثقافته من المشرق، ويستغنى عن بضائعـه المحلية. لم ينس الأندلسيون المشرق، ولم ينس شعـراؤهم أن يغنوا بـالمشرق ومجده وحضـارته، وكـانت الـرحلة للتجـارة والحج بين الأنـدلس والمشرق يصحبهـا رحـلات أدبيـة علميـة مستمـرة، يحمل فيهـا الأدبـاء إلى الأنـدلس كل مستحدث فى المشرق من شعر وعلم وأدب، فالطريقة النادرة أو المقطوعة الشعرية كانت تقال بالمشرق فلا يمر بها أيام حتى تسمع بالأندلس، وكم من أديب أندلسى أهدى آثاره إلى ملك مشرقى، كما كان بعض مؤلفى المشرق يهدون مؤلفاتهم إلى ملوك الأندلـس، وحسبنا من فتنة الأدباء الأندلسيين بالمشرق أن ابن عبد ربه صاحب «العقد» لم يجمع فى كتابه إلا أدب المشرق، حتى إن الصاحب بن عباد حينما قرأه لم يزد على أن قال: «هذه بضاعتنا ردت إلينا». ولهذه الصلة الوثيقة بين الأدبين كان يشبه الأدباء بعض شعراء الأندلس ببعض شعراء المشرق، فقد سمى ابن هانئ بمتنبى الغرب، وسمى ابن زيدون بالبحترى. ومع هذا لا تزال هناك فروق بين الشعرين فى الصناعة الفنية وطرق تصوير الخيال.

أعلام الإسلام

يزيد بن معاوية بن أبى سفيان (*)

كان من عادة قدماء الفرس عند البدء بمخاطبة كبار ساستهم أن يقولوا : أيها السيد أبقاك الله! وهذا الدعاء على استحالته يوحى إلى النفس بأنه لو تحقق لكان حلا موفقا لكثير من المشكلات السياسية ، على شريطة أن يكون المدعو له بالخلود رجلا يجمع كل صفات الرياسة والعبقرية . وكان معاوية بن أبى سفيان من هذا الصنف السياسى النادر، الذى لا تظفر بمثله البشرية إلا بين الحين والحين. ولم يكن حكم معاوية قصير الأمد، فإنه قضى أربعين عامًا يصرّف شئون المسلمين، منها عشرون سنة كان فيها أميرًا للمؤمنين غير منازع . ومع هذا، لو تنفس به العمر وامتد به الأجل لقضى على أسباب الفتنة فى الدولة، ولتغيّر كثير من مظاهر التاريخ . فلقد كان معاوية ملكًا موهوبًا، يجمع جميع آلات الرياسة والسياسة . وكان من الضرب الذى لو وجد فى أى عصر قديم أو حديث لبزَّ كبار الدهاة .

قامت دولته على أربع دعائم : البطش، والسخاء، والحلم، وحسن اختيار الرجال . وكان يداول بين هذه الصفات الأربع عقل لوذعىّ نفاذ كادت تنكشف له محجبات الغيوب، فما عالج أمرًا بمساعدة منها إلا وصل إلى غايته . فهل ورث ابنه يزيد منه تلك الصفات السامية التى مهدت له الأمر، وأذلت له أعناق الرجال، وأخذت بيده إلى الخلافة وقد كانت السبيل إليها أضيق من شدوق الأراقم؟ سنرى! أراد أبوه أن يمهد له سبيل الخلافه، وأن يحمل وجوه الناس وعظماءهم على أن يعترفوا له بولاية العهد، وهذه قصة طويلة فى كتب التاريخ، ظهرت فيها مواهب معاوية وتجلت عبقريته، وقد انتهت باستجابة أهل العراق والشام لدعوته، وبقى الحجاز. والحجاز كان دائما الشوكة القاسية

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٦/ ٣/ ١٩٤٨ .

التى تقض مضجع معاوية ، ولكنه كان يسكت نائم الفتنة بالحلم والمال . بقى الحجاز الحرون ممتنعا عن الاعتراف بيزيد ، فماذا يفعل معاوية؟ سار إليه فى ألف فارس ، ثم اختلى بقادته وزعمائه ، وأنذرهم بالقتل إن حدثتهم أنفسهم بمخالفته ، ثم ذهب بهم إلى المسجد ، وأمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل رجل منهم رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن رد رجل منهم عليه وهو يخطب بتصديق أو بتكذيب ، ضُرب عنقه بلا تردد . ثم صعد المنبر ودعا إلى مبايعة ابنه من بعده بحضورهم ، فبايعه الناس . ولقد كان يعتقد معاوية أن مثل هذا لا يكفى ، ولكن دهاءه كان يقول له : إنه يكفى إلى حين ، وإن فرصة مقبلة سوف تحسم الداء . وحينما حضرته الوفاة لم ينس مصدر بلاء الدولة ، فكان من وصاته ليزيد قوله : انظر إلى أهل الحجاز فإنهم أصلك ، وأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . ولست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة : منهم الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، أما الحسين فهو رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحمًا ماسة . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، فذاك ابن الزبير ، فإن وثب عليك فقطعه إربًا إربًا ، واحقن دماء قومك ما استطعت .

ولكن يزيد لم يعمل هذه الوصاة ، ولو ورث بعض صفات أبيه لرحل إلى الحجاز بنفسه وأخذ البيعة طوعا أو كرها من الحسين وابن الزبير ، ولأطفأ بذلك فتنة أضعفت الإسلام ، وامتدت نارها حتى قضت على دولة الأمويين . لكنه ترك الحسين حتى خرج إلى العراق ، فكان ما كان من المصائب والويلات . وترك ابن الزبير حتى قوى أمره وكاد يظفر بالخلافة العامة .

إن انحدار الدولة فى عهد يزيد إنما جاء من يزيد نفسه ومن الرجال الذين اختارهم لنفسه . نعم ، إنه ورث من أبيه البطش والجرأة ، ولكنه لم يكن من نوع بطش معاوية ولا من طابعه ، بل كان بطش المغيظ المنتقم الذى لم يدرس صدور الأمور وأعقابها . وقد اختار لولاية العراق عبد الله بن يزيد ، وهو فتى فتاك أحمق ليس فيه مكان لرفق أو ذكاء ، أراد أن يحاكى أباه فضل الطريق . وولى مسلم بن عقبة جيش الحجاز ، وهو قائد مدمر قاس ينقلب بعد الانتصار شيطانا مريدا . فتك ابن زياد بمسلم بن عقيل ، ثم قتل الحسين بكربلاء ، وقد كان يستطيع أن يرسله إلى يزيد ليرى رأيه فيه ويخلّص الدولة من عار قتل ابن بنت الرسول ﷺ . ولقد كان الشيعة بالعراق يحبون آل البيت حبا لا يدفعهم إلى الموت ، فلما قتل الحسين وسبى أهله ونساؤه انقلب هذا الحب فدائية عنيفة لا تبالى بالموت ولا تأبه لحياة .

ارتاح يزيد لمقتل الحسين ، وارتاح لما يكون وراءه من آثار ، فأحسن بعض الإحسان إلى آل البيت ، ولكنا نراه لم يفعل شيئا لابن زياد سوى أن يقول : لعن الله ابن مرجانة ، لقد كنت أرضى منه بدون قتل الحسين . وعلم يزيد بعد هذه النازلة أن ابن عباس امتنع عن البيعة لابن الزبير ، فأراد أن يحاكى أباه مرة فى دهائه ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد بلغنى أن الملحد ابن الزبير دعاك إلى بيعته ، وأنك اعتصمت ببيعتنا وفاء منك لنا ، فجزاك الله من ذى رحم خير ما يجزى الواصلين لأرحامهم ، الموفين بعهودهم ،

فما أنس من الأشياء فلست بناس برك وتعجيل صلتك بالذى أنت له أهل . فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم ابن الزبير بلسانه ، فأعلمهم بحاله ، فإنهم منك أسمع الناس ولك أطوع . فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فأما تركى بيعة ابن الزبير، فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك ، ولكن الله بالذى أراه عليم ، وزعمت أنك لست بناس برى ، فاحبس أيها الإنسان برك عنى ، فإنى حابس عنك برى . وسألت أن أحبب الناس إليك ، فلا ولا سرورًا ولا كرامة ، كيف وقد قتلت حسينًا وفتيان عبد المطلب ، مصابيح الهدى ونجوم الظلام؟ فليس شىء أعجب عندى من طلبك ودى ، وقد قتلت ولد أبى ، وسيفك يقطر من دمى ، ولا يعجبك أن ظفرت بنا اليوم ، فلنظفرن بك يوما . والسلام .

كان من آثار هذه الفاجعة وغيرها أن نفرت القلوب من يزيد ، وثار أهل المدينة . فماذا فعل يزيد؟ بطش بهم بطشة الجبارين ، وأرسل عليهم مسلم بن عقبة . وكان من أمر يزيد له أن ينذرهم ثلاثًا قبل أن يقاتلهم ، فإذا ظفر بهم أباح المدينة ثلاثة أيام . وقد فتك مسلم بأهل المدينة فتكا يشبه ما نقرؤه عن هولاكو وتيمور لانك ، وأباح المدينة ثلاثًا بين نهب وسلب وإغراق فى العدوان . ثم استخلف الحصين ابن نمير لغزو ابن الزبير بمكة ، فأغار عليها بجيشه ، وقذف البيت بالمجانيق والنفط والنار .

لم ينشئ يزيد جديدًا فى نظام الحكم ، ولم يترك وراءه ذكرًا عطرًا ؛ لأن الثورات فى أطراف المملكة استغرقت مدة حكمه . وفى أيامه فتح عقبة بن نافع بعض بلاد بإفريقية حتى بلغ بحر الظلمات ولكنه فقدها فى النهاية وقتل . لم يستطع معاوية أن يلقن ابنه فى حياته سياسة الحكم ، ولم يستطع أن يطبعه بطابعه ، فقد كان يزيد مولعًا باللهو والمجون وسباق الخيل ، وكان استعداده غير استعداد أبيه ، وكان يعتقد أن الملك الذى أثّله له لا تخشى عليه الزعاع ، وأنه يكفى أن يحكم العرب بالقوة والجبروت حكما عسكريا .

على أن يزيد كان على غرار الشبان المترفين الذين كثروا فى هذا العهد بالمدينة ، وكان لهم أثر بارع فى الأدب والغناء ، وكانت لهم مجالس لهو وطرب وفى رأيى أن القدر زحزح يزيد عن مكانه وحمله عبء الخلافة وهو عبء لم تخلق له كتفاه . ولقد كان شاعرًا من الطبقة الأولى قبل أن يكون ملكا صالحا ، فقد قال بعض المؤرخين : بدئ الشعر بملك ، وختم بملك . يعنى امرأ القيس ويزيد بن معاوية . ومن شعره :

جاءت بوجه كأن البدر برقعه ... نورًا على مائس كالغصن معتدل
إحدى يديها تعاطينى مشعشعة ... كخدها عصفرته صبغة الخجل
ثم استبدت وقالت وهى عالمة ... بما نقول وشمس الراح لم تفِل
لا ترحلنّ فما أبقيت فى جلدى ... ما أستطيع به توديع مرتحل
ولا من النوم ما ألقى الخيال به ... ولا من الدفع ما أبكى على الطلل

ويقول فى وصف الخمر

إذا ما طفا فيها الحباب حسبتها ... كـواكب درّ فى سماء عقيق
تـدب دبيب البرء فى كل مفصل ... وتكسو وجوه الشرب ثوب شقيق
هما ما هما لم يبق شىء سواهما ... حديثُ صديق أو عتيق رحيق
وإنى من اللذات دهرى لقانع ... بحلو حديث أو بمرّ عتيق

وهكذا كان يزيد، وهكذا مضت خلافته، وقد انتظر الناس منه بشغف أن يقوم بعمل عظيم، ولقد قام بهذا العمل فعلا، وقام به على أحسن وجه؛ لأنه أسرع إلى الموت، أو أسرع الموت إليه. فمات سنة أربع وستين. ولله الأمر من قبل ومن بعد، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

عنتـرة

شاعر الحرب والحب(*)

لم يفز شـاعر جاهلى بمثل الشهـرة التى فاز بها عنترة، فقد لهج باسمـه خاصة النـاس وعامتهم، وسار حديث بطولته مسير الأمثال. نشأ عنترة فى كنف أبيـه عمرو أو شداد على اختلاف الرواة، عبدًا مهينًا مسكينًا، لأن أمـه زبيبة كانت أمَة حبشية أسرهـا أبوه فى إحدى غاراته. وكـانت العرب تستعبد أبناءها من الإماء، فإذا ظهر عنهم نبوغ أو امتازوا بصفات البطولة اعترفوا بهم وألحقوهم بنسبهم. بقى عنترة منبوذًا من أهله، يقوم فى أسرته بما يقوم بـه العبيد من الخدمة والحلب ورعى الإبل، وكان صدره الجياش بالآمال الجسام كثيرًا مـا يثور على القدر، وكانت مواهبه المختبئة تحت ستار مـن الذلة والمهانة كثيرًا مـا تضطرم لتجـد لها متنفسا، وكـان يعقب هذا وذاك سخط على الأوضـاع، وحقد على قـوانين الاجتماع. لقد ولـد عنترة بطلا، وولد عبقـريًا فسيح مدى العقل، بعيـد غور التفكير، وولد شـاعرًا لم تتفتح أزهار الريـاض عن مثل قوافيه. فلم كتب عليه أن يعيش عيشة الـذل، وأن يطرح بين السوائم يرعاها كأنه إحدى السوائم؟ ولكن الفرصة لم تبطئ كثيرًا على عنترة، فقد أغار بعض أحياء العرب يوما على قبيلة عبس فاستاقوا إبلا لهم، فتبعهم العبسيـون وقاتلوهم عما اغتصبوه ولكنهم لم يظفروا بشىء، فقال له أبوه:

كر ياعنترة! ولكنـه أجاب فى سخرية حزينـة: العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر، فقال له أبوه. كر وأنت حر! فوثب على القوم فبدد شملهم وأعاد إلى قومه إبلهم، وكانت هذه الحادثة فاتحة مجده، فـاعترف به أبوه، وأصبح فى قبيلتـه الفارس المعلم. وكان كلما أحس بأنـه هجين وأن أمه أمة سوداء ثـارت نفسه، فأسكتها بأن المجد لا يعرف نسبًا، وأن نسبـه من أبيه أشرف الأنساب، وأن المرء بما هو فيه لا بأمه وأبيه، ويقول:

(*) نشرت بمجلة الراديو المصرى بالعدد ٦٨٩ فى ٢٩ مايو ١٩٤٨ م ص ٨.

إنى امـــرؤ من خير عبس منصبـــا　　شطـرى ، وأحمى سـائرى بـالمنصل
وإذا الكتيبـــة أقبلت وتـــلاحظت　　ألفيـــت خيراً مـــن معـــم مخول

وهذان البيتان من قصيدة من أروع قصائده منها :

بكـــرت تخوفنى الحتـــوف كـأننى　　أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فـأجبتهـــا إن المنيـــة منهـل　　لابـــد أن أسقـى بكأس المنهـل
فـــاقنى حيـاءك لا أبـالك واعلمى　　أنى امـــرؤ سأمـــوت إن لم أقتل
إن المنيـــة لـــو تمثل مثلـت　　مثلى ، إذا نـزلـوا بضنك المنـزل
والخيـل تعلم والفـــوارس أننـى　　فـــرقت جمعهم بضربـــة فيصل
إن يلحقوا أكرر ، وإن يستلحمـوا　　أشـدُد ، وإن نـزلـوا بضنك أنـزل
والخيل ســـاهمة الـــوجـــوه كأنما　　تسقى فـــوارسهـــا نقيع الحنظل
ولقـــد أبيت على الطـــوى وأظلـه　　حتى أنـــال بـــه كـــريـم المأكل

أنشد النبى صلى الله عليه وسلم هذا البيت الأخير وقال : «ما وصف لى أعرابى فأحببت أن أراه إلا عنترة» .

ويروى الرواة أن عنترة لم يعـرف أول أمره بالشعر ، ولكنه كان يقـول البيت والبيتين فسابه رجل من عبس وعابه بسـواد لونه وبأنه لا يقـول الشعر ، فأجابه عنترة بعـد كلام مر: والله إنى لأحتضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدى وأفصل الخطـة الصمعاء . وأما الشعر فتعلم نبأه ثم قال معلقته .

وشعر عنترة ككل الشعر الجاهلى بـدوى البيئة ، روحانى النزعة ، سهل الخيـال ، قوى الأسلوب ، جياش بالعواطف ، يصف ما يرى ، ويسجل ما يحس ، لم يفسده تكلف الصناعة ، ولم يذهب بجماله زخرف اللفظ ، ولم تثقله الحضارات الأجنبية بخيالها العميق الغور ، ومعانيهـا البعيدة المرتقى . وشعر عنترة يجب أن يؤخـذ بحذر وبحذر شديـد ، ويجب ألا يوثق فيه إلا بما رواه الـرواة فى العصور الأولى ، لأنه يكثر فيه الموضوع والمنحول . ذلك لأنه منذ وضعت قصة عنترة فى عهد الفاطميين ـ وربما كان قبل ذلك العهد ـ زيفت أشعار كثيرة ونسبت إلى عنترة . والعـالم بالأدب البصير بأفانين الكلام يستطيع أن يميز فى سهـولة مـا كان من الشعر جـاهليا ، ومـا كان منه لصيقـا دخيلا ، ولكن هـذا الموضوع واسع الجنبات وخير لنا ألا نعرض له الآن .

ومعلقة عنترة أروع شعره وأصدقه وهى تطالع المستمع بقوله :

هل غـــادر الشعـــراء من متردم ؟　　أم هل عـرفت الـدار بعـد تـوهم ؟

يقول : إن الشعراء الأولين استـوعبوا معانى الشعر فلم يتركوا مقـالا لقائل ثم ينفتل فى سرعة البرق

إلى الحديث فى المحبوبة فيعطيك صورة للعقلية الجاهلية فى سرعة انتقالها، حتى لكأنها مثال لحياة القوم فى سرعة نقلتهم وانتجاعهم من مكان إلى مكان. ثم ينادى هذه الدار فى رقة تستنزل العصم، وتذيب الصخور الصم!

يادار عبلة بالجواء تكلمى! ... وعمى صباحًا دار عبلة واسلمى

ثم يقف ناقته عند هذه الدار حزينا مشبوب الجوى فيقول:

علقتها عرضا، وأقتل قومها؟ ... زعما لعمر أبيك ليس بمزعم

أى طمع فى غير مطمع.

ولقد نزلت فلا تظنى غيره ... منى بمنزلة المحب المكرم

ثم يصف رحيل المحبوبة، وينتقل إلى وصفها بعذوبة الفم وطيب مقبله، حتى كأن به مسكا فتيقًا أو كأنه نسيم روضة أنف. ثم يثب من الحديث فى الروضة إلى وصف ذبابها:

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غمدًا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه ... فعل المكب على الزناد الأجذم

وهذا تشبيه لا يستطيعه شاعر محدث ثم يهزه لاعج الشوق فيتمنى لو زار حبيبته على ناقة قوية خطارة زيافة ثم يسير فى وصف الناقة فيشبهها بالظليم، ويقول: إنها تنحرف فى سيرها لنشاطها، حتى كأن بجانبها هرًا تتقيه ويتقيها، وهذا خيال بعيد وعجيب.

وكأنما تنأى بجانب دفها الـ ... ـوحشى من هزج العشى مؤدم

الدف الوحشى: الجانب الأيمن. هزج العشى: الهر يموْ بالليل. مؤدم: كبير الرأس قبيحه.

هِرّ جنيب كلما عطفت له ... غضبى، اتقاها باليدين وبالفم

أترون هذه الصورة التى لا يتخيلها إلا فنان؟ ويعود بعد هذا إلى حبيبته وآسرة لبه فيصف لها نفسه بالشجاعة والسماحة والإباء وحب اللهو والمرح:

إن تغدفى دونى القناع فإننى ... طب بأخذ الفارس المستلئم
أثنى على بما علمت فإننى ... سمح مخالقتى إذا لم أظلم
وإذا ظلمت فإن ظلمى باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعد ما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم

المشوف المعلم: الدينار.

فإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

هـذا من أروع الكلام وأسمحه . ثم يفخر بـالجرأة والإقدام حتى إذا بلغ من ذلك غـايته عـاد إلى حديث غرامه .

هـلا سألت الخيل يـابنـة مـالك ... إن كنت جـاهلـة بما لم تعلمى
ينبئك من شهـد الـوقيعـة أننى ... أغشى الـوغى وأعـف عنـد المغنم

وهذا أعظم وصف لبطل كريم .

ومـدجج كـره الكماة نـزالـه ... لا ممعن هـربـا ولا مستسلم

ما أدق تصوير المتردد الحائر !

فشككت بـالـرمـح الأصم ثيـابـه ... ليس الكـريم على القنـا بمحـرم

ثم يفتن فى وصف قرنه ويعود فيناجى هواه ويشكو صبابته :

يـاشـاة مـا قنـص لمن حلت لـه ... حـرمت على ، وليتهـا لم تحرم !

تكنى العرب عن المرأة بالشاة .

فبعثت جـاريتى فقلت لها اذهبى ... فتجسسى أخبـارهـا لى واعلمى
قـالـت رأيت من الأعـادى غـرة ... والشـاة ممكنـة لمن هـو مـرتمى

ويطفر من هذا إلى تصوير حومة القتال فى أسلوب قوى متين :

فى حـومـة الحرب التى لا تشتكى ... غمـراتها الأبطـال غير تغمغم
إذ يتقـون بى الأسنـة لم أخـم ... عنهـا ولكنى تضـايق مقـدمى

لم أخم : لم أجبن .

لما رأيـت القـوم أقبل جمعهـم ... يتـذامـرون كـررت غير مـذمم
يـدعـون عنتر والـرمـاح كأنها ... أشطـان بئـر فى لبـان الأدهم

الأشطان : الحبال . اللبان : الصدر .

مـا زلت أرميهـم بثغـرة نحـره ... ولبـانـه حتى تسربـل بـالـدم
لـو كان يـدرى ما المحـاورة اشتكى ... ولكـان لـو علم الكـلام مكلمى

ومات عنترة بعد أن شـاخ وكبر. كان فى غزاة فسقط عن جواده ولم يستطع الـركوب، فرآه فتى من طيئ فقتله. وهكذا يموت أشجع الشجعان وأفرس الفرسان، ولكنه يموت كما يموت كل حى، ثم يعيش كما يعيش كل عبقرى بآثاره، ويخلد كما يخلد كل نابغ بما ترك وراءه من مجد وذكريات .

أعلام الإسلام

صقر قريش عبد الرحمن الداخل

حاكم جبار.. وشاعر رقيق (*)

يبدو أن للعباقرة سمات خاصة، وأن لأرواحهم نفحة متميزة يشمها من وهبت له تلك الحاسة الخفية، التي تقرأ ما وراء الغيب في لمحات الوجوه، والتي تهديها الفراسة إلى سبر غور النفوس. فقد قالوا: إن عبد الرحمن بن معاوية دخل يومًا وهو صبي على جده هشام بن عبد الملك، وكان يحادث أخاه في شأن ذي خطر، فانطبق الطفل إلى جده ليجلس في حجره، فنحاه هشام عنه فيما يشبه الغضب، فصاح به مسلمة وكان روحاني النظرة، صادق الفراسة: دعه يا أمير المؤمنين، فإنه صاحب بني أمية ووَزَرهم عند زوال ملكهم. وقد حققت الأيام ظن مسلمة، وكتبت لهذا الطفل المدلل أن يكون سيد أبطال العالم، وأثبتهم نفسًا وأبعدهم آمالا، وأنفذهم ذكاء، وأوسعهم دهاء وسياسة.

دالت دولة بني أمية، وقام على أشلائها بنو العباس، فأعملوا السيف في كل أموي، وانتشر أعوانهم في البلاد يتصيدون بني أمية في غير رفق وفي غير هوادة، وسمع خلفاؤهم وأطاعوا القول لشاعرهم الذي يقول:

فضع السوط وارفع السيف حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

والآن نترك بطلنا بقصته من بدايتها، فإن لبساطة لغته، وصدق نبراته حلاوة تبزّ كل حديث منمق بليغ، قال:

(*) في سلسلة أعلام الإسلام. وأذيعت من الإذاعة المصرية في ٤/ ٧/ ١٩٤٨.

إنى جالس يومًا بإحدى قرى الفرات، فى ظلمة بيت تواريت فيه، لرمد كان بى، وابنى سليمان يلعب فى فناء الدار، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبى إلىّ فازعا باكيا، فخرجت أنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود (رايات العباسيين) عليها منحطة، وأخ لى حديث السن يشتد هاربا وهو يصيح: النجاء النجاء يا أخى، فهذه رايات المسوِّدة. فنجوت بنفسى وأخى معى، وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد لى أثرًا. ومضيت فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لى دواب وأن يعد ما يصلح لسفرى، فوشى بى عبد سَوْء إلى عامل القرية، فما راعنى وراع أخى إلا جلبة الخيل تحفزنا، فاشتددنا فى الهرب، وسبقنا إلى الفرات، فرمينا بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثًا لنفسى، وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخى فلما قطعنا نصف الفرات قصّر أخى ودهِش، فالتفتُّ إليه لأقوى من قلبه، فإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تقتل يا أخى. إلىّ، إلىّ. فلم يسمعنى، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشى الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات وحدى وقد همَّ بعضهم بالتجرد للسباحة فى أثرى، فاستكفّه أصحابه وتركونى. ثم قدموا الصبى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة، ومضيت هائمًا أحسب أننى طائر، فلجأت إلى غيضة أشِبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت هاربا أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية.

بلغ بطلنا المقدام إفريقية، ولحقه بها خادمه بدر، فأقام نحو خمس سنين مستخفيا، حاول فى أثنائها أن يجمع حوله ثوار المغرب الساخطين، ولكنهم كانوا شراذم مفككة الأوصال، وما زال يضطرب بين القبائل حتى استقر به المقام بمحلّة على ساحل البحر لقوم من زناتة، فكان يجلس على الساحل ويمد بصره نحو إسبانيا، والآمال تتراقص حوله، والعزائم تغلى فى نفسه، والطموح يكاد يطير به إلى الشاطئ البعيد. ولم لا يطمح مثل عبد الرحمن إلى هذه الغاية التى يراها غيره محالا؟ ولم لا تذلل نفسه الوثابة فى سبيلها كل صعب جموح؟ إن الصراع الدائم بالأندلس بين البربر والمضرية واليمنية جدير بأن يمهد له السبيل، وأن يفتح أمامه كل مغلق. ألم يكن من تلك السلالة الأموية التى ملكت الدنيا وملأت راياتها الآفاق؟ ألم يكن له ذلك الطابع الذى يهيؤه للعظمة والمجد؟ وإذا لم يَرمِ بنفسه بين أنياب الصعاب، فلمن إذًا أعدت خطيرات الأمور؟

لذلك أرسل خادمه بدرًا إلى الأندلس، ليمهد له السبيل بين زعماء جند الشام النازلين بإلبيرة، فذهب بدر إلى الأندلس، وحدّث هؤلاء الزعماء بشأن مولاه، فأحسنوا استقباله، ووعدوه بنصرة سيده، وكانوا لا يزيدون على الأربعمائة.

وبينما كان عبد الرحمن فى ذات أصيل يصلى على سيف البحر، إذ رأى السفينة التى تحمل بدرًا

ووفد الأندلس، فنزل بعض رجالها وهويقول: أبشر يا سيدى! فسأله عبد الرحمن: ما اسمك؟ قال: تمام. فقال: وما كنيتك؟ قال: أبو غالب. فصاح عبد الرحمن: الله أكبر، تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته. ثم نزل السفينة فأبحرت به فى سبتمبر سنة خمس وخمسين وسبعمائة ميلادية، وكان فى الحادية والعشرين من عمره، وما كاد يصل إلى ساحل إلبيرة حتى أقبل عليه مناصروه، وانثال عليه الناس انثيالا، فبلغ إشبيلية، وعقد العزم على السير إلى قرطبة، ولما لم يجد لجيشه علماً أتى بقناة وربط بها عمامته، وقد كتب الظفر لهذا العلم الصغير، فلم يهزم فى موقعة قط. ولما أقبل عبد الرحمن على المدينة خرج له صاحب الأندلس يوسف الفهرىّ فتغلب عليه، ودخل قرطبة ظافرا. ولم تمض سنة على نزوله الأندلس حتى كان المسيطر على جميع أرض إسبانيا. وبإقدام هذا البطل وعبقريته وبعد همته، قدّر للدولة الأموية فى الأندلس أن تبقى فى الحكم نحو ثلاثة قرون.

كان عبد الرحمن الداخل شجاعًا واسع الحيلة، استطاع أن يحتفظ بملكه بين الزعازع والعناصر المضطربة لأنه كان سريعًا عند الخطب، قوى العزيمة إذا وثب، غير متحرج إذا صمم، شديد البطش إذا غلب، سياسيا داهية، أعد لكل مفاجأة عدتها، وكثيرًا ما عجمته الحوادث فرأت فيه بطلا همامًا.

لم يستقر بعيشه طويلاً حتى اجتاز العلاء بن مغيث ليرفع العلم العباسى بإسبانيا، فحاصر عبد الرحمن بجيش لجب فى قرمونة ولكن عبد الرحمن كان عبقريًا لا يطيش له جنان، فجمع سبعمائة من خيرة رجاله، ثم أوقد نارًا عظيمة وصاح فيهم: إننا الآن بين حالين: نصر مؤزر أو موت محقق. ثم ألقى بقراب سيفه فى اللهب، فتأثر أصحابه وألقوا بقربهم فى النار، وأقسموا ألا يضعوا السيوف فى أغمادها حتى يهزموا أعداءهم، ووصلت أنباء هذه الهزيمة إلى المنصور العباسى، فقال: ما فى هذا الشيطان مطمع، فالحمد لله الذى صير هذا البحر بينى وبينه.

وثار عليه البربر فى الشمال فأطفأ ثورتهم، ثم وثب على اليمنية فاستأصل شأفتهم، وقتل منهم ثلاثين ألفا فى موقعة واحدة.

ومنذ ذلك الحين استقر الأمر للداخل، وخضع لعزيمته كل زعيم وأثبت أنه سيد الموقف، وتقرب إليه قارله وهو الاسم العربى لشارلمان ملك فرنسا، ودعاه إلى السلم والمصاهرة، فقبل السلم وأبى المصاهرة.

ظفر عبد الرحمن بإخضاع قومه، ولكنه لم يظفر بإخلاصهم، لأنه كان لا يجامل أحدا يقف فى طريق سياسته، ولا يصفح عن زلة من أقرب الناس إليه، فقد قتل أكثر معاضديه عندما هبط الجزيرة بعد أن شك فى وفائهم، وقتل كثيرا من أهله وأقاربه، ونفى خادمه بدرًا الذى ذلل له الطريق إلى الأندلس.

ويصف بعض المستشرقين عبد الرحمن بأنه جبار لطخ عرشه بالدماء، ولكن ماذا كان يعمل منشئ دولة جديدة بين عتاة جبارين، إن لم يكن قاسيا جبارًا ؟ لقد كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك لتوطيد الحكم سبيلا أخرى، ولم تكن إليه من وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن يقابل هذه الفوضى بالشدة والعسف.

ولكن عبد الرحمن الشاعر كان غير عبد الرحمن الملك السياسى، فإن شعره يدل على رقة العاطفة ولطف الإحساس، كتب إلى أخته فى الشام:

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الدهر بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ومات عبد الرحمن فى ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة، وهو ابن سبع وخمسين سنة، ولا يزال ذكره حيا يدوى فى الآفاق، فعليه الرحمة والرضوان.

صديقى أحمد شوقى (*)

فى مدينة رشيد تلك المدينة الشاعرية الهادئة ، التى تقبل أذيالها الأمواج ، وتتوج هامتها الرمال الذهبية ، نشأت فى أسرة فتنت بالأدب ، وأغرمت بفطرتها وباستعدادها الموروث بروائع الشعر على اختلاف ألوانه وفنونه . وكان أبى إذا جلس بعد العشاء التف حوله أبناؤه فتنقل بهم من أدب إلى تاريخ إلى بحوث سهلة فى اللغة ، ثم إلى شعر جزل رصين . ولقد كان عليه الرحمة كثير القراءة ، قوى الحافظة ، حسن العرض والأداء ، فكان متاعًا أن نستمع له ، وأن ترف نفوسنا حوله طليقة مرحة فى هذا الجو العجيب . وكان أخى الأكبر مولعا بشعر شوقى ، معجبا به ، لا تكاد تظهر له درة حتى يلتقطها ، أو تنشر له الجرائد قصيدة حتى يحفظها فى ضبط وإتقان ، كأنها من وحى السماء ، فإذا أجاد حفظها أخذ يترنم بأبياتها فى غدواته وروحاته ، لا يلهيه عنها إلا أن تظهر لشوقى قصيدة أخرى . وكنت فى غضاضة صباى ، وقد أكون فى طفولتى ، أترسم خطا هذا الأخ الكريم ، وأتخيل فيه المثل الأعلى الذى إليه أصبو ، وبالآمال فى ظلاله أعيش . وكم كنا ننتظر الأعياد والمواسم وما يجد من صروف وأحداث ، لتطلع علينا جريدة المؤيد بفريدة من فرائد شوقى . وأذكر أنى كنت أترقب البريد فى شوق وشغف ، فلا أكاد أظفر بالجريدة وألمح فيها قصيدة لشوقى حتى تأكلها عينى فى شوق ونهم ، وفى الحق أن جوع الأرواح أقل صبرًا على الحرمان من جوع الجسوم ، ثم أعود إلى أخى وأناوله القصيدة فيسرع إلى قراءتها بصوت رنان رائع الإيقاع ساحر الأداء ، يزيد جمالها جمالا ، ويملأ منها الفراغ الذى لم يستطع الشاعر ولم تستطع اللغة أن تملأه .

ولن أنسى ما حييت تلك الروعة الروحانية التى كانت تهز قلبى هزا ، حينما كنت أتعثر فى قراءة قصيدته فى السلطان عبد الحميد التى بعث بها من الآستانة لتنشر بمصر :

(*) ذكريات طريفة . . لم يسبق نشرها عن أمير الشعراء . نشرت بمجلة «الهلال» بالمجلد ٥٦ الجزء ٩ ص ٨٤ عام ١٩٤٨ .

بـــالله يـــانسمات النيل فى السحـــر | هل عنـدكن عن الأحبـاب من خبر ؟
عـــــرفتكن بعـــرف لا أكيفـــــه | لا فى الغـــوالى ولا فى النور والــزهــر

ومنها :

ومـــا شجـــانى إلا صـوت سـاقيـة | تستقبـل الليل بين النـــــوح والعبر
لم يترك الـــوجـد منهـا غير أضلعهـا | وغير دمع كصـــوب المزن منهمـــر
بخيلـــة بمآقيهـــا فلـــو سئلت | جفنًـا يعين أخـا الأشـواق لم تعـر

ومنها وقد أبدع فى التخلص :

مصر العـــزيـــزة مـــا لى لا أودعهـــا | وداع محتفظ بـــالعهــد مـدكــر !
خلفت فيهـا القطـا مـا بين ذى زغب | وذى تمائم لم ينهـض ولم يطــــــــر
أسلمتهـم لعيـــــون الله تحرسهـم | وأسلمــــــونـى لظـل الله فى البشر

وتعـاودنى الآن وأنا أكتب هـذه الأبيات ، تلك الـروعـة التى هزتنى فى صبـاى ، وتطوف حـولى أطياف براقة من الشباب النضر والأمل الباسم ، فسقيا للشباب ولأيام الشباب !

* * *

عرفت شوقى حينما تفتحت عيناى على شعر يقرأ ، عرفتـه وصادقته على بعد ما كان بيننا من ديار وآفاق ، عرفته غلاما ليس لاسمه وجـود إلا فى سجل المواليد ، وهو هو شوقى العلم الفرد فى مصر ، وشاعر القصر الذى ملأ اسمه أسماع الزمان ، عرفته فى شعره ، ودرست خلجات نفسه فيما كان يبوح به لسانه أو يطويه صدره .

ثم دارت الأيام وتقلبت الصروف ، ولم يعد شـوقى شاعر القصر؛ لأن المقاديـر أرادته على أن يغرد طليقًا ، وعلى ألا يكـون شاعر فـرد بعينه بل شـاعر مصر والشرق . وكنت فى هذه الفترة أستـاذًا بدار العلوم منصرفًا عن الشعـر بدروسى وكتبى وأوراقى ، ولكن شيطان الشعر لم يمهلنى طـويلاً ، فطاف بى ذات ليلة وهمس فى أذنى بقصيدة أولها :

مـــا لى فتنت بلحظك الفتـــاك | وسلـــوت كـل مليحـــة إلاك !
يسراك قـد ملكت زمـام صبـابتى | ومضلتى وهــــداى فى يمنــــاك

ونشرت جريـدة الأهرام القصيدة ، وأعجب بها النـاس ، وأخذ اسمى يجد فى الأفواه مكـانا ، ولم يمض غير قليل حتى قابلنى شوقى فى أحد محافل القاهرة ، فعرفته مرة أخرى بعد أن عرفته فى شعره ، وكان بى حفيـا فاتصلت بيننا أواصر المودة ، وتعـددت المقابـلات ، ففهمت نفس الرجل ، ودرست عاطفة الشاعر وطرائق فنه .

كان شوقى جم التواضع طاهر القلب ، سخى الكف لطيف العاطفة ، خيرًا . وكان قليل الكلام كثير الإطراق ، وأغلب الظن أنه كان ينظم الشعر وهو جالس بين أصدقائه ، فكان يكتفى بأن يبعث

إليهم بالكلمة أو الكلمتين ثم ينصرف إلى قصيدته التى هو بصدد نظمها . كنا نطوف يوما فى سيارة حول الجزيرة فأعطانى كتفه وانصرف عنى طويلاً ، حتى كدت ألوم نفسى على مرافقته ، ولكنه بعد لأى التفت إلى فجأة وسألنى سؤالا فى اللغة ، وكان السؤال عجيبا ؛ لأن الجواب عنه لم يكن يخفى على مثل شوقى ، وضحكت وعلمت أنه يريد أن يجاملنى بالحديث . وأستطيع أن أقول هنا : إن شوقى كان مكينا فى اللغة وفى طرائق استعمالها ، ولم يكن يأخذها من المعجمات ، وإنما كان ينهل من صحيح الشعر وجيد النثر . ولو أردنا أن نتعقب ذلك فى شعره وأن ندلل عليه لطال حبل الكلام .

* * *

وحينما عاد من إسبانيا زادت مودتنا توثقا ، واتفق أن حضر أخى الأكبر إلى القاهرة وألح فى أن يرى شوقى ، فذهبنا إلى داره بعين شمس ، وكان شوقى كريما فى لقائه ، كريما فى حفاوته . . وما كاد يستقر بأخى المجلس حتى انطلق يسأل شوقى عن قصائده التى قالها منذ أزمان ، ويطلب إليه أن ينشدها له ، ولم يكن شوقى حسن الإنشاد ، ولم يكن حافظًا لشىء من قصائده ، ولكن أخى رحمه الله لم يبخل على شوقى بأن يسمعه شعر شوقى ، فاندفع كما يندفع الأَرْتِىّ الجارف ينشده قصائده فى صوت جهير ، ويفسر له بعض أبياتها ، وشوقى مأخوذ معجب بأن يكون له رواة هم أحرص منه على شعره وأشد كلفا!

ودارت فى هذه الليلة فنون شتى من الأحاديث ، عرفت منها أن شوقى قوى الإيمان بالله ، عظيم الأمل فى رحمته ، وأنه يبغض الفلسفة فى الدين ويريده نقيا فطريا كما نزل على محمد بن عبد الله ﷺ ، وأن له طبيعة دينية سمحة تنفر من التعصب والجمود وضيق الأفق ، وأنه يحب آل الرسول ﷺ حبا جما يكاد يقرب من التشيع ، وأنه يؤمن بالقضاء والقدر إيمان العجائز .

* * *

واتخذ الحديث مجرى الأدب حينما أخذنا نطوف بأبيات من سينيته الأندلسية التى عارض بها البحترى ومر بنا البيت :

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس ؟!

وجاء ذكر الابتداع والتقليد ، فقال شوقى : إن الابتداع المطلق قليل نادر ، وربما فاز به الشاعر المجيد فى بيت واحد من قصيدة طويلة . فقلت بصوت به رنة ذات معنى : هل غادر الشعراء من متردم ؟ فقال شوقى : « أجل يا أخى ، ولكن الشاعر الموهوب يحسن التوليد ، ويأتى بالمعنى المولد من معان قديمة فيروعك حسن مأخذه ، وتبدو لك فيه جدة مصنوعة ، لها فى نفسك كل ما للمعنى الجديد من أثر . ألا ترى أن تشبيه ذوائب الحسان بالليل فى السواد والطول ، وتشبيه وجه المليحة بالقمر ، تشبيهان مبذولان ملقيان فى الطرق ، ولكن المتنبى حينما أخذهما صهرهما بذوقه وأخرجهما من مصنع فنه فى ثوب جديد براق حين يقول :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها   في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها   فأرتنى القمرين فى آن معا

فقلت : وربما كانت إجادة فن الأخذ والتوليد من أكبر ميزات شعراء الأندلس ، فإن كل معانيهم مشرقية ولكنهم بالتطعيم والتوليد أعادوها جديدة رائعة .

* * *

ولما أزمع أدباء مصر وشعراؤها إقامة حفل لتأبين إسماعيل صبرى نظم شوقى فى رثائه قصيدته التى أولها :

أجل وإن طال الزمان موافى   أخلى يديك من الخليل الوافى

وسألنى فى تردد وحياء أن ألقى له قصيدته فى الحفل . . فقبلت مسرورًا ، وحرص شوقى بعد ذلك على أن أكون منشد قصائده ، فما ترددت مرة فى إجابة طلبه .

واحتفلت العروبة بزعامته وإمارته للشعر ، وقد أنفق شوقى فى هذه الحفلات كثيرًا وأغدق على كثير ، فبعثت إليه بقصيدة لتكون هدية له فى عرس إمارته أولها :

وقفت تجدد آثارها   وتنشر للعرب أشعارها
وتبعث بغداد بعد المما   ت تحدث للناس أخبارها

* * *

وكنت أعرف أن شوقى كثير القراءة ، ولكننى لم أكن أظن أنه يعنى بقراءة الشعر فى عصور تراجعه ، حتى زرته يوما وكان مريضًا ، وكانت حجرة نومه صغيرة قليلة الأثاث . دخلت عليه فإذا هو فى سرير صغير ، وقد بعثرت الكتب حوله عن يمين وشمال ، فمددت يدى إلى أحدها فإذا هو «خزانة الأدب » لابن حجة الحموى ، فسألته فى استنكار : « أتقرأ أمثال هذه الكتب ؟ إن أكثر ما فيها شعر صناعى ليس به إلا زخرف لفظى وبراعة فى التزويق » . فابتسم وقال : « إن الشاعر ياأخى يجب أن يقرأ كل شعر ، وإن هذا الكتاب كاسمه خزانة أدب ، وخير ما فيه شعر العصر المملوكى » . ثم اتجه نحوى يقول : « أتستهين بشعر المماليك ؟ » فقلت : « إنه لا يعدو أن يكون لعبًا بألفاظ على حساب المعانى ، وعناية بالنكتة والتورية » فابتسم وقال : « إن شيئًا من ذلك لو عرض لى فى شعرى لعددته غنما فنيا ، إننا يا أخى فتنا بشعر بغداد فأضعنا كثيرًا من مقومات بيئتنا المصرية ، وشعر المماليك شعر مصرى صميم ، وإن فى ديوان ابن نباتة الذى نبذناه كبرا وتعاظما العجب العجاب من روائع الفن وحلاوة الروح المصرية المرحة » .

* * *

وكان هذا آخر العهد بصاحبى عليه الرحمة والرضوان ، ولست أجد الآن فى توديعه أبلغ مما قاله فى توديع حافظ :

اليـوم هـادنـت الحوادث فـاطـرح عـبء السنين وألق عـبء الـداء
خلفت فى الـدنيـا بيـانًـا خـالـدًا وتـــركت أجيــالاً من الأبنـــاء
وغـدًا سيـذكرك الـزمـان ولم يـزل للـدهـر إنصـاف وحسن جـزاء

أعلام الإسلام طارق بن زياد(*)

للدول فى أول نشأتها عزم الشباب، وإقدام الشباب، وآمال الشباب. وهى فى بداوتها الأولى تمثل خشونة القوة، وبعد الهمة، و جرأة العزيمة التى لا تبالى بالموت، ولا تأبه للحياة هكذا كانت دولة العرب فى صدرها الأول، فقد انطلقت من جزيرتها التى ربضت فيها قرونًا، منعزلة عن العالم، لاتتصل به إلاّ لماماً فى بعض مشارفها وتخومها. انطلقت أمة العرب من عرينها فتية وثابة كأنها الأتىّ الزخار، فعصفت بأمة الفرس، وثلّت عروش دولة الرومان، وكانت قلوبها أصلب من رماحها، وعزائمها أمضى من سيوفها. وقارئ التاريخ فى هذه العهود يملكه الدهش، وتستبد به الحيرة، كيف استطاعت هذه الأمة الصحراوية التى لا تتسلح إلاّ بالحق أن تحطم بضربة سيف، أو وخزة رمح، أعرق دول العالم فى ذلك الحين مدنية وعمرانًا، وأعظمها قوة وسلطاناً؟ ولكنّه الإيمان الراسخ فى الصدر والفناء فى العقيدة، وبيع النفس رخيصة فى سبيل الله، كل أولئك خلق فيهم من الضعف قوة، ومن التردد إقدامًا، ومن الرهبة جرأة وصلابة وعنادا. لقد كانت هذه الصفات تقيم جيشاً لا يقف فى وجهه جيش، وعنادًا ينهزم أمامه كل عناد.

فتح الله على المسلمين بلادالشرق والغرب، وأمكنهم من دهاقنة الفرس وبطارقة الرومان، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، فجعلت منهم الفتوح قوادًا وأبطالاً، لم تظفر البشرية بكثير من أمثالهم وأغراهم الظفر بالظفر، والغزو بالغزو وتوسيع رقعة الإسلام، فكثر فيهم المغامرون الذين حملوا أرواحهم بأيديهم فاتحين غازين، لا يسألون ما أمامهم ولا يخافون عاقبة ما وراءهم، من كل ضرغامة وثّاب.

(*) أذيع هذا الحديث من إذاعة القاهرة فى ١٩/ ١٠/١٩٤٨.

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

لكن أصلب هؤلاء المغامرين عودًا، وأقواهم عزمًا، طارق بن زياد فاتح الأندلس. نشأ طارق بنفرة وهى حلّة صغيرة بإفريقية. ولا يقص علينا الرواة كعادتهم شيئا من نشأة طارق الأولى، ولكنّا نستطيع أن نعرف أوله من آخره، وأن نقرأ من رجولته ما كان عليه فى صباه. ويكفى أن نتخيله غلاماً موثّق الخلق، قوى العضل، كبير الهامة ضيق العينين، يجلس إلى جانب أبيه ذاهلاً مبهوراً كلّما قص عليه بعض أنباء إسبانيا بما فيها من جمال وثروة وخصب، وما لملوكها من قوة وسلطان. ويكبر الغلام وتكبر معه آماله. لا يجد أشفى لنفسه وأدنى لمطامحه من أن يكون جنديا فى جيوش الإسلام. فلم يكد يصل إلى مسمعه أن الوليد بن عبد الملك ولّى موسى بن نصير على إفريقية وما خلفها، حتى يأخذ طريقه إليه لينضم إلى جيشه، ويظهر فيه من الشجاعة وحسن التدبير ما يقربه إلى نفس موسى، فيجعله فى مقدمة جيشه. وينطلق طارق القائد فيخضع البربر، ويستولى على معاقلهم، ويفتح مدينة طنجة التى هى قصبة بلادهم، وأم مدائنهم. ونتخيله بين الحين والحين وهو يقف على سيف البحر، ويطرح بصره نحو إسبانيا، وغريزة الغزو والغلب تضطرم فى نفسه، فيهز رأسه فى عزم وإصرار، ساخرًا من العقبات، مستهينًا بالموج الغاضب المتوثب. وتمر الأيام وتجىء سنة اثنتين وتسعين للهجرة، فإذا موسى بن نصير يدعوه إلى غزو الأندلس، نعم يدعوه إلى أحبّ شىء إلى نفسه، يدعوه إلى تحقيق غاية كانت مسرى أحلامه بالليل، ومسبح آماله بالنهار. أنصت طارق إلى قائده فإذا هو يقول: لقد أعددنا أربع سفن، واثنى عشر ألفا من الجنود بين فارس وراجل، فاذهب يا طارق إلى عدوة الأندلس، وبدّد جموعهم، وامتلك بلادهم وحطّم تاج لذريق. يا للجرأة! ويا لعظمة الثقة بالنفس! اثنا عشر ألفاً من الجند لا يتسلح أكثرهم إلاّ بهراوة أو حجر يقذفون بأنفسهم لغزو دولة من أقوى ممالك الأرض جندا وأعظمها عدة وعديدًا؟ ولكنه الإيمان الحق الذى يعصف بالجيوش ويزلزل العزائم.

اقتحم طارق البحر بهذه الفئة القليلة تحت ستار الليل، حتى بلغ جبل الفتح الذى يسّمى باسمه. وما كاد ينزل بجنده حتى علم لذريق بقدومه، فأقبل عليه فى جيش خضم، تحيط به الفرسان وهو محمول على سريره وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت، ولما لمح طارق سواد الجيش الإسبانى هاجت نفسه وجاشت، وخاف أن يهول جندَه عظم جيش أعدائه، فأسرع إلى السفن وأحرقها حتى يمحو كل أمل فى الفرار، ثم وقف بين جنده خطيبًا يصيح: «أيها الناس، أين المفر!! البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفوره، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا قوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدى عدوكم. ولم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة، وإنى عند ملتقى الجمعين لحامل بنفسى على طاغية القوم فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معى». فثارت حماسة الجند عاتية صاخبة، ووثبوا على جيش الإسبان

أسودًا ضاريـة ، ثم لمح طارق لذريق فصاح : هـذا طاغية القوم ، هذا هـو بعينه . ثم حمل عليه وحمل أصحابـه معه فتفـرقت المقاتلـة بين يدى لـذريق وأدركهم الوهل مـن جرأة العرب وصـدق حملتهم ، فخلص إليـه طارق فضربـه بـالسيف فقتلـه على سريره ، فلما رأى أصحـابـه مصرع صاحبهم ثـارت حميتهم ، ولكن النصر كان حليف المسلمين ، فكـروّا على أعدائهم فتكـا وتقتيلا . وكتب ابن نصير إلى الخليفة يقـول : إنها ليست الفتوح يـا أمير المؤمنين ولكنها الحشر ويومـه . وحينما جدّل طـارق لذريق وأعمل سيفه فى أصحابه فرّ الإسبـان إلى الحصون والقلاع فأقبل نحوهم والنصر جنيبه حتى انتهى إلى طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خاليه فدخلها ، ثم دفعته عزيمته إلى اختراق أرض جليقية إلى أقصى الشمال . ولحق به موسى بن نصير وجعلـه فى مقدمته ، وكانـا لا يمران بموضع إلا فتح عليهما ، حتى بلغا وادى ردونـة ، وخاف الخليفـة الوليـد من توغل المسلمين فى بـلاد الفرنجة ، فبعـث رسولاً إلى ابن نصير يستعجله فى القفول ، فعاد طارق إلى الشرق بعد أن أقـام بالأندلس أكثر من ثلاث سنوات ، ثم تنازع القائدان وتقاضيا إلى سليمان بن عبد الملك ، فحكم لطارق وأعاده إلى القيادة بإسبانيا .

طيف حبيب (*)

فى أيام الصيف القائظ ومنذ خمسين سنة كنت بمدينة الفيوم . نعم طوحت بى المقادير إلى هذه المدينة وأنا طالب أزهرى حدث السن ، نشأ فى أقصى الشمال ودرج بين البحار والرمال وفى ظلال النخيل ، لا يعرف للشمس لفحا ، ولا يشكو من حرها ضبحا :

وقد تلجئ الحاجات يا أم مالك   إلى هجر دار، أو فراق صديق

كان أبى قاضيا للمديرية ، فكنت إذا حمى وطيس القيظ بالقاهرة ، وأظلتنى عطلة الأزهر ، حملت خرجى أو حقيبتى - وأظن أنه لم يكن لى حقيبة فى ذلك الزمان البعيد - ويممت شطر البلد الذى يقيم به أبى .

وكانت مدينة الفيوم فى هذا العهد من أجمل مدن مصر منظرًا وأخفها روحا ، يمر بوسطها بحر يوسف هادئًا وئيد الخطى ، ويقوم على أحد شاطئيه قصور العظماء وسراة المدينة رحيبة فخمة متماثلة فى طراز البناء ، تنطق بها لقطانها من المنزلة وبسطه الرزق . ولى فيها فى تلك الأيام قصيدة منها :

ساكنى الفيوم إنى ذاكر   عهدكم، والذكر فى البعد وفاء
كم شدا شعرى على دوحتكم   أى شعر غرد؟ أى غناء ؟!
بلد كالزهر حسنا وشذا   بين أظلال وأنسام وماء
مثل خد البكر فى تلوينه   ترتدى فى كل حين برداء
فهى بالأمس سواها فى غد   وهى فى الصبح سواها فى المساء

(*) نشرت « بمجلة الهلال» بالمجلد ٥٦ الجزء ١٢ ، ديسمبر ١٩٤٨ ص ٩٣ .

وكنت فى ذلك الحين شـاديا فى الأدب ، مـولعا بـالشعـر . وللأدب إينها حل نفحـة تجتذب إليـه الأدبـاء ، كما تجتـذب النحل الـرياض . والأدب مـاسـونيـة تـذهـب بـالكلفة ، وتمحـو الفـروق بين الأشخاص . وأخوة متينة العرى وثيقة الأواصر ، وقـديما قالوا : « صلة الأدب فوق صلة النسب » فما كدت أحل بالمدينـة حتى سعى إلى أدباؤها ، أو سعيت إليهم ، وكانت لنـا مجالس فى ناد صغير كان يزين لنـا الغرور أنها تفوق مجالس عكاظ وحلقـات المربد . أدب وشعر وفكاهة ، ثـم دعابات ومجون تصور لهو الصبا وعبث الشباب . فسقيا للشباب ولأيام الشباب !

وكان عصر الأدب فى طليعـة هذا القـرن بمصر زاهرًا ، وكـان للأدب فتنـة وله فى نفـوس الشباب روعة ، وإنما تروج سوقه حيث تميل إليه الأسماع ، وحيث تقدر جهود الأديب .

كنا فى النادى ذات ليلة نتناشد قصيدة للشيخ عثمان زناتى [1] مطلعها :

لا أنت واصلـة ولا أنـا سـالى ... صـدق الهوى وكـذبت فى آمـالى

والشيخ عثمان شاعر مقل ، جرى فى غبار البارودى وحاكاه فى أسلوبه العربى الرصين وفى التشبه بشعـراء الجاهلية . وبينما نحن فى جـدال عنيف إذ دخل مهـدى أحمد خليل [2] وكان وقتئذ مدرسا للعـربية بـالمدرسة الابتـدائية ، وهـو شيخ فـارع مبسوط الجسم ، مفـرط فى الطول ، رمى الله عينيـه بالعمش ، وخديه بالنمش ، كان يزعم أنه يقول الشعر ولكنه فى الحق إنما كان ينحت من الصخور ، يجمع من ألفاظ القـاموس المحيط كل غريـب نفور متعاظل ليمـلأ به تفاعيلـه ، دخل مهدى خليل وقال : « أتعلمون من سيـزورنا فى النادى هذه الليلة ؟ » ، قلنا : « لا » ، قـال : «أحزروا » ، قلنا : «لا نحرز ، اجلس فما عهـدناك مرة بشير خير » ، فقـال : « إنى والله فى هذه المرة بشير خير ! » . ثم وضع يديه على ركبتى وقال : « سيزورنا الليلة السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، فقد حضر من القاهرة بالأمس لزيارة أبيه القاضى الشرعى بمركز الفيوم » .

كلنا كان يعـرف السيد مصطفى فى أدبه قبل أن يلتقى به ، فقـد كانت له شهرة ذائعـة على حداثة سنه وقرب قيد اسمه فى سجل الأدباء . وأذكر أنى عثرت مرة على أوراق مطبوعة بها قصيدة قافية تربى على مائة بيـت نسبت للسيد مصطفى ، كلهـا تشهير بالاحتلال ، ونسبـت إليه قصيدة أخـرى حكم عليه بالحبس بسببها كان لها ضجة بمصر ودوى يثقب الآذان . ويظهر أن السيد مصطفى حينما رحل من منفلوط إلى القاهرة أول ما رحل ، كان موفور المواهب كامل العدة فى الأدب ، التف به قوم جعلوه لسانهم النـاطق ، فرمى عن قـوسهـم جريئًـا غير هياب ، على حين كـان هؤلاء السـادة يختفون خلف كرامة مصنوعة ووقار مختلق .

كانت الساعة التاسعة حينما دخل السيد مصطفى النادى ، فرأينا شابا فى نحو الثانية والعشرين ،

---

(١) كان أحد خريجى دار العلوم ، ومكث مدة أستاذًا بمدرسة البوليس .

(٢) تخرج فى دار العلوم عام ١٨٩٨م .

معتدل الطول ، ناضر العـود ، وسيما فى غاية الوسامة ، قسيما فى منتهى القسـامة . وجه عربى يميل إلى الاستدارة ، وعينان سـوداوان ذابلتان فيهما خيال وفيهما فن ، وأنف مستقيم لا ترى فيـه عوجا ولا أمتـا . وكان السيـد جميل الزى أنيقـا فى ملبسه دون أن يشعـرك أنه يتعمـد الأناقـة أو يتكلف حسن الشارة .

حيينا السيد تحية المشوقين إلى رؤيته المعجبين بأدبه ، وسلك بنا الحديث شعبا شتى نال فيها السيد قسطا يسيرا ؛ لأن الحيـاء كان من أبـرز صفاتـه ، فلـم تكن تتفتح نفسـه وتبدو على سجيتهـا إلا بعد معاشرة ومخالطة .

رأيت السيـد فهفت إليـه روحى ، وسكنت نفسى ، وتـوالت الاجتماعـات بـالفيـوم فنفض عنـه الكلفة ، ورأيته كما هو وكما كنت أحب أن أراه : جم الأدب ، كثير الحفظ والرواية ، حسن الاختيار لما يحفظ ، فلا يروى لشاعر إلا الجيد المختار والرائع المنتخل . وتمكنت بيننا الصلة فلم أكن أغادر مجلسه إلا حيث نفترق للنوم . وكان معه بـالفيوم أخوه أبو بكر ، وكان أديبـا قارئًا ولكن أدبه كان من صنف آخر . وأذكر أنى أنشدتهما مرة قصيدة لى فى الفخر منها :

إذا كـــان عيبى بينهم أننـى فتى — صغير، وشعـرى بالشبيبـة مسـود
فمهـلاً أنا النجـم الذى يبصرونـه — صغيرًا، ويخفى قدره عنهـم البعد

ويظهر أن أبا بكر حفظ بعض أبيات من القصيدة ، وأتفق أن تنازع مع بعض أخوته يومًا أمام أبيه وصاح فيهم : « صدق والله الشيخ على الجارم ! » . فقال أبوه : « وما شأن الشيخ على الجارم ياولد؟» فقال : « لأنه يقول :

سئمت حيـاتى بين قـوم فضـائلى — لـديهم يغطيهـا التعصب والحقـد
إذا مـا بـدت تـرنـو إليهم فضيلـة — تصـدى لها نـذل وكـر لها وغـد»

وكان جـزاء أبى بكر المسكين أن لاقى من أبيه على هذه الصراحـة شر ما يلاقى مولـود من والد ! وقد أخبرنى السيد بهذه القصة وهو لا يكاد يمسك نفسه من الضحك .

أقمنـا بالفيـوم نحو شهـرين عرفت فيهما عن كثب فضل السيـد وخلقه وأدبـه ، فقد كـان سريع الخاطر ، حلو النادرة ، لا ينطق الهجر ، ولا يحب أن يسمعه ، دقيق الحس نبيل العاطفة ، جذابا إلى أقصى حـدود الجاذبية ، سخيـا إلى أبعد مطـارح السخاء . ثم هـو محدث لبق يحسن اختيار لفظـه ، ويجيد تصوير معناه . وكان بصوته الهادئ صحل خفيف لـه حلاوة وعذوبة ، وكان من عادته إذا بدا الحديث أن يزم شفتيه قليلاً فتبدو فى خده الأيمن فحصة خفيفة تزيد وجهه حسنا وملاحة .

عدنا إلى القاهرة معًا وكنا سئمنا دروس الأزهر . واحتوينا متونه وشروحه وحواشيه ، ورمينا الطرف إلى منتهاه وغـايته فرأينـا أننا لا ننال الشهـادة إلا إذا قضينا فى الـدرس اثنى عشر عامًا وكنـا من كبار

النابغين ، وكم كـان مرتب الشهادة ياتـرى فى ذلك الحين بعد الكد الطـويل والعيش الممض ؟ أربعة ريالات صحيحـة كاملـة نقدًا وعـدا فى كل شهر ! رأينا هـذا فانصرفنـا عن الأزهر وجعلنـا مجلسنا فى الصباح « بقهوة أفندية » وهى قهوة لا تـزال أمام المشهد الحسينى إلى الآن . ألا ليت شعرى هل كانت تعلم جدران هذه القهوة ، أو كـان يعلم صاحبها أن طائفة البؤساء المفلـوكين الذين يجلسون فى أحد أركـانها وهـم بين إنشاد وشعـر وتنادر وضحك وصخب ، سيكـونون أعـلام الأدب فى مصر ، وزعماء النهضة فى الشعر والكتابة ؟

كنت ترى فى هذا المجلس حـافظ إبراهيم ، وإمام العبد ، وعبـد الرحمن البرقوقى ، وأحمد نسيم ، وأحمد فؤاد . وكان من عادتنا أن نجلس كل يوم إلى كتاب أدب أو ديـوان شاعر نقرأ طرائفه ونتخذ منه مادة للنقد والجهر بالرأى الحر الجرىء ، فإذا جاء موعد الغداء ذهـب أكثرنا مع السيد إلى داره ، وكان رحمه الله يزيد وجهه تهللاً وبشرا كلما زاد عدد الطاعمين .

ثم دخلت دار العلوم فانحـرف بى الاشتغال بها عن طريق السيد ، وكان قد زاد اتصـاله بالشيخ على يوسف فنشر بالمؤيد « النظرات » التى رفعته إلى القمـة ، وطارت باسمه كل مطار ، وهى مقالات تصور عـاطفته وتكشف عن ذات نفسه التى تفيض بـالرحمة والحنان ، ثم هى إلى ذلك فن جـديد فى الكتابة الجزلة السهلة الرائعة التى كانت فتحًا مبينا فى النثر العربى ، ومثلاً عاليًا لناشئة المتأدبين .

وحينما عدت من انجلترا كـان السيد كما تركته لا يـزال يمتلك ناصية المجـد ، ذلك المجد الهادئ الرصين الذى بلغـه بسنان قلبه العف ، وبروعة فنـه الرفيع ، والذى لم يصل إليه بسـلاطة لسان ، أو غرابة مذهب ، أو إثارة جدل حول اسمه ليدفع الناس إلى ذكره والتحدث عنه .

وتمكنت صلته فى ذلك العهد بالزعيم الراحل سعد زغلول باشا ، واتفق أن مات السيد عليه الرحمة يوم جرح الرئيس بميدان محطة القاهرة ، فشغل الناس خطب الرئيس عن خطبه ، وصرفتهم فجيعتهم الكبرى فى سعد عن أن يؤدوا ما عليهم للكاتب المجيد يوم رحيله من حفاوة وتكريم ، وفى ذلك يقول شوقى :

اخترت يـــوم الهول يـــوم وداع ... ونعاك فى عصـف الرياح النـاعى
هتف النعاة ضحـى فأوصد دونهم ... جـرح الـرئيس منـافـذ الأسماع
من مـات فى فـزع القيـامـة لم يجد ... قـدمـا تشيع أو حفـاوة سـاع
مـا ضر لو صبرت ركـابك ساعـة ... كيف الوقوف إذا أهاب الداعى؟
خل الجنـــائز عنـك لا تحفل بها ... ليس الغـــرور لميت بمســـاع
سر فى لـــواء العبقـــريـــة وانتظم ... شتى المواكـب فيـــه والأتبـــاع
واصعـد سماء الذكـر من أسبـابها ... واظهـر بفضـل كـالنهـــار مـذاع
فجع البيـــان وأهلـــه بمصـــور ... لبق بـوشـى المتعـات صنـاع

الجملة الفعلية أساس التعبير
في اللغة العربية(*)

تقتضى العقلية العربية أن تكون الجملة الفعلية الأصل والغالب الكثير فى التعبير ، لأن العربى جرت سليقته ودفعته فطرته إلى الاهتمام بالحدث فى الأحوال العادية الكثيرة، وهى التى لا يريد فيها أن ينبه السامع إلى الاهتمام بمن وقع منه الحدث، أو التى لا يهتم هو فيها بمن وقع منه الحدث ، فالأساس عنده فى الإخبار أن يبدأ بالفعل فيقول : عدا الفرس، ورعت الماشية ، وعاد المسافر . وقد يلتجئ العربى إلى الجملة الاسمية إذا كان القصد إلى الفاعل وإلى الإسراع بإزالة الشك فيمن صدر منه الفعل ، فيبدأ بذكره أولا قبل أن يذكر الفعل لكى يخصصه به، أو لكى يبعد الشبهة عن السامع ويمنعه أن يظن به الغلط أو التزيد . قال صاحب دلائل الإعجاز : « . . . فإذا عمدت إلى الذى أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيد قد فعل وأنا فعلت وأنت فعلت ، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل . إلا أن المعنى فى هذا القصد ينقسم قسمين : أحدهما جلى لا يشكل وهو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر أو دون كل أحد . ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت فى معنىً فلان وأنا شفعت فى بابه ، تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به وتنزيل الاشتباه فيه وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتبت . ومن البين فى ذلك قولهم فى المثل : أتعلمنى بضب أنا حرشته ؟

(*) ألقى هذا البحث فى مؤتمر المجمع السنوى فى ١ يناير ١٩٤٩ ونشر بمجلة المجمع بالجزء السابع ص ٣٤٧.

« والقسم الثانى ألا يكـون القصد إلى الفاعـل على هذا المعنى ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولا ومن قبل أن تذكر الفعل فى نفسه ، لكى تباعده بذلك من الشبهة وتمنعـه من الإنكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التـزيـد ، ومثاله قـولك : هو يعطى الجزيل وهو يحب الثناء : لاتريد أن تـزعم أنه ليس ههنا من يعطى الجزيل ويحب الثناء غيره ، ولا أن تعرض بإنسان وتحطه عنه وتجعله لا يعطى كما يعطى ولا يرغب كما يرغب ، ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه ، وأن تمكن ذلك فى نفسه . . . » قال عبـد القاهر : ومما يحسن ذلك فيه ويكثـر ، الوعد والضمان كقـول الرجل : أنـا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر . . . وكذلك يكثر فى المدح والفخر نحو :

نحن فى المشتــاة نــدعــو الجفلى   لا تــرى الآدب فينـــا ينتقـــر

(دلائل الإعجاز ص ٩٩)

ثم انتقل عبـد القاهر إلى الحديث فى عـادة العربى بـالتعبير بالجملـة الفعلية إذا لم يـوجد مقتض للاهتمام بالفاعل فقال : « ويزيدك بيانًا أنه إذا كان الفعل مما لا يشك فيه ولا ينكر بحال لم يكد يجىء على هذا الوجه ، ولكن يؤتى به غير مبنى على اسم ، فإذا أخبرت بالخروج مثلا عن رجل من عادته أن يخرج فى كل غـداة قلت : قد خرج ، ولم تحتـج إلى أن تقول : هو قـد خرج . ذلك لأنـه ليس بشىء يشك فيه السامع فتحتاج أن تحققه وإلى أن تقدم فيـه ذكر المحدث عنه . وكذلك إذا علم السامع من حال رجل أنـه على نية الـركوب والمضى إلى مـوضع ولم يكن شك وتردد أنـه يركب أو لا يـركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب ، ولا تقول : هو قد ركب » .

يتضح من هذا أن من طبيعة العـربى تقديم ما يهتم به ، فهو مطبـوع بشعوره الخاص على أن يبدأ الكلام بما يـرى أن السامع فى حاجـة إلى تقديمه ، فإذا قـال : « سبقت فرسى » فإنه يـرى أن السامع يتطلع أولا إلى وقوع الحدث وهـو السبق ، ثم يأتى صدور السبق من الفرس ثانيًـا . وعلى هذا النمط يجرى فى أكثر أخباره . ولكـن إذا كانت الفرس معروفة بـالبلادة والبطء وكان السامع لا يتـوقع سبقها عدل عن الجملة الفعلية وقال : « فرسى سبقت » للإسراع بما يقتضى الدهشة والعجب .

ومما يستأنس به فى هـذا البـاب ما جـاء فى دلائل الإعجاز مـن الكلام عن التقـديم والتأخير بين الفاعل والمفعول به :

« واعلم أنـا لم نجدهم اعتمـدوا فيـه (فى التقديم والتأخير) شيئًـا يجرى مجرى الأمـر غير العنايـة والاهتمام . قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنـى ، وإن كانا جميعًـا يهمانهم ويعنيانهم . ولم يـذكر فى ذلك مثـالا : وقال النحـويون : إن معنى ذلك أنـه قـد يكـون من أغـراض النـاس فى فعل مـا أن يقع بإنســان بعينـه ولا يبـالـون من

أوقعه، كمثل ما يعلم من حالهم فى حال الخارجى يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى ، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولايعنيهم منه شىء ، فإذا قتل وأراد مريد الإخبار به بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجى فيقول : قتل الخارجىَ زيدٌ ولا يقول: قتل زيد الخارجى ، لأنه يعلم أن ليس للناس فى أن يعلموا أن القاتل زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يعلمون وقوع القتل بالخارجى المفسد وأنهم قد تجنبوا شره وتخلصوا منه .

« ثم قالوا : فإن كان رجل ليس له بأس ولا يقدر فيه أنه يقتل، فقتل رجلا وأرادا أن يخبر بذلك، فإنه يقدم ذكر القاتل فيقول: قتل زيد رجلا : ذلك لأن الذى يعنيه ويهم الناس من شأن هذا القتل طرافته وموقع الندرة فيه وبعده كان من الظن . ومعلوم أنه لم يكن نادرًا وبعيدًا من حيث كان بالذى وقع به، ولكن من حيث كان واقعًا الذى وقع منه . فهذا جيد بالغ إلا أن الشأن فى أنه ينبغى أن يعرف فى كل شىء قدم فى موضع من الكلام مثل هذا المعنى ، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير . » انتهى كلام عبد القاهر .

ومما يؤكد طبيعة العربى فى تقديم ما يهتم به ما جرى عليه فى الاستفهام . فإن هناك فرقًا بين أن يقول العربى « أفعلت؟ » وبين أن يقول « أأنت فعلت ؟ » فهو يسأل فى الصورة الأولى عن صدور الفعل لأنه يشك فى صدوره ولذلك قدمه . أما فى الصورة الثانية فهو لا يشك فى الفعل ولكنه يشك فيمن فعله . ويأتى النفى على هذا النحو فقولك : « ما كتبت » غير أن تقول : « ما أنا كتبت » لأنك فى الأولى نفيت عنك كتابة لم يثبت وقوعها أما فى الثانية فقد صدرت الكتابة ، ولكنك تنفى صدورها منك . وإذا قلت « ما أكلت الطعام » فإن هذا لا يحتم أن يكون الطعام أكل، ويجوز أن يكون أكل وأن آكله غيرك .

وتقديم الفعل على الفاعل هو الأصل ، فالمرء يهتم بالحدث أولا ، ثم يتجه إلى محدثه ؛ لأن الحدث هو الأمر الجديد الذى يعنيه شأنه ، ولذلك يمكن أن ندعى أن الأسلوب العربى هو الأسلوب الجارى على الأصل ، كلما خطر بذهن متكلم وقوع حدث من فاعله فهو يندفع أولا إلى ذكر الحدث ثم ينسبه إلى من صدر منه .

ودليل أهمية الحدث فى طبيعة المتكلمين أن اللغات تكتفى كثيرًا ببناء الفعل للمجهول وتهمل فاعله ، لأن لحصول الفعل عندها المرتبة الأولى ، نعم . إنهم ذكروا لإهمال الفاعل أسبابا كثيرة ولكن من أكثر أسباب البناء للمجهول عدم الاهتمام بالفاعل نفسه، وحصر الإخبار فى وقوع الفعل من شخص ما .

وقد يحتج علينا محتج بأن منطق الأشياء كان يقتضى العكس ، وهو أن يقدم الفاعل على الفعل؛ .

لأن ذكر الفعل قبل فـاعله ذكـر للأثر قبل المؤثـر . وعلى ذلك جرت لغـات أهل الغرب ، وعلى ذلك جرى العـامة فى مصر وغيرها مـن الأقطار العربيـة ، ولكنا نجيب بأن المسألـة ليست مسألة منطق ، وإنما هى مسألة شعور العربى بما يرى نفسه مندفعًا إلى الإسراع بالتعبير عنه .

ولعل أسـاس ميل العرب إلى البـداءة بالفعل أنهم كـانـوا يعيشون عيشـة بداوة تحيط بها المخـاوف ويكنفها التوجس ، وتكثر فيها المفاجآت فكان يهمهم أن يسرع المتكلم بذكر الحدث قبل من وقع منه الحدث ، فتقول مثلا : سطا الذئب ، وأغارت قبيلة بنى فلان ونضبت البئر ، إلى غير ذلك .

ثم إن الفعل فى نظـر العـربى يتضمن فـوق الحدث الـذى يفيـده نـوع الفـاعل على شىء مـا من الإجمال. فإذا قيل مثلا : « عدا » فإنه يفهم قبل أن يذكر فـاعل العدو أن الفاعل لابد أن يكون حيوانًا ، وأن يكون حيوانًـا خاصًا مما يصح أن يعدو . ويتضح الأمر أكثـر من هذا إذا قيل : « اجترّ » مثلا ، فإن الفاعل ينحصر فى أنواع قليلة من الحيوان . فهو إذا قدم الفاعل استفاد أمرين : معنى الحدث ، ثم نـوع الفـاعل على الإجمال . وقد يـدل الفعل على فـاعل بعينـه نحو : نقت الضفـادع ومـاء القط إلخ . . .

والفعل يتضمن حدثًا وزمنًا ، أو بعبارة أخرى يتضمن معنيين فى آن ، فالعربى يسرع بتقديمه بدل أن يقدم من صدر منه الفعل لأنه لا يفيد إلا معنى واحدًا .

ثم إن العربى ميال بفطـرته إلى الإيجاز وتجنب الفضول . فهو يقول : جاء الـرجل ولا يقول الرجل جاء ؛ لأن الثانية تتضمن تكرار الإسناد لا محالـة . وهو لا يلجأ إلى تكرار الإسناد إلا لغرض بلاغى . حقًا إن الكوفيين أجازوا تقديم الفاعل على الفعل ، وأن مثل قولك : « الرجل قام » لا يتضمن الفعل فيه ضميرًا على رأيهم وإنه كقولك « قام الرجل » تمامًا . ولكنى أرى أن نحيزة العربى ألا يخلى فعلاً من فاعلـه ، سواء أكـان هذا الفاعل ظـاهرًا أم ضميرًا بارزًا أم مستترًا ، وأن ذوقـه العام يقتضيـه أن يقدم الفعل على الفاعل كما نراه فى الكلام الكثير من لغة العرب . ولو كان العربى يجيز تقديم الفاعل على الفعل لقال « أنا قام » و « أنت قام » ، ولكنه يقول: « أنا قمتُ » و « أنت قمتَ » ولو ادعى مُدَّعٍ ، أن التاء فى قمتُ وقمتَ حرف للتكلم أو الخطاب فى هذه الأمثلة ، فماذا يقول فى قول القائل : « قمَت لفلان » ؟ أيدعى أن الجملة بلا فاعل ، أم ماذا يقول ؟

أما إذا أراد العربى أن يخبر عن اسم باسم، فقد يكون الخبر اسما جامدًا وقد يكون وصفًا أى اسمًا مشتقًا يدل على ذات متصفة بحدث وهذا هو الكثير الغالب، وهو فى هذه الحالة يقدم المخبر عنه على الخبر إذا لم تدفعه لفتة بلاغية .

ذلك لأنه يعـد الخبر صفة لـلاسم الأول ومن طبيعته أن يقدم الموصـوف على الصفة فهـو يقول : الـرجل قائم ، كما يقـول : رأيت رجـلاً قائمًا . وليس من عـادة العـربى أن يعدل عن هـذا النمط إلا لأغراض تقتضى العناية بالخبر فيقدمه .

أعلام الإسلام

العربى الذى هز إيوان كسرى

أسد قريش سعد بن أبى وقاص (*)

هـذا قـائد من أعظم قـواد المسلمين وبطل من أكبر أبطـال التـاريخ ! وعجيب حقًـا أمـر هـؤلاء العرب، فإنهم فى حيـاتهم الأولى ، حياتهم فى الجاهليـة ، كانوا أمـة جاهلـة بدويـة تعيش فى صحراء جافية منعزلة عن العالم إلا فى بعض مشـارق الشام وفارس . لم ينلهم شىء من حضارة ، ولم يمر بهم طيف من تثقيف ، فما كاد يسطع بينهم فجر الإسلام ، وما كاد ينشر بينهم محمد ابن عبد الله رسالته ، حتى تفتحت قلوبهم ، وتخلصت من الأسر عقولهم ومشوا فى نور الله حكماء مبصرين وساسة مديرين كأنهم خلقـوا خلقًا جـديـدًا ، أو كأنما استبدل بهم قـوم آخرون . هـذه كيميـاء الإسلام التى حـولت النحاس ذهبـا نضارًا ، وأصـارت الجهل والاعتزاز بالقـوة الوحشية والفخـر الأجوف بـالأنساب علما وسياسة وتواضعًا ، فكان منهم بعد قليل من الزمن علماء مفكرون ، وحكام عادلون ، وقواد مدبرون . وهذا شأن لو أطلنا الحديث فيه لخرج بنا عن جادة ما أردنا .

كان بطلنا سعد بن أبى وقاص شابًا قـرشيًا ، يعتز بشرف فى الجاهلية عريق ، وثروة واسعة ، وهمة تزاحـم الثريـا ، وشجاعة وعـزم وقوة جنـان . وكانـت ألهوة هذا الشاب أن يقضـى ساعـات فى برى السهـام، ولعله مـا كـان يظن وهـو يبريها أن هذه السهـام التى يعبث بها سيرسلهـا يـومًا إلى صـدور أعدائه، وسيفتح بها يـوما ملكا كبيرا ، لم تكن تحلم بـه جزيرة العـرب ، ولم تكن تستطيع أن يخطر لها ببال . قـام رسول الله صلى الله عليـه وسلم بدعـوة العرب إلى الإسـلام ، فلقى من جفوة كفـار قريش

(*) أذيع هـذا الحديث من إذاعة القـاهرة فى ٣٠/ ١١/ ١٩٤٨ . ونشر بمجلـة (الراديـو المصرى) فى ٢٩ ينايـر ١٩٤٩م . ص ٨ .

وصناديدهم ما لقى ، وتناقل شباب مكة وشيوخها هذه الدعوة فى سخرية واستنكار ، ونام الشاب سعد ذات ليلة ، فرأى فى نومه كأنه فى ظلمة دامسة لا يكاد يبصر فيها شيئًا ، وبينما هو فى حيرة ، إذ بزغ له قمر فى وسط الظلام فتبعه ثم تبعه ، وما كاد يبلغه حتى رأى أن زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبا بكر بن قحافة قد سبقوه إليه . فسألهم قائلاً : متى انتهيتم إلى هاهنا ؟ فأجابوا : جئنا الساعة . تيقظ الشاب وأخذ يسأل عن مكان النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى علم أنه يدعو إلى الإسلام مستخفيًا ، ومازال يقتص أثر الرسول الكريم حتى لقيه بشعب أجياد وقد صلى العصر ، فأسلم وهو فى السابعة عشرة من سنيه .

دخل سعد الإسلام بقوة اقتناعه بالحق ، ورسخ الدين فى نفسه على صخرة من اليقين ، فما كانت تزعزعه رغبة ، ولا يتخونه إرهاب . استمع له وهو يحدثنا عن نفسه قال :

كنت شابا بارا بأمى حفيا ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الدين الجديد الذى أحدثته؟ لتدعنه وإلاّ فإنى لست بآكلة ولا شاربة حتى أموت فتعيّر بى فى القبائل . فقلت: لا تفعلى يا أمى ، فإنى لن أدع دينى . فمكثت يوما وليلة لا تأكل ولا تشرب حتى جهدت. فقلت : والله يا أمى لو كان لى ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ، ما تركت دينى لشىء . فلما رأت شدة عزيمتى أكلت وشربت . وفى نزلت الآية الكريمة : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا﴾ [لقمان : ١٥].

دخل سعد الإسلام مقتنعا مخلصا ، مجاهدًا مقدامًا ، مستميتا فى نصرته . وهو أول من رمى سهمًا فى الذياد عن الدين : ذهب فى أول عهده بالإسلام فى سرية إلى ماء بالحجاز ، فلقيهم جمع من قريش على رأسهم أبو سفيان ، فاعتركوا فكان أول من رماهم ابن أبى وقاص . وقد كان هذا السهم موضع فخره واعتزازه فكان يقول : إنى لأول رجل رمى بسهم فى سبيل الله . شهد مع النبى الكريمﷺ غزواته كلها ، وكان فى فتح مكة يحمل إحدى رايات المهاجرين الثلاث، وثبت مع الرسولﷺ يوم أحد بينما زلزل المسلمون فدافع عنه ونافح دونه ، وكفاه مجدًا أن النبىﷺ يقول له فى هذه الموقعة : « ارم فداك أبى وأمى» !!

قد يكون له فى هذه الشجاعة ، وفى تلك الفدائية ، أمثال ، وأنداد ، ولكن القدر كان يخبىء له مجدا يبهر العيون ، وتقصر دونه يد المتطاول وذكرا خالدًا فى الآخرين سيبقى أنشودة الدنيا ، وحديثًا عجبًا فى فم الزمان . ذلك حينما تحفز الفرس لقتال العرب ، وحينما عقد عمر بن الخطاب عزيمته وصاح صيحته : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! وحينما صمم على إعداد جيش لفتح فارس يقود رجاله بنفسه فاستشار عمر أصحاب المشورة ، فأجمعوا رأيهم على ألا يذهب على رأس الجيش مخاطرًا ، وأن يندب رجلاً من أصحاب رسول اللهﷺ ، وأن يبقى هو بالمدينة ليمده بالجند

والعتاد، فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، وإلا نـدب جنودًا آخرين يغيظ بهم العدو حتى يجىء نصر الله . وبينما القوم يتشاورون فيمن يختارونه لقيادة الجيش ، إذ جاء إلى عمر كتاب مـن سعد ، وكان على بعـض صدقات نجـد يخبره فيه بأنـه تخير الف فارس مـن ذوى النجدة والرأى لقتال الفرس، ومـا سمع القوم اسم سعد حتى صاحوا: لقد وجـدت الرجل ! قال : فمن ؟ قالوا: الأسد فى براثنه ! سعد بن مالك! فوافقهم عمـر . وكتب له كتابًا يدل على صلابة عمر وشدته مع قواد جيوشه . ثم على سماحة مبادئ الإسلام جاء فى كتابه :

يـاسعد بن وهيب ، لا يغـرنك من الله أن قيل خـال رسول الله وصـاحبه ، فإن الله عـز وجل لا يمحـو السيئ بالسيئ ، ولكنـه يمحو السيئ بـالحسن ، وليس بين الله وبين أحـد نسب إلا بطاعتـه فالنـاس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلـون بالعافيـة ، ويدركون مـا عنده بالطـاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر .

خرج سعـد من المدينة إلى العـراق فى أربعة آلاف من الجنـد ، وكان جيشه يجمـع خيرة العرب من الأبطال الشجعان ، والشعراء والخطباء . وذوى الرياسة والمكـانة وأخذ الجنود ينضمون إليه فى طريقه حتى بلغ عددهم ستة وثلاثين ألفا وكان الاتصال وثيقًا بين الجيش والخليفة . فما كان سعد ينزل منزلا أو يتبوأ متبوأ حتى يخبر عمر بـأمره . وصل سعد من شراف يريد القادسيـة بعد أن نظم جيشه وقسمه فرقـا . ووضع على كل فرقة بطـلا من أهل السابقة فى الإسـلام . ثم أخذ يشن الغارات متفـرقة ليغنم لجيشه مـا يقوم بمئـونته . حتى بلغ القـادسية وهى باب مملكـة الفرس فأقـام بها شهرًا وذعـر الفرس لقدومه وطـار صواب ملكهم فأرسل إلى قائده الأعظم رستم يأمره بـالمسير إلى العرب، وصد سيلهم، فاعتذر أول الأمـر ولكنه أرغم على القبول كارهـا، فسار بجيش لجب إلى ساباط فى مـائة وعشرين ألفا يتقدمهم ثلاثة وثلاثون فيلا .

وبعث سعد إلى يزدجرد وفدا من أهل الرأى والشجاعة والسياسة وبلغ الوفد المدائن فعجب أهلها حين رأوا رجاله عجافا، وجعلوا ينظـرون إلى أشكالهم وإلى أرديتهم على عواتقهم، والسياط فى أيديهم والنعال فى أرجلهم، وإلى خيولهم الضعيفـة الهزيلة ، ويتساءلون بينهم كيف يقدم هـؤلاء على غزونا ؟ وكيف يطمعون فى الظفر بنا واقتحام عاصمتنا ؟ ودخل الـوفد على يزدجرد الملك فقال لهم : ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أتـراكم اجترأ تم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا ؟ وبعد حـوار طويل قال له المغيرة بن شعبه : اختر إحـدى خلال ثـلاث : فإما الجزيـة ، وإما السيف، وإما أن تسلم فتنجـو بنفسك. فغضب الملك وأمر برد الوفد إلى قائده .

وكان دهـاقنة الفـرس وكبراؤهم أشد عداء للعـرب حينما علموا أن دينهم يسـوى بين الطبقات فى ديمقراطية واسعة الأفق ويجعل الناس سواء لا يمتازون إلا بما قدموا من عمل صالح .

وبدأ القتال بين الفريقين عنـدما كبر سعد تكبيرته الرابعة والتقى الجيشـان ، وكانت الحرب زبونا ضروسا مشتعلة الأوار ، استمرت أياما وقتل كبار قواد الفرس ، وهبت ريح دبور فأطارت طيارة رستم عن سريره ، فأسرع إليه القعقاع بن عمرو فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، ثم صعد سريره يصيح : قتلت رستم ! قتلتـه ورب الكعبة ! إلى إلى ! فـأطاف بـه الجنـد يهللون ويكبرون . وانهزمت جيـوش يزدجرد وولت الأدبار .

واهتبل سعد الفرصة فسار بجيشـه لفتح المدائن فاقتحم جنوده نهر دجلة بخيولهم ، وبلغوا إيوان كسرى وفر الملك ، وغنم المسلمـون مغانم كثيرة وكان فتحًا مبينًـا . ثم أقام سعد بالكوفـة قليلاً حتى عزل عنها .

وجاءت فتنـة على ومعاوية فـاعتزل الفريقين ودعاه ابن أخيـه هاشم أن يدعـو لنفسه وأن ينهض لطلب الخلافة وكان مما قـاله له : إن هاهنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمـر ، فأجابه سعد فى غضب : أبالفتنة تأمرنى ؟ لو كان لى بدل ما ذكرته سيف واحد إذا ضربت به المؤمن نبا ، وإذا ضربت به الكافر قطع ، لأجبتك : « لن أجرد سيفى فى وجه مسلم » !

ولما حضرت سعدًا الوفاة طلب جبة له باليـة وقال لأهله : كفنونى فيها لأنى لقيت المشركين بها يوم بدر.

رضى الله عن سعد وجزاه خير ما يجزى به المجاهدين .

والنـــاس ألـف منهمُ كـــواحـــد   وواحـــد كـــالألف إن أمـــر عنى

الموشح

من تراثنا الأدبي الموسيقي (*)

أول ظهوره بالأندلس ، والسابق إلى ابتداعه مقدم بن معافى من شعراء الأمير عبد الله المرواني ، ثم تبعه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وبزهما فيه عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب ألمريه ، وهو من ملوك الطوائف وكان الموشح مظهرًا للإبداع والافتنان ، ومن أشهر الوشاحين الأعمى التطيلي ، والطبيب ابن باجة سنة ٣٣٥ هـ وإليه تنسب أكثر لحون الأصوات التي كان يتغنى بها في الأندلس ، وابن اللبانة سنة ٥٠٧ هـ ، وابن سهل الإسرائيلي ، ولسان الدين بن الخطيب .

وانتقل الموشح إلى المشرق فحاول نظمه جماعة من الشعراء ولكنهم لم يبلغوا شأن الأندلسيين ، فكانت موشحاتهم لا تخلو من تكلف وعجز عن اختيار الكلمات الموسيقية المرنة .

ومن أول المحسنين في هذا الفن من المشارقة ابن سناء الملك ، وله الموشحة المشهورة التي لا يزال نغني بها إلى اليوم :

كللي ياسحب تيجان الربا بالحلي   واجعلي سوارها منعطف الجدول

وجاء بعده كثير من شعراء مصر والشام ومن أشهرهم الشاعر الموسيقي الملحن . . شمس الدين دهان سنة ٧٢١ هـ ، قال ابن شاكر الكتبي : « كان ينظم الشعر الرقيق ويدري الموسيقى ويعمل الشعر ويلحنه ويغني به المغنون وكان يلعب بالقانون » .

(*) نشرت بمجلة الموسيقى العربية التي تصدرها اللجنة الموسيقية العليا بالقاهرة عدد سبتمبر ١٩٨٧ ص ١٤ عن نشر سابق .

والذى دعا الأندلسيين إلى ابتكار الموشح أنهم رأوا أن الشعر كيفما بولغ فى شطر أبحره أو جزئها أو نهكها ربما لا يجرى مع النغم الذى يريدونه ، ورأوا أن المشارقة كانوا يقولون الشعر ثم يلحنونه ، وأن التلحين لذلك لم يكن حرًا طليقًا بل كان الوزن الشعرى يقيده ويحول بينه وبين تصوير العاطفة تصويرًا صادقًا ، ومثل ذلك مثل من يشترى الثوب مخيطًا ثم يعمل على أن يطوله من ناحية ويقصره من أخرى حتى يتقارب مع ملاءمة جسمه . ورأوا ذلك فأرادوا أن يخضعوا الشعر للنغم ، لا كما فعل المشارقة من إخضاع النغم للشعر . لذلك خرجوا من الموازين الشعرية المعروفة ولم يتقيدوا بها ، والذى ساعدهم على ذلك أن الشعراء فى العصر العباسى الأول تصرف بعضهم فى الأوزان كمسلم ابن الوليد ، ثم تصرفوا فى القوافى كما تراه فى بعض أشعار بشار وابن المعتز ، فكان هذا التصرف تمهيدًا لابتكار الموشح الذى تصرف فى الوزن والقافية معا ، فهو مرة يجرى على أبحر الشعر المعروفة كموشح ابن سهل الإسرائيلى وابن الخطيب فكلاهما من بحر الرمل ، وكثيرًا ما يبتكر له الأوزان ، حتى لقد قيل إن بعض الألحان الموسيقية كانت تجىء إلى مصر من بلاد الروم على أوزان ساذجة تضرب على آلات الموسيقى خالية من الكلام ، فكان المغنون يأخذون اللحن منها ، ويتأملون توقيعه مراعين متحركاته وسواكنه ، وينظمون الكلام على هواه ، وعلى قدر ما فيه من الأغصان والسلاسل حتى يكمل توشيحا موزونا .

ولم يسبق الأندلسيون المشارقة إلى الموشح لسبقهم إياهم فى الموسيقى والغناء ، فإن المشارقة من غير شك كانوا أساطين هذا الفن وعماده غير مزاحمين ، وقد برعوا فيه وأبدعوا وكان منهم الأعلام المبتكرون الذين يموج بذكرهم كتاب الأغانى ، والأندلسيون عيال على المشارقة فى هذا الفن ، فلم يزدهر بينهم إلا حينما اجتاز زرياب الفارسى إلى عدوة الأندلس أيام خلافة عبد الرحمن الثانى ، فقد كان فى خدمة المهدى العباسى ، وكان تلميذًا لإسحاق الموصلى ، ويزعمون ، فيما يزعمون ، أن إسحاق رأى من دلائل نبوغه ما أوجس منه خيفة أن يكون له شأن فى أعين الخلفاء ، فأغراه بمغادرة بغداد إلى الأندلس .

والموشحات تغنى بمصر من زمن بعيد غير أن اختيارها لم يكن موفقًا ، فلم ينتخب أرقها لفظًا ولا أغزرها معنى ، ولا أبعدها فى الافتنان اللفظى وزنًا . وجرت عادة المغنين أن ينشدوها معا فلم تظهر ألفاظها ، ولم تتضح معانيها ، وكل الذى يبقى لك منها أصوات تجرى على نغم موسيقى خاص . والتزم المغنون أيضًا أن يجعلوا التوشيحات مدخلاً للأدوار ، فهو عندهم كالحتم أن يغنى التوشيح ثم يتلوه الدور ، وفى العصور المتأخرة دخلت اللغة العامية الموشحات .

شعراء النهضة من دواوينهم

محمود سامي البارودي (*)

لو وضع أمامك ديوان البارودي، ومحي من غلافه اسم الشاعر، وكنت أبصر الناس بالشعر، وأعرفهم بخصائصه، وأقدرهم على ترسم ميزاته فى كل عصر من عصور الأدب، ما شككت فى أن أمامك مجموعة مختارة من بدائع شعر الجاهليين، وروائع العباسيين. ذلك لأن البارودى كان بارعا فى المحاكاة والتقليد، وكانت الصلة بين حافظته وقوته البيانية تشبه الصلة بين عينى الرسام البارع ومشاهد الطبيعة، فكما أن الفنان العبقرى لا يخطئ الألوان والظلال والنسب بين الأشياء، كذلك كان البارودى لا يخطئ فى وضع الصور الكلامية فى جزالتها أو رقتها، وفى تقديمها أو تأخيرها مطابقة للأسلوب العربى الصميم الذى يحاكيه. وتلك هبة فطرية قبل أن تكون ثقافة أو علما. وهى نفحة ربانية يختص بها الله أعلام الفنانين بين الحين والحين. إن البارودى نشأ فى بيئة شركسية من أبوين شركسيين، والعربية أبعد ما تكون من هذا الجوار. والبارودى لم يتلق أصول اللغة عن أستاذ، ولم يجلس مجلسا لدرس مسائل النحو والصرف. والبارودى نشأ فى عصر راكد ذميم ماتت فيه اللغة، ومات الأدب، وأصبح الشعر القليل فيه إذا سلم من الخطأ والكسر، لم يسلم من الغثاثة والسخف، فمن الذى أطلع تلك الزهرة الناضرة فى هذه الصحراء المقفرة. . . ؟ ومن الذى بعث هذا النجم المتلألئ فى هذه الليلة الليلاء. . . ؟ أطلع هذه الزهرة النبوغ الموهوب، وبعث هذا النجم النبوغ الموهوب. كأن الله عز شأنه حينما أراد أن يبعث مصر بعثا سياسيا، وأن ينهضها بعد طول السبات لتأخذ مكانها بين الأمم الناشطة العاملة، أراد أن يتم عليها نعمته ببعث أدبى شعرى يعيد إلى اللغة

(*) نشرت هذه المقالة فى مجلة المستمع العربى وكذلك فى كتاب «فى السياسة والأدب والفن» الناشر: مودى جرافيك.

نضارتها، وإلى لسان القرآن مجده القديم جديدا، وأن يجعل مصر زعيمة الشرق، وحاملة لواء العربية والشعر بين الأمم. البارودى درس الشعر من الشعر، وتعلم النحو والصرف من الشعر، وعرف دقائق اللغة وغرائبها من الشعر، فإنه أبى أن يسلك طريق أهل عصره، الذين انكبوا على دواوين صغار الشعراء المهزولين، فتجرد لدراسة الشعر الجاهلى، والعباسى فى أزهى عصوره حتى تملأ منهما، ثم طلع على الناس بشعر لا عهد لهم به، فبهرهم وأطار صوابهم، وأخذوا يترسمون خطواته، ويقتفون آثاره، فهو زعيم النهضة الشعرية فى الشرق غير منازع، وهو مجدد؛ لأنه بعث القديم وأثار التراب عن الكنز الدفين :

ملكت مقاليد الكلام وحكمة	لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضى	لباء بفضلى جرول وجرير
ولو كنت أدركت النواسى لم يقل	«أجارة بيتينا أبوك غيور»

وهكذا تثور شاعرية البارودى حتى تصل إلى ذروتها، فتتحدى السابقين من الشعراء المبرزين، وهكذا ينتقل المحاكى القانع بالمحاكاة إلى الاعتداد بنفسه، والثورة على أصنامه التى كان يومئ إليها بالذلة والخشوع، فقد عارض النابغة وأبا نواس والمتنبى وأبا فراس والشريف الرضى ولم يكن دونهم إن لم يكن قد بزهم. ومن أين للشريف أن يقول :

إذا أنا لم أعط المكارم حقها	فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا حملت درعى كميت طمرة	ولا دار فى كفى سنان مذرّب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة	علىّ يدا أغضى لها حين يغضب
فلست لأمر لم يكن، متوقعا	ولست على شىء مضى، أتعتب
أسير على نهج يرى الناس غيره	لكل امرئ فيما يحاول مذهب
وإنى، إذا ما الشك أظلم ليله	وأمست به الأحلام حيرى تشعب
صدعت حفافى طرتيه بكوكب	من الرأى لا يخفى عليه المغيب

وإذا سمينا هذا البعث لروائع العربية تجديدا، فإننا لا نغفل عن أن البارودى كان مجددا حقا بالمعنى الذى يفهمه الناس، فقد كان الشعر قبله مقصورا على المدح والتهنئة والرثاء، ولا يخرج عن هذه الأغراض. أما البارودى فأول شاعر جعل من شعره صورة لما يحسه ويبصره، فكان شعره يمثل نفسه ويصور عصره، شاهد الوقائع فوصفها حين يقول :

ولما تـداعـى القــوم، واشتبك القنــا   ودارت كما تهوى على قطبهـــا الحرب
ودارت بنــا الأرض الفضــاء كأننــا   سقينـــا بكـأس لا يفيـق لها شرب
صبرت لها حتـى تجلـت سماؤهـــا   وإنـى صبـــور إن ألم بـى الخطب

واصطخبت فى أيامه أحداث السياسة فخاض غمارها، وقال فيها الشعر الرائع الرصين، ووصف الآثار المصرية وروضة المقياس والجزيرة :

فبـادر لميقـات الصـلاة ومل بنـا   إلى القصف، مـا بين الجزيـرة والنهـر
إذا مـا قضينـا واجب الـدين حقـه   فليس علينـا فى الخلاعـة مـن وزر
تـرى كل ميـلاء الخمار من الصبـا   هضيمـة مجرى البنـد، نـاهـدة الصـدر
إذا انفتلت فى حـاجـة خلت جـؤذرا   أحـس بصيـاد فـأتلـع من ذعـر
لـوى قـدهـا سكـر الخلاعـة والصبا   فمالت بشطـر واستقـامت على شطـر

وقال فى الاجتماع والأخلاق وطرائق الإصلاح ، واستثار قـومه إلى النهـوض والوثـوب، ونفى إلى سرنديب ، فكان حنينه إلى وطنه زفرة تذيب القلوب وتستنزف ماء الشئون :

لا فى سرنـديـب لى خل ألــوذ بـه   ولا أنيـس ســوى همى وإطــراقـى
أبيت أرعـى نجـوم الليل مـرتفقـا   فى قنـة عـز مـرقـاهـا على الـراقى
يـاروضـة النيل، لا مستـك بـائقـة   ولا عـــدتك سماء ذات إغـــداق
إذا تـذكـرت أيــامـا بها سلفت   تحدرت بغـروب الـدمع آمــاقـى
ويـا بـريـد الصبـا بلغ ذوى رحمى   أنـى مقيم على عهـدى وميثــاقـى

نشأ فى بيت عـريق، وكان لآبائه سالفة فى الشرف، ومـراس فى معامع القتـال، وانتماء إلى بعض سلاطين المماليك ، فانضمت هذه الوراثة النبيلة ، إلى النزعة الشعرية الملتهبة فأججت نارها ، ودفعتها إلى التغنى بذلك المجد، وإلى التشوف إلى ما ينتظرها من آمال جسام :

أبـت لى حمل الضيـم نفـس أبيــة   وقلـب إذا سيـم الأذى شـب وقــده
نمانـى إلى العليـــاء فـــرع تأثلت   أرومتــه فى المجــد وافتر سعـــده
وحسـب الفتـى مجدا إذا طلب العــلا   بما كــان أوصـــاه أبـــوه وجـــده
إذا ولـــد المولـــود، منـــا فـــدره   دم الصيـــد، والجرد العنـاجيج مهـــده
فإن عـــاش فـالبيـــد الـديـاميم داره   وإن مـــات فــالطير الأضـــاميم لحده

أصــدّ عن المرمى البعيــد تــرفعــا   وأطلب أمـــرا يعجـــز الطير بعـــده

* * *

وإنى امـــرؤ لـــولا العـــوائق أذعنت   لسلطـــانـــه البيـــد المغيرة والحضر
من النفــر البيض، الـــذين سيـــوفهم   لها فى حـــواشى كـل داجيـــة فجـــر
إذا استلّ منـــا سيـــد غـــرب سيفـــه   تفـــزعت الأفـــلاك والتفت الـــدهـــر

ومن هذا كـان أضخم شعر البارودى وأقـواه ، ما كـان فى الحماسة ووصف الوقـائع والفخر، فإذا تغزل أو وصف مجالس لهوه حاول الرقة فظفر بها :

غلب الـــوجـــد عليـــه فبكـى   وتـــولى الصبر عنـــه فشكـــا
وتمنـى نظـــــــرة يشفـى بها   غلـــة الشـــوق فكـــانت مهلكـــا
نظـــرة ضـم عليهـــا هـــدبـــه   ثم أغـــراهـــا فكـــانت شركـــا

* * *

هـل من فتـى ، ينشـــد قلبى معـى   بين خـــدور العين بـــالأجـــرع
كـــان معـى ثـم دعـــاه الهوى   فمـــر بـــالحى ولم يـــرجـع
فهل إذا نـــاديتـــه بـــاسمـــه   يفيـق مـن سكـــرتـــه أو يعـى

والبـارودى شاعـر أسلوب فحسب، يكتفى بجـرس الألفـاظ وموسيقـاها ورنينهـا، أما المعـانى والأخيلـة فليس له فيهـا من جديـد، وكأنه حينما حـاول محاكاة أسلـوب الأولين، أغرق فى محاكـاتهم فحاكاهم فى معانيهم وأخيلتهم، فلم يخلص له من المعانى المبتدعة إلا النزر القليل، والشأن فى معانيه وأخيلته شأن الحكم التى كان ينثرها فى غضون قصائده، فإنها مسبـوقة معادة، فالبارودى أشبه بمقلد الآثار الماهر، يصنع التمثـال ويدسه فى التراب ليظهر عليـه القدم، وهو يرى، أنـه إذا زاد فيه شيئا أو نقص فيه شيئا جاوز حدود الفن، وظهر للناس زيفه وخداعه . ويكفى مصر والشرق، أنهما ظفرا منه بعودة الشعر العـربى الصميم إلى حياته الأولى ، وبالقضاء على تلك الزخـارف اللفظية السمجة التى قضت على جماله الفطرى قرابة ثمانية قرون .

المرحوم أحمد شوقى بك

وهذا روض فسيح الجنبات، وسيم القسمات، ظليل الأدواح كريم النفحات، لن نستطيع إلا أن نقتطف منه زهرات قليلة ، تنم عن كريم منبته وطيب ثراه.

نشأ شوقى وفيه كل أدوات النبوغ والعبقرية. فطرة شعرية تتحدى الشبيه والنظير، وذكاء لامع نفاذ وأدب جم، ودرج فى بيت شريف الأرومة ، يعيش فى ظل الأسرة الخديوية . . .

أأخون إسماعيل فى أبنائه ... ولقد ولدت بباب إسماعيلا
ولبست نعمته، ونعمة بيته ... فلبست جزلا وارتديت جميلا

ثم إنه نال القسط الأوفى من الثقافة فى مصر وفرنسا، وأكثر من القراءة، وأكثر من الرحلة إلى بلدان أوروبا وبلدان الشرق، ويلتقط منها خير ما فيها من ثمر، وبعد أن اكتمل، وجاوز العشرين من عمره اتصل بالقصر، وأصبح شاعر القصر. وقصر قصائده فى أول الأمر على المناسبات كتهنئة الخديوى بالعيد أو برمضان أو بالقدوم من سفر، فإذا تجاوز هذا، تجاوزه إلى الغزل والإخوانيات، أو تمجيد دولة الأتراك. وكان شعره الغزلى فى طليعة شبابه بديعا رائعا. استمع له وهو يقول :

روعوه ، فتولى مغضبا ... أعلمتم كيف ترتاع الظبا ؟
خلقت لاهية ناعمة ... ربما روّعها مر الصبا
لى حبيب كلما قيل له ... صدق القول وزكى الريبا
كذب العذال فيها زعموا ... أملى فى فاتنى ما كذبا
لو رأونا والهوى ثالثنا ... والدجى يرخى علينا الحجبا
فى جوار الليل فى ذمته ... نذكر الصبح بأن لا يقربا

ملء بـــردينـــا عفـــاف وهـــوى　　حفـظ الحسـن وصنـت الأدبــــــــا

* * *

اللــه فى الخلـق من صب ومن عـــانى　　تفنى القلـــــوب ويبقى قلبك الجانـى
صـــونى جمالك عنـــا إننـــا بشر　　من التراب وهـــذا الحسن روحـــانى

وعلى الرغـم من اختصاص شـوقى بالقصر، فإن جمهـرة الأدباء والمثقفين كـانوا ينتظـرون شعره فى تشوف وشوق. ويتخطفـون الجرائد حينما تنشر قصائده فيتناولونها بالـدرس والحفظ، ويتناشدونها فى مجالس سمرهم. نعم إن شعر المنـاسبات ممجوج مملول، ولكن شوقى استطـاع مع تكرار الموضوع أن يجعل من كل قصيـدة باقة مختلفـة الأزهار، متعـددة الألوان، فيها غـزل وفيها وصف وفيهـا دعوة إلى المجد، وفيها أدب جديد وحكمة رائعة.

وبقى شوقى مقيدا بهذه الأغراض القليلة مدة اتصاله بالقصر؛ لأن منصبه الرسمى كان يمنعه من أن يجول فيما يجول فيـه النـاس، وأن يهتف بما يهتف بـه حـافظ وأمثـال حـافظ. وفى الحق، إن قـوتـه الشعرية كـانت معطلة، ونبوغه الفنى كـان مكبوتا، فلم يجد له متنفسا إلا فى الإشـادة بانتصار الترك على اليونان، وفى مثل القصيـدة التى قالها فى مؤتمر جنيفا، وهى ملحمة تاريخيـة ألم فيها بتاريخ مصر منذ القدم إلى عهدها الحاضر وهى فى نحو ثلاثمائة بيت. فلما انقطعت صلاته بالقصر، وأصبح حرا، غرد فوق كل فنن، وحام حول كل روض، وعبر عما يجول فى كل نفس، وكان شعره ـ كما يقول هو عن نفسه:

كـــان شعـرى الغنـــاء فى فـرح الشرق　　وكـــان العــــــزاء فى أحــــــزانه

غرد شـوقى طليقا فبهر مصر، وبهر الشرق، وأصبح اسمـه ملء الأفواه والمسامع. فقـد منصبه، فأولاه الشعر منصبا خالدا على الدهر، وفقد الاتصال بالأمير، فأصبح أميرا على الشعر والبيان، وارتحل شـوقى إلى الأندلس فى أثنـاء الحرب الماضية، فأثـارت مشاهـد الحضارة العـربية شـاعريتـه، وألهبت وجـدانه، وأيقظت شيطـان شعـره، فغنى بآثـار العـرب، ومجد العرب، ثم أكثـر من الحنين إلى مصر وأهلها، فهو يقول:

يـــا نـــائح الطلح أشبـــاه عـــوادينـــا　　نشجى لـــواديـك أم نأسى لـــوادينـــا؟
مــــاذا تقـص علينـــا غير أن يـــدا　　قصت جنـــاحك جـــالت فى حـــواشينـــا
رمى بنـــا البين أيكـــا غير سـامـرنـــا　　أخـــا الغـــريب: وظـــلا غير نـــادينـــا
أســــاة جسمـك شتى حين تطلبهـم　　فمن لـــروحـك بـــالنطس المداوينـــا؟
آهـــا لنـــا! نـــازحـى أيك بأنـــدلس　　وإن حللنـــــا رفيفـــا من روابينـــا

رسم وقفنا على رسم الوفاء له | نجيش بالدمع ، والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم | ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة | للناس كانت لهم أخلاقهم دينا

وعاد من الأندلس إلى مصر، واندمج فى غمار الأمة ، وزادت السن شعره قوة ونضجا . وكان شوقى أول أمره متعصبا للترك ، كثير التفاخر بهم فلما ألغوا الخلافة ، انصرف عنهم وقال يرثيها :

عادت أغانى العرس رجع نواح | ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه | ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك | فى كل ناحية وسكرة صاحى
ضجت عليك مآذن ومنابر | وبكت عليك ممالك ونواحى

ثم اتجه بعد هذا إلى التمسك بالمصرية ، فأكثر من القصائد فى مجد قدماء مصر، والإشادة بمدنيتهم :

خليلى اهبطا الوادى وميلا | إلى غرف الشموس الغاربينا
وسيرا فى محاجرهم رويدا | وطوفا بالمضاجع خاشعينا
وخصا بالعمار وبالتحايا | رفات المجد من توتنخمينا
وقبرا كاد من حسن وطيب | يضىء حجارة ويضوع طينا

وبعد حين رأى أن هذه النزعة قد تفرق بين مصر والأمم العربية ، فولى وجهه نحو الشرق ، وأخذ يغنى بمجد العرب ، ويحفز أممهم إلى النهوض ، فيقول فى دمشق :

سلام من صبا بردى أرق | ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق
دخلتك والأصيل له ائتلاف | ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جناحك الأنهار تجرى | وملء رباك أوراق وورق
وحولى فتية غر صباح | لهم فى الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء لسن | وفى أعطافهم خطباء شدق

على أن شوقى كان رجلا واسع الأفق، متدفق العاطفة ، لا تنحصر عواطفه فى بلد أو أمة ، بل تفيض فتشمل الناس جميعا .

بكى باريس فى محنتها أيام الحرب الماضية ، وطوكيو حينما أصابها الزلزال ، وأشاد بمجد روما ، ورثى نابليون وكارنارفون (Carnarvon) وكتشنر وفيه يقول :

أنتم القــــــوم حمى الماء لكم ... يـــرجع الـــورد اليكم والصـــدر
لجج الـــدأمــــاء أوطــــان لكم ... ومـن الأوطـــــان دور وحفـــــر
لست فى البحـــر وحيـــدا فـــاستضف ... فيـــه آبـــاءك تنــــزل بـــالــــدرر
ورســـــوا فيـــه كـــرامـــا وطفـــا ... طـــــائف النصر عليهم والظفــــــر

ثم إنه أعلى ذكر هول كين (Hall Caine) وتلستوى وفردى وهوجو وشكسبير، وفيه يقول :

أعلى الممالك مـــا كـــرسيـــه الماء ... ومـــا دعـــــامتـــه بــــالحق شماء
يـــا جيرة (المنـش) حـــلاكم أبـــوتكم ... مـــالم يطـــوق بـــه الأبنـــاء آبـــاء
ملك تطـــاول ملك الشمس، عـــزتـــه ... فى الغـــرب بـــاذخـــة فى الشرق قعســـاء
أعـــلاه بـــالنظـــر العـــالى ونطقـــه ... بحـــائط الـــرأى أشيـــاخ أجـــلاء
وحـــاطـــه بـــالقنـــا فتيـــان مملكـــة ... فى السلم زهـــــر ربى فى الـــروع أرزاء

أمـا أسلوب شـوقى فمتين بطبعه، لا يتكلف فيـه الصقل والإجـادة فيأتى مصقولا جيـدا، وإن خفيت مراميـه أحيانا لتزاحم معانيه وبعـد خيالـه . وكان شوقى دقيق الحس فى اختيـار أوزان شعره مطـابقة للغـرض الذى يقـول فيـه ، ألم تر إلى قصـائده الثلاث التـى قالها فى وصف الليـالى الراقصـة بعابدين، فإن كل وزن فيها أشبه بالإيقاع الموسيقى المرقص .

حـــف كـأسهـــــــــا الحبـــب ... فهـــى فضـــــــــــــة ذهـــب

والتى يقول فيها فى وصف الراقصات :

والقصـــــــور مسرحهــــــا ... لا الـــــــرمـــــــال والعشـب
يستفــــــزهـــــا نغـم ... لا صـــــــــــدى ولا لجب
يستعــــــاد مــــــرقصــــه ... تــــــــــــارة ويقتضـــب
فــــــالقــــدود بــــان ربـى ... بيـــــــــــد أنها تثـــب
يلعـــب العنـــــــــــاق بها ... وهــــــــو مشفـــق حــــدب
فهـــى مـــــــرة صعـــــــد ... وهـــى مــــــــــرة صبـب
وهـــى ههنـــــا وهنـــــا ... تلتقــــــــى وتصطحـــــب

مثلما التقـــــــت أســـــــل أو تعـــــــــانقـت قضـــب
الـــــــرءوس مـــــــائلـــــة فى الصـــــــــدور تحتجــب
والنهـــــــود هـــــــامـــــدة والخدود تلتهـــــــــــــــب
والخصـــــــــور واهيـــــــة بـــــــالبنـــــات تنجـــــذب

واتجه شوقى فى أخريات أيامـه إلى نظم القصص التمثيلية ، فسما وحلق ، وفتح بابًا بهذه القصص لأفكاره وثقافته العالية الواسعة ، ووجـه الشعر العربى إلى الطريق التى كان يجب أن يسلكها من أكثر من ألف عام .

حافظ إبراهيم

يعد حافظ إبراهيم ، أول شاعر بمصر تحدث إلى الجماهير فاستثارها، واستحث عاطفتها وعبر عن آمالها، فلقد كان الشعر بالبارودى، وصبرى، وشوقى، فى أول أمره أرستقراطيا، لا يتناقله إلا خاصة المتأدبين، حتى ظهر حافظ ، وهو من غمار الشعب، ومن بين طبقاته المعوزة درج ونشأ، فنقل الشعر من مجالس الخاصة إلى محافل الشعب وسوامره، وقد وجد حافظ من توثب مصر إلى النهوض، ومن إطلاق الحرية للناس والجرائد، وجد من كل هذا فرصة سانحة لأن يرفع صوته مجلجلا، وأن يتخذ من شعره أداة للإصلاح الاجتماعى ولحفز الهمم :

أيها الشرقى شمر لا تنم — وانفض العجز، فإن الجد قاما
وامتط العزم جوادا للعلا — واجعل الحكمة للعزم زماما
وإذا حاولت فى الأفق منى — فاركب البرق، ولا ترض الغماما
سابق الغربى واسبق ، واعتصم — بالمروءات وباليأس اعتصاما

وهو فى هذا يقتفى آثار البارودى، الذى فتح الطريق لمن جاء بعده من الشعراء، ونقل الشعر إلى ذلك الميدان الفسيح، ثم هو من ناحية أخرى، رجل ديمقراطى النشأة والمربى والمنزلة، فهو يريد أن يجعل شعره مثله ديمقراطيا. وكان فى أول أمره يلتزم أغراض الشعر القليلة المعروفة، ولكنه بعد قليل ضاق بها صدره، فصاح يخاطب الشعر :

ضعت بين النهى وبين الخيال — يا حكيم النفوس يابن المعالى
ضعت فى الشرق، بين قوم هجود — لم يفيقوا، وأمة مكسال
قد أذلوك بين أنس وكأس — وغرام بظبية أو غزال

ونسيب، ومـــدحـــة، وهجـــاء ورثـــاء وفتنـــة وضـــلال
وحماس أراه فى غير شـــــىء وصغـــار يجر ذيـل اختيـــال
عشت مـــا بينهم مـــزالا مضـــاعـــا وكـــذا كنت فى العصـــور الخوالى
حملـــوك العنـــاء من حب ليلى وسليمى ووقفـــة الأطـــلال
آن يـــا شعـــر أن نفك قيـــودا قيـــدتنـــا بها دعـــاة المحـــال
فـــارفعـــوا هـــذه الكمائم عنـــا ودعـــونـــا نشم ريح الشمال

خرج حافظ من هذه الربقة الضيقة القاتلة، التى كانت تقصر الشعر على المدائح والمراثى والتهانى، وانطلق يقول فى السياسة والاجتماع والأخلاق، فهو يقول . . .

إن فينـــا لـــولا التخـــاذل أبطـــا لا إذا مـــا هموا استقلـــوا اليراعـــا
وعقـــولا لـــولا الخمـــول تـــولا هـــا لفـــاضت غـــرابـة وابتـــداعـــا
قـــد مللنـــا وقـــوفنـــا وبكـــانـــا حسبـــا زائلا، ومجدا مضـــاعـــا
وسئمنـــا مقـــالهم كـــان زيـــد عبقـــريـــا وكـــان عمـــرو شجـــاعـــا

ثم يقـول :

شمـــر، وكـــافـح فى الحيـــاة فهـــذه دنيـــاك دار تنـــاحـــر وكفـــاح
وانظـــر إلى الغـــربى كيف سمت بـــه بين الشعـــوب طبيعـــة الكـــداح
واللـــه مـــا بلغـت بنى الغـــرب المنى إلا بنيـــات هنـــاك صحـــاح
ركبـــوا البحـــار وقـد تجمـــد مـــاؤهـــا والجو بين تنـــــاوح الأرواح
يلقـى فتيهم الـــزمـــان بهمـــة عجب ووجـــه فى الخطـــوب وقـــاح
ويشق أجـــواز الفضـــاء مغـــامـــرا وعـــر الطـــريق لـــديـه كـــالصحصـــاح

على أنه لم يترك المديح والرثاء مرة واحدة، وكان له نفس طويل فى الرثاء، كقوله يرثى الملكة فكتوريا :

أشمـس الملـك أم شمس النهـــار هـــوت، أم تلك مـــالكـــة البحـــار
فطـرف الغـــرب بـــالعبرات جـــارى وعين اليـم تنظـــر للبخـــار
بنظـرة واجـد قلـق الـرجـاء
مـــلأت الأرض أعـــلامـــا وجنـــدا وشـــدت لأمـــة السكســـون مجدا
وكنـت لفألها يمنـــا وسعـــدا تـــرى فى نـــور وجهك إن تبـــدى
سعـود البـدر فى بـرج الهنـاء

درج حافظ، كما قلنا، فى بيئة رقيقة الحال، ومات أبوه وهو فى الرابعة من عمره فكفله خاله ثم تخلى عنه، فنشأ بائسا يطرق أبواب الرزق فتضيق به، حتى لحق بالمدرسة الحربية ثم عين ضابطا بالجيش فلم ينجح فيه وفصل من الخدمة، فعاد إلى بؤسه يعيش من الاتصال بالأغنياء وأبناء الأغنياء، ويتخذ من شعره وسيلة لحياته، لهذا ترى قدرا كبيرا من شعره يفيض بشكوى البؤس والشقاء :

ويا نوحا جنيت على البرايا ... ولم تمنحهم الود الصحيحا
علام حملتهم فى الفلك هلا ... تركتهم فكنت لهم مريحا
أصاب رفاقى القدح المعلى ... وصادف سهمى القدح المنيحا

* * *

ويا قدمى إن سرت بى لمذلة ... ولم ترتقى إلا إلى العز سلما
فلا تبطئى سيرا إلى الموت واعلمى ... بأن كريم القوم من مات مكرما

وطالما أنشأ القصائد الطوال فى الحث على معاونة الفقراء ومساعدة الأيتام وعلى إنشاء الملاجئ والمستشفيات، على أن عهد البؤس هذا، كان عهد شبابه أيضا، حين كان يغشى مجالس أبناء الأثرياء، ويتمتع بما فيها من لهو وعبث ومجون، فهو يقول :

فتية الصهباء خير الشاربين ... جددوا بالله عهد الغائبين
واذكرونى عند كاسات الطلا ... إننى كنت إمام المدمنين
وإذا ما استنهضتكم ليلة ... دعوة الخمر فثوروا أجمعين
رب ليل قد تعاهدنا على ... ما تعاهدنا، وكنا فاعلين
فقضيناه ولم نحفل بما ... سطرت أيدى الكرام الكاتبين

قضى الشاعر فى عهد البؤس نحو ثمانى عشرة سنة، وهو فى الحقيقة عهد ازدهار شعره، أطلق فيه حافظ سراح نفسه، فحلقت فى سماء البيان حرة طليقة، تغرد بأعذب الألحان، فكان من نعم الله على الشعر، أن يكون حافظ بائسا، وكان من منته على العربية والأدب أن يكون شاعرنا مكدودا مستجديا، حتى إذا ذهب عنه البؤس، وعاد إلى الوظائف فى سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف سكت، وأجبل إلا قليلا وطار غريد الشعر من قفص صدره، وغادره شيطانه حزينا محسورا.

كان طبعه الخوف وكأنه بعد أن ذاق مرارة الفاقة، وظفر آخر الأمر بوظيفة ضخمة المرتب بدار الكتب، خاف إن هو نطق أن تطير الوظيفة من يديه، وأن يعود إلى بؤسه كرة أخرى وقد مكث بالوظيفة نحو إحدى وعشرين سنة، حتى أحيل إلى المعاش وعادت إليه حريته طلب الشعر فلم

بجده، وحاول أن يقول فى بعض الإغراض الاجتماعية، كما كان يقول ويبدع فى قديم الزمان، فلم تطاوعه إلهة الشعر، وجاء شعره غثا سقيما، سمعه الناس مستنكرين آسفين، يترحمون على شعر حافظ وعلى أيام حافظ، ومن الشعر ما يجود بالهرم وتقدم السن، كشعر شوقى، ومنه ما ينحط ويضعف، كشعر حافظ والبارودى.

أما شعر حافظ، فكان شعر ديباجة وأسلوب، عنى فيه باللفظ والرنين الموسيقى فوق عنايته بابتكار المعانى والغوص وراء الأفكار البعيدة المنال، ولا عجب، فهو شاعر الجماهير كما أسلفنا، والجماهير لا تريد إلا النغم الرائع، والتعبير الذى يهز النفوس، ويستثير الوجدان، وقد اتخذ حافظ البارودى إماما له فى هذه الناحية، ألست تراه يخاطبه فيقول:

إمــام القـــوافى إن لى مستهـــامـــة	بمــــــدح ومـن لى فيك أن أبلـغ المدى
أعــرنى لمدحيـك اليراع الـــذى بـــه	تخط وأقــرضنى القــريـض المســددا
ومــر كل معنى فـارسـى بطـــاعتى	وكـل نفــــور منـــــه أن يتــــوددا

وكانت ثقافة حافظ الأولى محدودة جدا، فلم ينل منها إلا ما يعطيه التعليم الابتدائى، ولكن هبته الفطرية، وكثرة مطالعاته، ومجالسته العلماء والأدباء، جعلت منه شاعرا عربيا. على أنه لم يصل فى التمكن من اللغة وأصولها إلى ما يقارب المنزلة التى وصل إليها البارودى بثقافته العصامية، لذلك لم يسلم شعره من الخطأ، وكأن حافظا كان يحس هذا، فكان لا ينشر قصيدة، إلا إذا عرضها مرات على الأدباء ورجال اللغة، هذا يصلح له كلمة، وهذا يصحح أسلوبا، على أن شيئا ليس بالقليل من ذلك فرّ من نظرات الناقدين.

وثقافة حافظ فى اللغة محدودة أيضا، فهو إذا قورن بشوقى فى هذه الناحية، لا يعد شيئا، ومن هذا كانت معانيه مألوفة وخياله ضيق النطاق، وكان شعره فى جملته، أشبه بدروس الوعظ والإرشاد، منه بابتكار رأى أو دعوة إلى فكر جديد.

إسماعيل صبرى باشا

لو استطاع رسام ماهر أن يرسم لشاعر صورة بارعة، تتجلى فيها دقة الخيال وإرهاف الحس، وحدة الذوق، إلى لطف العاطفة وسرعة إدراك معانى الجمال، ما كانت هذه الصورة لغير إسماعيل صبرى.

فإنه جمع هذه الصفات جميعا، وهى التى جعلت من شعره مثالا للفن الرفيع، والأدب العالى. . نعم، إنه مدح ورثى، كما كان الناس يمدحون ويرثون، وكان شعره فى هذا الضرب لا يصور نفسه، ولا يعطى إلا لمحة خاطفة من الشاعر، ولكنه بعد أن تجاوز طور الشباب، نظم الشعر خالصا لوجه الشعر؛ لأن إلهة الشعر وحدها هى التى دفعته إلى الشعر، فغنى به ليطرب حينا، وليبكى على نغماته الحزينة أحيانا. فهو كالطائر الغرد فوق الغصون، قد يكون ما يصدع به مرة غناء، وقد يكون عويلا ونواحا.

أبكت تلكم الحمامة أم غنت ... على فرع غصنها المياد . . ؟

وإذا استطعنا أن نشبه الشعر بالفنون المادية، رأينا أن شعر صبرى من الفن الدقيق النقى، الذى تأنق فيه صانعه، وقضى الساعات الطوال فى اختيار أجزائه، وإجادة صقله، وإماطة أى عيب أو شبهة من عيب عنه. أليس هو الذى يقول:

شعر الفتى عرضه الثانى فأحرِ به ... ألا يشوه بالأقذار والوضر
فانقد كلامك قبل الناقدين، تحط ... ثانى النفيسين من لغو ومن هذر

ولعلى لم أخطئ، حينما قلت فى وصف شعره فى حفل رثاء:

أين ذاك الشعر الذى كنت تزجيه | فيسرى فى الأرض عرضا وطولا
قد سمعناه فى المزاهر لحنا | وسمعناه فى الحمام هديلا
وشممناه فى الكمائم زهرا | وشربناه فى الكئوس شمولا

وكان صبرى مقلا جدا، أكثر شعره مقطوعات قصيرة، وكان شديد التحفظ فى إذاعة شعره، لا يتناقله إلا طائفة قليلة من خلصائه، فهو شاعر أرستقراطى لا يتحدث إلى العامة ولا ينظم فى الشئون العامة إلا قليلا. ولعله كان يرى أن الشعر نوع من الترف الأدبى، وأنه مرآة لا تنقل إلا صورة من ينظر فيها، وقد كان كثير النظر فيها لنفسه وأحاسيسها، وحينما خرج عن هذا المنهج فى بعض شعره السياسى القليل، لم يجُد، ولم يحلق، وأبطأ عن غايته وخانه شيطانه. وربما كان فى قصيدته التى قالها عند خلع السلطان عبد الحميد بعض الحسن:

قل للبراكين كفى نحن فى شغل | ذا اليوم عنك ببركان البراكين
هل الجبال الرواسى، عندها خبر | بما تصدع من شم العرانين
وهل رأى النسر شيئا فى السماء حكى | ما هز يلدز من بأس الشواهين
قالوا لقد خر من صرح العلا وهوى | ذو السلطتين، ورب الكاف والنون
أهول بها صيحة فى الكون قاصفة | تزلزل الأرض من حين إلى حين

وله قصيدة على لسان فرعون، يتناقلها الناس، لأنها تغذى فيهم غريزة الكبرياء القومية، على أنها إذا قورنت بشعر صبرى الشخصى، لم ترجح لها كفة:

لا القوم قومى، ولا الأعوان أعوانى | إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة | منكم، بفرعون عالى العرش والشان
ولست جبار ذا الوادى، إذا سلمت | جباله تلك من غارات أعوانى
لاتقربوا النيل، إن لم تعملوا عملا | فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كدا دون مورده | أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن
وابنوا، كما بنت الأجيال قبلكم | لاتتركوا بعدكم فخرا لإنسان

أما جيد شعره وأرقه وأملحه، فهو كما قلنا الذى يعبر فيه عن نزعات نفسية، وهو شعر غنائى كله، رقيق النسج جيد الرصف، وكان يتحكم فى شاعرنا عاطفتان عنيفتان.. عاطفة الحب وعاطفة التبرم بالحياة والحنين إلى الموت. استمع له حين يغنى على وتر الحب، تجد شعره شعلة متأججة من الغرام وزفرة طويلة الأنين من الوجد:

يا آسر الحي، هل فتشت فى كبدى، وهل تبينت داء فى زواياها
أواه من حرق، أودت بأكثرها ولم تزل تتمشى فى بقاياها
ياشوق رفقا، بأضلاع، عصفت بها فالقلب يخفق ذعرا فى حناياها

حتى إذا أدركه يأس العاشق المعمود صاح فى حسرة وألم وهو يقول :

أقصر فؤادى ، فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ماكانا
ملا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
لهفى عليك ، قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

وقد غذّت ثقافته الأوروبية شعره بكثير من المعانى الجديدة، فاندمجت فيه دون أن تجنى على الخيال العربى، ودون أن تمس جمال الأسلوب العربى، وهذا هو التجديد الذى نحبه وندعو إليه، فإننا نعتقد أنه من المستطاع تطعيم الأدب العربى بالخيال والفكر الغربيين، دون أن يقضيا على مميزاته وخصائصه. استمع لصبرى فى قصيدته الغزلية الرائعة التى أدخل فيها كثيرا من المعانى الجديدة، دون أن يذهب بروعة العربية أو يحيد عن مذاهبها :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرّقت أهواءهم ثاراتهم فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى، وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده دون بعض واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدحمت سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها فى مائج بين لجَّين، عناء، وشقاء
شدة تمضى وتأتى شدة تقتفيها شدة هل من رخاء
ساعفى آمال أنضاء الهوى بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى، واجعلى قوم الهوى تحت عرش الشمس فى الحكم سواء
أقبلى ، نستقبل الدنيا، وما ضمنته من معدات الهناء
واسفرى، تلك حلى ما خلقت لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى، بين الندامى يحلفوا أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر إذا حدثنا ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى، من كان هذا ثغره يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء

لا تخاف شططـــــــا مـن أنفس | تعثـــر الصبــوة فيهـــا بـــالحيـــاء
راضت النخـــوة مـن أخـــلاقنـــا | وارتضـى آدابنــــا صـــدق الـــولاء
فلـــو امتـــدت أمـــانينـــا إلى | ملك ، مـــا كـــدرت ذاك الصفـــاء
أنـت روحـــانيـــة لا تـــدعـى | أن هــــذا الحسـن مـن طين ومـــاء
وانـــزعى ، عن جسمك الثـوب يبن | للمـــلا تكـــوين سكـــان السماء
وأرى الـــدنيـــا جنـــاحـى ملك | خلف تمثـــال مصـــوغ عن ضيـــاء

هذا غـزل عربى جديـد النزعة ، لـو حاولت تـرجمته إلى لغة أوروبيـة ، وجدت الأمر سهـلا هينا ، لتقارب معانيه وأخيلته من اتجاه الفكر الأوروبى .

وقد يتجه صبرى فى شعـره إلى نقد ما وصلت إليه أخـلاق الناس من رياء وملق ، وهـذا أثر نفسه الحساسة التى تكره الشر وتبغض الأشرار ، فهو يقول :

غـــاض مـــاء الحيـــاء من كل وجـــه | فغـــــدا كـــالح الجوانب قفـــــرا
وتفشـى العقـــوق فى النـــاس حتى | كـــاد رد الســـلام يحسب بـــرا
أوجـــه ، مثلما نشـــرت على الأجـــداث | وردا ، إن هـن أبـــــــــدين بشرا

وليس بعجيب أن ينعى صبرى على الناس هذا وغيره ، فقد كانت له نفس صافية كريمة وفية :

إذا خـــــانني خـل قـــديم وعقنى | وفـــوقـت يـــومـــا فى مقـــاتلـــه سهمى
تعـــرض طيـف الـــود بينى وبينـــه | فكسّر سهمـى ، فـــــانثنيـت ولم أرم

أما عاطفة الحنين إلى الموت ، فكثيرا ما ثارت فى نفسه فنطق بها شعرا يهز النفوس ويبكى العيون . .

يـــا مـــوت هـــا أنـــذا فخـــذ | مـــــا أبقت الأيــــــام منى
بينـــى وبينـــك خطـــــــــوة | إن تخطهـــــا فـــــرّجت عنى

* * *

إن سئمـت الحيـــاة فـــارجع إلـــــى الأرض تنم آمنـــا من الأوصـــاب
تـــــلك أم أحنى عليـك ، مـــــن الأم التـى خلفتـك لـــلأتعـــاب
لا تخف فـــــــالمات ليس بماح | منك إلا ، مـــا تشتكـى من عـــذاب
وحيـــاة المرء اغتراب فإن مـــات | فقـــد عـــاد ســـالما للتراب

ويقول فى موت الحياة :

مقـابـــر من مـــاتـــوا مـــواطن راحـــة	فـــلا تك إثـــر الهالكين جـــزوعـــا
وإن تبك ميتـــا، ضمـــه القبر فـــادخـــر	لميت على قيـــد الحيـــاة دمـــوعـــا

ومن أروع شعره الصوفى تلك المناجاة البديعة التى كلها أمل فى رحمة الله وطمع فى عفوه :

يـــارب ، أيـــن تـــرى تقـــام جهنم	للظـــالمين غـــدا ولـــلأشرار
لم يبق عفـــوك فى السمـــوات العـــلا	والأرض شبرا خـــاليـــا للنـــار
يـــــارب، أهّلنـــى لفضلـــك واكفنـــى	شطط العقـــول، وفتنـــة الأفكـــار
ومـــر الـــوجـــود يشـــف عنك لكى أرى	غضـــب اللطيـــف ورحمة الجبـــــار
يـــا عـــالم الأسرار حسبـــى محنـــة	علمـــى بـــأنـــك عـــــالم الأسرار

الشيخ محمد عبد المطلب

شاعر عربى صميم العروبة ، لم يخالط نسبه دخيل . فهو من قبيلة جهينة التى نزلت بالصعيد الأوسط أيام الفتح الإسلامى، ثم انتقلت فى عهد الفاطميين إلى سوهاج . وقد كان عبد المطلب يفاخر بهذه النسبة ويعتز بها ويقول :

أنا ابن الذين إذا ما انتموا ... فجاه رفيع ومجد تليد
بنوا المجد والجود فى كل جيل ... إذا أعوز الناس مجد وجود

وكأنه بعد أن شب وأحس بدبيب الشاعرية فى نفسه، اعتقد أنها أثر ذلك الإرث العربى الكريم فزاد تمسكا بالعربية وتعصبا لها، وصمم على أن يكون شعره صورة للحياة البدوية، وإن عاش فى ظلال المدنية وبين مبتدعيها. ولهذا عكف على الشعر الجاهلى يقرأه ويتفهمه ويستعير أساليبه ومناحيه، وهو فى هذه الناحية الشاعر الفذ الذى يشبه البارودى فى بدايته، وإن لم يشبهه فى نهايته لأن عبقرية البارودى كانت فوق عبقرية عبد المطلب، ولأن البارودى طرق أغراضا لم يتيسر بعضها لعبد المطلب. وقد أغرق شاعرنا فى محاكاة الأقدمين حتى أنك إذا سمعت بعض شعره تخيلته أعرابيا فى شملته ينتجع منابت العشب خلف ناقته وأنه لم يمر به من طيوف الحضارة خيال . استمع له وهو يتحسر لفراق حبيب :

جد المسير بها فشط مزارها ... ونأت فأين من المحب ديارها
كيف السبيل لمن تربع أهلها ... بيداء تعيى الناجيات قفارها
فقف المطىّ على معاهدها التى ... كانت لغيرك لا يطيب قرارها
يا دارها إن أنجدت أصحابها ... فالأرض تحسد نجدها أغوارها
فلأرمين لها الفجاج بجسرة ... يطوى الفيافى والربا تسيارها

لهذا اشتهر بين الناس بشاعر البادية وكان يزهى بهذا اللقب، وكان حماة الشعر فى مصر يرون من الخير أن يظهر بين الشعراء من يتعصب للمذهب القديم وينحو منحى العرب كعبد المطلب، بعد أن كادت تطغى المدنيات على خصائص الشعر العربى وأخيلته، وبعد أن قام فريق هدّام من المجددين يعيث ويسخط على كل قديم. فكان لشعر عبد المطلب أثر يشبه أثر جبهة المعارضة فى البرلمان.

ولد شاعرنا سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وألف بقرية بصونة، إحدى قرى مديرية جرجا من أسرة رقيقة الحال وكان أبوه تقيا متصوفا فورث منه نزعته الدينية القوية، وزادها نموا وصلابة أنه تربى بالقاهرة بدار شيخ الطريقة الخلوتية ودرس بالأزهر نحو سبع سنين. وتظهر هذه الغيرة الدينية فى كثير من شعره:

فيأيها الباكي وقد ظن أنه	أسال عيونا أو أذاب قلوبا
بكيت بوادٍ ما به اليوم راحم	تراه إلى ما ترتجيه مجيبا
كأنك دين الله فى مصر باكيا	وقد صار بين المسلمين غريبا
تضعضع أهلوه وصوح نبته	وأمحل ما قد كان منه خصيبا

ولقد راعته دعوة المرأة إلى السفور. ونبذ الحجاب، وهاله ما صحب هذه الدعوة أول أمرها من تبرج النساء وتقصير ثيابهن واتخاذهن النقاب الشفاف فقال:

ما لابنة الخدر المصون	وربة المجد الأثيل
أودى شفيف نقابها	بكرامة الأم البتول
وعلا رنين حجولها	أسفا على الذيل الطويل
فإذا مشت هتك النقاب	محاسن الوجه الجميل
وجلا المقور تحته	رخصا من الصدر الصقيل
تهتز عجبا بالقوام	اللدن والخصر النحيل
ولقد ينم عبيرها	فتشمه من نحو ميل
يسرى فتعترك الصبا	سبقا إليه مع الشمول
أهى التى فرض الحجا	ب لصونها شرع الرسول
جعل الحجاب معاذها	من ذلك الداء الوبيل
يا منزل القرآ	ن نور للبصائر والعقول
عميت بصائر أهل وادى	النيل عن وضح السبيل

هكذا كان عبد المطلب المتحرج المتزمت يسخط ويصخب على قصر ثياب الفتيات ورقة نقابهن،

ولكن القدر الساخر أملى لشاعرنا فى العمر حتى رأى هذا النقاب الشفاف وقد نبذ مرة واحدة، ورأى الفتاة وهى تشارك الفتى فى كثير من شئون الحياة. وكان تعصبه للدين لا يقل عن تعصبه للعربية، فهو يريدها صفية نقية من كل لون من ألوان المدنية يحاول أن يطغى على بعض ألفاظها أو أن يغير على البديع من أساليبها، أو يحيد بشعرها عن سبيله العربى القويم. فكان يحمل على المجددين فى اللغة الذين يسخطون على القديم ويحاولون إنشاء أدب جديد ويقول :

نـزعـوا إلى دنس الإبـاحـة فـانجلى	للنـاس ذاك المنـزع المرذول
مـازوا الجديـد من القـديم ومـا دروا	أن الجديـد من القـديم سليل

وتخرج عبد المطلب من دار العلوم وعين مدرسا بالمدارس الأميرية بمرتب ضئيل، لهذا استطاع أن يصف ما يلاقيه المدرس من الكد والعنت، ومن الفقر وشدة الحاجة :

بنى مصر مـا بـال المعلم كـاسفـا	يـرى النـاس فيهـا يكبرون ويصغـر
سبيـل النبيين الكـرام سبيلـه	يعم بـه الـدنيـا الصـلاح فتعمـر
سلـوا عنه جنح الليـل كم بـات متعبـا	تنـام حـواليـه النجـوم ويسهـر
سلـوا عنه جسها بـات بـالسقم نـاحـلا	فـلا البرء مـأمـول ولا هـو يعـذر
سلـوا عنـه أسفـارا قضى الليل بينهـا	غـريبـا عن الـدنيـا وأهلـوه حضر
سلـوا عنـه قلبـا بـات يخفق رحمة	على فتيـة مـن حـولـه تتضـور
سلـوا عنـه إخـوانـا قضى العمـر بينهم	غـدوا فى ثـراء وهـو بـالفقـر أخبر

وكان لنشأته الأولى وقد قضاها فى بؤس وحاجـة، ولحياته الأخرى، وكانت عيشته فيها تقرب من عيشة الكفاف، أثر فى عطفه على كل بـائس مسكين، يخفى فقره بـالتعفف ويصون وجهـه من ذل السؤال :

وارحمتـا للكـريم يشكـو	نـوائب العيـش أم يـداری
إذا دعـا الصبر لم يجبـه	وحـولـه جـائع وعـارى
هـذاك يشكـو الطـوى لأخـرى	ألصقهـا البرد بـالجدار
وصـاحب البيت بين هـذى	وذاك فى لـوعـة ونـار
يقـول يـارب عيل صبرى	فهـل درى مـا لقيت جـارى
هيهـات هيهـات وفـولاءِ	بنعمـة العيـش واليسـار

وطائفة كبيرة من شعـره فى المدائح والمراثى والتهانى، ولكنه على الرغم من ذلك لم يكـن غافلا عن وصف ماحولـه من الحوادث أو ما كان يجيش بصدره من آلام وآمال، فقـال كثيرا من الشعر السياسى.

ونظم قصيدة فى سيرة على بن أبى طالب تربو على مائتى بيت، وقصيدة فى وصف الحرب الماضية طويلة الذيول، وكان شديد الزهو بمصر وبمدنيتها القديمة ، يتخذ من ذلك ذريعة للاعتزاز بأمته والمباهاة بها بين الأمم وإقامة الحجة على من يفرق بين عناصرها، فهو يقول :

رويدك إنا فى العلا يوم ننتمى ... كلانا أبو النيل أو أمه مصر
لنا ذروة المجد الذى تحت ظله ... تناسلت الأحقاب واعتصم الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمها ... حديث الليالى فهى فى فمها ذكر
ملأنا بلوح للوجود مناقبا ... إذا ما خلا عصر تلاها به عصر

ثم يتسع له الأفق فيفخر بالشرق العربى كله حيث يقول :

هو الشرق مجلى النيرات ولم يزل ... ضياء على الدنيا من الشرق يبلج
ومبعث رسل الله للناس رحمة ... تسن الهدى للمهتدين وتنهج
ومهبط أملاك السماء عليهم ... تنزل بالذكر الحكيم وتعرج
ومازال منا كل أروع سابق ... بسيرته الأيام تشدو وتلهج

وقليلا ما كان الشيخ يجيد وصف مبتدعات الحضارة لضيق مدى خياله فى هذه الناحية ثم لضيق ذات يده من الثقافة العلمية، فهو إذا وصفها لم يبعد عن خياله العربى، استمع له فى وصف طيارة :

يا أخت سابحة النجو ... م وبنت سانحة الضمير
من عهد آدم لم تزل ... عذراء مسبلة الستور
بكرا تقلبها أكف الغيب ... ب فى كف الدهور
حتى جلتها للعيو ... ن منصة العهد الأخير
أفأنت وافدة البخا ... ر على الأجادل والنسور؟
ما هذه الورق التى ... فى الجو تعلو فى الهدير
غيرى من الأطيار فى ... أحشائها لهب السعير
ترد السحاب الغر إن ... ورد الحمام إلى الغدير
خشعت لها هوج العوا ... صف فى الرواح وفى البكور

وأين هذا من قصائد شوقى فى الطيران التى لم تترك معنى لقائل أو مستزاد لمستزيد. . . ؟

ولم يطرق الحب قلب الشيخ فيما نعلم، لذلك كان غزله صناعيا تقليديا، ولكنه قد يجىء فى بعض الأحيان رقيقا حلوا على الرغم من بدوية عبد المطلب وخشونته :

صب بـــه ذهبت شجـــونـــه يبكى فتسعــــده جفـــونـــه
مستهــــدف لفنــــونـــه جهـــلا فحـــاق بـــه فتـــونـــه
يمســـــى ويصبـــــح فى الحنين وليس ينفعــــــه حنينــــه
لـــو شـــاء كتمان الصبـــا بـــة أعـــربت عنهـــا عيـــونـــه
يـــا قلـب صـن عهــــد الهوى لا كـــان قلـب لا يصـــونـــه

وشعر عبد المطلب كما تلى عليكم، عـربى الديباجة يتعصب للأسلـوب العربى أشد التعصب، ويميل إلى اللفظ الجزل والرنين البدوى، وأخيلته ومعـانيه كلها منقولة لم يولـد منها عبد المطلب خيالا جديدا أو معنى جديدا، فهو صورة شمسيـة للشعر القديم، وضعت فى إطار من الأغراض الحديثة لم يذهب بشىء من قدمها، ولم يغير من جمالها الصحراوى إلا قليلا .

ولى الدين يكن بك

نفس قوية الإحساس رقيقة العاطفة ، دهيت فى أول نشأتها ببعض الكوارث فانصرفت عما فى الحياة من جمال وروعة ، وعما فى الكون من مظاهر تبعث السرور وتفيض بألوان البهجة والمرح ، إلى النظر فى جوانب الحياة القاتمة التى لا يكاد ينفذ إليها شعاع من أمل حتى تعصف به رياحها العاتية . فهى نفس متشائمة متطيرة لا ترى فى الغمامة السوداء حافتها الفضية ، ولا فى الشر العابس ما قد يتضمنه من خير. ناءت بأعباء الحياة وناءت بها أعباء الحياة ، ونظرت إلى الشاطئ البعيد فهو يقول :

سقى الله دارًا بالقرافة ديمة   ترف على قوم هنالك هجد
أحن إلى تلك المراقد فى الثرى   ولو أستطيع اليوم لاخترت مرقدى
فأنزلت جسمى منزلا لا يملنه   يكون بعيدا عن أعاد وحسد
وما يتمنى الحر من ظل عيشة   تمرُّ لأحرار وتحلو لأعبد

ويقول :

يريد الناس فى الدنيا هناء   ويأبى أن يجود به الزمان
حياة حاربتهم منذ كانت   وجد حاربوه منذ كانوا
وآمال تغرهم عجاف   وأحداث تكذبها سمان
تكاثرت الخطوب فلا يراع   يوفيها الشكاة ولا لسان
أمانا أيها الخصم المعادى   إذا دان العدا وجب الأمان
أإن رغبوا إليك رغبت عنهم   لقد هانت رغائبهم وهانوا
يمنى الناس بعضهم بخير   ألا كذبوا على بعض ومانوا
فما للخير فى الدنيا أوان   ولا للخير فى الأخرى أوان

وهكذا يثور به مزاجه العصبي، وما منى به من آلام فيسخط على الحياة، وينفى وجود الخير فى الدنيا والآخرة. وهو فى هذه الناحية يشبه أبا العلاء المعرى فى بعض ثوراته على الناس والزمان، وهذه الحال فطرية زادها ما أصاب شاعرنا من أحداث وصروف قوة وتمكنا. فقد ولد بإستامبول سنة ثلاثة وسبعين وثمانمائة وألف، وقدم به أبوه مصر، ولم تمض على الشاعر الصغير ست سنوات حتى فقد أباه فكفله عمه. واليتيم إذا كان قوى الإحساس مرهف العواطف وجد فى فقد الوالد ألما لا يجده سواه، ورأى الدنيا وهى خالية من ذلك الحنو الطبيعى الحلو صحراء مقفرة كلها شمس محرقة وأرض جرداء إلا من الشوك والقتاد. يضاف إلى هذا ما حل بشاعرنا من الاضطهاد أيام حكم السلطان العثمانى عبد الحميد، فقد نفى إلى سيواس وأقام بالنفى سبع سنوات. ثم ما أصابه من الداء العضال الذى كدر عليه الحياة وجعلها جحيما أرضيا لا تنتهى له آلام، والذى كان سيفا مصلتا فوق رأسه، كما أخبرنى بعض أصدقائه ـ يوشك أن يطيح ـ استمع لما يقوله من منفاه:

يا ليل هذا ساهر قلق ... يرعى النجوم وقومه هجعوا
هل فيك ذو شجن يشاركنى ... أشكو له ما بى فيستمع
سرت الهموم فبت أدفعها ... وإذا هومى ليس تندفع
من بات تدمع عينه أسفا ... فأنا فؤادى بات يدمع
أشفقت من دهرى على أملى ... واليوم أنظر كيف ينقطع
ويلى عليه وهو يخدعنى ... أدرى حقيقته وأنخدع

ويقول:

فؤاد دأبه الذكر ... وعين ملؤها عبر
ونفس فى شبيبتها ... وجسم مسه الكبر
وآمال مضيعة ... ووقت كله هدر
أما يا ليل من صبح ... لمن سهروا فينتظر؟
جفون الناس هاجعة ... وجفنى ضاقه السهر
إذا صور تولت منك ... عنى أقبلت صور
وحيدا فيك ذا حذر ... يكاد يخوننى الحذر
فلا كتب أسامرها ... إذا ما ساقنى السمر
ولا نظم ولا نثر ... وقد نظموا وقد نثروا
أرى «سيواس» تغمدنى ... كأنى صارم ذكر
صدئت بها وأحسبنى ... سأصدأ ما جرى العمر

ويقول فى وصف مرضه الذى مات فيه :

وضنى لبست ثيابه زمنا ... فلبثت لا أقضى ولا أشفى
حول تكامل فى مراراته ... قد خلته من طوله ألفا
فأشلّ نصف الجسم حين مضى ... ورمى إلى عواده النصفا

* * *

يا مسغب الأجناد قد ... أشبعت ساغبة النسور
إن الثلاثين التى ... مرت بنا مرالعصور
وهبتك تجربة الأمو ... ر فعشت فى جهل الأمور
من كان يدعوك الخبيـ ... ـر فلست عندى بالخبير

أما الشطر الذى قضاه بمصر فصرفه فى شبه عزلة عن الناس، وشغله بنظم الشعر فى الحنين إلى إستامبول والتغنى بمصر ، وفى الغزل الرقيق والرثاء، وفى شكوى الداء.

وأسلوب ولى الدين أسلوب جديد، يعتى فيه بالمعانى أكثر من عنايته باللفظ، وكان لثقافته العالية وإتقانه اللغتين التركية والفرنسية وإلمامه بالإنجليزية أثر واضح فى غزارة معانيه وحدة أخيلته.

ومن معانيه الرائعة فى الغزل :

إن تكن قد خلقت للتيه أهلا ... فأنا قد خلقت للصبر أهلا
لك عندى عقدان دمعى وشعرى ... فتخير والدمع لا ريب أعلى
كدت أنمو الحهال ظلك فى الأر ... ض ولكن لا يطبع النور ظلا

ورقة عاطفته جعلته فى الرثاء مجيدا سباقا، قال يرثى إدوارد السابع ملك الانجليز :

بكى (التايمز) صاحبه المفدى ... فجاوبه هنا هرم ونيل
وبات البحر جف له عباب ... وبات البر سلن به سهول
هناك السابحات لها زفير ... وثم السابقات لها صهيل
قضى إدوارد عن مجد أثيل ... ويبقى بعده المجد الأثيل
فإن ثكلته أمته لحين ... فإن بمثله الدنيا ثكول
وإن طال الحمام إلى علاه ... فثم الهضب تغمرها السيول

ومات ولى الدين من جراء دائه القاتل سنة إحدى وعشرين وتسعمائة وألف ، وقد وجدت ورقة قرب سريره كتب فيها :

يا جسدًا قد ذاب حتى امحّى ... إلا قليلا عالقا بالشقاء
أعانك الله بصبر على ... ما ستعانى من قليل البقاء

التراث الشعرى والنثرى واللغوى
للأستاذ على الجارم

الشعر

١ ـ ديوان على الجارم : طبعة حديثة فى جزئين فى مجلد واحد .

نشر دار الشروق . الطبعة الثانية ١٩٩٠ .

٢ ـ مختارات من شعر على الجارم : إعداد دكتور أحمد على الجارم .

الطبعة الأولى ١٩٩٥ .

* * *

القصص النثرى الأدبى والبحوث والمقالات الأدبية

١ ـ سلاسل الذهب : القصص الأدبى التاريخى الكامل .

نشر دار الشروق ١٩٨٩ . ويشتمل على روايات :

١ ـ فارس بنى حمدان

٢ ـ الشاعر الطموح

٣ ـ خاتمة المطاف

٤ ـ قصة العرب فى إسبانيا . (مترجم عن الكاتب الإنجليزى ستانلى لين بول) .

٥ ـ شاعر ملك

٦ ـ هاتف من الأندلس

٧ ـ الفارس الملثم

٨ ـ مرح الوليد

٩ ـ سيدة القصر

١٠ ـ غادة رشيد

٢ ـ جارميات : يحتوى على بحوثه ومقالاته الأدبية . دار الشروق الطبعة الثانية ٢٠٠٠م .

* * *

كتب علمية بالاشتراك مع الأستاذ مصطفى أمين

١ ـ علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم : دار المعارف للطباعة والنشر.

٢ ـ النحو الواضح (ابتدائى) أجزاء ١ ـ ٣ : دار المعارف للطباعة والنشر .

٣ ـ النحو الواضح (ثانوى) أجزاء ١ ـ ٣ : دار المعارف للطباعة والنشر.

٤ ـ البلاغة الواضحة : دار المعارف للطباعة والنشر .

٥ ـ دليل البلاغة الواضحة : دار المعارف للطباعة والنشر .

* * *

شرح كتب التراث

١ ـ شرح كتب البخلاء للجاحظ : بالاشتراك مع الأستاذ أحمد العوامرى . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ .

٢ ـ شرح كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمؤلفه محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى : بالاشتراك مع الأستاذ محمد عوض إبراهيم . نشر دار المعارف للطباعة والنشر .

٣ ـ شرح كتاب المكافأة لمؤلفه أبى جعفر أحمد بن يوسف الكاتب : بالاشتراك مع الأستاذ أحمد أمين . المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤١ .

٤ ـ شرح ديوان البارودى جزء ١ ، جزء ٢ : بالاشتراك مع الأستاذ محمد شفيق معروف . نشر دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٧١ .

* * *

مراجعة ترجمة قصص عالمية

١ ـ قصة ترويض النمرة : تأليف وليم شكسبير ترجمة الأستاذ إبراهيم رمزى . راجعها بالاشتراك مع محمد فهيم بك والأستاذ محمد مظهر سعيد . نشرتها دار المعارف العمومية ١٩٣٣ .

طباعة دار الطباعة الأهلية شارع الفجالة . الرقم فى دار الكتب : ز١٢٧٦٩ .

٢ ـ قصة البخيل لموليير : ترجمة الأستاذ محمد مسعود . وقام بمراجعتها بالاشتراك مع الأستاذ على عبدالواحد . نشرتها وزارة المعارف العمومية ١٩٣٣ . طبع دار الطباعة الأهلية . الرقم فى دار الكتب : ز ١٢٧٨٠ .

* * *

كتب دراسية اشترك فى تأليفها

١ ـ كتاب تاريخ الأدب العربى : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندرانى ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف .

فى أربعة أجزاء للمدارس الثانوية . نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر. مطبعة دار المعارف ١٩٤٢ . الرقم فى دار الكتب : ز١٤٥٧ .

٢ ـ كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى : مقرر للسنة الثالثة بالمدارس الثانوية . بالاشتراك مع الأساتذة : طه حسين ، أحمد الإسكندرى ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف .

نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر . طباعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ . الرقم فى دار الكتب : أدب ٨٣٣١ .

٣ ـ كتاب المفصل فى تاريخ الأدب العربى : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندرى ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف . نشر وزارة المعارف العمومية . طبع مطبعة مصر ١٩٣٤ .

٤ ـ كتاب المنتخب من أدب العرب: بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد الإسكندرى ، أحمد أمين ، عبدالعزيز البشرى ، دكتور أحمد ضيف ، نشر دار المعارف بمصر .

٥ ـ كتاب المطالعة التوجيهية : بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد أمين ، محمد أحمد جاد المولى ، السباعى السباعى بيومى ، أحمد زكى صفوت . نشر دار المعارف بمصر .

٦ ـ كتاب التوجيه فى الأدب العربى : للسنة الخامسة التوجيهية بأقسامها الثلاثة . بالاشتراك مع الأساتذة : محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو بكر إبراهيم ، محمد السيد عمر ، عبده زيادة عبده ، حسنين حسن مخلوف . الطبعة الأولى ١٩٣٨ . نشر مطبعة المعارف ومكتبتها . الرقم فى دار

الكتب : زمن ١٢٨٦٢ إلى ١٢٨٦٦ و١٢٩٨٠ .

٧ - كتاب تاريخ الأدب العربى : لتلاميذ السنتين الأولى والثانية للمدارس الثانوية . بالاشتراك مع الأساتذة : أحمد أمين، أحمد ضيف، أحمد الإسكندرى ، عبد العزيز البشرى . وزارة المعارف العمومية . طبع المطبعة الأميرية . الرقم فى دار الكتب : ز ١٩٩٠٠ .

* * *

كتب دراسية اشترك فى تأليفها وراجعها

١ - كتاب أدب الإسلام للمدارس الثانوية : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك فى تأليفه وراجعه : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . مطبعة المعارف ومكتبتها فى مصر ١٩٣٨ . الرقم فى دار الكتب : ب ٢٠٤١٨ .

٢ - كتاب أدب الإسلام للمدارس الثانوية بنات : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك فى تأليفه وراجعه . على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . نشر مطبعة دار الكتب المصرية لوزارة المعارف العمومية ١٩٣٨ . الرقم فى دار الكتب: ب ٢٦٧٢٥ .

٤ - كتاب أدب الإسلام للمدارس الزراعية المتوسطة ــ الجزء الأول والثانى : تأليف محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنى . اشترك فى تأليفه وراجعه : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . طبع وزارة المعارف العمومية . الرقم فى دار الكتب : ب ٣٥٣٩٩ .

٥ - كتاب تهذيب الأخلاق لمدارس الصناعات الأولية : تأليف : محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك فى تأليفه وراجعه . على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ١٩٣٨ . الرقم فى دار الكتب : ب ٢١١٥٥ .

٦ - كتاب تهذيب الأخلاق لمدارس الصناعات الابتدائية: تأليف : محمد أبو بكر إبراهيم ، مصطفى خفاجى ، على محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسى . اشترك فى تأليفه وراجعه : على الجارم ومحمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية ١٩٥٣ . الرقم فى دار الكتب : ب ٢٥٦٩٠ .

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٦٨٥ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى 8 - 0694 - 09 - 977 .I.S.B.N

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذا الكتاب

. . . وكما أن أثر الأدب والشاعرية قد جمَّل العبارات العلمية فى أسلوب الجارم ، لاحظت أن تخصصه الأول ، وهو علم النفس لم ينعزل عن طبيعته الأدبية حين يكتب فى موضع علمى أدبى : كما نرى فى أحد بحوثه المنشورة فى هذه المجموعة تحت عنوان : « المعارضات الشعرية » ؛ فإنه يمهد لهذا البحث بدراسة سيكولوجية عن المنافسة التى هى منشأ الشعور بالرغبة فى المعارضات . يقول صاحب الفصل الذى كتب فى كتاب علم النفس عن « الغرائز » : « غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية ، وهى فى الإنسان أبين منها فى الحيوان وأظهر أثرًا ، لأن الإدراك يزيدها قوة ، ويستحثها إلى البروز والظهور . وإذا كانت فى الحيوان غريزة عمياء ، تصدر عن دافع آلىّ ، ولا تتجه إلى غاية ، ولا تعمل إلا عملاً تسوقها إليه الفطرة من غير قصد ، فإنها فى الإنسان غريزة مبصرة متعمدة ، تعرف ما تأتى وما تذر ، وترمى إلى هدف منصوب ، وتركض لتناول القصب فى ميدان سباق الحياة » . وتظهر المنافسة فى أنواع الحيوان المنحط الإدراك فى التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به . . . هذا شىء مشاهد فى الحيوان لا مرية فيه ولاشك . . . أما غريزة المنافسة فى الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظلّ . . .

ويستمر عالم النفس الأديب إلى أن يصل إلى ربط غريزة المنافسة بغريزة المحاكاة ، وبغريزة الإحساس بالنقص . . . حتى ينتقل إلى موضوعه الأدبى العلمى . وليس هذا إلا مثالاً واحدًا مما نجده فى بحوثه التى يحتضنها علم النفس .

دكتور محمد مهدى علام